التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة حصرياً للناشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١/٩٢/ ٢٠٠٨)

٢٢٢
الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ)
التفسير الكبير: تفسير القرآن العظيم/ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)؛ تحقيق هشام عبدالكريم البدراني الموصلي.- إربد : دار الكتاب الثقافي ، ٢٠٠٨.
صدر على شكل ستة أجزاء
(...) ص.
ر.أ (٩٢ / ١ / ٢٠٠٨).
الواصفات:/ التفاسير//القرآن//القرآن الكريم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة © ٢٠٠٨م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

ISBN 978-9957-492-02-1 ردمك

دار الكتاب الثقافي
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن / إربد
شارع إيدون إشارة الإسكان
تلفون
(٧٢٦١٦١٦ - ٢ -٠٠٩٦٢)
فاكس
(٧٢٥٠٣٤٧-٢-٠٠٩٦٢)
ص .ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar- AlKitab
PUBLISHERS
Irbid - Jordan
Tel:
(00962-2-7261616)
Fax:
(00962-2-7250347)
P. O. Box: (211-620347)
E-mail:
Dar_ Alkitab1@hotmail.Com

دار المتنبي

دار المتنبي للنشر والتوزيع
الأردن – إربد – تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلإِمَامِ الْحَافِظِ الْعَلاَّمَةِ أَبِي الْقَاسِمِ

سُلَيمَانِ بْنِ أَحْمَدَ بنِ أَيُّوبَ الطَّبَرَانِيِّ

(٢٦٠-٣٦٠) مِن الهِجْرَةِ

ضَبَطَهُ عَلَى أَصْلِهِ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وعَلَّقَ عَلَيهِ

هِشَامُ بْنُ عَبدِالكَرِيمِ البَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

المجلد الرابع

دار الكتاب الثقافي

الأردن-إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الرَّعْدِ

سُورَةُ الرَّعْدِ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ إلاَّ آيَتَيْنِ ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ﴾ وقوله تعالى:﴿قُلْ كَفَى بالله شَهيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إلَى آخرِهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ:(هِيَ كُلُّهَا مَدَنِيَّةٌ). وَعَدَدُ حُرُوفِهَا ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَسِتَّةُ أحْرُفٍ، وَكَلِمَاتُهَا ثَمَانُمِائَةٍ وَخَمْسٌ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً، وَآيَاتُهَا ثَلاَثٌ وَأرْبَعُونَ آيَةً. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَمَنْ قَرَأ سُورَةَ الرَّعْدِ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بوَزْنِ كُلِّ سَحَابٍ مَضَى، وَكُلِّ سَحَابٍ يَكُونُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُوفِقِينَ بعَهْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ][1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى المر: أنَا اللهُ أعْلَمُ وَأرَى). وقولهُ تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) أي هذهِ آياتُ القرآن، وقولهُ تعالى: (وَالَّذِي أنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ ربكَ الْحَقُّ) هو القرآنُ أيضاً، وقال قتادةُ: (الْمُرَادُ بقَوْلِهِ (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَاب) الآيَات الَّتِي أنْزِلَتْ قَبْلَ الْقُرْآن مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَسَائِرِ الْكُتُب، وَالْمُرَادُ بـ (الَّذِي أنْزِلَ إلَيْكَ) الْقُرْآنُ)[2]، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ﴾ ؛ أي هو الذي رَفَعَ السَّموات، وأقامَها واقفةً على غيرِ عَمَدٍ تَرونَها أنتم كذلكَ بلا عَمَد، هكذا قال أكثرُ المفسِّرين، وعن ابنِ عباس في روايةٍ (بعَمَدٍ لاَ تَرَوْنَهَا، كَأنَّهُ قَالَ: بغَيْرِ عَمَدٍ

(١) في تخريج الكشاف للزيلعي؛ قال: (أخرجه الثعلبي من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب، وابن مردويه والواحدي بإسناد واه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٢٤٦ و١٥٢٤٨).

مَرْئِيَّةٍ)[1]. والأولُ أقربُ إلى الصحَّة؛ لأنه لو كان للسَّماء عِمَادٌ لكُنَّا نرى ذلك العمادَ، لأن مثلَ السموات في ثُقلِها وارتفاعها وعِظَمها لا يُقِلُّها عمادٌ إلاّ وقد يكون ذلك العمادُ جَسيماً عظيماً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ؛ تقديرُهُ: اللهُ الذي رفعَ السموات بغيرِ عَمَدٍ، ثم سخَّرَ الشمسَ والقمرَ وهو مستوٍ على العرشِ، لأنَّ استيلاءَ الله على الأشياءِ قدرتهُ عليها، وقدرةُ الله لا تكون مُحدَثَةً. وتسخيرُ الشمسِ والقمر إجراؤُهما لمنافعِ بني آدم، ومعنى السَّخْرِ أن يكون الشيءُ مَقهوراً لا يملكُ لنفسهِ ما يُخلِّصُه من القهر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ؛ إلى وقتٍ معلوم وهو وقتُ فَناءِ الدُّنيا، فإذا انْفَنَتْ الُدنيا كُوِّرَتِ الشمسُ وانكَدَرت النجومُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ؛ أي يقضِي القضاءَ، ويبعثُ الملائكة بالوحي، ويُنْزِلُ الرزقَ والأقضيةَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُفصِّلُ الآياتِ) أي يأتِي بآيةٍ في إثْرِ آيةٍ ليكون أمكنَ للاعتبار والفكر. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ ؛ أي لِتَسْتَيْقِنُوا بالبعثِ وبما وعَدَكم اللهُ به من الثواب والعقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ؛ بسطَها طُولاً وعَرضاً، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ ؛ أي خلَقَ فيها جِبالاً ثوابتَ أوتَاداً لها، ولو أرادَ أن يُمسِكَها من غير رواسي لفعلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ؛ أي وأجرَى فيها أنهاراً. قَوْلُهُ تَعَالَى:: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ؛ أي وخلقَ من جميعِ الثمرات من كلِّ شيءٍ لَونَين اثنين، وجعلَ فيها الحلوَ والحامضَ، والأسود والأبيضَ.

وقولهُ تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ ؛ أي يأتِي بالليلِ ليَذهَبَ بضياءِ النهار، فتسكُنَ الناسُ بالليل، ويأتِي بضياء النهار ليمحُوَ ظلامَ الليل فتصرفَ الناسُ فيه معايشَهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ ؛ في صُنعِ الله، فيستدِلُّون بذلك على توحيدهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٢٤٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ ؛ منها الجبلُ الصَّلبُ، ومنها الأرضُ الْجُرُزُ التي لا يمكن النباتُ عليها إلا بالمشقَّة، ومنها الأرضُ النَّجِسَةُ، ومنها الأرض الطيِّبة، وهذه الأراضِي في ذلك متجاوراتٌ ملتزقَةٌ، ﴿ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ ﴾ ؛ أي وبساتين من كُرُوم، ﴿ وَزَرْعٌ ﴾ ؛ ويجوزُ في القراءةِ (وَجَنَّاتٍ) على معنى: وجعلَ فيها جناتٍ، ومَن قرأ (وَزَرْعٌ) بالضمِّ فهو عطفٌ على القِطَعِ لأن الزرعَ لا يكون في الجنَّات، وقرأ العامَّة (وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ) بالكسر على المجاورة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ ؛ أي مجتمعٌ أصولُها في أصلٍ واحد، ونخيلٌ متفرِّق أصولُها، والصِّنْوَانُ جمعُ الصِّنْوِ، ويعني الصِّنوانُ أن يكون أصلٌ واحد تخرجُ منه النَّخلتان والثلاث والأربع كما وردَ في الحديثِ: [عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيهِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ ؛ إما المطرُ وإما النهرُ، ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ ، بعض أكلِها أفضلُ من بعضٍ في الطَّعم حتى يكون بعضُها حُلواً، وبعضها حامضاً، وبعضها مُرّاً، والترابُ واحدٌ، وألوانُ الثمر وطعمُها مختلفة، وذلك من الدليلِ على وحدانيَّة اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه الْمُحْدِثُ لها، واللهُ تعالى قديرٌ حكيم قد أحدثَها على علم منه بها،

وقال مجاهدُ: (هَذا مِثْلُ بَنِي آدَمَ، أصْلُهُمْ تُرَابٌ وَاحِدٌ، ثُمَّ مِنْهُمْ صَالِحٌ وَخَبيثٌ، وَكَامِلُ الْخِلْقَةِ وَنَاقِصُ الخِلْقَةِ، وَسَيِّءُ الْخُلُق)، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾ ؛ أي لعلاماتٍ دالاَّتٍ على وحدانيَّة الله، ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ إنَّ في ذلك من اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؛ معناهُ وإنْ تعجَبْ يا مُحَمَّدُ من تكذيب أهلِ مكة وإشرَاكِهم بالله مع ما

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٠ ص٧٢: الحديث (٩٩٨٥) عن ابن عباس، وج ١٠ ص٢٩١: الحديث (١٠٦٩٨) عنه. وفي مجمع الزوائد: ج ٣ ص٧٩: باب تعجيل الزكاة؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه إسماعيل المكي وفيه كلام كثير وقد وثق)). وأخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٨٥٨). وابن حبان في صحيحه: كتاب الزكاة: الحديث (٣٢٧٣) عن العباس، وإسناده صحيح، قاله الشيخ شعيب حفظه الله.

تقدَّمَ من الدلائلِ على توحيد اللهِ قولُهم عجبٌ عند العقلاءِ العارفين حيث قالوا: إذا كُنَّا تراباً أنُبعَثُ وتُرَدُّ فينا الروحُ بعدَ الموتِ والبلاء ؟! وإنما سُمي قولُهم (إذا كُنَّا تُرَاباً) أعجبَ؛ لأن البعثَ أسهلُ في القدرةِ مما بيَّن اللهُ لَهم؛ إذِ البعثُ إعادةٌ إلى ما كانَ، والإعادةُ أسهل في طِبَاعِ الآدميِّين من الإنشاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ أي تَغُلُّ أيْمَانُهم إلى أعناقِهم السلاسِلُ في النار، ويكون يسارُهم وراءَ ظهُورهم وهم مُصفَّدُونَ من قُرونِهم الى أقدامِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ؛ أي يستعجِلُونكَ بالعذاب الذي توعِدُهم به على وجهِ التكذيب والاستهزاءِ قبلَ الثواب الذي تعِدُهم على الإيمان، يعني مُشركي مكَّة سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ أن يأتِيَهم العذابُ استهزاءً منهم بذلك، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ ؛ العقوباتُ من الله في الأُمَمِ الماضية، والْمَثُلَةُ العقوبةُ في اللغة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ ؛ أي لذُو تجاوُز على الناس على ظُلمِهم لأنفسهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ ؛ لِمَن استحقَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ ؛ أي ويقولُ الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن: هَلاَّ نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه لنُبوَّتِه، يعنون الآياتِ التي كانوا يقترحونَها عليه نحو ما ذكرَ اللهُ تعالى من قولِهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾[٢] الى آخر الآيات.

يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ ؛ أي أنتَ يا مُحمَّد مُعَلِّمٌ بموضعِ الْمَخَافَةِ، وليس إنزالُ الآيات إليك، وإنما هو إلى اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ

---

(١) الأنفال / ٣٢ . (٢) الإسراء / ٩٠.

قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ مَن جعل هذه الواوَ للجمعِ فوصَلها بما قبلها كان تقدير الكلام: إنما أنتَ منذرٌ وهادٍ لكلِّ قومٍ. ومَن قطعَ هذه الواوَ كان المعنى: لكلِّ قومٍ هادٍ؛ أي نبيٌّ مثلُكَ يهديهم. وقال سعيدُ بن جبير والضحَّاك: (الْهَادِي هُوَ اللهُ)، والمعنى: أنتَ منذرٌ تُنْذِرُ، واللهُ هادي كلِّ قومٍ، يهدِي من يشاءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ ؛ يعني من علَقةٍ أو مُضْغَةٍ أو ذكرٍ أو أنثى أو كاملِ الْخَلْقِ أو ناقصِ الخلقِ أو واحدٍ أو اثنين أو أكثرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ﴾ ؛ أي وما تنقصُ من الأشهرِ التسعةِ في الحمل وما تزدادُ عليهما، فإن الولدَ قد يولدُ في ستَّة أشهر فيعيشُ، ويولد لسنتَين فيعيشُ، وقال الحسنُ: (وَمَا تَنْقُصُ بالسَّقْطِ، وَمَا تَزْدَادُ بالتَّمَامِ)[1]. والغَيْضُ هو النُّقصان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي بحَدٍّ لا يجاوزهُ ولا ينقص منه، ويدخلُ الولد فيه لأنه قد قَدَّرَ أجلَ حياتهِ وموته، وصحَّته ومرَضهِ، ونقصان عقلهِ وكماله، وقدَّرَ له ما جرَى من رزقٍ وما سيكونُ منه من طاعةٍ ومعصية وولدٍ وغير ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي عالِمُ ما غابَ عن العبادِ، وما علِمَهُ العبادُ. وَقِيْلَ: الغيبُ ما يكون، والشَّهادة ما كان. الكبيرُ: السيد الكامل المالِكُ المقتدرُ على كلِّ شيء، الْمُتَعَالِ عمَّا يقول المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي سواءٌ من أخفَى القولَ وكتَمَهُ، ومن جهرَ به وأظهرَهُ، فالسِّرُّ والجهرُ عند الله سواءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي ومن هو مُسْتَتِرٌ مُتوارٍ بالليلِ، (وسَاربٌ بالنَّهار) أي ظاهرٌ في الطُّرقات، عِلْمُ الله فيهم سواءٌ.

قال الزجاجُ: (مَعْنَى الآيَةِ: الْجَاهِرُ بنُطْقِهِ، وَالْمُضْمِرُ فِي نَفْسِهِ، وَالظَّاهِرُ فِي الطُّرُقَاتِ وَالْمُسْتَخْفِي فِي الظُّلُمَاتِ، عِلْمُ اللهِ فِيْهِمْ جَمِيعاً سَوَاءٌ). ومعنى السَّارب:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٥٣٣١) بألفاظ عديدة.

الظاهرُ بالنهار في سِربْهِ؛ أي في طَريقهِ وتصرُّفه في حوائجهِ، وعن قُطرب في: (مُسْتَخْفٍ بالَّليْلِ: أيْ ظَاهِرٍ، وَسَاربٌ بالنَّهَار: أيْ مُسْتَتِرٌ) يقالُ: سَرَبَ الوحشُ إذا دخل في كِنَاسِهِ، والأولُ أبْيَنُ وأبلغُ في وصفِ عالِمِ الغيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ ؛ أي للإنسان مُسَاوياتٌ، والكنايةُ في قولهِ تعالى (له) رُدَّ على من أسرَّ القولَ ومَن جَهَرَ به وهم الآدميُّون. وقال بعضُهم: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) أي للهِ تعالى ملائكةٌ يتعاقَبُون بالليلِ والنهار، فإذا صعَدت ملائكةُ الليلِ أعقَبَتها ملائكةُ النَّهار، وإذا صعَدت ملائكةُ النهار أعقبَتها ملائكةُ الليلِ.

وقولهُ تعالى: (مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) يعني من قُدَّامِ هذا المستخفِي بالليل والسَّارب بالنهار، ومِنْ خَلْفِهِ؛ أي وراءِ ظهره ملائكةٌ يحفظونَهُ من بين يديهِ ومِن خلفهِ، فإذا جاءَ القَدَرُ خَلَّوا عنه.

واختلَفُوا في الْمُعَقِّبَاتِ، قال بعضُهم: الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ؛ وهم أربعةٌ: ملكان بالليلِ وملَكان بالنَّهار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ ؛ أي بأمرِ الله حتى ينهوا به إلى المقادير، فيُخلُّوا بينه وبينَ المقادير، قال كعبُ الأحبار: (لَوْلاَ أنَّ اللهَ وَكَّلَ بكُمْ مَلاَئِكَةً يَذُبُّونَ عَنْكُمْ فِي مَطْعَمِكُمْ وَمَشْرَبكُمْ وَعَوْرَاتِكُمْ لَخَطَفَتْكُمُ الْجِنُّ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ ؛ أي لا يسلبُ قوماً نعمةً حتى يعملُوا المعاصِي، يعني بهذا أهلَ مكَّة، بعثَ فيهم رسولاً منهم، وأطعَمَهم من جوعٍ، وآمَنَهم من خوفٍ، فلم يعرِفُوا هذه النعمةَ وغيَّرُوها وجعلُوها لأهلِ المدينة(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٣٧٠). وفي الدر المنثور: ج ٤ ص٦١٤؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن جرير عن كعب الأحبار رضي الله عنه).

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٢٩٤؛ قال القرطبي: (أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أحُد بسببِ تغيير الرماة لأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة؛ فليس= معنى= =الآية أنه ليس ينزلُ بأحدٍ عقوبةٌ إلا بأن يتقدَّم منه ذنبٌ، بل قد تنزلُ المصائب بذنوبِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ ؛ أي إذا أرادَ اللهُ إنزالَ عذابٍ على قومٍ فلا دافعَ له، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ يتولاَّهم وينصرُهم، ويقال: من مَلْجَأ يلجؤُون إليه، والْمَوْئِلُ هو الْمَلْجَأُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ؛ أي خَوْفاً للمسافر أن يُؤذيهِ ويُبلَّ ثيابَهُ وطريقه فلا يمكنه السيرُ، وطمَعاً للمقيمِ أن يسقي حرثَهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي يخلقُ السحابَ الثِّقالَ بالمطرِ فيُجريَهُ في الجوِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ؛ رُوي أن الرَّعْدَ اسمُ ملَكٍ يزجرُ السحابَ يؤلفُ بعضَه إلى بعضٍ، وتسبيحهُ زَجْرُهُ للسحاب، قال عكرمةُ: (هُوَ كَالْحَادِي لِلإبلِ).

وعن ابنِ عبَّاس قال: (أقْبَلَتِ الْيَهُودُ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا أبَا الْقَاسِمِ نَسْألُكَ عَنْ أشْيَاء، فَإنْ أصبْتَ فِيهَا اتَّبَعْنَاكَ وَآمَنَّا بك، قَالَ: [اسْألُوا] قَالُوا: أخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ، قَالَ: [مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُوَكَّلٌ بالسَّحَاب، مَعَهُ مَخَاريقَ يَسُوقُ بهَا السَّحَابَ حَيْثُ يَشَاءُ اللهُ] قَالُوا: صَدَقْتَ، فَمَا الَّذِي يُسْمَعُ ؟ قَالَ: [زَجْرُ السَّحَاب إذا زَجَرَهُ الْمَلَكُ] قَالُوا: صَدَقْتَ)[(١)].

وقال عطيَّةُ: (الرَّعْدُ مَلَكٌ وَهَذا تَسْبيحُهُ، وَالْبَرْقُ سَوْطُهُ الَّذِي يَزْجُرُ بهِ السَّحَابَ، يُقَالُ لِذلِكَ الْمَلَكِ: رَعْدٌ، وَلِصَوْتِهِ: رَعْدٌ). وقالَ أبو هريرةَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: [سُبْحَانَ مَنْ يُسَبحُ الرَّعْدُ بحَمْدِهِ][(٢)]، وكان ابنُ عبَّاس إذا سَمِعَ الرعدَ قالَ: (سُبْحَانَ الَّذِي سَبَّحْتَ لَهُ).

=الآية أنه ليس ينزلُ بأحدٍ عقوبةٌ إلا بأن يتقدَّم منه ذنبٌ، بل قد تنزلُ المصائب بذنوبِ الغيرِ؛ كما قال ﷺ وقد سُئِلَ: أنهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: [نَعَمْ، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ].

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٦٢٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد والترمذي وصححه، والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل...)) وذكره شطر حديث طويل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٣٧٩).

قال ابنُ عبَّاس: (مَنْ سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ فَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فَإنْ أصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ فَعَلَيَّ دِيَتُهُ)[١]. وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ كَانَ إذا سَمِعَ الرَّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ قَالَ: [اللَّهُمَّ لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذلِكَ][٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ ؛ يعني ويُسَبحُ الملائكةُ من خِيفَةِ اللهِ وخشيَتِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يرسلُ النِّيرانَ التي تسقطُ من الغيُوم فيحرقُ ما تقع عليه نيران البرق، فيُهلِكُ بها من يشاءُ من خلقهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي الكفارُ يخاصمون في اللهِ وفي إثبات شريكٍ معه، ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي شديدُ القوَّة والعقوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي له كلمةُ الإخلاص، شهادةُ أن لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أي آلِهتُهم، ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ ما يستجيب ﴿ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ ﴾ يدعوهُ لعطشهِ مُشِيراً مُريداً بإشارتهِ أن، ﴿ لِيَبْلُغَ ﴾ الماءُ، ﴿ فَاهُ وَمَا هُوَ ﴾ أي وليس الماءُ، ﴿ بِبَـٰلِغِهِۦ ﴾ ومن الْمُحَالِ أن يُجيبه بإشارتهِ، وإنْ كان الماءُ في بئرٍ، أو ماءٍ على بُعْدٍ نهرٍ أبعدُ في الإحالة، وكما لا يبلغُ الماءُ فَمَ هذا الرجلِ ولا يجيبهُ وإن ماتَ من العطشِ،كذلك لا ينفعُ الصَّنم لِمَن عبدَهُ بوجهٍ من الوجوهِ، قال عطاءُ: (مَعْنَاهُ كَالرَّجُلِ الْعَطْشَانِ الْجَالِسِ عَلَى شَفِيرِ الْبئْرِ، يَمُدُّ يَدَهُ فِي الْبئْرِ فَلاَ يَبْلُغُ الْمَاءَ وَلاَ الْمَاءُ يَرْتَفِعُ إلَى يَدِهِ)[٣]، ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ عن الصواب وذهابٍ عن الحقِّ؛ لأن الأصنامَ لا تسمعُ ولا تقدر على الإجابةِ.

(١) في الدر المنثور: ج ٤ ص٦٢٢؛ قال السيوطي:(أخرجه أبو سعيد بن منصور وابن المنذر).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ١٢ ص٢٤٢: الحديث (١٣٢٣٠). والترمذي في الجامع: أبواب الدعوات: الحديث (٣٤٥٠) بـ (الحجاج بن أرطأة) مدلس، وشيخه (أبو مطر) مجهول. والحاكم في المستدرك: كتاب الأدب: الحديث (٧٨٤٢) وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٤٠٢) عن علي ﷺ.

قولــــهُ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي وللهِ يسجدُ ويُصلِّي ويعبـدُ مَـن في السَّـموات والأرض والملائكة، ومَن دخلَ الإسلامَ طَوْعاً يسجدُ له طائعاً، والْمُكرَهُ هو الذي قُوتِلَ وسُـبيَ وأجبرَ علىالإسلام، ويقـالُ: أرادَ بقولـه (طَوْعـاً) أهـلَ الإخـلاص، و(كَرْهـاً) أهـلَ النفاق، قوله (وَظِلاَلُهُمْ بالْغُدُوِّ) يعني إذا سجدَ الإنسانُ سَجَدَ معه ظِلُّهُ، قال الحسـنُ: (أمَّا ظِلُّ الْكَافِرِ فَيَسْجُدُ للهِ، وَأمَّا هُوَ فَلاَ يَسْجُدُ، فَبئْسَ وَاللهِ مَا يَصْنَعُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّة: مَن ربُّ السموات والأرض ؟ فإن أجابُوكَ وقالوا: هو اللهُ، وإلاَّ فقُل: اللهُ ربُّهما، و ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَـهم: ﴿ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ أي أرباباً، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ ؛ فكيف يَملِكون لكم النفعَ والضر.

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ ؛ أي قُـل لَـهم: هـل يستوي أعمَى القلب الذي يعدلُ عن عبادةِ الخالق ؟ هل يستَوي مـع البصـير بقلبـه، العالِم بأنه تعالى إلَهُهُ ووليُّهُ والقادرُ على نفعهِ ودفـعِ الضُّـرِّ عنـهُ، ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ ؛ فيه تشبيهُ الكفرِ بالظُّلمات، وتشبيهُ الإيمانِ بالنُّور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ ﴾ ؛ معناه: أجَعَلَ الكفارُ للهِ شُركاءَ، خلقَت شركاؤُهم شيئاً كمـا خلَـقَ اللهُ، ﴿ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ فلـم يعرفُوا خلقَ الشركاء من خلقِ اللهِ فأشركُوها معـه في العبـادةِ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ؛ بلا شريكٍ، فإذا لم يكن الخلقُ إلا من واحدٍ لم يكن الخالقُ إلا واحداً، فـهو الذي يستحقُّ العبادةَ بلا شريكٍ، ﴿ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ الغالبُ لكلِّ شيء، لا يقهرُهُ أحدٌ.

ثم ضربَ اللهُ مثلاً للحـق والبـاطل، وقـال تعـالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ ؛ أنزلَ مطراً فسَالَتْ أوديةٌ من ذلك المطر بقـدر الأوديـة، فما كان منها كبيراً سالَ بقدرهِ، وما كان صَغيراً سالَ بقَدرهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱحْتَمَلَ

---

(١) أخرجه الطبري بمعناه في جامع البيان: الأثر (١٥٤١٣) عن مجاهد.

﴿ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ﴾ أي عالياً مُرتفعاً على الماءِ، والسَّيلُ ما يسيلُ من الموضعِ المرتفع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ ؛ أي ومما تطرَحون في النار من الذهب والفضَّة لِطلب حِلْيَةٍ تلبسونها زَبَدٌ؛ أي خَبَثٌ مثلُ زبدِ الماءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ ؛ أرادَ به الحديدَ والرصاص وما يشاكِلهُ مما يوقَدُ عليه في النار؛ لاتِّخاذ المتاعِ له زَبَدٌ؛ أي خَبَثٌ مثل ذلك الماءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ ؛ أي هكذا يضربُ الله مَثَلَ الحقِّ والباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ ؛ أما زبدُ هذه الأشياء، فيذهبُ ناحيةً لا ينتفعُ به، فإن زبدَ الماء يتعلَّقُ بأصول الأشجار وجَنَبَاتِ الوادي. والْجُفَاءُ: ما رَمَى به الوادِي، وجُفَاهُ في جَنَبَاتِهِ، يقال: أجْفَأَتِ القِدْرُ زبدَها إذا قذفَتْ به، وكما أنَّ زبَدَ الماءِ يذهبُ بحيث لا ينتفعُ به، كذلك خبَثُ الذهب والفضة والحديد، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ ؛ للناسِ في أمرِ دِينهم، كما ضربَ لكم المثلَ، قال قتادةُ: (هُنَّ ثَلاَثَةُ أمْثَالٍ ضَرَبَهَا اللهُ فِي مَثَلٍ وَاحِدٍ، يَقُولُ: كَمَا أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَسَالَتْ أوْدِيَةٌ بقَدَرِهَا، الصَّغِيرُ عَلَى الصَّغِيرِ عَلَى مِقْدَارِهِ، وَالْكَبيرُ عَلَى مِقْدَارِهِ، كَذلِكَ أنْزَلَ اللهُ الْقُرْآنَ، فَاحْتَمَلَ الْقُلُوبَ عَلَى قَدَرِهَا، ذا الْيَقِينِ عَلَى قَدْرِ يَقِينِهِ، وَذا الشَّكِّ عَلَى قَدْرِ شَكِّهِ).

قَالَ: (ثُمَّ شَبَّهَ خَطَرَاتِ وَوَسَاوسَ الشَّيْطَانِ بالزَّبَدِ يَعْلُو عَلَى الْمَاءِ، وَذلِكَ مِنْ خَبَثِ الْبَرِّيَّةِ لاَ عَيْنِ الْمَاءِ، كَذلِكَ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنْ وَهْمٍ وَشَكٍّ فَهُوَ ذاتُ النَّفْسِ لاَ مِنَ الْحَقِّ).

قَالَ: (ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ الزَّبَدَ يَذْهَبُ جُفَاءً؛ أيْ هَبَاءً بَاطِلاً وَيَبْقَى صَفْوُ الْمَاءِ، كَذلِكَ يَبْطُلُ الشَّكُّ وَسُوءُ الْخَطَرَاتِ وَيَبْقَى الْجَوفُ كَمَا هُوَ، وَكَذلِكَ مَا يُوقَدُ عَلَيْهِ فِي النَّار لِمَنَافِعِ النَّاسِ يَبْطُلُ زَبَدُهُ وَخَبَثُهُ وَيَبْقَى خَالِصُهُ وَصَفْوُهُ، كَذلِكَ الْبَاطِلُ يَذْهَبُ وَيَبْقَى الْحَقُّ)[١].

---

(١) ينظر: جامع البيان: الأثر (١٥٤٢١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ فيه بيانُ الذي يبقَى مما تقدَّم ذِكرهُ فهو مثلٌ لِمَن يستجيبُ لربهِ، والذي يذهبُ جُفاءً هو مَثلٌ لِمَنْ لا يستجيبُ. والمرادُ بـ (الْحُسْنَى) في الآيةِ الْجَنَّةَ ونَعيمها.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ ﴾ ؛ أي الذين لم يستجيبُوا لربهم إلى الإيمان، ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ؛ من الذهب وسائر الأموال، ﴿ وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ ﴾ ؛ وضِعفُهُ معه، ﴿ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ﴾ ؛ لفادَوا به أنفسَهم من عذاب الله يومَ القيامةِ لو قُبلَ منهم ذلكَ ولكن لا يُقْبَل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ؛ أي شدَّتهُ، والمناقشةُ فيه، قال إبراهيمُ النخعي: (هُوَ أنْ يُؤَاخَذُوا بذُنُوبِهِمْ كُلِّهَا مِنْ دُون أنْ يُغْفَرَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي مَصيرُهم في الآخرةِ جهنَّم، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي المأوَى، يتقلَّبون في النار ويقعُدون ويضطَجعون عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ معناه: أفمَن يعلمُ إنما أنزل إليك مِن القرآن أنه الحقُّ فآمَنَ به، كمَن هو كافرٌ يعلَمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي ذوُو العقول.

ثم وصَفَهم فقالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ يريدُ بالعهدِ الذين عاهَدتُم عليه في صُلب آدمَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ ؛ قِيْلَ: المرادُ به مواصلةُ المؤمنين فيما بينهم بالموالاةِ وصِلَةِ الرَّحِم بالبرِّ والشَّفقة، وَقِيْلَ: أرادَ بذلك الإيمانَ بمُحَمَّدٍ ﷺ وجميعِ الرسُل، ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ أي عقابَ ربهم، ﴿ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي يخافون أن يؤاخَذُوا بالعقاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ ؛ معطوفٌ على قولهِ (الَّذِينَ يُوفُونَ بعَهْدِ اللهِ) ومعناهُ: الذين صَبَروا على أداءِ الفرائضِ واجتناب المحارم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٤٢٨).

ومُقَاسَاةِ شدائدِ الدُّنيا لطلبِ ثوابِ الله ورضاهُ، ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ المفروضة، ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ؛ أي أخرَجُوا من أموالهم جميعاً الصَّدقَاتِ المفروضات خِفْيَةً وجهراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، وإنما يكون دَرْؤُهم بالحسنةِ السيئةَ على وجهين، أحدُهما: العِلْمُ والوعظُ بالكلام الحسَنِ، والثاني: أن يقاتِلُوهم ويقبضُوا على أيديهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفَة لهم الدارُ التي أعقبَتها لهم أعمالُهم وهي الجنَّة. ثم بيَّن اللهُ صفةَ الجنة فقال: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَهِيَ وَسَطُ الْجَنَّةِ، وَهِيَ مَعْدِنُ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ﴾ ؛ أي ويدخلها مَن صلَحَ من آبائهم وأزواجِهم وذُرِّياتِهم، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ يعني من أبواب البساتين يقولون لهم: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ على شدائدِ الدُّنيا، وعلى المشقَّة في طاعةِ الله، فنِعْمَ الدارُ التي أعقبَتْها لهم أعمالهم، قال ابنُ عبَّاس: (لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أهْلِ جَنَّاتِ عَدْنٍ جَنَّةٌ مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ لَهَا ألْفُ بَابٍ مِصْرَاعُهُ مِنَ الذهَب، يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَابٍ مَلَكٌ يَقُولُونَ: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بمَا صَبَرْتُمْ، ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ ﴾ ؛ أي الذين يترُكون فرائضَ الله من بعدِ تأكيد العهدِ عليهم، ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ بالظُّلم والدعاءِ إلى غير عبادة الله، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ ؛ أي ما يُبعِدُهم من رحمةِ الله، ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ وهو النارُ في الآخرةِ، وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [أعْجَلُ الْخَيْرِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِمِ، وَأعْجَلُ الشَّرِّ عِقَاباً الْبَغْيُ وَالْيَمِينُ الغَمُوسُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَقِعَ][1].

(١) ذكره أهل اللغة في غريب الحديث، ينظر: كتاب الغريبين للهروي: (بلقع).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ؛ أي يوسِّعُ الرزقَ في الدُّنيا على مَن يشاءُ، ويضيِّقُ على مَن يشاءُ، ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني مُشركي مكَّة أشِرُوا وبَطِرُوا، ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي ﴾ ؛ جنب نعيمِ، ﴿ الْآخِرَةِ إِلَّا ﴾ ؛ شيءٌ قليل، ﴿ مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ كمتاع يتمتَّعُ به ثم يفنَى ويذهبُ، قال ﷺ: [وَمَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ كَمِثْلِ مَا جَعَلَ أحَدُكُمْ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ يَرْجِعْ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ أي يقولون على جهة التَّعَنُّتِ: ﴿ لَوْلَا ﴾ ؛ هَلاَّ، ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ على مُحَمَّدٍ، ﴿ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ؛ يعني الآياتِ التي يَقترحونها عليه، ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحَمَّدُ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ عن ثوابهِ وكرامته، ﴿ وَيَهْدِي ﴾ ، لدينه مَن أقبَلَ، ﴿ إِلَيْهِ ﴾ ؛ إلى اللهِ و، ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ رجَعَ عن الكفر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: الذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ ﷺ والقُرآن، تسكنُ قلوبُهم إلى ما وعدَهم اللهُ به من ثوابٍ، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ﴾ ؛ بوَعدِالله، ﴿ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ ، أي لهم العيشُ الطيِّبُ والكرامةُ والغِبطَةُ، ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ حُسْنُ المرجعِ، وقال مجاهدُ: (طُوبَى اسْمُ الْجَنَّةِ بلُغَةِ الْحَبَشَةِ)، وعن أبي هريرة: (اسْمُ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ سَاقُهَا مِنْ ذهَبٍ، وَورَقُهَا الْحُلَلُ، وثَمرُهَا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَأغْصَانُـهَا مُتدلِّيَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَيسَ مَنْزِلٌ إلاَّ وَفِيهِ غُصْنٌ مِنْ أغْصَانِـهَا، وَتَحْتَهُ كُثْبَانُ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ وَالزَّعْفَرَانِ، لَوْ رَكِبَ رَجُلٌ قُلُوصاً، ثُمَّ دَارَ بالشَّجَرَةِ لَمْ يَبْلُغِ الْمَكَانَ الَّذِي ارْتَحَلَ مِنْهُ حَتَّى يَمُوتَ الْقُلُوصُ هَرَماً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ ؛ أي هكذا أرسَلناك إلى أمَّة قد مَضَتْ من قبلِها أمَمٌ أرسَلنا فيهم الرُّسل، ﴿ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة فإنَّهم كانوا يقولون ما نعرفُ الرحمنَ إلا مُسَيْلَمَةَ، وكانوا يُسمُّونَهُ رحمانَ اليمامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ قل لَهم: الرَّحْمَنُ رَبي لا إلهَ إلا هو، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي وإليه أتوبُ من ذُنوبي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ عبدَالله بن أمية المخزومي، وجماعةً من كفَّار مكة قالوا: يا مُحَمَّدُ سَيِّرْ لنا جبالَ مكَّة، فأذهِبْها حتى تنفسحَ فيها فإن أرضَنا ضيِّقة، ثم اجعَلْ لنا فيها عُيوناً وأنْهَاراً، وقرِّبْ أسفارَنا فيما بيننا وبين الشَّام فإن السفرَ بعيدٌ، وافعَلْ كما فعلَ سُليمان بالرياحِ بزَعمِك، فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها: (وَلَوْ أنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ) أذهِبَتْ به الجبالُ عن وجهِ الأرض قُطِّعت به الأرضُ مسيرةَ شهرٍ في يومٍ أو أحيي به الموتَى فتكلَّموا، لكان هذا القرآنُ لِمَا فيه من الدَّلالاتِ الكثيرةِ على صحَّة هذا الدِّين، ولو أمكن أن نجعلَ هذه الأمُورَ لشيءٍ من كُتبِ الله لأمكنَ بهذا القرآنِ.

وأما حذفُ جواب (لَوْ) في هذهِ الآية فهي على وجهِ الاختصار؛ لأنَّ في الكلامِ دليلاً عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي بلِ اللهُ هو المالكُ لهذه الأشياءِ، القادرُ عليها، ولكن لا يختار إلا ما فيه مصلحةُ العبادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ؛ معناهُ: أفلَمْ يعلمِ الذين آمَنوا، ﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ؛ إلى الإيمان بالإلجاءِ إليه أن اللهَ تعالى قادرٌ على ذلك، ولكن لو فَعَلَ لبَطَلَ الامتحانُ والتكليف، والإياسُ بمعنى العلمِ في لُغة النخعِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ ؛ أي ولا يزالُ الذين كفروا في عقوباتٍ مِن قِبَلِ اللهِ يزجرُهم عن الكفرِ، ويحُثُّهم على التمسُّك بدين اللهِ، كما نَزَلَ بقريش من القحطِ، وبقوم فرعونَ من الشدائدِ.

---

(١) في معاني القرآن: ج ٢ ص٦٤؛ قال الفراء: (وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس؛ قال: ييأس في معنى يعلم، لغة للنَخَع). وأخرجه الطبري من وجه في جامع البيان: الأثر (١٥٤٩٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ ؛ راجعٌ إلى القَارعةِ، والقَارعَـةُ: هي النَّازلَةُ والشدائدُ التي تنْزلُ بأمرٍ عظيـم، ويقـالُ: أراد بالقارعـةِ سَـرَايا النبيِّ ﷺ، وبقوله (أوْ تَحُلُّ قَرِيبـاً) معنـاه: أوْ تَـنْزِلُ أنـتَ يـا مُحَمَّـدُ مـع أصحـابكَ قريبـاً مـن مكَّة تقاتِلُهم علـى الدِّيـن، ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ ؛ أي وقـتُ إهـلاكِ الكفَّـار، وَقِيْلَ: فتحُ مكَّة، وَقِيْلَ: ما وعـدَ اللهُ مـن عذابـهم في الآخـرة، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ ما وعدَ من عقاب الكفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ أي ولقدِ استُهزئَ بالأنبياءِ من قبلِكَ كما استهزأ بكَ قومُكَ، ﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾ فامهلتُ، ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بعد استهزائِهم بالرُّسل، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بذنوبهم، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ فانظُرْ كيف كان عاقبةُ ما حلَّ من عقاب الله بـهم، فـلا يكـن في صـدركَ حـرجٌ مـن استهزائِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ بالتدبيرِ ويعلمُ ما كسبَت ويجازيها عليه، كمَن لا يعلمُ ذلك ولا يقدرُ على المجازاةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ ؛ في العبـادةِ بـين الأصنـام، ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ ؛ هؤلاء الشُّركاء بأسمائهم التي تستحقُّها، وسَمُّوا منفعتَها وتدبيرَهـا؛ لأن لها شركةً مع اللهِ، كما يوصَفُ الله بالخالقِ والرازق والمحيي والمميت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ أي أتُخـبرونَ اللهَ بما لا يصحُّ أن يكون مَعلوماً وهو كون الأصنام مستحقَّةً للعبـادةِ، وهـذا علـى وجـه الإنكار، وقولهُ تعـالى: ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ ؛ إنكـارٌ أيضـاً معنـاهُ: أسَـمَّيتم الأصنامَ آلهة بظاهرِ كتابٍ من كتُب الله، وَقِيْلَ: أسَـمَّيتمُوهم آلهـةً بحجَّـةٍ ظاهرةٍ، بـل سَمَّيتموهم بقولٍ باطل ليس لكم دليلٌ عليه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ ؛ أي زُيِّـنَ لهـم قولُـهم وفعلُهم في عبادةِ غيرِ الله، وتكذيب مُحَمَّـدٍ ﷺ والقـرآن. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ؛ من قرأ بفتحِ الصَّاد فالمعنى صَرَفوا الناسَ عن دينِ الله، ومَـن قـرأ

برفعها فالمعنى صدَّهم رؤساؤهم عن دينِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ الأسقامُ والقتلُ والأسرُ، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ أي أغلَظُ من عذاب الدُّنيا، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾؛ يَقِيهِم من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ أي صفةُ الجنة التي وُعِدَ المتَّقون الكفرَ والمعاصي: أنَّها تجري من تحتها الأنهارُ، ثمرُها دائمٌ، لا كجِنَان الدُّنيا تظهرُ بظهور ورَقِها في حالٍ دون حالٍ، وظِلُّها أيضاً دائمٌ ليس فيه شمسٌ ولا أذىً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾؛ أي دارُ المتَّقين الجنةُ في العاقبةِ، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾، ودارُ الكافرين في العاقبةِ النارُ، وفي الحديثِ: [أنَّ الرَّجُلَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ تُقْسَمُ لَهُ شَهْوَةُ مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أهْلِ الدُّنْيَا، فَإذا أكَلَ سُقِيَ شَرَاباً طَهُوراً، فَتَصِيرُ رَشْحاً تَخْرُجُ مِنْ جَسَدِهِ أطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، ثُمَّ تَعُودُ شَهْوَتُهُ إلَى مَا كَانَتْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ وذلك أن عبدَاللهِ بن سلام، ومَن أسلمَ معه من أهلِ الكتاب، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا شَأْنُ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فِي الْقُرْآنِ قَلِيلٌ وَهُوَ فِي التَّوْرَاةِ كَثِيرٌ ؟ فَنَزَلَ ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[2] ونزل ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بمَا أنزِلَ إلَيْكَ﴾ مِن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ وغيرِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾؛ أي ومِن اليهود والنصارَى من ينكرُ بعضَ ((ما في)) القرآن، وإنَّهم كانوا يُقِرُّونَ بصحَّة ((قصة)) يوسف

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣٧١ عن زيد بن أرقم ﷺ يقول: قال لي رسول الله ﷺ... وذكره.

(٢) الاسراء / ١١٠ .

وغيرِها مما لا يكون فيه نسخُ شريعَتِهم، وكانوا يُنكِرُونَ مِن القرآن ما لا يوافقُ مذهَبَهم ودينَهم[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ ﴾؛ الخلائق ﴿ وَإِلَيْـهِ مَـَابِ ﴿٣٦﴾ ﴾؛ رجُوعِي في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾؛ أي كما أنزلنا على الأنبياء المتقدمين بلسانهم كذلك أنزلنا اليك القرآن حُكماً عربياً، والْحُكْمُ: هو الفصل بين الشيئين على ما توجبه الحكمة، وقد يكون الحكم بمعنى الحكمة، كما في قوله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[٢] أي الحكم والنبوة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾؛ أي دين اليهود وقبلتهم ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾؛ أي دين الله دين ابراهيم وقبلته الكعبة ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾؛ أي من ناصر ينصرك، ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾؛ أي لا دافع يدفع العقاب عنك.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَيِّرُونَ النَّبِيَّ ﷺ بتَزَوُّجِ النِّسَاءِ حَتَّى قَالُوا: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبيًّا لَشَغَلَتْهُ النُّبُوَّةُ عَنْ تَزْوِيجِ النِّسَاءِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). والمعنى: ولقد أرسَلنا رسُلاً من قبلِكَ، وجعلنا لهم نِساءً أكثرَ من نسائِكَ، وأولاداً أكثرَ من أولادك، كان لداودَ عليه السلام مائة امرأةٍ، ولسُليمان ثلاثمائة امرأةٍ مهرية وسبعمائة سريَّة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي هل يملِكُ أحدٌ من الرُّسل أن يأتي بآيةٍ إلا بإذنِ الله، فإنه سبحانهُ هو المالكُ للآياتِ لا يقدرُ أن يأتي أحدٌ شيئاً منها إلا بإذنه.

---

(١) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٢٥؛ قال النحاس: (أي الذين تحزَّبوا على عداوةِ رسول الله ﷺ والمؤمنون ينكرون ما لم يوافقهم، وقيل: الذين أوتوا الكتاب واليهود والنصارى يفرحون بالقرآن؛ لأنه مصدق بأنبيائهم وكتبهم وإن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ).

(٢) مريم / ١٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لكلِّ مدَّةٍ من آجَالِ العبادِ في الحياةِ والفَناءِ كتابٌ قد كتبَ اللهُ ذلك للملائكةِ؛ ليدُلَّهم به على علمِهِ بالأشياء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنْ دِيوَانِ الْحَفَظَةِ مَا كَتَبُوهُ مِنْ أعْمَالِ الْعِبَادِ مَا لاَ جَزَاءَ لَهُ، وَيَتْرُكُ مَا لَهُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ). وقَالَ الضحَّاكُ: (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْقُرْآنِ فَيَنْسَخُهُ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ فَلاَ يَنْسَخُهُ)، وعن الحسنِ: (يَمْحُو أجَلَ مَنْ حَانَ أجَلُهُ، وَيَدَعُ أجَلَ مَنْ لَمْ يَحِنْ أجَلُهُ مَيِّتاً)[1]. وَقِيْلَ: يمحُو اللهُ ما يشاءُ من الطاعاتِ بإحباطِها بالمعاصي، ومن المعاصِي بتكفيرِها بالطاعاتِ.

وقدِ اختلَفُوا: هل يدخلُ في الْمَحْوِ والإثباتِ السعادةُ والشقاوة، والموتُ الحياة أم لا ؟ قال ابنُ عبَّاس: (لاَ يَدْخُلُ)، وقال عمرو بن مسعود: (تَدْخُلُ فِيْهِ السَّعَادَةُ وَالشَّقَاوَةُ)، وكان من دُعاء عمرَ: (اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا سُعَدَاءَ فَأَثْبتْنَا، وَإنْ كُنْتَ كَتَبْتَنَا أشْقِيَاءَ فَامْحُنَا وَاكْتُبْنَا سُعَدَاءَ، فَإنَّكَ تَمْحُو وَتُثْبتُ مَا تَشَاءُ وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَاب)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي أصلُ الكتاب، قِيلَ: إنه اللوحُ المحفوظ كَتَبَ اللهُ فيه كلَّ شيء قبلَ أن يخلُقَ العبادَ، ولا يُزَادُ فيه شيءٌ ولا ينقص منه شيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ ؛ أي فإما نُرِيَنَّكَ يا مُحَمَّدُ بعضَ الذي نَعِدُهم من نصر المؤمنين على الكفَّار، أو نَقبضُكَ إلينا قبلَ أن يكون ما نَعِدُهم من العذاب في حياتك، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ ﴾ ؛ أي بلاغُ ما أنزلَ إليك، ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ وعلينا حسابُ ما يعملُون، والجزاءُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أوَلَمْ يَرَ أهْلُ مَكَّةَ أنَّا نَنْقُصُ الأَرْضَ مِنْ أطْرَافِهَا بفَتْحِ دِيَارِهِمْ لِلنَّبيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٤٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٣٢).

وَالْمُسْلِمِينَ)، وقال الحسنُ: (أَرَادَ بنَقْصِ أَطْرَافِ الأَرْضِ ذهَابَ فُقَهَائِهَا وَخِيَارِ أَهْلِهَا). قال: (وَمَثَلُ الْعُلَمَاءِ مَثَلُ النُّجُومِ إذا بَدَتْ اقْتَدَوْا بِهَا، وإذا أظْلَمَتْ سَكَنوا، وَمَوْتُ الْعَالِمِ ثُلْمَةٌ فِي الإسْلاَمِ، لاَ يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ ؛ أي واللهُ يحكمُ بفَتْحِ البُلدان لا يتعقَّبُ أحدٌ حُكمَهُ بالردِّ، ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ إذا حاسبَ محاسبةُ سريعُ الحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، أي قد مَكَرَ الذين من قبلِ هؤلاء الكفار بأنبيائهم صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وبمَنْ آمَن به، ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ ؛ وعندَ اللهِ جزاءُ مكرِهم جميعاً، فإنَّ ما يفعلهُ الله من إيصالِ المكروه يثبتُ، ومكرهم يضمحلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ؛ من خيرٍ أو شرٍّ فيُجازيها عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ ﴾ ؛ تهديدٌ لهم أنَّهم إذا جَهلوا اليومَ عاقبةَ أمرِهم فسيعلمون إذا صاروا إلى الآخرةِ، ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ المحمودةِ، لهم أمْ للمؤمنين؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ ؛ أي ويقولُ الذين كفرُوا من اليهود وغيرِهم: يا مُحَمَّدُ لستَ مُرسَلاً من اللهِ، ومَن يشهدُ لكَ على رسالَتِكَ، ﴿ قُلْ ﴾ ؛ لَهم يا مُحمَّدُ: ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ على أنِّي مرسَلٌ إليكم، شهادةُ الله على أنَّني نبيُّهُ من المعجزاتِ لا شاهدَ أعدلَ من ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ كان ابنُ عباس يقرأ (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ)[1] بالنصب ويقولُ: (هُوَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وَأَصْحَابُهُ، كَانَ عِنْدَهُمْ فِي

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٧٦) بإسناد ضعيف.

التَّوْرَاةِ نَعْتُ النَّبِيِّ ﷺ وَصِفَتُهُ)[1] وكان يقولُ:(هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ بالْمَدِينَـةِ؛ لأَنَّ هَـؤُلاَءِ أَسْلَمُوا بالْمَدِينَةِ).

وكان ابنُ مسعودٍ يقرأ (وَمِنْ عِنْدِهِ) بالخفضِ على معنى أنَّ القرآنَ مِن عندِ الله، وكان يقولُ: (هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ أَسْلَمَ بالْمَدِينَةِ) وقُرِئ (وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ) بخفض (مِن) وضمِّ العين وكسرِ اللام من علم، هكذا رُوي عن سـعيدِ ابن جُبير[2].

آخر تفسير سورة (**الرعد**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٨١) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٥٨٧).

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ مَكِّيَّـةٌ، وَهِـيَ ثَلاثَـةُ آلافٍ وَأرْبَعُمِائَـةٍ وَأرْبَعَـةٌ وَثَلاثُـون حَرْفـاً، وَثَمَانُمِائَةٍ وَإحْدَى وَثَلاثُون كَلِمَةٌ، وَاثْنَتان وَخَمْسُونَ آيَةً عِنْدَ الْبَصْرِيِّين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرُها، وقولُهُ تعالى: (كِتَابٌ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ، ويجوز أن يكون خبرَ (الـر) ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ؛ أي مِن ظُلماتِ الكفرِ إلى نور الإيمان، ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ بأمر ربهم أمَرَكَ أن تَدعُوَهم إلى الإيمان، وتزجُرَهم عن الكفـر. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ ؛ أي الى دينِ العزيزِ الحميد الذي لا يمكنُ أن يُغلَبَ ويقهرَ، والحميدُ المستحقُّ للحمدِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ؛ مَن قرأ برفعِ الهاء فعلى الابتداءِ، ومَن قرأ بالخفض جعلَهُ بدَلاً مـن الحمـدِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾ ؛ الويـلُ كلمـةٌ تستعمَلُ في الشدَّة، ويقالُ: هو وادٍ في جهنَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ؛ أي يختارُونها عليها، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ؛ أي يُعرضُونَ عـن طاعـةِ الله مـن الصدِّ وهو الإعراضُ، ويجوز أن يكون معناهُ: ويَمنَعُونَ النَّاسَ.

وقولُـهُ تعـالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ ؛ أي ويطلبُـونَ بديـنِ الله العِـوَجَ، والعِوَجُ بكسرِ العين في الدِّين، وبفتحِها في العصا، وقولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ ؛ أي في ذهابٍ عن الحقِّ بعيدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ ؛ أي بلُغَتِهم ليبيِّن لهم ما أمِرُوا به ونُـهوا عنه، فيفهَمُوا ويتعلَّموا، ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ مَن كان أهْلاً لذلك، ﴿ وَيَهۡدِي ﴾ ؛ لدينهِ، ﴿ مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ ؛ أي بدَلائلنا وحُجَجِنا التي دلَّت على صحَّة نُبوَّتهِ مثلُ العصا واليدِ وغيرهما، ﴿ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ أي بنَعِيم الله، وَقِيْلَ: بوقائعِ الله في الأيَّام السالفةِ من قوم نُوحٍ وعادٍ وثمود. وَقِيْلَ: بنَعِيمِ اللهِ ونِقَمِهِ، والمعنى: عِظْهُمْ بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك التذكيرِ لدلالاتٍ على قدرةِ الله لكلِّ صبَّار شَكُور على طاعتهِ، وعن معصيتهِ، وشكُورٍ لأنعُمِ اللهِ، والشُّكرُ هو إظهارُ النعمةِ على جهة الاعتراف بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ هذه الآيةُ قد سبقَ تفسيرُها في سورةِ البقرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ ﴾ ؛ هذه عطفٌ على قولهِ (إذْ أنْجَاكُمْ) كأنه قالَ: اذكرُوا نعمةَ اللهِ عليكم إذ أنْجَاكُم، وإذ تأذنَ ربُّكم، وهذا إخبارٌ عن ما قالَ موسى لقومهِ؛ أي أعلَمَكم في الكتاب، ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ ﴾ نعمَتي ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ ﴾ نعمةً، ﴿ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ ﴾ ؛ نِعمَتي، ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ لِمَن كفرَ.

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الآيَةِ: لَئِنْ وَحَّدْتُمُونِي وَأطَعْتُمُونِي، لأَزِيدَنَّكُمْ نِعْمَةً)، قال قتادةُ: (حَقُّ اللهِ أنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، وَيَزِيدَ مَنْ شَكَرَهُ)، وقولهُ تعالى (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ) أي جَحَدتُّم حقِّي وحقَّ نِعمَتي إنَّ عذابي لشديدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ ؛ بنعمتـهِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ ﴾ ؛ عن طاعَتِكم، لم يأمُرْكم بطاعته لحاجتهِ إليها وهو الـ ﴿ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ لِمَن وَحَّدَهُ وأطاعَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ الخطابَ في هذه الآية لأُمَّـة مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقِيْلَ: هو خطابُ موسى لقومه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) يعني قومَ شُعيب وغيرهم، ﴿ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ ، لا يعلمُ عددَهم إلاّ الله، ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي بالدَّلائلِ الواضحاتِ ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (عَضُّوا أنامِلَهُمْ غَيْظاً عَلَى الرُّسُلِ فِيمَا ادَّعَوا مِنَ النُّبُوَّةِ)، وقال مجاهدُ: (هَذا كِنَايَةٌ عَنِ الْجَحْدِ وَالتَّكْذِيب)[1]. وَقِيْلَ: معناهُ: وضعَ الكفارُ أيدِيَهم على أفواهِ أنبيائهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ ﴾ ؛ بسببٍ من التوحيد، ﴿ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ ظاهرِ الشكِّ، والرَّيْبُ الشكُّ مع التُّهمَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾ ؛ أي في توحيدِ الله شَكٌّ، وهذا إنكارٌ من الرسُل عليهم؛ أي لا شكَّ في توحيدِ الله، ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ أي خالِقِهما فكيف يشُكُّون فيه ودلائلُ وحدانيَّته ظاهرةٌ ﴿ يَدۡعُوكُمۡ ﴾ ؛ إلى دينهِ، ﴿ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ ؛ في الجاهليَّة، ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ ؛ منتهَى آجالِكم، فلا يعذِّبْكم بعذاب الاستئصال.

وأما دخولُ (مِنْ) في قولهِ (مِنْ ذُنُوبكُمْ) فيجوزُ أن تكون للجنسِ، كما في قوله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[2]، ويجوزُ أن تكون للتبعيضِ؛ أي ليغفرَ لكم بعضَ ذُنوبكم، فادْعُوا اللهَ وارغَبُوا إليه في مغفرةِ الذُّنوب كلِّها.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٦١٦).

(٢) الحج / ٣٠ .

قولهُ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ؛ أي قالت الأمَمُ لرُسُلِهم: هل أنتم إلاّ آدميُّون مثلُنا لا فضلَ لكم علينا، ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا ﴾ ؛ تمْنَعُونَا، ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ؛ من الأصنام، ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ فأْتُوا بحجَّة واضحةٍ بيِّنة، يعنون الآياتِ التي كانوا يقترحونَها على أنبيائهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ؛ كما قُلتم، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ؛ كما أنعمَ علينا بأن أرسَلَنا، ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ ولا نملكُ الآياتِ التي تقترحون علينا ونحن بشرٌ مثلكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى.

قالَتِ الكفارُ لَهم: فتوكَّلوا أنتم على اللهِ حتى ترَونَ ما يفعلُ بكم، قالت الرُّسل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ ؛ أي حسبُنا، والهدايةُ من اللهِ هي الدلالـةُ على الحقِّ والرشدِ، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ ؛ على أذاكُم، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ والتوكُّلُ هو التمسُّكُ بطاعةِ الله مع الرِّضا بقضائهِ وتدبيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ ؛ أي قالت الكفارُ لرُسُلِهم: لا نُساكِنُكم على مخالفتِكم ديننا ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ وقد ذكرنا في قصَّة شعيب، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ ، فأوحى اللهُ إلى الرُّسُلِ: ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ ، أي الكفار، ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ أرضَهم وديارهم، ﴿ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ؛ من بعد هلاكِهم، وهذا نِهايةُ ما في الإنعام، فإن هذا جزاءُ مَن توكَّلَ على اللهِ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ جزاءٌ، ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ ؛ مقامَ العبادِ عندي، ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ وخاف وعيدي بالعقاب ولِمَن عصانِي.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي سألَتِ الرُّسل ربَّهم أن يحكُمَ بينهم وبين الكفار؛ لأن الفتحَ ها هنا بمعنى الْحُكْمِ، يقال للحاكِم: الفتَّاحُ، فلما فزِعَتِ الرسلُ إلى ربهم بانجاز الوعد، فتحَ لهم ما طلبوهُ فخابَ كلُّ جبارٍ عنيد.

والجبارُ: هو الطالبُ للخير والعُلُوِّ فوقَ كلِّ عُلُوٍّ، والعنيدُ: هـو الدافعُ للحقِّ على جهةِ الاستنكار، وقال قتادةُ: (الْعَنِيدُ: الْمُعْرِضُ عَنْ طَاعَةِ اللهِ)[١]، وقـال مجـاهدُ: (هُوَ الْمُجَانِبُ لِلْحَقِّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ معناهُ أمامَ هذا الجبَّار بعدَ الموتِ جهنَّمُ، والوراءُ يكون من خَلْفٍ وقُدَّام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي يُسقَى من ماءٍ يَسيلُ من جُلودِ أهلِ النَّار من القيحِ والدَّم، قال ابـنُ عبَّـاس: (فِي جَهَنَّمَ أوْدِيَةٌ، فِي تِلْكَ الأَوْدِيَةِ صَدِيدُ أهْلِ النَّار وَقَيْحُهُمْ وَدِمَاؤُهُمْ، فَيُسْقَوْنَ مِنْ ذلِـكَ الصَّدِيدِ قَدْ نَتَنَ رِيحُهُ) ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ ﴾ ؛ شاربهُ، والملَكُ يضربهُ بالمقامعِ ويقولُ لـه: اشرب، فيقولُ: لاَ أطِيقهُ، فيضربهُ حتى يشربَهُ جرعةً جرعةً، ولا يكاد يسيغهُ من نتنـه وحرِّه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ ؛ لا يقدرُ أن يبتلعَهُ، والإسَاغَةُ هـو دخولُ المشروب في حَلقهِ مع قَبُول النفسِ له، وفي الحديـثِ عـن النبيِّ ﷺ أنَّـهُ قـالَ: [يُقَرَّبُ إلَيْهِ فَيَكْرَهُهُ، فَإذا أدْنِيَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأسِهِ فِيْهِ، فَـإذا شَـرِبَهُ قَطَّعَ أمْعَاءَهُ، فَتَخْرُجُ أمْعَاؤُهُ مِنَ الْجَانِبِ الآخَـرِ][٢] كمـا قـال تعـالى: ﴿وَسُـقُوا مَـاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ﴾[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ؛ أي ويأتيهِ غَمُّ الموتِ من قدامه، ومـن كـلِّ مكـان كـان فيـه يموتُ بـدون ذلـك في الدُّنيـا، قـال ابـنُ عبَّـاس: (يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ تَحْتِ كُـلِّ شَـعْرَةٍ فِـي جَسَـدِهِ)[٤]. قِيْـلَ: وتأتيـهِ النيرانُ مـن كـلِّ جـانبٍ، ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، فيسـتريحُ مـن العــذاب، ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي ومن بعدِ ذلك عذابٌ شديد أشدُّ مما تقدَّمَ لا ينقطعُ ولا يَفْتُرُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٦٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٩٠ عـن أبي أمامة: الحديث (٧٤٦٠). والطـبري في جامع البيان: الحديث (١٥٦٣١). والترمذي في الجامع: الحديث (٢٥٨٣)، وقال: حديث غريب.

(٣) محمد / ١٥ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٦٣٣) عن إبراهيم التيمي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ ؛ أي مثَلُ أعمالِ الذين كفرُوا بربهم في انتفاعهِ بها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يومٍ ذي عَاصِفٍ، يقولُ: كما لا يقدرُ أحدٌ على الانتفاعِ على جمعِ ذلك الرَّمادِ إذا ذرَّتْهُ الريحُ الشديدة، فكذلك هؤلاءِ الكفَّار؛ ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ ؛ أي لا يقدرون على الانتفاعِ بشيءٍ من الأعمالِ التي عَمِلُوها على جهةِ البرِّ مثلَ صِلَةِ الرَّحِمِ ونحوها. وأما الكفرُ والمعاصي فلا يكون كرَمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الذي ذُكِرَ هو الذهابُ عن التنفُّعِ البعيدِ عن الحقِّ والهدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي ألم تعلَمْ - يا محمَّدُ - أنَّ اللهَ خلقَ السمواتِ والأرضَ على ما توجِبُ الحكمة وتقتضيه المصلحةُ، والحقُّ هو وضعُ الشيءِ موضعِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ ؛ أيُّها الكفار؛ أي يهلِكْكم، ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ ويخلُقْ قوماً آخرين أطوعَ للهِ منكم، ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، أي وليس ذلك على اللهِ بشديدٍ ولا متعذِّر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ؛ أي إذا كان يومُ القيامةِ برَزَ الناسُ من قُبورهم للمُسَائلَةِ والمحاسبةِ، فيسألون عن أعمالهم ويُجَازَوْنَ عليها، ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ ﴾ ؛ أتباعُ الظَّلَمَةِ والعُصاة، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ ﴾ ؛ وهم الرؤساءُ والقادة: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ ؛ في المعصيةِ والظُّلمِ في الدُّنيا، ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ ؛ دَافِعُونَ، ﴿ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ . فيقولُ لهم رؤساؤهم: ﴿ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ أي ما نخلصُ به من هذا العذاب، ﴿ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾ ؛ إليه؛ أي لا مَطْمَعَ لنا في ذلك، فكيف تطمَعون في مثلهِ من جِهَتنا؟ ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي لا حِيلَةَ لنا سواءٌ أجزِعْنا أم صَبرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ مِنْ هذا العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ ﴾ هذا إخبارٌ عن خُطبةِ الشيطانِ، وذلك أنه إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ،

قامَ إبليسُ خَطيبًا على مِنبَر من نار، فقال: يا أهلَ النار إنَّ اللهَ وعدَكم وعداً، وكان حقّاً وعده، ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾، أنا، ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ الإكراهِ على المعصية، ولا حجَّة على ما قلتُ، ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ ؛ إلى طاعتي بالوَسْوَسَةِ، ﴿ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ ؛ بسوءِ اختياركم، ﴿ فَلَا تَلُومُونِى ﴾ ؛ على ما حَلَّ بكم من العقاب، ﴿ وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾ ؛ فإنِّي لَمْ أجْبرْكُمْ على المعصيةِ، ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ ؛ أي بمُغيثِكم، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ ؛ ولا أنتم بمُغِيثِيَّ، والإصْرَاخُ في اللغة: هو الْمُسْتَغِيثُ إغاثةً به. ويُحكى أنَّ أعرابياً أتى على رجُلٍ يقرأ هذه الآيةَ، فقال: قَاتَلَهُ اللهُ مَا أفْصَحَهُ!

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ إخبارٌ عن كلامِ إبليس، ومعناهُ: إنِّي كفرتُ من قَبْلُ بالذي أشركتُمون به في الطاعةِ من قبلِ أن أشركتُموني به؛ أي كفرتُ بربي من قبلِ ما عدلتُموني بهِ. ويقال: معناهُ: إنِّي كفرتُ الآنَ بما كان من إشراكِكُمْ إيَّاي في الطاعةِ إذ أطعتُموني وجعلتُموني كأنِّي ربٌّ، فصيَّرتُموني شَريكاً لربكم، وأنا أكفرُ اليومَ بشِركِكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي قالَ اللهُ تَعَالَى: إن الظالِمين من إبليسَ وغيرِهِ لهم عذابٌ وَجيعٌ يخلصُ وجعهُ إلى قُلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي في جنَّات تجري من تحت قُصورها وأشجارها الأنهارُ، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي يُحيِّي بعضُهم بعضاً بالسَّلام، ويرسلُ اللهُ الملائكة إليهم بالسَّلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ؛ أي ألَم تعلَمْ يا مُحَمَّدُ كيف وصفَ اللهُ شبهاً كلمةً طيِّبةً وهي كلمةُ التوحيدِ: لا إلَهَ إلاَّ اللهُ والإقرَارُ بالنبُوَّة؛ كشجرةٍ طيِّبةِ الثمر، وهي النخلةُ التي لا شيءَ أحلَى من ثمرِها وهو الرُّطَبُ، كما لا كلامَ أحسنَ من كلمةِ الرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ فيه شَبَّهَ ثباتَ الإيمان وما فيهِ من الأدلَّة، بقَرَار النخلةِ التي أصلُها ثابتٌ على نِهاية الثباتِ في تَمكُّنِ

فرعها في الأرض، بل المعرفةُ في قلب المؤمن أثبتُ من عروق النخلة؛ لأن النخلةَ تُقلَعُ، ومعرفةُ العارفِ لا يقدر أحدٌ من الناسِ أن يُخرِجَها من قلبهِ.

وقولهُ تعالى: (وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) تُؤتِي أكُلَها، فيه تشبيهُ أعمال المخلِصين التي هي فروعُ الإيمان في أنّها ترتفعُ وتعلُو إلى جانب السَّماء؛ لأن الأعمالَ لا تصلحُ إلا بالإيمان، والأصلُ هو الإيمانُ، والفروعُ هو الأعمالُ الصالحة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ ﴾ ؛ فيه تشبيهُ ما يحصلُ من الثواب الدائم الذي لا منْزلةَ أعلَى منه، وقولهُ تعالى: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ ﴾ ؛ أي بعِلْمِهِ وقُدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ أي يُبيِّنُ اللهُ الأشياءَ للناسِ في صفة التوحيدِ والدين، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ لكي يتَّعِظُوا ويؤمنوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ؛ يعني كلمةَ الشِّرك، ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ؛ يعني شجرةَ الْحَنْظَلِ ليس فيها حلاوةٌ ولا منفعةٌ ولا رائحةٌ طيِّبةٌ، بل تضرُّ مَن تناولَها، فكذلك كلمةُ الكفرِ تضرُّ صاحبَها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي اقتُلِعَتْ، معناهُ: كما أنه ليس لشجرةِ الحنظل أصلٌ تثبتُ عليه وتَقَرُّ، ولكن تُقلع وتؤخذ حبَّتهُ من أصلهِ، فكذلك الكفرُ يُبطِلُهُ الله ويستأصلُ أهلَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ فإن الريحَ تقلَعُها وتذهبُ، كذلك ليس لكلمةِ الكفر حجَّة يحتجُّ بها صاحبها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ ﴾ ؛ أي يُثبتُ اللهُ الذين آمَنوا بقولٍ ثابت وهو: لاَ إلَـهَ إلاَّ اللهُ في الحياةِ الدُّنيا، وفي الآخرةِ يعني القبرَ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ الْمُؤْمِنَ إذا دَخَلَ قَبْرَهُ وَأتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ وَقَالاَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبيُّكَ ؟ فَيُثَبّتُهُ اللهُ فَيَقُولُ: اللهُ رَبي؛ وَالإسْلاَمُ دِينِي؛ وَمُحَمَّدٌ نَبيِّي. فَيَقُولاَنِ: صَدَقْتَ هَكَذا كُنْتَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى النَّار، فَيَقُولاَنِ لَهُ: هَذا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ كَفَرْتَ برَبكَ، فَإذا آمَنْتَ بربكَ فَهذا مَنْزِلُكَ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى الْجَنَّةِ وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ.

وَإنْ كَانَ كَافِراً أوْ مُنَافِقاً فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا تَقُولُ لِهَذا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ: لاَ أدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ كَذا وَكَذا. فَيَقُولاَنِ لَهُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ اهْتَدَيْتَ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ

إلَى الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَذا لَكَ لَوْ آمَنْتَ، فَأَمَّا إذا كَفَرْتَ فَإنَّ اللهَ بَدَّلَكَ بِهِ هَذا، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى النَّار، ثُمَّ يَقْمَعُهُ بالْمِطْرَاق قَمْعَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللهِ كُلُّهُمْ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ، فَلاَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ شَيْءٌ إلاَّ لَعَنَهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى النَّار يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ رِيحِهَا وَسَمُومِهَا، وَيُقَالُ لَهُ: نَمْ نَوْمَةَ اللَّدِيغِ، ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أَضْلاَعُهُ] فَذلِكَ قولُهُ (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الاخِرَةِ)[1] ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ﴾ ؛ أي ويهلِكُهم، ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ من التَّثبيتِ والإضلال، لا مانعَ له مما يفعلهُ.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا ﴾ ؛ فيه تعجيبٌ للنبيِّ ﷺ من صُنعِ المشركين، فإنَّهم بدَّلوا نعمةَ الله بالكُفر، ثم لم يقتَصِروا على هذا في أنفسهم حتى أضلُّوا قومَهم، ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي دارَ الهلاكِ وهي: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ ﴾ ؛ أي يدخلونَها يومَ القيامةِ، ﴿ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ قرارُ من يكون قرارهُ النار، وقوله تعالى: (جَهَنَّمَ) بنصب (يَصْلَوْنَهَا).

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا ﴾ ؛ أي أمْثَالاً ونُظَرَاءَ، ﴿ لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ ﴾ ؛ أي كان عاقبتُهم الضلالَ عن دينِ الله، ﴿ قُلۡ تَمَتَّعُواْ ﴾ ؛ قليلاً في الدنيا، ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ؛ في الآيةِ أمرٌ للنبيِّ ﷺ بأن يأمُرَ المؤمنين بما يؤدِّيهم إلى النعيمِ المقيم، وقولهُ تعالى: (يُقِيمُوا الصَّلاَةَ) أي يُؤَدُّونَها لمواقيتها بشَرائِطها.

واختلَفُوا في جزم (يُقِيمُوا) قِيلَ: لأنه جوابُ الأمر، وقال بعضُهم: تقديره: قُل لعباديَ الذين آمَنوا أقِيمُوا. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ ؛

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: الحديث (١٣٦٩) مختصراً. وأبو داود في السنن: كتاب السنة: الحديث (٤٧٥٠-٤٧٥٣). والطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٧٠٧) بأسانيد. وعن أبي هريرة أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٧٠٨ و١٥٧٠٩).

من الأموال في وجه البرِّ من الفرائض والنوافل، سِرّاً في النوافل، وعلانيةً في الفرائض، ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ ﴾ ؛ يومَ لا يُقبَلُ البدلُ للتخلُّصِ من النار، ﴿ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي ولا مَوَدَّةٌ يكون فيها تخليصُ أحدهما للآخر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ ﴾ ؛ أي من الثمار ما تنتفعون به. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ ؛ أي السُّفُن، ﴿ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، وتجري حيث تشاؤون، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ ﴾ ؛ أي سخَّرَها لكم إلى يومِ القيامة، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ بأن أتى بهما متعاقِبَين لينصرفَ الناسُ في معايشهم بالنهار ويهدأوا بالليل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ ﴾ ؛ من العاقبةِ وغير ذلك، ومَن قرأ (مِنْ كُلٍّ) بالتنوين فالمعنى: أعطاكُم من كلٍّ ما تقدَّمَ ذِكرهُ من النِّعَمِ، ثم قالَ (مَا سَأَلْتُمُوهُ) أي لَم تسألوهُ، بلِ ابتداكُم بذلك تفضُّلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ ؛ أي إنعامهِ، والنِّعمةُ ها هنا اسمٌ أُقيمَ مقامَ المصدر، ولذلك لم يُجمع، (لاَ تُحْصُوهَا) أي تأْتُوا على جميعِها بالعدِّ. وَقِيْلَ: لا تحفظُوها ولا تطيقوا عدَّها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ معناهُ: إن الإنسانَ مع هذه النِّعَم لظلومٌ لنفسهِ كفَّارٌ لنِعَمِ ربهِ. والإنسانُ: اسمُ جنسٍ لكن يُقصد به في هذا الموضعِ الكافرُ خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا ﴾ ؛ أي واذكُرْ إذ قالَ إبراهيمُ بعدَ ما بَنَى البيتَ: رب اجعل مكَّة آمِناً يأمَنُ فيها الناسُ والوحش، فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ حتى اجتمعَ فيه الناسُ مع شدَّة العداوةِ بينهم، وتَدْنُوا الوحوشُ فيه من الناسِ فتأمَنُ منهم. وإنما عَرَّفَ البلدَ في هذه الآيةِ ونكَّرَها في البقرة؛ لأن النَّكِرَةَ إذا أُعيدت تعرَّفت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ ؛ أي وَالْطُفْ بي وَبَنِيَّ لُطفاً نتجنَّبُ به عبادةَ الأصنام، ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ ؛ يعني الأصنامَ، وأضافَ الإضلالَ إلى الأصنام وإنْ لم تكن تفعلُ شيئاً؛ لأنَّهم ضَلُّوا بعبادتِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي فمَن تَبعَنِي على دِيني فإنه منِّي ومعي، ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ ؛ خالفَني في دِيني، ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾ ؛ أي غفورٌ لذنوبهم، رحيمٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ ؛ أي قالَ إبراهيمُ: إنِّي أسكنْتُ بعضَ ذُرِّيَتِي، وهو إسماعيلُ مع أمِّه هَاجَرَ، بـوادٍ جَدْبٍ لا يُنبتُ شيئاً، وأرادَ به وادِي مكَّة وهو الأبْطَحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ ؛ أي عندَ المسجدِ الحرام، سَمَّاهُ الْمُحَرَّمَ لأنه لا يستطيعُ أحدٌ الوصولَ إلا بالإحرامِ. وَقِيْلَ: أرادَ به حُرمَةَ الاصطيادِ والقتلِ، كما رُوي في الخبرِ: [أنَّ مَكَّةَ حَرَامٌ لاَ يُخْتَلَى خَلاَؤُهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا][(١)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ؛ أي أسكنتُهم عندَ بيتكَ الْمُحَرَّمِ ليُقيمُوا الصلاةَ بحَرَمِ مكَّة، ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي تُسرعُ إليهم، قال مجاهدُ: (لَوْ قَالَ إبْرَاهِيمُ: أفْئِدَةَ النَّاسِ، لَزَاحَمَتْهُمُ الرُّومُ وَفَارسُ، وَلَكِنْ قَالَ: أفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ)، وقال ابنُ جُبير: (لَوْ قَالَ إبْرَاهِيمُ: أفْئِدَةَ النَّاس، لَحَجَّتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: أفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ)[(٢)].

وقُرئ (تَهْوَى) بنصب الواو من هَوَى يَهْوَى إذا أحبَّ، إلاَّ أن القراءةَ المعروفة بالكسرِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري بمعناه في الصحيح: كتاب العلم: الحديث (١٠٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: الحديث (٤٤٦/ ١٣٥٤).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٦٩٠. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ٩ ص٣٧٣.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ ؛ أي مـا تُسِـرُّ أنفسُنا وما تُظهِرُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ يحتملُ أن يكون من كلام إبراهيمَ، ويحتملُ أن يكون قولاً من اللهِ معترضٌ بين الكلامَين، كأنه صدَّقَ إبراهيمَ فإنه لا يخفَى على اللهِ من شيءٍ.

ثم رجعَ إلى قـولِ إبراهيـم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ ؛ رُوي أنَّ إبراهيمَ كان ابن مائة سَنة يومَ وُلد له إسحاق، وكانت سـارةُ يومئذٍ بنتَ تسع وتسعين سَنةً، وكان إسماعيلُ أكبرَ مـن إسحق بثلاثـةِ عشـرة سَـنة. وقولهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي قابلٌ للدُّعاءِ.

وقولهُ: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ، أي مُداوماً على إقامةِ الصَّـلاة، وَ اجعل؛ ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ ؛ مَن يقيمُ الصلاةَ، ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي أجِبْ دُعائِي، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ ؛ قال بعضُهم: أرادَ آدمَ وحـوَّاء؛ لأن اللهَ تعالى كان نَهاهُ عن الاستغفار لأبيه من بعدِ ما تبيَّن له أنَّهُ عدوٌّ للهِ.

وقال بعضُهم: أرادَ أبوَيه الأدنيَين، فكان إبراهيم يسـتغفرُ لأبَويـه عـن مَوعِـدَةٍ وعـدَ بـها إياه. وقـرأ بعضُـهم (وَلِوَالِدَتِي) لأن أمَّـهُ كـانت مسلمةً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي يوم يحاسبُ الخلقُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ؛ أي لا تظُنَّنَّ اللهَ يا مُحَمَّدُ غافلاً عن أعمال الظَّالمين ومجازاتِهم على مـا يعملـون، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (إذا سِيقُوا إلَـى النَّـار شَخصَتْ أبْصَارُهُمْ إلَيْهَا)، وقال الحسنُ: (تَشْخَصُ أبْصَارُهُمْ إلَى إجَابَةِ الدَّاعِـي حِيـنَ يَدْعُوهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، لاَ يُغْمِضُونَ أعْيُنَهُمْ مِنْ هَوْلِ ذلِكَ الْيَوْمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ ؛ أي مُسرعين نحوَ البلاءِ الـذي ينْزلُ بهم، والإهْطَاعُ: الإسْرَاعُ، وقـال مجاهدُ: (مُـهْطِعِينَ؛ أيْ مُدِيْمِـينَ النَّظَـرَ)، قـال الخليلُ: (الْمُهْطِعُ: الَّذِي قَدْ أقْبَلَ عَلَى الشَّيْءِ بنَظَرِهِ وَلاَ يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ عَنْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ) أي رَافِعِي رؤوسِهم إلى ما يَرون في السَّماء من الانفطـار، وانتشـار الكواكب، وتكويرِ الشَّمس ونحوِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يُغمِضُونَ أعيُنَهم من الهولِ والفزَعِ، وقولهُ تعالى: (وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) أي قلوبُهم خاليةٌ من خيرٍ، وَقِيْلَ: مجوَّفَةٌ لا عقولَ فيها، قال السديُّ: (هَوَتْ أفْئِدَتُهُمْ بَيْنَ مَوْضِعِهَا وَبَيْنَ الْحِنْجَرَةِ، فَلاَ هِيَ عَائِدَةٌ إلَى مَوْضِعِهَا، وَلاَ هِيَ خَارِجَةٌ مِنْهَا).

ثم عادَ إلى خطاب النبيِّ ﷺ فقال: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ ؛ أي أعلِمْهُم بموضعِ المخافة يوم يأتيهم العذابُ وهو يومُ القيامةِ، ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ؛ أي الكفارُ: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ؛ أعِدْنا إلى حال التكليف، ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ ؛ واستَمْهَلوا مدَّةً يسيرةً كي يُجيبوا الدعوةَ ويتَّبعُوا الرسُلَ، فقالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ ؛ أي حَلَفْتُمْ من قبلِ هذا في الدُّنيا، ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ من الدُّنيا الى الآخرةِ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ؛ أي سكَنتُم في مساكنِ عادٍ وثمودَ، ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ؛ أي ظهرَ لكم كيفَ كفرُوا باللهِ ورسُلهِ، وكيفَ عاقبَهم اللهُ، والمعنى: كان ينبغِي أن يَنْزَجِرُوا أو يَرْتَدِعُوا الكفرَ اعتباراً بمساكنِهم بعدَ ما تبيَّن لكم كيف فعلنا بهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي وبيَّنَّا لكم الأمثالَ في القرآنِ الْمُنبهِ على التفكُّرِ، فلم يعتَبروا بتلكَ الأمثال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ ؛ أي قد مكَرت الأُمَمُ الماضيةُ بأنبيائِهم ما أمكنَهم من المكر، واللهُ تعالى عالِمٌ بمكرهم، ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ؛ جزاءُ، ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ مَن قرأ (لِتَزُولَ) بكسر اللام فالمعنى: وإنْ كان مكرُهم قصداً منهم إلى أن تزولَ منه الجبالُ، ثم لا تزولُ منه الجبالُ، فكيفَ يزولُ منه الدِّينُ الذي هو أثبتُ من الجبالِ.

---

(١) النحل / ٣٩ .

وَقِيْلَ: معناه الجحدُ، كأنه قال: وما كان مكرُهم ليزولَ منه دينُ الإسلام ونُبوته كثُبوتِ الجبال، واستحقرَ مكْرَهم. ومن قرأ (لَتزُول) بفتح اللام فمعناهُ: وإنَّ مكرَهم قد بلغَ منتهاهُ حتى تزولَ منه الجبالُ، فلا يضرُّ ذلك أنبياءَ الله ورسُلَهُ، فإن اللهَ وعدَ رسُلَهُ النصرَ، لقولِهِ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ ؛ أي لا تَظُنَّنَّ اللهَ يا مُحَمَّدُ مُخْلِفَ رُسُلِهِ ما وعدَهم من النصرِ وإظهار الدِّين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ؛ لا يعجزهُ شيءٌ، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ ؛ ذو نِقْمَةٍ ممن عصاهُ وكفرَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ؛ تبديلُها أنْ يُزادَ فيها وينقصَ منها، وتستوي جبالُها وأوديتها، وتُمَدَّ الأدِيْم العُكَاظِيِّ[٢] أرضاً بيضاءَ كالفِضَّة، وتبديلُ السَّموات انفطارُها وانتشارُ كواكبها وتكويرُ شَمسِها وخسوفُ قمَرِها[٣].

وذهب بعضُهم: إلى أنَّ الآيةَ على ظاهرها، وأن هذه الأرضَ تُبَدَّلُ يومئذٍ بأرضٍ أخرى، كما رُوي عن عائشةَ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأ عَلَيَّ هَذِهِ الآيَةَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَأيْنَ تَكُونُ النَّاسُ؟ قَالَ: [عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ] يعني الصِّراطَ[٤]، وأما السمواتُ على هذا القول، فإنَّها تُطْوَى وتبدَّلُ سماءً أخرى، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[٥]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ ؛ أي وبرزُوا من قبورهم للمحاسبة.

---

(١) الفتح / ٢٢٨ .

(٢) أدِيمٌ عُكَاظِيٌّ: منسوبٌ إلى عُكَاظ، وهو مِمَّا حُمل إليها فبيعَ بها. وعُكاظ اسمُ سوق من أسواق الجاهلية المشهورة كانت بقُرب مكَّة. وعبارة المخطوط هنا فيها نقص وبعض تحريف، وتم ضبطها وتصويبها كما في جامع البيان للطبري: الحديث (١٥٨٧٤).

(٣) في أصله معنى حديث أخرجه ابن أبي ماجة في السنن: كتاب الفتن: الحديث (٤٠٨١)، ضعفه البعض وصححه آخرون.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب صفات المنافقين: باب في البعث والنشور: الحديث (٢٩/ ٢٧٩١). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٢١). والطبري في جامع البيان: الحديث (١٥٨٥١) بأسانيد واللفظ له.

(٥) الأنبياء / ١٠٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي وترَى يا مُحَمَّد الذين أجرَمُوا يومَ القيامةِ (مُقَرَّنِينَ) أي مجمُوعِين مع الشياطين (فِي الأَصْفَادِ) أي في الأغلال والسَّلاسلِ، كما رُوي في الخبرِ: [أنَّهُ يُقْرَنُ كُلُّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانِهِ فِي غِلٍّ مِنْ حَدِيدٍ وَقَيْدٍ مِنْ حَدِيدٍ]. والأصفادُ الأغلال، واحدها صِفْدٌ وصِفَادٌ. وَقِيْلَ: الأصفادُ الأغلال والقيُودُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ ؛ أي قَميصُهم من نار سَوداء كالقَطْرَان، وهو الذي تُهْنَأُ[1] به الإبل، ومَن قرأ (مِنْ قِطْرٍ) فالمعنى: من نُحاسٍ مُذابٍ قد بلغَ النهاية في الحمايةِ. وتحتملُ أنَّهم يُسَرْبَلُونَ سَرْباً؛ لأن أحدَهما من القِطْرِ، والآخر من القِطْرَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي يعلُو وجوهَهم النارُ، وذلك أنَّ بين الكافر وشَيطانهِ حَجَراً من الكبريتِ يشتعلُ في وجهِهِ، ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ ؛ ليجزيَ الذين أساؤُا بما عمِلُوا، ويجزي الذين أحسَنُوا بالْحُسْنَى، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ إذا حاسبَ فحسابه سريعٌ؛ لأنه لا يحاسِبُ بعقدٍ وإشارة، ولا يتكلَّمُ بلسَانٍ، وإنه يكلِّمُ الجميعَ في وقتٍ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ ؛ أي هذا القرآنُ ذِكْرٌ بالغٌ وموعظة كافيةٌ للناس، وليُخوَّفوا بذكرِ العقاب، ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي ليَتَّعِظَ ذوُو العقولِ من الناسِ، فيوصلَهم ذلك إلى الجنةِ، ويخلِّصَهم من النار.

عن أبَيِّ بن كعبٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ إبْرَاهِيمَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ مَنْ عَبَدَ الأَصْنَامَ، وَبعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْهَا][2].

آخر تفسير سورة (**إبراهيم**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) تهنأ به: تُدْهَنُ، أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٨٦٠) عن الحسن قال: ((يعني الخَضْخَاض هِنَاءُ الإبل)).

(٢) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٥ ص٣٠٤، بإسناد واهٍ.

سُورَةُ الْحِجْرِ

سُورَةُ الْحِجْرِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَـةً بـلاَ خِـلاَفٍ، وَأَلْفَـانِ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسِتُّونَ حَرْفاً، وَسِتُّمِائَةٍ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ كَلِمَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُ الر، ومعنى (تِلْـكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) أي هذه آياتُ الكتاب الذي وعدتُ إنزالَهُ عليـكَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ أي مبيِّنٌ للحلال والحرام، مميِّزٌ بين الحقِّ والباطلِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي ربَّما يأتِي على الكفار يوم يتمنَّون أن لو كانوا مُسلمين، وذلـكَ في الآخـرةِ إذا صـارَ المسلمون إلى الجنَّة والكفارُ إلى النار.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ اللهَ تَعَالَى إذَا أدْخَلَ أهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّـةَ وَأهْـلَ النَّـار النَّارَ، أحْبسَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الصِّرَاطِ، فَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لَـهُمْ: نَحْنُ حُبسْنَا بكُفْرنَا وَنِفَاقِنَا، فَمَا نَفَعَكُمْ إيْمَانُكُمْ بمُحَمَّدٍ؟ فَعِنْدَ ذلِكَ يَصِيحُـونَ صَيْحَـةً لَمَّا عَيَّرَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، فَيَسْمَعُهَا أهْلُ الْجَنَّةِ، فَيَقُومُونَ إلَى آدَمَ ثُـمَّ إلَى إبْرَاهِيـمَ، ثُـمَّ إلَى مُوسَى، ثُمَّ إلَى عِيسَى يَطْلُبُونَ الشَّفَاعَةَ لَهُمْ، فَيُحِيلُونَهُمْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَشْفَعُ لَهُمْ، وَذلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، فَيُدْخِلُهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ، فَإذَا نَظَرَ الْمُنَافِقُونَ إلَيْـهِمْ تَمَنَّـوا أنْ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ ؛ أي اتركـهم يـا مُحمَّد يأكُلوا في الدُّنيا كالأنعام، ويتلذذُوا قليلاً، ويُشغِلْهم الأملُ الطويـلُ عـن طاعـةِ الله، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ، فسيعلمون ماذا ينْزلُ بهم من العذاب، وعن رسـولِ

اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [إنَّ أخوَفَ مَا أخَافُ عَلَى أمَّتِي شَيْئَين: طُولَ الأَمَلِ وَاتِّبَاعَ الْـهَوَى، فَأمَّا طُولُ الأمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ، وَأمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ][(١)].

قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ ﴾؛ أي أجلٌ ينتهون إليه لا يُهلِكُهم اللهُ حتـى ينتهون إليه، لا يهلِكُ أمَّة قبل أجلِها الذي كتبَ لها، ولا تؤخِّرُ عن أجلِها طرفةَ عـين، فلا يفترّ هؤلاء الكفار بتأخيرِ وقت إهلاكهم، فإنـه إذا جـاءَ الوقـتُ الـذي كتـبَ الله هلاكَهم فيه، لم يتأخَّروا عنه كما لا يتقدمون عليه.

وفي هذا بيانُ أنه لا يموتُ أحدٌ ولا يقتَـلُ إلاّ لأجَلـهِ الـذي جعلَـهُ الله لـه، ولا يعترضُ على هذا بقول مَن قالَ: يجبُ أن لا يكون القاتلُ ظالماً للمقتـول؛ لأنـه لـو لم يقتلْهُ كان يموتُ في ذلكَ الوقتِ! قُلنا: كان يموتُ من غـير ألَـمِ القتـلِ، فكـان القـاتلُ بإيصال ذلك الألَمِ إليه ظَالماً له.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ ﴾؛ أي قالَ الكفارُ مِن أهلِ مكَّة وهم: عبدُالله بن أمَية المخزومي وأصحابـهُ؛ قـالوا للنبيِّ ﷺ: يا أيُّها الذي نزلَ عليه الذِّكرُ في دعواهُ وفي زعمهِ إنَّكَ لَمجنون في دعواكَ أنه نَزلَ عليكَ هذا. فإنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بأن القرآنَ أُنزلَ عليه، وقولهُ تعـالى: ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾؛ أي هَلاَّ تأتينا بالملائكةِ من السَّماء يشـهَدُون أنَّـكَ رسـولُ اللهِ، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ ﴾؛ فيما تدَّعي.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾؛ جوابٌ من اللهِ لَـهم يقـولُ: ما تَتنزَّلُ الملائكةُ من السَّماء إلا بالرِّسالةِ والعقـاب والمـوتِ، كـلُّ ذلـك حـقٌّ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾؛ أي ومـا كـانوا إذاً مؤجَّلـين إذا نزلـت عليهم الملائكةُ، بل يُستَأصَلُونَ بالعذاب حينئذٍ، إلا مَن يكون له المعلومُ من حالـهِ أنـه يؤمنُ.

---

(١) في كنز العمال: الحديث (٤٣٧٦٤) عزاه المتقي الهندي إلى ابن النجار عن جـابر، وابـن عسـاكر عن علي موقوفاً، وقال: فيه يحيى بـن مسـلمة حـدَّث بالمناكـير. والحديـث (٤٣٧٦٥) عـزاه إلى الحاكم في تاريخه والديلمي عن جابر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ؛ الذي جعلناهُ مُعجِزاً لا يقدرُ على الإتيان بمثلهِ، فهو محفوظٌ من الزِّيادة والنقصان، ويقال: هو محفوظٌ من كَيْدِ المشركين بالإبطال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي ولقد أرسَلنا رسُلاً من قبلِكَ في الأُمَم الأوَّلين، والشِّيَعُ: جمعُ شِيعَةٍ، والشِّيعَةُ: الأمَّةُ والفِرقَةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ في إنكار التوحيد والبعثِ، كما يفعلُ بكَ قومُكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ ؛ بأن تُسمِعَهم ويُفهِمَهم ثم لا يؤمنون به. وَقِيلَ: معناهُ: كذلك نسلكُ الاستهزاءَ في قلوب المُجرمين حتى يَمتَنِعُوا عنه. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيءِ في الشيء. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ بعذاب الاستئصالِ عندَ مُعاندَتِهم في التكذيب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا ﴾ ؛ أي لو فَتحنا على هؤلاءِ الكفار باباً من السَّماء ينظُرون إليه، فظَلُّوا يصعَدُون إليه وينْزِلُونَ عنه، لَم يؤمنوا وقالُوا: (إنَّما سُكِّرَتْ أبْصَارُنَا) أي غُطِّيَتْ أبصارُنا وأُغْشِيَتْ عن حقيقةِ الرُّؤيةِ، ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ نحن قومٌ قد سُحِرْنَا، وتُخَيَّلُ لنا هذه الأشياءُ على خلافِ حقَائِقِها، كما قالوا حين انشقَّ القمرُ وعاينوهُ: هَذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

ومَن قرأ (سُكِرَتْ) بالتخفيفِ فهو من السُّكْرِ، وقراءةُ التشديدِ؛ لتكثيرِ الفعلِ والمبالغة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ ؛ وهي منازلُ الشَّمسِ والقمر والكواكب التِّسعة، وهي اثنَا عشرَ بُرجاً: أوَّلُها الْحَمَلُ والثورُ إلى آخرها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي زيَّنا السماءَ بالكواكب للناظِرين إليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي حَفِظْنَا السماءَ أن يدخُلَ فيها شيطانٌ يمكنه الاستماعُ إلى كلامِ الملائكة.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَتِ الشَّيَاطِينُ لاَ تُحْجَبُ عَنِ السَّمَوَاتِ كُلِّهَا، وَكَانُوا يَقْعُدُونَ فِي السَّمَاءِ مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ، فَيَسْتَمِعُونَ إلى مَا هُوَ كَائِنٌ فِي الأَرْضِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ، فَيَنْزِلُونَ بِهِ عَلَى كَهَنَتِهِمْ، فَيَتَكَلَّمُ بِهِ الْكَهَنَةُ لِلنَّاسِ، حَتَّى بُعِثَ عِيسَى عليه السلام فَمُنِعُوا مِنْ ثَلاَثِ سَمَوَاتٍ، وَكَانُوا يَصْعَدُونَ إِلَى أَرْبَعِ سَمَوَاتٍ إِلَى أنْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمُنِعُوا مِنَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَحُرِسَتِ السَّمَاءُ بِالنُّجُومِ وَالْمَلاَئِكَةِ، فَمَا مِنْهُمْ أحَدٌ يُرِيدُ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ إلاَّ رُمِيَ بِشِهَابٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي عَلَى نَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْبَلُ)[1]. فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي نجمٌ مُضِيءٌ حارٌّ يتوقدُ لا يخطؤهُ، والشِّهَابُ: هو الكوكبُ الْمُنْقَضُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾ ؛ أي بسَطناها، ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ ؛ أي جِبَالاً ثوابتَ أوتاداً لها، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا ﴾ ؛ أي في الجبالِ، ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ من كلِّ ما يوزَنُ مثل الذهب والفضة والحديد والصُّفْرِ والنُّحاس والرصاصِ. ويجوز أن يكون المعنى: وأنبتْنا في الأرضِ من كلِّ شيءٍ من النباتِ والثمار مقدورٍ مقسومٍ لا يجاوزُ ما قَدَّرَهُ اللهُ على ما تقتضيه الحكمةُ. وأما تخصيصُ الموزون فلأنَّ ما يُكَالُ من الحبوب يعاقبهُ الوزن أيضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ﴾ أي جعلنا لكم في الأرضِ معايشَ مما تأكُلون وتشرَبُون وتلبَسون، وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي وجَعلنا لِمَن لستُمْ له برَازِقِينَ معايشَ من الدواب وغيرِها، وجاءت (مَنْ) لغيرِ الناس كقوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾[2] الآيةَ. وَقِيْلَ: المعنى: وجعَلنا لكم مَن لستُم له برَازقين، كأنه قال: جعلنا لكم فيها معايشَ، وجعلنا لكُم العبيدَ والدوابَّ، وكفيناكُم مُؤْنَةَ أرزاقِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ ؛ أي ما مِن شيءٍ تحتاجون إليه من النَّباتِ والثمار والأمطار، إلاّ ومفاتيحَهُ إلَينا وهو في مَقدُورنا. قَوْلُهُ

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٠؛ نقله القرطبي عن الكلبي عن ابن عباس.
(٢) النور / ٤٥ .

تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ما نُنَزِّلُ الرزقَ والمطرَ إلا بمقدارٍ معلوم تقتضِي الحكمةُ إنزالَهُ، ويعلمُ الْخُزَّانُ مقاديرَهُ، كما رُوي في الخبر: [مَعَ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكٌ يَضَعُهَا فِي مَوْضِعِهَا، إلاَّ يَوْمَ الطُّوفَانِ فَإنَّـهُ طَغَـى الْمَـاءُ يَوْمَئِـذٍ عَلَـى خُزَّانِهِ، فَلَمْ يَحْفَظُواْ مَا خَرَجَ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ](١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ ؛ أي ذاتَ لُقَـاحٍ تـأتِي بالسَّـحاب وتُلْقِحُ الشَّجرَ، فالريحُ هي الْمُلَقِّحَةُ للسَّحاب؛ أي الْمُحَمِّلَةُ للسحاب المطرَ، قال ابـنُ مسعود: (يَبْعَثُ اللهُ الرِّيحَ فَتَلْقَحُ السَّحَابَ، ثُمَّ تَمُرُّ بِـهِ فَيَـدِرُّ كَمَـا تُـدِرُّ النَّعْجَـةُ، ثُـمَّ يُمْطِرُ)، وعنهُ أيضاً قال: (خَلَقَ اللهُ الْمَاءَ فِي الرِّيحِ فَتُفْرِغُهُ الرِّيحُ فِي السَّحَابِ ثُمَّ تَمُرُّ بِهِ)(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي لستُم لذلك الماءِ بخازنينَ ولا مفاتيحهُ بأيدِيكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ أي نُحيـي بالبعثِ في الآخرة، ونُميتُ في الدنيا ونحن الوارثونَ لِمَا في السَّـموات والأرضِ بعـدَ موتِ أهلها، ومعنى الإرْثِ: الخلائقُ كلُّهم يَموتُونَ ولا يبقَى إلا اللهُ عَزَّ وَجَـلَّ، ومـا يبقَى للحيِّ بعد الميْت يُسمَّى مِيرَاثاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي علِمْنَا الأوَّلين منكم وعلِمْنا الآخِريـن، وَقِيْـلَ: ولقـد علِمْنـا السَّابقين منكـم إلى الطاعةِ، ولقد علمنا المتأخِّرين عن الطاعةِ.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (كَانَتِ امْرَأةٌ حَسْنَاءُ تُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ النِّسَاءِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَتَقَدَّمُ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ لِئَلاَّ يَرَاهَا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَكُونُ فِي آخِرِ الصَّفِّ، فَإذا رَكَعَ تَقُولُ هَكَذا، وَنَظَرَ إلَيْهَا مِنْ تَحْتِ إبْطِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان عن الحكم بن عتيبة بلاغاً.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٩٤٦) عن ابن مسعود بأسانيد.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٥٩٧٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ ؛ أي يجمَعُـهم للجزاءِ والحساب، ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ ؛ في أفعالهِ، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ بما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ يعني آدمَ، والصَّلْصَالُ: هو الطِّينُ اليابسُ الذي لَم تُصِبْهُ نـارٌ، فإذا ضَرَبْتَهُ صَلَّ؛ أيْ صَوَّتَ، وإذا مَسَّهُ النارُ فهو فَخَّارٌ. والْحَمَأُ: جَمْعُ الْحَمَأةِ، وَهُوَ الطِّينُ الْمُتَغَيِّرُ إلَى السَّوَادِ. والْمَسْنُونُ: مُتَغَيِّرُ الرَّائِحَةِ إلَى النَّتَنِ من قوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[1] وهو الذي أتت عليه السُّنون.

وذلك أن آدمَ كان في الأصلِ تُراباً ثم عُجِنَ ذلك الترابُ بالماءِ فصارَ طِيناً، ثم صارَ حَمَأً مَسْنُوناً ثم صُوِّرَ، وتُرِكَ مصوَّراً حتى يَبسَ فصارَ صَلْصَالاً، فمكثَ أربعين سنةً ثم صارَ بَشَراً، لَحماً ودماً وعظماً، ثم نُفِخَ فيه الروحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ قِيلَ: إن الْجَانَّ أبو الجنِّ وهو إبليسُ، فمَن أسلَمَ من ولدهِ فهو جِنِّيٌّ، ومَن كفرَ فهو شيطانٌ، وقوله تعالى: (مِنْ قَبْلُ) أي من قبل آدمَ، وقال الكلبيُّ: (الْجِنُّ وَلَدُ الْجِنِّ وَلَيْسَ هُوَ بإبْلِيسَ، إنَّمَا إبْلِيسُ أبُو الشَّيَاطِينِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ نَارِ السَّمُومِ) أي مِن نارٍ حارَّة، قال ابنُ مسعود: (سَمُومُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنَ السَّمُومِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ الْجَانُّ)[2]، ويقالُ: السَّمُومُ نارٌ صافية لا دخانَ لها، ومِن هذا سُمِّيت الريحُ المحرقة الحارَّة سَموماً. وأما الْمَارجُ الذي ذكرَهُ الله تعالى في قولهِ ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[3] فمعنى الْمَارجِ ما اختلطَ من لَهَب النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ ؛ أي جمعتُ خَلقَهُ باليدين

---

(١) البقرة / ٢٥٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٠٠٠). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٣٨٢)

(٣) الرحمن / ١٥ .

والرجلين والعينَين وسائرِ الأعضاء، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وأدخلتُ فيه روحاً فصارَ بشراً بعدَ ما كان طيناً يابساً، ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾؛ على وجُوهِكم، ﴿سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي خاضعين له بالتحيَّة، ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾؛ لآدمَ سجودَ تحيَّة له، وعبادةً للهِ، وقولهُ تعالى: (أجْمَعُونَ) يدلُّ على اجتماعِهم في السُّجود في حالةٍ واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾؛ أي امتنعَ من السُّجود لآدمَ، ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ﴾؛ أي كيفَ ينبغي أن أسجُدَ له، وأنا أشرفُ منه أصلاً وهو، ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾، من طينٍ يتصلصلُ مجوَّف محتاجٌ إلى الطعام والشراب، وهو من حَمَأ، والْحَمَأُ ظلمةٌ وسواد، والْمَسْنُونُ من الحمأ مُنْتِنٌ، ﴿قَالَ﴾؛ اللهُ تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾؛ أي من الجنَّة، وَقِيلَ: من الأرض، فألْحقَهُ بجُزر البحار، ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي مطرودٌ من الرحمةِ، مُبْعَدٌ من الخير، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ﴾؛ مع هذا، ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾؛ لَعْنَةَ اللهِ ولعنةَ الخلائق، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾؛ يومِ الجزاء وهو يومُ القيامةِ، وهو أوَّلُ من عصَى اللهَ من أهل السَّموات والأرض.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي أجِّلنِي إلى يوم يبعثُ الخلائقُ، أرادَ الخبيثُ أن لا يذوقَ الموتَ، ﴿قَالَ﴾؛ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ أي وقتِ النَّفخةِ الأُولى حين يُصعَقُ مَن في السمواتِ ومن في الأرض، وبين النفخة الأُولى والثانية أربعون سنةً.

وهذا لم يكن إجابةً من اللهِ لإبليس إلى ما سألَ؛ لأنه لم يكن أجلهُ ما دون آخرِ التكليف ثم أجَّله إليه، ولكن كان في علمِ الله أنه لم يسألْ لكان أجلهُ يمتدُّ إلى آخرِ التكليف، فيكون هذا جوابَ إهانةٍ لا جواب له.

فلما لم يعطَ الخبيثُ ما سألَ من النَّظْرَةِ، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾؛ أي خيَّبْتَنِي من جنَّتك ورحمتك، ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ لبَنِي آدمَ، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾؛ من الشهوات واللذاتِ حتى يختارُوها على ما عندَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ مَن قرأ بكسرِ اللام فمعناه: الذين أخلَصُوا الطاعةَ لكَ، ومَن نصبَها فمعناهُ: الذين أخلَصتَهم لنفسِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي افعَلْ ما شِئْتَ، فإن طريقكَ عليَّ لا تفوتُني، وهذا تَهديدٌ لإبليسَ، وَقِيْلَ: معناهُ: عليَّ مَمرُّ مَنْ أطاعكَ وعليَّ مَمرُّ من عصَاكَ، كما قالَ: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالْمِرْصَادِ﴾(١)، وَقِيْلَ: معناهُ: إن هذا دينٌ مستقيم عليَّ بيانهُ والهداية إليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ ؛ أي لا تقدرُ أن تحمِلَهم على المعصيةِ وتُكرهَهم عليها، ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، ولكن مَن يتَّبعُكَ فإنما يتَّبعُكَ باختيارهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لموعِدُ إبليس ومَن تَبعَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾ ؛ بعضُها أسفلَ من بعضٍ، وكلُّ طَبَقٍ منها أشدُّ حرّاً مِن الذي فوقَهُ سبعين ضِعْفاً، والبابُ الأوَّلُ أهونُ حرّاً، ولو أن رَجُلاً بالمشرقِ فكُشِفَ عنها بالمغرب لخرجَ دماغهُ من مِنْخَرَيهِ من شدَّة حرِّها.

والطبقُ الأول: جهنَّم، فيه أهلُ القِبلَةِ مِن أهلِ الكبائر إذا ماتوا غيرَ تائبين. الثاني: لَظَى، وفيه النَّصارَى. والثالثُ: الْحُطَمَةُ، وفيه اليهودُ. الرابعُ: السَّعِيرُ، وفيه الْمَجُوسُ. الخامسُ: سَقَرُ؛ وفيه المشركين وأهلِ الأهواء المختلفة، السادسُ: الْجَحِيمُ، وفيه الصَّابئُونَ والزنادقةُ، السابعُ: الْهَاوِيَةُ، وفيه المنافقونَ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي المتَّقين للمعاصي بالإيمان والطَّاعة في بساتينَ وأنْهارٍ ظاهرةٍ تنبُع مثلَ الفَوَّارَاتِ، وتجري بلا أخدودٍ، يقالُ لهم يومَ القيامة: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ ؛ ادخلُوا الجنةَ بسلامٍ؛ أي سلام من الآفَاتِ، وَقِيْلَ: بتحيَّة من اللهِ، ﴿ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ، من كلِّ ما تكرَهُون.

---

(١) الفجر / ١٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ ؛ أي نزعنا ما في صدور أهل الجنَّة من أسباب العداوةِ من الحقد والحسَدِ والتباغُض، ﴿ إِخْوَانًا ﴾ ؛ أي حتى يصيروا بمنْزلة الإخوان، ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ ﴾ ؛ من ذهبٍ، ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ في الزيادةِ تسيرُ بهم سُرُرُهم في الجِنَان، بعضُها إلى بعض، والسُّرُرُ جمع سَرير. وعن عليٍّ ﷺ أنه قال: (إنِّي لأَرْجُو أنْ أكُونَ أنَا وطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابلِينَ))[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ ؛ أي لا يُتعِبُون أنفسَهم في طلب العيش، ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ ؛ ولا يخافون الإخراجَ منها أبداً، شبابٌ لا يَهرَمُون؛ أصحاءٌ لا يَسقَمُونَ؛ أحياءٌ لا يموتون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ؛ أي أخبرْ عِبادي أنِّي أنا الغفورُ لذنوب مَن تابَ، الرحيمُ لِمَن ماتَ على التوبةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ؛ لِمَن استحقَّهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؛ أي أخبرهُم عن أضيافِ إبراهيمَ وهم الملائكةُ، إلاّ أنه قالَ (عن ضَيْفِ) لأن الضيفَ مصدرٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ ؛ أي قالَ لهم إبراهيم حين لم يَطعَمُوا من طعَامِهِ: إنَّا منكم فزعُونَ، والوَجَلُ: هو الفزعُ، ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ ؛ أي لا تخفْ، ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ ؛ بمولودٍ إذا وُلِدَ كان غُلاماً، وإذا بلَغَ كان عليماً، ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ ؛ بالولدِ، ﴿ عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ ؛ بالشَّيب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ ؛ قالَ هذا على جهة التعجُّب. وَقِيْلَ: أراد فتُبشِّرون بهذا من عندِ الله، أو من تلقاءِ أنفسِكم. ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي بأمرِ الله، فإنَّ أمرَ اللهِ لا يكون إلا حقّاً، ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٠٢٦ و١٦٠٢٨ و١٦٠٢٩).

﴿ٱلْقَـٰنِطِينَ ٥٥﴾؛ من رحمةِ الله، ثم ﴿قَالَ﴾؛ لَهم: كيف أقنطُ من رحمةِ الله، ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾؛ منها، ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾؛ أي ما شأنُكم أيُّها المرسَلون؛ لأنَّهم رسُل اللهِ، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ﴾؛ أي لهلاكِ، ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨﴾؛ وهم قومُ لوطٍ.

وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾؛ أي إلاّ خاصَّةَ الذين آمَنوا به، ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٩﴾؛ من الهلاكِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ٦٠﴾؛ استثناءٌ من الهاءِ والميم، وكانت امرأتُهُ منافقةً واسمها وَاعِلَة، فقُدِّرَ عليها الهلاكُ، والغابرُون هم الباقون في موضعِ العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ٦١﴾؛ أي لما جاءَ الملائكةُ آلَ لوطٍ، ﴿قَالَ﴾؛ لهم لوطُ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ٦٢﴾؛ وإنما قالَ لهم ذلك؛ لأنَّهم جاؤهُ على هيئةٍ وجَمال لم يكن قد شاهدَ مِثلَهم في الجمال، وكان يعلمُ طلبَ قومه لأمثالهم، فخافَ عليهم منهُم فقالَ: إنَّكم قومٌ أنْكِرُ مجيئَكم إلَيَّ في هذه الديار[1] ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ٦٣﴾؛ أي بالعذاب الذي يكونُ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ بأمرِ من اللهِ، ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ٦٤﴾؛ في ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي ببَعضٍ من اللَّيلِ عند السَّحَر، ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾؛ أي كُن فيمَن يسيرُ خلفَهم؛ كي لا ينالَهم العذابُ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا يتخلفْ في موضعِ الهلاكِ، وَقِيْلَ: لا يلتفِتْ إلى شيءٍ يخلِّفهُ؛ أي لا يعرجْ على شيءٍ، ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥﴾ بالمضيِّ إليه وهو صفد[2].

---

(١) في المخطوط: (هذه الدثار) وهو تصحيف.

(٢) صَفَد: قرية من قرى لوط. قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ ؛ أي وأوحَينا إليه ذلك الأمرَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ ؛ في موضعِ نصبٍ بدل مِن قوله (ذلِكَ الأَمْرَ)، وَقِيْلَ: في موضع خفضٍ؛ لأن المعنى بأنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطوعٌ، وقَطْعُ الدَّابر هو الإتيان على آخرهم بالهلاكِ حتى لا يبقَى منهم أحدٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مُستَأصَلون عندَ الصَّباح، ولا يبقَى لهم نسلٌ ولا عَقِبٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي أهلُ مدينة قومِ لوط وهي سَدُوم، يبَشِّرُ بعضُهم بعضاً بأضيافِ لوط لعمَلِهم الخبيثِ، فإنَّهم كانوا يُجَاهِرُونَ بهذه الفاحشةِ، وقال لَهم لوطٌ: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ؛ في الحرام، ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ ولا تُذِلُّون في أمري، ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي عن ضيافةِ الغُرباء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ ﴾ ؛ أزوِّجُكُموهُنَّ، ﴿ إِن كُنتُمْ ﴾ ؛ لا بدَّ، ﴿ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ مثلَ هذا الفعلِ، وذلك أنه لم يَجِدْ ما يتَّقِي به أضيافَهُ أبلغَ من عَرضِ بناته عليهم للتزويجِ، وافتداءِ ضَيفِه ببناتِهِ في الشَّفاعة، وقد كان عَلِمَ أنَّهم لا يرغبون في التزويجِ. وَقِيْلَ: أرادَ بقولِهِ (بَنَاتِي) بناتِ قَومِي؛ لأن نساءَ أمَّة كلِّ نبيٍّ بمنْزلةِ بناتهِ في نفقته عليهنَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ هذا قسَمٌ بحياةِ نبيِّنا مُحمَّد ﷺ، ولم يُقسِمْ بحياةِ أحدٍ غيرِه، تقديرُهُ: لعَمرُكَ قَسَمِي، إلاَّ أنه حُذفَ الخبرَ، وجوابُهُ: إنَّهم لَفِي غفلَتِهم يتحيَّرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي وقتَ الإشراق، وذلك أنَّ الملائكةَ قلَعُوا مَدائِنَهم وقتَ الصُّبحِ، فرفَعُوها إلى قريبٍ مِن السَّماء، ثم قلَبُوها عند طلوعِ الشمس، وصاحَ بهم جبريلُ حينئذٍ، ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ ، وقد تقدَّم تفسيرُ باقي الآيةِ في سُورة هودٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي في إهلاكِ قومِ لوط لآياتٍ للمتفرِّسين، والمتوسِّمُون هم النُّظَّارُ المثبتون في نَظَرهم حتى يعرفوا حقيقةَ السِّمَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ قَريَاتِ قومِ لوط

لبطَريقٍ واضحٍ ولا يندرسُ ولا يخفَى على طريقِ قُومِكَ إلى الشَّام، والمعنى أن الاعتبارَ بـها ممكـنٌ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي لدلالـةً للمؤمنين الذين يصدِّقون بذلك.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي وقـد كـان أصحابُ الأَيْكَةِ وهو قومُ شُعَيبٍ لَظَالمين بكُفرهم، والأَيْكَةُ: الشَّـجرُ الملتـف الكبـيرُ، وكان شُعيب بُعِثَ إلى قَومَين، إلى أهلِ مدينَ كانوا يطفِّفـون الكيـلَ والـوزنَ فـأُهلِكوا بالصَّيحة، وبُعث إلى أصحاب الأيكةِ فأُهلِكُوا بالظُّلَّة.

ويقالُ: إن مَدينَ والأيكة واحدٌ، كانت الأيكةُ عند مِدين، فخرَجُوا مـن مديَـن إليها يطلبون الرُّوح عندَها، فأخذهم عذابُ يوم الظُّلةِ، واضطـرمَ المكـانُ عليـهم نـاراً فهلَكوا عـن آخرهـم. قَوْلـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي بـالعذاب، ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي إن قريَات لُوطٍ ومواضعِ شُعيب لعلَى طريقٍ مُبين.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي ولقـد كـذبَ قـومُ صـالحٍ ومَـن تقـدَّم مـن المرسَـلين، والْحِجْـرُ ديـارُ ثَمُـودِ، وإنمـا سُـمُّوا أصحابَ الحجرِ؛ لأن الحجرَ اسمٌ لوادٍ كانوا يسكُنون عندَهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ ؛ يريدُ الناقةَ، ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

قوله: ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي يَنقُبُونَ بيوتَهم في الجبال آمِنِينَ من الموتِ لطُول أعمارهم، وقِيْلَ: من الحـرِّ وسقُوطِ السَّـقفِ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي وقتَ الصُّبح صاحَ بهم جبريلُ فهلَكوا، ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم ﴾ ؛ من عذاب الله، ﴿ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ من الأموال.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ؛ أي للحـقِّ وإظـهار الحـق لم نخلُقْـهما عبَثـاً، ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ ؛ يعـني القيامــةَ لِمُجازَاةِ الناسِ كلِّهم، ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي أعرضْ عن مُجـازَاةِ المشركين وعن مجاوبَتِهم، فإنَّ مجاوبةَ السَّـفيه سَفَهٌ، قـال مجـاهدُ: (هـذا مَنسُـوخٌ بآيَـةِ

الْقِتَـال). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي الخَـالقُ للإنسان، العالِمُ بتدبيرِ خلقِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي أكرَمناكَ يا مُحَمَّدُ بسبعٍ من الْمَثَانِي، قِيْلَ: هي السبعُ الطِّوالُ، وهي السورُ السبع من أوَّلِ البقرةِ إلى الأنفالِ والتوبةِ، وهما جميعاً سورةٌ واحدة، وسُميت هـذه السورةُ مَثَانِي؛ لأنَّهُ ثُنّى فيها الأقاصيصَ، والأمر والنهيَ، والوعيد، والْمُحكَمَ، والمتشابهَ.

وقال ابنُ عبَّاس: (السَّبْعُ الْمَثَانِي فَاتِحَةُ الْكِتَاب)[١] هكذا رُوي عن رسـول الله ﷺ، حيث قال: [مَا أنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ وَالزَّبُور مِثْلَ فَاتِحَةِ الْكِتَاب، وَإنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي][٢].

وإنما سُمِّيت هذه السورةُ مَثَانِيَ؛ لأنَّها تُثْنَى في كـلِّ صـلاةٍ. وإنمـا خَـصَّ هـذه السورةَ من جُملةِ القرآن تَعظيماً لها؛ لأن كمالَ الصلاةِ متعلِّقٌ بها، كما خصَّ جـبريلَ وميكائيل من جُملة الملائكةِ تَعظيماً لهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالْقُرْآنَ الْعَظِيـمَ) أي وآتينـاكَ القرآنَ العظيمَ.

وقولـهُ تعـالَى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا تَنْظُرَنَّ بعَينِ الرَّغبةِ إلى ما أعطَينا من الأموالِ رجَالاً من بني قُريظة والنَّضير وغيرهم من قُريش، فإنَّ ما نُعطيكَ من النبوَّةِ والقرآن أعظمُ مما أعطَيناهم من الأموالِ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ بما أنعَمْنا عليهم من ما لَم نُنعِمْ به عليكَ.

ويقالُ: لا تحزَنْ على هلاكِهم إن لَم يُؤمِنوا، وهذا القولُ أقربُ؛ لأن النـبيَّ ﷺ كان لا يجوزُ أن يَحْسِدَ أحداً بما أنعمَ اللهُ به عليهِ من نَعيم الدُّنيا، وإنما كان يحزنُ علـى إصرارهـم علـى الكُفرِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي

---

(١) أخرجه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٦١٠٣ و١٦١٠٤) عـن ابـن مسـعود ﷺ، والأثـر (١٦١٠٥) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦١٣١). والـترمذي في الجـامع الصحيـح: أبـواب التفسير: الحديث (٣١٢٥)، وفي أبواب فضائل القرآن: الحديث (٢٨٧٥)، وقال: حسن صحيح.

تواضَعْ، وألِنْ جناحَكَ للمؤمنين؛ لكي يَتَّبِعُكَ الناسُ على دِينِكَ، ولا ينفِرُوا من عندِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي المُعَلِّمُ بموضعِ المخافة، المُبينُ لكم بلُغةٍ تصدِّقونها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: وَأنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ كَمَا أنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى)[1]. سَمَّاهم مُقتسِمِين؛ لأنَّهم اقتسَموا كُتُبَ اللهِ تعالى، فآمَنُوا ببعضِها وكَفَرُوا ببعضِها، وهمُ، ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي فرَّقوهُ فآمَنُوا ببعضهِ وهو ما وافقَ دينَهم، وكفَرُوا ببعضهِ وهو ما خالفَ دينهم،

وقال بعضُهم: رهطٌ من أهلِ مكَّة، قال مقاتلُ: (سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلاً بَعَثَهُمُ الْوَلِيدُ ابْنُ الْمُغِيرَةِ أيَّامَ الْمَوْسِمِ، فَاقْتَسَمُواْ الأعْقَابَ[2]، وَقَعَدُواْ عَلَى طَرِيقِهَا، فَإذا جَاءَ الْحُجَّاجُ قَالَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ: لاَ تَغْتَرُّوا بهَذا الْخَارج مِنَّا الْمُدَّعِي النُّبُوَّةَ فَإنَّهُ مَجْنُونٌ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى عَلَى طَرِيقٍ أُخْرَى: إنَّهُ كَاهِنٌ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: شَاعِرٌ، وَالْوَلِيدُ قَاعِدٌ عَلَى بَاب الْمَسْجِدِ نَصَّبُوهُ حَكَماً، فَإذا سُئِلَ عَنْ رَسُول اللهِ ﷺ قَالَ: صَدَقَ أُوْلَئِكَ يَعْنِي الْمُقْتَسِمِينَ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) هم هؤلاءِ المقتَسِمين جَزَّءُوا القرآنَ، فقالَ بعضُهم: سحرٌ، وقال بعضهم: كَذِبٌ، وقال بعضُهم: شِعرٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلين، وقال بعضهم: مُفترَى. ومعنى التَّعْضِيَةِ: التفريقُ، يقالُ: عَضَيْتُ الشيءَ إذا فرَّقتَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي في الآخرةِ، ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ مِن تفريقِ القرآن، وصَرفِهم الناسَ عن دينِ مُحَمَّد ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة الحجر: الحديث (٤٧٠٥ و٤٧٠٦) عن ابن عباس قال: ((آمَنُوا ببَعْضٍ وَكَفَرُوا ببَعْضٍ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى)).

(٢) الأعقاب: ما بعد مكة من الطرق يفد منها الناس.

(٣) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٢١١، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٥٨.

وعن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ وفي هذهِ الآية قالَ: [فَوَرَبكَ لَنسْأَلَنَّهُمْ يوْمَ الْقِيامَةِ عَنْ قَوْلِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ][1] وَقَالَ عبدُالله: (وَالَّذِي لاَ إلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا عَمِلْتَ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا أَجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ)[2].

واعترضت الْمُلْحِدَةُ على هذه الآيةِ، وعلى قولهِ تعالى ﴿فَيَوْمَئِـذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذنْبِهِ إنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[3] وحكَمُوا عليهم بالتناقُضِ!

والجوابُ: إنه لا يقالُ لهم هل عملتم[4] كذا؛ لأنه أعلَمُ بذلكَ منهم، ولكن نقولُ لَهم: لِمَ عملتم كذا، وقال قطربُ: (السُّؤَالُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: سُؤَالُ اسْتِعْلاَمٍ وَاسْتِخْبَارٍ، وَسُؤَالُ تَقْرِيرٍ وَتَوْبيخٍ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذنْبِهِ إنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾ يَعْنِي لاَ يَسْأَلُهُمْ سُؤَالَ اسْتِخْبَارٍ؛ لأَنَّهُ عَالِمٌ قَبْلَ أنْ يَخْلِقَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجْمَعِينَ) سُؤَالُ تَقْرِيرٍ وَتَقْرِيعٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي أظهرْ أمرَكَ بمكَّة واترُكهم حتى يجيءَ أمرُ الله بقتالهم، وكان ﷺ مُستخفياً بمكَّة قبلَ نزول هذه الآيةِ، لا يظهرُ شيئاً مما أنزلَ الله عليه، فلما نزلت هذه الآيةُ أظهرَ النبيُّ ﷺ أمرَهُ وأعلنه بمكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ بك، ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ وهم خمسةُ نفرٍ أهلكَهم اللهُ في يومٍ واحد، منهم العاصُ بن وائلٍ، نزلَ شِعباً من ذلكَ الشِّعاب، فلمَّا وضعَ قدمَهُ على الأرضِ قال: لُدِغتُ، فطلَبُوا فلم يجدوا شيئاً، فانتفَخَت رجلهُ حتى صارَت مثل عنُقِ البعيرِ فماتَ مكانَهُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦١٦٢). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٢٦) وضعفه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦١٦٥).

(٣) الرحمن / ٣٩ .

(٤) في المخطوط: (علمتم) وهو تحريف، والصحيح كما أثبتناه؛ لأنه مقتضى السياق.

ومنهم الحارثُ بن قيسٍ أكلَ حُوتاً مالحاً فأصابَهُ عطشٌ شديد فلم يزل يشربُ حتى انقدَّ مكانه فماتَ.

ومنهم الأسودُ بن عبدِالمطلب بن الحارث، قعدَ إلى أصل شجرةٍ، فجعلَ جبريل يضربُ رأسَهُ على الشَّجرة حتى ماتَ، وكان يستغيثُ بغُلامهِ، فقال غلامهُ: لا أرَى أحداً صنعَ بكَ شيئاً غيرَ نفسِكَ.

ومنهم الأسودُ بن عبدِ يَغوث خرجَ من أهلهِ فأصابه السَّمُومُ فاسودَّ حتى صارَ حَبَناً[(١)]، وأتى أهلَهُ فلم يعرفوهُ فأغلقوا دونه البابَ حتى ماتَ.

ومنهم الوليدُ بن المغيرةِ خرجَ يتبَختَرُ في مِشْيَتِهِ حتى وقفَ على رجُلٍ يعملُ السِّهامَ، فتعلَّقَ سهمٌ بثوبهِ فجعل رداءَهُ على كَتِفِهِ فأصابَ السهمُ أكحلَهُ فقطعه، ثم لَم ينقطعْ عنه الدمُ حتى ماتَ، فذلك قوله (إنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) أي بكَ وبالقرآن[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾؛ أي ولقَدْ نعلمُ يا مُحَمَّد أنَّكَ يضيقُ صدرُكَ بما يقولون من التكذيب بأنَّكَ شاعرٌ وساحر وكاهن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾؛ أي فصَلِّ بأمر ربكَ، واحمدْهُ بالثَّناءِ عليه، ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾؛ أي مِنَ العابدين لله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾؛ أي استقِمْ على عبادةِ ربكَ وطاعتهِ حتى يأتيكَ الموتُ، سَمَّاهُ يَقيناً؛ لأنه مُوقِنٌ به.

وعن رسول الله ﷺ: [مَا أُوْحِيَ إلَيَّ أنْ أجْمَعَ الْمَالَ وَأكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ، وَلَكِنْ أُوْحِيَ إلَيَّ أنْ أُسَبحَ بحَمْدِ رَبي وَأكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ][(٣)]، وقال الضحَّاكُ:

---

(١) الْحَبَنُ: انتفاخُ البطنِ من داء.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٦١٧٦-١٦١٧٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ج ٢ ص١٣١ عن أبي مسلم الخولاني مرسلاً. وفي الدر المنثور: ج ٤ ص١٠٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي عن أبي مسلم الخولاني)). والبغوي في معالم التنزيل رواه بسنده عنه أيضاً موصولاً عن جبير بن نفير ﷺ.

(مَعْنَى قَوْلِهِ (فَسَبحْ بحَمْدِ ربك) أَيْ قُلْ سُبْحَانَ اللهِ وَبحَمْدِهِ، (وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) أي الْمُصَلِّينَ، فكَانَ ﷺإذا حَزَّ بهِ أمْرٌ فزِعَ إِلَى الصَّلاَةِ)(١).

وعن أَبَي بن كعبٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : [مَـنْ قَـرأَ سُـورَةَ الْحِجْـرِ كَـانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بعَـدَدِ الْمُـهَاجِرينَ وَالأَنْصَـار، وَبعَـدَدِ الْمُسْـتَهْزِئِينَ برَسُـول اللهِ ﷺ](٢).

آخر تفسير سورة (**الحِجر**) والحمد لله رب العالمين

(١) علقه ابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٠٨٢. والبغوي في معالم التنزيل: ص٧٠٤.
(٢) تقدم.

سُورَةُ النَّحْلِ

سُورَةُ النَّحْلِ مَكِّيَّةٌ[1]، وَهِيَ سَبْعَةُ آلافٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَسَبْعَةُ أحْرُفٍ، وَألْفَان وَثَمَانُمِائَةٍ وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَثَمَان وَعُشْرُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأهَا لَمْ يُحَاسِبْهُ اللهُ بالنَّعِيمِ الَّذِي أنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا][2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[3] قَالَ الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إنْ يَزْعُمْ أنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَرُبَتْ، فَأمْسِكُوا عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ حَتَّى نَنْظُرَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا رَأوا أنَّهُ لاَ يُنْزِلُ شَيْئاً قَالُوا: مَا نَرَى شَيْئاً، فَأنْزَلَ اللهُ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[4]، فَانْتَظَرُوا قُرْبَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا امْتَدَّتِ الأَيَّامُ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ مَا نَرَى شَيْئاً تُخَوِّفُنَا بِهِ، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أتَى أمْرُ اللهِ﴾ فَوَثَبَ النَّبِيُّ ﷺ لاَ يَشُكُّ أنَّ الْعَذابَ قَدْ أتَى، فَقَالَ اللهُ ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يَعْنِي الْعَذابَ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ)[5].

---

(١) في التفسير: ج ٢ ص٢١٣؛ قال مقاتل بن سليمان: ((مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا غَيْرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإنْ عَاقَبْتُمْ﴾ [الآية ١٢٦-١٢٨ آخر السورة]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [الآية/ ١١٠]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ باللهِ بَعْدَ إيْمَانِهِ...﴾ [الآية / ١٠٦] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا...﴾ [الآية/ ٤١]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً...﴾ [الآية / ١١٢]. فَإنَّ هَذِهِ الآيَاتِ مَدَنِيَّاتٌ)) واختلفوا في ذلك، واتفقوا على أنها تسمى سورة النعمِ بسبب ما عُدِّدَ فيها من النعم.

(٢) ذكره الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) وعزاه للثعلبي عن أبي أمامة عن أبي بن كعب. وابن مردويه والواحدي في الوسيط. وهو حديث لا يصح.

(٣) القمر / ١ . (٤) الأنبياء / ١.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦١٩٦) من طريق ابن جريج مختصراً.

وأما ذِكرُ لفظِ الإتيان في هذا؛ فلأنَّ أمرَ اللهِ في القُرب بمنْزلَةِ ما قد أتى، كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾؛ أي تنزيهاً له تعالى بصفات المدحِ عمَّا يشركون بهِ من الأصنامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي يـنَزِّلُ الملائكـةَ بالوحيِ، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ قرأ الأعمشُ (يَنْزِلُ) بفتحِ الياءِ وجزمِ النون وكسرِ الزَّاي، قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي بالْمَلاَئِكَةِ جِبْرِيلَ وَحْدَهُ)، ويسمَّى الوحيُ رُوحاً؛ لأنَّهُ تَحْيَا به القلوبُ والحقُّ، ويموتُ الكفرُ والباطلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾؛ أي أنْ أعلِمُوا بالتَّخويفِ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ، ﴿فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾؛ أي فاتَّقوا المعاصيَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (أنْ أنذِرُوا) في موضعِ النصب بنَزعِ الخافضِ؛ أي بأنْ أنذِرُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي ليُستَدَلَّ بهما على توحيدِ الله، وليُعمَلَ بالحقِّ، ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾؛ مِن أن يكون لـه شريكٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَ فِي أبَيِّ بْنِ خَلَفِ الْجُمَحِيِّ حِينَ قَالَ ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[2]). والمعنى: خلقَ الإنسانَ من نُطفَةٍ مُنْتِنَةٍ وأنعمَ عليه حَالاً بعد حالٍ إلى أن أبلغَهُ الحالةَ التي تخاصِمُ عن نفسهِ، فيُنكِرُ إعادتَهُ بعد موتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾؛ أي وخلَقَ لكم الأنعامَ، وهي ذواتُ الْحِقَافِ والأظْلاَفِ دون الحوَافِرِ. وقولهُ تعالَى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾؛ أي ما يُدَفِّيكُمْ من أصوافِها وأوبَارها من الأكْسِيَةِ ونحوها، ومِن القلاَنِسِ واللِّحَافِ، ومنافعُ أخَرَ من ألبانِها ونسْلِها، والرُّكوب والحملِ عليها، والفُرُشِ والبيوت من أصوافِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾؛ يعني لُحومَها.

---

(١) النحل / ٧٧ .

(٢) يس / ٧٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي ولكم فيها منظرٌ حسَنٌ، يقالُ: هذه مَوَاشِي فلان، فيكون له في ذلك جمالٌ، قال قتادة: (وَذلِكَ أعْجَبُ مَا يَكُونُ إذا رَاحَتْ عِظَاماً ضُرُوعُهَا طِوَالاً أسْنِمَتُهَا)[1]، وقوله تعالى: (حِينَ تُرِيحُونَ) أي حين تُرِيحونها في العَشِيِّ مِن مراعيها إلى مَبَارِكِهَا التي تَأْوي إليها، (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) أي تخرُجون بها بالغَدَاةِ من مَرَاحِهَا إلى مَسَارِحِهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ ؛ أرادَ به الإبلَ تحملُ أمتِعَتَكم وزادَكم، وما يَثْقُلُ عليكم إلى بلدٍ قصدتُموه للحجِّ إلى مكَّة، أو تجارةٍ إلى سائرِ البُلدان، لولاَ الإبلُ لكان لا يمكِنُكم بلوغُ تلكَ البلدِ إلا بجُهْدٍ ومشَقَّة. وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي مُتَفضِّلٌ مُنْعِمٌ عليكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ ؛ أي وخلَقَ لكم الخيلَ والبغالَ والحميرَ؛ لتركَبوها وتتزَيَّنوا بها زينةً، فيحصلُ لكم منافعُها، وحُسْنُ منظَرِها للناس، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي يخلقُ أشياءَ لا تعرِفُونها لم يُسَمِّها لكم.

رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: [إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ أرْضاً بَيْضَاءَ مِثْلَ الدُّنْيَا ثَلاَثِينَ مَرَّةً مَحْشُوَّةً خَلْقاً مِنْ خَلْقِ اللهِ، لاَ يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ يُعْصَى طَرْفَةَ عَيْنٍ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أمِنْ وَلَدِ آدَمَ هُمْ؟ قَالَ: مَا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ؟] قَالُوا: فَأَيْنَ إبْلِيسُ عَنْهُمْ ؟ قَالَ: مَا يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ خَلَقَ إبْلِيسَ] ثُمَّ قَرَأ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٧١؛ حكاه القرطبي بلفظ: ((وَلأَنَّهَا إذَا رَاحَتْ تُوَفِّرُ حُسْنَهَا وَعِظَمَ شَأْنِهَا وَتَعَلَّقَتِ الْقُلُوبُ بِهَا؛ لأَنَّهَا إذْ ذَاكَ أعْظَمُ مَا تَكُونُ أسْنِمَةً وَضُرُوعاً)).
والللفظ في المتن أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٢١٣).

(٢) الكهف / ٤٦ .

(٣) بمعناه في الدر المنثور: ج ٥ ص١١٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس =

وهذه الآيةُ مما يُستَدلُّ بها على كراهيةِ لحم الخيلِ على مَذهب أبي حنيفةَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في الأنعامِ (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) ولم يذكُرْ في آيةِ الخيلِ والبغالِ إلا الركوبَ والزينةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ ؛ أي وعلى اللهِ بيانُ الهدى والضَّلالة ليُتَّبعَ الهدى وتُجْتَنبَ الضَّلالةُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْهَا جَائِرٌ) أي مِن الطُّرُقِ ما هو عادلٌ عنِ الحقِّ، قال: يعني اليهوديَّةَ والنصرانيةَ والمجوسيةَ، وقال ابنُ المبارك: (يَعْنِي الأَهْوَاءَ وَالْبِدَعَ). قولهُ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ ﴾ ؛ إلى جنَّتهِ وثوابهِ، ولأرشدَكم كلَّكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ ؛ مثل البِرَكِ والغُدْرَان، و لكم، ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ ﴾ ؛ تَرْعَوْنَ أنعامَكم، يعني الكَلأَ والأشجارَ التي ترعاهُ الإبلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ ﴾ ؛ تسخيرَ الليلِ والنَّهار، مَجيءَ كلِّ واحدٍ منهما عقِبَ الآخرِ بتقديرِ اللهِ؛ لينصرفَ الناسُ في معايشِهم بالنَّهار، ويَسكنُوا بالليلِ، وتسخيرَ الشمسِ والقمر والنُّجوم مجيئهُ بها في أوقاتٍ معلومة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي وسخَّرَ لكم ما خلَقَ في الأرضِ من الدواب والأشجار وغيرها، ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ ، ومناظرهُ وصُورُهُ، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ ﴾ ؛ دلائلَ اللهِ.

=وذكره)). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٨٠ عزاه القرطبي قال: ذكره الماوردي.

(١) الانسان / ٣ .

(٢) الشمس / ٨ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ؛ يعني السَّمَكَ، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ؛ وهو العرضُ لاستخراجِ اللُّؤلؤ والْمَرْجَانِ لتلبسَهُ نساؤُكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ ؛ أي وترَى السُّفن في البحرِ مقبلةً ومُدبرةً تشقُّ الماءَ يَميناً وشِمالاً، يقالُ: مَخَرَتِ السفينةُ البحرَ، إذا جَرَتْ جَرْياً شقَّت الماءَ شَقّاً، والْمَخْرُ صوتُ هُبُوب الرِّيح، والسفينةُ تجري بالرِّيح، فسُمِّيت السفينةُ مَوَاخِرَ، والواحدة مَاخِرَةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ؛ يعني لتركَبُوهُ للتِّجارةِ، فتطلبوا الربحَ من فضلِ الله لكي تشكُروا نِعَمَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ؛ أي وجعلَ فيها جِبَالاً عاليةً يابسةً لئلاَّ تحركَ بكم الأرضُ، وَ؛ أجرَى فيها، ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ، مثلَ النِّيلِ والفُراتِ ودِجلَةَ وسِيحُونَ وجِيحُونَ، وَ جعلَ فيها، ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ ، طُرُقَ منافعكم؛ لكي تهتدُوا إلى الموضعِ الذي تقصدونَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ ؛ أي جعلَ في الأرضِ أعْلاَماً للمسافرين من الجبالِ وغيرِ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَلاَمَاتٍ وَبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) معناهُ: إنَّ مَن يسيرُ بالليلِ فإنَّما يهتدِي إلى الطُّرُق في البرِّ والبحرِ بالنُّجوم مثل الثُّريا وبنات نَعْشٍ والفرقَدين، يهتدي بها إلى القِبلة والطُّرق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ أي أفمَن يخلقُ هذه الأشياءَ وهو اللهُ تعالى كمَن لا يقدرُ أن يخلقَ شيئاً وهي الأصنامُ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ أنَّهما لا يَستويان في استحقاق العبادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ ؛ يعني إذا أردتُّم أن تُعرِّفوا بفاضلِ نِعَمِ الله عليكم في الخلقِ والرِّزق والتمكُّن من الأمور في الدُّنيا لم تقدرُوا على إحصاءِ هذه النِّعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ ؛ لذنوب عباده إذا تابُوا، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ ؛ بهم بالإمهالِ إلى وقت التَّوبة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني الأصنامَ، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾؛ واللهُ تعالى هو الخالقُ لَها. قولهُ: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾؛ يعني الأصنامَ، والمعنى: كيفَ تخلقُ شيئاً، وهي أمواتٌ لا روحَ لها.

وإنما جَمَعَ بين قولهِ (أَمْوَاتٌ) وبينَ قولهِ (غَيْرُ أَحْيَاءٍ) لأنه يقالُ: فلانٌ ميِّتٌ وإنْ كان حيّاً، إذا كان لا يُنتَفعُ بهِ، فكأنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنه لَم يُسَمِّ الأصنامَ أمواتاً من حيث أنه لا ينتفعُ بها، ولكن لأنه لا حياةَ فيها، فكيف يعبُدون ما لا يخلقُ وما لا يرزقُ ولا ينفع، وهو مع ذلك مِن الأمواتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ أي وما تشعرُ الأصنامُ متى يُبعَثُ الناسُ من القبور فيُحاسَبون، فكيف يرجُو الكفارُ الجزاءَ من قِبَلِ الأصنامِ، و(أَيَّانَ) كلمةُ اختصار أصلُها (أيَّ) و (أنَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ وهو عزَّ وجَلَّ، ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ للحقِّ، ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ وهم متعظِّمون عن قَبول الحقِّ أنفَةً مِن اتِّباعهِ واتِّباعِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي حقّاً إنَّ اللهَ يعلمُ سِرَّهم وعلانِيَتهم، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قولهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي إذا قِيلَ لهؤلاءِ الكفار: ما الذي يدَّعِي مُحَمَّدٌ ﷺ أنه يَنْزِلُ عليهِ مِن اللهِ، ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي الذي تذكُرون أنه مُنْزلٌ كلامِ الأولين، وما يسطِّرون في كتُبهِم من الأخبار والأقاصيص.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾؛ أي آثامَهم، ﴿كَامِلَةً﴾، أي وافرةً، ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ ليَحمِلُوا، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ﴾؛ أي آثامِ، ﴿ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾، يصرفونَهم عن مُحَمَّدٍ ﷺ والقرآن، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، بلا عِلْمٍ ولا حجَّة، يعني يكونُ عليهم إثمُ إضلالِهم غيرَهم لا أن يحملوا ذنوبَ غيرِهم، كما

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ ظاهر المعنى.

وقولهُ تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾؛ أي قد مَكرَ الذين من قَبْلِ هؤلاءِ بأنبيائهم، كما مَكرَ هؤلاء المقتسِمون الذين اقتسَمُوا أعقابَ مكَّة؛ ليصدُّوا الناسَ عن دين الله، فأتى اللهُ بُنيَانَ أولئكَ مِن القواعدِ بالعذاب، ﴿ فَخَرَّ ﴾، فوقعَ، ﴿ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ الهدمُ والاستئصالُ، ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ بإتيان العذاب منهُ.

وقد اختلفُوا في هؤلاءِ الذي خرَّ عليهم السقفُ، قال بعضُهم: هو نَمرُودُ بن كَنعان الذي بَنَى صَرْحاً طولهُ خمسةُ آلافٍ وخمسون ذِرَاعاً، وعرضهُ عرضُ ثلاثةِ آلاف وخمسون ذِرَاعاً؛ ليصعدَ إلى السَّماءِ، فوقعَ الصرحُ على الذي كانوا فيه، وأهلَكَ اللهُ نمرودَ بالبَعُوضِ. وقال بعضُهم: هذا على وجهِ الْمَثَلِ، فكأنه جعلَ أعمالَهم بمنْزِلِ البَانِي بناءً سَقَطَ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ تُشركُونهم معي في العبادةِ، وقولهُ تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي قالَ المؤمنون: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ إنَّ الذُّلَّ اليومَ والهوانَ على الكافرين، ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ تقبضُ أرواحَهم في حالِ ظُلمِهم لأنفُسِهم بالكفر، ﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾، واستَسلَمُوا وانقادوا للمذلَّةِ والهوانِ، يقولون: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾؛ أي مِن معصيةٍ في الدُّنيا، فيقول المؤمنون: ﴿ بَلَىٰٓ﴾؛ قد فعَلتُمْ ذلكَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ وتقولُ لهم خزَنةُ جهنَّمَ، ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ عن توحيدِ الله وعبادته.

---

(١) الأنعام / ١٦٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ مَكَّةَ لَمَّا بَعَثُوا إلَى أعْقَابِ مَكَّةَ رجَالاً؛ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنْ دِينِ اللهِ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ رجَالاً مِنْ أصْحَابهِ: عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ، فَكَانَ وَافِدُ النَّاسِ إذا قَدِمَ فَرَدَّهُ الْكُفَّارُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنِ الإيْمَانِ، سَأَلَ أصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ: (مَاذا أنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خَيْراً) أيْ أنْزَلَ حَقّاً وَصَوَاباً).

وعلى هذا انتصبَ قولهُ (خَيْراً)، وإنما ارتفعَ قولهُ في جواب المقتسِمين من كفَّار مكَّة (أسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) لأنَّهم كانوا لا يُقِرُّونَ بإنزالـهِ، بـل كـانوا يقولُـون علـى جهـةِ التكذيب هو أساطيرُ الأولين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ ؛ أراد بالحسَنَةِ الثناءَ والمدحَ على ألْسِنَةِ المؤمنين، وقِيْلَ: للَّذيـن قـالوا لا إلـهَ إلا اللهُ يُضَعَّـفُ لَـهُ بعَشْـرٍ، ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ؛ يعني الجنَّةَ خيرٌ مما يصِلُ إليهم في الدُّنيـا، ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

ثُـم فسَّـرَ دارَ المتَّقـين فقـال: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ ؛ أي بسـاتِينُ إقامـةٍ، ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ، يـومَ القيامـة ، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ﴾ ؛ أي مـن تحـت أشـجَارها، ﴿ الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ ﴾ ؛ كذلـك تكـون مجـازاةُ الله، ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ للشِّرك والمعاصِي.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ؛ عنـد قبـضِ أرواحِـهم، ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ ؛ أي زَاكِيَةً أعمالُهم متمسِّكِين بما أُمِرُوا به مجتَنِبينَ لِمَا نُـهُوا عنـه، طَيِّبَـةً أرواحُهم بما يُبَشَّرُونَ به من الجنَّة، ﴿ يَقُولُونَ ﴾ ؛ أي يقولُ لهم الملائكـة: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ؛ أي مـا ينظـرُ أهـلُ مكَّـة في تكذيبـهم للرَّسـول واسـتبطائهم العـذابَ، إلاّ أن تأتيَـهم الملائكـةُ لقبـض أرواحِهم، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ؛ بعذاب الاستئصال، ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ هؤلاءِ الكفار من تكذيب الرُّسل مثلَ ما فعَلَ هؤلاءِ فعذبَهم اللهُ ﴿ وَمَا

﴿ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ بذلك، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾؛ ظلَموا أنفُسَهم حيث فعَلُوا ما استوجَبُوا به العذابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي عقابُ ما عَمِلوا، أرادَ بالسَّيئات العقابَ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[1] ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي وحلَّ بهم ما كانوا يستهزئُون به من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾؛ هذا نظيرُ الآيةِ التي في الأنعام ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾[2] قد تقدَّمَ تفسيرُه، يعني كفارَ أهلِ مكَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ من تكذيب الأنبياء مثلَ ما فعلَ هؤلاءِ، فلم يكن ذلك حجَّةً لهم، ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾؛ عن الله بلُغةٍ يَعرفونها. وقال بعضُهم: إنَّما قالوا هذا القولَ استهزاءً وسخرية كما قال قومُ شعيب: أتنهَانا عمَّا كان يعبدُ آباؤنا.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾؛ كما بعثناكَ رسُولاً في هؤلاءِ، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ أي اجتَنِبوا الشيطانَ وعبادةَ كلِّ ما تعبدون مِن دون الله، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي الكفرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي في أرضِ الذين عاقَبَهم اللهُ، ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي كيف صارَ عاقبةُ مَكرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾؛ أي إنْ تطلُبْ يا مُحَمَّد من جهتك هُداهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾؛ أي يحكمُ عليه بالضَّلالة، ومَن يُضلِلْهُ اللهُ فلا يهدِي ولا يهتدي، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي مَن يدفعُ عنهم العذابَ.

---

(١) الشورى / ٤٠ .

(٢) الآية / ١٤٨ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾؛ أي حلفَ الكفارُ باللهِ مجتهدين في اليمين: أنه لا يبعثُ الله مَن يموتُ، وقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾؛ أي قُلْ: بلَى، وَقِيْلَ: إنَّ اللهَ تولَّى الجوابَ بنفسهِ، كأنه قال: لِيَبْعَثُهُمْ بعدَ الموتِ وَعْداً عليه.

انتصبَ قوله (حَقّاً) على المصدرِ؛ أي وَعَدَ وَعْداً حَقّاً كأنَّما أوجبَهُ على نفسهِ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾؛ أنه حقٌّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾؛ معناهُ: يبعثُهم لكي يُبَيِّنَ لهم ما يختلِفون فيه من الدِّين ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ في الدُّنيا بأنْ لا جنةَ ولا نارَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي إنَّما أمْرُنا في البعثِ وغيرهِ إذا أرَدْنا أن نقولَ له: كُنْ؛ فيكونُ. مَن رفعَ (فَيَكُونَ) معناهُ: فهو يكونُ، ومَن نصبَ فعلى جواب كُنْ، وَقِيْلَ: عَطفاً على (أنْ يَقُولَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّار بْن يَاسِرٍ وَصُهَيْبٍ وَبلاَلٍ وَأصْحَابهِ الَّذِينَ هَاجَرُواْ إلَى الْمَدِينَةِ مِنْ بَعْدِ مَا عَذبهُمْ أهْلُ مَكَّةَ).

والمعنَى: والذين هَجَرُوا أوطانَهم في طاعةِ الله، وسَارُوا إلى النبيِّ ﷺ من بعدِ ما ظلَمَهم الكفارُ، ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾، أرضاً كريمةً وهي المدينةُ بدلَ أوطانِهم، ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾؛ لَهم مما أعطيناهم في الدُّنيا، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾؛ يعلمُ الكفَّار.

ثُم وَصفَهم فقال: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾؛ يعني على الشَّدائدِ والعباداتِ، وصبَروا عنِ الْمُحَرَّمَاتِ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾؛ في طلب الدِّين والدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾؛ نزلت جَواباً لأهلِ مكَّة حين قالوا: لو أرادَ اللهُ أن يبعثَ إلينا رسُولاً لبعَثَ رسولاً من الملائكةِ لا

رجُلاً منَّا. ومعنى الآيةِ (وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ) يا مُحَمَّدُ إلى الأُمَم الماضيةِ إلا رجالاً أوحَينا إليهم كما أوحَينا إليكَ، ﴿ فَسْئَلُوٓاْ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة، ﴿ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ ؛ أي الكتاب، ﴿ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أنَّ الرسُلَ كانت من البشَرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾ ؛ راجعٌ إلى قولهِ تعالى (نُوحِي إلَيْهِمْ). وَقِيْلَ: في هذا إضمارٌ كأنه قالَ: وأرسلناهم بالبيِّناتِ والزُّبُرِ. والبيناتُ: هي الدلالاتُ الواضِحَاتُ، والزُّبُرُ: جمعُ الزَّبُور وهو الكتابُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ ؛ أي القرآنَ، ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ الحلالَ والحرامَ والحقَّ والباطل، ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ فيهِ فيُؤمِنُوا بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي أهْلَ مَكَّةَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ؛ يَعْنِي الشِّرْكَ)، وَقِيْلَ: معناهُ: أفأَمِنَ الذين مَكَروا في تكذيبِ الرُّسلِ وأذى المسلمين أنْ يخسفَ اللهُ بهم كما خَسَفَ بقارون، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ ﴾ ؛ موضعُ، ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي لا يعلمونَ، ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ ؛ أي في أسفارهم وتجارتِهم وتصرُّفِهم، ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ اللهَ على ما يريدُ إحلالَهُ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ ؛ أي على تَنَقُّصٍ إما بقَتلٍ أو بموتٍ؛ الأوَّلُ فالأولُ حتى يهلكُوا عن آخرهم، رُوي عن عمرَ ﷺ أنه قالَ: (مَا كُنْتُ أدْري مَا مَعْنَى (عَلَى تَخَوُّفٍ) حَتَّى سَمِعْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِدًا   كَمَا تَخَوَّفَ عُودُ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[1]

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: أنْ يُخَوِّفَهُمْ بأنْ يُهْلِكَ قَرْيَةً لِتَنْزَجِرَ قَرْيَةٌ أخْرَى). وقولُهُ تعالى: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي شديدُ الرَّحمة بتأخيرِ العذاب عن الكفَّار، أو شديدُ الرحمةِ على مَن تابَ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ ؛ أي من شَخْصٍ قائمٍ من شَجر أو إنسان أو نحوِ ذلك، ﴿ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ ؛ أي

---

(١) اختلف في نسبته إلى قائله. والأثر أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٣٣١).

يتَمَيَّلُ ظِلالُهُ عن اليمينِ والشَّمائلِ، إذا طلعَتِ الشمسُ وإذا غربت، ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ ؛ أي مَيَلانُهَا أو دوَرَانُها من موضعٍ إلى موضعِ سجودُها، فيسجدُ الظلُّ غدوةً إلى أن يفيءَ الظلُّ، ثم يسجدُ أيضاً إلى الليلِ. وفي هذا دليلُ توحيدِ الله تعالى، قال الحسنُ: (أمَّا ظِلُّكَ فَيَسْجُدُ للهِ، وَأمَّا أنْتَ فَلاَ تَسْجُدُ). قولُهُ: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي صاغِرُون ذليلُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ ؛ أي ما دبَّ على الأرض، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ؛ أي ويخضع الملائكة وهم لا يتعظَّمون عن الخضوعِ له، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ؛ أي يخافونَ عقابَ ربهم من فوقِهم. وَقِيْلَ: يخافون ربَّهم خوفَ المقهور من القاهر، فذكَرَ لفظَ فَوْقِ على هذا المعنى.

وقولهُ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ ؛ يعني الملائكةَ لا يعصُونَ اللهَ ما أمَرَهم. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ للهِ مَلاَئِكَةً فِي السَّمَاءِ السَّابعَةِ سُجُوداً مُنْذُ خَلَقَهُمُ اللهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، تَرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَةِ اللهِ، وَتَجْرِي دُمُوعُهُمْ وَتَضْطَرِبُ أجْنِحَتُهُمْ، لاَ تَقْطُرُ مِنْ دُمُوعِهِمْ قَطْرَةٌ إلاَّ صَارَتْ مَلَكاً قَائِماً، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَقَالُوا:سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ][(1)].

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ في هذه الآيةِ: (مَنْ سَجَدَ هَذِهِ السَّجْدَةَ إيْمَاناً وَتَصْدِيقاً، أعْطَاهُ اللهُ بعَدَدِ الْمَلاَئِكَةِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُوم، وَقَطْرِ الْمَطَرِ وَنَبَاتِ الأَرْضِ وَتُرَابهَا وَرَمْلِهَا وَمَدَرِهَا، وَبعَدَدِ مَا دَبَّ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ حَسَنَةً حَسَنَةً).

وقولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون قولهُ (اثْنَيْن) تأكيداً لما سبَقَ، ويجوزُ أن يكون المعنى: لا تتَّخذوا اثنين إلَهين إنما اللهُ إلهٌ واحد، ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ ؛ أي فَاخْشَوْنِ ولا تَخْشَوا أحداً غيري، ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

---

(١) في كنز العمال: الرقم (٢٩٨٣٧)؛ ذكره الهندي وعزاه إلى الديلمي عن ابن عمر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ ؛ أي دائماً، وقوله تعالى (وَاصِباً) انتصبَ على القطعِ وإنْ كان فيه الوصفُ، والوَصَبُ: شدَّةُ التَّعَبِ؛ لأن اللهَ هو المستحقُّ أن يُعبَدَ في جميعِ الأوقات. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ إنكارٌ عليهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي فإليه تتضرَّعون في كشفهِ، والْجُؤَارُ في اللغة: رفعُ الصَّوتِ، فكأنَّهُ قالَ: فإليه تَضُجُّونَ وتَصيحُونَ، ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ عادَ فريقٌ منكم إلى الشِّرك، ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي ليجْحَدوا نعمةَ اللهِ في كشف الضرِّ عنهم. ثم أوْعَدهُم فقالَ: ﴿ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي فتمتَّعوا في الدُّنيا، فسوف تعلمونَ ما يحلُّ بكم من العقاب.

قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ ؛ أي ويجعلون للأصنامِ التي لا تعلمُ نصيباً مما رزقناهم، وهو ما كانوا يجعلونَ لها من السَّائبة والبَحيرَةِ والْحَامِ وبعضِ الحرث. ويجوز أن يكون: (لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ) راجعاً إلى الكفار على معنى أنَّهم لا يعلَمون أنَّها تنفعُهم ولا تضرُّهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ قَسَمٌ بأن اللهَ يسألُهم في الآخرةِ عن افترائهم فيما جعلوهُ للأصنامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ ؛ معناه: إنَّهم يقولون: إن الملائكةَ بناتُ الله، وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ) تَنْزيهاً للهِ تعالى عما لا يليقُ به. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي ما يختارُون لأنفسِهم من البنين دونَ البناتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ ؛ أي ظهرَ أثرُ كراهةِ الحزن على وجههِ من ذلك، يقال لِمَن لَقِيَ مكروهاً: قَدِ اسْوَدَّ وجهُهُ غمّاً وحُزناً وخجلاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي ممتلئ غيظاً وغمّاً يتردَّدُ حزنهُ في جوفهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ ؛ أي يختفي من المبشِّرين له بذلكَ ومن جُلسائهِ من كراهةِ ما بُشِّرَ به من الأنثى، ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ

هُونٍ ﴾ ؛ أي أيحفظُ المبشَّرَ به على هَوْنٍ ومشقَّة، والْهَوْنُ: الْهَوَانُ، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ ﴾ أي يدفنهُ، ﴿ فِي ٱلتُّرَابِۗ ﴾ ؛ حَيّاً كما كان في عادةِ العرب كان إذا وُلد لأحدهم أنثى حفرَ لها حفرةً وألقاهَا فيها ودفنَها حتى تَموتَ، وهي الْمَوْءُودَةُ.

وأما لفظُ التذكيرِ في قوله (أَيُمْسِكُهُ عَلَى) فإنه راجعٌ إلى المبشَّر به. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ ﴾ ؛ أي ألاَ ساءَ ما يقضُونَ من اختيار البنين لأنفسِهم، وإضافةِ البنات إلى اللهِ وقتلِ الْمَوْءُودَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ ﴾ ؛ أي لَهم صفةُ السُّوءِ من احتياجِهم إلى الولدِ، وكراهيتهم الإناثَ خوف العار، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ ﴾ ؛ أي الصفةُ العليا وهي الألوهية والربُوبيَّة لم يلد ولم يولَدْ ولم يكن له كُفُواً أحدٌ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ ﴾ ؛ أي الغالبُ الذي لا يقدرُ أحدٌ أن يغلبَهُ، الحكيمُ في أمرهِ وتدبيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم ﴾ ؛ أي بعقاب معاصيهم عاجلاً، ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا ﴾ ؛ أي على الأرض، ﴿ مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ ﴾ ؛ أي يُمهلُهم، ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ ﴾ ؛ أي إلى وقتٍ ضَرَبَهُ لامهالهم، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ ﴾ ذلكَ الوقتُ، ﴿ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ ﴾ ؛ لا يتقدَّمون ساعةً ولا يتأخَّرون.

فإن قِيْلَ: كيف قال (مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ) مع عِلمنا أن في الناسِ من هو غيرُ ظالِمٍ، قيل: معناه: (ما تركَ عليها من دابَّة ظالمةٍ). وَقِيْلَ: معناهُ: ولو يؤاخِذُ اللهُ الناسَ بظُلمِهم عَاجلاً لانقطعَ النسلُ؛ لأنه لا أحدَ إلا وقد كان في آبائهِ وأجداده من هو ظالِمٌ.

فإن قِيلَ: في الآية تعميمُ الناسِ والدواب في الهلاكِ؛ فأيُّ شيء يوجبُ هلاكَ الدواب ؟ قِيْلَ: إن الدوابَّ إنما خلقهَا اللهُ لمنافعِ الناس، فإذا هلكت الناس بمنع المطر عنهم، لم يبقَ في الأرضِ دابَّة إلا وهلَكَت، وإذا هلكَ الناسُ بوجهٍ من الوجوه لم تبقَ الدوابُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ ؛ لأنفسِهم. في الآيةِ إعادةُ ذكرِ جَهلِ الكفَّار أنَّهم يجعلون للهِ ما يكرَهون لأنفسِهم وهو البناتُ، ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ﴾ ؛ مع ذلكَ، ﴿ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ أي أن لهم الجنَّة في الآخرةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ ؛ أي حقّاً، وَقِيْلَ: لا بدَّ ولا محالةَ أن لهم النارَ، ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي مقدَّمون إلى النار، والفَارِطُ في اللغة: هو القادمُ إلى الماءِ، ومنه قولهُ ﷺ: [وَأنَا فَرْطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ](1) أي سَابقُكم.

ومَن قرأ (مُفرِطُونَ) بكسرِ الراء، فهُم الذين أفرَطُوا في الذنوب والمعاصي، ومَن قرأ (مُفَرِّطُونَ) بالتشديدِ فهو من التَّفريطِ وهو التقصيرُ(2).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ؛ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ أي كما أرسلناكَ إلى هؤلاءِ أرسلنا إلى أُمَم من قبلِكَ، فزَيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم في الكفرِ والتكذيب، ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ في الدُّنيا يتبعون إغواءَهُ، ويقال: (هُوَ وَلِيُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي يقالُ لهم يومئذٍ: هذا وليُّكم، فيَكِلُكُم الله يومئذ إلى مَن لا يملكُ دفعَ العذاب عن نفسهِ، فكيف يدفعُ عنهم العذابَ، ومَن كان الشيطانُ وليَّه دخلَ النارَ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ ؛ أي لتُبيِّن لهم الحقَّ من الباطلِ، وَ أنزلناهُ، ﴿ وَهُدًى ﴾ ، دلالةً، ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي للمؤمنين. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ؛ أي يُبسِها، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أدِلَّةَ اللهِ، ويتفكَّرون فيها.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢ ص١٦٨: الحديث (١٦٨٨) عن عبدالملك بن عمير بن جندب ﷺ. والإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٣١٣. والبخاري في الصحيح: كتاب الرقاق: باب في الحوض: الحديث (٦٥٨٩). ومسلم في الصحيح: كتاب الفضائل: باب في إثبات حوض نبينا ﷺ: الحديث (٢٥/ ٢٢٨٩).

(٢) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٥٣: قال النحاس: (المبالغون المتجاوزون في الشر). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٢١؛ قال القرطبي: (وقرأ أبو جعفر المقرئ: ﴿مُفَرِّطُونَ﴾ بكسر الراء وتشديدها، أي مضيِّعون أمرَ الله، فهو من التفريطِ بالواجب).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ ؛ مِن دون أن يظهرَ فيه لونُ الدمِ ولا رائحة الفرْثِ، ﴿ سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مُتيسِّرَ الجري في الحلق، لا يغُصُّ به شاربهُ. وإنما لم يقل في بطونها؛ لأن الأنعامَ والنَّعيمَ واحدٌ، فكأنه ردَّ الكنايةَ إلى النَّعيمِ. وفي قوله تعالى(نُسْقِيكُمْ) قرآءتان: فتحُ النون وضمُّها، يقال سَقَى وأسْقَى بمعنى واحدٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ ؛ أراد بالسَّكَرِ الْمُسْكِرَ؛ وهو من العِنَب الخمرُ، ومن النَّخيلِ نقيعُ التَّمر إذا غلَى واشتدَّ، نزلَتْ هذه الآيةُ وهُمَا لهم حلالٌ يومئذٍ، هكذا قال ابنُ عبَّاس، والرِّزقُ الحسَنُ: ما أُحِلَّ منها مثل الْخَلِّ والزبيب والتَّمر.

وسُئل بعضهم عن هذهِ الآية فقال: (السَّكَرُ مَا حُرِّمَ مِنْ ثَمرِهَا، وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا حَلَّ مِن ثَمرِهَا)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ دلائلَ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ ؛ أي والْهَمَ ربُّكَ النحلَ وعرَّفها ووفَّرَ عليها ودعَاها إلى ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ، وسَمَّى الإلهامَ وَحياً؛ لأن الوحيَ هو ظهورُ المعنى للنَّفسِ على وجهٍ خَفِيٍّ، وقد ألْهَمَ اللهُ كلَّ دابة التماسَ منافعها واجتنابَ مضارِّها، إلاَّ أنَّ أمرَ النحلِ أعجبُ؛ لأن فيها مِن لطيفِ الصَّنعة ما فيه أعظمُ مُعتَبرٍ، فإنَّ اللهَ ألهمَها اتخاذ المنازل والمساكنَ، وأنْ تأكُلَ من كلِّ الثمرات لمنافعِ بني آدم، وأنْ لا تقذفَ ما أكلتْهُ بعد ما صارَ عَسَلاً إلا على حَجَرٍ صافٍ أو مكان نَظيفٍ لا يخالطهُ طين ولا ترابٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ ﴾ ؛ فهي تتخذُ من الجبالِ بُيوتاً إذا لم تكن لأحدٍ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ يعني مما يَبني

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٣٨٨) بأسانيد عن ابن عباس. وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٥٥٩). والحاكم في المستدرك: تفسير سورة النحل: الأثر (٣٤٠٦) وقال: حديث صحيح.

النَّاسُ لها من خلاَيَاها ومساكنِها، ولولا التسخيرُ وإلهام الله ما كانت تأوي إلى ما يُبنى لها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ؛ أي من ألوان الثمر كُلِّه، ﴿ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ ؛ أي طُرُقَ ربكِ لطلب الرَّعي، وقوله تعالى (ذُلُلاً) يجوز أن يكون من نَعْتِ السُّبُلِ؛ أي لا يتوعَّرُ عليها مكان سلكَتْهُ، وهي ترعَى الأماكنَ البعيدة ذات العاصِ(١)، قد ذَلَّلَ اللهُ لها مسالِكَها أي سهَّلها. وقال ابنُ عباس: (ذُلُلاً نَعْتُ النَّحْلِ؛ أيْ مُطِيعَةً بالتَّسْخِيرِ وَإخْرَاجِ الْعَسَلِ مِنْ بُطُونِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ ؛ يعني العسَلَ يلقيهِ النحلُ أبيضَ وأصفرَ وأحمر، يقالُ: إنه يَخرجُ من شبابها الأبيضُ، ومِن كهولِها الأصفرُ، ومن شُيوخها الأحمرُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ أي في ذلكَ الشراب شفاءٌ للأوجاعِ التي شفاؤُها فيه، كذا قال السديُّ(٢).

وليس إذا كان في الناسِ من يضرهُ العسل لمعنى في نفسهِ ما يوجبُ أن يخرجَ العسلُ من كونهِ شفاءً للناس، فإنَّ اللهَ جعلَ الماءَ حياةً لكلِّ شيء، وربَّما يكون الماءُ سَبباً للهلاكِ، لكن الاعتبارَ للأعمِّ، وقال قتادةُ: (فِيْهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ مِنَ الأَدْوَاءِ)(٣)، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت:[كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ](٤)، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ ؛ أي خلقَكم في بُطون أمَّهاتكم طَوراً بعد طورٍ حتى أخرجَكم وربَّاكم إلى أن يقبضَ أرواحكم عندَ آجالِكم، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ ؛ حتى يعودَ في كِبَرهِ وهرمهِ في نُقصان قوَّته ونقصان عقلهِ إلى مثل حالِ الطُّفولة.

---

(١) هكذا رسمها الناسخ في الأصل المخطوط.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٥٧٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٤٢١).

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأطعمة: باب الحلوى والعسل: الحديث (٥٤٣١). ومسلم في الصحيح: كتاب الطلاق: باب وجوب الكفارة: الحديث (٢١/ ١٤٧٤) وفيه قصة وروده.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لكي يصيرَ كالصبيِّ الذي لا عقلَ له، وقال السديُّ: (أَرْذلُ الْعُمرِ الْخَرَفُ)(١)، وقال قتادةُ: (تِسْعُونَ سَنَةً) وعن عليٍّ ﷺ: (أنَّ أَرْذَلَ الْعُمرِ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً)(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠ ﴾ ؛ أي عليمٌ بكلِّ شيء، قادرٌ على تحويلِ الأحوال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ ؛ أي في المال والْخَدَمِ والنِّعَمِ، وجعل بعضكم سادةً وبعضكم مَماليكَ، ﴿ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ ﴾ ؛ أي فمَا أربابُ الأخدام وفُضِّلوا، ﴿ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ ؛ أي المماليكِ، ﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ ، فيُسَوُّونَهُمْ معَ أنفسِهم في الملكِ.

فإذا لم تَرْضَوا في الحكمةِ أن يشرككم مماليككم أيبطلوا فضلكم ؟ فكيف يرضَى اللهُ مِن خلقهِ أن يجعلوا له شَريكاً في الملكِ من خَلقِهِ، وهذا مثلٌ ضربه الله للمُشركين فقال: إذا لَم يكن عبيدُكم معكم سواءً في المِلك فكيف يجعلون عبادِي معي سواء؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٧١ ﴾ ؛ أي أتصِفُونَ نعمةَ الله إلى غيرِهِ وتشكرونَهُ عليها فتَجْحَدون نعمةَ الله، فإنَّ مَن أضافَ النعمةَ إلى غيرِ الْمُنْعِمِ وشكرَ عليها فقد جحدَ النِّعمةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ ؛ أي جعلَ لكم من جِنسِكم نساءً، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ ؛ أي من نسائِكم؛ ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ ، قِيْلَ: إن الحفدةَ الأختان، وَقِيْلَ: ولَدُ الولدِ، وَقِيْلَ: الخدَمُ، وحقيقةُ الحفَدة مَن يعاون على ما يحتاجُ، سرعة من الْحَفْدِ والإسراعِ، ويقال لكلِّ من أسرعَ في الخدمةِ والعملِ: حَفَدَةٌ، ومنه قولهم في دُعاء الوتر (نَسْعَى وَنَحْفِدُ) أي نُسرعُ في طاعتكَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٢٥٧٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٤٢٥).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ﴾ ؛ أي من الملاذّ والحلال، وقولهُ تعالى: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي أفبالأصنام يؤمنون، ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي يجحَدون بإضافتها إلى غيرِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي ويعبدون الأصنامَ التي لا تملكُ لهم رزْقاً من السَّموات بإنزال الغَيْثِ، ولا مِن الأرض بإنباتِ النبات شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي لا يَملِكون، وليست لهم استطاعةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ ﴾ ؛ أي لا تجعَلُوا للهِ الأشباهَ؛ لأنه لا يشبهُ شيئاً ولا يشبههُ شيءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي إن اللهَ يعلَمُ ما يكون قبلَ أن يكون، وأنتُمْ لا تعلمون قَدْرَ عظَمَتي حيث أشرَكتمُوني وعجَّزتُموني أن أبعثَ خَلقِي.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ ؛ أي ضربَ اللهُ المثلَ بعبدٍ مَملوكٍ لا يقدرُ على شيءٍ، ﴿ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ ﴾ ؛ وهو الحرُّ، فهو ينفق منه خفيةً وعلانيةً؛ ﴿ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ ﴾ ؛ في المثلِ، كما أن الحرَّ الذي يملكُ وينفقُ سِرّاً وعلانيةً، والذي لا يملكُ شيئاً ينفقهُ، لا يستويان في المثلِ، كما لا يستوي المنعِمُ الذي جاءَت من قِبَلِهِ النعمةُ، والأصنام الموات التي لا تقدر على النعمةِ. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ ﴾ ؛ أي قُل الحمدُ للهِ الذي أوضحَ لنا السبيل والطريقَ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ ؛ الكفارُ، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي وضربَ اللهُ المثلَ برَجُلين؛ أحدُهما أخرَسُ لا يقدرُ على شيءٍ من الكلام، ويقال: الأَبْكَمُ هو الذي وُلد أصمَّ لا يسمعُ ولا يفهمُ ولا يمكنه أن يفهمَ غيره، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ ﴾ ؛ أي ثقيلٌ على وليِّهِ وصاحبِه، ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ ؛ لا يهتدِي إلى منفعةٍ ولا إلى خيرٍ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِۙ ﴾ ؛ ناطقٌ

متكلّم آمِرٌ بالعدل، تامُّ التميـيز، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي دِيـن مستقيم، وهذا مَثَلٌ للمؤمنِ والكافر.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ قِيلَ: هذه الآيـة نزلت جَواباً عن سؤال قُريش: متى الساعةُ؟ وهي ظاهرةُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ ؛ أي أخرجَكم جَـاهِلين، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾ ؛ أي خلَـقَ لكـم الحواسَّ التي بها تعلَمون نعمتَهُ وقدرتَهُ، ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾ ؛ أي ألَمْ يروا إلى الطير مذلَّلات في الهواءِ ما يُمسِكُهنَّ حتى يسـقُطنَ علـى الأرضِ إلا اللهُ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ ﴾ ؛ أي دلالاتٍ على وحدانيَّـة الله، ﴿ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا ﴾ ؛ أي بيـوتِ الْمَـدَر والحجَـر مواضـعَ تسـكُنون فيـها، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا ﴾ ؛ وهـي الخيامُ، ﴿ تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ ﴾ ، تَخِفُّ عليكم نقلُها وحملها مـن مكـانٍ إلى مكـان، يـومَ سفَركم ويـومَ إقـامتكم، ﴿ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ ﴾ ؛ وجعـلَ لكـم مـن أصـوافِ الضَّـأن، وأوبَـار الإبـلِ، وأشـعَار الماعز، ﴿ أَثَٰثٗا ﴾ ؛ أي مَتاعاً للبيتِ مـن الفُرُشِ والأكْسِيَةِ والبُسُـطِ، ﴿ وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي منفعةً تنتفعون بها إلى حينِ آجالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا ﴾ ؛ أي أشـياءَ تستظِلُّون بـها مثـلَ الأشـجار ونحوهـا، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا ﴾ ؛ وهـي الكهوفُ والغِيرَانُ يدخلُها الناس ليسكنوا فيها من الحرِّ والبرد.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾ ؛ أي جعـلَ لكـم سَرابيلَ يعني القَميصَ من القُطنِ والكتَّـان والصـوف يدفـعُ عنكـم الحرَّ في الصيفِ

والبردَ في الشتاء. ولم يذكرِ البردَ في الآية؛ لأنه لَمَّا ذكرَ الحرَّ فقد دلَّ به على ما في مقابلتهِ من البرد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ ؛ أرادَ به الدُّروعَ من الحديدِ يتَّقون بها في الحرب سلاحَ العدوِّ، يعني الطعنَ والضرب والرميَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ في سائرِ الأشياء،كما أتمَّها عليكم في هذه الأشياء، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ لكي تُسلِمُوا، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) أيْ لَعَلَّكُمْ يَا أهْلَ مَكَّةَ تَعْلَمُونَ أنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى هَذا غَيْرُ اللهِ فَتُؤْمِنُوا بِهِ وَتُصَدِّقُوا رَسُولَهُ). وفي قراءةِ ابن عبَّاس (لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ)[1] بنصب التاء من الجراحاتِ إذا لبستُم الدروعَ من الحديدِ، ومن الحرِّ والبرد إذا لبستُم القميصَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي إنْ أعرَضُوا عن الإيمان، فإنما عليكَ يا مُحَمَّدُ البلاغُ الظاهر، وهو أن تُبَلِّغَ الرسالةَ، وتُبَيِّنَ الدلالةَ، فلما ذكَرَ لَهم النبيُّ ﷺ هذه النِّعَمَ، قالوا: أنْعِمْ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ اللهِ ؟

ثُمَّ قَالُوا: شَفَاعَةُ آلِهَتِنَا، فأنزلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي يعرفون أنَّ هذه النعمَ كلَّها من اللهِ، ﴿ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ، بإضافتها إلى الأوثان، ويشكرونَ الأوثانَ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي كلُّهم يكفرون باللهِ وبنعمته، فذكر الأكثرَ والمراد به الجميعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ تشهدُ الأنبياء علىأمَمِهم بما فعلوا من التصديق والتكذيب، وتشهد العدولُ مِن كلِّ عصرٍ علىأهلِ عصرهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي لا يُؤذنُ لهم بعدَ شهادةِ الرُّسل في الاعتذار، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ ولا ينفعُهم الاعتذارُ يومئذٍ ولا يُجابُونَ إلى الردِّ إلى الدُّنيا.

(١) أخرجها الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٤٨١) بإسنادين.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي إذا رأوْهُ بـالدخول فيـه، فــلا نرفعــهُ عنــهم في وقــتٍ ونشــدِّدُ في وقــتٍ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ ولا يؤجَّلون بتأخيرِ العذاب إلى وقتٍ آخرَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ ؛ أي إذا رأى الذيــن أشــركوا الأصنامَ مـع اللهِ في العبـادةِ، ﴿ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ ، يعـني الأصنــام، ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ الأصنـام، ﴿ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ﴾ ؛ التي أشـركناها معكَ في العبادةِ، فألقى الأصنامَ ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ في أنَّا آلهةٌ وفي أنَّا أمرناكم بالعبادةِ، ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ ، واستسـلَمُوا كلُّهم لأمرِ الله يومئذ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ . والفائدةُ في إعادةِ الأصنام يومئذ: أنْ يُعَيِّرَهم اللهُ بها، وأن يُعذِّبَهم بها في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ الذين كفَروا باللهِ ورسُله، وصَدُّوا عن سـبيلِ الله بامتناعهم عنهُ ومنعِ الناس عنه، زدناهُمْ عذاباً فوقَ العذاب، قال ابنُ مسعود: (زِيـدُواْ عَقَارِبَ لَهَا أنْيَابٌ كَالنَّخْلِ الطِّوَال)، وَقِيْلَ: زيدُوا حيَّاتٍ كأمثال الفِيلَةِ. وَقِيْلَ: تجـري فوق رؤُوسِهم أنْهارٌ من نُحاسٍ ذائبٍ إذا وقعَ على كفِّ الرجـلِ اشتعلَ الجسدُ منه ناراً، فليس فيها عذابٌ أشدَّ منه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ فيـه بيانُ أنَّ كلَّ عصرٍ لا يخلو مـن شـهيدٍ علـى النـاس، ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ ؛ يـا مُحمَّـدُ، ﴿ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ يعني قومَـهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ أي القرآنَ، ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ؛ من أمور الدِّين، ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ ﴾ وبشارةً، ﴿ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ ؛ يعـني بـالعدلِ في الأفعال، والإحسانَ في الأقوال، ولا يفعـلُ إلا مـا هـو عـدلٌ، ولا يقـولُ إلا مـا هـو حسَنٌ، قال ابنُ عبَّاس: (الْعَدْلُ شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَالإحْسَانُ أدَاءُ الْفَرَائِضِ)[1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٦٤٩٨ و١٦٤٩٩).

وَقِيْلَ: العدلُ هو الإنصافُ، ويدخل فيه إنصافُ المرءِ من نفسه لغيرهِ في الحقوق والأماناتِ، ومن نفسهِ لنفسه فيما يكون حَقّاً عليه من شُكر نِعَمِ اللهِ، وأن لا يَعبدَ غيره، وأن لا يصفَ اللهَ بما لا يليقُ به من الصفاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالإِحْسَانِ) يدخلُ في ذلك المتفضّلُ على الغير، إما بالمال، وإما بالمعاشرة الجميلة من قولٍ أو فعلٍ، أو إكرام أو بحسَبٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ؛ أي صلةِ الأرحام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ ؛ فالفحشاءُ: الزِّنى، والمنكرُ: الشِّركُ، والبَغيُ: الظُّلمُ والكِبْرُ. وَقِيْلَ: الفحشاءُ: ما عَظُمَ قبحهُ من قولٍ أو فعلٍ، سرّاً كان أو علانيةً، والْمُنْكَرُ: ما يظهرُ للناسِ، فيجبُ إنكارهُ، والبغيُ: الاستطالَةُ والظلمُ.

وقيل في معنى الآيةِ: إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدل: بالتوحيدِ، والإحسان: الإخلاصُ، وَقِيْلَ: الإحْسَانُ أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ. وَقِيْلَ: الإحسان العفوُ عن الناسِ، وَقِيْلَ: العدلُ: استواءُ السرِّ والعلانيةِ، والإحسان: أن تكون سَريرتهُ أحسنَ من علانيتهِ، والفحشاء والمنكر: تكون علانيتهُ أحسنَ من سَريرتهِ.

رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ على الوليدِ: (إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فقالَ: يَا ابْنَ أخِي أعِدْ عَلَيَّ، فَأعَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ: إنَّ لَهُ لَحَلاَوَةً وَإنَّ عَلَيْهِ لَطَلاَوَةً، وَإنَّ أعْلاَهُ لَمُورِقٌ وَإنَّ أسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَمَا هُوَ بقَوْلِ الْبَشَرِ[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ يأمرُكم بثلاثٍ أن تفعَلوهُنَّ، وينهاكم عن ثلاثٍ؛ لتَنتَهُوا عنهنَّ لعلكم تتَّعظون بما تُؤمَرون، وتَحْتَرِزُونَ عن التقصيرِ.

---

(١) حكاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٦٥؛ وقال: ((وذكر الغَزْنَويُّ أن عثمان ابن مضعون هو القارئ)). وقصة عثمان بن مضعون أسندها ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٢٦٣٣ و١٢٦٣٤) عن ابن عباس ولم يذكر فيها قول الوليد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ ؛ أي أتِمُّوا العهودَ التي بينكم وبين الناسِ إذا حلفتُم باللهِ تعالى، ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ ؛ العهودَ، ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ؛ توثيقِها باسمٍ، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ﴾ ؛ قُلتم: ﴿ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ ؛ شهيداً عليكم بالوفاءِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ ؛ من النَّقضِ والوفاءِ فيَجزيَكم عليه. وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الرجلَ إذا قال: عليَّ عهدُ اللهِ إنْ فعلتُ كذا كان يَميناً؛ لأنه تعالى ذكرَ العهدَ في أوَّل الآيةِ، ثم عقَّبَهُ بقولِه: (وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ ؛ أي لا تكُونوا في نقضِ العهود كالتي نَقَضَتْ غزْلَها من بعدِ إبرامٍ وإحكامٍ، وهي امرأةٌ من قُريش أمُّ أخنسَ بنِ شُريق تُعرفُ بـ (رَيْطَةِ الْحَمْقَاء)، كانت تغزلُ من الصُّوف والشعرِ والوبَرِ بمغزلٍ عظيمٍ مثلَ طُولِ الذِّراع وصنَّارَة في رأسِ المغزلِ مثلِ طُولِ الإصبَعِ وفُلكَةٌ عظيمةٍ، فإذا غَزَلَتْهُ وأبرمَتْهُ أمَرت جاريَتها فنقضتْهُ[1]. والأَنْكَاثُ: جمعُ نَكْثٍ، وهو ما تَنَقَّضَ من غزل الشَّعر والقُطْنِ ونحوهما، والمعنى: لا تكونوا في نقضِ الإيمان كهذه المرأةِ، غَزَلَتْ غَزْلاً، وأحكمَتْهُ ثم نقضتهُ فجعلته أنْكاثاً، والأنكاثُ: ما يُقطع من الخيوطِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ ؛ أي تتَّخذون عهُودَكم دَخَلاً وخديعةً وغِشًا وخيانةً بينكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ ؛ أي لأنْ تكون جماعةٌ هي أعزُّ وأكثرَ من جماعة، قال مجاهدُ: (إنَّهُمْ كَانُوا يُحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ فَيَجِدُونَ أكْثَرَ مِنْهُمْ وَأعَزَّ، فَيَنْقُضُونَ حِلْفَ هَؤُلاَءِ، وَيُحَالِفُونَ الأَكْثَرَ، فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذلِكَ)[2].

---

(١) هي رَيْطَةُ بنتُ عمرو بن كعبِ بن تَيم بن مُرَّة. ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص٢٣٥. وفي اللباب في علوم الكتاب: ج ١١ ص١٤٨-١٤٩ نقله عن الكلبي ومقاتل. وذكره مختصراً ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم(١٢٦٤١-١٢٦٤٣) والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٧١.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٥١٨).

وحاصلُ التأويلِ النهيُ عن أن تَحْلِفَ على شيءٍ وهو مُنْطَوٍ على خلافِهِ، وأن يَغُرَّ غيرَهُ يمينُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ ؛ أي إنما يُخبرُكم بأمْرِهِ إياكم بالوفاءِ بالعهد، ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا من الحقِّ والباطلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي أهلَ مِلَّةٍ واحدة ودِينٍ واحد، ﴿ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ بتوفيقِهِ فضلاً منه، ﴿ وَلَتُسْـَٔلُنَّ ﴾ ، يوم القيامة، ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ من الخيرِ والشرِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ أي مَكْراً وخديعةً، ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ ﴾ ؛ فتزلُّوا عن طاعةِ الله كما تَزِلُّ قدمُ الرجلِ، ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ جعلَ اللهُ زلَّةَ القدَمِ عبارةً عن سُخطِ الله، وثَبَاتَ القَدَمِ عبارةً عن رضَى اللهِ.

وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى: (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) أي فتهلَكُوا بعد أنْ كنتم آمنين، وقال ابنُ عبَّاس: (فَتَزِلَّ عَنِ الإيْمَانِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ)(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ ﴾ ؛ يعني العذابَ، ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي بما منَعتُم الناسَ عن دينِ الله، ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ أي لا تختارُوا الحِلْفَ باللهِ كَذِباً عَرَضاً يسيراً من الدُّنيا، ولكن أوْفُوا بها، ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي فإنَّ ما عندَ اللهِ من الثواب في الآخرة على الوفاءِ هو خير لكم مما عِندَكم، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ ثوابَ اللهِ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص١٧٣؛ قال القرطبي: ((مبالغةٌ في النهي لعِظَمِ موقعهِ في الدين وتردُّده في معاشراتِ الناس؛ أي لا تعقدوا الأيمانَ بالانطواءِ على الخديعةِ والفسادِ فتزلَّ قدمٌ بعد ثُبوتها؛ أي عن الإيمان بعد المعرفة بالله. وهذه استعارةٌ للمستقيمِ الحال يقعُ في شرٍّ عظيم ويسقطُ فيه؛ لأن قدمَ الإنسان إذا زلَّت نقلت الإنسانَ من حال الخيرِ إلى حال الشرِّ)). وقلتُ: فالدعوة صريحةٌ إلى حُسنِ النوايا وتحسينها في التعامل وعقدِ العهود وأخذ المواثيق وإعطائها، ويا ليتَ كثيراً من الناس يعلمون، لصَلُحَ الحال لا محالة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ﴾ ؛ أي يَفْنَى ولا يبقى، ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الثواب في الآخرةِ على الوفاء، ﴿ بَاقٍ ﴾ ، هو خيرٌ لكم مما عندَكم يدومُ ويبقى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وعاصم بالنُّون، وقرأ الباقون بالياءِ، ومعناهُ: الذين صَبَروا على الوفاءِ وعلى الطاعةِ، ﴿ أَجْرَهُم ﴾ ؛ بالطاعاتِ، ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ دون إسرَارِها، ويعفُو عن سيِّئاتِها.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً مِنْ حَضْرَمَوْتَ يُقَالُ لَهُ عِيدَانُ بْنُ الأَشْوَعِ[(١)] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ الْكِنْدِيَّ جَاوَرَنِي فِي أرْضِي فَاقْتَطَعَهَا، فَقَالَ ﷺ: [لِيَشْهَدْ لَكَ أحَدٌ] قَالَ: إنَّ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنِّي صَادِقٌ، وَلَكِنَّهُ أكْرَمُ عَلَيْهِمْ مِنِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلأَشْعَثِ: [مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ؟] قَالَ: الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: [أتَحْلِفُ ؟] قَالَ: نَعَمْ، فَهَمَّ بالْحَلْفِ.

فَأخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: (وَلاَ تَشْتَرُوا بعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً...) إلَى آخِرِ الآيَتَيْنِ. فَقَرَأهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الأَشْعَثِ فَقَالَ: أمَّا مَا عِنْدِي فَيَنْفَدُ، وَأمَّا مَا بصَاحِبي فَيُجْزَى بأحْسَنَ مَا كَانَ يَعْمَلُ، اللَّهُمَّ إنَّهُ صَادِقٌ فِي مَا قَالَ، لَقَدِ اقْتَطَعْتُ أرْضَهُ، وَاللهِ مَا أدْري كَمْ هِيَ، وَلَكِنْ يَأْخُذُ مَا شَاءَ مِنْ أرْضِي وَمِثْلَهَا مَعَهَا بمَا أكَلْتُ مِنْ ثَمرِهَا. فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ بَعْدَ ذلِكَ فِي الأَشْعَثِ[(٢)]:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ؛ أي مَن عَمِلَ صالحاً فيما بينه وبين ربهِ وأقرَّ بالحقِّ وهو مع ذلك مؤمنٌ ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ، قِيلَ: المرادُ بها القناعةُ بما يُؤتَى من الرِّزق الحلالِ، كما رُوي عن وهب بن مُنبه أنه قال: (الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقَنَاعَةُ بمَا رُزقَ).

---

(١) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٤ ص٧٦٠: الترجمة (٦١٤٩).

(٢) في الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٢ ص٤٧١: ربيعة بن عيدان: الرقم (٢٦١٩)؛ قال ابن حجر: ((رواه الطبراني من طريق عبدالملك بن عمير عن علقمة بن وائل عن أبيه... وذكره)) ثم قال: ((وأصله في مسلم من حديث علقمة دون تسميتهما. وله طرق)).

وَقِيْلَ: هي أنْ يكون صدرهُ مُنفَرجاً بما يعتقدهُ من دلائلِ الله تعالى، وبما يعرفهُ من وجوب مفارقةِ المعاصي، فيصيرُ قليلَ الْهَمِّ في أمور دنياهُ. وَقِيْلَ: الحياة الطيِّبة الجنةُ؛ لأنه لم يَطِبْ لأحدٍ حياةٌ إلاّ فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أي إذا أردتَ قراءةَ القرآن، ونظيرهُ ﴿إذا قُمْتُمْ إلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[1]، وقولهُ تعالى: ﴿وإذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[2].

وفائدةُ الأمرِ بالاستعاذةِ قبلَ القراءةِ نَفْيُ وَسْوَاسِ الشَّيطانِ عند القراءة، وقد أجمعتِ الفقهاءُ على أنَّ الاستعاذةَ قبلَ القراءة إلاَّ ما رُوِي عن أبي داود بن عليّ ومالك أنَّهم قالوا: (الاسْتِعَاذةُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ) أخذُوا بظاهرِ الآية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾؛ أي إنَّ الشيطانَ ليس له سَلْطَنَةٌ على المؤمنِ إلا في الوسوسةِ، ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾، على الذين يقبَلون دُعاءَهُ، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ ﴾؛ باللهِ، ﴿ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾؛ فإنَّهم جعَلُوا له سُلطاناً على أنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾؛ أي اذا نسَخنا آيةً أو أتَينا مكانَها أخرى، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾؛ أي بمصالح العبادِ، يُنَزِّلُ فِي كُلِّ وقتٍ ما هو الأصلحُ لَهم، ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾؛ أي قالت كفارُ قريش: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ ﴾ يا مُحَمَّدُ، ﴿ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾؛ كاذبٌ في الناسخِ والمنسوخِ، مختلِقٌ من تلقاءِ نفسِكَ! وذلك أن المشركين قالوا: إنَّكَ يا مُحَمَّدُ تَسْحَرُ أصحابَكَ، وتأمرُهم اليومَ بأمرٍ وتنهاهم عنه غداً! قال اللهُ: ولكنَّ أكثرَهم لا يعلَمُون صدقَ رسولِ الله ﷺ ولا حقيقةَ القرآنِ.

---

(١) المائدة / ٦ .

(٢) الأنعام / ١٥٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ ؛ أي قل نَزَّلَ القرآنَ جبريلُ من ربك، ﴿بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ ويُقوِّيهم لإيمانِهم؛ ليزدَادُوا تَصديقاً ويقيناً، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ كَانُوا يَقُولُونَ: إنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وإنَّمَا يُعَلِّمُ النَّبِيَّ بَشَرٌ، أرَادُوا بذلِكَ جَبْراً وَيَسَاراً كَانَا عَالِمَيْنِ نَصْرَانِيَّيْنِ، وَكَانَ ﷺ يُحَدِّثُهُمَا وَيُعَلِّمُهُمَا، وكَانَا يَقْرَءآن كِتَابَهُمَا بالْعَرَبيَّةِ، وكَانَا قَدْ أسْلَمَا)[1]. وَقِيلَ: كانوا يَعْنُونَ بقولِهم (بَشَرٌ): سلمانَ الفارسيَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ ؛ أي لسانُ الذي يَميلُونَ إليه ويزعُمون أنَّهُ يُعلِّمُكَ أعْجَمِيٌّ، ﴿وَهَٰذَا﴾ ؛ القرآنُ الذي يقرَءُونَه، ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ ؛ فكيف يقدرُ الأعجميُّ على تعليم مثلهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ ؛ إلى ثوابهِ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ ؛ وجيعٌ في الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ؛ معناهُ: إنما يكذبُ على اللهِ مَن لا يؤمنُ بدلائلهِ، بَيَّنَ اللهُ أن الذين نَسبوهُ إلى رسولِ الله ﷺ من الافتراءِ هم أحقُّ به.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون مَن كَفَرَ رفعا على البدلِ من (الْكَاذِبِينَ)، ويجوز أن يكون كَلاماً مبتدأ، وقولهُ تعالى (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ) خبرٌ له أو خبرٌ لقولهِ (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بالْكُفْرِ صَدْرا). والمرادُ بقولِهِ (إلاَّ مَنْ أكْرِهَ): عَمَّارُ بنُ يَاسِرٍ.

رُوي: أنَّ الْمُشْرِكِينَ أخَذُوهُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَعَذبُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذكَرَ آلِهَتَهُمْ بخَيرٍ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ تَرَكُوهُ، فَأتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَمْسَحُ الدُّمُوعَ مِنْ عَيْنَيْهِ،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٥٥٢-١٦٥٥٧).

فَأَخْبَرَهُ الْقِصَّةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: [كَيْـفَ وَجَـدْتَ قَلْبَـكَ ؟] قَـالَ: مُطْمَئِناً بالإيْمَانِ، فَقَالَ ﷺ: [إنْ عَادُوا فَعُدْ][١].

وقوله عليه السلام: [إنْ عَادُوا فَعُدْ] على جهةِ الإباحة والرُّخصة دون الإيجاب، فإنَّ الْمُكْرَهَ على الكفر إذا صبرَ حتى قُتِلَ كان أعظمَ لأجرِه، والإكراهُ السماح لإجراءِ كلمة الكُفرِ على اللِّسان، وهو أن يخافَ التلفَ على نفسِه، أو على عُضو من أعضائـهِ إن لم يفعل ما أُمِرَ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ ، اي فَسحَ صدرَهُ للكفر بالقَبُول وأتى به على الاختيار، ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ قِيْلَ: إنَّها نزلت في أبي سَرْحٍ القرشي رجعَ إلى الشركِ، وباحَ بالكفرِ ولَحِقَ بمكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ؛ أي ذلك العذابُ بأنَّهم اختارُوا الحياةَ الدُّنيا على ثواب الآخرة، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ إلى جنَّتهِ وثوابهِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ ﴾ ؛ أي حَقّـاً ﴿ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي خَسِـروا أنفُسَهم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ﴾ ؛ نزلت في قومٍ بمكَّة بعدَ هجرةِ النبيِّ ﷺ إلى المدينةَ، ثم إنَّهم هاجَرُوا إلى المدينةِ من بعـدِ ما عذبَهم أهلُ مكـة، ﴿ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾ ؛ مـع النـبيِّ ﷺ فصَبَروا علـى الجهادِ، فوعَدَهم اللهُ المغفرةَ لِمَا كان فيهم من التخلُّفِ عن الهجرةِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص١٧٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيـهقي في الدلائـل)). وأخرجـه الطـبري في جـامع البيان: الحديث (١٦٥٦٣). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٤١٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

وذلك أنَّهم كانوا مُستضعَفين بمكَّة وكانوا مؤمنين، فعذبَهم أهلُ مكة حتى ارتَدُّوا عن الإسلام ليَسْلَموا من شرِّهم، ثم هاجَرُوا مِن بعدِ ما فُتِنوا؛ أي من بعدِ ما عُذِّبوا، ثم جاهَدُوا مع النبيِّ ﷺ وصَبَروا على الجهادِ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ ؛ تلك الفتنةِ وتلك الفِعْلَةِ التي فعَلُوها من التلفُّظِ بكلمة الكفر، ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ وقرأ ابنُ عامرٍ (فَتَنُوا) بفتحِ الفاء؛ أي فَتَنُوا أنفُسَهم بإظهار ما أظهَرُوا للفتنةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون (يَوْمَ) منصوباً بنَزعِ الخافض أي في يومِ تأتِي كلُّ نفسٍ، ويجوزُ أن يكون المعنى: واذْكُرْ يومَ تأتِي كلُّ نفسٍ، وهو يومُ القيامةِ، يجادلُ فيه كلُّ إنسان عن نفسهِ، ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ؛ بَرَّةٍ أو فاجرةٍ، ﴿ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ، جزاءَ ما عمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ، لا ينقصُ من ثواب محسنٍ، ولا يزادُ على عقاب مُسِيءٍ.

واختلَفُوا في الْمُجَادَلَةِ المذكورةِ في الآية، قال بعضُهم: هو قولُ الكفَّار: مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ، وقولُهم: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا. ومعنى الآية: إنَّ كلَّ أحدٍ لا تُهِمُّهُ إلا نفسُه، فهو يخاصِمُ ويحتجُّ عن نفسهِ، لا يتفرَّغُ إلى غيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ ؛ يعني مكَّةَ كان أهلُها آمِنِينَ لا يُهَاجُ أهلُها ولا يُغَارُ عليها، بخلافِ قُرَى سائر العرب، لأن العربَ كانت لا تقصدُ مكَّة احتراماً لِحَرَمِ اللهِ، وقولهُ تعالى: (مُطْمَئِنَّةً) أي قارَّةً بأهلِها لا يحتاجون إلى الانتجاعِ ولا الانتقال، كما يحتاجُ إليه سائرُ العرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ؛ أي كان الرزقُ واسعاً على أهلِ مكَّة يُحملُ إليهم من البَرِّ والبحر، كما قالَ تعالى ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، ﴿ فَكَفَرَتْ ﴾ ؛ فكفَرَ أهلُ مكَّة، ﴿ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ ، حين كذبُوا بمُحمَّدٍ ﷺ وخالفوهُ، وكذبُوا بالقرآن بعدَ قيام الحجَّة عليهم، ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ ، فعاقبَهم اللهُ سبعَ سنين بالقَحْطِ، وخوَّفَهم من النبيِّ ﷺ ومن عساكرِهِ وسراياهُ، ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ، من تكذيبِهِ.

---

(١) القصص / ٥٧ .

رُوي أنه بَلَغَ بهم من الجوعِ ما لا غايةَ بعدَهُ حتى أكلُوا العظامَ الْمُحْرَقَة والْجِيَفَ والكلابَ، وكان ذلك بدعاءِ النبيِّ ﷺ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ سِنِينَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ][(١)] فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ حتى صارَ أمرُهم إلى هذه الحالةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ أرادَ به مُحَمَّداً ﷺ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ ؛ الذي تقدَّمَ ذِكرهُ من الجوعِ والخوف، ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ وكانوا ظَالِمين لأنفسهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي كُلُوا يا معشرَ المؤمنين مما رزقَكم اللهُ حَلالاً طيِّباً إلى آخرِ الآيتين، قد تقدَّمَ تفسيرهُما في سورة البقرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ ؛ أي ولا تقولُوا الكذبَ لِمَا تصفهُ ألسِنَتُكم بالحلِّ والحرمةِ، فتُحِلُّوا الميتةَ، وتُحرِّمُوا بعضَ الزَّرعِ والأنعامِ، كما تقدَّم ذِكرهُ في سورةِ الأنعامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ؛ أي لتَكْذِبُوا على اللهِ بقولِكم إنَّ هذا من عندِ الله.

وقولُهُ تعالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ أي لا يَظْفَرونَ بالْمُرادِ، ولا يَنْجُونَ يومَ القيامةِ، إنما لهم في الدُّنيا ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ ؛ ثم يتعقَّبُهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أرادَ به ما بَيَّنَهُ اللهُ في سورةِ الأنعامِ، وقد تقدَّمَ هناك، وفيه بيانُ أن التحريمَ الذي كان في اليهودِ كان من قِبَلِ اللهِ، وأنه مخالفٌ للتحريمِ الذي كان في كفَّار مكة. وقولُهُ تعالَى: ﴿ وَمَا

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأذان: باب يهوي بالكبير حين يسجد: الحديث (٨٠٤). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد وموضع الصلاة: باب استحباب القنوت: الحديث (٢٩٥/ ٦٧٥).

ظَلَمْنَاهُمْ﴾ ؛ أي وما ظلَمناهم بتحريم ذلك، فإنَّ تحريْمَها كان عقوبةً لهم، ولا تكون العقوبةُ ظُلماً، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ؛ بمخالفَتِهم أمرَ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ مَن ارتكبَ المعاصي، وخالفَ أمرَ اللهِ، واستعملَ الجهالةَ في ارتكابهِ، لَمْ يَمْنَعْهُ ذلك من التوبةِ، فإنه إذا تابَ وأصلحَ في المستقبل، مَحَا اللهُ عنه كلَّ السيئاتِ، قال ابنُ عبَّاس: (كُلُّ سُوءٍ يَعْمَلُهُ ابْنُ آدَم فَهُوَ جَاهِلٌ فِيْهِ، وَإنْ كَانَ يَعْلَمُ أنَّ ارْتِكَابَهُ رُكُوبَ سَيِّئَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ ؛ فيه بيانُ أنَّ إبراهيمَ كان هو القُدْوَة للناسِ بالخير، وسُمِّيَ الإمامُ (أُمَّةً)؛ لأنه يجمعُ خِصَالَ الخير، ويقالُ للرجلِ الْمُنْفَرِدِ بدِينٍ لا يشركهُ فيه غيره: أمَّةٌ، ويقالُ للعالِمِ: أمَّةٌ، والأُمَّةُ: الرجلُ الجامعُ للخير.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَانِتاً للهِ حَنِيفاً) القَانِتُ: هو الدائمُ على الطاعةِ، والقُنُوتُ: هو الدوامُ على الطاعةِ، والقَانِتُ: هو المطيعُ، والحنيفُ قد تقدَّم تفسيرُهُ، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ؛ كما ادَّعاهُ كفارُ قريش، فإنَّهم يدَّعون أنَّهم يتبعون دينِ إبراهيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ ؛ أي كان إبراهيمُ شَاكرًا لنِعَمِ اللهِ عليه، وانتصبَ قولهُ (شَاكِرًا) على البدَلِ من قولهِ (أُمَّةً قَانِتاً). وقوله: ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ ؛ أي اصْطَفَاهُ بالنبوَّةِ واختارَهُ، ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ ؛ أي إلى دينِ الإسلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي الذِّكْرَ الْحَسَنَ)، وقال الحسنُ: (هِيَ النُّبُوَّةُ)، وقال مجاهدُ: (لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ)[1] وقال مقاتلُ:(يَعْنِي الصَّلاَةَ عَلَيْهِ مَقْرُونَةً بالصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ ؛ أي مع الْمُرْسَلِينَ في الجنَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٥٩٤).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ أي أمَرناكَ يا مُحَمَّدُ باتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ في مُجانبةِ الكفَّار، كما كان إبراهيمُ يَتجَنَّبُهم.

فإنْ قِيْلَ: كيف يجوزُ أن يُوصِي الفاضلَ بمتابعةِ المفضُول، ونبيُّنا مُحَمَّد ﷺ كان أفضلَ الأنبياءِ ؟ فكيفَ أمرَهُ الله بمتابعةِ إبراهيمَ عليه السلام ؟ قِيْلَ: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان قد سَبَقَ إلى اتِّباعِ الحقِّ، ولا يكون في سَبْقِ المفضولِ إلى اتِّباعِ الحقِّ عيبٌ على الفاضلِ في اتِّباعه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ وهم اليهودُ، وذلك أنَّ موسى قال لبَنِي إسرائيلَ: تفرَّغُوا إلى اللهِ في كلِّ سبعةِ أيَّام يوماً واحداً، فاعبدوهُ في يومِ الجمعةِ، ولا تعمَلُوا فيه شيئاً من أمُور الدُّنيا، وستَّة أيامٍ لمعايشِكم وصنائعِكم، فأَبوا أن يقبَلُوا ذلكَ منهُ، وقالوا: لاَ نبتَغِي إلاَّ اليومَ الذي فرَغَ فيه مِن الخلق، يعنون السَّبت، فجعلَ ذلك عليهم فيهِ، وقالت جماعةٌ منهم: بل أعظمُ الأيَّامِ يومُ الأحَدِ؛ لأنه اليومُ الذي بدأ اللهُ فيه بخلقِ الأشياءِ، فاختارُوا تعظيمَ غيرِ ما فَرَضَ اللهُ عليهم؛ أي ترَكُوا تعظيمَ يومِ الجمعة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ ؛ أي أدعُ إلى سبيلِ دينِ الله (بالْحِكْمَةِ) يعني بالنبوَّةِ، (وَالْمَوْعِظَةِ) يعني القرآنَ، وقِيْلَ: التخويفُ بالعذاب على جهةِ إظهار الشَّفقة عليهم ليكون ذلك أقربَ إلى إجابتهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ ؛ أي بالرِّفقِ واللُّطفِ، وذِكرِ أحسنِ ما عنده من الحجَجِ، وأعرِضْ عن أذاهُم، ولا تقصِّرْ في أداءِ الرسالة والدُّعاء إلى الحقِّ، قِيْلَ: إن هذه الآيةَ نسَختها آيةُ السَّيف. وقولـهُ تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أي هو أعلمُ بمَن يقبلُ الهدى ومَن لا يقبلهُ، فيجزي كُلاًّ على ما عَمِلَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ ﴾ ؛ وذلك أنَّ حمزةَ ابنَ عبدِالمطَّلب وأصحابه الذين قُتلوا يومَ أُحُد مَثَّلَ بهم المشركون، عَمَدُوا

إلى حمزةَ فشَقُّوا بطنَهُ، وأخذت منه هندُ بنت عتبة كَبِدَهُ، فجعلت تلوكُها ثم تطرحُها، وقطَعُوا مذاكيرَهُ وجدَعُوا أنفه وأذنيه، ومثَّلوا به أشدَّ الْمُثْلَةِ، وكذلك سائرُ شهداء أُحُد مَثَّلَ بهم المشركون، بقَرُوا بطونَهم، وقطعُوا مذاكيرَهم.

فلما نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى عمِّه حمزةَ لم ينظرْ إلى شيءٍ قطُّ أوجعَ إلى قلبهِ منه، فقال: [رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْكَ، فَإنَّكَ كُنْتَ فَعَّالاً لِلخَيْرِ، وَصَّالاً لِلرَّحِمِ، وَاللهِ لَئِنْ أظْفَرَنِي اللهُ بهمْ لأَقْتُلَنَّ بكَ سَبْعِينَ مِنهُمْ، ولأُمَثِّلَنَّ سَبْعِينَ مِنهُمْ] وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَئِنْ أمْكَنَنَا اللهُ مِنْهُمْ لَنُمَثِّلَنَّ بالأَحْيَاءِ فَضْلاً عَنِ الأَمْوَاتِ. فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ (وَإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ)﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾؛ فقالَ ﷺ: [أصْبرُ وَلاَ أمَثِّلُ] وكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ[1]، فنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾؛ أي ما صبرُكَ إلاَّ بمعونةِ الله وتوفيقه، ولا تقدرُ على الصَّبرِ في الحزن الذي لَحِقَكَ بسبب الشُّهداء، إلا أنْ يُسَهِّلَ اللهُ عليكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾؛ أي لا تحزَنْ على الكفَّار إذا امتنعُوا من الاستجابةِ لكَ. وَقِيْلَ: لا تحزَنْ على الشُّهداء، فإن اللهَ أنزلَهم منازلَهم في الجنَّة، لو رأيتَهم في الكرامةِ التي أكرمَهم اللهُ بها لَغبطْتَهُمْ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾؛ أي لا يَضِيقُ صَدرُكَ من مَكرِهم، فيكون ذلك شَاغلاً عن ما كُلِّفْتَهُ من الدُّعاء إلى سَبيل ربكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾؛ أي مع المتَّقِينَ الْمُحسِنِينَ، وهم المسلمون يَنصرُهم ويُظهِرُهم على الكفار ويُعينُهم عليه.

آخر تفسير سورة (**النحل**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الدارقطني في السنن: ج ٤ ص١١٨: كتاب السير: الحديث (٤٧).

سُورَةُ الإسْـرَاءِ

سُورَةُ بَنِـي إسْـرَائِيلَ مَكِّيَـةٌ، إلاَّ ثَمَـان آيَـاتٍ، مِـنْ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإنْ كَـادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾، فَإنَّهَا مَدَنِيَّاتٌ، وَهِيَ سِتُّ آلاَفٍ وَأرْبَعْمِائَةٍ وَسِتَّةٌ وَخَمْسُونَ حَرْفاً، وَألْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَثَلاَثٌ وَثَلاَثُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَإحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ ﷺ: [وَمَنْ قَرَأهَا فَرَقَّ قَلْبُهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْوَالِدَيْنِ، أعْطِيَ مِنَ الْجَنَّةِ قِنْطَـارَيْنِ مِنَ الأَجْرِ!] وَالْقِنْطَارُ ألْفٌ وَمِئَتَا أوْقِيَّةٍ، وَالأُوْقِيَّةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ ؛ أي سُبحان الـذي أسْرَى بعبدهِ مُحَمَّـدٍ ﷺ في ليلـةٍ واحدة من مَسجِدِ مكَّة إلى مسجدِ بيتِ المقدس.

وسُمِّي مسجدُ بيتِ المقدس المسجدَ الأقصى؛ لأنه لم يكـن وراءَهُ مسـجدٌ يُعْبَـدُ اللهُ فيه. وقيل: لأنه أبعدُ المساجدِ التي تُزار، قالَ ﷺ: [أنَا فِي الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ فِـي الْحِجْرِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، إذْ أتَانِي جِبْرِيلُ بالْبُرَاقِ...] وذكرَ حديث المعراجِ[2].

---

(١) تقدم أنه حديث لا يصح.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٠٥؛ قال القرطبي: ((ثبتَ الإسراءُ في جميع مصنَّفات الحديث، ورُوي عن الصحابةِ في كلِّ أقطار الإسلام، فهو من المتواترِ بهذا الوجه. وذكرَ النقـاشُ عمَّن رواه عشرين صحابياً)). وفي الصحيح أخرجه البخاري: كتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلاة: الحديث (٣٤٩). والطبري في جامع البيان: الحديث (٧/ ١٦٦ و٩/ ١٦٦) بطوله.

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أسْرِيَ بِهِ مِنْ بَيْتِ أمِّ هَانِئ بنْتِ أبي طَالِبٍ أخْتِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ، وَالْحَرَمُ كُلُّهُ مَسْجِدٌ). وعن الكلبي عن أبي صالح عن أمِّ هانئ أنَّها كانت تقولُ: (مَا أسْرِيَ برَسُولِ اللهِ ﷺ إلاَّ وَهُوَ فِي بَيْتٍ)، قال مقاتلُ: (كَانَ الإسْرَاءُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بسَنَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) صفةُ بيتِ المقدس، بارَكَ اللهُ فيما حولَهُ بالأشجار والأثمار والأنهار حتى لا يحتاجُون إلى أنْ يُجلَبَ إليهم من موضعٍ آخر. وَقِيْلَ: يَعْنِي (بَارَكْنَا حَوْلَهُ): جعلنَاهُ موضعاً للأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، وفيه مَهبطُ الملائكةِ، وفيه الوحيُ، وفيه الصَّخرةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ ﴾ ؛ أي من عَجائب قُدرتِنا، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ ؛ لمقالةِ قُريشٍ وإنكارهم ﴿ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ ؛ بهم وبأعمالهم.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أسْرِيَ بي وَأنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَان، جَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام وَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ قُمْ، فَقُمْتُ فَإذا جِبْرِيلُ مَعَهُ مِيكَائِيل، فَقَالَ لِي: تَوَضَّأ، فَتَوَضَّأتُ، ثُمَّ قَالَ لِي: انْطَلِقْ يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: إلَى أيْنَ ؟ فَقَالَ: إلَى رَبكَ. فَأخَذ بيَدِي وَأخْرَجَنِي مِنَ الْمَسْجِدِ، فَإذا بالْبُرَاق دَابَّةٌ فَوْقَ الْحِمَار وَدُونَ الْبَغْلِ، خَدُّهُ كَخَدِّ الإنْسَان، وَذنَبُهُ كَذنَب الْبَعِيرِ، وَأظْلاَفُهُ كَأظْلاَفِ الْبَقَرِ، وَصَدْرُهُ كَأنَّهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، وَظَهْرُهُ كَأنَّهُ دُرَّةٌ بَيْضَاءُ، عَلَيْهِ رَحْلٌ مِنْ رحَال الْجَنَّةِ، خَطْوُهُ مُنْتَهَى طَرْفِهِ. فَقَالَ لِي: ارْكَبْ. فَلَمَّا وَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ شَمَسَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: مَهْلاً يَا بُرَاقُ؛ أمَا تَسْتَحِي! فَوَاللهِ مَا رَكِبَكَ نَبِيٌّ أكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذا، هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ. فَارْتَعَشَ الْبُرَاقُ، وَتَصَبَّبَ عَرَقاً حَيَاءً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ خَفَضَ حَتَّى لَزَقَ بالأرْضِ، فَرَكِبْتُهُ وَاسْتَوَيْتُ عَلَى ظَهْرِهِ.

قَامَ جِبْرِيلُ نَحْوَ الْمَسْجِدِ الأقْصَى يَخْطُو مَدَّ الْبَصَرِ، وَالْبُرَاقُ يَتْبَعُهُ لاَ يَفُوتُ أحَدُهُمَا الآخَرَ حَتَّى أتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَإذا بالْمَلاَئِكَةِ قَدْ نَزَلُوا مِنَ السَّمَاءِ يَتَلَقَّوْنِي بالْبشَارَةِ وَالْكَرَامَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَلَمَّا وَصَلْتُ بَابَ الْمَسْجِدِ أنْزَلَنِي جِبْرِيلُ، وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بالْحَلْقَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْبطُ بهَا الأنْبيَاءُ، وَكَانَ لِلْبُرَاق خِطَامٌ مِنْ حَرِيرِ الْجَنَّةِ، فَصَلَّيْتُ فِي الْمَسْجِدِ رَكْعَتَيْنِ، وَالْمَلاَئِكَةُ خَلْفِي صُفُوفاً يُصَلُّونَ مَعِي.

ثُمَّ أَخَذَ جِبْرِيلُ بِيَدِي، وَانْطَلَقَ بِي إِلَى الصَّخْرَةِ فَصَعَدَ بِي عَلَيْهَا. وَإِذا مِعْرَاجٌ أَصْلُهُ عَلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَرَأسُهُ مُلْتَصِقٌ بِالسَّمَاءِ، إِحْدَى عَارِضَيْهِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاء وَالأُخْرَى زَبَرْجَدَةٌ خَضْرَاءُ، وَدَرَجُهُ زُمُرُّدٌ مُكَلَّلٌ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، فَاحْتَمَلَنِي جِبْرِيلُ حَتَّى وَضَعَنِي عَلَى جَنَاحَيْهِ، ثُمَّ صَعَدَ بِي ذَلِكَ الْمِعْرَاجَ حَتَّى وَصَلَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

فَقَرَعَ الْبَابَ فَقِيلَ: مَنْ هَذا ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قَالُوا: مَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ. فَفَتَحُوا الْبَابَ فَدَخَلْنَا، فَقَالُوا: مَرْحَباً وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلَىآدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذا ؟ قَالَ: أَبُوكَ آدَمُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرْحَباً بِكَ، بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَفَتَحُوا لَنَا وَقَالُوا: مَرْحَباً بِرَسُول اللهِ ﷺ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ رَسُولُ اللهِ، فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذانِ؟ قَالَ: عِيسَى وَيَحْيَى ابْنَا الْخَالَةِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا، فَقَالاَ: مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ وَمَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَفَتَحُوا وَقَالُوا: مَرْحَباً بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ عليه السلام فَقَالَ: مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ .

ثُمَّ أَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَكَانَ مِنَ الاسْتِفْتَاحِ وَالْجَوَابِ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ، فَوَجَدْتُ إِدْرِيسَ فَقَالَ لِي: مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. وَفِي السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ وَجَدْتُ هَارُونَ فَقَالَ لِي كَذلِكَ، وَفِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ وَجَدْتُ مُوسَى فَقَالَ لِي كَذلِكَ، وَفِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَجَدْتُ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِي: مَرْحَباً بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِنَّ نَبقَهَا مِثْلَ قِلاَلِ هَجَر، وَوَرَقُهَا كَآذانِ الْفِيلَةِ، وَرَأَيْتُ أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ تَجْرِي مِنْ أَصْلِهَا، فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الأَنْهَارُ؟ فَقَالَ: النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فِي الْجَنَّةِ، وأَمَّا النَّهْرَانِ الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ، وَفِيهَا مَلاَئِكَةٌ لاَ يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلاَّ اللهُ، وَمَقَامُ جِبْرِيلَ فِي وَسَطِهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَيْهَا فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ: تَقَدَّمْ، فَقُلْتُ: تَقَدَّمْ أَنْتَ يَا جِبْرِيلُ! فَقَالَ: بَلْ تَقَدَّمْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ؛ فَأَنْتَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنِّي.

قَالَ: فَتَقَدَّمْتُ وَجِبْرِيلُ عَلَى إِثْرِي حَتَّى انْتِهَائِي إِلَى حِجَابٍ مِنْ ذهَبٍ، فَحَرَّكَهُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذا ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ وَمَعِي مُحَمَّدٌ. فَأخْرَجَ الْمَلَكُ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ الْحِجَـاب، فَاحْتَمَلَنِي وَتَخَلَّفَ جِبْرِيلُ، فَقُلْتُ: إِلَى أيْنَ؟ فَقَالَ: وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُـومٌ، وَإِنَّمَـا أُذِنَ لِي فِي الدُّنُوِّ مِنَ الْحِجَاب لإِكْرَامِكَ وَإِجْلاَلِكَ. فَانْطَلَقَ بي الْمَلَكُ فِي أسْرَعِ مِـنْ طُرْفَةِ عَيْنٍ إِلَى حِجَابٍ آخَرَ، فَحَرَّكَهُ فَقَالَ الْمَلَكُ: مَنْ هَذا ؟ فَقَالَ: هَذا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعِي، فَأخْرَجَ يَدَهُ مِنَ الْحِجَاب، فَاحْتَمَلَنِي حَتَّى وَسِعَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ.

فَلَمْ أزَلْ كَذلِكَ مِنْ حِجَابٍ إِلَى حِجَابٍ حَتَّى سَبْعِينَ حِجَاباً، غِلَظُ كُلِّ حِجَابٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمَا بَيْنَ الْحِجَاب إِلَى الْحِجَاب خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، ثُـمَّ احْتُمِلْـتُ إِلَى الْعَرْشِ]. فانتهَى رسولُ اللهِ ﷺ إلى حيثُ شاءَ اللهُ، ورأى من العجائبِ والقـدرة ما شاءَ اللهُ.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [أُمِرْتُ بِخَمْسِـينَ صَـلاَةً كُـلَّ يَـوْمٍ، فَـأقْبَلْتُ حَتَّـى أتَيْـتُ مُوسَى، فَسَألَنِي: بِمَ أُمِرْتَ؟ فَقُلْتُ: بِخَمْسِينَ صَلاَةً، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُـونَ ذلِـكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبكَ فَاسْألْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ، فَقَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبي فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً، فَأقْبَلْتُ حَتَّى أتَيْتُ مُوسَى فَذكَرْتُ لَهُ ذلِكَ، فَقَالَ لِي: ارْجِعْ فَاسْألْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً أخْرَى، فَلَمْ أزَلْ كَذلِكَ يَقُولُ لِـي مُوسَـى: ارْجِـعْ وَاسْـألْهُ التَّخْفِيفَ، وَأنَا أرْجِعُ حَتَّى بَقِيَتْ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، فَقَالَ لِي مُوسَى: اسْألْهُ التَّخْفِيـفَ، فَقُلْتُ لَهُ: لَقَدْ رَجَعْتُ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبي، فَنُودِيـتُ: أنْ قَـدْ أمْضَيْـتُ فَرِيضَتِـي وَخَفَّفْتُ عَلَى عِبَادِي وَجَعَلْتُ كُلَّ حَسَنَةٍ بعَشْرِ أمْثَالِهَا](١).

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِـي آخِـرِ اللَّيْـلِ إِلَـى مَكَّـةَ وَأخْبَرَ قُرَيْشاً كَذبُوهُ، ثُمَّ سَألُوهُ عَنْ صِفَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا كَانَ عَنْ يَمِينِهِ حِـينَ دَخَـلَ، وَمَـا كَانَ عَنْ يَسَارِهِ حِينَ خَرَجَ، وَمَا اسْتَقْبَلَهُ. فَأخْبَرَهُمْ بصِفَاتِهَا كُلِّهَا، وَقَالَ: [مَرَرْتُ عَلَى

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٠٨؛ قال القرطبي: (وهـذه نبـذة مختصـرة مـن أحـاديث الإسراء خاصة عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سـليمان بـن سـبع بكمالها في كتـاب (شـفاء الصدور) له).

عِير بَنِي فُلاَن، وَهِيَ بالرَّوْحَاءِ وَقَدْ أضَلُّوا بَعِيراً لَهُمْ وَهُمْ فِي طَلَبِهِ] قَالُوا: فَأَخْبِرْنَا عَنْ عِيرِنَا نَحْنُ، قَالَ: مَرَرْتُ بهَا بالتَّنْعِيم، قَالُوا: فَمَا عِدَّتُهَا وَأحْمَالُهَا وَهَيْئَتُهَا؟ قَالَ: [كَذا وَكَذا، وَفِيهَا فُلاَنٌ، وَتَقَدَّمَهَا جَمَلٌ أوْرَقُ عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ مَخِيطَانِ، تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ].

قال: فَخَرَجُوا يَشْتَدُّونَ نَحْوَ الثَّنِيَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَقَدْ وَصَفَ مُحَمَّدٌ شَيْئاً فَسَنُكَذِّبُهُ، فَلَمَّا أتَوا كِدَاءَ جَلَسُوا عَلَيْهَا، فَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ مَتَى تَطْلُعُ الشَّمْسُ فَيُكَذِّبُوهُ، إذْ قَائِلٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: هَذِهِ وَاللهِ الشَّمْسُ قَدْ طَلَعَتْ، وَقَالَ آخَرُ: وَهَذِهِ الْعِيرُ قَدْ طَلَعَتْ يَقْدُمُهَا بَعِيرٌ أوْرَقُ، فِيهَا فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُفْلِحُوا).

وَسَعَى نَاسٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إلَى أبي بَكْرٍ وَقَالُوا: هَذا صَاحِبُكَ يَزْعُمُ أنَّهُ قَدْ أسْرِيَ بهِ اللَّيْلَةَ إلَى الشَّامِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَرَجَعَ قَبْلَ الصُّبْحِ، قَالَ: (فَكَيْفَ لاَ أصَدِّقُهُ عَلَى ذلِكَ ؟!) قَالُوا: أتُصَدِّقُهُ أنَّهُ ذهَبَ إلَى الشَّامِ ؟ فَقَالَ: (إنْ كَانَ قَالَ ذلِكَ فَقَدْ صَدَقَ) قَالُوا: أتُصَدِّقُهُ أنَّهُ ذهَبَ إلَى الشَّامِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَرَجَعَ قَبْلَ الصُّبْحِ؟ قَالَ: (فَكَيْفَ لاَ أصَدِّقُهُ عَلَى ذلِكَ) فَسُمِّيَ أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ. وأما المشركون فقالوا: ما سَمعنا بهذا قطّ، إنْ هذا إلا سحرٌ مبين[1].

فإنْ قِيلَ إنما قالَ اللهُ (أسْرَى بعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) فلِمَ قُلتم أسرى به إلى السَّماء ؟ قُلنا: الأخبارُ في ذلك متواترةٌ ظاهرة، وما ذكَرَهُ في سورةِ النجم دليلٌ على صحَّة ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ أي أعطَينا موسَى التوراة وجعلناهُ دلالةً لبني إسرائيل، ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ ربّاً، ولا تتوكَّلوا على غَيري، ومَن قرأ (ألاَّ تَتَّخِذُوا) بالتاءِ، فهو على الخطاب بعد الغَيبَةِ مثلُ ﴿الْحَمْدُ للهِ رَب الْعَالَمِينَ﴾ ثُم قالَ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص١٨٦-١٨٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم... وذكره)). وذكره ابن أبي حاتم مطولاً في التفسير: ج ٧ ص٢٣٠٩: الأثر (١٣١٨٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾؛ أي يا ذرِّيَةَ مَن حَمَلنا مع نُوحٍ، والناسُ كلُّهم ذريةُ نوحٍ، ثم اثنَى على نوحٍ فقال: (إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) لنِعَمِ اللهِ، كان إذا أكلَ أو شَربَ أو اكتسَى أو احتذى قال: الْحَمْدُ للهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي أخبرنَاهم في التوراة، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي لتعْصُنَّ كرَّتين بقتلِ النُّفوس، وتخريب الديار، وأخذِ الأموال، ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾؛ ولتظلمُنَّ ظُلماً عظيماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي سلَّطنا عليكم عِباداً لنا ذوي عُدَّة في القتال، ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾؛ قال ابنُ عباس: (وَهُمْ بَخْتْنَصَّرَ وَأصْحَابُهُ الْمَجُوس، سَلَّطَهُمُ اللهُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ حِينَ عَصَتْ فِي أوَّلِ الْفَسَادَيْنِ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ بَخْتْنَصَّرَ أرْبَعِينَ أَلْفاً مِمَّنْ كَانَ يَقْرَأُ التَّوْرَاةَ، وَدَخَلَ دِيَارَهُمْ وَطَلَبَهُمْ طَلَباً شَدِيداً حَتَّى كَانُوا يَنْظُرُونَ فِي الأَزِقَّةِ وَالْبُيُوتِ، هَلْ بَقِيَ أحَدٌ لَمْ يَقْتُلُوهُ، وَاسْتَأسَرُوا مَنْ بَقِيَ بَعْدَ الأرْبَعِينَ ألْفاً، وَمَضَوا بِهِمْ إلَى بلادِهِمْ، فَمَكَثَ الأَسْرَاءُ فِي أيْدِيهِمْ تِسْعِينَ سَنَةً حَتَّى مَاتَ بَخْتْنَصَّرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾؛ أي وَعداً كائناً لا محالةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي جعلنا لكم الدولةَ والرجعةَ عليهم، ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾؛ أي وأعطيناكم أمْوالاً وبنين، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾؛ أي أكثرَ عَدَداً ينفرُون إليهم.

وذلك أنَّ رجُلاً من أهلِ الكتاب يقالُ له: كُورشُ غزَا أرضَ بابل، وهي بلادُ بَخْتْنَصَّرَ، فظهرَ عليهم فقتَلَهم وسكنَ ديارَهم، وتزوَّجَ امرأةً مِن بني إسرائيلَ أختُ مَلكِ بني إسرائيلَ، فطلَبت من زوجها أن يَرُدَّ قومَها إلى أرضِهم ففعلَ، فمكثَ في بيتِ المقدس مِائتين وعشرين سنةً، وقامت بينهم الأنبياءُ، ورجَعُوا الى أحسنَ ما كانوا عليهِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ).

وعن حذيفةَ بن اليمان قالَ: قال رسولُ الله ﷺ في هذهِ الآيةِ: [إنَّ بَنِي إسْرَائِيلَ لَمَّا اعْتَدَوا وَقَتَلُوا الأنْبيَاءَ، بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَلِكَ الرُّومِ بَخْتْنَصَّرَ، فَسَارَ إلَيْهِمْ

حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَحَاصَرَهُمْ وَفَتَحَهَا، فَقَتَلَ عَلَى دَمِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا أَرْبَعِينَ أَلْفاً — وَقِيْلَ: سَبْعِينَ أَلْفاً — وَسَبَى أَهْلَهَا، وَسَلَبَ حُلِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُدَ قَدْ بَنَاهُ مِنْ ذهَبٍ وَيَاقُوتٍ وَزُبُرْجُدٍ، وَعَمُودُهُ ذهَبٌ، أعْطَاهُ اللهُ ذلِكَ وَسَخَّرَ الشَّيَاطِينَ لَهُ يَأْتُونَهُ بهَذِهِ الأَشْيَاءِ.

ثُمَّ سَارَ بَخْتِنَصَّرَ بالأُسَارَى حَتَّى نَزَلَ بَابلَ فَأَقَامَ بَنُو إسْرَائِيلَ فِي مُدَّتِهِ سَنَةً تَتَعَبَّدُ الْمَجُوسَ وَأبْنَاءَ الْمَجُوسِ، ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعَالَى رَحِمَهُمْ فَسَلَّطَ مَلِكاً مِنْ مُلُوكِ فَارسَ يُقَالُ لَهُ كُورشُ وَكَانَ مُؤْمِناً، فَسَارَ إلَيْهِمْ فَاسْتَنْقَذ بَنِي إسْرَائِيلَ مِنْهُمْ، وَاسْتَنْقَذ حُلِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى رَدَّهُ إلَيْهِ، فَأَقَامَ بَنُو إسْرَائِيلَ مُطِيعِينَ اللهَ زَمَاناً، ثُمَّ عَادُوا إلَى الْمَعَاصِي، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَلِكاً آخَرَ وَحَرَقَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَسَبَاهُمْ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَإذا جَاءَ وَعْدُ أولاَهُمَا) يعني أولى الْمَرَّتَين، واختلَفُوا فيها، فعلى قول قتادة: (إفْسَادُهُمْ فِي الْمَرَّةِ الأُوْلَى مَا تَرَكُوا مِنْ أحْكَامِ التَّوْرَاةِ، وَعَصَوا رَبَّهُمْ وَلَمْ يَحْفَظُوا أمْرَ نَبيِّهِمْ مُوسَى، وَرَكِبُوا الْمَحَارِمَ).

وعن ابن مسعود ﷺ: (أنَّ الْفَسَادَ الأَوَّلَ قَتْلُ زَكَرِيَّا)[(٢)]، وَقِيْلَ: قَتْلُهُمْ شَعْيَا نَبيُّ اللهِ فِي الشَّجَرَةِ، قال ابنُ اسحق: (إنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ أخْبَرَهُ أنَّ زَكَرِيَّا مَاتَ مَوْتاً وَلَمْ يُقْتَلْ، وَإنَّمَا الْمَقْتُولُ شَعْيَا)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا) يعني جَالُوتَ وجنودَهُ، وقال ابنُ اسحق: (بَخْتِنَصَّرُ الْبَابليُّ وَأصْحَابُهُ، أوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ؛ أيْ ذوي بَطْشٍ شَدِيدٍ فِي الْحَرْب، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَار؛ أيْ طَافُوا وَدَارُوا). وقال الفرَّاء: قتلوكم بين بيوتكم[(٤)]، قال حَسَّانُ[(٥)]:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦٦٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٦٤٧) عن ابن عباس وعن ابن مسعود.

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٠٦ ذكره القرطبي.

(٤) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص١١٦.

(٥) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢١٦.

وَمِنَّـا الَّـذِي لاقَـى بسَـيْفِ مُحَمَّـدٍ فَجَاسَ بِـهِ الأَعْدَاءَ عَـرْضَ الْعَسَـاكِرِ

وَقِيْلَ: (فَجَاسُوا) أي طلَبُوا مَن فيها كما تُجَاسُ الأخبارُ.

وقولهُ تعالى: (فَإذا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ) أي المرَّة الآخرة، وهو قصدُهم قتلَ عيسى حين رُفِعَ، وقتلُهم يحيى بن زكريَّا عَلَيْهِمَا السَّلامُ، فسلَّطَ الله عليهم طَطُوسُ بن استيباتيُوس فَارسَ وَالرُّومَ حِينَ قَتَلُوهُمْ وسَبَوهم، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ) .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ؛ أي منفعةُ إحسَانِكم راجعةٌ إليكم، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ؛ أي فإلى أنفُسِكم، ولم يقل فإليها على جهةِ المقابلة للكلامِ الأول، ومثلُ هذه الحروفِ قد تُقام بعضُها مقامَ بعضٍ، كما في قولهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[1] أي إليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ ؛ أي وعدَ المرَّة الآخرة في الفسادِ، ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ ؛ بالقتلِ والسَّبي، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ ؛ أي مسجدَ بيتِ المقدس، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ ؛ دخلَهُ بَختنَصّر وأصحابُهُ، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ ؛ أي وليُخرِّبوا ما عَلَوا عليه تخريباً، والتَّبارُ والرَّماد والهلاكُ بمعنى واحدٍ.

ذلك أن اللهَ سلَّطَ عليهم بعدَ مائتين وعشرين سنةً طَطُوس بن استيباتوس الرومي، فحاصَرَهم وقتَلَ منهم مائةَ ألفٍ وثمانين، وخرَّبَ بيتَ المقدس، وذلك بعدَ قَتلِهم يحيى عليه السلام، فلم يزَلْ كذلك خَراباً إلى أن بناهُ المسلمون، فلم يدخلْهُ رُوميٌّ بعد ذلكَ إلا خائفاً، كما قالَ تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِينَ﴾[2] .

وذهبَ بعضُهم إلى أن بَختَنَصَّرَ غزَا بني إسرائيلَ مرَّتين، ففتحَ مدينَتَهم في المرَّة الأولى، وجَاسُوا خلالَها يَقتُلون فيهم، فتابَتْ بنو إسرائيلَ إلى اللهِ تعالى فأظهرَهم اللهُ تعالى على بختنصّر فردَّ عنهم، ثم بعثَ الله إلى بني اسرائيلَ (أرْضِيًا) النبيَّ عليه السلام، فقامَ

---

(١) الزلزلة / ٥ .

(٢) البقرة / ١١٤ .

فيهم بوحيِ الله تعالى، فضربوهُ وقيَّدوه وحبسوهُ، فسلَّطَ الله عليهم بختنصّر مرَّةً أخرى ففعلَ ما فعلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ ؛ أي بعدَ استقامةِ منكم، ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ ؛ لمعصيةٍ، ﴿ عُدْنَا ﴾ ؛ إلى العقوبةِ، قال قتادةُ: (فَعَادُواْ فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّداً ﷺ، فَعَادَ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْعُقُوبَةِ بإذْلاَلِهِمْ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ وَالْقَتْلِ، فَهُمْ يُعْطُونَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي مُحْتَبَساً من قولِكَ: حصَرتهُ فهو محصورٌ إذا حبستَهُ، وَقِيْلَ: فِراشاً ومِهَاداً تَشْبيهاً بالحصيرِ الذي يُبسَطُ ويُفرَشُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ؛ أي يَهدي للحالةِ التي هي أقومُ الحالاتِ، والطريقةِ التي هي أصوبُ، وَقِيْلَ: يُرشِدُ إلى الكلمةِ التي هي أعدلُ الكلماتِ، وهي كلمةُ التوحيد والطاعةِ لله تعالى والإيمان به وبرُسلهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ ثواباً عظيماً وهو الجنَّةُ، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين لا يُؤمنون بالآخرةِ يُبشِّرُهم بعذابٍ أليم وهو النارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ ؛ أي يدعُو على نفسهِ وعلى ولَدهِ بالسُّوء عندَ الضَّجَرِ والغضب، فيقولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ اللهم أهلِكْهُ ونحوُ ذلك، كدُعائِه ربَّهُ بأن يهَبَ له العافِيَةَ والنِّعمةَ، ويرزقه السلامةَ في نفسهِ وماله وولدِه، فلو استجابَ اللهُ له إذا دعاهُ باللعنِ والهلاك، كما يستجابُ له إذا دعاهُ بالخيرِ لَهلَكَ، ولكنَّ اللهَ تعالى بفضلهِ لا يستجيبُ لهُ، ونظيرُ هذا ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بالْخَيْرِ لَقُضِيَ إلَيْهِمْ أجَلُهُمْ﴾(٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٦٨٢ و١٦٦٨٤).

(٢) يونس / ١١ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي عَجُولاً في الدُّعاء بما يكرَهُ أن يستجابَ لَهُ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ ضَجُوراً لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)[1]. وَقِيْلَ: أرادَ به آدمَ عليه السلام لَمَّا نُفخَ فيه الروحُ فبلغَ إلى رجليه، قصدَ القيامَ قبلَ أن يجريَ فيه الروحُ فسقطَ، فقيل له: لاَ تَعْجَلْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ ؛ أي علامَتَين تدلَّان على قُدرةِ خالِقِهما، ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ ؛ أي ضوءَ القمَرِ، قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بِهِ السَّوَادَ الَّذِي فِي الْقَمَرِ، وَذلِكَ أنَّ اللهَ خَلَقَ الْقَمَرَ أوَّلَ مَا خَلَقَهُ عَلَى صُورَةِ الشَّمْسِ، وَكَانَتِ شَمْسٌ بِاللَّيْلِ وَشَمْسٌ بالنَّهَار، وَكَانَ لاَ يُعْرَفُ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَار، فَأمَرَ اللهُ جِبْرِيلَ فَمَسَحَ بجَنَاحَيْهِ شَمْسَ اللَّيْلَ فَذهَبَ ضَوْءُهَا، وَبَقِيَ عَلاَمَةُ جَنَاحِهِ وَهُوَ السَّوَادُ الَّذِي يَرَوْنَهُ فِي جَوْفِ الْقَمَرِ)[2].

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً: (جَعَلَ اللهُ نُورَ الشَّمْسِ سَبْعِينَ جُزْءاً، وَنُورَ الْقَمَرِ سَبْعِينَ جُزْءاً، فَأمْحِيَ مِنْ نُورِ الْقَمَرِ تَسْعَةٌ وَسِتُّونَ جُزْءاً فَجَعَلَهَا مِنْ نُورِ الشَّمْسِ، فَصَارَ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِائَةً وَثَلاَثِينَ جُزْءاً، وَالْقَمَرُ جُزْءاً واحداً)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ ؛ وهي الشَّمسُ مُبصِرَةٌ مُضِيئَةٌ مُنِيرةٌ، ﴿ لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي لتَسكنُوا بالليلِ، وتطلبُوا معايشَكم بالنهار، إلاَّ أنه حذفَ لتَسكنُوا بالليلِ؛ لأنه ذكرَهُ في موضعٍ آخر. ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ ؛ أي جعَلنا ذلك لتَعلمُوا حسابَ الشُّهور والأيَّام ومواقيتَ الصلاةِ والصيام والحجِّ، يعني بمَحْوِ آيةِ الليلِ. ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ ؛ من الأمرِ والنهي والحلال والحرامِ، ﴿ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي بيَّنَّاه في القرآنِ؛ ليكونَ أقربَ إلى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٦٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٦٧٠٤) بأسانيد وألفاظ، وله طرق عن علي رضي الله عنه ومجاهد وابن كثير.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٧٣٨.

معرفتكم، وبَيَّنَّاهُ تبييناً؛ لئلا يلتبسَ بغيرِهِ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ ؛ أي ألزمناهُ عملَهُ من خيرٍ أو شرٍّ في عنُقهِ، فجعلنا جزاءَ عملِه لازماً له، كما يقالُ: هذا الحقُّ في عُنقِ فلان وفي ذمَّتهِ، قال مجاهدُ: (مَكْتُوبٌ فِي وَرَقَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي عُنُقِهِ شَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ). روى الحكمُ عن مجاهدٍ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ وَفِي عُنُقِهِ مَكْتُوبٌ شَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ)[٢].

وفي الآية تشبيهُ العملِ بالطائرِ الذي يجيءُ من ناحية اليمينِ فيُتبرَّكُ[٣] بهِ، والذي يجيءُ من ذاتِ الشِّمال فيُتشاءَمُ به، وأما الإضافةُ إلى العُنق دون سائرِ الأعضاء؛ فلأنَّ ما يتزيَّن به من طَوقٍ أو ما يشين من غِلٍّ[٤] فإنما يضافُ إلى الأعناق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ ؛ أي يرفعُ اللهُ يوم القيامةِ كتابَهُ يرَى فيه جزاءَ أعمالهِ، قرأ الحسنُ ومجاهد: (وَيُخْرَجُ) على ما لَم يسَمَّ فاعلهُ، على معنى: ويخرجُ له الطائرَ كتاباً. وانتصبَ قولُهُ (كِتَاباً) على الحال.

وقرأ أبو جعفر: (وَيُخْرِجُ) بالياء مسمَّى الفاعل؛ أي ويَخرُجُ له الطائرُ يومَ القيامةِ. وقرأ يحيى بن وثَّاب (وَيُخْرِجُ) بضمِّ الياء وكسر الراء، المعنى: ويخرجُ اللهُ له كتاباً، وقرأ الحسنُ ومجاهد:(أَلْزَمْنَاهُ طَيْرَهُ) بغيرِ ألف، وقال أهلُ المعاني: أرادَ بالطائر ما قضَى عليهِ أنه فاعلهُ، وما هو صائرٌ إليه من شقاوةٍ أو سعادة[٥]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يُلَقَّاهُ مَنْشُوراً) قرأ أبو جعفر بضمِّ الياء وفتحِ اللام وتشديدِ القاف، يعني يَلقى الإنسانُ ذلك

---

(١) والتبيان للقرآن بالسُّنة؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى:﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فالمراد بالتفصيل هنا هو البيان كما جاء في سُنة النبي مُحَمَّد ﷺ؛ لئلا يلتبس بغيره مما تنتجه عقول البشر وتخيلاتهم، فيختلط على الناس بمراد الله وقصده فيما أمر به وشرع. والله أعلم.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧١٣).

(٣) في المخطوط: (فيترك).

(٤) هكذا في المخطوط: (غل) وأظنها عمل.

(٥) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص٧٣٧-٧٣٨.

الكتابَ الذي يؤتى، وقرأ الباقون بالتخفيفِ؛ أي يراهُ مَنشورةً فيه حسناتهُ وسيئاته.

قال ابنُ عباس: (يُعْطَى الْمُؤْمِنُ كِتَاباً بيَمِينِهِ وَهِيَ صَحِيفَتُهُ، يَقْرَأُ فِيْهَا حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ فِي بَطْنِهَا: عَمِلْتَ كَذا، وَقُلْتَ كَذا فِي سَنَةِ كَذا، فِي شَهْرِ كَذا، فِي يَوْمِ كَذا، فِي سَاعَةِ كَذا، فِي مَكَان كَذا. فَإذا انْتَهَى إلَى أسْفَلِهَا قِيلَ لَهُ: قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ، إقْرَأْ مَا فِي ظَاهِرِهَا، فَيَقْرَأ حَسَنَاتِهِ فَيَسُرُّهُ مَا يَرَى فِيْهَا، وَيُشْرِقُ لَوْنُهُ عِنْدَ ذلِكَ ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ﴾[1]).

قال: (وَيُعطَى الْكَافِرُ كِتَابَهُ بشِمَالِهِ، فَيَقْرَأ حَسَنَاتِهِ فِي بَاطِنِهَا، فَيَجِدُ عَمِلْتَ كَذا فِي سَنَةِ كَذا، فِي شَهْرِ كَذا، فِي يَوْمِ كَذا، فِي سَاعَةِ كَذا. فَإذا انْتَهَى إلَى آخِرِهَا قِيلَ لَهُ: هَذِهِ حَسَنَاتُكَ قَدْ رُدَّتْ عَلَيْكَ، إقْرَأ مَا فِي ظَاهِرِ كِتَابكَ، فَيَرَى مَا فِي ظَاهِرِ كِتَابهِ كُلَّ سَيِّئَاتِهِ، كُلَّ صَغِيرَةٍ وَكَبيرَةٍ، فَيَسْوَدُّ وَجْهُهُ وَتَزْرَقُّ عَيْنَاهُ، وَيَقُولُ عِنْدَ ذلِكَ ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أوتَ كِتَابيَهْ، وَلَمْ أدْرِ مَا حِسَابيَهْ﴾[2]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ ؛ أي يقالُ له: اقرَأ كِتابَكَ، قال الحسنُ: (يَقْرَؤُهُ أمِّيّاً كَانَ أوْ غَيْرَ أمِّيٍّ)، وقال قتادةُ: (يَقْرَؤُهُ يَوْمَئِذٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَارِئاً)[3]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي مُحاسِباً، وإنما جُعل محاسباً لنفسهِ؛ لأنه إذا رأى أعمالَهُ كلَّها مكتوبةً، ورأى خيرَ أعمالهِ مكتوباً لم ينقُصْ من ثوابهِ شيءٌ، ولم يُزَدْ على عقابهِ شيءٌ كفاهُ ذلك في الحساب، وكان الحسنُ يقول: (يَا ابْنَ آدَمَ لَقَدْ عَدَلَ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ لِنَفْسِكَ حَسِيباً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ ؛ أي منفعةُ هدايتهِ راجعةٌ إليه، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي ومَن ضلَّ في الدُّنيا، فإنَّ وَبالَ ضلالهِ راجعٌ إليهِ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ؛ أي لا يَحمِلُ أحدٌ حِمْلَ غيرِه، فلا يؤخَذ بذنب غيره، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ إقامةً للحجَّة، وقطعاً للعُذر.

---

(١) الحاقة / ١٩ و٢٠ . (٢) الحاقة / ٢٥و٢٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧١٩).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ ؛ أي إذا أرَدنا الحكمَ بهلاكِ قريةٍ، (أمَرْنا مُتْرَفِيهَا) جَبابرَتَها ورُؤساءَها بالطاعةِ فعَمِلُوا بالمعاصي، وهذا كما يقالُ للرجُلِ: أمَرتُكَ فعَصَيتَنِي، يعني أمرتُكَ لتُطيعَنِي فخالَفتَني.

وإنما ذكرَ الرؤساءَ دون المتبوعين؛ لأن غيرَهم تَبَعٌ لَهم، فيكون الأمرُ لهم بالطاعةِ أمرٌ للأتباع. وقرأ مجاهدُ وأبو رجاء (أمَّرْنَا) بالتشديدِ؛ أي جعَلنا لهم إمْرَةً وسُلطاناً. وقولهُ تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ ؛ أي وجبَ عليها القولُ بالعذاب، ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ ؛ أي أهلكناها هَلاكاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ ؛ أي أهلكنا قروناً كثيرة بعد نوح، قال ابنُ عباس: (الْقَرْنُ مِائَةٌ وَعُشْرُونَ سَنَةً)[1]، وقال المازنيُّ: (مِائَةُ سَنَةٍ)[2]، وقولهُ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ ؛ أي مَن كان هَمُّهُ مَقصوراً على طلب الدُّنيا دونَ الآخرةِ، نحوُ أن يكون يريدُ بالجهادِ الغنيمةَ وبعمَلهِ الذي فرضَهُ اللهُ عليه في الدُّنيا ويَغنَمُهَا خاصَّةً، عجَّلنا له في الدُّنيا ما نشاءُ مِن عَرَضِ الدُّنيا لا ما يشاءُ العبد، ولِمَن يريدُ أن يُعطِيَهُ لا لكلِّ مَن يطلبُ، فأدخلَ اللهُ تعالى في إعطاءِ المراد من العاجِلَة استثناءً من استثناءٍ في العطيَّة، واستثناءً في المعطِين؛ لئلاَّ يَثِقُ الطالِبون للدُّنيا بأنَّهم لا محالةَ سينالون بسَعيهم ما يريدون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ ؛ أي بهذا الذي لم يُرِدِ اللهَ بعملِهِ، ﴿يَصۡلَىٰهَا﴾ ؛ أي يدخُلها، ﴿مَذۡمُومٗا﴾ ؛ بذمِّ نفسهِ ويَذُمُّهُ الناسُ، ﴿مَّدۡحُورٗا ١٨﴾ ؛ أي مَطرُوداً مُبعَداً من كلِّ خيرٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ ؛ شَرطَ اللهُ تعالى في ذلك ثلاثةَ شرائطَ: أحدُها: أنْ يريدَ بعملهِ ثوابَ الآخرةِ بالإخلاصِ في النيَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٣٧) عن ابن أبي أوفى.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٣٨).

والثاني: أن يسعَى في العملِ الذي يستحقُّ به ثوابَ الآخرةِ. والثالثُ: أن يكون مُؤمناً؛ لأنه إذا كان كَافراً لا ينتفعُ بشيءٍ من عملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي تُضعَّفُ لهم الحسناتُ، وتُمْحَى عنهمُ السَّيئاتُ، وتُرفعُ لهم الدرجـاتُ، وقـال مجاهدُ: (شُكْرُهُ أنْ يُثِيبَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ لَهُ، وَيَعْفُوَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ ؛ أي كـلُّ واحـدٍ من الفريقَين ممن يريدُ الدنيا، وممن يريـدُ الآخـرةَ نُمِـدُّهُ مـن رزق ربـكَ، ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ ﴾ ؛ رزقُ، ﴿ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي مَحْبُوساً من الـبرِّ والفـاجرِ. وفي هذا بيانُ أنَّ نِعَمَ الدنيا مشتركةٌ بينهم، بخلافِ نِعَمِ الآخرةِ التي هي خاصَّةٌ للمتَّقين، ألاَ ترَى أن سـائرَ نِعَـمِ اللهِ مـن الشَّـمسِ والقمـرِ؛ والهـواءِ والمـاءِ؛ والنبـاتِ والحيوانـاتِ؛ والأغذيَةِ والأدويةِ؛ وصحَّة الجسمِ والعافيةِ؛ وغيرِ ذلك شاملةٌ للمؤمنِ والكافرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي انظرْ يـا مُحَمَّـدُ كيف فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ في الرِّزق في الدُّنيا بالمال والخدَم، منهم الْمُقِلُّ ومنـهم الْمُكْـثِرُ، هــذا في الدُّنيــا، ﴿ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي ولدرجاتُ الآخرةِ أكبرُ من درجاتِ الدُّنيا، وفضائلُ الآخرة وثوابُها أرفعُ مما فُضِّلوا في الدنيا، فينبغي أنْ يكون سَعيُهم للآخرةِ أكثرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ الخطـابَ للنـبيِّ ﷺ، والمرادُ به كافَّةُ المكلَّفين كما في قولهِ تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]. وَقِيْـلَ: هو خطابٌ للإنسان، كأنَّهُ قالَ: لا تجعلْ أيُّها الإنسانُ مع مَن له العَطَايا عَاجِلاً وآجـلاً إلَهاً آخر، ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ ؛ فتبقَـى في جـهنم، ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ لا نـاصِرَ لكَ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ؛ بـرّاً بـهما وعَطْفـاً عليـهما، وقولـهُ تعـالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ

---

(١) الزمر / ٦٥ .

كِلَاهُمَا﴾ ؛ أي إنْ عاشَا عندَكَ أيُّها الإنسانُ حتى يَكبُرَا، وقرأ حمزة والكسائي (يَبْلُغَانِ)؛ لأن الوالدين قد ذُكر قبلَهُ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ ؛ تقذُّراً حين ترى منهما شيئاً من الأذى، بل أمِطْ عنهما كما كانا يُميطَان عنكَ في حالةِ الصِّغَر، والأُفُّ هو وسَخُ الأظفار، والتُّفُّ وسخُ الأذُن، والمعنى: لا تتأذى بهما، كما لم يكُونَا يتأذيان بكَ، قال ﷺ: [لَوْ عَلِمَ اللهُ شَيْئاً مِنَ الْعُقُوق أدْنَى مِنْ أفٍّ لَحَرَّمَهُ، فَلْيَعْمَلِ الْعَاقُّ مَا شَاءَ أنْ يَعْمَلَ، فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ. وَلْيَعْمَلِ الْبَارُّ مَا شَاءَ أنْ يَعْمَلَ، فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ؛ أي لا تزجُرهما بالإغْلاَظِ وصِيَاحٍ في وجُوهِهِما، ولا تُكلِّمْهُما ضَجِراً، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ ؛ أي يكون فيه كرامةٌ لهما كقول العبدِ الْمُذْنِب للسيِّد الغليظِ، كذا قال ابنُ المسيَّب، وقال عطاءُ: (لاَ تَشْتُمْهُمَا وَلاَ تُبْكِيهِمَا، وَقُلْ لَهُمَا: يَا أبَتَاهُ، يَا أمَّاهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ؛ أي وكُن لهما مُتضرِّعاً مُتذلِّلاً، فإنَّ خَفْضَ الْجَنَاحِ عبارةٌ عن الخضُوعِ، والمبالغةِ في التذلُّل والتواضعِ، وعن عطاء أنه قال: (جَنَاحُكَ يَدُكَ، فَلاَ يَنْبَغِي لَكَ أنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ عِنْدَ أبَوَيْكَ، وَلاَ أنْ تُحِدَّ بَصَرَكَ عَلَيْهِمَا تَعْظِيماً لَهُمَا).

وعن عُروة بن الزُّبير قال: (مَا أبَرَّ وَالِدَهُ مَنْ أحَدَّ النَّظَرَ إلَيْهِ). وَقِيْلَ: خفضُ الجناحِ عبارةٌ عن السُّكون، قرأ الحسنُ وسعيد بن جبير وعاصم: (جَنَاحَ الذِّلِّ) بكسرِ الذال؛ أي لا تَسْتَصْعِبْ معَهُما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ ؛ وهذا أمرٌ بالدُّعاء لهما بالرحمةِ والمغفرةِ إذا كانا مُسلِمين، والمعنى: رب ارحَمهُما مثلَ رَحمتِهما أيَّايَ في صِغَري حتى ربَّياني، وقال قتادةُ: (هَكَذا عُلِّمْتُمْ، بهَذا أُمِرْتُمْ)[(٢)].

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب: الرقم (٥٠٦٣ من حديث الحسين بن علي. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٤٣؛ قال الطبري: ((روي من حديث علي بن أبي طالب)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٦٩).

قال ﷺ: [رِضَا اللهِ مَعَ رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللهِ مَعَ سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ][١]، وقال ﷺ: [مَنْ أمْسَى مَرْضِياً لِوَالِدَيْهِ وَأصْبَحَ، أصْبَحَ لَهُ بَابَان مَفْتُوحَان إلَى الْجَنَّةِ، وَإنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِدٌ. وَمَنْ أمْسَى مُسْخِطاً لِوَالِدَيْهِ وَأصْبَحَ، أصْبَحَ لَهُ بَابَان مَفْتُوحَان إلَى النَّار، وَإنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِدٌ] فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَإنْ ظَلَمَاهُ ؟ قَالَ: [وَإنْ ظَلَمَاهُ؛ وَإنْ ظَلَمَاهُ؛ وَإنْ ظَلَمَاهُ] ثلاثَ مرَّاتٍ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ أي هو أعلَمُ بما في قُلوبكم من الرَّحمة عليهما، والمعنى: ربُّكم أعلمُ بما تُضمِرون من البرِّ والعُقوق، فمَن ندرَتْ منه نادرةٌ وهو لا يُضمِرُ عُقوقاً غفرَ اللهُ له ذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ ﴾ أي إن تكونُوا مُطيعِينَ للهِ تعالى، ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي للرَّاجِعين من الذُّنوب إلى طاعةِ الله، النادِمين على المعاصي والزَّلاَّتِ. والأوَّابُ: هو الذي يتوبُ مرَّةً بعدَ مرةٍ، كلَّما أذنبَ بادرَ إلى التوبةِ. وعن مجاهدٍ: (أنَّ الأَوَّابَ: هُوَ الَّذِي يَذْكُرُ ذنْبَهُ فِي الْخَلاَءِ فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أرَادَ بذِي الْقُرْبَى قَرَابَةَ الإنْسَان، وَحَقُّهُ مَا يَصِلُ بهِ رَحِمَهُ). وقال بعضُهم: أرادَ به قرابةَ النبيِّ ﷺ، وحقُّهم هو الحَقُّ الذي يجب لهم من الْخُمْسِ. والتأويلُ الأول أقربُ إلى ظاهر الآية؛ لأن ذكرَ القرابةِ معطوفٌ على ذكرِ الوالدَين، وذلك عامٌّ في جميعِ الناس. قَوْلُهُ

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٣ ص١٣٤: الحديث (٢٢٧٦) عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: [طَاعَةُ اللهِ طَاعَةُ الْوَالِدَيْنِ...]. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٣٦؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه وهو لين وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح)). وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب البر والصلة: الحديث (١٨٩٩) وحسنه. حبان في الإحسان: الحديث (٤٢٩) وإسناده صحيح.

(٢) بهذا اللفظ ذكره أهل التفسير؛ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٤٥ عن ابن عباس. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في البر والصلة: ج ٦ ص٢٠٦: الحديث (٧٩١٥ و٧٩١٦). وأوله: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ أبَوَانِ...]. وعزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى ابن عساكر وضعفه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٧٨٣).

تَعَالَى: ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ؛ أي وآتِ المسكين وابنَ السَّبيل حقَّهم الذي وجبَ لهم من الزَّكاة والعُشر وغيرهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ ؛ التبذيرُ: تفريقُ المال في المعصيـة، قال مجاهدُ: (لَوْ أنْفَقَ دِرْهَماً أوْ مُدّاً فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى كَانَ مُبَـذِّراً، وَلَـوْ أنْفَـقَ فِـي مِثْلِ أبي قُبَيْسٍ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى لَـمْ يَكُـنْ مُبَـذِّراً). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ ؛ أي أتباعَ الشَّـياطين، يتبعونـهم ويَجْـرُونَ علـى سُـنَنِهم، وَقِيلَ: يُقْرَنُونَ بالشَّياطين في النار، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ ؛ معنـاه: إنْ أعرضتَ عن هؤلاءِ الذين أوصَيناكَ بهم من ذوي القُربى والمساكين انتظارَ رزق يأتيكَ من اللهِ تعالى؛ لأنَّكَ لا تجدُ ما تصِلُهم، وكنـتَ مُنتظـراً لـرزق ربـكَ ترجـوهُ مـن اللهِ لتُعطِيهم منـهُ، ﴿فَقُلْ لَهُمْ﴾ ؛ عنـدَ ذلـك، ﴿قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ ؛ سَـهلاً لَيِّناً، نحوَ أن تَعِدَهم عدةً حسنةً وبقول: افْعَلُ؛ وكرامةً ليس عندي اليومَ شيءٌ، وسوف أُعطِيكُم؛ وأقضِي حقَّكُم إذا ادركتُ الغُلَّةَ، ووصَلَ إليَّ مالِي الذي في موضعِ كذا. أو تقولَ: يرزُقنا الله وإيَّاكم من فضلهِ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ ؛ أي تَبْخَـلُ بـالمنعِ مـن حقُوقِهم الواجبة لهم، ومرادهُ: الذي يتركُ الإنفاقَ يكـون بمنزلـة مَـن غُلَّـتْ يـداهُ إلى عُنقهِ، فلا يعطِي من مالهِ شيئاً في الخير، وسُمِّي البخلُ بمثل هـذه الصِّفـات، يقولـون: فلانٌ قصيرُ البَاعِ، وإذا كان كَريماً قالوا: طويلَ البـاعِ، وقـال ﷺ لنسائهِ: [أسْـرَعُكُنَّ لَحَاقاً أطْوَلُكُنَّ يَداً] فَكَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ؛ لأنَّهَا كَانَتْ أكْثَرُهُنَّ صَدَقَةً[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ؛ أي لا تُخرجْ جميـعَ مـا في يـدِكَ مع حاجتِكَ وحاجة عيالك إليه، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ ؛ ذا حَسرَةٍ تلومُ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل زينب: الحديث (١٠١/ ٢٤٥٢).

نفسَكَ وتُلامُ، وتبقَى الحسرَةُ على ما تُخرجهُ من يدِكَ، والحسرةُ: الغَمُّ لانْحِسَارِ مَا فَاتَ، وحَسَرَ عن ذراعهِ يَحْسُرُ حَسْراً إذا كَشَفَ عنه.

وقد قِيْلَ: إنَّ المرادَ بالخطاب في هذه الآية غيرُ النبيِّ ﷺ؛ لأنه ﷺ لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لِغَدٍ، وكان يجوعُ حتى يشُدَّ الحجرَ على بطنهِ، وقد كان كثيرٌ من فُضَلاءِ الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُنفقون جميعَ أمْلاكِهم في سبيلِ الله تعالى، مِثْلَ ما فعلَهُ أبو بكر ﷺ حتى يبقَى في عباءة، فلم يُعنِّفْهمُ النبيُّ ﷺ، ولم يُنكِرْ عليهم لصحَّةِ يقينهم وشدَّةِ بصائرهم.

وإنما نَهَى اللهُ تعالى عن الإفراطِ في الإنفاق مَن خِيفَ عليه الحسرةَ على ما يخرجهُ من يدهِ، كما رُوي: أنَّ رَجُلاً أتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بمِثْلِ بَيْضَةٍ مِنْ ذهَبٍ، فَقَالَ: وَجدْتُهَا فِي مَعْدِنِ كَذا وَلاَ أمْلِكُ غَيْرَهَا، فَتَصَدَّقَ بهَا، فَأَخَذهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَمَاهُ بهَا حَتَّى لَوْ أصَابَهُ بهَا لَشَجَّهُ، ثُمَّ قَالَ: [إنَّ أحَدَكُمْ لَيَتَصدَّقُ بجَمِيعِ مَالِهِ، ثُمَّ يَقْعُدُ يَتَكَفَّفُ النَّاسَ][(١)]. ومن الدليلِ أنَّ النبي ﷺ لم يكن دَاخِلاً في هذا الخطاب: أن اللهَ تعالى قال (مَلُوماً مَحْسُوراً) ومعلومٌ أنه ﷺ لم يكن يتحسَّرُ على ما كان يملكهُ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الخطابَ للنبيِّ ﷺ، وأن سببَ نُزول هذه الآية ما رُوي: أنَّ امْرَأةً بَعثَتِ ابْنَهَا إلَى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: قُلْ: إنَّ أمِّي تَسْتَكْسِيكَ دِرْعاً، فَإنْ قَالَ لَكَ حَتَّى يَأْتِينَا شَيْءٌ، فَقُلْ لَهُ: فَإنَّهَا تَسْتَكْسِيكَ قَمِيصَكَ، فَفَعَلَ الابْنُ كَمَا قَالَتْ أمُّهُ، فَنَزَعَ النَّبيُّ ﷺ قَمِيصَهُ وَدَفَعَهُ إلَيْهِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ قَمِيصٌ يَخْرُجُ فِيْهِ إلَى الصَّلاَةِ، فنَزلت هذه الآيةُ[(٢)] بما فيها من الدلالةِ بالنَّهي عن الإمساكِ، فيكون التحسُّرُ على هذا القولِ لتأخُّرِ خروجهِ إلى الصلاةِ بسبب القَميصِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الزكاة: باب الرجل يخرج من ماله: الحديث (١٦٧٣). والدارمي في السنن: كتاب الزكاة: باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل: الحديث (١٦٥٩).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص١٩٤ عن جابر ولم يذكر له إسناداً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ ﴾ ؛ أي يوسِّـعُ الرزقَ لمن يشاءُ، ويُضيِّقُ على من يشاءُ، علـى ما يـرَى فيـه المصلحـةَ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ وهذا كمـا قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿وَلَـوْ بَسَـطَ الله الـرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ ﴾ ؛ أي خَشيَةَ الفقـرِ والإقْتَـار، ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ ﴾ ، نزلَ في جماعةٍ كانوا يدفِنون بناتِهم خشـيةَ الفَاقَـةِ، ولئـلاَّ يحتاجُوا إلى النفقةِ عليهم، وكان ذلك مُستفيضاً شائعاً بينهم وهي الْمَوْءُودَةُ التي ذكرَها اللهُ تعالى في قوله ﴿وَإذا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾(٢).

وقوله تعالى: (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإيَّاكُمْ) أي إنَّ رزقَكم ورزقَ بناتِكم على اللهِ، وإنْ كان لسببٍ يجري على أيديكم، فإنَّ اللهَ تعـالى لـو لَـم يُقوِّكُـم علـى الاكتسـاب ولَـم يُمكِّنكُم من تحصيلِ النفقة لم تتمكَّنوا من تحصيلٍ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ دفنَـهم أحياءً كان ذنباً عظيماً في العقوبةِ، يقال: خَطِأَ الرجُل يَخْطَأُ خطأً مثل أثِـمَ يـأثَمُ إثمـاً، وقرأ ابنُ عامر (خَطَأً) بفتحِ الخاء على أنه مصدرُ أخْطَأَ، فيكون المعنـى علـى هـذا أنَّ قَتلَهم كان غيرَ صوابٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ ؛ الفَاحِشَةُ ما تفـاحَشَ قُبحهُ وتعظَّمَ، فكان الزنَى قبيحاً في الفعلِ قبل ورُودِ السمعِ؛ لأن فيه قطـعَ الأنسـاب وما يتعلَّقُ به من الْمُحَرَّمَاتِ، وإبطالِ حقِّ الولد على الوالدِ.

قال ﷺ: [وَفِي الزِّنَى سِتُّ خِصَالٍ: ثَلاَثٌ فِي الدُّنْيَا، وَثَلاَثٌ فِي الآخِرَةِ. فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الدُّنْيَا: فَيُذْهِبُ نُورَ الْوَجْهِ وَيَقْطَعُ الرِّزْقَ وَيُسْرِعُ الْفَنَاءَ. وأمَّا اللَّوَاتِـي فِـي

---

(١) الشورى / ٢٧ .

(٢) التكوير / ٨ .

الآخِرَةِ: فَغَضَبُ الرَّبِّ وَسُوءُ الْحِسَابِ وَالدُّخُولُ فِي النَّارِ][1]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي بئْسَ الزِّنَى طَرِيقاً لمن يسلكهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي لا تقتُلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ قتلَها إلا بحقٍّ تستحقُّ قَتلَها بهِ، وهو أن يَقتُلَ نفساً بغيرِ حقٍّ، أو يَزنِي وهو مُحصَنٌ، أو يرتدَّ عن الإسلامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ؛ أي مَن قُتِلَ بغيرِ حقٍّ، فقد جَعلنا لوارثِهِ حجَّةً في كتاب الله تعالى في إيجاب القَوَدِ على القاتلِ، وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (الْمُرَادُ بهَذا السُّلْطَان: أنَّ لِلْوَلِيِّ أنْ يَقْتُلَ إنْ شَاءَ، أوْ أخَذَ الدِّيَةَ، أوْ عَفَى)[2]. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالسُّلطان السلطانَ الذي يلِي الأمرَ والنهيَ يجب عليه أن يُعِينَ وليَّ القتيلِ حتى يطلبَ قاتلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾ ؛ السَّرَفُ: أن يقتُلَ غيرَ القاتلِ كما يفعلهُ العربُ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا تُمثِّلوا بالقاتلِ في القتلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ يعنِي وليَّ المقتول، حكمَ اللهُ له بذلك، وأمرَ المؤمنين أن يُعينوهُ، ويجبُ أيضاً على الإمامِ أن يُدفعَ إليه القاتلُ. ويقالُ: معناه: إن المقتولَ كان منصُوراً بالثَّواب وبإيجاب القَصَاصِ لِوَلِيِّهِ، وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [إنَّ مِنْ أعْتَى النَّاسِ عَلَى اللهِ ثَلاَثَةٌ: رَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ، أوْ قَتَلَ بذَحَنٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أوْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللهِ][3].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: في تحريم الفروج: الحديث (٥٤٧٥)؛ وقال: هذا إسناد ضعيف. وحكاه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب عن علي ﷺ: الرقم (٤٣٧٠). وفي كشف الخفا: ج ١ ص٣٨٩: الحديث (١٤٢٥))؛ قال العجلوني: ((قال في المقاصد: رواه الديلمي والقضاعي وابن ماجة عن ابن عمر ورفعه)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨١٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٦٨٢٦) عن قتادة ولم يسنده. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص١٤٧؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح. عن أبي شريح الخزاعي)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ أي إلا بما يؤدِّي إلى حفظهِ وصيانته وتَمييزهِ، وإنما خَصَّ اليتيمَ بذلك؛ لأن الطمعَ في مالـهِ أكثرُ، وهـو إلى الحفظِ أحوجُ لِعَجْزهِ عن حفظهِ بنفسه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ ؛ أي حتى يُكمِلَ ثَماني عشرةَ سَنة. وَقِيْلَ: معناهُ: حتى يبلُغَ وقتَ الْحُلُم ويكمل عقله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي واوْفُوا بعهدِ الله إليكم في أموالِ اليتَامى، وكلُّ ما أمرَ اللهُ به ونَهى عنهُ فـهو مـن العـهدِ، (إنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً) عنه للجزاءِ، فحُذِفَ استكفاءً بدلالةِ الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ ؛ أي أتِمُّـوهُ ولا تَبْخَسُـوهُ، ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ﴾ ؛ أي بميزان العدل، قرأ أهلُ الكوفة (بالْقِسْطَاس) بكسر القافِ وهما لُغتان[(١)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ذلكَ الـذي أمَرتُكم به خيرٌ لكم وأحسنُ عاقبةً، والتَّأويلُ: هو الذي إليه مرجعُ الشيءِ من قولِـهم آلَيَؤُولُ[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾ ؛ أي لا تَقُلْ ما ليسَ لك به علمٌ، وقال قتادة:(لاَ تَقُـلْ: سَـمِعْتُ وَرَأيْـتُ، وَلَـمْ تَـرَ وَلَـمْ تَسْـمَعْ، وَعَلِمْـتُ وَلَـمْ تَعْلَمْ)[(٣)].

والقَفْوُ في اللغة: اتِّباعُ الأمرِ كأنه يتبَعُ الأثرَ، ومنه القِيَافَةُ، كانت العربُ يتَّبعون فيها أثرَ الآباءِ، ويقولُ: قفوتُ الشيءَ أقْفُوهُ؛ إذا اتَّبعْتَ أثـرَهُ، والمعنـى علـى هـذا: لا تُتبِعَنَّ لسَانَكَ مِن القول ما ليس لكَ به علمٌ.

---

(١) في جامع البيان: مج ٩ ج ١٥ ص١٠٨؛ قال الطبري: (وفيه لغتان: القِسْـطَاسُ، بكسـر القـاف، والقُسْطَاس بضمها، مثل القِرطاس والقُرطاس، وبالكسر يقرأ عامة أهل الكوفـة، وبـالضم يقـرأ عامة أهل المدينة والبصرة، وقد قرأ به أيضاً بعـض قـرّاء الكوفيـين، وبأيتـهما قـرأ القـارئ فـهو مصيب؛ لأنهما لغتان مشهورتان).

(٢) أي العاقبة والصواب، وما يؤول إليه الأمرُ، ونُصِب على التفسير كقولـه تعـالى: ﴿خَيْرٌ مَرَدًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٣٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ﴾ ؛ يعني إنَّ المرءَ مسؤولٌ يوم القيامةِ عمَّا يفعلهُ بهذه الجوارحِ مِن الاستماع لِمَا لا يحلُّ، والنظر الى ما لا يجوزُ، والارادةِ لِمَا يَقْبُحُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي كلُّ هذه الجوارحِ والأعضاء، ولَم يقُل تلكَ، قال الشاعرُ[1]:

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُوْلَئِكَ الأَيَّامِ

ويجوزُ أن يكون راجعاً إلى أصحَابها وأربَابها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ؛ أي بَطَراً وكِبْراً وخُيَلاءَ، والْمَرَحُ: شدَّةُ الفَرَحِ، ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ بقدَميكَ وكِبْرِكَ، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ ﴾ ؛ بعَظمَتِكَ، ﴿ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي لا تُطاولُ الجبالَ فاستقصِرْ نفسَكَ عندما ترَى من سَعَةِ الأرضِ وبسطِها وعِظَمِ الجبال وطُولِها. من قرأ (مَرَحاً) بنصب الراء فهو المصدرُ، ومَن قرأ بكسرِ الراء فهو اسمُ الفاعلِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي كُلُّ ما تقدَّمَ مِن قولهِ تعالى (وَلاَ تَقْتُلُوا أوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ) إلى هذا الموضعِ كان سَيِّئَةً لا حسنةَ فيه، وهذا على قراءةِ مَن قرأ (سَيِّئَةً) بالنصب، وقرأ ابنُ عامر والكوفيُّون (سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ) على الإضافةِ بمعنى: هذا الذي ذكرتهُ مِن قوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ) إلى هذه الآيةِ ذكرُ الحسَنِ[3]، والسَّيِّءُ وقولُهُ تعالى (مَكْرُوهاً) على

---

(١) الشاهد لجرير في ديوانه. ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٢ ص٢٧٢: الشاهد (٢٧٠).

(٢) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٧٢؛ قال ابن النحاس: (وحكى يعقوب القارئ ﴿مَرِحاً﴾ بكسر الراء على الحال. قال الأخفش: كسر الراء أجود؛ لأنه اسم الفاعل). وفي معاني القرآن: ج ٢ ص٦١٢-٦١٣؛ قال الأخفش: (والمكسُورة أحسَنُهما). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٦١؛ قال القرطبي: (قراءة الجمهور بفتح الراء. وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل. والأول أبلغ).

(٣) القراءة (سَيِّئُهُ) بضم الهمزة والهاء والتذكير، وترك التنوين تشير إلى جميع ما تقدم في الآية، ومن الحسن والسيء، فأضاف السيء إلى ضمير ما تقدم، وتعضدها القراءة (كُلُّ أوْلَئِكَ كَانَ سَيِّئَاتُهُ) بالجمع، مضافاً للضمير وقراءة أبي (خَبِيثُهُ). والمعنى أن كل ما تقدم ذكرهُ مما أمرتم به ونهيتم عنه كان سَيِّئُهُ وهو ما نهيتم عنه خاصة أمراً مكروهاً.

قراءة من قرأ سَيِّئَةً بالنصب بدل من سَيِّئُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ ﴾ ؛ أي ذلك الذي سبقَ ذِكرهُ من هذه الأشياءِ مما أوحَى إليكَ ربُّكَ من صواب القول والعملِ، ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ هذا خطابٌ لكلِّ مؤمنٍ، كأنَّهُ قال: ولا تجعَلْ أيُّها الإنسانُ، ﴿ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ ؛ تلُومُ نفسَكَ، ﴿ مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي مَطرُوداً من رحمةِ الله تعالى.

قال الكلبيُّ وابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الثَّمَانِي عَشْرَةَ آيَةً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ...) إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبكَ مَكْرُوهاً) كَانَتْ فِي أَلْوَاحِ مُوسَى ﷺ حِينَ كَتَبَهَا اللهُ لَهُ، وَقَدْ أنْزَلَهَا عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهِيَ فِي الْكُتُب كُلِّهَا مَوْجُودَةٌ لَمْ تُنْسَخْ قَطُّ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ ﴾ ؛ خطابٌ للمشركين الذين زعَموا أن الملائكةَ بناتُ اللهِ مُنكِراً عليهم، تعالى اللهُ عن ذلكَ عُلُوّاً كَبيراً، والمعنى: أفحكَم لكم ربكم بالبنين، فأخلصَ لكم البنينَ دونَهُ وجعلَ البناتِ مشتركةً بينكم وبينَهُ، فأخلَصَكم بالأجَلِّ وجعلَ لنفسه الأدْوَنَ، ولا يكون هذا من الحكمةِ أن يَخُصَّ الحكيمُ عَدُوَّهُ بالأشرفِ ويختارُ لنفسه الأدْوَنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ في الكُفرِ والفِرْيَةِ على اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ ؛ أي بَيَّنَّا في هذا القرآن من الأمثال والعِبَرِ ليتَّعِظُوا بها، ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمۡ ﴾ ؛ تصريفُ الأمثالِ، ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي تَباعُداً عن الإيمانِ. قرأ الأعمشُ وحمزة (لِيَذْكُرُوا) مخفَّفاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: لو كانَ مع اللهِ آلِهَةٌ كما تقولُون أنتم إذاً لطَلَبُوا ما يُفرِّقُهم إلى مالكِ العرشِ لعُلُوِّهِ عليهم وكونِهِ أفضلَ منهم، وهذا قولُ

---

(١) أخرجه الطبري مختصراً في جامع البيان: الأثر (١٦٨٤٤). وعزاه السيوطي إليه كما في الدر المنثور: ج ٥ ص٢٨٧.

مجاهدٍ. وذهب أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ المعنى: لطَلَبُوا مُغَالَبَتَـهُ، وَابْتَغَـوا طَرِيقـاً لِيَقْـهَرُوه، كَفِعْلِ الْمُلُوكِ يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مُغَالَبَةَ صَاحِبِهِ لِيَصْفُو لَهُ الْمُلْكُ. وقرأ ابنُ كثير (كَمَـا يَقُولُونَ) بالياءِ على معنى: كما يقولُ المشركون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ قرأ الأعمشُ وحمزةُ والكسائي (عَمَّا تَقُولُونَ) بالتاء، وقرأ الباقون بالياءِ. ومعنى الآيةِ: تَنْزِيهاً للهِ عن كلِّ ما لاَ يليقُ بهِ من الولدِ والشَّريكِ؛ أي يُرَفَّعُ عما يقولون من إضافةِ البنـاتِ إلى اللهِ تعالى. وقولهُ تعالى (عُلُوّاً كَبيراً) أي تَعظِيماً كَبيراً، ولم يقل تَعَالِياً؛ لأن المصدرَ قد يُذكَرُ لا على لفظِ الأوَّل كما في قولهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾(١).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرٍو وحمزةُ والكسائي بالتاء، وقرأ غيرُهم بالياءِ. قال إبراهيمُ النخعيُّ وجماعةٌ من المفسِّرين:(إنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَبَّحَ للهِ حَتَّى صَرِيرُ الْبَاب)، ولِـهذا قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾ ؛ أي لا تَعلَمُونَ، قال الحسنُ والضحَّاك: (يَعْنِي كُلَّ شَيْءٍ فِيـهِ الـرُّوحُ)(٢)، وقـال قتـادةُ: (يَعْنِـي الْحَيَوَانَـاتِ)، وقـال عكرمـةُ: (وَالشَّجَرُ يُسَبحُ وَالاسْطِوَانَةُ تُسَبحُ).

وَقِيْلَ: إن الترابَ يسبحُ ما دام يَابساً، فإذا ابْتَلَّ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الماءَ يُسَبحُ ما دامَ جَارياً، فإذا ركَدَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الورقَ ما دامَ على الشَّجرِ يسبحُ، فـإذا سـقطَ تركَ التسبيحَ! وإنَّ الثوبَ يسبحُ ما دامَ جَديداً، فإذا توَسَّخَ تركَ التَسبيحَ! وإنَّ الوحشَ إذا صاحَتْ سبَّحَتْ، فإذا سكَتَتْ تَرَكَتِ التسبيحَ.

وعن أنسٍ ﷺ قال: [كُنَّا عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَأَخَذ كَفّاً مِنْ حَصَى فَسَـبَّحَ فِـي يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيحَ، فَصَبَّهُنَّ فِي أيْدِينَا فَمَا سَبَّحْنَ فِـي أيْدِينَـا](٣).

---

(١) المزمل / ٨. (٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٥٣).

(٣) في مجمع الزوائد: ج ٥ ص١٧٩؛ قال الهيثمي: ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن أبـي حميـد وهو ضعيف، وله طريق أحسن من هذا في علامات النبوة. وإسناده صحيـح)) وذكـره عـن أبـي ذر ﷺ: في ج ٨ ص٢٩٨: كتاب علامات النبـوة: بـاب تسـبيح الحصـى؛ قـال الهيثمـي: ((رواه البـزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات. ورواه الطبراني في الأوسط وزاد عليه في إحدى طريقيه)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي حليماً لا يَعْجَلُ بعقاب الكفَّار، غفُوراً يَسْتُرُ الذنوبَ على عبادهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ نزلَ في قومٍ من المشركين كادوا[١] يُؤْذُونَ النبيَّ ﷺ إذا قرأ القرآنَ، قال الكلبيُّ: (هُمْ أبو سُفْيَانَ وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَرثِ وَأبو جَهْلٍ وَأمُّ جَمِيلٍ امْرَأةُ أبي لَهَبٍ، حَجَبَ اللهُ رَسُولَهُ عَنْ أبْصَارِهِمْ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَكَانُوا يَأْتُونَهُ وَيَمُرُّونَ بِهِ وَلاَ يَرَوْنَهُ).

وعن سعيدِ بن جُبير قال: (لَمَّا نَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ﴾ جَاءَتِ امْرَأةُ أبي لَهَبٍ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ أبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ تَجَنَّبْتَ عَنِ امْرَأةِ أبي لَهَبٍ لِئَلاَّ تُسْمِعَكَ، فَإنَّهَا امْرَأةٌ بَذِيَّةٌ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّهُ سَيُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا] فَجَاءَتْ أمُّ جَمِيلٍ وَلَهَا وَلْوَلَةٌ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ[٢]، وَهِيَ تَقُولُ: هَـذا مِمَّـا أبَيْنَـا وَدِينِـهِ قَلَيْنَـا وَأمْـرِهِ عَصَيْنَا.

وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ وَأبُو بَكْرٍ إلَى جَنْبِهِ. فَقَالَ أبُو بَكْرٍ ﵁: لَقَدْ أقْبَلَتْ هَذِهِ وَأنَا أخَافُ أنْ تَرَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: إنَّهَا لَنْ تَرَانِي، وَقَرَأ (وَإذَا قَرَأتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً). قَالَ: فَجَاءَتْ حَتَّى قَامَتْ عِنْدَ أبي بَكْرٍ وَلَمْ تَرَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا أبَا بَكْرٍ بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، فَقَالَ: لاَ وَرَبِّ الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ، فَانْدَفَعَتْ رَاجِعَةً، فَقَالَ أبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ أمَا رَأتْكَ ؟ قَالَ: [لا]. قال: لِمَ؟ قَالَ: [نَزَلَ مَلَكٌ بَيْنِي وَبَيْنَهَا يَسْتُرُنِي حَتَّى ذهَبَتْ][٣].

---

(١) هكذا في الأصل المخطوط: (كادوا) ولعلها (كانوا).

(٢) الْفِهْرُ: الحجر ملء الكف. وقيل: هو الحجر مطلقاً.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب أم جميل عميت عن رؤية رسول الله ﷺ: الحديث (٣٤٢٨) عن أسماء بنت أبي بكر؛ وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأخرجه ابن حبان في الإحسان: كتاب التاريخ: الحديث (٦٥١١) عن ابن عباس. قال الشيخ شعيب: حديث حسن بشواهده.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (حِجَاباً مَسْتُوراً) أي سَاتِراً لَهم عن إدراكِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ؛ أي منعناهم عن تدبُّرِ كلامِ النبيِّ ﷺ في وقتٍ مخصوصٍ، وهو الوقتُ الذي أرادوا إيذاءَهُ فيهِ، ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ، ففي ذلك الوقتِ صرَفنا آذانَهم عن الاستماعِ إليه، والمعنى: طبَعنا على قُلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ ؛ يعني إذا قُلتَ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنتَ تَتلُو القرآنَ، ﴿ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: (كَارِهِينَ أنْ يُوَحِّدُوا اللهَ)، وقال قتادةُ: (إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا قَالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، أنْكَرَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ)[1]. والمعنى: انصرَفُوا عنكَ هاربين؛ كراهةً لما يسمعونَهُ من توحيدِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي نحنُ أعلمُ بما يستمعون إليه من قراءةِ القرآن، أنَّهم لماذا يستَمِعون وأنَّ قَصدَهم به الأذى دون طلب الحقِّ، فيسمعون إلى قِراءَتِكَ، ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ ؛ في أمرِكَ يتناجَوْنَ، فيقولُ بعضهم: هذا كاهنٌ، ويقول بعضُهم: هذا ساحرٌ، ويقول بعضهم: هذا مجنونٌ، ويقول بعضُهم: هذا شاعرٌ.

وَقِيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمَرَ عَليّاً رضي الله عنه أنْ يتَّخِذ طَعاماً، فيدعُو إليه أشرافَ قُريش من المشركين، ففعلَ ذلكَ، ودخلَ رسولُ اللهِ ﷺ وقرأ عليهم القرآنَ، ودعاهُم إلى التوحيدِ، فكانوا يستَمِعون ويقولون فيما بينهم مُتَنَاجِينَ: هو ساحرٌ، وهو مجنون مسحورٌ.

فأخبرَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ بذلكَ، وأنزلَ عليه (نَحْنُ أعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إذْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وَإذْ هُمْ نَجْوَى) أي يتناجَون بينهم بالتكذيب والاستهزاءِ، ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي أولئك المشركون: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ أي مغلوبَ العقلِ قد سُحِرَ، وأُزيلَ عن حدِّ الاستواءِ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٦٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ ؛ أي كيف وصَفُوا لكَ الأشباهَ، فشبَّهوكَ بالمجنون والكاهنِ والساحر، ﴿ فَضَلُّوا ﴾ ؛ عن الحقِّ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ مَخرجاً عن الضَّلال إلى الهدَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ ؛ أي إذا صِرْنا عِظَاماً باليَةً وصِرنا تُراباً، ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ؛ لنُبعَثُ بعدَ ذلكَ؛ ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أيْ أنُبعَثُ بعدَ ذلكَ؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ وتعجُّبٍ منهم. والرُّفَاتُ في اللغةِ: كلُّ شيءٍ يُحطَّمُ ويُكسَّرُ، قال ابنُ عبَّاس: (يَقُولُونَ: إذا ذهَبَ اللَّحْمُ وَالْعُرُوقُ وَتَفَتَّتَ عِظَامٌ قَدْ بَلَتْ، فَإذا مَسَّيْتَهُ بَيْنَ يَدَيْكَ انْسَحَقَ، أنُبْعَثُ بَعْدَ ذلِكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ ﴾ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: كونُوا حجارةً إنْ قَدرتُم عليها، أو أشدَّ منها بأن تكُونوا حَديداً، أو أقوَى من الحديدِ؛ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ ؛ أو أيَّ شيءٍ من الخلقِ نحوَ السَّموات والأرضِ والجبالِ، فإنِّي أعيدكم لا محالةَ إلى ما كُنتم عليهِ من قَبْل.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أي إذا قُلْتَ لهم ذلكَ فسيقولون لكَ: مَن يُعيدُنا؟ ﴿ قُلِ ﴾ ؛ لَهم: يُعيدُكم، ﴿ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ لأنَّ مَن قَدرَ على البناءِ كان على الهدمِ أقدرَ، ومَن قدر على ابتداءِ الشيءِ كان على إعادتهِ أقدرَ.

قولهُ: ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ ؛ أي فسيُحرِّكون إليكَ رُؤوسَهم تعجُّباً لقولِكَ، والإنْغَاضُ: تحرُّكُ الرأسِ بالارتفاعِ والانخفاضِ على جهةِ الاستهزاءِ والاستبطاء، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾ ؛ أي متى تكون الإعادةُ، ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي قل عسى أن تكون الإعادةُ قريبةً، و(عَسَى) مِن الله واجبةٌ، ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ ؛ في النَّفخةِ الثانيةِ، فتجيبون دَاعِيَ اللهِ حامِدين لله، قال سعيدُ بن جبير: (يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ وَبحَمْدِكَ، وَلاَ يَنْفَعُهُمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ؛ لأَنَّهُمْ حَمَدُوا حِينَ لاَ يَنْفَعُهُمُ الْحَمْدُ).

قولهُ: ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي تظُنون أنَّكم لم تلبثُوا في الدُّنيا إلا قَليلاً لسُرعةِ انقلاب الدُّنيا إلى الآخرةِ، كما قال الحسنُ: (كَأنَّكَ بالدُّنْيَا وَلَمْ تَكُنْ، وَبالآخِرَةِ وَلَمْ تَزَلْ).

ومِن المفسِّرين مَن قالَ: هذه الآية خطابٌ للمؤمنِين؛ لأنَّهم يستَجيبون للهِ بحمده على إحسانهِ إليهم، كما قالَ ﷺ: [كَأَنِّي بِأَهْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَهُمْ يَنْفِضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَيَقُولُونَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ][١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المشركين كانوا يُؤذُونَ الصَّحابةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بالقول والفعلِ بمكَّة، فشَكَوا ذلكَ إلى رسول الله ﷺ وقالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذنْ لَنَا فِي قِتَالِهِمْ، فَقَالَ: [إنِّي لَمْ أُؤْمَرْ فِيهِمْ بشَيْءٍ][٢] وكان ذلك قبلَ أن يُؤمَرَ بالجهادِ.

والمعنى: قُل للمؤمنين يقولون للكفَّار، والمقالَةُ التي هي أحسَنُ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرِ على وجه الرِّفق، ويقولون لَهم: يَهدِيكُمُ اللهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ ؛ أي يُغْرِي المشركين على المسلمين، فيوقعُ العداوةَ بينهم ويفسِدُ نيَّتهم، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ مُظْهِراً للعداوةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ ﴾ أي بأحوالِكم، ﴿ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ ﴾ ؛ بأن يُنَجِّيكُمْ من كفَّار مكَّة وينصُرَكم عليهم، ﴿ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ ﴾ ؛ أي يُسلِّطْهم عليكم، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي حَفيظاً وكفيلاً؛ أي ما وُكِّلَ إليكَ إيمانُهم، إنْ شاءَ اللهُ تعالى هداهُم، وإنْ شاءَ خذلَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ ؛ لأنه خلقَهم فهدَى بعضَهم وأضلَّ بعضَهم على علمٍ منه بهم، لم يَختَرْ بعضَ الملائكةِ والأنبياء لِمَيْلِهِ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٠١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك ﷺ)) وقال: ((أخرجه الحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وأبو يعلى والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر)). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٣٣٤: الرقم (١٣٣٠٩). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: باب في الإيمان بالله: الحديث (١٠٠) وإسناده ضعيف.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٧٦-٢٧٧؛ قال القرطبي: ((ذكره ثعلب والماوردي وابن عطية والواحدي)). وقال: ((قاله الكلبي)).

إليهم، وإنما أختارَهم لعِلمهِ بباطنهم، وقولهُ تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ﴾.

قال قتادةُ: (اتَّخذ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً، وَجَعَـلَ عِيسَـى كَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ، وَآتَى سُلَيْمَانَ مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ، وَغفرَ لِمُحَمَّدٍ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبهِ وَمَا تَأخَّرَ)[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾؛ يعني كِتَابَهُ الذي أعطاهُ إياه، وهو مِائَةٌ وخمسون سورةً، ليس فيها حُكمٌ ولا فريضة، وإنما هو ثناءٌ على اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾؛ أي قالَ المفسِّرون: ابتلَـى اللهُ كفارَ مكَّة بالقحطِ سنينَ، فشكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فـأنزلَ اللهُ هـذهِ الآيـةَ؛ أي قُل للمشركين: ادْعُوا الذين زعَمتُم أنَّهم آلهةٌ، ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ ﴾ أي البُؤْسِ والشدَّةِ، ﴿ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ التحويلُ: النَّقلُ من حالٍ الى حال.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾؛ معناهُ: أولئكَ الذين يدْعون إلى اللهِ في طلب الجنَّة، ويطلُبون التقرُّبَ إليـه، فكيف تَعبُدونَهم أنتم. والوسيلةُ: القربَةُ إلى اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) أي أقربُ إلى اللهِ بالوسيلة، يعني يتقرَّبون إليه بالعملِ الصالح، وعن ابنِ مسعودٍ في تفسيرِ هذه الآية: (أنَّ قَوْماً مِـنَ الإنْـسِ كَـانُواْ يَعْبُـدُونَ قَوْماً مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَبَقِيَ الإنْسُ عَلَى كُفْرِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[2].

وقولهُ تعالى: (يَبْتَغُونَ إلَى رَبهِمْ الْوَسِيلَةَ) أي يطلبُون أن يعلَمُوا أيُّهم أقربُ إلى اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ ﴾؛ أي يريدون جنَّتَهُ، ﴿ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾؛ أي مما يجبُ أن يُحذرَ عنهُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾؛ يعني بالموتِ أو معذّبوها بعذاب الاستئصال، ومعنى (وَإنْ

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٨٧).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٨٩٠).

مِنْ قَرْيَةٍ): وما مِنْ قريةٍ، قال ابنُ مسعودٍ: (إذا ظَهَرَ الزِّنَى وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أذِنَ اللهُ فِي هَلاَكِهَا)[١]، وقال مقاتلُ: (أمَّا الصَّالِحَةُ فَبالْمَوْتِ، وَأمَّا الطَّالِحَةُ فَبالْعَذاب)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾؛ أي قضاءً من اللهِ، كما يسمَعون ليس منه بدٌّ، وَقِيْلَ:كان ذلك في اللَّوحِ المحفوظِ مَكتوباً، فإنه مكتوبٌ فيه كيفَ يُهلِكهم اللهُ، ومتى يُهلِكهم، وبأيِّ عذابٍ يُهلكهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ وذلكَ أنَّ قُريشاً قالت للنبيِّ ﷺ: حَوِّلْ لَنا الصَّفَا ذهَباً، وَنَحِّ الْجِبَالَ عَنَّا لنَنْفَسِحَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ؛ أي إنْ حوَّلتهُ فلم يؤمنوا لَمْ أمهِلْهُمْ لسُنَّتي في مَن قبلَهم.

وموضع (أنْ) الأُولى نُصِبَ بتكذيب الأوَّلين برفعِ المنع عليه، وموضعُ (أنْ) الثانية رَفعٌ تقديره: وما مَنَعَنَا الإرسالَ بالآياتِ إلا تكذيبُ الأوَّلين بها، وهذا اللفظُ أغنَى عن لفظ المنعِ على طريق المجاز؛ لأن المنعَ لا يجوزُ على اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾؛ أي أخرَجنا لثمودَ الناقةَ ليُبصِرُوا بها الْهُدَى من الضَّلالة، والسعادةَ من الشقاوة، ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾؛ أي جَحَدوا بها وعقَرُوها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾؛ أي العِبَرَ والدلالاتِ إلا تَخْويفاً للعبادِ ليُؤمِنُوا، فإذا لم يفعَلُوا عُذِّبُوا.

قال قتادةُ: (يُخَوِّفُ اللهُ الْخَلْقَ بِمَا شَاءَ مِنْ آيَةٍ لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ أوْ يَرْجِعُونَ، ذُكِرَ لَنَا أنَّ الْكُوفَةَ رَجَفَتْ عَلَى عَهْدِ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: يَا أيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللهَ يَسْتَعْتِبُكُمْ فَاعْتِبُوهُ)[٣]. وعن الحسنِ في قوله: (وَمَا نُرْسِلُ بالآيَاتِ إلاَّ تَخْوِيفاً) قال: (الْمَوْتُ الذريعُ)[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩٠٢).

(٢) في تفسير مقاتل بن سليمان: ج ٢ ص٢٦٢؛ قال: ((أما الصالحة؛ فلهلاكها بالموت. وأما الطالحة؛ فيأخذها العذاب في الدنيا)).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩١١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩١٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ ؛ عِلْماً وقدرةً فَهُمْ في قبضتِهِ لا يقدرون على الخروجِ عن مَشِيئته، وهو مانعُكَ منهم وحافظُكَ، فلا تَتَهيَّب وتخافُ منهم، وامْضِ بما أُمِرْتَ به من تبليغِ الرِّسالةِ، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: أحَاطَ بالنَّاسِ؛ أيْ أهْلَ مَكَّةَ أنَّها سَتُفْتَحُ لَكَ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ؛ قال أكثرُ المفسِّرين: يعني ما ذُكِرَ في أوَّل هذه السُّورة من الإسراءِ في ليلةٍ واحدة من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصَى على معنى أنَّها شدَّةٌ من التكليفِ، كما رُوي أنَّ المشركين استعظَمُوا ذلك وكذبوهُ. فيكون معنى الرُّؤيا رؤيةَ العينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ ؛ أي وما جعَلنا الشجرةَ الملعونةَ إلاَّ فتنةً للناس. والشجرةُ الْمَلْعُونَةُ: شجرةُ الزَّقُّومِ، يقولُ العرب: لكُلِّ طعامٍ منارٌ معلوم، وسَمَّوها فتنةً؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ النارَ تأكلُ الشجرةَ، فكيف تنبتُ الشجرة في النار ؟!

وقال ابن الزِّبَعْرَى: (مَا نَعْلَمُ الزَّقُّومَ إلاَّ التَّمْرَ وَالزَّبَدَ) فَهَذا الْكَلاَمُ مِنْهُمْ هُوَ فِتْنَتُهُمْ؛ أيْ فُتِنُواْ بذلِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي نُخوِّفُهم بما نُرسِلُ الآياتِ، فما يزدادون إلا تَجاوُزاً عن الحدِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ ، قد تقدَّمَ تفسيرُ ذلك. وقولهُ تعالى: ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي قالَ إبليسُ: أأسجدُ لآدم وهو مخلوقٌ من طينٍ؟ وهذا استفهامٌ بمعنى الإنكار، ونُصِبَ (طِيناً) على الحالِ.

قال اللهُ تعالى حَاكياً عن إبليس: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي قالَ إبليس: أخبرني عن هذا الذي كرَّمتهُ عليَّ، لِمَ كرَّمتهُ عليَّ، وقد خلَقتَني من نارٍ وخلقتَهُ من طينٍ ؟! اعتقدَ إبليس أنَّ النارَ أكرَمُ أصلاً من الطينِ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٢٦٣: تفسير الآية.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي لأَستأصِلَنَّ ذُرِّيتَهُ بإغوائِهم، إلاّ قليلاً منهم وهمُ الذين عصَمتَهم مني، تقولُ العرب: احْتَنَكَتِ السَّنَةُ أمْوالَنَا؛ أي استأْصَلَتْهَا، قال الشاعرُ[1]:

أشْـكُو إلَيْـكَ سَـنَةً قَـدْ أجْحَفَـتْ وَاحْتَنَكَـتْ أمْوالَنَـا وَاجْتَلَفَـتْ

وَاحْتَنَكَـتْ حلَقَـتْ، وَاحْتَنَكَـتِ الْجَـرَادُ مَـا عَلَـى الأَرْضِ[2]. وَقِيلَ: معنـى (لأَحْتَنِكَنَّ) أي لأَقتطِعَنَّ ذُرِّيتَهُ إلى المعاصي، يقالُ: احْتَنَكَ فلانٌ ما عندَ فلانٍ من مال، إذا اقتطعَهُ. وَقِيلَ: معناهُ: لأَقُودَنَّ ذُرِّيتَهُ إلى المعاصِي وإلى النار، مِن قولِهم: حَنَكَ دَابَّتَهُ يحْنِكُهَا من الأَسْفَلِ بحَبْلٍ يقُودُهَا به.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي فمَن تَبعَكَ مِـن ذُريـة آدمَ فـإنَّ جـهنمَ جزاؤُكم جـزاء وافـراً مُكمَّـلاً. قولـهُ: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ ؛ أي اسْتَنْزِلْ واسـتَخِفَّ واستَجْهِلْ مَن استطعتَ منهم بدُعائِكَ في المعصيةِ، مِن قولِهم: صَوَّتَ فلانٌ، إذا دعاهُ، ويقال: أراد بالصوتِ صوتَ الغناءِ والمزامير، وهذا لعَلَى وجـهِ التـهديدِ وإنْ كـان في صورَةِ الأمرِ كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[3] وكقولِهم: أجْهدْ جُهْدَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ ؛ أي صِحْ بخَيْلِكَ ورَجْلِكَ احْثُثْهُمْ على الإغواءِ، يقالُ: أجْلَبَ على العدوِّ، إذا جمعَ عليهم الخيولَ، والمعنى علـى هذا: إجمعْ عليهم كلَّ ما تقدرُ من مكائدِ، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: اسْتَعِنْ عَلَيْهِمْ بركَـاب جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ)[4]. والْجَلْبُ هو قَوْدُ الشيءِ وسَوقُهُ بالصوتِ، يقـالُ للغنَـمِ: جَلَـبٌ

---

(١) أصلها أبيات ثلاثة من مشطور الرجز، كما في تفسير الطبري والقرطبي؛ قال الشاعر:

أشْـكُو إلَيْـكَ سَـنَةً قَـدْ أجْحَفَـتْ جُـهْداً إلَـى جُـهْدٍ بنَـا وَأضْعَفَـتْ

وَاحْتَنَكَتْ أمْوالَنَا وَاجْتَلَفَتْ

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٨٧؛ قال القرطبي: (روي عـن العـرب: احْتَنَكَ الجرادُ الزرعَ، إذا ذهبَ بهِ كلِّه).

(٣) فصلت / ٤٠ .

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٢٤٦.

وجَلُوبَةٌ؛ أي جلبت من موضعٍ إلى آخر، قال الحسنُ: (كُلُّ رَاكِبٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ خَيْلِ إبْلِيسَ، وَكُلُّ مَاشٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ رَجْلِ الشَّيْطَانِ)، وقرأ حفصٌ (وَرَجِلِكَ) بنصب الراء وكسرِ الجيم وهما لُغتان، أتبَعَ كسرةَ الجيم كسرةَ اللام، وهذا على طريقِ الإهانةِ لإبليسَ، لا أنَّ له خَيْلاً ورَجلاً، كما يقولُ الرجل لغيرِهِ: أجْمِعْ خَيْلَكَ وَرَجِلَكَ وَمَا أَمْكَنَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ ؛ شِركَتُهُ في الأموال أن يجعَلُوا شيئاً من أموالهم لغيرِ الله، كما جعَلُوا من الحرثِ والأنعامِ، وشِركَتُهُ في الأولادِ أن سَمَّوا أولادَهم: عبدَ يَغُوث، وعبدَ شمسٍ، وعبدَ الحرب. وقال بعضُهم: شِركتُهُ في أولادِهم أولاد الزِّنَى. كذا قال مجاهدُ والضحَّاك. ويقالُ شركتهُ في الأموالِ كلُّ ما أخذ من حرامٍ وأنفقَ في حرامٍ، وشركتهُ في الأولادِ الذي يُهَوِّدَاهُ أبَوَاهُ ويُنَصِّرانِهِ ويُمَجِّسانِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ ؛ أي مَنِّيهِمْ بما شِئتَ من الغرورِ: من طول الحياةِ، والتَّشكيكِ في البعثِ، وما تكون مواعيدُ الشَّيطان إلا غُروراً؛ أي تَزييناً باطِلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌۚ﴾ ؛ أي ((إلاَّ))[1] في الوسوَسة، فإما أن يَمنعَهم عن الطاعةِ، أو يحملَهم على المعصيةِ فلا، وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ أولِيائي ليس لك عليهم حجَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ ؛ أي حَافِظاً لأوليائهِ يعصِمُهم عن القبولِ من إبليس؛ لأن الوكيلَ بالشيءِ يكون حَافظاً له.

ثُم ذكَرَ سبحانَهُ نِعَمَهُ على عبادهِ فقال:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ ؛ أي ربُّكم الذي يسوقُ لكم، ويُجري لكم السُّفنَ في البحرِ، ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ ؛ أي لتطلبُوا ما كان مصلحةً لكم في دُنياكم وآخرَتِكم من التِّجارة وغيرِها، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ ؛ حين أنعمَ عليكم بهذه النِّعم.

---

(١) (إلا) سقطت من المخطوط.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ أي يُخلِّصُكم من الشدَّة في البحرِ عند عَصْفِ الرياحِ وترادُفِ الأمواجِ، وخِفتُم الغرقَ، ضلَّ مَن تدعون من الأصنامِ عن تخليصِكم؛ أي بَطَلَ وزَالَ، ولا يرجُون النجاةَ إلا من اللهِ.

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ نَسِيتُمُ الأَنْدَادَ وَالشُّرَكَاءَ، وَتَرَكْتُمُوهُمْ وَاخْلَصْتُمْ للهِ)، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾، فَلَمَّا اجابَ دُعاءَكُمْ وَنَجَّاكُمْ مِنَ الْبَحْرِ، وَاخرَجَكُمْ إلى البرِّ ونجاكم، ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾؛ عن الإيمانِ والطاعةِ، ورجعتُم إلى ما كنتم عليهِ، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾؛ لنِعَمِ اللهِ تعالى، وأرادَ بالإنسان الكافرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾؛ معناهُ: أفأَمِنتُمْ بعدَ ذلك أن نخسِفَ بكمُ الأرضَ كما فُعِلَ بقارونَ، ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أي حجارةً تُمطِرُ من السَّماءِ عليكم، كما أمطَرتْ على قومِ لوط، قال القُتَيْبِيُّ: (الْحَاصِبُ: الرِّيحُ الَّتِي تَرْمِي بِالْحَصْبَاءِ) وهي الحصَى الصِّغار[1]، يقال: حَصَبَهُ بالحجارةِ، إذا رماهُ بها مُتتابعاً. قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾؛ أي حَافِظاً يحفظُكم من عذاب الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾؛ أي امْ امِنتُم ان يُعيدكم اللهُ في البحر مرَّةً أخرى، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾؛ أي ريحاً شديدةً تَقصِفُ الفُلْكَ، قال أبو عُبيدة: (الْقَاصِفُ هِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَقْصِفُ كُلَّ شَيْءٍ؛ أيْ تَدُقُّهُ وَتُحَطِّمُهُ). وقال القتيبيُّ: (هِيَ الَّتِي تَقْصِفُ الشَّجَرَ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾؛ أي بكفركم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾؛ أي لا تجدُوا لكم من يَتْبَعُنَا فيطالِبُنا بدمائِكم، والتَّبيعُ: مَنْ يَتْبَعُ غَيْرَهُ لأمرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾؛ أي فضَّلناهم بالعقلِ والنُّطقِ والتمييزِ، وعامَلناهم معاملةَ الإكرامِ بالنعمة، وجعلناهم يهتَدُون إلى مَعايشِهم. قَوْلُهُ

---

(١) نقله القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٩٣.

تَعَالَى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ أي في البرِّ على الدواب، وفي البحرِ على السُّفن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ؛ أي لَذِيذِ المطاعمِ والمشارب، قال مقاتلُ: (السَّمْنُ وَالزُّبْدُ وَالتَّمْرُ وَالْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي فضَّلْنَاهم على كثيرٍ من حيواناتِ البرِّ والبحرِ، ومِن تفضيلهم أنَّهم يأكُلون بالأيدِي، وغيرُهم من الحيواناتِ يأكلون بالأفواهِ. ويقالُ: إنَّ ابنَ آدم يَمشِي مُنتصِباً قائماً وسائرُ الحيواناتِ تَمشِي مُنْكَبَّةً.

ولم يقُل في الآية: عَلَى كلِّ مَنْ خلَقْنَا؛ لأن اللهَ فضَّلَ الملائكةَ كما قالَ تعالى: ﴿وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] ولكنَّ ابنَ آدمَ مُفضَّلٌ على سائرِ الحيوانات، وقال عطاءُ في هذه الآيةِ: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ بتَعْدِيلِ الْقَامَةِ وَامْتِدَادِهَا)، وقال مُحَمَّدُ بن كعبٍ: (بأَنْ جَعَلَ مُحَمَّداً ﷺ مِنْهُمْ). وَقِيلَ: بحُسنِ الصُّورة. وَقِيلَ: الرِّجالُ باللِّحَا والنِّساءُ بالذوائب.

وَقِيلَ: بتسليطهم على غيرهم من الخلائق، وبتسخيرِ الخلائق لَهم. وعن النبيِّ ﷺ في تفسيرِ الآية قال: [الْكَرَامَةُ الأَكْلُ بالأَصَابعِ][2]. وقولُه: (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) يعني الثِّمارَ والحبوبَ، وكلَّ طعامٍ لَيِّنٍ، ورزَقَ الدوابَ التِّبنَ والحشيشَ والشَّوكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ ؛ يعني يومَ القيامةِ وهو منصوبٌ على معنى: واذكُرْ يومَ ندعُو كلَّ أناسٍ بإمامِهم؛ أي نَبيِّهِمْ، فيقالُ: هاتُوا

---

(١) النساء / ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٦٩٨٦) من قول ابن جريج. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٢٩٤؛ قال القرطبي: ((وروي عن ابن عباس؛ ذكره المهدوي والنحاس؛ وهو قول الكلبي ومقاتل؛ وذكره الماوردي)). وقاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٢٦٦. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٣٣٤٤) عن ابن عباس. أما أنه حديث؛ ففي الدر المنثور: ج ٥ ص٣١٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه الحاكم في التاريخ والديلمي عن جابر ﷺ)).

متَّبِعي إبراهيمَ، هاتوا مُتَّبعي موسَى، هاتوا متَّبعي عيسَى، هـاتوا متَّبعـي مُحَمَّـدٍ ﷺ، فيقومُونَ يأخذُونَ كُتبَهم بأيمانِهم.

ثم يقالُ: هاتُوا متَّبعـي الشيطانِ رؤسـاءَ الضَّلالـةِ، هـاتوا مُتَّبعـي الطـاغوتِ، فيقُومون ويُعطَونَ كُتبَهم بشمائلِهم. ويقـالُ: يُدعَـى كـلُّ أُنـاسٍ بعَملـهِ، فيقـالُ: أيـن صاحبُ هذا الكتاب ؟ أين فلانُ بن فلان الْمُصَلِّي؟ وأين فلانُ بن فلان الصَّوَّام؟ إلى أن يُنادِي بالعازفِ والدفَّافِ والرَّقاصِ، فيُدعَى كلُّ أناسٍ بعملهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ؛ أي مَن أعطِـيَ كتابَـهُ الـذي فيه ثوابُ عملهِ بيمينه، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾ ؛ يفرحُون ويُسَرُّون بمـا يقرَأون، وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ ولا يُنقَصُـونَ من ثـواب أعمالهم مقدارَ الفَتِيلِ، وهو القِشْرُ الذي في شِقِّ النَّواةِ، ويقالُ: هو الوَسَخُ الذي تَفْتِلُـهُ بين إصبعَيكَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي مَن كان في هذه الدُّنيا التي هو مُشَاهِدٌ لها أعمَى عن الحجَّة، لا يتفكَّرُ بقلبهِ في ملكوتِ السَّموات والأرضِ، فهو في الآخرةِ التي هي غائبةٌ عـن عَينَيـهِ أشدُّ عمًى، وأخطأُ طَريقاً. ويقالُ: معناهُ: مَن كان في هذه الدُّنيا ضَالاً عن الحقِّ فهو في الآخرةِ أشدُّ تَحَيُّراً وذهَاباً عن طريقِ الحقِّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ ؛ وذلك أنَّ ثقيفاً أرسَلُوا وَفدَهـم إلى رسـول الله ﷺ وهـو بالمدينـةِ، فقالُوا: يَا مُحَمَّدُ نَحْنُ أخْوَالُكَ وَأصْهَارُكَ وَجِيرَانُكَ، وَجِيرَانُ أهْـلِ نَجْـدٍ لَـكَ سِـلْماً وَصِيرهُمْ عَلَيْكَ حَرْناً، إنْ سَالَمْنَا سَالَمَ مَنْ بَعْدَنَا، وَإنْ حَارَبْنَا حَارَبَ مَنْ بَعْدَنَا، فَقَـالَ ﷺ: [مَاذا تُرِيدُونَ ؟] قَالُوا: نُبَايعُكَ عَلَى أنْ تُعْطِيَنَـا ثَـلاَثَ خِصَـالٍ: أنْ لاَ نَنْحَنِـي - يَعْنُونَ فِي الصَّلَوَاتِ - وَأنْ لاَ نُكَسِّرَ أصْنَامَنَا بأيْدِينَا، تُمَتِّعُنَا بالأَصْنَامِ سَنَةً.

فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: [لاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لاَ صَلاَةَ فِيْهِ وَلاَ رُكُوعَ وَلاَ سُجُودَ، وَأمَّـا قَوْلُكُم عَلَى أنْ لاَ تَكْسِرُوا أصْنَامَكُمْ بِـأيْدِيكُمْ فَذلِـكَ لَكُـمْ، وَنَحْـنُ نَبْعَـثُ لَـهَا مَـنْ يَكْسِرُهَا، وأمَّا الأَصْنَامُ فَأنَا غَيْرُ مُمَتِّعُكُمْ بهَا] فَقَـالُوا: يَـا رَسُـولَ اللهِ فَإنَّـا نُحِـبُّ أنْ

تَسمَعَ العَرَبُ أنَّكَ أعطَيْتَنا ما لَمْ تُعطِ غيْرَنا، فَإنْ خِفْتَ أنْ تَقُولَ الْعَرَبُ أعطَيْتَهُم مَا لَمْ تُعطِنَا، فَقُلِ اللهُ أمَرَنِي بذلِكَ! فَسكَتَ النَّبيُّ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ لاَ؛ رَجَاءَ أنْ يُسْلِمُوا، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَإنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ)[(١)] أي يَصرِفُونَكَ عَنِ الذي أمَرنَاكَ مِن كَسْرِ آلِهَتِهِم وعَيبِ دِينِهِم؛ لتفتَرِيَ علينا غيرَ الذي أمرنَاكَ به، فلو فعلتَ ما أرادوهُ، ﴿ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي صَفِيّاً لمبايَعتِكَ إيَّاهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي لقد كِدْتَ تَميلُ إليهم، قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي حِينَ سَكَتَّ عَنْ جَوابِهِمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ ؛ أي إنَّكَ لو مِلْتَ إليهم لأذقناكَ ضِعْفَ عذاب الدُّنيا، وضعفَ عذاب الآخرة، يريدُ عذابَ الآخرةِ ضِعْفَ ما يُعذبُ به غيرهُ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي مَانِعاً يَمنعُنَا من تعذيبكَ، قال ابنُ عبَّاس: (وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعْصُومٌ، وَلَكِنْ هَذَا تَخْوِيفاً لأُمَّتِهِ؛ لِئَلاَّ يَركَنَ أحَدٌ منَ الْمُؤْمِنِينَ إلَى أحَدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أحْكَامِ اللهِ تَعَالَى وَشَرَائِعِهِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: [اللَّهُمَّ لاَ تَكِلْنِي إلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلاَ أدْنَى مِنْ ذلِكَ][(٢)].

وذهبَ السديُّ في هذه الآياتِ: (إلَى أنَّ قُرَيْشاً قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إنَّكَ تَرْفُضُ آلِهَتَنَا كُلَّ الرَّفْضِ، فَلَوْ أنَّكَ تَأْتِيهَا وَتَلْمِسُهَا وَتَبْعَثُ بَعْضَ وَلَدِكَ فَيَمْسَحُهَا، كَانَ أرَقَّ لِقُلُوبِنَا وَأحْرَى أنْ نَتَّبِعَكَ! فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَبْعَثَ بَعْضَ وَلَدِهِ فَيَمْسَحَهَا، فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذلِكَ)[(٣)]. ويقال: إنَّهم قالوا: أطْرُدْ سِقَاطَ النَّاسِ ومواليهم، هؤلاءِ الذين

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٩ ص٥٤: الحديث (٨٣٧٢) عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص. وأبو داود في السنن: كتاب الخراج: باب ما جاء في خبر الطائف: الحديث (٣٠٢٥) مختصراً. والطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٠٠٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. والواحدي في أسباب النزول: ص١٩٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٠٠٧) عن قتادة مرسلاً.

(٣) بمعناه أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم(١٣٣٥٠) عن ابن عباس، و(١٣٣٥١) عن ابن جبير، و(١٣٣٥٢) عن الزهري، و(١٣٣٥٣) عن ابن نفير، و(١٣٣٥٤) عن محمَّد بن كعب=

رائحتُهم كرائحةِ الضَّأنِ حتى نتَّبعَكَ، فَهَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يفعلَ رجاءَ أن يُسلِمُوا، فأنزلَ اللهُ هذه الآياتِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ، حسَدَتْهُ اليهودُ قالوا لـه: يَا مُحَمَّدُ أنَبِيٌّ أنْتَ؟ فَقَالَ: [نَعَمْ] قَالُواْ لَهُ: وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَذِهِ بِأَرْضِ الأَنْبِيَاءِ، وَإنَّ أرْضَ الأَنْبِيَاءِ الشَّامُ، كَانَ بِهَا إبْرَاهِيمُ وَعِيسَى، فَإنْ كُنْتَ نَبِياً فَأْتِ الشَّامَ، فَإنَّ اللهَ سَيَمْنَعُكَ بِهَا مِنَ الرُّومِ إنْ كُنْتَ رَسُولَهُ، وَهِيَ الأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ وَأرْضُ الْمَحْشَرِ. فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَخْرُجَ إلَى الشَّامِ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الآيَةِ[1]. ومعناها: وقد كَادُوا لَيستفِزُّونَكَ من أرضِ المدينة ليُخرِجُوكَ منها إلى الشَّامِ، ﴿ وَإِذًا ﴾؛ لو أخرجُوكَ، ﴿ لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي الاَّ مدَّةً يسيرةً حتى يُهلِكَهم اللهُ. ومن قرأ (خِلاَفَكَ) فمعناهُ: في مُخالَفتِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾؛ نَصْبٌ على المصدرِ؛ أي سَنَّ لَهم سُنَّةَ مَن قد أرسَلنا، فإن سُنَّةَ اللهِ قد جرت في مَن قبلِكَ من الرُّسل بأنَّ أمَمَهم إذا أخرجُوهم من مواضعِهم لم يلبثُوا إلا قليلاً، والسُّنَّةُ: هي العادةُ الجارية. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾؛ أي لا يقدرُ أحدٌ على تحويلِ السُّنة التي أجراها اللهُ.

وقال مجاهدُ وقتادة: (هَمَّ أهْلُ مَكَّةَ بإخْرَاجِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ حِينَ شَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَوْ فَعَلُوا مَا أمْهِلُوا، وَلَكِنَّ اللهَ كَفَّهُمْ عَنْ إخْرَاجِهِ حَتَّى أمَرَهُ بِالْخُرُوجِ).

=القرطبي. وأولى هذه الأقوال ما نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٠٠؛ قال: ((ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم، بل المعنى: لولا فضل الله عليك لكان منك حيل إلى موافقتهم، ولكن تَمَّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيري. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه)).

(١) نقله الزاحدي في أسباب النزول:ص١٩٦. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٠ ص٣٠١. وابن عادل الحنبلي في اللباب: ج١١ ص٣٥٢؛ وقال: هذا قول الكلبي.

والقَلِيلُ: مَا لَبِثُوا بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى أَهْلَكَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ، غير أن التأويلَ الأول أصحُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾؛ قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (مَعْنَاهُ: أَقِمِ الصَّلاَةَ لِغُرُوبِ الشَّمْسِ)[1] والصلاةُ المأمور بها على هذا هي المغربُ، والغَسَقُ بُدُوُّ الليلِ، وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في إحدى الرِّوايَتين عنه مثلُ قول ابنِ مسعود[2]، وفي الروايةِ الثانية وهو قولُ الحسنِ ومجاهد وقتادةُ: (إنَّ دُلُوكَهَا زَوَالُهَا)[3] وَالصَّلاَةُ المأمور بها على هذا الظهرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ. فالغَسَقُ على هذا القولِ هو اجتماعُ ظُلمَةِ الليلِ.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾؛ صلاةُ الفجرِ تشهدُها ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهار يُصلُّونها مع المسلمين. وإنما سُميت صلاةُ الفجرِ قُرْآناً؛ لأن القراءةَ فيها طولٌ، ولأن القراءةَ فريضةٌ من الرَّكعتين، وفي هذا بيانُ أن الصلاةَ لا تكون إلا بقراءةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (فَصَلِّ بالْقُرْآن). والتَّهَجُّدُ هو التَّيَقُّظُ بَعْدَ النَّومِ، ويقالُ: تَهَجَّدَ إذا نامَ، وتَهَجَّدَ إذا استيقظَ، والمعنى: أَقِمِ الصلاةَ بالليلِ بعد التيقُّظِ من النومِ، ويقال: الْمُتَهَجِّدُ القائمُ إلى الصلاةِ من النوم، وقيل له: مُتَهَجِّدٌ لانتفاءِ التجدُّدِ عن نفسهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (نَافِلَةً لَكَ) أي تطوُّعاً، وَقِيلَ: فضيلةً لكَ لرفعِ الدرجات لا للكفَّارات، فإنه عليه السلام قد غُفِرَ له من ذنبهِ ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ، وليست لنا بنافلةٍ، لكثرةِ ذُنوبنا وإنما هي كفارةٌ لغيرِ النبيِّ ﷺ، هكذا قال مجاهدٌ[4]. وقد رُوي ما يدلُّ على أنَّها نافلةٌ لغيرِ النبيِّ ﷺ وهو ما روَى أبو أمامة عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: [الْوُضُوءُ يُكَفِّرُ مَا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠١٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠١٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠٢٢) عن ابن عباس، و(١٧٠٢٥) عن الحسن، و(١٧٠٢٨) عن قتادة، و(١٧٠٢٩) عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٠٥٨).

قَبْلَهُ، وَتَصِيرُ الصَّلاَةُ نَافِلَةً] قِيلَ لَهُ: أَنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلاَ مَرَّتَيْنِ وَلاَ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٍ وَلاَ خَمْسٍ(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي المقامَ الذي تُحْمَدُ عاقبتهُ، وهو المقامُ الذي يُعطيهِ اللهُ النبيَّ ﷺ فيه لواءُ الْحَمْدِ تجتمعُ تحته الملائكةُ والأنبياء، فيكون النبيُّ ﷺ أوَّلَ شافعٍ وأوَّلَ مُشفَّعٍ، قال ابنُ عبَّاس: (وَعَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ). ويعني بقولهِ (مَقَاماً مَحْمُوداً) أي يُعطِيكَ اللهُ يومَ القيامة مقاماً يحمدُكَ فيه الأوَّلون والآخِرون شرفٌ به على جميعِ الخلائق، والمقامُ المحمود مقامُ الشَّفاعَةُ، ومعنى (يَبْعَثُكَ) يُقِيمُكَ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ؛ أي أدخِلني المدينةَ وأخرجني من مكَّة. وَقِيْلَ: أدخِلني في ما أمَرتَني به، وأخرجني من ما نهيتني عنهُ. وَقِيْلَ: أدخِلني مُدخَلَ صدقٍ في جميع الأمور، وأخرجني مُخرَجَ صدقٍ من جميعِ الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي واجعَلْ لي من عندَكَ قوَّةً أمتنعُ بها عن مَن عادَانِي. وَقِيْلَ: حجَّةً أتقوَّى بها على إبطالِ سائرِ الأديان الباطلة.

وعن محمَّد بن المنكدر قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ دَخَلَ الْغَارَ: [أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ]. وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ أخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ مِنْ مَكَّةَ آمِناً مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأدْخِلْنِي مَكَّةَ مُدْخَلَ صِدْقٍ ظَاهِراً عَلَيْهَا بالْفَتْحِ)، وقال عطيةُ عن ابنِ عبَّاس:(أدْخِلْنِي الْقَبْرَ مُدْخَلَ صِدْقٍ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأخْرِجْنِي مِنْهُ مُخْرَجَ صِدْقٍ عِنْدَ الْبَعْثِ). وَقِيْلَ: المعنى: أدخلني حيث ما أدخلتَني بالصِّدق، وأخرجني منه بالصِّدق، أي لا تجعلني مِمَّن يدخلُ بوجهٍ ويخرجُ بوجهٍ آخرَ، فإنَّ ذا الوجهَين لا يكون أميناً عند الله.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٢٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطيالسي وابن نصر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب والخطيب في تاريخه عن أبي أمامة... وذكره بمعناه)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ معنى: الحقُّ هو ما جاءَ به النبيُّ ﷺ من الشَّرائعِ والإسلام، وما جاءَ بـه مـن القُـرآن، وقال السديُّ: (الْحَقُّ الإسْلاَمُ، وَالْبَاطِلُ الشِّرْكُ). ومعنى (زَهَقَ): بطَلَ واضْمَحَلَّ.

قال ابنُ مسعودٍ وابن عبَّاس: (لَمَّـا افْتَتَـحَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ مَكَّـةَ، وَجَـدَ حَـوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاَثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ صَنَماً، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِمخْصَرَةٍ فِي يَدِهِ وَيَقُـولُ: [جَـاءَ الْحَـقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً] فَكَانَ الصَّنَمُ يَنْكَبُّ لِوَجْهِهِ، وَكَـانَ أهْـلُ مَكَّـةَ يَتْبَعُونَهُ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ: مَا رَأيْنَا رَجُلاً أسْحَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ)[١].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴾ ؛ أي شفاءٌ للمسلمين في الدُّنيا والآخرةِ، يتبرَّكون بقراءَتهِ على أنفُسِهم، ويستَعينون به على دفعِ الأسقام والبلاَيا. وَقِيْلَ: شفاءٌ للقلوب يزولُ به الجهلُ منها كما يشفَى المريض.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) أي نعمةٌ مِن الله تعالى عليهم، وكـونُ القـرآن شفاءً؛ أي يُزيلُ عمَى الجهلِ وحيرةَ الشـكِّ، فـهو شـفاءٌ مـن داءِ الجـهلِ. وقـال ابـنُ عبَّاس: (يُرِيدُ شِـفَاءً مِـنْ كُـلِّ دَاءٍ)، ويؤيِّـدُ هـذا مـا رُوي أنَّ النـبي ﷺ قـال: [مَـنْ لَـمْ يَسْتَشْـفِ بـالْقُرْآنِ فَـلاَ شَـفَاهُ اللهُ][٢]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يُزَادُ الكفارُ عند نزولِ القرآن إلا خَسَاراً لأنه لا ينتفِعُ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ ؛ أي أنعمنا عليـه بكشـفِ الضُـرِّ وتبديلِ البُؤسِ بالنعمةِ، ﴿ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ ؛ أي أعرضَ عن شُـكرِه وتبـاعَدَ عن ذلك بنفسهِ، وقولهُ تعالى: (وَنَأى بجَانِبِهِ) أي تعظَّمَ وتكبَّر وبعَّدَ نفسَـهُ عـن القيـامِ بحقوق النِّعَمِ. يريدُ بالإنسانِ، قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ بالإنْسَانِ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ).

---

(١) أخرجه الطـبراني في المعجـم الكبـير:ج١٠ ص٢٢٢: الحديـث(١٠٥٣٥). وفي الأوسـط: ج ٣ ص١٥٩: الحديث (٢٣٢٤). وفي الصغير: الحديث (٢١٠) من حديث ابن مسعود، وأصله عند البخاري ومسلم.

(٢) عزاه المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الإفـراد عـن أبـي هريـرة، وإسناده ضعيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾؛ أي إذا أصابتْهُ شدَّةٌ كان قَنُوطاً من رجاءِ الفرَجِ من اللهِ، لا يَثِقُ بفضلِ الله تعالى على عبادهِ فيطمعُ في كشفِ تلك البليَّةِ من جهتهِ، وهذه صفةُ الكافرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾؛ أي على طَبْعِهِ الذي جُبلَ عليه، وَقِيْلَ: على عادتهِ التي ألِفَها، وفي هذا تحذيرٌ من الفسادِ المسكون إليهِ، وَقِيْلَ: على فِتَنِهِ، وَقِيْلَ: على طريقتهِ التي تشابهُ كلَّ أخلاقهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾؛ أي إنَّ اللهَ يعلمُ أيَّ الفريقَين على الهدى وأيُّهما على الضلالةِ من المؤمنين والكفَّار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾؛ اختلفُوا في الذي سألُوا عنه النبيَّ ﷺ، قال بعضُهم: سألوهُ عن جبريلَ قد سَمَّاهُ اللهُ روحاً في قولهِ تعالى ﴿وَكَذلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنَا﴾[١]، وعن عليٍّ رضي الله عنه قالَ: (إنَّ الرُّوحَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ لَهُ سَبْعُونَ ألْفَ وَجْهٍ، فِي كُلِّ وَجْهٍ سَبْعُونَ ألْفَ لِسَانٍ يُسَبحُ اللهَ تَعَالَى بكُلِّ لِسَانٍ مِنْ هَذِهِ الألْسِنَةِ، فَسَألُوهُ عَنْ ذلِكَ الْمَلَكِ)[٢].

وعن عبدِالله بن مسعود قال: (كُنْتُ أمْشِي مَعَ النَّبيِّ ﷺ، فَمَرَّ بقَوْمٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اسْألُوهُ عَنِ الرُّوحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَسْألُوهُ، ثُمَّ أتَاهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ فَقَالُواْ لَهُ: يَا أبَا الْقَاسِمِ مَا تَقُولُ فِي الرُّوحِ ؟ فَسَكَتَ، ثُمَّ قَامَ فَاشْتَدَّ بيَدِهِ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَعَرَفْتُ أنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَحْيٌ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَيَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...) الآيَة)[٣].

وعن ابن عبَّاس: (أنَّ الْيَهُودَ اجْتَمَعُوا فَقَالُواْ لِقُرَيْشٍ: سَلُوا مُحَمَّداً فِي ثَلاَثٍ، فَإنْ أخْبَرَكُمْ باثْنَيْنِ وَأمْسَكَ عَنِ الثَّالِثَةِ فَهُوَ نَبيٌّ، سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ مَضَوا فِي الزَّمَانِ، وَعَنْ رَجُلٍ بَلَغَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَاربَهَا، وَاسْألُوهُ عَنِ الرُّوحِ. فَسَألُوهُ عَنْ ذِلِكَ، فَأنْزَلَ اللهُ

---

(١) الشورى / ٥٢ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٠٩) وهو منقطع عن علي فيه مجهول.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة (١٧): الحديث (٤٧٢١).

تَعَالَى فِي الْفِتْيَةِ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾[١] ...إِلَىآخِرِ الْقِصَّةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[٢] ... إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي الرُّوحِ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ...) الآيَةُ، وَإِنَّمَا سَأَلَتْهُ الْيَهُودُ عَنِ الرُّوحِ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ قِصَّتُهُ وَلاَ تَفْسِيرُهُ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اسْمِهِ الرُّوحِ)[٣].

وقال سعيدُ بن جبير: (لَمْ يَخْلُقِ اللهُ خَلْقاً أعْظَمَ مِنَ الرُّوحِ غَيْرَ الْعَرْشِ، لَوْ شَاءَ أنْ يَبْلَعَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِمَا بلُقْمَةٍ فَعَلَ، صُورَةُ خَلْقِهِ عَلَى صُورَةِ الْمَلاَئِكَةِ، وَصُورَةُ وَجْهِهِ عَلَى وَجْهِ الآدَمِيِّينَ، وَلَوْلاَ أنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلاَئِكَةِ سِتْراً مِنْ نُورٍ لاحْتَرَقَتِ السَّمَوَاتُ مِنْ نُوره).

ويقالُ: أرادَ بالرُّوحِ روحَ الحيوانِ وهو ظاهرُ الكلامِ، وفي روحِ الحيوان خِلافٌ بين العلماءِ، وكلُّ حيوانٍ فهو روحٌ وبَدَنٌ، وروحُ الحيوان جسمٌ رقيق على بُنيَةٍ حيوانيَّة، في كلِّ جُزءٍ منها حياةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبي) أي من الأمرِ الذي لا يعلمهُ إلا ربي، وإنما لم يُجِبْهُمْ عن ذلك؛ لأن اليهودَ هم الذين سألوهُ عن الروحِ، وكان في كتابهم أنه إنْ أجابَهم عن الروحِ فليس بنبيٍّ! فلم يُجِبهُم تصديقاً لِمَا في كتابهم، وكانت المصلحةُ في هذا أن لا يُعرِّفَهم الروحَ من جهة النصِّ، بل يكلِّمُهم في تعريفهِ إلى ما في عقولهم، لِمَا في ذلك من الرياضةِ باستخراج الفائدة.

وقال بعضُهم: هو الدمُ! ألا ترَى أنه مَن نَزَفَ دمهُ ماتَ، والْمَيْتُ لا يَفْقُدُ من جسمهِ إلا الدمَ. وزعمَ قومٌ: أن الروحَ هو استنشاقُ الهواءِ، ألا ترَى أن المخنوقَ ومَن مُنِعَ استنشاقُ وشَمُّ الهواءِ يموتُ.

وقال بعضُ الحكماء: إن اللهَ خَلَقَ الروحَ من ستَّة أشياء: من جوهرِ النُّور والطِّيب والهواءِ لبقاء الحياةِ والعلمِ والعلوِّ، ألا ترَى أنه ما دامَ في الجسدِ كان الجسدُ

---

(١) الكهف / ٩ .

(٢) الكهف / ٨٣ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧١٠٦) بأسانيد.

نورانياً تبصرُ العينان، وتسمعُ الأذنان، ويكون طَيِّباً، فإذا خرجَ انتنَّ الجسدُ، ويكون باقياً فإذا زَايَلَتْهُ الروحُ صارَ فانياً، ويكون حَيّاً وبخروجهِ ميتاً، ويكون عالِماً فإذا خرجَ منه الروحُ صار سُفْلِيّاً بالياً.

والاختيارُ من هذه الأقوال: أنه جسمٌ لطيف يوجَدُ فيه الحياةُ! بدليلِ قولهِ تعالى في صفةِ الشُّهداء: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ﴾[١] والأرزاقُ والفرَحُ من صفةِ الأجسامِ، والمرادُ بهذا أرواحُهم؛ لأن أجسادَهم قد بَلِيَتْ في التراب، وكذلك قولهُ ﷺ: [إنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ تُعَلَّقُ فِي شَجَرَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ][٢] وهذا لا يكون إلا في جسمٍ، ولا يتأتّى ذلك في الأعراضِ كما زَعمت المعتزلةُ والنجارية[٣]: أن الروحَ عرَضٌ، وهو مردودٌ بما ذكرناهُ.

وعن ابن عبَّاس: (أنَّ الرُّوح إذا خَرجَ مَاتَ الْجَسَدُ، وَصَارَ الرُّوحُ صُورَةً أخرَى لاَ تُطِيقُ الْكَلاَمَ؛ لأنَّ الْجَسَدَ جُرْمٌ، وَالرُّوحُ يُصَوِّتُ مِنْ جَوْفِهِ وَيَتَكَلَّمُ، فَإذا فَارَقَ الْجَسَدَ صَارَ الْجَسَدُ صِفْراً[٤]، وَصَارَ الرُّوحُ صُورَةً أخْرَى يَنْظُرُ النَّاسُ سُكُونَهُ، وَيَغْسِلُونَهُ وَيَدْفِنُونَهُ وَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَكَلَّمَ، كَمَا أنَّ الرِّيحَ إذا دَخَلَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ سَمِعْتَ لَهُ دَوِيّاً، فَإذا خَرَجَ مِنْهُ لَمْ تَسْمَعْ لَهُ صَوْتاً، وَكَذلِكَ الْمَزَامِيرُ، فَأَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُونَ إلَى الْجَنَّةِ وَيَجِدُونَ رِيحَهَا، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ يُعَذبُونَ فِي قُبُورِهِمْ).

وهذا الذي ذكرناهُ كلُّه في تفسيرِ الروح عند التحقيق منَ التكلُّفِ؛ لأن اللهَ سُبحانهُ أبْهَمَ علمَ ذلكَ، قال عبدُاللهِ بن يزيد: (مَا بَلَغَ الإنْسُ وَالْجِنُّ وَالْمَلاَئِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ عِلْمَ الرُّوحِ، وَلَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا يَدْرِي مَا الرُّوحُ، وَلَمْ يُخْبِرِ اللهُ

---

(١) آل عمران / ١٦٩-١٧٠.

(٢) أخرجه الطبري في المعجم الكبير: ج ١٩ ص٦٢: الحديث (١١٩-١٢٥) عن كعب بن مالك بإسناد صحيح، وأخرجه أصحاب السنن.

(٣) النجارية: فرقة من فرق الجبرية الاثنتي عشرة، ومن أفكارهم زعمهم ((أن الله يعذّبُ الناس على فعلهِ لا على فعلِهم)). ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٦٣: تفسير الآية (١٠٣) من سورة آل عمران.

(٤) الصِّفْرُ: بالكسر: الخالي، يقال: بيتٌ صِفرٌ من المتاع، ورجلٌ صِفرُ اليدين.

أحَداً مِنْ خَلْقِهِ به، وَلَمْ يُعْطِ أحَداً عِلْمَهُ مِنَ عِبَادِهِ، فَقَالَ: (قُلِ الرُّوحُ مِـنْ أمْـرِ رَبـي) أيْ مِنْ عِلْمِ رَبي وإنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي وما أوتيتم من العلمِ المنصوصِ عليه، إلا قليلاً من كثيرٍ بحسب حاجتِكم إليه، قُلْ: فالروحُ من المتروكِ الذي لا يصلحُ النصُّ عليه لأمورٍ من الحكمة تقتضِي تركَهُ. والخطابُ لليهودِ، وذلكَ أن رسولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قرأ هذه الآيةَ على اليهودِ، قالوا: أوْتِينَا التوراةَ وفيها الحكمةُ، ومَن يؤتَ الحكمةَ فقد أوتيَ خيراً كثيراً، فأعلَمَهم اللهُ أنَّ علمَ التوراةِ قليلٌ في علمِ الله تعالى ﴿وَلَوْ أنَّمَا فِي الأرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾(1).

قولُهُ: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أي لو شِئْنا لَمَحَوْنا القرآنَ من القلوب والكتُب، وأنسَيْنا ذكرَهُ كَيلاَ يوجدَ له أثرٌ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ تتوكَّلُ عليه في ردِّ شيءٍ منهُ، وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي لكِنْ لا نشاءُ ذلك إلا رحمةً من ربك، فأثبتَ ذلك في قلبكَ وقلوب المؤمنين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي حيث اختارَكَ للنبوَّةِ، واصطفاكَ للرسالةِ، وخصَّكَ بالوحيِ والقرآن، وجعلَكَ سيِّدَ ولدِ آدمَ، وختمَ بكَ الأنبياءَ، وأعطاكَ المقامَ المحمودَ.

وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ خَرَجَ وَهُوَ مَعْصُوبُ الرَّأسِ مِنْ وَجَعٍ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمَدَ اللهَ وَأثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: [يَا أيُّهَا النَّاسُ، مَا هَذِهِ الْكُتُبُ الَّتِي تَكْتُبُونَ ؟ أكِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِ اللهِ، كُلُّ مَنْ كَتَبَ كِتَاباً غَيْرَ كِتَابِ اللهِ يُوشِكُ أنْ يَغْضَبَ اللهُ عَلَيْهِ لِكِتَابِهِ، وَلاَ يَدَعُ وَرَقاً وَلاَ قَلْباً إلاَّ أخِذ مِنْهُ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: [مَنْ أرَادَ اللهُ بِهِ خَيْراً بَقِيَ فِي قَلْبِهِ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ](2).

---

(١) لقمان / ٢٧ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٣٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)).

وعن عبدِالله بن مسعودٍ: (إنَّ أوَّلَ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلاَةُ، وَلَيُصَلِّيَنَّ أقْوَامٌ ولاَ دِينَ لَهُمْ، وَإنَّ هَذا الْقُرْآنَ لَيُصْبِحَنَّ وَمَا فِيكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ) فَقَالَ رَجُلٌ: كَيْفَ يَكُونُ ذلِكَ يَا أبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ وَقَدْ أثْقَنَّاهُ فِي قُلُوبِنَا، وَأثْبَتْنَاهُ فِي مَضَاجِعِنَا، نُعَلِّمُهُ آبَاءَنَا وَأبْنَاءَنَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: (يَسْرِي بِهِ فِي لَيْلَةٍ فَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ وَمَا فِي الْقُلُوبِ. وقرأ عبدُالله: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ))[(١)].

وعن عبدِالله قالَ: (أكْثِرُوا الطَّوَافَ بالْبَيْتِ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ وَيَنْسَى النَّاسُ مَكَانَهُ، وَأكْثِرُوا مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرْآنِ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ) فَقِيلَ: هَذِهِ الْمَصَاحِفُ تُرْفَعُ، فَكَيْفَ بِمَا فِي صُدُورِ الرِّجَالِ؟ قَالَ: (يَسْرِي عَلَيْهِ لَيْلاً فَتُصْبِحُوا مِنْهُ فُقَرَاءَ، وَتَنْسَوْنَ قَوْلَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَتَقَعُونَ فِي قَوْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأشْعَارِهِمْ)[(٢)].

وعن عبدِالله بن عَمروٍ قال: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَرْتَفِعَ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ نَزَلَ بِهِ، لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَا بَالُكَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَب مِنْكَ خَرَجْتُ وَإلَيْكَ أعُودُ، أتْلَى وَلاَ يُعْمَلُ بي)[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ ؛ هذا تكذيبٌ للنَّضر بن الحارثِ حين قالَ: لَو نشاءُ لقُلنا مثلَ هذا، والمعنى: قُل لو اجتَمعوا على أن يأتُوا بمثلهِ في حُسنِ النَّظْمِ، وجودةِ اللفظِ، وجمعِ المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرةِ لا يأتونَ بمثلهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي أعْوَاناً، وأمَا رَفْعُ (لاَ يَأْتُونَ)؛ فلأنَّ جوابَ القسَمِ غالبٌ على جواب (أنْ) لوقوعه في صدر الكلام.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٢٥-٣٢٦؛ قال القرطبي: ((أخرج أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه)) وذكره وقال: ((هذا إسناد صحيح)). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٣٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان)).

(٢) ينظر ما قبله. وينظر: جامع البيان: تفسير الآية والأثر (١٧١١٣).

(٣) في الدر المنثور: ج ١٠ ص٣٣٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه محمَّد بن نصر في كتاب الصلاة)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ؛ أي من التخويفِ والتَّرغيب، ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ وامتنعَ أكثرُهم؛ أي أكثرُ أهلِ مكَّة إلا جُحوداً وإنْكاراً للحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾ رَوى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس: (أنَّ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَا رَبيعَةَ، وَأبَا سُفْيَانَ، وَالنَّضرَ بْنَ الْحَارثِ، وأبَا جَهْلٍ بْنَ هِشَام، وَالأَسْوَدَ بْنَ الْمُطَّلِب، وَرَبيعَةَ بْنَ الأَسْوَدِ، وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمُغيرَةِ، وَأبَا جَهْلٍ، وَأبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، وَالْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ وَغَيْرَهُمْ، اجْتَمَعُوا بَعْدَ غُرُوب الشَّمْسِ عِنْدَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إبْعَثُوا إلَى مُحَمَّدٍ، وَكَلِّمُوهُ وَخَاصِمُوهُ. فَبَعَثُوا إلَيْهِ أنَّ أشْرَافَ قَوْمِكَ قَدِ اجْتَمَعُوا لَكَ لِيُكَلِّمُوكَ.

فَجَاءَ إلَيْهِمُ النَّبيُّ ﷺ سَرِيعاً يَظُنُّ أنَّهُ بَدَا لَهُمْ فِي أمْرِهِ شَيْءٌ، فَجَلَسَ إلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَب أدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ، لَقَدْ شَتَمْتَ الآبَاءَ، وَعِبْتَ الدِّينَ، وَسَفَّهْتَ الأَحْلاَمَ، وَشَتَمْتَ الآلِهَةَ، وَفَرَّقْتَ الْجَمَاعَةَ. فَمَا أمْرٌ قَبيحٌ إلاَّ وَقَدْ جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، فَإنْ كُنْتَ إنَّمَا جِئْتَ بهَذا الْحَدِيثِ تَطْلُبُ مَالاً، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أكْثَرَنَا مَالاً، وَإنْ كُنْتَ تَطْلُبُ بهِ الشَّرَفَ فِينَا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإنْ كَانَ هَذا الَّذِي بكَ تَابعٌ مِنَ الْجِنِّ، بَذلْنَا أمْوَالَنَا فِي طَلَب الطِّب لَكَ حَتَّى نُبْرِيَكَ مِنْهُ!

فَقَالَ ﷺ: [مَا بي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بهِ لِطَلَب أمْوَالِكُمْ وَلاَ الشَّرَفَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَنِي رَسُولاً وَأنْزَلَ عَلَيَّ كِتَاباً، وَأمَرَنِي أنْ أكُونَ لَكُمْ بَشِيراً وَنَذِيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أصْبرُ عَلَى مَا أمَرَ اللهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ].

فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ فَإنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابلٍ مِنَّا مَا عَرَضْنَا عَلَيْكَ، فَقَدْ عَلِمْتَ أنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاس أحَدٌ أضْيَقَ بلاَداً وَلاَ أقَلَّ مِنَّا، فَاسْألْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ إلَيْنَا أنْ يُسَيِّرَ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالَ الَّتِي ضَيَّقَتْ عَلَيْنَا، وَيَبْسُطَ لَنَا بلاَدَنَا وَيُجْرِيَ لَنَا فِيهَا أنْهَاراً كَأرْضِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَلْيَبْعَثْ لَنَا مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِنَا، وَلْيَكُنْ مِمَّنْ يَبْعَثُ لَنَا قُصَيُّ بْنَ

كِلاَبٍ فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخاً صَدُوقاً، فَنَسْأَلُهُمْ عَنْ مَا تَقُولُ: أحَقٌّ هُوَ أمْ بَاطِلٌ ؟ فَإنْ صَنَعْتَ لَنَا مَا سَأَلْنَاكَ وَصَدَّقُوكَ صَدَّقْنَاكَ، وَعَرَفْنَا بذلِكَ مَنْزلَتَكَ عِنْدَ اللهِ بأنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولاً كَمَا تَقُولُ. فَقَالَ ﷺ: [مَا بهَذا بُعِثْتُ، إنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ بمَا بَعَثَنِي].

قَالُوا: وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ هَذا فَاسْأَلْ رَبَّكَ يَبْعَثْ مَلَكاً يُصَدِّقُكَ، وَيُعِينُكَ عَمَّا نَرَى بكَ، فَإنَّكَ تَقُومُ فِي الأَسْوَاقِ تَتَلَمَّسُ الْمَعَاشَ. فَقَالَ ﷺ: [مَا أنَا بالَّذِي يَسْأَلُ اللهَ هَذا، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي بَشِيراً وَنَذِيراً].

قَالُوا: فَأَسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً، كَمَا زَعَمْتَ أنَّ اللهَ مَا شَاءَ فَعَلَ! فَقَالَ ﷺ: [ذلِكَ إلَى اللهِ، إنْ شَاءَ فَعَلَهُ بكُمْ] فَقَالُوا: قَدْ أعْذرْنَا إلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، أمَا وَاللهِ مَا نَتْرُكُكَ وَمَا فَعَلْتَ بنَا حَتَّى نُهْلِكَكَ أوْ تُهْلِكَنَا. وَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تَأْتِيَ باللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبيلاً.

فَلَمَّا قَالُوا ذلِكَ قَامَ النَّبيُّ ﷺ، فَقَامَ مَعَهُ عَبْدُاللهِ بْنُ أمَيَّةَ الْمَخْزُومِيُّ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ عَاتِكَةَ بنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِب، فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أمُوراً لأَنْفُسِهِمْ؛ لِيَعْرِفُوا بهَا مَنْزلَتَكَ مِنَ اللهِ فَلَمْ تَفْعَلْ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ مَا خَوَّفْتَهُمْ بهِ مِنَ الْعَذاب فَلَمْ تَفْعَلْ، فَوَاللهِ لاَ أؤْمِنُ بكَ أبَداً حَتَّى تَتَّخِذ سُلَّماً إلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ تَرْقَى فِيهِ وَأنَا أنْظُرُ حَتَّى تَلِجَ بَابَهَا، أوْ تَأْتِيَ مَعَكَ بنُسْخَةٍ مَنْشُورَةٍ. وَنَفَرٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَشْهَدُونَ أنَّكَ نَبيٌّ كَمَا تَقُولُ، وَايْمِ اللهِ لَوْ فَعَلْتَ ذلِكَ لَظَنَنْتُ أنِّي لاَ أصَدِّقُكَ.

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى مَنْزلِهِ حَزيناً لِمَا نَالَهُ مِنْ سَفَاهَةِ قَوْمِهِ وَتَبَاعُدِهِمْ مِنَ اللهِ، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ حِينَ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنَّ مُحَمَّداً قَدْ أتَى إلَى مَا تَرَوْنَ مِنْ عَيْب دِينِنَا وَشَتْمِ آبَائِنَا وَتَسْفِيهِ أحْلاَمِنَا وَتَتْبيب آلِهَتِنَا، إنِّي أعَاهِدُ اللهَ لأَجْلِسَ لَهُ بحَجَرٍ غَداً قَدْرَ مَا أطِيقُ حَمْلَهُ، فَإذا سَجَدَ فِي صَلاَتِهِ رَضَخْتُ بهِ رَأسَهُ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً))[(١)].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٣٧-٣٣٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس)) وذكره. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧١٣١).

قرأ أهلُ الكوفةِ (تَفْجُرَ) مخففة بفتحِ التاء وضمِّ الجيم، واختارَهُ أبو حاتم؛ لأن الينبوعَ واحدٌ، وقرأ الباقون بالتشديدِ، ولم يختلِفُوا في الثانِي أنه مشدَّدٌ لأجلِ أنَّها جمعٌ.

وذلك أنَّهم لَمَّا عجَزُوا عن الإتيان بسُورَةٍ مثل القرآن وانقطعَتْ حُجَّتهم، جعلوا يقترِحُون من الآياتِ ما ليس لَهم، مع أن الذي أتاهُم به رسولُ الله ﷺ من القُرْآن، وانشقاق القمر، وغير ذلك من دلائلِ النبوَّة، كان أبلغَ في الدلالةِ مما اقترحوهُ من تفجيرِ الينبُوعِ وغيرِ ذلك. والْيَنْبُوعُ: عَيْنٌ تفورُ بالماءِ، وأرادَ بقولهِ (مِنَ الأَرْضِ) أرضَ مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ﴾ ؛ فتُشَقِّقَ، ﴿ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ في وسطِ ذلك البُستَان تَشْقِيقاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ ؛ مَن قرأ بسُكون السِّين؛ أي قِطَعاً، فجَمعُ الكثيرِ كسِدرَةٍ وسُدْر، وَقِيْلَ: أراد جَانِباً. ومن قرأ (كِسَفاً) بفتح السين فهو جمعُ القليلِ؛ أي جمعُ كُسْفَةٍ، يقالُ: أعْطِنِي كُسْفَةً من هذا الثوب؛ أي قطعةً منه، والكُسُوفُ هو انقطاعُ النُّور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ قال قتادةُ والضحَّاك: (عَيَاناً)، والمعنى: تأتِي بهم حتى نرَاهُم مقابلةً ونُشاهِدُهم، ويشهَدُون على صدق دعوَاكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ ؛ أي من ذهَبٍ، والزُّخْرُفُ في الأصلِ هو الزِّينَةُ كما في قولهِ تعالى ﴿حَتَّى إذا أخذتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾[1] أي بزينَتِها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ معناهُ: أو تصعدُ، ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ ؛ أي لن نصدِّقَك مع ذلك، ﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا ﴾ ؛ تأتِينا بكتابٍ من اللهِ، ﴿ نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ ؛ أنَّك رسولُ من اللهِ إلينا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّد: تَنْزيهاً لربي عن المقابَلةِ التي وصَفتُمْ، فإنَّ العارفَ باللهِ يعلمُ أنه لا يجوزُ المقابَلةُ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) يونس / ٢٤ .

﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ أي ما كنتُ إلا بَشراً رَسُولاً كسائر الرُّسل، فلا أقدرُ على الإتيانِ بالآيات المقترَحة، كما لم يقدِرْ عليها مَن قبلِي من الأنبياءِ.

قرأ ابنُ مسعودٍ (أوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذهَبٍ) قال مجاهدُ: (كُنْتُ مَا أدْري مَا الزُّخْرُفُ حَتَّى رَأيْتُهُ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ سُبْحَانَ رَبي)، قرأ أهلُ مكَّة والشام: (قَالَ سُبْحَانَ رَبي) يعني مُحمَّداً ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي ما صَرَفَ الناسَ إذ جاءَهم الـهُدَى إلاّ شبهةً أدخَلُوها على أنفُسِهم، يعني قولَهم (أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً) وهذه شبهةٌ ضعيفة، ويعجَبُ منهم في غير التعجُّب، ومرادُهم هَلاَّ بعثَ اللهُ بشَراً رسولاً؟ فأجابَهم اللهُ بقولِهِ تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ؛ أي لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يَمشُونَ على أقدامِهم مُقيمين في الأرض كما أنتم مُقيمون فيها، ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا ﴾ من جنسِهم، ﴿ رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ كما أرسَلنا إليكم بشَراً من جِنْسِكم رسُولاً، لأن المَلَك إنما يُبعَثُ إلى الملائكةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ؛ فإن اللهَ يشهدُ لِي بالنبوَّة في القرآن، وأنتم تُنكِرُونَ نُبُوَّتِي، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ بأحوالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ ؛ أي من يُوَفِّقْهُ اللهُ لدينهِ بالطاعة فهو المهتدي، ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ ؛ أي مَن يخذُلْهم عن دينهِ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يَهدُونهم من دون الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾ ؛ عما يسُرُّهم، ﴿ وَبُكْمًا ﴾ ؛ عما ينفعُهم، ﴿ وَصُمًّا ﴾ ؛ عما يَمنَعُهم.

وَقِيْلَ: يُحشَرون في أول الحشرِ عُمياً وبُكماً وصُمّاً على هذه الصفةِ، ثم تزولُ هذه الصفات عنهم فيَرَونَ ويتكلَّمون ويسمعون كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَى

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾[١] وقال ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾[٢] وقال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾[٣]. ويقالُ: إنه لَمْ يُردْ بالحشرِ في هذه الآية الحشرَ عن القبرِ، وإنما أرادَ به الحشرَ عن موضعِ الْمُحاسَبَة، فإنَّهم يُسحَبُونَ عن ذلك الموضعِ على وجُوهِهم على هذه الصِّفاتِ. وعن أنس: أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ: [إنَّ الَّذِي أمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيهِ عَلَى وَجْهِهِ][٤].

وعن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلاَثَةِ أصْنَافٍ: صِنْفٌ مُشَاةٌ، وَصِنْفٌ رُكْبَانٌ، وَصِنْفٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ: [إنَّ الَّذِي أمْشَاهُمْ عَلَى أرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ، يَتَّقُونَ بوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ][٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ؛ أي مَصيرُهم إليها. وقولُهُ تعالى: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي كلَّما سَكَنَ لَهَبُها من جانبٍ زدناها اشْتِعَالاً من جانبٍ آخر، يقالُ للنار اذا سَكَنَ لَهَبُها: خَمَدَتْ، فإذا أُطْفِئَتْ ولَمْ يبقَ فيها شيءٌ من النار قِيلَ: هَمَدَتْ، وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (خَبَتْ) أيْ سَكَنَتْ)[٦]، وقال مجاهدُ: (طُفِئَتْ)، وقال قتادةُ: (لاَنَتْ وَضَعُفَتْ)، وقولُهُ تعالى: (زِدْنَاهُمْ سَعِيراً) أي وَقُوداً.

ثم بَيَّنَ اللهُ تعالى لماذا يزدَادُون سَعيراً، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ؛ أي ذلك العذابُ جزاءُ كُفرهم بدلائِلنا، وإنكارهم للبعثِ، وهو قولُهم: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ .

---

(١) الكهف / ٥٣ . (٢) الفرقان / ١٢ . (٣) الفرقان / ١٣ .

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة الفرقان: الحديث (٤٧٦٠)، وطرقه في الحديث (٦٥٢٣). ومسلم في الصحيح: كتاب صفات المنافقين: باب يحشر الكافر على وجهه: الحديث (٥٤/ ٢٨٠٦).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح: أبواب التفسير: الحديث (٣١٤٢)؛ وقال: ((حديث حسن)) وفيه علي بن زيد بن جدعان؛ ضعيف.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٣٦) و(١٧١٤٠) عن الضحاك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ ؛ في صِغرهم وضَعْفِهم، ونظيرُ هذا قوله ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾[1] وقولهِ تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[2] ولأنَّ مَن قَدَرَ على خلقِ الأكبر عُلِمَ أنه قادرٌ على خلقِ الأصغرِ، فإذا قدرَ على خلقِ أمثالهم قدرَ على إعادَتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ؛ أي جعلَ لإعادَتِهم وقتاً لا شكَّ فيه أنه كائنٌ، ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ جُحوداً مع وضُوحِ الدلالة والحجَجِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ جوابٌ لقولِهم: (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً) المعنى: لو أنتم تَملِكُون مقدورات رحمةِ ربي إذاً لأمسَكتُم لأنفُسِكم مخافةَ أن يَفْنَى بالإنفاق ولا يبقَى لكم، وقوله تعالى: (خَشْيَةَ الإنفَاقِ)، أي خشيةَ الفقرِ والحاجة، وقِيْلَ: خشيةَ أن يُنفِقُوا فيفتقِرُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ؛ أي تِسْعَ دلالاتٍ واضحات، قال ابنُ عبَّاس: (هِيَ الْعَصَا وَاللِّسَان، فَإنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ فَرَفَعَهَا اللهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[3] وَالْبَحْرُ وَالْيَدُ، وَالآيَاتُ الْخَمْسُ: وَهِيَ الطُّوفَانُ وَالْجَرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالدَّمُ)[4]. وقال محمَّد بنُ كعبٍ: (هَذِهِ الْخَمْسُ وَالْعَصَا وَاللِّسَان وَانْفِجَار الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ، وَالطَّمْس كَمَا قَالَ ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أمْوَالِهِمْ﴾[5])[6]. وَقِيْلَ: هي الخمسُ والعصَى ويدهُ والسُّنون ونقصٌ من الثمراتِ.

---

(١) النازعات / ٢٧ . (٢) غافر / ٥٧ . (٣) طه / ٢٧-٢٨ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٤٥).

(٥) يونس / ٨٨ .

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٤٧).

قال محمَّد بن كعبٍ في الطَّمسِ: (كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ مَعَ أهْلِهِ فِي فِرَاشِهِ، وَإذا قَدْ صَارَا حَجَرَيْنَ، وَأنَّ الْمَرْأةَ الْقَائِمَةَ تَخْبِزُ وَقَدْ صَارَتْ حَجَراً، وَأنَّ الْمَرْأةَ فِي الْحَمَّامِ وَأنَّهَا لَحَجَرٌ، وَكَانَتْ تَنْقَلِبُ الْفَوَاكِهُ وَالْفُلُوسُ وَالدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ أحْجَاراً).

ورُوي: أنَّ يَهُودِيّاً قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ حَتَّى نَسْألَ هَذا النَّبِيَّ، فَأتَيَاهُ فَسَألاَهُ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) قَالَ: [لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلاَ تَسْحَرُوا، وَلاَ تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إلَى سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلاَ تَقْذِفُوا الْمُحْصَنَةَ، وَلاَ تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً يَا يَهُودُ أنْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ] فَقَبَّلُوا يَدَهُ وَقَالُوا: نَشْهَدُ أنَّكَ نَبِيٌّ[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرهُ؛ لأنه ﷺ كان يقعُ له العِلمُ من عندِ الله، فكان لا يحتاجُ في معرفةِ ذلك إلى الرُّجوعِ إلى أهلِ الكتاب، فكأنَّهُ تعالى قال: فاسأل أيها السامعُ وأيها الشَّاكُّ بَنِي إسرائيلَ إذ جاءَهم موسى بالبيِّنات، قال ابنُ عباس: (فَاسْألْ بَنِي إسْرَائِيلَ، يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي إنِّي لأظُنُّكَ يا موسى قد سُحِرتَ فلذلك تدَّعي النبوة، وَقِيْلَ: هذا مفعولٌ بمعنى فاعلٍ كأنه قالَ: إنِّي لأظُنكَ ساحراً، وَقِيْلَ: المسحورُ المخدوع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي قالَ موسى لفرعونَ: لقد عَلِمتَ يا فرعون أنَّ هذه الآياتِ لا تدخلُ في مقدور العبادِ، فلَمْ يُنْزِلها إلا ربُّ السموات والأرض، ﴿ بَصَآئِرَ ﴾ ؛ أي حُجَجاً للناسِ يُبصِرُونَ بها في أمرِ دينهم، ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ وإنِّي لأعلَمُ يا فرعون إنَّكَ هالكٌ، يقال: ثَبَرَ الرجلُ فهو مَثْبُورٌ؛ أي هالكٌ، والظنُّ قد يُذكَرُ بمعنى اليقينِ على ما تقدَّمَ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٨ ص٦٩-٧٠: الحديث (٧٣٩٦). والترمذي في الجامع: أبواب الاستئذان: باب ما جاء في قبلة اليد: الحديث (٢٧٣٣)؛ وقال: حسن صحيح.

وقرأ الكسائيُّ(لَقَدْ عَلِمْتُ) بضمِّ التاء، وهي قراءةُ عليٍّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ) وقالَ: (وَاللهِ مَا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ، وَلَكِنْ مُوسَى هُوَ الَّذِي عَلِمَ)[١] فبلغَ ذلك ابنَ عبَّاس فقالَ: (إنَّهُ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ تَصْدِيقاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[٢]). وقراءةُ النصب أصحُّ وأشهر، وليست قراءةُ الضمِّ مشهورةً عن عليٍّ رضي الله عنه ولا ثابتة، وإنما رواها عنه رجلٌ مجهول لا يُعرَفُ، ولا تمسَّكَ بها أحدٌ من القرَّاء غيرَ الكسائيِّ.

وقولهُ تعالى: (مَثْبوراً) قال ابنُ عبَّاس: (مَغْلوباً)[٣]، وقال مجاهدُ: (هَالِكاً)[٤]، وَقِيْلَ: مُخَبَّلاً لا عقلَ لكَ، وَقِيْلَ: بَعيداً من الخيراتِ، وَقِيْلَ: سِلاخاً[٥] في القطيفةِ، قال مجاهدُ: (دَخَلَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِ قَطِيفَةٌ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَرَأى فِرْعَوْنُ ثُعْبَاناً فَفَزِعَ وَأحْدَثَ فِي الْقَطِيفَةِ)[٦].

وروَى أبو سعيدِ الجوهريُّ قال: (كُنْتُ قَائِماً عَلَى رَأسِ الْمَأْمُون وَهُوَ يُنَاظِرُ رَجُلاً وَهُوَ يَقُولُ: يَا مَثْبُورُ، ثُمَّ أقْبَلَ إلَيَّ فَقَالَ: مَا مَعْنَى (مَثْبُوراً)؟ قُلْتُ: لاَ أدْرِي، فَقَالَ: حَدَّثَنِي الرَّشِيدُ قَالَ: حَدَّثَنِي الْمَهْدِي قَالَ:كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُور، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِرَجُلٍ: يَا مَثْبُورُ، فَقُلْتُ: يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا مَعْنَى يَا مَثْبُورُ؟ قَالَ مَيْمُونُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) مَا مَثْبُوراً ؟ قَالَ: نَاقِصَ الْعَقْلِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي فأرادَ فرعونُ أن يُزعِجَ بني إسرائيلَ، ويُخرجَهم من أرضِ مصرَ قَهْراً. والاسْتِفْزَازُ: هو الخوفُ بالشدَّة، ويجوز أن يكون المرادُ به أنه قصدَ قتلَهم، ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛

---

(١) في جامع البيان: تفسير الآية؛ قال الطبري: ((وروي عن علي)) وذكره.

(٢) النمل / ١٤ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٥٩).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧١٦).

(٥) سلاخه: إذا انتشرَ بُسْرُهُ، فكأنه أحدثَ في قطيفتهِ. ينظر: لسان العرب (سلخ).

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٣٧.

أي أمَرْنا موسى وقومَهُ بالخروجِ من مصرَ، فتبعَهُ فرعونُ وقومهُ، فجعلنَا في الماءِ طريقاً يَابساً، فجاوزَ موسى وقومهُ البحرَ، فَتبعَهُمْ فرعونُ وقومهُ، فأطبَقنا المـاءَ عليـهم حتـى غرِقوا كلُّهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ ؛ من بعدِ هـلاكِ فرعـون، ﴿ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ ؛ الشَّامَ وأرضَ مصرَ، وأورثَ بني إسرائيلَ مساكِنَهم وديارَهم، وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ أنه يفعلُ به وبالمشركين ما فعلَ بموسَى وعدُوِّهِ، فأظـهرَ اللهُ النبيَّ ﷺ على المشركين، وردَّهُ إلى مكَّةَ ظَافراً عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ يعـني يـومَ القيامةِ جِئنَا بكم جَميعاً؛ أي أتَينا بكم مِن كلِّ قبيلةٍ، واللَّفِيفُ: الجماعاتُ مـن قبـائلَ شتَّى، وَقِيْلَ: جئنا بكم مُختَلِطِينَ لا تتعارَفُون، والمعنـى: جئنـا بكـم مـن قُبوركـم إلى المَحْشَرِ أخلاطاً، يعني جميعَ الخلقِ، المسلمَ والكافرَ والبَرَّ والفاجرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ ؛ يعني القرآنَ، ويجوز أن تكـون الهاءُ كنايةً عن جبريلَ، فإن اللهَ أنزلَـهُ بـالقرآن، ونـزَلَ هـو بـه. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي بَشـيراً لِمَـن أطـاعَ بالجنَّـة، ومخوِّفـاً بـالنُّذُر للكفار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ ؛ معناه: وأنزَلنا قُرآناً فرَّقناهُ شيئاً بعد شـيءٍ، فإنه كان يَنْزِلُ منه شيءٌ، ثم يَمكثُون ما شـاءَ اللهُ، ثـم يـنْزِلُ منـه شـيءٌ آخـر، وكـان بين أوَّلِهِ وآخرِهِ عشرون سَنة. وقولهُ تعـالى: ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ ؛ أي على تَثَبُّتٍ وتوقُّفٍ ليَفهموهُ بالتأمُّلِ، ويعمَلُوا ما فيه بالتفكُّرِ، وهو معنـى قولـهِ تعـالى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ تأكيداً لأنزلنَاهُ مرَّةً بعدَ مرةٍ لعِظَمِ شأنهِ.

---

(١) المزمل / ٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّـة: آمِنُوا بالقرآنِ أو لا تُؤمِنُوا، وهذا وعيدٌ لَهم؛ أي إنْ آمَنتُم وإنْ لَم تُؤمِنُـوا، فـاللهُ غنِيٌّ عنكم وعن إيمانِكم، وإيمانُكم لا ينفعُ غيرَكم، وكفرُكم لا يضرُّ سِوَاكُم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي مِـن قبـلِ نُـزول القرآنِ، والمرادُ بهم مُؤمِنو أهلِ الكتـاب، ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ القـرآنُ، ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ ؛ أي يقعُون على وجُوهِـهم ﴿ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ ، للهِ، والمـرادُ بالأذقـان الوجوهُ، كذا قال ابنُ عبَّاس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي يقولُون في سُجودِهم: تَنْزيهاً للهِ عما لا يليقُ به، وقد كـان وعـدُ ربنـا كَائنـاً لا محالـةَ. وهؤلاءِ الذين سجدوا كانوا يسمَعُون أنَّ اللهَ يبعثُ نَبيّاً من العرب وينَزِّلُ عليه كِتَابـاً، فلما سَمِعوا القرآنَ سَجَدوا للهِ وحمدوه على إنجاز الوعـدِ ببعـثِ الرسـولِ والكتـاب، وقالوا: قد كان وعدُ ربنا مَفعُولاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ ؛ أي يسـقُطون علـى الوجـوهِ يَبْكُونَ في السُّجودِ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ ؛ البكاءُ في السُّـجودِ، ﴿ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ إلى خُشوعِهم؛ لأن مخافتهم الله داعيةٌ إلى طاعتهِ، والإخلاصِ في عبادتهِ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ البكاءَ في الصَّلاة من خوفِ الله لا يقطعُ الصـلاةَ؛ لأن اللهَ مدَحَهم عليه. وعن رسولِ الله ﷺ [أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي، فَيُسْمَعُ لِصَـدْرِهِ أزيـزٌ كَـأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ][1] . وعن عبدِالله بن شدَّاد قالَ: (كُنْـتُ أُصَلِّـي خَلْـفَ عُمَـرَ رضي الله عنه صَلاَةَ الصُّبْحِ، وَكَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ يُوسُفَ حَتَّى إذا بَلَغَ ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّـي وَحُزْنِـي إِلَـى اللهِ﴾[2] سَمِعْتُ نَشِيجَهُ، وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ).

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥ و٢٦. وأبـو داود في السـنن: كتـاب الصـلاة: بـاب البكاء في الصلاة: الحديث (٩٠٤). والنسائي في السنن: كتاب السهو: باب البكاء في الصلاة: ج ٣ ص١٣ صحيح.

(٢) الآية / ٨٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ ؛ فقالَ ابنُ عبَّاس: (تَهَجَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ بمَكَّةَ، فجعَلَ يقُولُ في سجودِهِ: [يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ]. فقالَ أبُو جَهْلٍ: إنَّ مُحَمَّداً يَنْهَانَا أنْ نَعْبُدَ الهَيْنِ وَهُوَ يَدْعُو إلَهاً آخَرَ مَعَ اللهِ يُقَالُ لَهُ الرَّحْمَنُ! وَهُمْ لاَ يَعْرِفُونَ الرَّحْمَنَ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[1].

ومعناها: قل يا مُحَمَّدُ: أدعوا اللهَ يا معشرَ المؤمنين، أو ادعُو الرَّحْمَنَ، إنْ شِئتُم فقُولُوا: يا رَحْمَنُ، وإنْ شِئتُم فقولوا: يَا اللهُ يا رَحْمَنُ؛ ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ ﴾ ، أيُّ أسماءِ الله تدعوهُ بها، ﴿ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، فأسْماؤهُ كلُّها حَسَنةٌ فادعوهُ بصفاتِهِ. وقوله تعالى: (أيّاً مَا تَدْعُوا) قال بعضُهم: (مَا) في هذا صِلَةٌ، ومعناها التأكيدُ، تقديرُهُ: أيّاً تدعون، ومثلُهُ: عمَّا قليلٍ، وخُذ مَا هُنالِكَ، و﴿فبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ بمَكَّةَ، كَانَ النَّبيُّ ﷺ إذا صَلَّى بأصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بالْقُرْآنِ، فَإذا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، وَلَعِبُوا وَصَفَّقُوا وَصَفَّرُواْ وَلَغَطُواْ، كُلُّ ذلِكَ لِيُغْلِطُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانُوا بِهِ يُؤْذُونَهُ، وَإذا خَافَتَ بالْقِرَاءَةِ لَمْ يَسْمَعْهُ أصْحَابُهُ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[3]. أي لا تجهرْ بقراءَتِكَ في الصَّلاةِ فيسمعُها المشركون فيؤذونكَ، ولا تُخافِتْ بها فلا يسمعُها أصحابُكَ. وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: وَلاَ تَجْهَرْ بقِرَاءَتِكَ فِي الصَّلاَةِ كُلِّهَا وَلاَ تُخَافِتْ بهَا فِي الصَّلاَةِ كُلِّهَا، وَلَكِنِ اجْهَرْ بهَا فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ، وَخَافِتْ بهَا فِي بَعْضِ الصَّلَوَاتِ).

وَسَألَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبَا بَكْرٍ عَنْ قِرَاءَتِهِ باللَّيْلِ، فَقَالَ: (أخَافِتُ بهَا كَيْ لاَ أُوْذِي جَارِي، أُنَاجِي رَبي وَقَدْ عَلِمَ بحَاجَتِي، فَقَالَ ﷺ [أحْسَنْتَ] وَسَألَ عُمَرَ ﷺ عَنْ قِرَاءَتِهِ باللَّيْلِ فَقَالَ: ارْفَعُ صَوْتِي أُوْقِظُ الْوَسْنَانَ وَاطْرُدُ الشَّيْطَانَ، فَقَالَ: [أحْسَنْتَ] فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ لأبي بكر: [زِدْ فِي صَوْتِكَ] وقال لعُمر: [انْقُصْ مِنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧١٩٤).

(٢) آل عمران / ١٥٩.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٢٠٨) بإسنادين. والبخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٢٢).

صَوْتَكَ][١] ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ . وعن ابن عباس أن معنى الآية: (لاَ تُصَلِّ مُرَاءَاةً لِلنَّاسِ وَلاَ تَدَعْهَا مَخَافَةً لِلنَّاسِ)[٢] . وسئل رسول الله ﷺ عن أحسنِ الناس قراءةً؟ فقال: [الَّذِي إذا سَمِعْتَ قِرَاءَتَهُ رَأيْتَ أنَّهُ يَخْشَى اللهَ تَعَالَى][٣] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ ؛ فيرثه؛ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ ، يعاونه عليه، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ ، أي من أهل الذل وهم اليهود والنصارى، يودون إخراج رؤوسهم ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقال مجاهد: (مَعْنَاهُ: لَمْ يُحَالِفْ، وَلَمْ يَبْتَغِ نَصْرَ أحَدٍ)[٤] والمعنى أنه عَزَّ وَجَلَّ لا يحتاج إلى موالاة أحد لذل يلحقه فهو مستغن عن الولي والنصير.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي عظِّمهُ عظمَةً تامة عن أن يكون له شريك أو ولي وصِفْهُ بأنه أكبر من كل شيء، وأنه القادر الذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، العالِمُ الذي لا يخفى عليه شيء، الغنيُّ عن كل شيء. معتقداً لذلك بقلبك، عاملاً على أمره فيما أمركَ. وعن رسول الله ﷺ [أنَّهُ كَانَ إذا أفْصَحَ الْوَلَدُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَّمَهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً...﴾ الآية][٥] .

وروي أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إنِّي كَثِيرُ الدَّيْنِ كَثِيرُ الْهَمِّ، فَقَالَ: [إقْرَأ آخِرَ سُورَةِ بَنِي إسْرَائِيلَ ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أو ادْعُوا الرَّحْمَـنَ...﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ، ثُمَّ قُلْ: تَوَكَّلْتُ عَلَى الَّذِي لاَ يَمُوتُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ][٦] .

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٢١١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢١٨).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: ج ٧ ص١١٥ عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، بلفظ: [مَنْ إذا قَرَأ رَأيْتَ أنَّهُ يَخْشَى اللهَ].

(٤) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٥٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم)) وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢٢١).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٢٢٢) عن قتادة مرسلاً. وعبدالرزاق في المصنف عن عبدالكريم بن أبي أمية، وعنه عن عمير بن شعيب ووصله ابن السني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال السيوطي في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٥٣.

(٦) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٥٢؛ قال السيوطي: ((أخرجه أبو يعلى وابن السني)) وذكره بمعناه وكثير من لفظه عن أبي هريرة.

وعن ابن عباس أنه قال: ((مَنْ قَرَأ سُورَةَ بَنِي إسْرَائِيلَ فِي سَفَرٍ أوْ حَضَرٍ إيْمَاناً وَاحْتِسَاباً ضَرَبَ اللهُ عَلَيْهِ سُوراً مِنْ حَدِيدٍ مِنَ الْغَرَق وَالْحَرْق وَالْبَرْق)). وعن عبدالحميد أنه قال: ((مَنْ قَرَأ آخِرَ بَنِي إسْرَائِيلَ، كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَالْبحَار وَالْجِبَال)).

آخر تفسير سورة (**الإسراء**) والحمد لله رب العالمين

انتهى الجزء الثاني من المخطوط وفيه كتب الناسخ فاصلة

الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم

إلى مؤلفه الفاضل الهمام

شيخ الإسلام الطبراني الكبير نفع الله به جميع العالمين

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالإِعَانَةُ

سُـورَةُ الْكَهْـف

سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ غَيْرَ آيَتَيْنِ مِنْـهَا ﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ إلَى آخِرِهِمَـا، وَعَـدَدُ حُرُوفِهَا سِتَّةُ آلاَفٍ وَثَلاَثُمِائَةٍ وَسُتُّونَ حَرْفاً، وَكَلِمَاتُهَا أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ وَسَبْعٌ وَسَبْعُونَ كَلِمَةً، وَآيَاتُهَا مِائَةٌ وَعَشْرُ آيَاتٍ عِنْدَ الْكُوفِيِّيْنَ، وَأحَدَ عَشَرَ عِنْدَ الْبَصْرِيِّيْنَ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ؛ أي الـذي أنـزلَ علـى عبـدهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقُرْآنَ؛ ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي لَم يجعلهُ مُلْتبساً لا يُفْهَمُ، ومِعْوَجّاً لا يَسْتَقِيْمُ. قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ قَيِّمًا ﴾ ؛ أي مُستقيماً عَـدْلاً؛ أي مُسـتوياً قيمـا على الكُتُب كلِّها ناسخاً لشرائعِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ ؛ أي لِيُنْذِرَ العبدُ الذي أُنزل عليه الكتابُ بَأْساً شَدِيداً؛ أي لينذرَ الكفَّارَ عذاباً شديداً مـن عنـدِ اللهِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ أي ثواباً حَسَـناً في الجنـة؛ ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مُقيمـين في ذلـك الأجْرِ خالدين فيه.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ وهـم قريشٌ واليهودُ والنصارى، فإنَّ قُريشاً قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، واليهودُ قـالوا: عُزَيْـرٌ ابنُ اللهِ، والنصارى قالوا: المسيحُ ابن اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ ﴾ ؛ أي هـم وآبـاؤهم كلُّـهم مقلِّدين ليس لَهم على ذلك بيانٌ ولا حُجَّةٌ، بل قالوا جَهْلاً. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ كَبُرَتْ

﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ؛ أي كَبُرَتْ مقالتُهم تلكَ كلمةً تخرجُ من أفواهِهم ما؛ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ ؛ و(كلمةً) نصْبٌ على التميـيزِ، وإنَّما كَـبُرَتْ هذه الكلمةُ؛ لأن صاحبَها يستحقُّ بها العذابَ، ومِن ذلك سُميت الكبيرةُ كبـيرةً؛ لأن عقابَها يزيدُ على استطاعة صاحبها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ ؛ فيه نـهْيٌ للنبيِّ ﷺ من إهلاكِ نفسه حُزناً عليهم بسبب إعراضِـهم عـن الإيْمـان لشـدَّة شـفقتهِ عليهم، وحقيقةُ الأسفِ الحزنُ على من فاتَ.

ومعنى الآية: فلعلَّكَ قاتلٌ نفسَكَ، يقال بَخَعَ الرجلُ نفسَهُ إذا قتلَها غيظـاً مـن شدَّةِ حُزنه على الشـيءِ أو وَجْدِهِ بالشـيءِ، وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: (عَلَـى آثَـارِهِمْ) أي مِـن بعدهم، يعني مِن بعدِ تولِّهم وإعراضهم عنكَ إن لَم يؤمنوا، ﴿بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَسَفًا ۝٦﴾ ؛ أي حُزناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ؛ أي جعلنـا جميـعَ مـا على الأرضِ مِن الأشجار والثِّمار والنباتِ والمياه والذهب والفضةِ والحيوان لهم منها زينةً للأرض، وجعلناها محفوفةً بالشَّهوات.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ ؛ أي لنـأمرَهم فننظُـرَ أيُّهم أعملُ بطاعةِ الله هذا أم هذا. قال الحسنُ: (أيُّهُمْ أزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَأتْرَكُ لَـهَا)(١). وقال مقاتلُ: (أيُّهُمْ أصْلَحُ فِيْمَا أوْتِيَ مِنَ الْمَالِ، وَيُحْسِنُ الْعَمَلَ، وَيَزْهَدُ فِي مَا زُيِّنَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا).

ثُم بيَّن اللهُ تعالى أنه يعـني ذلـكَ كلَّـه؛ فَقَـالَ تَعَـالَى: ﴿وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ ؛ أي يجعلُ ما عليها من الحيوان والنَّبات تُراباً يابساً مسـتوياً على الأرضِ، والْجُرُزُ الأرضُ التي لا ماءَ فيها ولا نباتَ، ويقالُ: سَنَةٌ جُرُزاً إذا كانت حرَّةً. قال عطاءُ: (يُرِيْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْعَلُ اللهُ الأَرْضَ جُرُزاً لاَ مَاءَ فِيْهَا وَلاَ نَبَاتَ).

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٦١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسـن)). وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الرقم (١٢٧٠٦).

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾ ؛ أي لَم يكونوا بأعجبَ، فقد كان مِن آياتنا ما هو أعجبُ من ذلك. قال الزجَّاجُ: (أعْلَمَ اللهُ أنَّ قِصَّةَ أهْلَ الْكَهْفِ لَيْسَـتْ بعَجِيْبَـةٍ؛ لأَنَّ خلْـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا أعْجَبُ مِنْ قِصَّةِ أصْحَاب الْكَهْفِ).

والكهفُ: الغَارُ فِي الْجَبَلِ، والرَّقِيْمُ: قِيْلَ: هو وادٍ دونَ فلسطين، وهو الـوادي الذي فيه أصحابُ الكهفِ، وَقِيْلَ: الرقيمُ لوحٌ من حجارةٍ، وَقِيْلَ: من رصاصٍ كتبـوا فيه أسماءَ أهلِ الكهف وقصَّتَهم ثُم وضعوهُ على باب الكهفِ وهو على هذا التأويل بمعنى الْمَرْقُومِ؛ أي المكتوب، والرقيمُ: الْخَطُّ والعلامةُ، والرقيمُ: الكتابةُ.

قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ قُرَيْشاً بَعَثُوا خَمْسَةَ رَهْطٍ إلَى الْيَهُودِ يَسْأَلُونَهُمْ عَـنْ أمْرِ رَسُول اللهِ ﷺ قَالُوا لَهُمْ: إنَّهُ يَزْعُمُ أنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَاسْمُهُ مُحَمَّدٌ، وَهُوَ فَقِـيرٌ يَتِيـمٌ وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمٌ، وَإنَّا نَزْعُمُ أنَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْ مُسَيْلَمَةَ، فَإنَّهُ يَقُـولُ: أنَـا مُرْسَـلٌ مِـنْ عِنْـدِ الرَّحْمَنِ، وَنَحْنُ لاَ نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إلاَّ رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ - يَعْنُونَ مُسَيْلَمَةَ -.

فَلَمَّا أتَى هَؤُلاَءِ الرَّهْطُ الْمَدِيْنَـةَ، أتَـوا أحْبَـارَ الْيَـهُودِ وَعُلَمَائَـهُمْ فَسَـأَلُوا عَنْـهُ وَوَصَفُوا لَهُمْ صِفَتَهُ وَخَاتَمَهُ، قَالُوا: نَحْنُ نَجِدُهُ فِـي التَّـوْرَاةِ كَمَـا وَصَفْتُمُـوهُ، وَلَكِـنْ سَلُوهُ عَنْ ثَلاَثِ خِصَالٍ، فَإنْ كَانَ نَبيّاً أخْبَرَكُمْ بخَصْلَتَيْنِ، وَلَمْ يُخْبرْكُمْ بالثَّالِثَـةِ ؟ فَإنَّـا سَأَلْنَا مُسَيْلَمَةَ عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ فَلَمْ يَدْرِ مَا هِيَ، وَأنْتُمْ سَلُوهُ عَـنْ خَـبَرِ ذِي الْقَرْنَيْـنِ، وَعَنِ الرُّوحِ، وَعَنْ أصْحَابِ الْكَهْفِ.

فَرَجَعُوا وَأخْبَرُوا قُرَيْشاً بذلِكَ، فَسَأَلُوا النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: سَأُخْبرُكُمْ غَداً، وَلَمْ يَقُلْ إنْ شَاءَ اللهُ. فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَشَقَّ ذلِكَ عَلَى رَسُول اللهِ ﷺ، ثُمَّ نَـزَلَ جِـبْرِيْلُ بـهَذِهِ الآيَـةِ ﴿وَلاَ تَقُولَـنَّ لِشَـيْءٍ إنِّـي فَـاعِلٌ ذلِـكَ غَـداً، إلاَّ أنْ يَشَـاءَ اللهُ﴾[١])[٢].

---

(١) الكهف / ٢٣.

(٢) في السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص٣٢١ ذكره في معناه. وذكـره السـيوطي في الـدر المنثـور: ج ٥ ص٣٧٦ عن مجاهد؛ وقال: ((أخرجه ابن المنذر)).

ثُم أخبرَهُ عن أصحاب الكهف وحديثِ ذي القرنين وخبرِ أمر الرُّوح، وحدَّثَـهُ أن مدينةً بالروم كان فيها ملكٌ كافر يدعـو إلى عبـادةِ الأوثـان والنِّـيران، ويقتـلُ مَـن خَالَفَهُ، وفي المدينةِ شابٌ يدعو إلى الإسلامِ سرّاً، فتابعهُ فتيةٌ من أهلِ المدينة، فَفَطِنَ بهم الملكُ فأخذهم، ودفعَهم الى آبائهم يحفظونَهم، فمرُّوا بغلامِ راعٍ، فبايَعَهم ومعهُ كلبُـهم حتى إذا أتَوا غاراً فدخلوهُ، وألقى اللهُ عليهم النَّومَ سنين عدداً، والملكُ طالبٌ لَهم لَم يقِفْ على أمرِهم، وعَمِيَ عليه خبرُهم، فسدُّوا بـابَ الكـهف ليموتـوا فيـه إن كـانوا هنالكَ.

ثُم عَمَدَ رجلٌ إلى لوحِ رصاص، فكتبَ فيه أسماءَهم وأسماءَ آبائهم ومدينتَهم، وأنَّهم خرجُوا فراراً من دِين ملكِهم في شهرِ كذا في سـنة كـذا وألزقَـهُ بالسـدِّ، وكـان السدُّ في داخلِ الكهفِ، وذكر القصةَ إلى آخرِها، فهذا اللـوحُ الرصـاص هـو الرَّقِيْـمُ. فأخبرَ النبيُّ ﷺ قُريشاً بذلك، فلما أتَوا النبيَّ ﷺ قولَ اليهودِ أخـبرَهم بخصلَتـين ولَـم يخبرهم بالثالثةِ، قال كفارُ قريشٍ:﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾[1].

وقال مُحمَّدُ بن اسحق: (كَثُرَتْ في أهلِ الإنجيلِ الخطايـا، وطَغَـتِ الملـوكُ حتـى عبدُوا الأصنامَ والأوثان، وفيهم بقايا على دينِ المسيحِ بن مريم متمسِّكون بعبـادةِ الله وتوحيده. وكان ممن فعلَ ذلك ملكٌ مِن ملوكهم يقالُ له دقيانوس[2]، وكان قـد عَبَـدَ الأصنامَ وذَبَحَ للطواغيت، فسارَ حتى دخل مدينةَ أهلِ الكهف وهي أفسوس.

فلما دخلَها عَظُمَ على أهلِ الإيْمان، واستَخفَوْا منهُ وهربوا إلى كلِّ ناحيةٍ، فأراد دقيانوسُ أن يُجْمَعَ له أهلُ الإسلامِ، واتخذ شُرَطاً من الكُفَّار من أهلها وأمرَهم باتباعِ المسـلمين، وأحصرَهـم فجعلـوا يتبَعُـون المسـلمين حتـى أخذوهـم ومَضَـوا بـهم الى دقيانوس، فخيَّرهم بين القتلِ وبين عبادة الأوثان، فمنهم مَن رَغِبَ في الحيـاةِ، ومنـهم من قالَ: لا أعبدُ غيرَ الله؛ فقَتَلَهُ.

---

(١) القصص / ٤٨.

(٢) عند الطبري في جامع البيان: (دَقْيَنُوس)

فلما رأى ذلك أهلُ الإيْمانِ جعلوا يصبرون للعذاب والقتل، فقتلَهم وقطعَ لحومَهم، وربطها على سور المدينة ونواحيها كلِّها، وعلى كلِّ بابٍ من أبوابها حتى عَظُمَتِ الْمِحْنَةُ على المسلمين. فلما رأى الفتيةُ ذلكَ قاموا وصَلُّوا واشتغلوا بالتسبيحِ والدُّعاءِ إلى اللهِ، وكانوا من أشرافِ الرُّوم، وكانوا ثمانية نَفَرٍ، فَبَكَوا وتضرَّعوا وجعلوا يقولون: رَبُّنَا ربُّ السمواتِ والأرض لن ندعوَ من دونه إلَهاً لقد قُلنا إذاً شَطَطاً، اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنةِ وارفعها عنهم.

فبينَا هم كذلكَ إذ دخلوا عليهم الشُّرَطُ إلى مُصَلاَّهُمْ فوجدوهم سُجوداً يبكون ويتضرَّعون إلى اللهِ ويسألونَهُ أن ينجيَهم من دقيانوس وفِتْنَتِهِ، فقالوا لَهم: ما خلفكم من أمرِ الملك، انطلِقُوا اليه.

ثُم خرجوا مِن عندهم الى دقيانوس وأخبروهُ بخبرهم، وقالوا: أنتَ تَجمعُ الجمعَ وهؤلاء الفتية يعصونَ أمرك، فأرسَلَ إليهم الشُّرَطَ فأتوا بهم تفيضُ أعينُهم من الدَّمعِ، معفورةً وجوهُهم بالتراب، فقال دقيانوس: ما منعَكُم أن تشهدوا الذبحَ للأصنامِ، وتعبدُوها وتجعلوا أنفسَكم كغيرِكم، إختاروا إمَّا تعبدوا الأصنامَ مثل الناسِ، وإما أن نَقْتُلَكُمْ.

فقال مكسلمينا[1]: إن لَنَا إلَهاً تَملأُ السموات والأرضِ عظمتهُ، لن ندعوَ من دونهِ إلَهاً أبداً، ولن نفعلَ هذا الذي تدعونا إليهِ، ولكنَّا نعبدُ اللهَ ونسبحهُ ونحمدهُ خالصاً من أنفسنا، إياهُ نعبدُ وإياه نسأل النجاةَ، وأما الأصنامَ فلا نعبدُها أبداً، إصنَعْ بنا ما بدَا لكَ)[2].

وقال الضحاك: (قال أصحابُ مكسلمينا كلهم لدقيانوس مثلَ هذه المقالة، فقال دقيانوسُ: إنِّي سأؤخِّرُكم، وأمهلِكُم حتى تراجعوا عقولَكُم، واجعلُ لكم مدَّة تتشاورون فيها، فإن أبيتُمْ طاعتي وخالفتم أمري وقعَتْ بكم العقوبةُ، وما منعَنِي أن أعَجِّلَ قتلكم إلاّ أنِّي أراكم شَبَاباً جديداً شبابكم، فلا أحبُّ أن أهلِكَكم حتى أجعلَ

(١) في جامع البيان: النص (١٧٢٧٠)؛ قال الطبري: ((وهم ثمانية نفر: رئيسهم مكسلمينا، وهم أبناء عظماء المدينة)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢٦٩ و١٧٢٧٠).

لكم مدَّة تنظرون فيها ما يصلحُ لكم، ثم أمَرَ بحليةٍ كـانت عليـهم مِـن ذهـب وفضـة فَنُزِعَتْ عنهم وأمرَ بإخراجهم من عنده. فعَمَدَ كلٌّ واحدٍ منهم إلى بيتِ أبيه واخذ لـه منه زاداً، وخرجوا هاربينَ فمرُّوا بكلبٍ، فتبعَـهم فطـردوهُ ثُـم تبعـهم، ففعلـوا ذلـك مِراراً، فقال لَهم الكلبُ: ما تَخشونَ منّي أنـا أحـبُّ أحبـابَ الله، فمتـى نِمتُـم كنـتُ أحرسُكم).

وقال ابنُ عباس: (كانوا سبعةَ هربوا ليلاً، فمرُّوا براعٍ ومعهُ كلبٌ، فتبعَهم على دِينهم، فوصلوا إلى كهفٍ قريب من البلـد فلبثـوا فيـه، ليـس لَـهم عمـلٌ إلاَّ الصـلاةُ والصيام والتسبيحُ والتكبير والتحميدُ، وجعلوا نفقتَهم على يدِ واحد منهم يقـالُ لـه: يَمليخا، فكان يشتري لَهم متاعَهم من المدينة سرّاً، وكان مِن أجمَلِهم وأجلدِهم، وكان إذا أرادَ أن يدخل المدينة يضعُ ثياباً كانت عليه حِسَاناً، ويـأخذ ثيابـاً كثيـاب المسـاكين الذين يسألونَ الناس، ثُم يأخذ ورقةً ويشتري طعاماً، ويتجسَّسُ الأخبارَ، ويسمعُ هـل يُذْكَرُ هو وأصحابهُ، ثُم يعودُ إلى أصحابهِ، فلَبثُوا كذلكَ ما لبثوا.

ثُم إنَّ دقيانوس الجبار شـدَّدَ علـى مَـن بقـي مـن المسـلمين، وأمرَهـم بـالذبحِ للطواغيت، وكان يَمليخا حينئذ هنـاك متنكّـراً، فسـمعَ بـأنَّ دقيـانوس يطلـبُ الفتيـةَ ويسألُ عنهم، فرجعَ يَمليخا هارباً إلى أصحابهِ وهو يبكي ومعهُ طعامٌ قليل، فأخـبرَهم أنَّ دقيانوس يسألُ عنهم، ففَزِعُوا ووقفوا سُجُوداً يتضرَّعون إلى اللهِ، يتعوَّذون بـه مِـن فِتْنَتِهِمْ، وذلكَ عند غروب الشَّمس فبينـا هـم كذلـكَ إذ ضـربَ اللهُ علـى آذانِـهم في الكهفِ، وكلبُهم باسطٌ ذراعيهِ بباب الكـهف، فأصابَـهم مـا أصابَـهم وهـم مؤمنـونَ موقنون، ونفقتُهم عندَ رؤوسهم.

فلما كان من الغدِ إلتمسَهُم دقيانوس فلم يجدهم فغَضِبَ غضباً شديداً، وأرسلَ إلى آبائهم فسألَهم عنهم، وقالَ: أخبروني عن أبنائِكم الْمَرَدَةَ الذين عَصَونِي، فقـالوا: ما ندري أينَ ذهبوا، ولقد أخذُوا أموالَنا وهربوا، وليـس لنـا في ذلـك ذنـبٌ لأنَّـا لَـم نعصِكَ فلا تُعاقِبْنا فيهم. فخلَّى سبيلَهم وجعلَ لا يدري ما يصنعُ بالفتية، فبلغَهُ الخـبرُ أنَّهم ارتفعوا الجبلَ فالتمَسَهم هناك حتى وجدُوا الكهفَ، فألقَى اللهُ في نفسهِ أن يَـأمُرَ بالكهفِ فيُسَدَّ عليهم.

قال دقيانوس: سدُّوا بابَ الكهفِ، ودعوهم فيه يَموتون جُوعاً وعطشاً، وليكن كهفُهم الذي اختاروه قَبْراً لَهم، وهو يظنُّ أنّهم أيقاظٌ يعلمون ما يُصْنَعُ بهم، وقد توفَّى اللهُ أرواحَهم في النومِ وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بباب الكهف وقد غَشِيَهُ ما غشِيَهم، يُقَلَّبُونَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال، وبقيَ دقيانوس ما بقِيَ، ثُم ماتَ وقرونٌ بعده كثيرة وجاءت ملوكٌ بعدَ ملوكٍ).

وقيلَ: إنَّ دقيانوس لَمَّا أتى إلى كهفِهم يطلبُهم كان كلَّما أرادَ رَجُلٌ أن يدخُلَ عليهم الكهفَ أرْعِبَ، فلم يُطِقِ الدخولَ، فجعلوا يقولون لو قدرنا أن ندخلَ عليهم لقِيناهُم فلم يستطِعْ أحدٌ الدخولَ إليهم، قال: سُدُّوا عليهم بابَ الكهف فيموتُون جوعاً وعطشاً، ففعلوا ذلك.

فلما مضَى على ذلكَ قرونٌ وأزمان جاءَ راعي غَنَمٍ إلى الكهفِ بغَنَمِهِ فأدركَهُ المطرُ عندَ الكهفِ، ففتحَ الكهفَ ليدخل غنمه فيه مِن المطرِ فوجدهم هناك، فَرَدَّ اللهُ عليهم أرواحَهم، فجلسُوا فرحينَ مستبشرين، وظنُّوا أنّهم أصبحُوا مِن ليلتهم، فقاموا إلى الصَّلاة فصلُّوا، لا تُرى في ألوانِهم ولا في أجسامهم شيء يكرهونَهُ، وهم يحسبونَ أنَّ دقيانوس في طلبهم.

ثُم قالوا ليمليخا: ما الذي قالَ الناسُ في شأننا بالأمسِ ؟ فقال: سمعتُ أنّهم يلتمسونَكُم، فقال مكسلمينا: يا إخوتاهُ؛ إعلمُوا أنّكم ملاقُو اللهَ فلا تكفروهُ بعد إيْمانِكم إذا طلبَكم غداً، فقالوا ليمليخا: إذهب إلى المدينة استمِعْ لنا الأخبارَ، وما الذي يذكرهُ الناسُ فينا عندَ دقيانوس.

فدخلَ المدينةَ مُستخفياً يصدُّ عن الطريقِ؛ لئلاً يراهُ من الناس أحدٌ يعرفه فيُعلِمَ دقيانوس، ولَم يعلمْ يَمليخا أنَّ دقيانوس وقومَهُ قد هلَكُوا منذُ ثلاثِمائة سنة، فرأى يَمليخا على باب المدينة علامةَ أهلِ الإيْمان فعَجِبَ، وجعلَ ينظرُ يَميناً وشِمالاً مُستخفياً، ثُم ذهبَ إلى الباب الثاني فرأى عليه كذلكَ، فخُيِّلَ إليه أنَّ المدينةَ ليست بالتي كانَ يعرفُ.

ثُم رأى أناساً كثيراً يتحدَّثون لَم يكن يراهم قبلَ ذلك، فخُيِّلَ إليه أنه حيرانٌ، وجعل يقولُ لعلَّ هذه غشيةٌ، ثُم سَمع الناسَ يتحدَّثون بحديثِ أهلِ الإسلام،

ويحلِفُون بالله، ويذكرون عيسَى بن مريَم، فقال: لعلَّ هذه مدينةٌ أخرى، فقام كالحيران، فرآهُ إنسانٌ فسألَهُ ما هذه المدينة؟ فقالَ: هذه أفسوسُ، فقال: ذاهبُ العقل.

ثُم دخلَ السُّوق ليشتري طَعاماً فأخرجَ الوَرقَ الذي معهُ فأعطاها رَجُلاً وقال: بعنِي بهذه طعاماً، فعجِبَ الرجلُ من نقشِها وضربها، ثُم أعطاها رجلاً مِن أصحابهِ لينظرَ إليها، ثُم جعلوا يتطارحونَها بينَهم من رجلٍ إلى رجل، فقالوا: هذا أصابَ كنْزاً من كُنوز الأوَّلين، فإما أنْ تُشاركنا فيه، وتُخفِي أمركَ وإلاَّ سلَّمناك إلى السُّلطان يقتلُكَ؟

فقال في نفسهِ: قد وقعتُ في الذي كنت احذرُ منه، فجعل يَمليخا لا يدري ما يقولُ لَهم، وفَزِعَ حتى أنهُ ما أطاقَ يخبرهم بشيءٍ، فلمَّا رأوهُ لا يتكلَّمُ أشاعوا خبرَهُ، وجعلوا يقودونَهُ في سِكَكِ المدينة وهم يقولون: هذا رجلٌ وجدَ كنْزًا، فاجتمعَ عليه أهلُ المدينة فجعلوا ينظرونَ إليه ويتعجبون، ويقولون: ما هذا الرجلُ مِن أهل المدينة، وما رأيناهُ فيها قط ولا نعرفهُ ؟ ولو قال لَهم: أنا مِن هذه المدينة لَم يصدِّقوه، وكان متيقّناً أنَّ أباهُ وإخوته في المدينةِ، وأنه يسألونه مِن جملةِ الناس إذا سَمعوا بخبرهِ.

ثُم إنَّهم انطلقُوا به إلى رئيسِ المدينة ومدبري أمرها وهما رجلان صالحان، اسمُ أحدهما آرنوس والآخر أسطوس، وظنَّ يَمليخا حين مَضَوا به أنَّهم يَمضون به إلى دقيانوس، فرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقال: اللَّهُمَّ إلهَ السماءِ والأرض أفْرِغِ اليومَ عليَّ صبراً، وأولِج معي رُوحاً تؤيِّدُنِي به عندَ هذا الجبَّار.

فلما انتهوا به إلى الرَّجُلين الصالحين سَكَنَ خوفهُ، فأخذ الرجلان الوَرقَ، فنظرا إليه وعَجِبَا منهُ، وقالاَ: يا فَتى أينَ الكَنْزُ الذي وجدتَهُ؟ هذا الوَرقُ يشهدُ عليكَ أنك وجدت كَنْزاً، فقال يَمليخا: واللهِ ما وجدتُ كَنْزاً، ولكن هذا وَرقُ آبائي، ونقشُ هذه المدينة وضربُها، ولكن لا أدري ما شأنِي ولا أدري ما أقولُ لكم.

فقال أحدُهما: مِمن أنتَ ؟ فقال: أمَّا أنا فكنتُ أرى أنِّي مِن أهلِ هذه المدينة، فقال لهُ: مَن أبوكَ؟ ومَن يعرفُكَ بها؟ فأتاهم باسمِ لأبيه فلم يعرفوهُ، فقال لهُ أحدهما: أنتَ رجلٌ كذاب لا تُخبر بالحقِّ، فلم يدر يَمليخا ما يقولُ، فقال رجلٌ: هذا

مجنونٌ، وقال آخرُ: إنه ليس بمجنون يجُنُّ نفسَهُ حتى تطلقوهُ، ونظرَ اليه آخر شِزْراً وقال: أتظنُّ أنَّا نصدِّقُكَ ونطلِقُكَ؟ فإن هذه الوَرقَ لضربةُ أكثرُ من ثلاثمائة سنةٍ، وأنت غلامٌ شاب وليس عندنا مِن هذا الضرب درهمٌ ولا دينار.

فقال يَمليخا: أتعرفُونَ شيئاً أسألُكم عنه؟ قالوا: سَلْ؛ قال: ما فعلَ دقيانوس، قالوا لا نعرفُ اليومَ على وجه الأرضِ ملكٌ يسمَّى دقيانوس، ولَم يكن إلاّ ملكٌ قد هَلَكَ منذُ زمان طويلٍ، وهلكَتْ بعده قرونٌ كثيرة، فقال يَمليخا: واللهِ لقد كُنا فِتْيَةً وإنهُ أكرَهَنا على عبادةِ الأوثان، فهربنا منهُ عشيَّةَ أمس فنِمْنَا، فلما انْتَبَهْنَا خرجتُ لأشتريَ لأصحابي طعاماً وأتجسَّسُ الأخبارَ، فإذا أنا كما تَرَوْنَ، فانطلِقُوا معي إلى الكهفِ أريكم أصحابي.

فلما سَمع أرنوس ما يقولُ يَمليخا قالَ: يا قومِ لعلَّ هذا آيةٌ من آياتِ اللهِ جعلَها اللهُ لنا على يدَي هذا الفتى، فامْضُوا بنا معهُ يُرينا أصحابَهُ. فمَضَوا معَهُ ومضى جميعُ أهلِ المدينة، فلمَّا سَمع الفتيةُ الذين في الكهفِ الأصواتَ وجَلَبَةَ الخيلِ مصعدة نحوهم، وقد كان أبطأ عليهم يَمليخا، ظنُّوا أنه دقيانوس جاءَ في طلبهم، فسبقَ يَمليخا القومَ وجاءَ إليهم فسألوهُ عن شأنهِ فأخبرَهم بالخبرِ كله، فعرفوا أنَّهم كانوا نِيَاماً بأمرِ الله ذلك الزَّمان كله، وإنَّما أوْقِضُوا؛ ليكونُوا آيةً للناس وتصديقاً للبعثِ، وليعلمُوا أنَّ الساعةَ لا ريبَ فيها، فلما فَرَغَ يَمليخا من كلامهِ قَبَضَ اللهُ رُوحَهُ وأرواحَهم، وعَمِيَ على أولئكَ القومِ بابُ الكهفِ فلم يهتدوا إليه[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ ؛ أي اذْكُرْ لقومِكَ إذْ أوَى الْفِتْيَةُ يعني الشباب ؛ ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ ؛ ننْجُوا بها مِن قومنا، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ ، أي اجْعَلْ لنا طريقاً ومَخرجاً يوفِّقنا إليكَ، وارشِدْنا إلى ما يقرِّبنا إليكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي أنمناهُم في الكهفِ سنين معدودةً وهم أحياء يتعشَّون، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ ؛ أي

(١) أخرج الطبري قصة أصحاب الكهف في جامع البيان: النصوص(١٧٢٦٨-١٧٢٧٣).

أيقظناهم من نومهم؛ ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾؛ أي ليعرف غيرُهم أنه ليس فيهم من يعرفُ مقدارَ السِّنين التي نَاموا فيها؛ والمرادُ بأحدِ الحِزْبَين: الفتيةُ، والآخرُ ناسُ ذلك الزمانِ، وقيلَ: أراد بأحدِ الحزبين: المؤمنينَ، والحزبُ الآخر: الكافرين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي نُبيِّنُ لكَ خبرَهم بالصِّدق؛ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾؛ أي شبابٌ؛ ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾؛ أي ثبَّتْناهُمْ على الإيْمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ﴾؛ أي ألْهمْنَا قلوبَهم الصبرَ، وشجَّعناها حين قاموا بحضرة الكفَّار؛ يعني بين يَدَي دقيانوس الذي كان يَفْتِنُ أهلَ الإيْمان حتى قالوا بين يديه؛ ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي كَذِباً وجُوراً، والمعنى إنْ عَبَدْنَا غيرَ الله ودَعوْنَا معهُ إلَهاً آخر، قُلْنا قَوْلاً ذا شَطَطٍ؛ أي مُتَجَاوزاً للحقِّ في غايةِ البُطلان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ أي قالُوا: هؤلاء قومُنا عَبَدُوا مِن دون الله؛ ﴿ءَالِهَةً﴾؛ أي عبدُوا الأصنامَ؛ يَعْنُونَ الذين كانوا في زَمَنِ دقيانوس، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾؛ أي هَلاَّ يأتون على عبادتِهم لَها ببُرْهَانٍ واضحٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾؛ أي فمَنْ أظلمُ لنفسهِ مِمن اختلقَ على اللهِ كَذِباً بأن جعلَ معه شريكاً في العبادةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ، قيلَ: إن القائلَ بهذا يَمليخا وهو رئيسُ أصحاب الكهف؛ قال لأصحابهِ: إذ فارقْتُموهم وتَنَحَّيْتُمْ عنهُم جانباً؛ أي عن عبادةِ الأصنام ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾، وهذا آخرُ الكلام ثُم قال: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ يعني إلاَّ الله فلا تعتزلوهُ أي فلا تعتزلوا عبادتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾؛ أي فصيرُوا إلى الكهفِ، واجعلوهُ مأواكم؛ ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾؛ أي يبسطْ لكم؛ ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ نعمتهِ؛

﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ ما تَرْفِقُونَ به هناك في معايشِكم يكون مخلَصاً لكم مِن ظُلم هؤلاء الكفَّار. قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: وَيُسَهِّلْ عَلَيْكُمْ مَا تَخَافُونَ مِنَ الْمَلِكِ وَظُلْمِهِ). يقال: فيه (مَرْفَقاً) بكسر الميم وفتح القاف، وفتحِ الميم وكسرِ الفاء، وكذلكَ في مِرفق اليدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، قرأ أهلُ الكوفة (تَزَاوَرُ) بالتخفيف على حذفِ إحدَى التَّائين، وقرأ أهلُ الشام ويعقوبُ (تَزْوَرُّ) بوزن تَحْمَرُّ، وكلُّها بمعنى واحد أي تَمِيلُ، وفيه بيانُ أن الكهفَ الذي أوَوا إليه كان بابهُ نحوَ القُطْب الذي يقربُ بباب نعشٍ، وكانت الشمسُ تَطْلُعُ مزوارةً على باب الكهف عند الطلوعِ وعند الغروب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ ؛ أي ناحيةَ اليمين، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ ؛ أي تَعْدِلُ عنهم. قال الكلبيُّ: (إذا طَلَعَتْ مَالَتْ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ يَمِينِ الْكَهْفِ، وَإذا غَرَبَتْ تَمُرُّ بهِمْ ذاتَ الشِّمَال يَعْنِي شِمَالَ الْكَهْفِ لاَ تُصِيبُهُ، وَكَانَ كَهْفُهُمْ فِي أرْضِ الرُّومِ، أعْلَمَ اللهُ أنَّهُ يُمِيلُ عَنْهُمْ الشَّمْسَ طَالِعَةً وَغَاربَةً، لاَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فَتُؤْذِيَهُمْ بحَرِّهَا وَتُغَيِّرَ ألْوَانَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ أي في مُتَّسعٍ من الكهفِ، هَيَّأ اللهُ لَهم مكاناً واسعاً لا يصيبُهم فيه حَرٌّ ولا سَمومٌ، ولا يتغيرُ لَهم ثوبٌ ولا لون ولا رائحةٌ، ولكن كان ينالُهم فيه نسيمُ الرِّيح وبردُها. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمَال) القَرْضُ من قولِهم: قَرَضْتُهُ بالْمِقْرَاضِ؛ إذا قَطَعْتُهُ، كأنهُ قال: تقطعُهم ذاتَ الشمالَ. وَقِيْلَ: تعطيهم اليسيرَ مِن شُعاعها عند الغروب، كأنه شبَّهَهُ بقرضِ الدراهم التي تُعطى ثُم تستردُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي إبقاؤُهم طولَ السنين التي ذكرَها اللهُ نياماً لا يستطيعون يستيقظون من دون طعامٍ ولا شَراب، ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ ظاهر المعنى.

قولهِ تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ ؛ تظنُّهم يا مُحَمَّدُ منتبهين وهو نائمونَ، وإنَّما كان يحسبُهم الرَّائي منتبهينَ؛ لأنَّهم كانوا نياماً وهم مفتوحُو الأعيُنِ، وكانوا يتنفَّسُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ؛ قرأ الحسنُ (وَنُقْلِبُهُمْ) بالتخفيفِ، والمعنى نقلبُهم تارةً عن اليمينِ إلى الشمال؛ وتارةً عن الشمال إلى اليمين، كما نقلبُ النائمَ؛ لئَلاَّ تأكُلَ الأرضُ أجسامَهم. ذكرَ قتادةُ: (أنَّ لَهُمْ فِي عَامٍ تَقْلِيبَيْنِ)[1]، وعن ابنِ عبَّاس: (فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ ؛ أي على باب الفجوة أنامَهُ الله كذلكَ، والوَصِيْدُ مِن قولِهم: أوْصَدْتُ البَابَ، وأصَدْتُهُ إذا أغلقتهُ، وقد يقالُ لذلكَ الأصِيْدُ أيضاً، وقِيْلَ: الوَصِيْدُ فناءُ الكهفِ. وقال سعيدُ بن جُبير: (الْوَصِيْدُ: التُّرَابُ)[2]. وقال السديُّ: (الْوَصِيْدُ: الْبَابُ). وقال عطاءُ: (عَتَبَةُ الْبَاب).

وكان لونُ الكلب أحمرَ، كذا قال ابنُ عبَّاس، وقال مقاتلُ: (كَانَ أصْفَرَ يَضْرِبُ إلَى الْحُمْرَةِ) وقِيْلَ: كان كلونِ الحجَرِ، وقِيْلَ: كلونِ السَّماء. قال عليٌّ ﷺ: (كَانَ اسْمُهُ رَيَّان). وقال ابنُ عبَّاس: (قِطْمِيْرُ)[3]. وقال سفيانُ: (اسْمُهُ حِمْرَانُ). وقال عبدُالله بن سلام: (اسْمُهُ نُشَيْطٌ). روي عن بعضِهم أنه مما أخذ على الكلب أن لا يضرَّ بأحدٍ يقرأ: وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالْوَصِيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ ؛ أي لو اطَّلَعْتَ عليهم يا مُحَمَّدُ لَوَلَّيْتَ منهم فِراراً لِما ألبَسهم اللهُ تعالى من الْهَيْبَةِ حتى لا يصلَ اليهم أحدٌ حتى يبلغَ الكتابُ أجَلَهُ فيهم وينتبهوا من رقدتِهم. وقِيْلَ: لأنَّهم كانوا في مكان مُوحِشٍ من الكهفِ، وقِيلَ: لأن أعيُنَهم مفتحةً كالمستيقظ الذي يريدُ أن يتكلَّمَ وهم نيامٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٢٩٤).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٣٠٢).

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٧٠.

وعن ابنِ عبَّاس قال: (غزَوْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ نَحْوَ الرُّومِ فَمَرَرْنَا بالْكَهْفِ الَّذِي فِيهِ أصْحَابُ الْكَهْفِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْ كَشَفَ لَنَا عَنْ هَؤُلاَءِ فَنَظَرْنَا إلَيْهِمْ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ لَكَ؛ قَدْ مَنَعَ اللهُ ذلِكَ عَنْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَالَ: لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً؛ ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لاَ أنْتَهِي حَتَّى أعْلَمَ عِلْمَهُمْ، فَبَعَثَ أنَاساً فَقَالَ: اذْهَبُوا وَانْظُرُوا، فَفَعَلُوا فَلَمَّا دَخَلُوا الْكَهْفَ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِيحاً فَأَخْرَجَتْهُمْ مِنَ الْكَهْفِ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي وكذلك أيقظناهُم، كما أنمناهُم ليتحدَّثوا ويسألوا بعضَهم بعضاً، ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ وهو رئيسُهم وسُمِّي مكسلميا: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ ؛ في نومِكم في الكهفِ؛ ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا ﴾ ؛ فلما نظرُوا إلى الشَّمسِ، وقد بَقِيَ منها شيءٌ؛ قالوا: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ؛ تَوَقِّياً من الكذبِ، فلما نظرُوا إلى أظفارهم وأشعارهم علموا أنَّهم لبثُوا أكثرَ من يومٍ؛ فـ؛ ﴿ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ؛ أي فابعثوا يَمليخا، والوَرِقُ الفِضَّةُ مضروبةً كانت أو غيرَ مضروبةٍ، وأما المدينةُ فهي أفسوس، وَقِيْلَ: طرسوسُ، كان اسمُها في الجاهليةِ: أفسوس، فلما جاءَ الإسلامُ سَمَّوها طرسوسُ. ومعنى الآيةِ: فابعثُوا أحدَكُم بدراهمكم هذه إلى السُّوقِ؛ ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ ؛ أي أحَلُّ ذِبْحَةً؛ لأن عامَّتَهم كانوا مَجُوساً، وفيهم مؤمنون يُخفون إيمانَهم، وَقِيْلَ: أطيبَ خبزاً وأبعدَ عن الشُّبهة، لأن مَلِكَهم كان يظلمُ الناسَ في طعامهم، وكانوا يحسبون أن ملكَهم دقيانوس الكافرُ. وقال عكرمةُ معناه: (أكْثَرَ وَأفْضَلَ) في معنى أنَّ الزكاةَ هو الزيادةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ ؛ أي بقوتٍ وطعام. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أي يتوقَّف في الذهاب والْمَجيءِ، وفي دخولِه المدينة حتى لا تعرفَهُ الكفارُ؛ ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أي لا يخبرنَ أحدٌ من أهلِ المدينة بمكانكم.

---

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ١٢ ص٤٤٨. وهو في معالم التنزيل: ص٧٧٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ ؛ أي إنهم إنْ علِمُوا مكانكم رجمُوكُم بالحجارةِ حتى يقتلوكم، وَقِيْلَ: يشتموكُم ويؤذوكم، وكان من عادتِهم القتلُ بالرَّجم وهو أخبثُ القتل. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ ؛ أي إلى دِينهم وهو الكفرُ؛ ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ إن عُدْتُمْ إلى دِينهم، ولَم تظفرُوا الخيرَ في الدُّنيا والآخرة.

فإن قيلَ: أليسَ لو أكرهوهم، وأظهرُوا الكفرَ لَم يكن في ذلك مَضرَّةٌ عليهم ؟ قِيْلَ: يجوزُ أنه لَم يكن في شريعةِ الإسلام جوازُ إظهار كلمة الكفر على وجه التُّقيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ؛ أي أطْلَعْنَا عليهم، وذلك أنَّهم لَمَّا بَعَثُوا بورقِهم على يدِ يَمليخا ومضَى إلى السُّوق، فإذا ملكُهم مسلمٌ قد أظهرَ علامات الإسلامِ فتعجَّبَ من تغيُّرِ الأمرِ، وقال لخبَّاز: بعني من طعامِكَ بهذا الوَرَق، فلما رأى الخبازُ دراهمَه أنكرَها وقال: مِن أينَ لك هذه وقد ضُربت منذ ثلاثِمائة سنةٍ ؟ فإما أن تعطيَني من هذا الكَنْزِ، أو أرفعُكَ إلى الْمَلِكِ ؟ فأنتَ وجدْتَ كَنْزاً.

فحملَهُ إلى الملكِ فلم يجدْ بُداً من أن يذكرَ للملكِ قصَّتَهم، فجاءَ الناسُ معهُ إلى باب الكهف، فدخل هُوَ قَبْلَهم، وأخبرَ أصحابَهُ بأنَّ الملِكَ أتاهُم إذ ظهرَ القومُ عليهم فسألوهُ عن أمرهم، فقَصُّوا عليهم قصَّتَهم، فنَظَرُوا فإذا اللوحُ الرَّصاصُ وفيه أسماؤُهم وفرارُهم من دقيانوس.

فقالَ الملكُ: هؤلاء قومٌ هلَكُوا في زمان الكافر، فأحياهُم اللهُ في زمانِي، وحَسَبُوا المدَّةَ، فوجدُوها ثلاثمائة سنةٍ وتسعَ سنين، فبينا هم كذلكَ يحدِّثونَهم إذ دخلُوا المكانَ، وقد ضربَ اللهُ على آذانِهم بالنَّومِ، هكذا رويَ عنِ ابن عبَّاس.

وذهبَ عكرمةُ إلى أنَّ القومَ دخلُوا المكانَ وقد ضربَ اللهُ على آذانِهم، فهذا معنى قولهِ (وَكَذَلِكَ أعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) وقولهِ تعالَى: (لِيَعْلَمُوا أنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ) أي ليعلمَ الملكُ وقومه وغيرُهم أن البعثَ بعد الموتِ كائنٌ، ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ﴾ ؛ القيامة، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ ؛ لا شك فيها.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ؛ قِيلَ: كان التنازعُ في أنْ قالَ بعضُهم لبعضٍ إنَّهم قد ماتوا في الكهفِ، وقال بعضُهم: بل ناموا كما ناموا مِن قبلُ، وسيوقظُهم اللهُ من بعد.

وَقِيلَ: كانوا يتنازعون في البناءِ كما قالَ تعالَى: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ ؛ أي قال بعضُهم: نَبْنِي عليهم بُنياناً كما تُبْنَى المقابرُ؛ كي يستُرُوهم عن الناسِ، وقال بعضُهم: بل نَبْنِي في هذا الموضعِ مَسْجِداً يُعْبَدُ اللهُ فيه، وهو قولُ الذين غَلَبُوا على أمرِهم وهم رؤساؤهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ ؛ أي أعْلَمُ بلَبْثِهِمْ ورُقادِهم وأحوالِهم؛ لأنَّ قومَ الملكِ تنازَعُوا في قدر مَكْثِهم في الكهفِ، وفي عددهم وفي ما يفعلونَ بعدَ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ؛ أي وذلكَ أنَّ أهلَ الكتاب الذين سألُوا رسولَ اللهِ ﷺ عن أهلِ هذه الصفةِ يختلفون في عددِهم. رويَ أنَّ السيدَ والعاقبَ وأصحابَهما من النَّصارَى وأهلِ نجرانَ كانوا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، وذكروا أصحابَ الكهفِ، فقال السيدُ: كانوا ثلاثةً رابعُهم كلبُهم، وقال العاقبُ: كانوا خمسةً سادسُهم كلبهم، ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ ؛ أي ظَنّاً من غيرِ يقينٍ كأنَّهم يرجُمون بالغيب بالقول فهُمْ بالغيبةِ عنهم، وقال المسلمون: كانوا سبعةً وثامنُهم كلبُهم. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

وقال بعضُهم: هذه الواوُ واو الثَّمانية، وذلك أن العربَ تقولُ: واحدٌ اثنان ثلاثةٌ أربعة ستَّة سبعة وثمانية؛ لأن العددَ عندهم سبعةٌ، كما هو اليومُ عندنا عشرة، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1] وقولهُ في صفةِ أهلِ الجنَّة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[2] وقولهُ في أزواجِ النبيِّ ﷺ ﴿وَأَبْكَارًا﴾[3].

---

(١) التوبة / ١١٢ . (٢) الزمر / ٧٣ .

(٣) التحريم/ ٥ . في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨٢؛ قال القرطبي: ((وقالت فرقة منها ابن خالويه: هي (واو) الثمانية. وحكى الثعالبي عن أبي بكر بن عياش: أن قريشاً كانت تقول في=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ ؛ أي قُل ربي أعلمُ كَمْ كان عددُهم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ ؛ عَنَى بـه رسولَ اللهِ ﷺ؛ لأنه تعالى أخبرَهُ بعدَّتِـهم، وأمـرَهُ أن لا يُمَـار في معرفـةِ مَـن أدَّعى عددَهم إلاّ بأن بيَّن لهُ أنه يقولهُ بغيرِ حُجَّةٍ، ولا خبرَ عنده مـن اللهِ، فـإنَّ هـذا العلـمَ ليس عند أهلِ الكتاب، وهذا هو المرادُ الظاهر.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي لا تَستَفْتِ في أصحاب الكهف من اليهود وأهـل الكتـاب أحـداً، فالخطـابُ للنبـيِّ ﷺ، والمرادُ به أمَّتُهُ، فإنهُ مستغنياً بإخبار الله إياه عن أن يستفْتِيهم. وعن ابن عبَّاس أنهُ قال: (أنَا مِنَ الْقَلِيْلِ الَّذِي يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ كَانُوا سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ)[1]، وَإنَّمَا عَرَفَهُ سَـمَاعاً مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أي لا تَقُلْ إنِّي فاعلٌ شيئاً حتى تَقْرُنَ به قولَكَ إنْ شاءَ اللهُ، فلعلَّكَ لا تبقـى إلى الغدِ، ولا تقدرُ عليه من الغدِ.

قال المفسِّرون: لَمَّا سألَ اليهودُ النبيَّ ﷺ عن خبرِ الفِتْيَـةِ وَعَدِهُـمْ أن يُخـبِرَهُمْ غداً، ولَم يقُلْ إن شاءَ اللهُ، فحُبسَ عنه الوحيُ حتى شُقَّ عليه، وأنزلَ هذه الآية يأمرهُ بالاستثناءِ بمشيئة اللهِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ: (مَعْنَـاهُ إذا نَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ ثُمَّ ذكَرْتَهُ فَاسْتَثْنِ)، وقال سعيدُ بن جبير: (إذا قُلْـتَ لِشَـيْءٍ: إنِّـي فَاعِلُهُ غَداً؛ وَنَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ بمَشِيْئَةِ اللهِ، ثُمَّ تَذكَّرْتَ، فَقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ، وَإنْ كَانَ بَعْـدَ يَوْمٍ أوْ بَعْدَ شَهْرٍ أوْ سَنَةٍ).

=عددها: ستة سبعة وثمانية، فتدخل الواو في الثمانية. وحكـى نحـوه القفـال فقـال: إن قومـاً قـالوا العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنفت خبر آخر بإدخال الواو)).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٣١٩). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٧٥؛ قال السـيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق والفريابي وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق)).

(٢) قاله الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص٢٨٥.

وعن ابنِ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: إذا حَلَفْتَ عَلَى شَيْءٍ وَنَسِيْتَ الاسْتِثْنَاءَ، ثُـمَّ ذَكَـرْتَ فَاسْتَثْنِ مَكَانَكَ وَقُلْ: إنْ شَاءَ اللهُ وَلَوْ كَانَ إلَى سَنَةٍ مَا لَمْ تَحْنَـثْ)(١). وقـال الحسـنُ: (لَهُ أنْ يَسْتَثْنِيَ فِي الْيَمِيْنِ مَا لَمْ يَقُمْ مِنَ الْمَجْلِسِ).

وقال إبراهيـمُ وعطـاء والشـعبيُّ: (لاَ يَصِـحُّ الاسْـتِثْنَاءُ إلاَّ مَوْصُـولاً بـالْكَلاَمِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذا الْقَوْلِ: وَإذا ذكَرْتَ إذا نَسِيْتَ شَيْئاً فَادْعُ اللهَ حَتَّـى يُذكِّـرُكَ). وقال عكرمةُ: (مَعْنَاهُ: وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا غَضِبْتَ).

قال وهبُ: (مكتوبٌ في الإنجيلِ: يا ابنَ آدمَ اذكرنِي حين تغضبُ أذكُـرْكَ حـين أغضبُ). وقال الضحَّاك والسُّدي: (هَذا فِي الصَّلاَةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: [مَنْ نَسِيَ صَـلاَةً أوْ نَامَ عَنْهَا؛ فَلْيُصَلِّهَا إذا ذكَرَهَا])(٢).

قَوْلُـــهُ: ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ أي قُلْ عسى أن يعطيَنِي ربي مِن الآيـات والـدلالاتِ علـى النبـوَّة مـا يكـونُ أقـربَ في الرَّشد، وأدلَّ من قصَّة أصحاب الكهف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ يعني مِن يوم دخلُوا الكهفَ إلى أنْ بعثَـهم اللهُ وأطْلَـعَ عليـهم الخلـقَ. قـال الفـرَّاء(٣) والزجَّاج والكسائيُّ: (التَّقْدِيْرُ: سِنِيْنَ ثلاَثمِائَةٍ؛ لأنَّ التَّفْسِيْرَ لاَ يَكُونُ بلَفْـظِ الْجَمْـعِ). وقال أبو عليٍّ الفارسي: (سِنِيْنَ بَدَلٌ مِـنْ ثلاَثمِائَـةٍ). وقـرأ حمـزةُ: (ثلاَثمِائَـةِ سِنِيْنَ) مُضَافَةً غير مُنَوَّنَةٍ. وقال الضحَّاكُ: (نَزَلَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: وَلَبثُـوا فِـي كَهْفِـهِمْ ثلاَثمِائَـةٍ، فَقَالُوا: أيَّاماً أوْ شُهُوراً أوْ سِنِيْنَ؟ فَقِيْلَ: سِنِيْنَ) ولذلكَ لَم يقُلْ سنة(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (١٧٣٢٩). وفي الـدر المنثور: ج ٥ ص٣٧٧؛ قـال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحـاكم وابن مردويه)).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٨٢. والبخاري في الصحيح: كتاب مواقيت الصلاة: باب من نسي صلاة: الحديث (٥٩٧) عن أنس.

(٣) في معاني القرآن: ج٢ ص١٣٨؛ قال الفراء: ((وقرأ كثير من القراء (ثلاَثمِائَـةِ سِنِينَ) يريـدون: لبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة فينصبونها بالفعل)).

(٤) أخرجه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٧٣٣٩). وفي الـدر المنثـور: ج ٥ ص٣٧٩؛ قـال=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ ؛ أي لقَدْرِ ما لبثوا؛ ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ؛ أي لهُ العلمُ بكلِّ مستورٍ عن الخلق في السَّموات والأرض وفي قعرِ البحار. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ ؛ أي اذْكُرْ بذلكَ الناسَ فهو مِن خَفِيِّ صفاتهِ، وَقِيْلَ: معناهُ: ما أبصرَ اللهُ بكلِّ موجودٍ! وما أبصرَهُ بكلِّ مسموعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ ؛ أي ما لأهلِ السَّموات والأرضِ مِن دون اللهِ مِن وليٍّ ولا ناصرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ ؛ أي لا يشركُ في حُكمهِ أحداً غيرَهُ. وقرأ ابنُ عامرٍ: (وَلاَ تُشْرِكْ) على المخاطبةِ؛ أي لا تُشْرِكْ أيُّها الإنسانُ على النَّهي[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ؛ أي اقْرَأ عليهم القُرْآنَ وعرِّفْهم أنهُ الحقُّ؛ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ؛ ولا خَلَفَ لخبرهِ ولا مغيِّرَ لهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ ؛ أي مَلْجَأً أو مَعْدَلاً تهربُ إليه، مِن قولِهم: لَحَدْتُ إلَى كَذا؛ إذا مِلْتَ إليه، ومنهُ اللَّحْدُ؛ لأنهُ يُمال بهِ إلى ناحيةِ القبرِ، ومنه الإلحادُ في الدِّين الْمَيلاَنُ عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ؛ نزلَتْ هذه الآيةُ في سَلمان الفارسيِّ وصهيب بن سِنان وعمَّار بن ياسر وخبَّاب وعامرِ بن فُهيرة وغيرِهم من الفقراءِ، كانوا عندَ النبيِّ ﷺ وكان مع سَلمان شَمْلَةٌ قد عرِقَ فيها إذ دخلَ عُيينة بن حصنٍ الفزاريِّ، فقال: يا مُحمَّدُ إنَّ رؤوسَ مُضَرَ وأشرافَها، وإنهُ واللهِ ما يَمنعُنا من الدُّخول عليكَ إلاَّ هذا - يعني سلمانَ وأصحابَهُ - ولو أنَّا إذا دخلنا عليكَ أخرَجْتَهم عنا لاتَّبعناكَ، إنه ليؤذِينا ريحُهُ أما يؤذيكَ ريحُهُ؟ فأنزلَ اللهُ في سلمان وأصحابهِ هذه الآيةَ[2]. ومعناها: واحبسْ نفسكَ أيُّها النبيُّ مع الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وتعظيمَهُ.

=السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم).

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٣٨٨، قال القرطبي: (وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رجاء وقتادة والجحدري: (وَلاَ تُشْرِكْ) بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبي ﷺ).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص٢٠١. وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٨٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بريدة)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ ؛ أي لا تَصْرِفْ بصرَكَ عنهم لفقرِهِم إلى غيرهم من ذوي الهيئاتِ والزِّينة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ أي مجالسةِ أهل الشَّرف والغِنَى (تريدُ) ههنا في موضعِ الحال أي مُريداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يريدُ عُيَيْنَةَ وأبناءَهُ، أي لا تطِعْهم في تنحيةِ الفُقَراءِ عنكَ ليجلسوا إليك، ومعنى: (أغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) أي جعلنَاهُ غافلاً عن القرْآن والإسلام. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَكَانَ أمْرُهُ فُرُطاً) أي ضَيَاعاً وندَماً، وَقِيْلَ: هلاكاً، وَقِيْلَ: مُخالفاً للحق، وَقِيْلَ: بَاطلاً، وَقِيْلَ: معناه: ضَيَّعَ أمرَهُ وبطلَ أيامه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ؛ أي قُلِ القُرْآنُ والدلالاتُ على وحدانيَّة الله ونبوَّة رسولهِ هو الحقُّ من ربكم، و(الحقُّ) مرفوعٌ على الحكايةِ، وَقِيْلَ: خبرُ مبتدأ مُضمَرٍ؛ أي هو الحقُّ، والمعنى: وقُلْ يا مُحَمَّدُ لِهؤلاء الذي أغفَلْنا قلوبَهم عن ذِكرنا: أيُّها النَّاس الذي أنذركم به (الْحَقُّ مِنْ رَبِكُمْ)، لَم أتكلَّمْ به مِن قِبَلِ نفسِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ؛ تهديدٌ بلفظِ الخبر، والمعنى: فمَن شاءَ فيؤمن، ومن شاء فيكفرُ، ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ؛ فقد أعدَّ لكم ناراً على كُفركم أحاطَ بكم سرادقها؛ قال ابنُ عبَّاس: (السُّرَادِقُ: حَائِطٌ مِنَ النَّار يُحِيْطُ بهِمْ).

وَقِيْلَ: دخانٌ يحيطُ بهمْ قَبْلَ أن يَصِلُوا إلى النار. وعن أبي سعيدِ الخدريِّ قال: (سُرَادِقُ النَّار أرْبَعَةُ جُدُر، غِلَظُ كُلِّ جِدَار مَسِيْرَةُ أرْبَعِيْنَ سَنَةً، فَهَذِهِ الْجُدُرُ مُحِيْطَةٌ بهِمْ)[1]. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الآيَةِ: فَمَنْ شَاءَ اللهُ لَهُ الإيْمَانَ آمَنَ، وَمَنْ شَاءَ لَهُ الْكُفْرَ كَفَرَ).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند مرفوعاً إلى النبي ﷺ: ج ٣ ص٢٩. وكذا رواه الترمذي في السنن: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار: الحديث (٢٥٨٤). والحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: الحديث (٨٨١١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ ؛ معناهُ: وإنْ يستغيثُوا من شدَّة الحرارةِ يُغاثوا بماءٍ كَعكَرِ الزَّيت[1] أسودَ غليظ، وَقِيْلَ: إن الْمُهْلَ هو الصُّفْرُ المذابُ، ويقالُ: هو القيحُ والدم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ ؛ أي إذا قَرُبَ البشر منه أنضجَ الوجهَ بحرارتهِ، وأسقطَ فَرْوَةَ وجههِ ولحمَهُ فيه، ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ ﴾ ؛ النارُ؛ ﴿ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي ساءَتْ مُتَّكأً لَهم، مأخوذٌ من المرْفَق؛ لأنَّهم يتَّكِؤنَ على مرافِقِهم، وَقِيْلَ: معناهُ: وساءَتْ مَنْزلاً ومَقرّاً، وَقِيْلَ: مُجتمعاً مأخوذٌ من المرافقةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يبطلُ ثوابُ من أخلصَ للهِ، ويجوزُ أن يكون معناهُ: إنا لا نضيعُ أجرَ مَن أحسنَ منهم، بل يجازيهم.

ثُم ذكرَ جزَاءَهُمْ فقالَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ أي بساتينُ إقامةٍ، وقد ذكرنا صفاتِ جنَّات عَدْنٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ؛ أي يُلْبَسُونَ في الجنَانِ ذلك.

قال الزجَّاج: (أسَاوِرُ: جَمْعُ أسْورَةٍ، وَأسْورَةٌ جَمْعُ سِوَارٍ)[2]؛ وَهُوَ زِيْنَةٌ يُلْبَسُ فِي الزَّنْدِ مِنَ الْيَدِ، مِنْ زِيْنَةِ الْمُلُوكِ يُسَوَّرُ فِي الْيَدِ وَيُتَوَّجُ عَلَى الرَّأسِ. قال ابنُ جبير: (عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ مِنَ الأَسَاوِرِ، وَاحِدٌ مِنْ فِضَّةٍ وَوَاحِدٌ مِنْ ذهَبٍ وَوَاحِدٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَيَاقُوتٍ).

وعن النبيِّ ﷺ أنهُ قال: [لَوْ أنَّ أدْنَى أهْلِ الْجَنَّةِ حِلْيَةً عُدِلَتْ حِلْيَتُهُ بِحِلْيَةِ أهْلِ الدُّنْيَا جَمِيْعِهَا لَكَانَ مَا يُحَلِّيْهُ اللهُ بِهِ فِي الآخِرَةِ أفْضَلَ مِنْ حِلْيَةِ أهْلِ الدُّنْيَا جَمِيْعِهَا][3].

---

(١) الْعَكْرَةُ: بوزن الضَّرْبَةُ الكَرَّةُ، واعْتَكَرَ اختلطَ. والعَكَرُ بفتحتين: دُرْدِيُّ الزَّيتِ وغيرِهِ، وهو ما يبقَى في الأسفلِ.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٣١.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٨٧٣). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣٨٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في البعث عن أبي هريرة)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ؛ الْخُضْـرُ: جمـعُ أخضرَ، وهو أحسنُ ما يكون من الثِّياب، والسُّنْدُسُ: الدِّيْبَاجُ الرقيقُ الفـاخر، وَقِيْـلَ: هو الحريرُ؛ وواحدُ السُّندس سُنْدُسَةٌ، والاسْتَبْرَقُ الدِّيباجُ الغليظُ الذي له بريقٌ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ ؛ أي في الجنَـان؛ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ ؛ أي على السُّرُر في الْحِجَال وهي من ذهَبٍ مكَلَّلٍ بـالدُّرِّ واليـاقوت؛ ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ ﴾ ؛ جزاءُ أعمالِهم؛ ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي مُتَّكأً.

قَوْلُـهُ تَعَـــالَى: ﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ الآيـةُ، هـذا مثـلٌ ضَرَبَـهُ اللهُ لعبـادهِ؛ ليستدعيَهم إلى طاعتهِ، ويزجرَهم عـن كُفـران نعمتـهِ، والمعنـى: واضـربْ لَـهم مثـلاً رَجُلين.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا أخَوَيْنِ فِي بَنِي إسْـرَائِيْلَ؛ تُوُفِّـيَ أبُوهُمَـا وَتَـرَكَ ثَمَانِيَـةَ آلاَفِ دِيْنَار، وَكَانَ أحَدُهُمَا مُسْلِماً وَالآخَرُ كَافِراً، وَأصَـابَ كُـلُّ وَاحِـدٍ مِنْـهُمَا أرْبَعَـةَ آلاَفِ دِيْنَار، فَالْمُسْلِمُ أنْفَقَهَا فِي سَبيْلٍ حَتَّى أنْفَدَهَا فَـأوْجَبَ اللهُ لَـهُ الْجَنَّـةَ، وَالْكَـافِرُ اشْتَرَى بهَا بَسَاتِيْنَ، فَاحْتَاجَ الْمُسْلِمُ إلَيْهِ فَأتَاهُ يَتَعَرَّضُ إلَيْه. فَقَالَ لَهُ: أيْنَ مَالُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ: أنْفَقْتُهُ فِي سَبيْلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ الْكَافِرُ: لاَ أعْطِيْكَ حَتَّى تَتَّبعَ دِيْنِي، ثُمَّ أخَذ بيَدِ أخِيْهِ فَأدْخَلَهُ بَسَاتِيْنَهُ، وَجَعَلَ يَطُوفُ بهِ فِيْهَا وَيَقُولُ لَهُ: مَا أظُنُّ أنْ تَبيْـدَ هَـذِهِ أبَداً، فَذلِـكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أعْنَابٍ) أي جعلَ للكافرِ منهما بسـاتينَ مـن كُرُومٍ، وجعلَ حَوْلَ البساتينِ نَخيلاً وجعلنا بينَ البساتينِ زَرْعاً؛ أي يزرعهُ[1].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي كِـلا البساتين أخرجَتْ ثمرها ولَم تنقُصْ منه شيئاً كانْ ما أن يذهبُ صنفٌ مـن الثمـار إلاّ أثمرَ صنفٌ آخر، وإنَّما قال: آتَتْ؛ ولَم يقل آتَتَا؛ لأن المعنى أعطَتْ كـلُّ واحـدةٍ مـن الجنَّتين، ولفظُ كِلْتَا واحدةٌ؛ لأن الألِفَ في كلتا ليسَتْ ألِفَ تثنيةٍ، كأنه قالَ: كلُّ واحدةٍ منهُما آتَتْ أكُلها.

---

(١) ذكـره القرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٠ ص٣٣٩ و٤٠٠. وفي الـدر المنثـور: ج ٧ ص٩٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر عن عطاء)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي فجَّرنا وسطَ البساتين نَهراً نَسقيها، ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾؛ أي كان لِهذا الكافرِ ذهبٌ وفضة ومن كل المال، وقيل: من قرأ: (ثُمُرٌ) بضم الثاء، فمعناه صنوف من الأموال: الذهب والفضة وغيرهما، يقالُ: أثْمَرَ الرجلُ إذا كَثُرَ مالهُ. ومن قرأ بنصب الثَّاء كان معناهُ ثمرة البساتين، والأولُ هو الأقربُ لأن قولَهُ (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا) يدلُّ على الثِّمار، فاقتضَى أن يكون الثمرُ غير ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾؛ أي لأخيهِ المسلم؛ ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾؛ أي يراجعهُ بالكلامِ ويفاخرهُ: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ ﴾؛ يعني خَدَماً وحَشَماً وولداً، يتطاولُ بذلك على أخيهِ، ورأى تلك النعمةَ مِن قِبَلِ نفسهِ لا من قِبَلِ اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾؛ أي دخلَ الكافرُ بستانَهُ وهو ظالِم لنفسهِ بالكفر وتركِ الشُّكر؛ ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ أي ما أظنُّ أن تَفْنَى هذه أبداً. قال المفسِّرون: أخذ بيدِ أخيهِ المسلم فأدخلَهُ جنَّته، وطافَ به فيها، وأراهُ إياها وجعلَ يعجبه منها، ويقولُ ما أظنُّ أنْ تَفْنَى هذه أبداً، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾؛ أنكرَ البعثَ والثواب والعقابَ، وأخبرَ أخاهُ بكفرهِ وإنكاره للقيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾؛ يعني لَئِنْ كان البعثُ حقاً، ورُدِدْتُ إِلَى ربي على زعمِكَ لأجدنَّ في الآخرةِ خيراً منها مرجِعاً ومنْزِلاً، ولَم يعطِني اللهُ هذه في الدُّنيا إلاّ ولي عنده أفضلُ منها لكرامتِي عليه، فمعناه الجَنَّتَين التي تقدَّم ذِكرُهما[1]، وفي هذا بيانُ أن هذا الكافرَ لَم يكن قاطعاً لنَفْي الْمَعَادِ، ولكن كان شَاكّاً فيه، والشاكُّ في الْمَعَادِ كافرٌ.

---

(١) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٢ ص٤٨٨؛ قال ابن عادل: (معناه: ولئن رددت إلى ربي على زعمك، يعطيني هنالك خيراً منها. والسبب في وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لَمَّا أعطاه المال والجاه في الدنيا، ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقاً له؛ والاستحقاق باق بعد الموت، فوجب حصول الإعطاء، والمقدمة الأولى كاذبة؛ فإن فتح باب الدنيا على الإنسان، يكون في أكثر الأمر للاستدراج).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ ؛ أي أجابَهُ صاحبه المسلمُ مُنكراً بما قالَ وهو يخاطبهُ: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ ؛ أي بالذي خلقَ أصْلَكَ من ترابٍ؛ ﴿ ثُمَّ ﴾ ؛ خلقَكَ؛ ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ؛ أبيكَ؛ ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي أكْمَلَكَ وجعلَكَ معتدلَ الخلقِ والقامَةِ، وجعلكَ بشراً سوياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ ؛ معناهُ: أمَّا أنا فلا أكفرُ بربي، لكن هو اللهُ ربي؛ تقديرهُ: لَكِنْ أنا هو اللهُ ربي، وَقِيْلَ: فيه تقديمٌ وتأخير تقديرهُ: لكنَّ اللهَ هو ربي؛ أعلَمَ بذلك أخاهُ الكافر بأنه مُوَحِّدٌ مسلمٌ.

ومن قرأ: (لَكِنَّا) فالمعنى لكِنْ أنا[1]؛ إلاَّ أنهُ حُذفت الهمزةُ، وأبقيت حركتها على السَّاكن الذي قبلَها، فالتقى نُونَان فأُدغمت إحداهُما في الأخرى[2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ معناه: أنَّ المسلمَ قال للكافرِ: هَلاَّ قُلْتَ حين دخلتَ ما شاءَ اللهُ! أي الأمرُ بمشيئة اللهِ، وما شاءَ اللهُ كانَ يعني إنْ شاءَ اللهُ خرابَ هذه الجنَّة وإهلاكَها كان ذلك بمشيئة الله، ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لا يَقْوَى أحدٌ على ما في يدهِ من مُلْكٍ ونعمة إلاّ باللهِ، ولا يكون له ما شاءَ الله، ولا قوةَ في بدنهِ ومُلْكِهِ إلاّ باللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أن المسلمَ قال للكافرِ: إن كنتُ أنا أقلَّ منك مالاً وعشيرةً فأنا راضٍ بما قُسِمَ لِي، قَوْلُهُ تَعَالَى: (أقَلَّ) منصوبٌ؛ لأنه مفعولُ (ترَني). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (أنا) عمادٌ، ومَن قرأ (أقَلُّ) بالرفع فعلَى معنى (أنا) مبتدأ و(أقَلُّ) خبرٌ في موضعِ المفعول.

---

(١) في المخطوط: أدرج الناسخ حرف (إلاّ) ويبدو أنه وَهِمَ.

(٢) في إعراب القرآن: ج ٢ ص٢٩٥؛ قال ابن النحاس: ﴿لَّٰكِنَّا﴾ مذهب الكسائي والفراء المازني: أن الأصل (لكنْ أنا) فالقيت حركة الهمزة على نون (لكن)، وحذفت الهمزة، وأدغمت النون في النون. والوقف عليها (لَكِنَّا) وهي ألف أنا لبيان الحركة، ومن العرب من يقول: أنَهْ). وينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص١٤٤.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ ؛ أي لعلَّ الله يؤتيني في دار البقاء بُستاناً خيراً من بستانِكَ في الدُّنيا، ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ ؛ على بستانِكَ؛ ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي ناراً من السَّماء فتُحرقها، وسُمِّي العذابُ حُسْبَاناً على معنى أنه يرسل عليها بحساب ما كسبت يدك.

وقال النضرُ بن شميل: (الْحُسْبَانُ الْمَرَامِي) أي يرسلُ عليها مَرَامِي عذابهِ إما بردٌ، وإما حجارةٌ وغيرهما بما شاء مِن أنواع العذاب، ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي أرضاً ملساءَ لا نباتَ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ ؛ أي غائراً في الأرض يعني النهرَ الذي في خلالِها، ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي لا يَبْقَى لهُ أثرٌ يطلبهُ بوجهٍ من الوجوه، لا تنالهُ الأيدي ولا الأرشيةَ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ ؛ أي هَلَكَ مالهُ وبستانه، يقالُ: أُحِيْطَ القومُ إذا هَلَكُوا، ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ ؛ الكافرُ، ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ؛ أي يضربُ بإحْدَى يديهِ على الأخرى، وتقليبُ الكفَّين يفعلهُ النادمُ كثيراً، وصارَ عبارةً عن النَّدَم، ﴿ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ؛ أي في جنَّتِه، ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ ؛ أي ساقطةٌ على سقوفِها؛ ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ فنَدِمَ حيث لا ينفعهُ الندم، ولَم يكن تندُّمه على إشراكهِ إيْماناً منهُ؛ لأنه لَم يَقُلْهُ تحقيقاً للتَّوبة، ولكن كان يتأسفُ على هلاكِ مالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لَم تَنْصُرْهُ الفئةُ الذين افتخرَ بهم في قولهِ (وَأعَزُّ نَفَراً) ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ بأن استَرَدَّ بدلَ ما ذهبَ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ في ذلك الموطنِ عَلِمَ الكافرُ أن الوَلاَيَةَ بالنصر لله الحقِّ، فهو الذي يَملكُ النصرَ، هذا معنى قراءةِ (الوِلاَيَة) بخفضِ الواو، وأما (الْوَلاَيَةُ) بفتحِ الواو فهو نقيضُ العداوةِ، وَقِيْلَ: إن معنى قراءةِ (الْوِلاَيَة)

---

(١) المعنى لا تناله الدلاءُ فلا تلحقه أيديهم ولا الرشاء التي يسقون بها.

بالكسر: الإمارةُ والسُّلطانُ، يعني في يومِ القيامـة الولايـةُ لله. ومـن قـرأ بفتحِـها فـهو مِن الْمُوَالاَةِ كقولهِ تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١] يعني: إنَّهم يؤمنـونَ بـالله يومئـذٍ، ويتبرَّءُون مما كانوا يعبدونَ من دون الله[٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى (الْحَقِّ) مَن قرأ بالكسرِ فـهو نعتٌ لله، ومَن رفعَهُ فهو نعتٌ للولايةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ ؛ أي هو خيرُ مَن أثابَ وجازى على العملِ؛ ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ،أي خيرُ مَن أعقبَ عاقبةً،وَقِيْلَ: عاقبــةُ طاعتـهِ خـيرٌ مـن عاقبةِ غيره. قال ابنُ عبَّاس: (هَذانِ الرَّجُلاَن ذكَرَهُمَـا اللهُ فِـي سُـورَةِ الصَّافَّـاتِ قَـالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إن ﴿لِي قَرِينٌ﴾[٣] إلَى قَوْلهِ تعالَى ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[٤]).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ؛ أي اضرِبْ يـا مُحَمَّدُ لِـهؤلاء المتكـبرين المـترَفين مِـن قومِـكَ الذيـن سـألوكَ طـردَ فقـراءِ المؤمـنين صفةَ الحياة الدُّنيا في بقائها وفنائِها؛ كَمَـاءٍ أنزلْنَـاهُ ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ فنَجَعَ[٥] في النَّباتِ حتى خالطَهُ،وأخذ النباتُ زُخْرُفَهُ فصار أجناساً مختلفةً بعضُها مخلَّطٌ ببعضٍ؛ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ ؛ متفتِّتاً، والهشـيمُ مـا تَكسَّـرَ وَانْحطَمَ، ثم فرَّقتْهُ الرياحُ، وطارت به كما يطيرُ بأشياءٍ خفيفة فلا يبقَى له أثرٌ، كذلك الدُّنيا يفنى منها كلُّ شيء كما لا يبقَـى مـن الهشيمِ شـيءٌ؛ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

(١) البقرة / ٢٥٧ .

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٠ ص٤١١؛ قال القرطـبي: (وقـرأ الأعمـش وحمـزة والكسـائي (الوِلاَيَةُ) بكسر الواو، الباقون بفتحها، وهما بمعنى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة. وقيـل: الوَلايـة بالفتح من الموالاة؛ كقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿ذَلِكَ بـأَنَّ اللهَ مَوْلَـى الَّذِيـنَ آمَنُـوا﴾. وبالكسر يعني السُّلطان والقدرة والإمارة؛ كقولـه: ﴿وَالأَمْـرُ يَوْمَئِـذٍ للهِ﴾ أي لـه الملـكُ والحكـم يومئذ، أي لا يردُّ أمره إلى أحد. والمُلك في كل وقت لله، ولكن تزولُ الدعاوى والتوهُّمات يوم القيامة).

(٣) الصافات / ٥١ .

(٤) الصافات / ٥١-٥٥: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ. فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.

(٥) نَجَعَ: دَخَلَ فَأَثَّرَ. وماءٌ نَجُوعٌ: نميرٌ. والنُّجْعَةُ طلبُ الكلأ. ترتيب القاموس المحيط: (نجع).

﴿ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي لَم يزل قادراً على خَلْقِ الأشياء. قالتِ الحكماءُ: شبَّهَ اللهُ الدنيا بالماءِ؛ لأن الماءَ لا يستقرُّ في موضعٍ، كذلك الدُّنيا لا تُبقِي على أحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ أي مما ينتفعُ به في الدُّنيا لا في الآخرةِ؛ ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيۡرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ قِيْلَ: إنَّها الصلواتُ الخمسُ[1]، وَقِيْلَ: جميعُ الطاعاتِ. وسُمِّيت الباقياتُ لبقاء ثوابها للإنسانِ، بخلاف الأموالِ والأولاد التي لا تبقَى.

وقال ابنُ عبَّاس وعكرمةُ ومجاهد: (هِيَ قَوْلُ الْعَبْدِ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ). يدلُّ عليه ما رُويَ عن أبي الدَّرداءِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخذ غُصناً فحرَّكَهُ حتى سقطَ ورقُهُ، فقالَ: [إنَّ الْمُسْلِمَ إذا قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّ هَذا، خُذْهُنَّ إلَيْكَ يَا أبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، فإنَّهنَّ مِنْ كُنُوز الْجَنَّةِ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ][2].

وعن أنسٍ ﷺ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [خُذُوا حَسْبَكُمْ مِنَ النَّارِ، قُولُوا: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ، فَإنَّهُنَّ الْمُقَدِّمَاتُ؛ وَهُنَّ الْمُنْجِيَاتُ؛ وَهُنَّ الْمُعَقِّبَاتُ؛ وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ][3]. وقال عثمانُ بن عفَّان وابنُ عمرَ وسعيدُ بن المسيَّب: (هُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْمِ).

---

(١) نسبه الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص٣١٥: لابن عباس وسعيد بن جبير وأبي ميسرة وإبراهيم.

(٢) في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٩٠؛ قال الهيثمي: ((رواه ابن ماجة باختصار والطبراني بإسنادين في أحدهما عمر بن راشد اليمامي وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء والتكبير: الحديث (١٩٨٥)؛ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: باب ما قالوا في الرجل إذا بخل بماله: الحديث (٢٩٧٢٠).

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ] قِيلَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [التَّكْبِيرُ؛ وَالتَّهْلِيلُ؛ وَالتَّسْبِيحُ؛ وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيْم](١). وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [إنْ عَجَزْتُمْ عَنِ اللَّيْلِ أنْ تُكَابِدُوهُ، وَعَنِ الْعَدُوِّ أنْ تُجَاهِدُوهُ، فَلاَ تَعْجَزُوا عَنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالْحَمْدُ للهِ؛ وَلاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ وَاللهُ أكْبَرُ. فإنَّهَا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ](٢).

وَقِيلَ: هِيَ كلُّ عملٍ صالحٍ يُثاب عليه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (خَيْرٌ عِنْدَ رَبكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أمَلاً) أي أفضلُ ثواباً، وأفضلُ أملاً من المالِ والبنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ ؛ أي واذكر يومَ نُسَيِّرُ الجبالَ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى وخيرٌ أمَلاً يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ، وتَسَيُّرُ الجبالِ وتسييرُها: قلعُها، فإنَّ اللهَ تعالى يقلعها عن وجهِ الأرضِ يومئذٍ، فيسيِّرُها في الهواءِ، كما يسيِّرُ السحابَ في الدُّنيا، ثم يَجعلُها هباءً منثوراً فتعودُ في الأرضِ حتى لا يبقَى شيءٌ، ولذلك قالَ تعالَى (وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً) أي ظاهرةً مستويةً لا يسترُ شيءٌ شيئاً، ولو كان يبقَى شيءٌ من الجبالِ والأشجارِ والنباتِ لَم تكنِ الأرضُ بارزةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ ﴾ ؛ يعني المؤمنينَ والكافرين، أي بعثناهُم من قبورهم، ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي لَم نترُكْ منهم أحداً في قبرهِ نسياناً ولا غفلةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ؛ أي معناهُ: أن الناسَ كلَّهم يعرضون على اللهِ تعالى مصفوفين، كلُّ زُمرةٍ وأمَّة صَفٌّ، فيكونون صَفّاً بعد صفٌّ كصفوفِ الصلاة إلاّ أنّهم صفٌّ واحد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ؛ أي أعدناكم كما خلقناكم أوَّلَ مرة. وقال ابنُ عبَّاس: معناه (حُفَاةً عُرَاةً لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا اكْتَسَبُوهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا فِي أوَّلِ الْخَلْقِ).

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٧٥. وابن حبان في الإحسان: كتاب الصلاة: باب النوافل: الحديث (٢٥٠٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء والتكبير: باب الباقيات الصالحات: الحديث (١٩٣٢)، وقال: هذا أصح إسناد المصريين ولم يخرجاه.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٣٩٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)).

قال ﷺ: [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قُبُورِهِـمْ حُفَـاةً عُـرَاةً غُـرْلاً] فَقَـالَتْ عَائِشَةُ: وَاسَوْأَتَاهُ يَا رَسُولَ اللهِ ! أَمَا يَسْتَحْيِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْـضٍ؟ فَقَـالَ ﷺ: [لِكُـلِّ امْـرِئٍ مِنْـهُمْ يَوْمَئِـذٍ شَـأْنٌ يُغْنِيْـهِ][1]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي بل زعمتُم في الدُّنيا أن لن نجعلَ لكُـم أجَـلاً للبعـثِ، وهـذا خطابٌ لِمنكري البعثِ خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ؛ أي كتابُ كلِّ إنسانٍ في يـده، بعضُـهم في اليمـينِ وبعضُـهم الشِّـمال،﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ؛ أي المذنبـينَ وهـم المشـركونَ؛ ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ ؛ أي خـائفينَ مما في الكتـاب، يَدْعُـونَ علـى أنفسِـهم بالويلِ والثُّبور؛﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (الصَّغِيْرَةُ التَّبَسُّمُ، وَالْكَبِـيْرَةُ الضَّحِـكُ)[2]. وقـال ابنُ جُبير: (الصَّغِيْرَةُ الْمَسِيْسُ وَالتَّقْبِيْلُ، وَالْكَبِيْرَةُ الزِّنَا). والمعنى لا يـتركُ صغـيرةً ولا كبيرة من أعمالِنا إلاَّ أثبتَها.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ ؛ أي وجـدُوا جُـزْءَ مـا عملُـوا مكتوبـاً مثبَّتـاً في الكتـاب،﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي لا ينقـصُ مـن حسناتِ أحدٍ، ولا يزيدُ في سيِّئات أحدٍ، ولا يعاقبُ بغيرِ جُرْمٍ. ورُوي أنَّ الفضيلَ بـن عِيَاضٍ كان إذا قرأ هذه الآيةَ قال: (صَحَوا واللهِ مِنَ الصِّغَارِ قَبْلَ الْكِبَارِ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ ؛ قـد تقدَّم تفسيرُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ؛ تقدَّم أيضـاً، الخلافُ في أنـه مـن الملائكةِ أم من الجنِّ، بَنِي الجان، والصحيـحُ أنـهُ مـن بَنِـي الجـانِّ جنسٌ غـير جنسِ الملائكة؛ لأنَّ الملائكـةَ رُسُـلُ اللهِ، ولا يجوزُ علـى رسـولٍ مِـن رُسُـلِ اللهِ أن يكفـرَ، ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ ؛ أي خـرجَ عـن طاعـةِ ربـهِ، وَقِيْـلَ: ردَّ أمـرَ ربـهِ، ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي ﴾ ؛ هذا استفهامٌ بمعنى الإنكار، يقـولُ:

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى: كتاب الجنائز وتمني الموت: الحديث (٢٢١٠/ ٣).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٤٠١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)).

كيفَ تطيعونَهُ وقد فسَقَ، ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾، وهو اليومُ عدوٌّ لكم، ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾؛ ما استبدلَ الظَّالمون عن رب العزَّة إبليسَ لَعَنَهُ اللهُ حيث تركوا طاعةَ مَن خَلَقَهم، وأنعمَ عليهم، ويجازيهم جنةَ الْخُلْدِ، وأطاعوا مَن يؤدِّيهم إلى العقاب الدائم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذُرِّيَّتَهُ). قال قتادةُ والحسن: (يَعْنِي أَوْلاَدَ إِبْلِيْسَ؛ وَهُمْ يَتَوَالَدُونَ، كَمَا يَتَوَالَدُ بَنُو آدَمَ)، قال مجاهدُ: (فَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْلِيْسَ وَلْهَانُ؛ وَهُوَ صَاحِبُ الطَّهَارَةِ وَالصَّلاَةِ، وَزَلَنْبُورُ صَاحِبُ رَايَةِ إِبْلِيسَ لِكُلِّ سُوق، وَدِثْيَرُ صَاحِبُ الْمَصَائِبِ يَأْمُرُ بِضَرْبِ الْوَجْهِ وَالدُّعَاءِ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ وَغَيْرِ ذلِكَ، وَالأَعْوَرُ وَهُوَ صَاحِبُ أَبْوَابِ الزِّيَادَةِ، وَمَنْبُوطُ وَهُوَ صَاحِبُ الأَخْبَارِ يَأْتِي بِهَا فَيُلْقِيهَا فِي أَفْوَاهِ النَّاسِ فَلاَ يُوجَدُ لَهَا أَصْلٌ، وَدَاسِمُ هُوَ الَّذِي إذا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلَمْ يُسَلِّمْ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ ضَرَّهُ فِي الْمَتَاعِ مَا لَمْ يُرْفَعْ وَلَمْ يُوضَعْ فِي مَوْضِعِهِ، وَإذا أَكَلَ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ أَكَلَ مَعَهُ. وَمِنْ أَوْلاَدِ إِبْلِيْسَ الْهَفَّافُ وَمُرَّةُ، وَبِهِ كَانَ يُكْنَى أَبَا مُرَّةَ). وقال ابنُ زيدٍ: (إِنَّ إِبْلِيْسَ أَبُو الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ آدَمَ أَبُو الإِنْسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لإِبْلِيسَ: إِنِّي لاَ أَخْلُقُ لآدَمَ ذُرِّيَّةً إلاَّ جَعَلْتُ لَكَ مِثْلَهَا، فَلَيْسَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَحَدٌ إلاَّ بِشَيْطَانٍ قُرِنَ بِهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ يعني إبليسَ وذريَّته، والمعنى: ما اطْلَعْتُهُمْ على خلقِ السَّموات والأرض، ولا أحضرتُهم، ولم يكونوا موجودين يوم خَلَقْتُ السَّمواتِ والأرض، ولا أشهدتُ بعضَهم خلقَ بعضٍ، ولا أعطيتُهم العلمَ وكيفيَّة خلقِ الأشياء، ولو كنتُ مِمن يستعينُ بأحدٍ لما استعنتُ بالمضِلِّين، فكيفَ والاستعانةُ عليَّ مستحيلةٌ إذا أردتُ خلقَ شيءٍ كانَ. والمعنى أنَّكم اتبعتُم الشيطانَ، كاتِّباعِ مَن يكونُ عنده عِلمُ باطن الأشياءِ، وأنا ما أشهدتُهم خلقَ السَّموات والأرضِ ولا خلقَ أنفسِهم.

---

(١) هذه الآثار ذكرها الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص٣٢٥-٣٢٦. وفي الدر المنثور: ج٥ ص٤٠٣ عزاها السيوطي لابن أبي الدنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾؛ أي ما كنتُ مُتَّخِذ الشياطينِ الذين يُضِلُّونَ الناسَ أعواناً يعضِدُونني. ومَن قرأ (وَمَا كُنْتَ) بالفتحِ، فالمعنى: وما كنتَ يا مُحَمَّدُ لِتَتَّخِذ[1] المضلِّين أنصاراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾؛ معناهُ: يومَ القيامةِ يقولُ الله للمشركين: نَادُوا شُرَكَائِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أنَّهم شُركاؤهم للأصنامِ والشياطين وذريَّته؛ ليدفعُوا عنكم العذابَ، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾؛ أي جعلنا بينَ العابدِ والمعبود من العذاب ما يُوبقُهُمْ؛ أي ما يُهلِكُهم، وَقِيْلَ: معناهُ: وجعلنا بينَهم وبين المؤمنين؛ أي بين أهلِ الْهُدى وأهلِ الضَّلالة مَوْبقاً.

قال عبدُالله بنُ عمرَ: (هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ مِنَ الصَّدِيْدِ وَالْقَيْحِ وَالدَّمِ، يُفَرِّقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهِ وَمَنْ سِوَاهُمْ)[2]. وقال عكرمةُ: (هُوَ نَهْرٌ مِنَ النَّارِ يَسِيْلُ نَاراً، عَلَى حَافَّتَيْهِ حَيَّاتٌ مِثْلَ الْبِغَالِ). وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَهْلِكاً)، وقال الحسنُ: (عَدَاوَةً)، ويقالُ: أوْبَقَهُ اللهُ؛ أي أهْلَكَهُ، وَوَبَقَ أي هَلَكَ. قرأ حمزةُ (وَيَوْمَ نَقُولُ) بالنُّون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾؛ أي ورأى المشركونَ النارَ مسيرةَ أربعين سنةٍ، وايقنُوا أنَّهم داخلُوها، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾؛ مَعْدِلاً يعدلون إليه، لأنَّها أحاطَتْ بهم من كلِّ جانب، والمواقعةُ مُلاَمَسَةُ الشَّيءِ بشدَّةٍ، ومنه وقائعُ الحروب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي بيَّنَّا لَهم من كلِّ مثَلٍ يحتاجون إليه في أمرِ دِينهم، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي الكافرُ، ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾؛ في تكذيب الرُّسل، وما جاءُوا به من الآياتِ. قِيْلَ: أرادَ بالإنسانِ النضرَ بنِ الحارثِ وجدالَهُ في القُرْآنِ. وقال الكلبيُّ: (يَعْنِي

---

(١) في المخطوط رسمها غير واضح، ومن المحتمل أن تكون (لتجد) والراجح ما أثبتناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٤٦).

أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ) ويقالُ: معناه: ما ليسَ بشيءٍ مِن الملائكةِ والجنِّ والشياطين، وسائرِ الأصناف أجدَلُ من الإنسان. وعن رسولِ الله ﷺ قالَ: [مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أعْطُوا الْجَدَلَ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي ما منعَ أهلُ مكة أن يُؤمِنوا (إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى) يعني مُحمَّداً ﷺ جاءَهم مِن اللهِ بالرَّشَادِ، (وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ) أي يتوبُوا من الكفرِ، ما منعَهم من ذلك إلاّ طلبُ أن يأتيَهم سُنَّةُ الأَوَّلِيْنَ؛ وهو أنَّهم إذا لَم يؤمنوا جاءَهم العذابُ مِن حيث لا يشعرونَ، أو مقابلةً من حيث يَرَوْنَ. وهذه الآيةُ فيمَنْ قُتِلَ من المشركين ببَدْرٍ وأُحُدٍ؛ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً) أي عَيَاناً مقابلةً. وقرأ أهلُ الكوفة (قُبُلاً) بضمِّ القافِ والباء، جمعُ قَبيْلٍ؛ أي صنوفٍ من العذاب، وضُروبٍ منه مختلفةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ ؛ أي يخاصِمُ الذين كفرُوا بالكتاب والرُّسل بالحجَّة الباطلةِ، ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ ؛ أي ليُبْطِلُوا بها الإسلامَ والقُرآنَ. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي الْمُسْتَهْزِئِيْنَ وَالْمُقْتَسِمِيْنَ وَأتْبَاعَهُمْ)، يقالُ: دُحِضَتْ حُجَّتُهُ إذا بَطَلَتْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي اتَّخذُوا القُرْآنَ وما خوِّفوا به مِن النار يومَ القيامة هُزُواً.

وقولُهُ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ أي ليسَ أحدٌ أظلمَ ممن وُعِظَ بالقُرْآن، وما فيه مِن الوعيدِ، ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ ؛ أي تَهاون بها ولَم يتفكَّرْ فيها. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ؛ أي ونَسِيَ ذِكْرَ ما عملت يداهُ وتغافلَ عن ذكرِه، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ ؛ أي أغْطِيَةً؛ لئلاَّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٥٢. والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: باب ومن سورة الزخرف: الحديث (٣٢٥٣). وابن ماجة في السنن: كتاب السنن: باب اجتماع البدع والجدل: الحديث (٤٨/ ٤). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب ما ضل قوم بعد هدى: الحديث (٣٧٢٦). والطبراني في الكبير: الحديث (٨٠٦٧).

يفقَهُوا الْـهُدَى، وَ جعلنا ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ؛ لئَـلاَّ يستَمِعوا. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ أي إن تَدْعُـهُمْ إلى الْقُرْآنِ وإلى الرحمةِ وإلى الإيْمَانِ فلن يهتدُوا، أخبرَ اللهُ أن هؤلاءِ طَبَعَ اللهُ على قلوبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ ؛ أي الغافرُ السَّاتِرُ على عبادهِ، والرحمةُ حين لا يُعَجِّلُهُمْ بالعقوبةِ، ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم ﴾ بعقاب، ﴿ بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ في الحال؛ ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ ؛ أي لعذابهم أجَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ، ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي مَلْجَأً وَمَنْجاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ ؛ أي القُرَى الماضية، قُرى عَادٍ وثَمود لَمَّا أشركوا، والمرادُ أهلُ القرى، ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي لوقتِ إهلاكهم أجَلاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ أي وَاذكُرْ إذ قالَ موسى لفتاهُ يوشعَ بنَ نون، قال ابنُ عبَّاس: (وقصَّةُ ذلكَ: أن موسى عليه السلام قامَ خطيباً في بنِي إسرائيلَ، فسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنَا، فبعثَ اللهُ عليه فقالَ: إن لِي عبداً بمجمع البحرينِ هو أعلمُ منكَ، قال موسى: يا رب كيفَ لِي بهِ، يا رب دُلَّنِي عليهِ.

فقال: تأخذُ معكَ حُوتاً وتَمضي إلى شَاطِئِ البحر، فحيث ما فقدتَ الحوتَ فهو ثَمَّ، فأخذ حوتاً من السَّمكِ، وجعلهُ في مكتلٍ وانطلَقَ معه بفتاهُ يوشعَ بن نون إلى شاطئِ البحرِ، فأوَيَا إلى صخرةٍ عندَها ماءٌ يسمى ماءُ عينِ الحياة، فجلسَ يوشعُ يتوضَّأُ من تلكَ العينِ، فانتضحَ من ذلك الماءِ على الحوتِ فحَيِيَ، فوثبَ في الماءِ، وَاتَّخَذ سَبيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً؛ أي اتخذ الحوتُ طريقاً في البحرِ مسْلَكاً يَابساً).

وَقِيلَ: معنى قولهِ (سَرَباً) أي ذاهِباً، فقامَ يوشعُ حين رأى ذلك مِن الحوت، وذهبَ إلى موسى ليخبرَهُ بذلك، وذهبَا يومَهُما ذلكَ حتى صلَّيا الظهرَ مِن الغدِ، فتَعِبَ موسى، فقَالَ لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذا نَصَباً؛ أي تَعَباً.

ومعنى الآية: وإذ قالَ موسى لفتاهُ لا أزالُ أمضِي حتى أبلُغَ مجمع البحرين الموضعَ الذي يلتقِي فيه بحرُ فارسَ والرومِ أو أمضِيَ سنينَ كثيرة، والْحُقَبُ جمعُ

أحْقَابٍ، والأحقابُ جمع الحِقْبِ، والْحِقْبُ ثَمَانُونَ سنةً، وَقِيلَ: سبعونَ سنةً بلُغة قريشٍ، وسُمي يوشعُ فَتَاهُ؛ لأنه كان يخدمهُ ويلازمهُ في الْحَضَرِ والسَّفرِ للتعلُّم منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ ؛ أي الموضعَ الذي يجتمعُ فيه ماء البحرينِ نَسِيَ صاحبُ موسى أن يخبرَهُ بخبرِ الحوت. قال المفسِّرون: وكان حُوتاً في زَنْبيْلٍ، وكانا يأكُلان منه عندَ الغدَاءِ والعشاءِ، فلما أتَيَا إلى الصخرةِ على ساحلِ البحر وضعَ فتاهُ الزنبيلَ فأصابَ الحوتَ من الماءِ الذي ذكرناهُ شيءٌ فتحرَّكَ في الزنبيلِ فانسربَ في البحرِ، قد قيلَ لِموسى: تزوَّدْ معكَ حُوتاً مالِحاً فحيثُ تفقدُ الحوتَ فهناك تجدُ الرجلَ العالِمَ.

فلما انتهيَا إلى الصخرةِ، قال موسَى لفتاهُ: امْكُثْ هنا، وانطلقَ لحاجتهِ فجرى الحوتُ في البحرِ، فقال فتاهُ: إذا جاء نبيُّ اللهِ أخبرتهُ بذلك، فأنساهُ الشيطان، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ ؛ وإنَّما نَسِيَ يوشعُ أن يذكرَ قصَّتَهُ لِموسى، وأضافَ النسيانَ إليهما توسُّعاً لأنَّهما تزوَّدا، فصارَ كما يقالُ: نسيَ القومُ زادَهم، وإنَّما نسيَهُ أحدُهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي جعلَ الحوتُ يضربُ بذنبهِ في البحر فلا يضربُ شيئاً وهو ذاهبٌ إلاَّ يبسَ موضعهُ كهيأة السَّرَب. قال قتادةُ: (جَعَلَ لاَ يَسْلِكُ فِيهِ طَرِيْقاً إلاَّ صَارَ الْمَاءُ جَامِداً)[1]، وقال الربيعُ: (انْجَابَ الْمَاءُ عَلَى مَسْلَكِ الْحُوتِ فِي الْمَاءِ فَصَارَ كُوَّةً لَمْ يَلْتَمَّ).

والسَّرْبُ في اللُّغة: الْمَحْفُورُ في الأرض، وعن أُبَيِّ بن كعبٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [انْجَابَ الْمَاءُ عَنْ مَسْلَكِ الْحُوتِ، فَصَارَ كُوَّةً لَمْ يَلْتَمَّ، فَدَخَلَ مُوسَى الْكُوَّةَ عَلَى إثْرِ الْحُوتِ، فَإذا بالْخَضِرِ][2]. وَقَالَ ابنُ عبَّاس: (جَعَلَ الْحُوتُ لاَ يَمَسُّ شَيْئاً مِنَ الْمَاءِ إلاَّ يَبسَ حَتَّى صَارَ صَخْرَةً)[3].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٧٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٧٤). وذكره ابن كثير في التفسير: ج ٣ ص٩١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٤٧٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ ؛ أي لَمَّـا جـاوز بين البحرين، قال موسَى ليوشع: آتِنَا بما نتغدَّى بهِ، ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي تَعَباً ومَشَقَّةً، فلما قال لهُ موسى ذلكَ؛ تَذكَّرَ قصَّة الحـوتِ؛ فـ ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لـه: ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ ؛عنـد رأسِ البحـر؛ ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ ؛ ما رأيتُ هناكَ من أمر الحوت أنْ أذكـرَهُ لـك يـا نـبيَّ اللهِ ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ ﴾ ؛ أي وما شَغَلَنِي عن ذكرهِ لـكَ، ﴿ إِلَّا ﴾ ، وَسْوَسَـةُ، ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ ، الحوتَ، ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي شيئاً عَجَباً وهو أن الماءَ إنْجَابَ عنهُ، وبقيَ كالكوَّةِ لَم يَلْتَمَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ ؛ أي قال موسَـى: ذلـكَ الـذي كُنَّـا نطلبُ دلالةً لنا مِن اللهِ تعالى على موضعِ الْخَضِرِ ومرتـدَّة مـن العلامـةِ، ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي رَجَعَا وعادَا في الطريقِ الذي جـاءَ منـه يقُصَّـان آثارَهما قَصَصاً، والقَصُّ اتِّباعُ الأثرِ، ومنهُ قوله ﴿قُصِّيهِ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ ؛ وهو الْخَضِرُ. قال ابـنُ عبَّـاس: (وَذلِكَ أنَّهُمَا لَمَّا انْتَهَيَا إلَى الصَّخْرَةِ جَعَلَ يُوشَعُ يُري مُوسَى مَكَانَ الْحُوتِ وَأثَرَهُ فِي الْمَاءِ، وكَانَ مُوسَى يَتَعَجَّبُ مِنْ ذلِكَ إذ وَقَعَ مُوسَى عَلَى رَجُلٍ قَـائِمٍ يُصَلِّـي، فَـانْتَظَرَ حَتَّى فَرَغَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ).

وإنَّما سُمي الْخَضِرُ؛ لأنَّهُ إذا صلَّى في مكـانٍ اخْضَـرَّ مـا حولـهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ؛ أي أكرَمْناه بـالنبوَّةِ، ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ببواطنِ الأمُور. قال ابنُ عبَّاس: (أعْطَاهُ عِلْماً مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ).

قَوْلُـــهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي مِمَّـا يـهديني إلى الصـواب، ويجـوزُ أن يكـونَ معنـى رشـداً، يُرْشِدُنِي به، والرُّشْدُ والرَّشَدُ لُغتان. قال قتادةُ: (لَوْ كَانَ أحَدٌ مُكْتَفِياً عَنِ الْعِلْمِ لاكْتَفَى نَبِيُّ اللهِ مُوسَى عليه السلام، وَلَكِنَّهُ قَالَ: هَلْ أتَّبعُكَ عَلَى أنْ تُعَلِّمَنِي). قال الزجَّاجُ: (فِي فِعْلِ

---

(١) القصص / ١١ .

مُوسَى عليه السلام - وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الأَنْبِيَاءِ - مِنْ طَلَبِ العِلْمِ وَالرِّحْلَةِ دَلِيلٌ عَلَى أنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَتْرُكَ طَلَبَ الْعِلْمِ، وَإنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ نِهَايَتَهُ، وَأنْ يَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنْهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾؛ أي قَالَ الْخَضِرُ لِموسى: إنَّكَ ترى منِّي شيئاً لا تصبرُ عليه، ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾؛ ظاهرهُ مُنْكَراً، والأنبياءُ والصالحون لا يصبرونَ على ما يرونَهُ منكراً، ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾؛ على ما أراهُ منكَ، ﴿ وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾؛ تأمرُني بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾؛ أي قال الخضرُ لِموسى فإنْ اتَّبعتَني فلا تسألنَّ عن شيءٍ أنكرتَ فعلَهُ، ولا تعجَلْ في المسألةِ عنهُ حتى أبَيِّنَ لك الوجهَ فيه وافسرَهُ لك، لأنه قد غابَ علمهُ عنكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾؛ أي فمَضَيا حتى إذا رَكِبَا في السفينةِ خَرَقَهَا الخضرُ، وذلك أنَّهما لَمَّا مشَيَا على الساحلِ مرَّت بهما سفينةٌ، فكلَّمُوهم أن يحملوهما بغيرِ أجرة. قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِيْنَةِ أخَذ الْخَضِرُ بِيَدِهِ فَأساً، أوْ مِنْقَاراً وَأكَبَّ عَلَى السَّفِيْنَةِ يَخْرِقُهَا، فَقَالَ لَهُ أهْلُ السَّفِيْنَةِ: نَنْشُدُكَ اللهَ أنْ لاَ تَخْرِقَهَا، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَاللهِ لاَ يَحِلُّ لَكَ هَذا، فَإنَّكَ تُغْرِقُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ الْخَضِرُ حَتَّى خَرَقَ السَّفِيْنَةَ).

قِيْلَ: إنهُ قَلَعَ لوحين مما يلِي الماءَ، فحشَاهما موسى بثوبهِ و﴿ قَالَ ﴾؛ منكراً عليهِ: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي مُنْكَراً، ثم تَنَحَّى موسى فجلسَ، وقالَ: ما أصنعُ في اتِّباع هذا الرجلِ الذي يظلمُ الناسَ؟! كنتُ في بني اسرائيلَ أقرأُ عليهم التوراةَ بُكْرَةً وعشيَّة ويقبلُون منِّي، فتركتُ ذلكَ وصَحِبْتُ هذا الظالِمَ...

فقال له الخضرُ بعد ما أخرجَ أهلُ السفينةِ متاعهم إلى الساحلِ: أتدري ما تحدث به نفسك؟ قال: ما هو؟ فأخبره بما حدَّث به نفسه، ثم ﴿ قَالَ ﴾؛ له الخضرُ:

﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي لِمَا تركتُ من عهدِك ووصيَّتِك، وَقِيْلَ: أرادَ به النسيانَ الذي هو ضدُّ الذِّكر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِي عُسْرا) أي لا تُكلِّفْنِي مشقَّةً، وعامِلني باليُسْر لا بالعسر، ولا تضيِّقْ عليَّ في صُحبتِي إياكَ. وأصلُ الرَّهَقِ: الْغَشَيَانُ، يقالُ: رَهَقَ الفارسُ فلاناً إذا غَشِيَهُ فأدركَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ ؛ قال سعيدُ بن جبير: (وَجَدَ الْخَضِرُ غِلْمَاناً، فَأَخَذ غُلاَماً وَضِيْءَ الْوَجْهِ). قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ مِنْ أحْسَنِهِمْ وَأصْبَحِهِمْ، فَأَخَذهُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَأصْرَعَهُ وَاضْجَعَهُ، ثُمَّ ذبَحَهُ بالسِّكِّيْنِ، وَكَانَ غُلاَماً لَمْ يَبْلُغِ الْحِنْثَ).

وَقِيْلَ: إنهُ اجتذبَ رأسَهُ فقلعَهُ، وَقِيْلَ: نزعَ رأسَهُ من جسدِهِ، وَقِيْلَ: رفصَهُ برجلِهِ فقتلَهُ، وَقِيْلَ: ضربَ رأسَهُ فقتلَهُ، وكان اسمُ الغلامِ خشيود، وَقِيْلَ: جيشور. و﴿ قَالَ ﴾ لهُ موسى حين رأى ذلكَ منهُ: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ؛ أي أقَتَلْتَ نفساً بريئةً من الذُّنوب، لَم تجب ما يوجبُ قتلَها. ومن قرأ (زَاكِيَةً) فمعناهُ: طاهرةٌ من الذُّنوب لَم تبلغِ الْحُلُمَ، ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي قَطِيعاً مُنْكَراً لا يعرفُ في شَرْعٍ.

وقد اختلفُوا في هذا الغلامِ أنَّهُ كان بالِغاً أم لَم يكن بالغاً، إلاَّ أن قولَهُ (بغيرِ نفسٍ) فيه دليلٌ على أنه بالغاً، لأن غيرَ البالغِ لا يُقْتَلُ، وإن قَتَلَ غيرَهُ، وكان هذا الغلامُ يقطعُ الطريقَ، ويلجأُ إلى أبويهِ فيحلفان دونَهُ، وعن رسولِ الله ﷺ أنه قال: [إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبعَ كَافِراً][(1)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً) أي مُنْكَراً عظيماً. قال القتيبي: (النُّكْرُ أبْلَغُ مِنَ الإمْرِ فِي الإنْكَارِ؛ لأَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ أشَدُّ مِنْ خَرْقِ السَّفِيْنَةِ)، وقالَ الزجَّاجُ: (الإمْرُ

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة: الحديث (٢٩/ ٢٦٦١).

أَبْلَغُ فِي الإِنْكَارِ؛ لأَنَّ خَرْقَ السَّفِينَةِ يُوجِبُ غَرَقَ أَهْلِهَا، وَذلِكَ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ ؛ أي بعدَ هذه الكرَّةِ، ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ ؛ إنْ طلبتُ صحبتَكَ، ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي بَلغْتَ من عندي إلى وقتِ العُذْرِ. رويَ عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [رَحِمَ اللهُ أخِي مُوسَى اسْتَحْيَا، فَقَالَ إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي، وَلَوْ ثَبَتَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ الأَعَاجِيْبَ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ لَدُنِّي) قرأ العامَّةُ بتشديدِ النونِ وهو الأجودُ؛ لأنَّ أصلَ (لَدُنْ) الإسكانُ، فإذا أضفتَها إلى نفسِكَ رُدَّتْ نوناً ليسلمَ سكونُ النونِ الأُولَى، كما يقولُ عن زيدٍ وَعَنِّي. ومَن قرأ بتخفيفِها قال (لَدُنِ) اسمٌ غير متمكِّن، فيجوزُ حذفُ النونِ منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ ؛ قيلَ هي قريةُ أنطاكيَّة، قَوْلُهُ تَعَالَى: (اسْتَطْعَمَا أهْلَهَا) أي سَألاَ لَهم الطعامَ، ﴿ فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ ؛ قال ﷺ: [وَكَانُوا أهْلَ قَرْيَةٍ لِئَاماً][2].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ ؛ أي جِداراً مَائلاً مُشْرفاً على الانْهدامِ يكادُ يسقطُ بسرعةٍ. قال وهبُ: (كان جِداراً طولُهُ في السَّماءِ مائةُ ذراعٍ) وأمَّا قولُهُ (يُرِيْدُ أنْ يَنْقَضَّ) هذا من مَجَازِ كلامِ العربِ؛ لأن الجدارَ لا إرادةَ لهُ، وإنَّما معناه: قَرُبَ وَدَنَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَقَامَهُ). قال ابنُ عبَّاس: (هَدَمَهُ ثُمَّ أعَادَ بنَاءَهُ). وقال ابنُ جبير: (مَسَحَ الْجِدَارَ وَرَفَعَهُ بيَدِهِ فَاسْتَقَامَ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمَا) قرأ أبو رجاءٍ (يُضِيْفُوهُمَا) مخفَّفة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١١٨. ومسلم في الصحيح مطولاً: كتاب الفضائل: باب من فضائل الخضر: الحديث (١٧٠/ ٢٣٨٠).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٤٢٧؛ قال السيوطي: (أخرجه الديلمي عن أبي بن كعب).

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [كَانُوا أهْلَ قَرْيَةٍ لِئَاماً]، وقال قتادةُ في هذه الآية: (شَرُّ الْقُرَى الَّتِي لاَ تُضَيِّفُ الضَّيْفَ، وَلاَ تَعْرِفُ لاِبْنِ السَّبِيْلِ حَقَّهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي قالَ لهُ موسى: لاتَّخذتَ على إقامتِكَ للجدار جُعلاً[1]. وقُرِئَ (لَتَخِذْتَ) ومعناهُ معنى الأول[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ ؛ أي هذا الكلامُ والإنكارُ على تركِ الأجر هو الْمُفَرِّقُ بيننا، لأنَّكَ قد حكمتَ على نفسكَ، وَقِيْلَ: معناهُ هذا فراقٌ بيننا؛ أي فراقُ إيصالنا، والبَيْنُ مِن الأضدادِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي سأخبرُكَ بتأويلِ الأشياء التي رأيتَها منِّي فلم تصبرْ علَيْها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ ؛ يعني السفينةَ التي كانت لفقراءِ يعملونَ في البحر لَم يكن لَهم مالٌ غيرُها، وكانوا يعملونَ عليها، ويأخذونَ إجرَتَها، ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ؛ بالخرق، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ يقال له جَلَنْدُ، ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ ؛ صحيحةٍ، ﴿ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ وقد يذكرُ (وَرَاءَ) بمعنى أمامَ، وفيه دليلٌ أن للوصيِّ أنْ يعيبَ مالَ اليتيمِ إذا رأى فيه مصلحةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ ؛ أي الغلامُ الذي قتَلَهُ كان كافراً، وكان أبواهُ مؤمنين، ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ فلذلكَ قتَلَهُ، وكان قد أعلمَهُ اللهُ بذلك، قال ﷺ: [إنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبعَ كَافِراً، وَلَوْ عَاشَ لأَرْهَقَ أبَوَيْهِ طُغْيَاناً وَكُفْراً][3].

---

(١) الْجُعْلُ – بالضم-: ما جُعل للانسانِ من شيءٍ على إنجازه عمل أو قيامه بفعل.

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٣٢؛ قال القرطبي: (وهي قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة، وهما لغتان بمعنى واحد من الأخذ).

(٣) تقدم. وأدرج الناسخ هنا: (رواه مسلم في الصحيح).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي فأرادَ اللهُ أن يبدلَهما ولَداً خيراً منهُ صلاحاً وطهارةً، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَقْرَبَ رُحْماً) أي وأوْصَلَ للرَّحمِ وأبرَّ بوالديهِ. قال ابنُ عبَّاس: (أبْدَلَهُمَا اللهُ بهِ جَارِيَةً تَزَوَّجَهَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَوَلَدَتْ سَبْعِيْنَ نَبِيّاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ؛ أي في القريةِ المذكورة، وكان اسمُ اليتيمين: أصْرَماً وصَرِيْماً، ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قِيْلَ: إنه كان مَالاً، وَقِيْلَ: كان عِلماً.

وعن ابنِ عبَّاس: (أنه كانَ لَوحاً من ذهبٍ وفيهِ: بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ؛ لاَ إلَهَ إلاّ اللهُ؛ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، عَجِبْتُ لِمن أيقنَ بالموتِ كيف يفرحُ، ولِمن أيقنَ بالنار كيف يضحكُ، وعجبْتُ لِمن أيقنَ بالقَدَر كيف يحزنُ، وعجبتُ لِمن يرى الدُّنيا وتقلُّبها بأهلِها كيف يطمئنُّ إليها)[١]. وَقِيْلَ: كان ذهباً وفضَّةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا ﴾ ؛أي كان ذا أمانةٍ، كان يقالُ له: كاشح، وَقِيْلَ: إنه كان مِن الأنبياءِ. قال سعيدُ بن جُبير عن ابنِ عبَّاس: (حُفِظا بصَلاَحِ أبيهمَا وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْهُمَا صَلاَحاً)[٢]. قال جعفرُ بن محمَّد: (كَانَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الأَبِ الصَّالِحِ سَبْعَةُ آبَاءٍ).

وعن محمَّد بنِ المنكدر قال: (إنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْفَظُ بالرَّجُلِ الصَّالِحِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ، وَأَهْلَ دُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ وَأسْرَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيْهَا، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ مَا دَامَ فِيْهِمْ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ ؛ أي فأرادَ ربُّكَ بالأمر تسويةِ الجدار إلى أن يكْبُرا ويعقلا، ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً ﴾ ؛ أي نعمةً؛ ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ وهذا نُصِبَ على المصدريَّة؛ أي رَحِمَهما اللهُ بذلك رحمةً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٥٣٩) عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٥٤٣).

(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٣٨ نقله القرطبي أيضاً عن جعفر بن محمد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ ؛ وإنَّما فعلتهُ بأمرِ الله تعالى، ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ وأصلهُ تَستَطِعْ؛ إلاّ أن الطاءَ والتاء من مخرجٍ واحد، فحذفَ التاء لَمَّا اجتمعا لتخفيفِ اللفظ.

ورُوي أن الخضرَ لَمَّا أرادَ أن يُفارقَ موسى أوصاهُ، قال يا موسى: أفْرِغ عن اللَّجاجَةِ ولا تَمشِ في غيرِ حاجة، ولا تضحَكْ من غيرِ عجبٍ، ولا تعيِّرِ المذنبين بخطاياهم، وابْكِ على خطيئتك يا ابنَ عمرانَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ يعني يسألُكَ اليهودُ يا مُحَمَّدُ عن خبرِ ذي القرنين (قُلْ سَأتْلُو) سأقرأ عليكم خبرَهُ. قال مجاهدُ: (مَلَكَ الأرْضَ أرْبَعَةٌ: مُؤْمِنَانِ وكَافِرَانِ، فَالْمُؤْمِنَانِ سُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ، وَالْكَافِرَانِ النَّمْرُودُ وَبَخْتَنَصِّرٌ).

واختلفُوا في تسميتهِ بذِي القرنين، فقال بعضُهم: لأنه مَلَكَ فارسَ والرُّوم، وَقِيْلَ: لأنه دَعَا قومَهُ إلى التوحيدِ، فضربوهُ على قرنهِ الأيسر، وَقِيْلَ: على قَرْنَيْهِ، وَقِيْلَ: لأنه دخلَ النورَ والظلمة، وَقِيْلَ: لأنه بَلَغَ قُطْرَي الأرضِ، وكان اسمهُ اسْكَنْدَرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي مَكَّنَّاهُ في الأرضِ، ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي من كلِّ شيء تستعينُ به الملوكُ على فتحِ المدائن ومحاربةِ الأعداء، (سَبَباً) أي بلاداً إلى حيث أرادَ، وَقِيْلَ: قَرَّبْنَا له أقطارَ الأرضِ، كما سَخَّرْنَا الريحَ لسليمان. وقال عليٌّ ﷺ: (سَخَّرَ اللهُ لَهُ السَّحَابَ فَحَمَلَهُ عَلَيْهَا وَمَدَّ لَهُ فِي الأَسْبَاب، وَبَسَطَ لَهُ النُّورَ، وَكَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيْهِ سَوَاءٌ) وهذا معنى تَمكُّنِهِ في الأرضِ، وهو أنه سَهَّلَ عليه المسيرَ فيها، وذلَّلَ له طُرُقَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي طريقاً تؤدِّيه إلى مغربِ الشَّمس. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ ؛ أي إلَى قومٍ لَم يكن بينَهم وبين مغرب الشَّمس أحدٌ؛ لأنه لا يُمكنه أن يبلُغَ موضعَ غروبِ الشَّمس. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ؛ أي رآها تغربُ في الماءِ، وَقِيْلَ: في عينٍ ذات حَمأةٍ وهي الطينُ الأسودُ الْمُنْتِنُ.

وتقرأ (حَامِيَةٍ) أي حارَّةٍ، وهي قراءةُ العبادلةِ الثلاثةِ- عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ - وابنُ عامرٍ وأهلُ الكوفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ ؛ أي عند العين، ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ قِيْلَ: في هذا دليلٌ أن ذا القرنين كان نبياً؛ لأن الانسانَ لا يعلمُ أمرَ الله إلاّ بالوحيِ، ولا يجوزُ الوحيُ إلاّ إلى الأنبياءِ، وَقِيْلَ: كان معه نبيٌّ، فأوحَى اللهُ إلى ذلك النبيِّ، وفي الجملةِ لا يُمكن إثباتُ النبوَّة إلاّ بدليلٍ مقطوع به.

ورويَ عن النبيِّ ﷺ أنه سُئِلَ عن ذي القرنين قال: [هُوَ مَلِكٌ يَسِيحُ فِي الأَرْضِ][1]، قال ابنُ الأنباريِّ: (إنَّهُ كَانَ نَبيّاً، فَإنَّ اللهَ قَالَ لَهُ كَمَا قَالَ لِلأَنْبيَاءِ، إمَّا بتَكْلِيْمٍ أوْ بوَحْيٍ، وَمَنْ قَالَ لَمْ يَكُنْ نَبيّاً، قَالَ مَعْنَى قَوْلِهِ الْهَمْنَا كقولهِ ﴿وَأَوْحَيْنَا إلَى أمِّ مُوسَى﴾[2] أي أَلْهَمْنَاها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي قُلنا له إما أن تَقْتُلَهُمْ على الكفرِ إن أبَوا الإسلامَ، وإما أن تأسِرَهم فتعلِّمَهم الهدى وتبصِّرَهم الرشادَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ ؛ أي من أسرفَ، ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾ ؛ أي نقتلهُ، وكلُّ مَن أشركَ فقد ظلمَ نفسه، ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ في الآخرةِ بعد قتلي إيَّاهُ، ﴿ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ يعني في النار أنكى من القتلِ وأعظم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ؛ أي فلَهُ في الآخرة جزاءَ الْحُسنَى أي الجنة بالطاعةِ التي عملَها في الدنيا. وقرأ أهلُ الكوفةِ (جَزَاءً) نصباً وهو مصدرٌ وقعَ موقعَ الحالِ؛ أي فلهُ الْحُسْنَى مَجْزِيّاً بها. قال ابنُ الأنباريِّ:(جَزَاءً نصباً على المصدر؛ أي فَيُجْزَى الْحُسْنَى جَزَاءً). قولهُ: ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي سنأمرهُ في الدُّنيا بما يُيَسِّرُ عليهِ.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٤٣٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ بلفظ: [مَلِكٌ مَسَحَ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا بالأَسْبَابِ]).

(٢) القصص / ٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾؛ أي سَلَكَ طريقاً آخرَ نحو المشرق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾؛ أي حتى إذا انتهَى إلى آخرِ العمارة من جهةِ المشرق وجدَ عند الشمسِ قوماً لَم يكن لَهم جبلٌ ولا شجرٌ ولا شيء يستُرهم عن الشمسِ. قال لكلبيُّ: (مَعْنَاهُ حُفَاةٌ عُرَاةٌ يَفْتَرِشُ أحَدُهُمْ أذُنَهُ وَيَلْبَسُ الأُخْرَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾؛ أي وجدَ قوماً كذلك. قيلَ: الذين كانوا عند مغرب الشَّمس، وَقِيْلَ: معناهُ: كما بَلَغَ مغربَ الشمسِ وكذلك بَلَغَ مطلعَها، ثم استأنفَ وقال (وَقَدْ أحَطْنَا بمَا لَدَيْهِ خُبْراً) أي عِلْماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾؛ أي ثُم أتبعَ سبباً ثالثاً مما يبلغهُ قُطراً من أقطار الأرض، وَقِيْلَ: أتْبَعَ سَبَباً: حتى إذا بلغَ طريقاً من المشرقِ نحو الرُّومِ، وحتى إذا بلغ بين الجبلين الذين جعلوا الرَّدْمَ بينهما، وهما السدَّان.

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: (السَّدَّيْنِ) بفتح السِّين، وقرأ الباقون بضمِّها، وهما لُغتان، ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ الجبلين، ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾ أي لا يكادون يفقهونَ قولَ غيرِهم، ولا يعرفون لُغة غيرِهم.

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلف (يُفْقِهُونَ) بضمِّ الياء وكسر القاف، ومعناهُ: لا يكادون يفقهونَ أحداً قولاً. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (لاَ يَفْقَهُونَ كَلاَمَ أحَدٍ، وَلاَ أحَدٌ يَفْهَمُ كَلاَمَهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي قالوا بإشارةٍ أو ترجُمان؛ لأنه قد تقدَّم أنَّهم لا يفقهونَ قولاً، إن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وهما قبيلتان من أولادِ يافث بن نوحٍ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ؛ أي يفسدونَ أموالَ الناسِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ بغيٍ وظُلْمٍ. قال الكلبيُّ: (كَانُوا يَخْرُجُونَ إلَى أرْضِ هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ شَكَوهُمْ إلَى ذِي الْقَرْنَيْنِ أيَّامَ الرَّبيْعِ فَلاَ يَدَعُونَ فِيْهَا شَيْئاً أخْضَرَ إلاَّ أكَلُوهُ، وَلاَ يَابساً إلاَّ احْتَمَلُوهُ).

وعن عبدِالله قالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ يَأْجُوج وَمَأْجُوجَ، قَالَ: [يَأْجُوجُ أُمَّةٌ وَمَأْجُوجُ أُمَّةٌ، كُلُّ أُمَّةٍ أرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ، لاَ يَمُوتُ أحَدُهُمْ حَتَّى يَنْظُرَ إلَى أَلْفِ ذكَرٍ مِنْ صُلْبِهِ كُلُّهُمْ قَدْ حَمَلَ السِّلاَحَ] قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُمْ لَنَا؟ قَالَ: [هُمْ ثَلاَثَةُ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ مِنْهُمْ طُولُ الرَّجُلِ مِنْهُمْ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ ذِرَاعاً، وَصِنْفٌ طُولُهُ وَعِرْضُهُ سَوَاءٌ عِشْرُونَ وَمِائَةُ ذِرَاعٍ أيْضاً، وَهُمُ الَّذِيْنَ لاَ يَقُومُ لَهُمْ جَبَلٌ وَلاَ حَدِيْدٌ، وَصِنْفٌ مِنْهُمْ يَفْتَرِشُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إحْدَى أذُنَيْهِ وَيَلْتَحِفُ بِالأُخْرَى لاَ يَمُرُّونَ بفِيْلٍ وَلاَ جَمَلٍ وَلاَ وَحْشٍ وَلاَ خِنْزِيْرٍ إلاَّ أكَلُوهُ، لَهُمْ مَخَالِبُ فِي أيْدِيْهِمْ وَأضْرَاسٌ كَأَضْرَاسِ السِّبَاعِ، وَأنْيَابٌ يُسْمَعُ لَهَا حَرَكَةٌ كَحَرَكَةِ الْجَرَسِ فِي حُلُوق الإبِلِ، وَلَهُمْ مِنَ الشَّعْرِ فِي أجْسَادِهِمْ مَا يُوَارِيْهِمْ، وَمَا يُتَّقَى مِنْهُ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ، يَعْوُونَ عَوِيَّ الذِّئَابِ، وَيَتَسَافَدُونَ كَتَسَافُدِ الْبَهَائِمِ إذا الْتَقَوْا][(١)].

قال وهبٌ: (يَشْرَبُونَ مَاءَ الْبَحْرِ وَيَأْكُلُونَ دَوَابَّهَا، وَيَأْكُلُونَ الْخَشَبَ وَالشَّجَرَ، وَمَنْ ظَفَرُواْ بهِ مِنَ النَّاسِ أكَلُوهُ). وقال كعبٌ: (هُمْ زِيَادَةٌ فِي وَلَدِ آدَمَ، وَذلِكَ أنَّ آدَمَ احْتَلَمَ ذاتَ يَوْمٍ فَامْتَزَجَتْ نُطْفَتُهُ فِي التُّرَابِ، فَخَلَقَ اللهُ مِنْ ذلِكَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَهُمْ مُتَّصِلُونَ بنَا مِنْ جِهَةِ الأَبِ دُونَ الأُمِّ).

وقال ابنُ عبَّاس: (هُمْ عَشْرَةُ أجْزَاءٍ وَوَلَدُ آدَمَ كُلُّهُمْ جُزْءٌ). وَقِيلَ: إن التُّرْكَ منهم إلاّ أن أولئكَ أشدُّ فساداً من التُّركِ، فتباعدُوا عن الناسِ، كما ينعزلُ اللُّصوصُ. ويأجوجُ ومأجوج اسْمانِ أعجميَّان لا ينصرفان؛ لأنَّهما معرفةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي قالوا هل نجعلُ لكَ بعضاً من أموالِنا ضربتهُ في كلِّ سنةٍ على أن تجعلَ بيننا وبينهم حاجزاً وسدّاً. والرَّدْمُ هو السدُّ، وردمْتُ البابَ؛ أي سَدَدْتُهُ، والْخَرْجُ والخراجُ واحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ ؛ أي قال لَهم ذو القرنين: مَا مَكَّنِّي اللهُ مِن الإتساعِ في الدُّنيا خيرٌ من خَراجِكم الذي تبذلونه لِي، يريدُ ما أعطانِي اللهُ وملَّكَني أفضلُ من عطيَّتِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ أي الرِّجالِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٥٨٨) عن أبي الزهاري وشريح بن عبيد مختصراً.

والآلاتِ، ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ﴾ ؛ الرَّدْمُ أشدُّ الحجاب، وهو أكبرُ من السدِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ ؛ والزُّبْرَةُ القطعةُ العظيمة، فأتوهُ بها فبناهُ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ ؛ أي حتى إذا مَلأ ما بين الجبلين، وسَمَّاهُما صَدَفَيْنِ؛ لأنَّهما يتصادفان، أي يتقابَلان، فلما وضعَ بينهما الحديدَ وجعلَ ((بين)) كلَّ قطعتَي حديدِ حطباً حتى ملأ ما بين الجبلين، فأمرَ بالنار فأرسِلت فيه، و﴿ قَالَ ﴾ للحدَّادين: ﴿ ٱنفُخُواْ ﴾ ؛ بالمنافيخ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ ؛ أي حتى إذا صارَ الحديدُ كالنار، ﴿ قَالَ ءَاتُونِيٓ ﴾ ؛أي أعطوني قِطْرا، ﴿ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦ ﴾ ؛ وهو النحاسُ الذائب أصبُّهُ على الحديدِ والحطب فيتقطَّرُ كما يتقطرُ الماء، ففعلَ حتى إذا جعلَ بعضه في بعضٍ، فصارَ الجميعُ شيئاً واحداً جبلاً صَلْداً من حديدٍ ونُحاس. قيل إنه حفر له الأساس حتى بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخًا ثم ملأه وشرفه[1].

قولهُ تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧ ﴾ ؛ أي ما قدَرُوا أن يَعْلُوهُ لارتفاعهِ ومَلاستِهِ، وما قدَرُوا أن ينقبُوهُ من أصلهِ؛ لشدَّتهِ وصلابتهِ.

وعن أبي هريرة: [انَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفُرُونَ كُلَّ يَوْمٍ، ثُمَّ يَقُولُونَ: نَرْجِعُ إلَى غَدٍ وَنَجِيءُ أيْضاً نَحْفِرُهُ، فَيَأْتُونَهُ غَداً وَقَدْ أعَادَهُ اللهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ أنْ يَحْفِرُوهُ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ ؛ أي قال لهم ذُو القرنين لَمَّا فَرَغَ من بنائهِ، هذا التمكينُ الذي أدركتُ به السدَّ رحمةٌ مِن ربي مِن حيثُ الْهَمني وقوَّانِي، ونعمةٌ مِن ربي عليكم، ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ ؛ أي وقتُ اشتراطِ

---

(١) الشَّرَفُ: العلوُّ والمكان العالي؛ وجبَلٌ مُشرِفٌ أي عالٍ. وأشرفُ المكانَ أعلاهُ. وأشرفَ عليهِ اطَّلعَ عليه من فوق.

(٢) من حديثه مختصراً؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٥١٠-٥١١. والترمذي في الجامع: كتاب التفسير: سورة الكهف: الحديث (٣١٥٣).

السَّاعة جعلَ السدَّ كَسْراً. ومن قرأ (دَكّاً) فمعناهُ أرْضاً منبسطةً، يقالُ: نَاقَةٌ دَكَّاءُ إذا لَم يكن لَها سِنَامٌ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي كان تقديرهُ لِخروجهم صِدْقاً كائناً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ ؛ أي تركنـا يأجوجَ ومأجوجَ يومَ انقضاءِ أمر السدِّ يَموجُونَ في الدُّنيا مختلطِين لكثرَتِهم، يقالُ: مَاجَ الناسُ إذا دخلَ بعضُهم في بعضٍ حيَارَى كمَوْجِ الماءِ، فيخرجون على الناسِ فيشرَبُون الماءَ، يأكلونَ الدوابَّ، ومَن ظَفرُوا به من الناسِ أكلوهُ، فاذا كَـثُرَ فسـادُهم في الأرضِ بعثَ اللهُ عليهم بعثاً فيقتلهم فيموتون كموتِ الجرادِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ يعـني النفخـةَ الثانيةَ التي تكون للحَشْرِ يُحْشَرُ بها الناسُ من قبورهم، ويُجمَعُون جَمعـاً في الموقـفِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ أي وأظْـهرْنا جهنَّمَ يومَ القيامةِ للكافرينَ حتى يَرَوا فيها جزاءَ أعمالِهم مُعَايَنَةً.

وَقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ ؛ أي أظْـهرْنا جهنَّمَ حتى شاهَدَها الناسُ الذين كانت أعينُ قلوبهم في غطاءٍ عَنْ ذِكْري لِما تـراءَى لها من الرَّين والغشـاوةِ، ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي كـان يثقـلُ عليهم ذِكْرُ اللهِ تعالى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ ؛ أي أيَحْسَبُ الكفارُ أن ينفعَهم اتِّخاذُهم عبادي مثلَ المسيح والملائكة الذيـن عبدُوهـم مِن دونِـي أرْبَاباً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي جعلناها مَنْزِلاً ومَأْوىً لَهم، ومعدَّةً عندنا، كما يُهَيَّأُ المنْزل للضَّيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ أي قـل لَـهم يـا مُحَمَّدُ: هل نُخبرُكم بالأخْسَرِيْنَ أعْمَالاً في الآخرةِ يعني كفـار أهـل الكتـاب واليـهودَ والنصارى؟ وقال عليٌّ ﷺ: (هُمُ الرُّهْبَانُ وَالْقِسِّيْسُونَ حَبَسُوا أنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِـعِ) وَقِيْلَ: هم جميعُ اليهودِ والنَّصارى، ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ؛ أي بَطَلَ

عملُهم واجتهادُهم في الدِّيـن، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ أي وهم يظنُّونَ أنَّهم يعملون صالِحاً.

ثُم بيَّنَ مَن هم فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ ؛ أي جَحَدُوا دلائلَ توحيـدِه، وأنكـرُوا البعـثَ بعـد المـوتِ، ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ ؛ أي بَطَلَتْ حسناتُهم التي عَمِلُوها مثل صِلَـةِ الرَّحـم، والإحسـانِ إلى النـاس، فـلا يَـرَوْنَ سعيَهم مع الكفرِ شيئاً، ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ ﴾ ؛ ولا يكون لَهم عنـد اللهِ، ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ قَدْراً ولا مَنْزِلَةً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي ذلـك الإحبـاطُ جزاؤهـم، ﴿ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي واتِّخـاذهم القُـرْآنَ ونبـوَّة أنبيائي هُزُواً؛ يستهزؤن بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ الْفِرْدَوْسُ في اللُّغة: جَنَّةٌ ذاتُ كُرُوم. قـالَ رسـولُ اللهِ ﷺ: [الْجَنَّـةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَـا بَيْـنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، الْفِـرْدَوْسُ أعْلاَهَـا، مِنْـهَا تَتَفَجَّرُ الأَنْهَارُ الأَرْبَعَةُ، فَإذا سَـأَلْتُمُ اللهَ فَاسْـأَلُوهُ الْفِـرْدَوْسَ][١]. وقـال ﷺ: [جَنَّـاتُ الْفِرْدَوْسِ أرْبَعٌ: جَنَّتَان مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيْهِمَا مِنْ فِضَّةٍ، وَجَنَّتَان مِنْ ذهَبٍ آنِيَتُـهُمَا وَمَا فِيْهِمَا مِنْ ذهَبٍ][٢].

وَقِيْلَ: خلقَ اللهُ الفردوسَ بيدِهِ يفتحُها كلَّ يوم خَمْـسَ مـرَّات، فيقـولُ: ازْدَادِي حُسْناً وَطِيْباً لأَوْلِيَائِي. وقال قتادةُ: (الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأفْضَلُهَا وَأرْفَعُهَا)[٣] وقـال

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٣٩). والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣١٦ عن عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت. وابن ماجة في السـنن: كتـاب الزهـد: الحديـث (٤٣٣١) عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٤٢) عن الحارث بن عمير عـن أبيـه، والحديث (١٧٦٤٣) عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه. وهـو طريـق ابـن أبـي شـيبة في المصنف: الحديث (٣٤٠٩٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٦٣٤).

أبو أسَامَةَ: (الْفِرْدَوْسُ سُرَّةُ الْجَنَّةِ)[1]. وقال كعبٌ: (لَيسَ فِي الْجَنَّـةِ جَنَّـةٌ أرْفَـعُ مِـنَ الْفِرْدَوْسِ، فِيْهَا الآمِرُونَ بالْمَعْرُوفِ، والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ ﴾ أي مُقيمين فيـها لا يطلبونَ عنها تَحويلاً. قال ﷺ: [إنَّ الْفِرْدَوْسَ أرْفَعُ مَوْضِعٍ فِي الْجَنَّةِ وَأحْسَنُهُ][3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي ﴾ ؛ الآيةَ، وذلكَ أنه لَمَّا نزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾[4] وقالَتِ اليهودُ والنصارى: أوْتِينَا عِلماً كثيراً، أوْتِينَا التوراةَ فيها عِلْمُ كلِّ شيءٍ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ؛ أي لَوْ كَانَ الْبَحْـرُ مِدَاداً لِعِلْمِ ربي وحكمتهِ، فيكتبُ من البحر كما يكتبُ من المدادِ، ﴿ لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ ﴾ وتكسَّـرَتِ الأقـلامُ، ﴿ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ ﴾ ؛ أي بمثـلِ البحرِ، ﴿ مَدَدٗا ١٠٩ ﴾ ؛ لِهذا البحرِ. ويقالُ أرادَ بـ (كَلِمَاتِ رَبي) معانِيَ القُرْآنِ والأحكامِ المستنبطةِ منه، والْمَدَدُ شيءٌ بعدَ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ: إنَّما أنـا بَشَـرٌ آدَمِيٌّ مثلُكم. قال ابنُ عبَّاس: (عَلَّمَ اللهُ نَبيَّهُ التَّوَاضُعَ لِئَلاَّ يَتَباهَى[5] عَلَى خَلْقِهِ، فَأَمَرَهُ اللهُ أنْ يُقِرَّ عَلَى نَفْسِهِ بأنَّهُ آدَمِيٌّ كَغَيْرِهِ إلاَّ أنَّـهُ أكْـرِمَ بـالْوَحْيِ)[6]، وَهُـوَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ لا شريكَ لَه، ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ أي يَخْشَى لقاءَ ربه ويخافُ البعـثَ في المصيـرِ إليـه، ﴿ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ ؛ أي خالِصاً لا يرَى في عبادةِ الله أحداً، ﴿ وَلَا يُشۡرِكۡ ﴾ ؛ مع اللهِ غيرَهُ في العبادةِ.

وقال سعيدُ بن جبير: معناه (وَلاَ يَرَى) ﴿ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠ ﴾ ؛ وعن عطاء عن ابن عباس قال: (قال: وَلاَ يُشْرِكْ بعبَادَةِ رَبهِ أحَداً، ولَم يقُلْ: و لا يشركْ بهِ؛

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٦٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٦٣٦).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٤٥)، بإسنادين.

(٤) الاسراء / ٨٥ .

(٥) في المخطوط: (ــــ ها) فرسمت الـ (ها) بعد الفراغ، والتقدير أنه يراد به: (يتباها).

(٦) ذكره ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٢ ص٥٧٩ مختصراً.

لأنه أرادَ العملَ الذي يعملهُ للهِ، ويحبُّ أن يُحمدَ عليهِ). قال الحسنُ: (هَذا فِي مَنْ أشْرَكَ بعَمَلِهِ يُرِيْدُ اللهَ بهِ وَالنَّاسَ).

وعن عُبادة بن الصامتِ: قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: [مَنْ صَلَّى صَلاَةً يُرَائِي بها فَقَدْ أشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ صَوْماً يُرَائِي بِهِ فَقَدْ أشْرَكَ] وقرأ هذه الآية (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بعِبَادَةِ رَبهِ أحَداً)[1].

وعَن أبي هريرة وأبَيٍّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْكَهْفِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إلَى ثَمَانِيَةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ يَكُونُ فِيْهَا، وَمَنْ قَرَأ الآيَةَ الَّتِي فِي آخرِهَا حِينَ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ كَانَ لَهُ نُورٌ يَتَلأْلأُ إلَى مَكَّةَ، حِشْوُ ذلِكَ النُّور مَلاَئِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ مِنْ مَضْجَعِهِ. وَإنْ كَانَ مَضْجَعُهُ بمَكَّةَ فَتَلاَهَا كَانَ لَهُ نُورٌ يَتَلأْلأُ مِنْ مَضْجَعِهِ إلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُور، حِشْوُ ذلِكَ النُّور مَلاَئِكَةٌ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ].

وقال ﷺ: [وَمَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ ثُمَّ أدْرَكَ الدَّجَّالَ لَمْ يَضُرَّهُ][2]. وقال ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَهُوَ مَعْصُومٌ إلَى سِتَّةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكُونُ، فَإنْ خَرَجَ الدَّجَّالُ عُصِمَ مِنْهُ][3].

آخر تفسير سورة (**الكهف**) والحمد لله رب العالمين

(١) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٧٦٥٦).

(٢) ذكره البغوي مختصراً في معالم التنزيل: ص٧٩٦. وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٦ ص١٤٤.

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٦ ص١٤٤.

سُورَةُ مَرْيَمَ

سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَثَمَانِمِائَةِ حَرْفٍ، وَتِسْعُمِائَةٍ وَاثْنَتَانِ وَسِتُّونَ كَلِمَةٍ، وَثَمَانٍ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كهيعص (١) ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (أَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ ثَنَاءٌ أَثْنَى بِهِ الرَّبُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْكَافُ مِنَ كَافٍ، وَالْهَاءُ مِنْ هَادٍ، وَالْيَاءُ مِنْ حَكِيْمٍ، وَالْعَيْنُ مِنْ عَلِيْمٍ، وَالصَّادُ مِنْ صَادِقٍ وَصَمَدٍ)(١). وَقِيْلَ: معناهُ: كافٍ لخلقهِ هادٍ لعبادهِ، يده فوق أيديهم، عالِم ببَريَّتهِ، صادقٍ في وعدهِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) ﴾ ؛ أي بهذا اذكر رحمةَ ربك على زكريًّا، أو ما يُتْلَى عليكم ذكرُ رحمةِ ربكَ، و(عَبْدَهُ) منصوبٌ بالرحمة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) ﴾ ؛ أي إذ دعا ربَّهُ سِرّاً في جوفِ اللَّيلِ مُخلصاً لَم يطَّلِعْ عليه إلاَّ اللهُ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ ؛ أي ضَعُفَ منِّي.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٧٦٥٨-١٧٦٨١).

(٢) يلاحظ هنا: أن القرآن كلام عربي اللغة والأسلوب؛ خاطب الله به الناس بما تدل عليه اللغة بأفرادها واستعملته العرب بلسانها. وأصل الكلام عند العرب ما دلّ على معنى، والحروف بأفرادها لا تدل على معنى إلا إذا اجتمعت وغدت كلمة، وهي اسم وفعل وحرف جاء لمعنى حين يقرن مع غيره. لهذا لا نجد أن اللغة تدل على ما ذكر من أن الكاف تدل على الكبير أو الكافي أو غير ذلك من الحروف ما أشاروا إلى احتمال دلالتها. ويبقى مثل هذا عرضة للتأمل ويفتقر إلى الجزم، وهو ضرب من التفكر العقلي المحض. والله أعلم.

قال قتادةُ: (شَكَا ذهَابَ أضْرَاسِهِ)، والوَهَنُ في اللغةِ: نُقْصَانُ الْقُوَّةِ، ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ ؛ يقولُ: شِختُ وَضَعُفْتُ، ومن الموتِ قَرُبْتُ. والاشتعالُ: انتشارُ شُعَاعِ النَّار، واشتعالُهُ في الشَّيب من أحسنِ الاستعارةِ؛ لأنه ينتشرُ في الرأسِ، كما ينتشرُ شُعاع النار. قَوْلُهُ تَعَالَى: (شَيْباً) نُصِبَ على المصدر، وهذا يدلُّ على أن أفضلَ الدُّعاء دعاءُ السرِّ، كما قال ﷺ: [خَيْرُ الدُّعَاءِ الْخَفِيُّ، وَأفْضَلُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي كنتَ تُجيبُنِي إذا دعوتُكَ، وقد عوَّدْتَني الإجابةَ في ما مضى فلِمَ لا تُجيبُنِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾ ؛ أي خِفْتُ العصبةَ وبَنِي العمِّ أن يرثُوا عِلمي دون مَن كان مِن نَسْلِي، ويقالُ: خِفْتُهُمْ على الدِّين من ورائي؛ لأنَّهم كانوا من أشرار بني إسرائيل. قرأ يحيى بن يعمر: (خَفَّتِ) بفتحِ الخاء وتشديدِ الفاء، و (الْمَوَالِيْ) بسكون الياء، يعني ذهَبَتِ الموالِي.

وقلتُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ وَرَائِي) أي بعدَ موتِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ ؛ أي عَقِيماً من الولدِ، والرجلُ العَاقِرُ: الذي لا يولَدُ لهُ. وامرأتهُ هي أختُ أمِّ مريَم بنت عمرانَ بن ماثان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي أعطِنِي مِن عندك ولداً، ﴿ يَرِثُنِي ﴾ ، يَرِثُ نبوَّتِي ومكانِي ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ العلمَ والنبوَّةَ، أرادَ بذلك يعقوبَ بنِ ماثان وهم أخوالُ يَحيى، وبنو ماثان كانوا رؤساءَ بني إسرائيل، وليسَ يعقوبُ هذا أبو يوسفَ. قرأ أبو عمرو والكسائي: (يَرِثُنِي وَيَرِثْ)

---

(١) الحديث عن سعد بن أبي وقاص؛ أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٧٢ و١٧٨ و١٨٠. وابن حبان في موارد الضمآن: كتاب الرقائق: باب الذكر: الحديث (٢٣٢٣)؛ بلفظ: [خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي]. وإسناده ضعيف؛ فيه محمَّد بن عبدالرحمن بن أبي لبيبة. في مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٨١؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه محمَّد بن عبدالرحمن وقد وثقه ابن حبان، قلتُ: وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح)).

بالجزمِ فيهما على جواب الدُّعاء، وقرأ الباقون برفعهما على الحالِ والصِّفة. وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَلِيّاً) أي وَالِياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ ؛ أي وَفِّقْهُ للعملِ حتى يصيرَ مِمَّن ترضاهُ. وقال أبو صالِح: (مَعْنَاهُ: وَاجْعَلْهُ رَب نَبِيّاً كَمَا جَعَلْتَ أبَاهُ). وَقِيْلَ: إجْعَلْهُ صالِحاً تقيّاً بَرّاً مرْضِيّاً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين أنَّ معنى قَوْلَهُ تَعَالَى (يَرِثُنِي) أي يرثُ مالِي، إلاّ أنَّ حملَ الآية على ميراثِ العلم أولَى؛ لأن الأنبياءَ كانوا لا يَشُحُّونَ بالمال، ولا يتنافسونَ على مصيرِ المال بعد موتِهم إلى مستحقِّهِ؛ ولأنه قال (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) ولَم يُرِدْ بذلكَ المالَ، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [إنَّا - مَعْشَرَ الأَنْبيَاءِ - لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ][1] وإنَّما دعاءُ زكريا بالولدِ لِيَلِيَ أمورَ الدِّين بعدَهُ؛ لخوفِهِ من بَنِي أعمامِهِ أن يبدِّلوا دِيْنَهُ بعدَ وفاته، وخافَ أن يستولُوا على علومِهِ وكُتُبِهِ فيحرِّفونَها، ويواكلونَ الناس بها، ويفسدون دِيْنَهُ، ويصدُّون الناسَ عنه.

قولُه: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ اللهَ استجابَ لهُ فأوحى إليه: (يَا زَكَرِيَّا إنَّا نُبَشِّرُكَ) أي نُفَرِّحُكَ (بغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى)؛ لأنَّ اللهَ أحيَا به الإيْمانَ والحكمةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ ﴾ قال الكلبيُّ وقتادةُ: (مَعْنَاهُ: لَمْ نُسَمِّ أحَداً قَبْلَهُ يَحْيَى)[2]، قال ابنُ جبيرٍ وعطاء: (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ شَبيْهاً وَلاَ مِثْلاً؛ لأنَّهُ لَمْ يَعْصِ وَلاَ يَهِمُّ بمَعْصِيَةٍ). وَقِيْلَ: لَم تلِدِ العواقرُ مِثْلَهُ.

وإنَّما قالَ (مِنْ قَبْلُ) لأنهُ تعالى أرادَ أن يَخْلُقَ بَعْدَهُ أفضلَ منه وهو مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقِيْلَ: إن اللهَ تعالى لَم يُرِدْ بهذا القول جمعَ الفضائلِ كلِّها ليحيَى، وإنَّما أرادَ في بعضِها؛ لأن الخليلَ والكليمَ كانا قبلَهُ، وكانا أفضلَ منهُ.

---

(١) الحديث بألفاظ كثيرة وأسانيد عديدة، وأخرجه الإمام مالك في الموطأ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كتاب الكلام: باب ما جاء في تركة النبي ﷺ: الحديث (٢٧). والإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٤٥ و٢٦٢. والبخاري في الصحيح: كتاب الفرائض: الحديث (٦٧٢٧ و٦٧٣٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: الحديث (١٧٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٧٠٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ ؛ أي قال زكريَّا لجبريلَ: يا سيِّدي مِن أين يكونُ لِي ولدٌ، ﴿ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ مِن الولد، ﴿ وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ ﴾ ؛ أي حالَ اليأسِ والجفف.

روي أنهُ كانَ له يومئذ بضعٌ وستُّون سنةً، والعِتِيُّ هو الذي غيَّرَهُ طولُ الزمانِ إلى اليأسِ[1]. قال قتادةُ: (وإنَّمَا قَالَ ذلِكَ لِنُحُولِ عَظْمِهِ) يقالُ: رجلٌ عَاتٍ اذا كانَ قاسيَ القلب غيرَ ليِّن. وقرأ حمزةُ والكسائي: (عِتِيّاً) بكسرِ العين وهُما لُغتان، وقد تقدَّم أن هذا القولَ من زكريا لَم يكن على جهةِ الإنكار، ولكن أحبَّ مِن أيِّ وجهٍ يكونُ أبردِّهِمَا إلى الشَّباب، أو يرزقهُما الولدَ وهما على هذه الصفةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ ؛ أي قال لهُ جبريل: هكذا قَالَ رَبُّكَ، كما قلتُ لكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ ﴾ ؛ أي من قبل يحيى، ﴿ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ ﴾ ؛ وكنتَ معدوماً. قرأ حمزةُ والكسائيُّ: (وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ) بالنون والألف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ ﴾ ؛ أي قال زكريا: يا رب اجعل لِي علامةً أعلمُ بها وقوعَ ما بُشِّرتُ بهِ؛ لأتعجَّلَ المَسرَّةَ، ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ﴾ ؛ علامتُكَ، ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ ﴾ ، أي لا تقدر أن تكلم الناسَ، وأنت سَوِيٌّ لا خَرَسَ بلسانِكَ ولا آفةَ، فإنه كان يقرأ الزَّبُورَ ويدعو اللهَ ويُسَبِّحُهُ، ولكنه اعتقلَ كلامَهُ عن كلامِ الناس. وقوله (سَوِيّاً) أي صَحيحاً سالِماً من غيرِ بأسٍ ولا خرَسٍ، و (سَوِيّاً) منصوبٌ على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ ﴾ ؛ أي خَرجَ عليهم من مُصلاَّهُ مُتغَيِّرَ اللون، وهم ينتظرونه فأنكروهُ وقالوا: ما لكَ يا زكريا ؟ ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ أي أشارَ إليهم وأومَأ، ويقالُ: كتبَ بيدهِ ﴿ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١ ﴾ ؛ أي صَلُّوا لله غَدْوَةً وعَشِيَّةً، والسُّبْحَةُ الصلاةُ، فلما كان وقتُ حملِ

[1] في جامع البيان: الأثر (١٧٧١١)؛ قال الطبري: ((قال قتادة: كَانَ ابْنَ بِضْعٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً)).

امرأتهِ ومنع من الكلامِ، خرج إليهم يأمرهم بالصلاة إشارةً، ثم تكلم بعد ثلاث، وأتى امرأته على طُهْرٍ، فحملت بيَحْيَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾ ؛ أي قال اللهُ ليَحْيَى بعدَ ما بَلَغَ البلغ الذي يجوزُ أن يخاطَبَ: (خُذِ الْكِتَابَ بقُوَّةٍ) أي اعمل بما في التَّوراةِ بجِدٍّ ومواظبةٍ وعزِيْمَةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي أعطيناهُ الحكمةَ، وهي الفَهْمُ لكتاب الله صَبيّاً، وكان يحيى عليه السلام على هَيْأةِ الصبيان، ولهُ عقلُ البالغينَ. و قال ابنُ عبَّاس: (وَآتَيْنَاهُ النُّبُوَّةَ فِي صِبَاهُ وَهُوَ ابْنُ ثَلاَثِ سِنِيْنَ)[1]. وروي أنهُ مَرَّ بالصِّبيانِ وهو صغيرٌ، فقالوا: تَعَالَ نلعبُ، فقال: مَا لِلَّعِبِ خُلِقْنَا[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ ﴾ ؛ أي وآتَيْنَاهُ تَحَنُّناً على قومهِ، وَرِقَّةَ قلبٍ عليهم؛ ليدعوَهُم إلى طاعة ربهم، وقولهُ (وَزَكَاةً) أي عَمَلاً صالحاً وإخلاصاً، وَقِيْلَ: معناهُ: جعلناهُ طاهراً من الذُّنوب. وَقِيْلَ: معناه: (وَحَنَاناً مِن لَدُنَّا) أي جعلناهُ رحمةً من عندنا لأبويهِ (وَزَكَاةً) أي صدقةً عليهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي مُطِيعاً مُخلصاً بجميعِ كل ما يرضاهُ الله مِن عبادهِ. قال المفسِّرون: وكانَ من تقواهُ أنه لَم يعمل خطيئةً ولا هَمَّ بها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ ؛ أي لَطِيفاً بوالديه، مُحسناً إليهما، ﴿ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لَم يكن مُتَكَبراً على مَن في دِينه، ولا عاصياً لربهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ ﴾ ؛ أي سلامةٌ وسعادة مِنَّا عليه حين وُلِدَ وحين يَموتُ، ﴿ وَيَوۡمَ ﴾ ، وحين؛ ﴿ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ من القبرِ. قال عطاءُ: (يُرِيْدُ سَلاَمَةً لَهُ مِنَّا).

قال سفيان بن عُيينة: (أوْحَشُ مَا يَكُونُ الْخَلْقُ فِي ثَلاَثَةِ مَوَاطِن: يَوْمَ وُلِدَ فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجاً مِمَّا كَانَ فِيْهِ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْماً مَا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ، وَأحْكَاماً لَمْ

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ج ٩ ص٢٤.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٧٣٧).

يَعْهَدْهَا، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فيرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ لَمْ يَـرَهُ، فَخَصَّـهُ اللهُ بالْكَرَامَـةِ وَالسَّـلاَمَةِ وَالسَّلاَمِ فِي الْمَوَاطِنِ الثَّلاثَةِ)[1].

وعن الحسن: (أنَّ يَحْيَى وَعِيْسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ الْتَقيَا، فَقَالَ لَهُ عِيْسَى: اسْتَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي، وَقَالَ يَحْيَى: اسْتَغْفِرْ لِي فَأَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي، فَقَـالَ عِيْسَـى: بَـلْ أَنْـتَ خَيْرٌ مِنِّي، أنَا سَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِي، وَأَنْتَ سَلَّمَ اللهُ عَلَيْكَ).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي اذْكُرْ يا مُحَمَّـدُ في القُـرآن خَـبَرَ مريَـمَ؛ لتعتـبرَ النـاسُ بدِينـها وصلاحِها، والمعنى اذْكُرْ خبرَها لأهلِ مكَّة. قَوْلُهُ تَعَـالَى (إِذِ انتَبَـذَتْ) أي تَنَحَّـتْ مـن أهلِها، وتفرَّدت مِمَّن كانوا معها في الدار إلى مكانٍ في جـانب الشَّـرق، جلسـت فيـهِ؛ لأنَّها كانت في الشِّتاء، فجلست في مَشْرَقَةِ الشمسِ.

وقال عكرمـةُ: (أرَادَتِ الْغُسْـلَ مِـنَ الْحَيْـضِ، فَتَحَوَّلَـتْ إلَـى مَشْـرَقَةِ دَارِهِـمْ لِلْغُسْلِ) ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ ؛ أي مِن دون أهلِـها سِـتْراً لئـلاَّ يروهـا، فَــ؛ بينما هي في مشرقة الدار تغتسـلُ مـن الحيـضِ،﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ ، أي دخلَ عليها جبريل عليه السلام بعد ما فرغت من الاغتسال في صورة شابٌّ أمردَ حسـنِ الوجه جَعْدَ الشعرِ، وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ وإنَّما أرسلَ اللهُ جبريلَ في صورة البشرِ؛ لتثبت مريَمُ وتقدرَ على استماعِ كلامه.

قال ابنُ عبَّاس: (فَلَمَّا رَأتْ مَرْيَمُ جِبْرِيلَ تَقْصِـدُ نَحْوَهَـا نَادَتْـهُ مِـنْ بَعِيْـدٍ)[2]، ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي إنْ كنـتَ تقيّـاً مُخلصاً مطيعاً، فستنتهي لتعوذِي بالله منكَ، وَقِيْلَ: إنَّ تقيّاً كان رجُلاً من أمثلِ الناس في ذلك الزمان، فقالت: إن كنتَ في الصلاحِ مثل التقيِّ، فـإنِّي أعـوذُ بـالرَّحمنِ منـكَ،

---

(١) في جامع البيان: مج ٩ ج ١٦ ص٧٤؛ قال الطبري: ((وقد ذكر ابن عيينـة في ذلـك مـا حدثـني أحمد بن منصور الفيروزي؛ قال: أخبرني صدقة بن الفضل قال: سمعـت أبـو عطيـة يقـول: ... وذكره)).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٧٩٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) أي جبريلَ عليه السلام، خُصَّ بالإضافةِ إلى اللهِ تعالى تشريفاً له، وسُمِّي روحاً؛ لأن الناسَ يَحْيَوْنَ بما جاء في أديانِهم، كما يحيون بأرواحِ أبدانِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ ﴾ أي لأهبَ لك بأمرِ الله ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب. ومن قرأ: (لِيَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً) فالمعنى لِيَهَبَ اللهُ لكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ ﴾ ؛ أي مِن أينَ يكون لِي ولدٌ، ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ ﴾ ؛ ولَم يقربني زوجٌ، ﴿ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي ولَم أكن فاجرةً زانية، والباغيةُ هي الطالبةُ للزِّنَى. قال ابنُ عبَّاس: (قَالَتْ مَرْيَمُ لَيْسَ لِي زَوْجٌ، وَلَسْتُ بزَانِيَةٍ، وَلاَ يَكُونُ الْوَلَدُ إلاَّ مِنَ الزَّوْجِ أو الزِّنَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ؛ أي قالَ لَها جبريلُ، كما قلتُ لكِ قالَ ربُّك: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ ﴾ ؛ أي خَلْقُهُ عليَّ هيِّنٌ من غيرِ هاتين الجهتين، كخلقِ آدمَ، لا أبَ ولا أمَّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ ﴾ ؛ أي لنجعلَهُ دلالةً على قدرتِنا ورحمةً للخلقِ، وَقِيْلَ: ورحمةً لِمن اتَّبعَهُ على دِينه وصدقه وكان خلقه، ﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ أي مَحكوماً به مفروغاً منه، سابقاً في علمِ الله أن يقعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّها لَمَّا سَمِعت كلامَ جبريل اطمأنَّتْ إلى قولِه، فدَنَا منها ونفخَ في جيبِها، فوصلت تلك النفخةُ إلى بطنِها فحملت بعيسَى عليه السلام. وَقِيْلَ: نفخَ جبريلُ بها من بعيدٍ فوصلت النفخةُ إليها فحملَتْ. فلما ظهرَ حملُها انْتَبذتْ أي خرجت وانفردَتْ، وتَنَحَّتْ بولادتِها إلى مكان بعيد من الناسِ. والانْتِبَاذُ: مأخوذٌ من نَبَذْتُ الشيءَ إذا رميتُ بهِ، وجلسَ نُبْذةً أي ناحيةً، والقاصِي والقَصِيُّ خلافُ الدَّانِي.

واختلفوا في مُدَّةِ حَملِها، فقال بعضُهم: تسعةُ أشهرٍ كحمل سائرِ النِّساء على ما جرت به العادةُ، وقال: بعضُهم ثمانية أشهرٍ، وكان ذلك آيةً أخرى؛ لأنه لَم يعِشْ

مولودٌ وُضِعَ لثمانيةِ أشهر غيرُ عيسى ؑ، وقال بعضُهم: ستةُ أشهر، وَقِيْلَ: ثلاث ساعات، وَقِيْلَ: ساعةٌ واحدة.

وقال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (مَا هُوَ إلاَّ أنْ حَمَلَتْ فَوَضَعَتْ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَمْلِ وَالإنْبَاذِ إلاَّ سَاعَةٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ بَيْنَهُمَا فَصْلاً). وقال مقاتلُ: (حَمَلَتْهُ فِي سَاعَةٍ وَصُوِّرَ فِي سَاعَةٍ، وَوَضَعَتْهُ فِي سَاعَةٍ حِيْنَ زَالَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِهَا وَهِيَ بنْتُ عَشْرِ سِنِيْنَ، وَقَدْ حَاضَتْ حَيْضَتَيْنِ قَبْلَ أنْ تَحْمِلَ بعِيْسَى ؑ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مَكَاناً قَصِيّاً) أي مَكاناً بعيداً. قال ابنُ عبَّاس: (أقْصَى الْوَادِي فِرَاراً مِنْ قَوْمِهَا أنْ يُعَيِّرُوهَا بوِلاَدَتِهَا مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ ؛ أي الْجَأهَا، ويقالُ: جاءَ بها وأجاءَها بمعنى واحدٍ، كما يقالُ ذهبَ بهِ وأذهبَهُ. والْمَخَاضُ: وَجَعُ الولادةِ، وَقِيْلَ: تَحَرُّكُ الولدِ للولادة، وَقِيْلَ: الحملُ. وقرأ عبدُالله: (فَآوَاهَا الْمَخَاضُ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ ؛ وكانت نخلةً يابسة في الصحراءِ ولَم يكن لَها سَعَفٌ أي لا رأسَ لَها، وَقِيْلَ: كان جِذْعاً ميتاً قد أتِي به لبناء بيتٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي لَم أخلَقْ، وَقِيْلَ: شيئاً متروكاً لا يُذكر، والنَّسْيُ في كلام العرب: الشيءُ الحقير الذي إذا ألْقِيَ نُسِيَ، ولَم يُلْتَفَتْ إليه. قال السديُّ: (إنَّما تَمَنَّتْ مَرْيَمُ الْمَوْتَ اسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ، خَافَتِ الْفَضِيْحَةَ)[1].

وَقِيْلَ: للحال الذي دُفِعَتْ إليها من الولادةِ، والصحيحُ: أنَّها إنَّما تَمَنَّتْ لعلمِها بأنَّ الناسَ سيرمُونَها بالفاحشةِ فيأثمون بسببها، فتَمَنَّتْ أن تكون ماتت قبلَ أن تقولَ الناسُ بسببها قولاً يُسْخِطُ اللهَ تعالى. قرأ حمزةُ وحفص (نَسْياً) بفتح النون وهما لُغتان.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٧٨٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي﴾؛ قال ابنُ عبَّاس والسديُّ والضحَّاك وقتادة: (إنَّ الْمُنَادِي مِنْ تَحْتِهَا هُوَ جِبْرِيْلُ عليه السلام، كَأَنَّهُ كَانَ فِي مَكَان أسْفَلَ مِنْ مَكَانِهَا، فَنَادَاهَا ألاَّ تَحْزَنِي يَا مَرْيَمُ عَلَى وِلاَدَةِ عِيْسَى، فَقَدْ أحْسَنَ اللهُ لَكِ الاخْتِيَارَ، وَجَعَلَ تَحْتَكِ سَرِيّاً). قَالَ السديُّ: (هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيْرُ، سُمِّيَ سَرِيّاً؛ لأنَّهُ يَسْرِي لِجَرَيَانِهِ)[1].

وقال الحسنُ: (هُوَ عِيسَى، وَهُوَ وَاللهِ السَّرِيُّ مِنَ الرِّجَالِ)[2]. وهذا التأويلُ على قراءةِ مَن قرأ (مِنْ تَحْتِهَا) بكسر الميم والتَّاء، وهي قراءةُ نافع وحمزة والكسائي وحفص، وقرأ الباقون بالفتح وهو عيسَى عليه السلام لَمَّا خرجَ من بطنِ أمِّهِ ناداها ألاَّ تَحْزَنِي، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾؛أي نَهراً صغيراً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (ضَرَبَ جِبْرِيْلُ، وَقِيْلَ: عِيْسَى عليه السلام برجْلِهِ الأَرْضَ فَظَهَرَتْ عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، وَجَرَى تَحْتَ النَّخْلَةِ، فَحَيَتْ بَعْدَ يُبْسِهَا فَأَوْرَقَتْ وَأَثْمَرَتْ وَرَطِبَتْ). ومعنى الآية: حَرِّكِي وخُذِي إليكِ جذعَ النخلةِ. والباءُ فيه زائدةٌ، تقولُ العرب: هَزَّهُ وهَزَّ بهِ، وخُذْ بالخطامِ وخُذِ الْخِطَامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾؛ قرأ يعقوبُ (يُسَاقِطْ) بالياء، يعني الجذعَ، وقرأ حفصٌ بالتاء وضمِّها وتخفيف السِّين وكسر القاف. وقرأ حمزةُ (تَسَاقَطْ) بفتح التاء والقافِ مخفَّفاً، وقرأ الباقونَ بفتحِ التاء وتشديد السين؛ أي يَتَساقَطُ، فأُدغمت الياءُ في السين. معناهُ: يُسقِطُ عليكِ النخلةُ، والرطبُ الْجَنِيُّ: هو الْجَنِيُّ من الثمرةِ الرطبة الطريَّة. ونُصب (رُطَباً) على التفسيرِ. ومن قرأ (تُسَاقِطْ) بالضم انتصبَ على المفعول.

---

(١) في كتاب الغريبين: ج ٣ ص٨٩٢: (سرى): قال الهروي: (أي جَدْوَلاً ونَهَراً وسُمِّيَ النهرُ سَرِيّاً؛ لأنَّ الماءَ يَسري فيه أي يَمرُّ جارياً). وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٩٤؛ قال القرطبي: (قال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قريباً من النخلة. قال ابن عباس: كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم، والنهر يسمى سرياً؛ لأن الماء يسري فيه).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٢٠).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ ؛ أي فكُلِي من الرُّطب، واشرَبي من النهرِ، وقرِّي عَيْناً بولدِكِ عيسى، وطيبي نفساً؛ أي يقالُ: قَرَّتْ عَيْنُهُ؛ أي بَرَدَتْ بردَ السرور بما ترى، ويقالُ: سَكَنَتْ سكونَ السُّرور برؤيةِ ما تحبُّ، فالأول مِن القَرِّ، والثاني من القَرَار. وانتصبَ (عَيْناً) على التفسير الْمُحول، كما يقالُ: طِيْبي نَفْساً؛ أي طَابَتْ نفسُكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ ؛ أي فإما تَرَيِنَّ من الآدميِّين أحداً، فسألَكِ عن الولدِ أو لاَمَكِ عليه، ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ ؛ أي صَمْتاً، وكذلكَ كان يقرؤُها ابنُ مسعود وأنسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (صَمْتاً؛ أيْ أوْجَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا أنْ لاَ تَتَكَلَّمَ)[1].

وقال قتادةُ: (صَامَتْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَاب وَالْكَلاَمِ) ولِهذا قالَتْ: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي آدَمِيّاً، وكان قد أذِنَ لَها أن تتكلمَ بهذا القدر ثم سكتت. قال ابنُ مسعود رضي الله عنه:(أمِرَتْ بالصَّمْتِ؛ لأنَّهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا حُجَّةٌ عِنْدَ النَّاسِ فِي شَأْنِ وَلَدِهَا، فَأُمِرَتْ بالْكَفِّ عَنِ الْكَلاَمِ يَكْفِيْهَا وَلَدُهَا الْكَلاَمَ بمَا يُبْرِئُ سَاحَتَهَا)[2]. وفي الآيَةِ دلالةٌ أنَّ الصمتَ كان قُرْبَةً في زمانِهم، ولولا ذلكَ لَمَا نذرتْهُ مريَمُ، ثم نُسِخَ ذلكَ بنهي النبيِّ ﷺ عن صومِ الصَّمت. ويروى أنهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صَمْتِ يَوْمٍ إلَى اللَّيْلِ[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ روي أنَّها أتَتْ بعيسى تحملهُ إلى قومِها بعد أن طَهُرَتْ من نِفَاسِهَا؛ أي بعد أربعينَ يوماً، فتكلَّمَ عيسى في الطريقِ وهو ابنُ أربعينَ يوماً، فقال: يا أمَّاهُ أبْشِرِي فإنِّي عبدُ اللهِ ومسيحُهُ، فلما دخلت على قومِها بَكَوا وحزِنُوا، وكانوا أهلَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٣١-١٧٨٣٤).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٠٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم عن حارثة بن مقرب ... وذكره)).

(٣) رواه الدارقطني في السنن: ج ٤ ص١٦٢.

بيتِ صالح، و (قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً) أي مُنْكَراً عظيماً لا يُعْرَفُ منكِ، ولا من أهلِ بيتكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هَارُونَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيْلَ نُسِبَتْ إلَيْهِ) والمعنى: يا شَبيْهَةَ هارون في العبادةِ. رويَ أن أهلَ الكتاب قالوا: كيفَ يقولون إنَّ مريم أختَ هارون وبينهُما ستُّمائة سنةٍ، فذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: [إنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ باسْمِ الأَنْبيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ][١].

فعلى هذا يجوزُ أنَّ أخا مريَم كان يسمَّى هارون. وقال السديُّ: (هُوَ هَارُونُ أخُو مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، نُسِبَتْ إلَيْهِ؛ لأنَّهَا مِنْ وَلَدِهِ كَمَا يُقَالُ يَا أخَا بَنِي فُلاَن)[٢]. وَقِيْلَ: كان رجُلاً فاسقاً معروفاً بالفِسْقِ فنُسبت إليه. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (مَا كَانَ أبُوكِ امْرَأ سَوْءٍ) قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ زَانِياً)، ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ ﴾ ؛ جِنَّةً؛ ﴿ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي ما كانت بغيًّا، فمِن أينَ لكِ هذا الولد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ ؛ أي أشارَتْ إلى عيسَى عليه السلام وهو يرضعُ بأن كلِّمُوهُ، فعَجِبُوا مِن ذلك و ﴿ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي في الْحِجْرِ رضيعاً، والْمَهْدُ هَهُنَا حِجْرُ أمِّهِ، وَقِيْلَ: هو الْمَهْدُ بعينهِ. قال أبو عبيدة: (كَانَ هَهُنَا زَائِدَةٌ لاَ مَعْنَى لَهَا). والمعنى كيفَ نُكلِّمُ صبياً في المهدِ، ويجوزُ أن تكون (مَنْ) في موضعِ الشَّرط والجزاء، والمعنى مَن يكن في المهدِ صبيّاً فكيفَ نُكلِّمُهُ، والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء، ويجوزُ أن يكون (صَبيّاً) نُصِبَ على الحالِ؛ أي كيفَ نُكلِّمُ مَن في المهدِ صبياً؛ أي في هذه الحالةِ.

قال السديُّ: (فَلَمَّا أشَارَتْ إلَى عِيْسَى عليه السلام غَضِبُوا وَقَالُوا: لَسُخْرِيَتُهَا بنَا أشَدُّ مِنْ زِنَاهَا. فَلَمَّا سَمِعَ عِيْسَى كَلاَمَهُمْ، تَرَكَ الرَّضَاعَ وَأقْبَلَ بوَجْهِهِ عَلَيْهِمْ وَ ﴿ قَالَ إِنِّى

(١) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الآداب: باب النهي عن التكني بأبي القاسم: الحديث (٩/ ٢١٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٥٢).

عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[١]؛ يعني علَّمني التوراةَ والزبورَ. وقال مقاتلُ: (علَّمَهُ اللهُ الإنْجيْلَ فِي بَطْنِ أمِّهِ) ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾﴾؛ أي حكَمَ لِي بالنبوَّةِ في ما مضَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾؛ أي مُعلِّماً للخيرِ، نفَّاعاً ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾؛ حيثُما كنتُ أدعُوا إلى اللهِ تعالى، وإلى توحيدِهِ وعبادته، ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾؛ أي أمرَني بإقامةِ الصَّلاة وإيتاءِ الزكاة، ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾؛ أي وجعلَنِي برّاً بوالدتِي. قال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا قَالَ عِيسَى عليه السلام: بوَالِدَتِي، عَلِمُوا أنَّهُ شَيْءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى)، ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾﴾؛ أي متعظِّماً، أقْتُلُ وأضربُ على الغضب، ولا شقيّاً عاصياً لربهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾﴾ معناهُ: والسلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ حتى لَم يضرَّني شيطانٌ، وَيَوْمَ أمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً من القبرِ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ للإنسان أن يصفَ نفسَهُ بصفاءِ الخيرِ إذا أرادَ تعريفَها إلى غيرِهِ، ولَم يُرِدِ الافتخارَ، وهو مثلُ قولِ يوسفَ عليه السلام للملكِ ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٢]. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّمَا كَلَّمَهُمْ عِيْسَى عليه السلام بهَذا الْكَلاَمِ لاَ غَيْرِهِ، ثُمَّ سَكَتَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى بَلَغَ مِقْدَارَ مُدَّةٍ مَا يَتَكَلَّمُ الصِّبْيَانُ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي ذلكَ الذي قالَ إنِّي عبدُ الله عيسَى بنُ مريَمَ قَوْلَ الْحَقِّ، مَن قرأ بنصب (قَوْلَ) فالمعنى: قولَ الحقِّ، ومَن رفعَهُ فالمعنى: هو قولُ الحقِّ، أو كلمةُ الحقِّ، والحقُّ هو الحقُّ تعالى. ومعنى قراءةِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٥٩).

(٢) يوسف / ٥٥ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٩ ص٥٠٩-٥١٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن عساكر عن طريق مجاهد)).

النصب أقولُ قولَ الحقِّ، ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ؛ أي يَشُكُّونَ فيختلفون، فإنَّهم اختلفوا - يعني النصَارَى - فقائلٌ منهم يقولُ: هو اللهُ، وقائلٌ يقولُ: هو ابنُ اللهِ، واليهودُ تقول: وُلِدَ لغيرِ رشدةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ ؛ أي ما ينبغِي للهِ أن يتخذ ولداً وليس ذلك مِن صفاته، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾ ؛ أي تنْزيهاً له عن الولدِ والشريك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ ؛ أي كيفَ يَتَّخِذُ ولداً مَن إذا شاءَ أمراً كان كما خلقَ عيسى بلا أبٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ هذا إخبارٌ عن عيسى أنهُ قال ذلك. من قرأ بفتحِ الهمزة فالمعنَى: وأوصانِي أنَّ اللهَ ربي وربُّكم، أو قضَى أنَّ اللهَ ربي وربُّكم، ومَن كسرَها فعلى الاستئنافِ، ويجوزُ أن يكون عطفاً على (إنِّي عَبْدُ اللهِ). والصراطُ المستقيمُ هو الدِّين المستمرُّ في جهةٍ واحدة، وَقِيْلَ: معناهُ: هذا الذي أخبَرَكم أنَّ اللهَ أمرَنِي به هو الطريقُ المستقيم الذي يؤدِّي إلى الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ ؛ ويعني بالأحزاب: النصارَى، كانوا أحزَاباً متفرِّقين في أمرِ عيسى عليه السلام، فبعضُهم يقول: اللهُ، وبعضهم يقولُ: هو ابنُ الله، وبعضُهم يقولُ: ثالثُ ثلاثةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ ؛ أي فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ تحدَّثوا في عيسَى مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ يشهدهُ الخلائقُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ ؛ أي ما أسْمعُهم وما أبصرُهم يومَ القيامةِ؛ أي يشاهدون من الغيب ما يُسْمَعُ ويُبْصَرُ بلا شكٍّ ولا مِرْيَةٍ. قال قتادةُ: (سَمِعُوا حِيْنَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ السَّمْعُ، وَأبْصَرُوا حِيْنَ لَمْ يَنْفَعْهُمُ الْبَصَرُ)(١). وقال

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٨٨٢). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٥١١ح قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم)).

الحسنُ: (لَئِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا عُمْياً وَصُمّاً عَن الْحَقِّ، فَمَا أَبْصَرَهُمْ وَأَسْمَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ ؛ أي لكنَّهم في الدُّنيا في كُفْرٍ بَيِّنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ ؛ أي خوِّفْ يا مُحَمَّدُ أهلَ مكَّة يومَ يَتَحَسَّرُ الْمُسِيْءُ هَلاَّ أحسنَ العملَ، والْمُحْسِنُ هلاَّ ازدادَ مِن الأحسنِ. وقال أكثرُ المفسِّرين: يعني الْحَسْرَةَ يومَ يُذْبَحُ الموتُ بين الفريقين، فلو ماتَ أحدٌ فرَحاً لَما ماتَ أهلُ الجنَّة، ولو ماتَ أحدٌ حُزناً لَمَا ماتَ أهلُ النار.

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [يُجَاءُ بالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار، فَيُقَالُ: يَا أهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذا ؟ فَيُشْرِفُونَ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ هَذا الْمَوْتُ. فَيُقَالُ لأَهْلِ النَّار كَذلِكَ، فَكُلُّهُمْ قَدْ عَرَفَهُ، فَيُذْبَحُ، وَيُقَالُ: يَا أهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بلاَ مَوْتٍ، وَيَا أهْلَ النَّار خُلُودٌ بلاَ مَوْتٍ] ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ)[1]. قال مقاتلُ: (لَوْلاَ مَا قَضَى اللهُ مِنْ تَخْلِيْدِ أهْلِ النَّار وَتَعْمِيرِهِمْ فِيْهَا، لَمَاتُواْ حَسْرَةً حِيْنَ رَأَوْا ذلِكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذْ قُضِيَ الأَمْرُ) أي قُضِيَ لَهم العذابُ في الآخرة، وهم في الدُّنيا في غفلةٍ. وقال السديُّ: (إذْ قُضِيَ الأَمْرُ؛ أيْ ذُبحَ الْمَوْتُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ فِي الدُّنْيَا عَمَّا يُصْنَعُ بالْمَوْتِ ذلِكَ الْيَوْمِ) ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ؛ بما يصنعُ بالموتِ ذلك اليوم.

ويقالُ: معنى قولهِ تعالى (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) هو يومُ يأتيهم مَلَكُ الموتِ يقبضُ أرواحَهم، فإذا وقعتِ المعاينةُ قال عندَ ذلك: رَب ارْجِعُونِي، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إذا جَاءَ أحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَب ارْجِعُونِي، لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الرقائق: باب صفة الجنة والنار: الحديث (٦٥٤٨). ومسلم في الصحيح: كتاب الجنة وصفة نعيمها: باب النار يدخلها الجبارون: الحديث (٤٠/ ٢٨٤٩).

تَرَكْتُ﴾(١) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) أي وَهُمْ في الدُّنيا في غفلةٍ، وهم لا يؤمنونَ بالقُرْآن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ ؛ أي نُمِتْ سكَّانَها فنرثُها، وهذا كقولهِ تعالى ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾(٢)؛ لأنَّهم إذا ماتُوا انقطعَ مُلْكُ العبادِ عنِ الأرض. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي بعدَ الموتِ، فنجزيَهم بأعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي واذكُرْ في القُرْآنِ لقومِكَ قصَّةَ إبراهيمَ؛ إنهُ كثيرُ التصديقِ بالحقِّ مُوقِناً صَدُوقاً رَسُولاً نبيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ ؛ أي لِمَ تعبدُ مِن دون الله مَا لاَ يسمَعُ إنْ دعوتَهُ، ولا يُبْصِرُ إن عبدتَهُ، يعني الصنمَ، ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ من عذاب الله، ولا يدفعُ عنك ضرّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ؛ أي من العِلْمِ باللهِ والمعرفة، وإنَّ مَنْ عبدَ غيرَ الله عذبَهُ، ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ ﴾ علَى دِيني ﴿ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي أرشِدْكَ إلى دِينٍ مستقيم.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ ؛ أي لا تُطِعْهُ فيما زَيَّنَ لكَ من الكفرِ والمعاصي، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي كثيرَ العصيانِ لله تعالى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ أي عذابٌ مِنَ اللهِ بطاعتك للشيطانِ، ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ أي قرِيْناً في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ ؛ أي قالَ له أبوهُ مُجيباً له: أمُعْرِضٌ وتاركٌ أنتَ عبادةَ آلِهتي يا ابراهيمُ، ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ ؛ عن

(١) المؤمنون / ٩٩-١٠٠ . (٢) الحجر / ٢٣ .

مقالتِكَ، وتسكُتَ عن شَتْمِ آلِهتِي وعيبِها، ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ ؛ أي لأرمينَّكَ بالشَّتمِ والعيب، وَقِيْلَ: لأقتلنَّكَ رَجْماً، ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) ﴾ ؛ أي تَبَاعَدْ عنِّي دهراً طويلاً.

وقال الحسنُ وقتادة: (مَعْنَى مَلِيّاً؛ أي سالِماً سويّاً مِن قبلِ أن يلحقكَ مكروهٌ منِّي)، وأصلُ الْمَلاَوَةِ الزمانُ الطويل من الدهرِ، يقالُ: أقامَ في موضعٍ كذا مَلِيّاً، والْمَلَوَان: الليلُ والنهارُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ ؛ أي قالَ إبراهيمُ لأبيهِ: سَلِمْتَ منِّي لا أصيبُكَ بمكروهٍ، وذلك أنهُ لَم يؤمِن بقتالِهِ على كُفرهِ، هذا سلامُ توديعٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ ؛ أي سأسألُ اللهَ لكَ توبةً تنالُ بها مغفرتَهُ، ويرزقكَ التوحيدَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ ؛ أي لَطِيْفاً رَحِيماً، وَقِيْلَ: عالِماً يستجيبُ لِي إذا دعوتُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ ؛ أي أتنحَّى عنكم وأفارقُكم، وأعتزلُ ما تدعون من دون اللهِ يعني الأصنامَ، فاعتزلَهم وهاجرَ إلى الأرضِ المقدسة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾ ؛ أي مَحْرُوماً خائباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ ؛ أي فلما خرجَ إلى ناحيةِ الشَّام، وتركَهم وتركَ أصنامَهم آنسْنَا وحشتَهُ بأولادٍ كِرامٍ على اللهِ تعالى، ووَهَبْنَا لَهم نِعَماً كثيرةً، وأكرمناهم بالثَّناءِ الحسَنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾ ؛ أي وهبنا لَهم المالَ والولدَ، وبسَطْنا لَهم في الرِّزق. وقال بعضُهم: يعني الكتابَ والنبوَّةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾ ؛ أي ثناءً حَسَناً في الناس، مرتفعاً سائرًا في الناسِ، فكلُّ أهلِ الْمِلَلِ والأديانِ يُحْسِنُونَ الثناءَ عليهم، ويتولَّون إبراهيمَ ودِينَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ أي واذْكُرْ في القُرْآنِ خَبَرَ موسى إنه كان مُخلصاً للهِ تعالى بالعبادةِ والتوحيد، وكان رسُولاً رفيعاً. ومَن قرأ (مُخْلَصاً) بفتحِ اللام فمعناهُ: أخْلَصْنَاهُ واحببناه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن النداءَ هو قولُ اللهِ تعالى له يا موسى ﴿إنّي أنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١]، والطُّورُ: هو جبلٌ بالشامِ، نادهُ اللهُ تعالى من ناحيةِ اليُمنى، يعني يَمين موسى، والمعنى أن موسَى سَمع[٢] النداءَ عن يَمينهِ، ولا يكون للجبلِ يَمينٌ ولا يسار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي جعلنا محلَّهُ مِنَّا، محل مَن قربه مولاهُ من مجلسِ كرامته، والنَّجيُّ هو المختصُّ بإدراكِ كلامِ مُكَلِّمِهِ. قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (قَرَّبَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى إلَى أعْلَى الْحُجُب حَتَّى سَمِعَ صَرِيْرَ الْقَلَمِ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ وذلكَ حين سألَ موسى رَبَّهُ فقال ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أهْلِي، هَارُونَ أخِي﴾[٤] فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ ؛ هو إسماعيلُ بن إبراهيمَ، ومعنى صادِقَ الوعدِ؛ أي أنه كان إذا وَعَدَ أنْجزَ. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّهُ وَعَدَ رَجُلاً أنْ يَنْتَظِرَهُ حَتَّى رَجَعَ إلَيْهِ، فَأقَامَ مَكَانَهُ يَنْتَظِرُهُ حَتَّى حَالَ الْحَوْلُ وَرَجَعَ إلَيْهِ الرَّجُلُ). ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ إلَى جُرْهُمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ ؛ قِيْلَ: أرادَ بالأهلِ أمَّتَهُ، وأهلَ أمَّتِهِ، ونظيره ﴿وَأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاَةِ﴾[٥] أي قومَكَ، ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي صالحاً زكيّاً.

---

(١) القصص / ٣٠ .

(٢) في أصل المخطوط: (سمي) والصحيح ما أثبتناه.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٠٩).

(٤) طه / ٢٩-٣٠ . (٥) طه / ١٣٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾؛ اسمُ ادريسَ أخْنُوخَ، وهو جدُّ أبي نوحٍ، وسُمي إدريس لكثرةِ دَرْسِهِ الكتبَ، وكان خَيَّاطاً وهو أولُ من خطَّ بالقلمِ، وهو أولُ من خاطَ الثيابَ ولبس المخيطَ، وأولُ من نَظَرَ في علمِ النُّجوم والحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبيّاً) أنزلت عليه ثلاثونَ صحيفةً، وهو أولُ من لَبسَ القطنَ، وكانوا قَبْلَ ذلك يلبسونَ جلود الضَّأن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾؛ رُوي عن أنسِ بن مالك، وأبي سعيدِ الخدريِّ ومجاهد: (أنَّهُ رُفِعَ إلَى السَّمَاءِ الرَّابعَةِ)[1]، وقال ابنُ عبَّاس والضحَّاك: (إلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ). وَقِيْلَ: معناهُ: ورفعناهُ في العلمِ والنبوَّة إلى درجةٍ عالية. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ قال: [لَمَّا عُرِجَ بي رَأيْتُ إدْرِيْسَ فِي السَّمَاءِ الرَّابعَةِ][2].

وكان سببُ رفعهِ على قولِ ابنِ عبَّاس: (أنهُ سارَ ذات يومٍ في حاجتهِ فأصابَهُ وَهَجُ الشمس، فقال: يا رب إنِّي مشيتُ يوماً واحداً، فكيفَ بمن حملَها خمسمائةَ عامٍ في يوم واحد، اللَّهُمَّ خفِّفْ عنهُ مِن ثقلِها واحمِلْ عنهُ حرَّها، فلما أصبحَ الملكُ الْمُوَكَّلُ بها وجدَ خِفَّةً في حرِّها بخلافِ ما يعرفُ، فقالَ: يا رب ما الذي قضيتَ ؟ فقال: إنَّ عبدي إدريسَ سألَني أن أخفِّفَ عنكَ حملَها وحرَّها فأجبته، فقال: يا رب اجْمَعْ بيني وبينَهُ صبحةً فأذِنَ له حتى أتى إلى إدريسَ، فسألَهُ عن ذلك فأخبرَهُ أنه دعا له شفقةً عليهِ، ثُم حملَهُ مَلَكُ الشمسِ على جناحِهِ، ورفعه إلى السَّماء بإذنِ الله تعالى).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾؛ معناهُ: إن الذينَ ذكرتُهم هم الذينَ أكرمَهم اللهُ بالنبوَّة والإسلام من ذريَّة آدمَ، وإنَّما قَرَنَ ذكرَ نَسَبهِمْ مع أنَّ كلَّهم كانوا لآدمَ لِيُبَيِّنَ مراتبَهم في شرفِ النسب، فإنهُ كان

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٢٤). وأخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله ﷺ: الحديث (٢٥٩/ ١٦٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٦٠. والترمذي في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة مريم: الحديث (٣١٥٧).

لإدريسَ شرفُ القُرْب من آدمَ، وكان إبراهيمُ من ذريَّة نوحٍ، وكان إسماعيل واسحقُ من ذريَّة إبراهيمَ، وكان موسى وهارون وزكريَّا ويحيى وعيسَى من ذريَّة إسرائيلَ، فقولهُ: (مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ) يعني إدريسَ ونوح، ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ ؛ في السفينةِ يعني إبراهيمَ؛ لأنه من ولدِ سَامِ بن نوحٍ، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ؛ يعني إسماعيلَ وإسحق ويعقوبَ، وقوله: ﴿ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ؛ يعني أنَّ من ذريَّة إسرائيل: موسَى وهارون ومَن ذكرناهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ ؛ أي هؤلاء كانوا مِمَّن أرشدنا واصطفينا لإداءِ الرِّسالة، ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ التي أنزلت عليهم، ﴿ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾ ؛ أي وَقَعُوا يسجدونَ للهِ تعالى، ويبكونَ من مخافةِ الله، والسُّجَّدُ: جمعُ ساجدٍ، والبُكِيُّ جمعُ باكٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ ؛ أي فخَلَفَ مِن بعد هؤلاء الأنبياءِ المذكورين والصالحينَ (خَلْفٌ) أي قومُ سُوءٍ وهم اليهودُ والنصارى ومَن لَحِقَ بهم. يقالُ في الرداءةِ: خَلْفٌ بإسكانِ اللام، وفي الصَّلاحِ: خَلَفٌ بفتحِ اللام.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: (أضَاعُوا الصَّلاَةَ) أي أخَّرُوها عن مواقيتِها لغيرِ عُذر، وَقِيْلَ: تَركُوها أصلاً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ) يعني المعاصِيَ وشربَ الخمر، واشتغَلُوا بالملذات في ما حُرِّمَ عليهم، وآثَرُوها على طاعةِ الله تعالى. قال وهبٌ: (شَرَّابُونَ الْقَهوَاتِ؛ لَعَّابُونَ بالْكِعَاب؛ رَكَّابُونَ الشَّهَوَاتِ؛ مُتَّبِعُونَ الْمَلَذات؛ تَارِكُونَ الْجَمَاعَاتِ؛ مُضَيِّعُونَ الصَّلَوَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾ ؛ قال ابنُ مسعودٍ وعطاء: (هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيْدُ الْقَعْرِ)[1]، قال ابنُ عبَّاس: (الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَسْتَعِيْذُ أوْدِيَةُ جَهَنَّمُ

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٢٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور وهناد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث من طرق)).

مِنَ حَرِّهِ، أُعِدَّ لِلزَّانِي وَشَارب الْخَمْرِ وَآكِلِ الرِّبَا وَأَهْلِ الْعُقُوقِ وَلِشَاهِدِ الزُّور، وَلِلإمْرَأةِ أَدْخَلَتْ عَلَى زَوْجِهَا وَلَداً مِنْ غَيْرِهِ).

وَقِيْلَ: الغَيُّ وَادٍ فِي جهنَّمَ يسيلُ قيحاً ودماً أُعِدَّ للغاوينَ، فسُمي غَيّاً؛ لأنهُ جزاءُ الْغَيِّ، كما قالَ تعالى ﴿يَلْقَ أَثاماً﴾[1] أي جزاءَ الإثمِ. وقال كعبٌ: (الْغَيُّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أَبْعَدُهَا قَعْراً وَأَشَدُّهَا حَرّاً، فِيهِ بئرٌ يُسَمَّى بَهْغَمُ، كُلَّمَا خَبَتْ جَهَنَّمُ فُتِحَ لَهَا بَابٌ إِلَى تِلْكَ الْبِئْرِ فَتُسْعَرُ بِهِ جَهَنَّمُ).

قولـه تعـالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ معناه: إلاّ التائبينَ منهم، ويجوزُ أن يكون نَصْباً استثناءً من غيرِ الأوَّل على معنى لكِنْ مَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ولا ينقصونَ من حسناتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ أي بساتينَ إقامةٍ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (بالْغَيْب) يعني أنَّهم غابُوا عن ما فيها، وانتصبَ قولُهُ (جَنَّاتِ)؛ لأنه بدلٌ من الجنةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي مُوعُودهُ آتِياً كائناً، وإنَّما لَم يقل آتِياً؛ لأن كلَّ ما أتاكَ فقد أتيتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ ؛ أي لا يسمعونَ في الجنَّةِ كَلاماً ساقطاً، ولا يسمعونَ إلاّ سلاماً، يُسَلِّمُ بعضُهم على بعضٍ، والسَّلاَمُ هو الكلامُ الذي لا لغوَ فيهِ ولا إثمَ. وَقِيْلَ: معناه: لا يسمعونَ في الجنةِ كلاماً باطلاً وفحشاءَ وهدرًا وفُضولاً من الكلام. وقال مقاتلُ: (يَمِيناً كَاذِبَةً وَلاَ يَسْمَعُونَ إلاَّ سَلاَماً، يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَيُرْسِلُ إلَيْهِمْ الرَّبُّ بالسَّلاَمِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ ، قال المفسرون: ليس في الجنَّةِ بُكْرَةٌ وعشيَّةٌ، ولكنَّهم يؤتَون رزقَهم على مقدار ما يعرفون من الغَداءِ والعشاءِ، قال قتادةُ: (كَانَ الْعَرَبُ إذا حَصَلَ لأَحَدِهِمْ الْغَدَاءُ وَالْعَشَاءُ أُعْجِبَ بِهِ، فأخبرَ

---

(١) الفرقان / ٦٨ .

اللهُ تعالى أنَّ لَهم في الجنَّةِ رزْقَهم بكرةً وعشيّاً على قدر ذلك الوقتِ)[١]؛ أي يُجْمَعُ لَهم الطعامُ في هذين الوقتينِ كما يكونُ في الدُّنيا، ويأكلونَ فيما عدَا هذينِ الوقتينِ ما يشتهون كما في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾؛ أي هذه الجنةُ التي وصَفَها اللهُ تعالى هي التي نورثُ من اتَّقى معصيةَ الله، وعَمِلَ بالطاعةِ والإيْمان. قَوْلُهُ تَعَالَى: (نُورثُ) أي نُعطي، وإنَّما قال (نُورثُ)؛ لأن اللهَ تعالى أوْرَثَهم من الجنةِ مساكنَ أهلِ النار لو اطَّلَعُوا[٢]. وَقِيْلَ: لأنه تَمليكٌ في حالٍ مبتدأ بعدَ انقضاءِ أجَلِ الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾؛ وذلك أن جبريلَ عليه السلام أبْطَأَ على النبيِّ ﷺ بالوحي، فلمَّا أتاهُ قالَ لهُ: [مَا زُرْتَنَا حَتَّى اسْتَبْطَأْنَاكَ]. وَقِيْلَ: قَالَ لَهُ: [مَا يَمْنَعُكَ يَا جِبْرِيْلُ أنْ تَزُورَنَا أكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا]. فأنزلَ اللهُ عُذْرَ جبريلَ[٣]، والمعنى: قُلْ لهُ وما نَتَنَزَّلُ مِن السَّماء إلاَّ بأمْرِ ربكَ. وَقِيْلَ: اسْتَبْطَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيْلَ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: [يَا جِبْرِيْلُ أبْطَأْتَ عَلَيَّ حَتَّى سَاءَ ظَنِّي فَاشْتَقْتُ إلَيْكَ] فَقَالَ لَهُ: إنِّي كُنْتُ إلَيْكَ أشْوَقَ، وَلَكِنِّي عَبْدٌ مَأمُورٌ، إذا بُعِثْتُ نَزَلْتُ، وَإذا حُبِسْتُ احْتَبَسْتُ. فَأنْزَلَ اللهُ هذه الآيَةَ (وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بأمْرِ ربك)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾؛ أي لهُ ما بينَ أيدينا من أمرِ الدُّنيا وما خلفَنا من الآخرةِ، وَمَا بَيْنَ ذلِكَ؛ يعني: ما بينَ النَّفختَين وبينَهما

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٤٢).

(٢) في معالم التنزيل: ص٨٠٧؛ قال البغوي: (يورث عباده المؤمنين المساكنَ التي كانت لأهل النار لو آمنوا).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب تفسير القرآن: باب ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بأمْرِ رَبِّكَ﴾: الحديث (٤٧٣١).

(٤) في الدر المنثور:ج٥ ص٥٣٠؛ قال السيوطي:(أخرجه ابن مردويه عن أنس...) وساق الحديث بلفظ قريب منه، وقال:(أخرجه عبد بن حميدوابن أبي حاتم عن عكرمة... وذكره. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. وجمع الطبراني الألفاظ للأسانيد الثلاثة).

أربعون سَنةً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي وما كان ربُّك ليَتْرُكَكَ، وإن تأخرَ عنك رسولهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ ؛ أي إصبرْ على أمرِهِ ونهْيِهِ حتى الموتِ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي شَبيهاً ومِثْلاً يُعْبَدُ، وَقِيْلَ: هل تَعْلَمُ مَن يستحقُّ الإلهيَّةَ سواهُ، وَقِيْلَ: هل تعلمُ أحداً يُسَمَّى اللهَ غيرَهُ، وَقِيْلَ: هل تعلمُ مِن أحدٍ سَمِّيَ ربَّ السَّمواتِ والأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أبَيُّ بْنُ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ، قَالَ هَذا الْقَوْلَ إنْكَاراً لِلْبَعْثِ). وقَوْلُهُ تَعَالَى: (لَسَوْفَ أخْرَجُ حَيّاً) أي أخْرَجُ من القبرِ حيّاً؛ استهزاءً وتكذيباً منه للبعثِ.

قولهُ تعالَى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ قرأ نافعُ وابن عامر وعاصم: (أوَلاَ يَذْكُرُ) بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديدِ وهو الاختيارُ؛ أي أوَلاَ يَتَّعِظُ ويتفكَّرُ، وعلى القراءةِ الأُولى (يَذْكُرُ) بالتخفيفِ ضد النِّسيان، والمعنى: أوَلاَ يَتَّعِظُ الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نطفةٍ، ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ موجُوداً، فيُستَدلُّ بالابتداءِ على الإعادة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ ؛ يعني المنكرينَ للبعثِ، أقْسَمَ اللهُ تعالى على نفسهِ لنَحْشُرَنَّهُمْ مِن قبورهم مع الشياطين الذين أضَلُّوهم، ﴿ ثُمَّ ﴾ لَنَجْمَعَنَّهُمْ، ﴿ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ بَاركِيْنَ على الرُّكَبِ؛ لأن المحاسبةَ إنَّما تكونُ بقُرْب جهنَّمَ، يُقْرَنُ مع كلِّ كافرٍ شيطانٌ في سِلْسِلَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي ثُم لَنُخْرِجَنَّ مِن كلِّ فرقةٍ وجماعة أيُّهم أشدُّ على الرَّحمنِ تَمَرُّداً وجُرْأةً وفُجُوراً وكُفْراً بدءاً بالأعْتَى فالأعتَى، والأكثرُ جُرماً. قالَ قتادةُ: (الْمَعْنَى: لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ وَأهْلِ دِيْنٍ قَادَتَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي الشَّرِّ).

والشِّيْعَةُ: الْجَمَاعَةُ المعاونونَ على أمرٍ من الأمور. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أيُّهُمْ) رُفِعَ على الاستئناءِ، و(لَنَنْزِعَنَّ) يعملُ في موضعِ (مِنْ كُلِّ شِيْعَةٍ)، هذا قولُ يونسَ. وقال الخليلُ: على معنى الذين يقالُ لهم أيُّهم أشدُّ فَلْنُخْرِج.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠)﴾؛ أي نحن أعلمُ بالأَوْلى بدخول النار وشدَّة العذاب، وأحقُّهم بعظيمِ العقاب. والصِّلِيُّ: هو اللُّزوم، من قولِهم صَلِيَ بالنار صِلِيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ اختلفُوا في الخطابِ الذي في أوَّل هذه الآيةِ، قال بعضُهم: هو راجعٌ إلى الكفار؛ لأنه تقدَّمه قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بهَا صِلِيّاً)، وقالَ الأكثرون: هذا خطابٌ مبتدأ لجميعِ الخلقِ، ودليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ﴾؛ أي نُنَجِي مِن الواردينَ مَنِ اتَّقَى.

ثم اخْتَلَفَ هؤلاءِ أيضاً في معنى الْوُرُودِ، قال بعضُهم: هو الدُّخُولُ كما في قولِهِ تعالى ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[1] أي أدْخلَهم النارَ، وقالوا: إلاَّ أنَّها تكونُ على المؤمنينَ بَرداً وسَلاماً، واستدلُّوا بما روى جابرٌ ﷺ: أنَّهُ أهْوَى بيَدَيْهِ إلَى أذُنَيْهِ وَقَالَ: صُمَّتا إنْ لَمْ أكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:[الْوُرُودُ الدُّخُولُ، لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إلاَّ دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ بَرْداً وَسَلاَماً، كَمَا كَانَتْ عَلَى إبْرَاهِيْمَ، حَتَّى أنَّ لِلنَّار ضَجِيْجاً بوُرُودِهِمْ][2]. وعن أبي هريرة ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلاَثَةُ أوْلاَدٍ لَمْ يَلِجِ النَّارَ إلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ، ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَإنْ مِنْكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا﴾][3].

ومعنى القَسَم: أن أولَ هذه الآيةِ فيها إضمارُ القَسَم؛ تقديرُهُ: وَاللهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَارِدُهَا، ورُوِيَ عن ابنِ مسعود أنهُ قال: [الصِّرَاطُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ، تَمُرُّ عَلَيْهِ الطَّائِفَةُ الأُولَى كَالْبَرْقِ، وَالثَّانِيَةُ كَالرِّيْحِ، وَالثَّالِثَةُ كَالْجَوَادِ السَّابقِ، وَالرَّابعَةُ كَأَجْوَدِ الْبَهَائِمِ، ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالْمَلاَئِكَةُ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ؛ اللَّهُمَّ سَلِّمْ][4].

---

(١) هود / ٩٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٢٩. والحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: باب يرد الناس النار ثم يصدرون عنها: الحديث (٨٧٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأيمان والنذور: باب قوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: الحديث (٦٦٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب فضل من يموت وله ولد: الحديث (١٥٠/ ٢٦٣٢).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب شعار المسلمين على الصراط: الحديث (٣٤٧٥)؛=

وعن أبي هريرةَ: أنَّهُ أوَى إلَى فِرَاشِهِ فَقَالَ: (يَا لَيْتَ أمِّي لَمْ تَلِدْنِي، فَقَالَتِ امْرَأتُهُ مَيْسَرَةُ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أحْسَنَ إلَيْكَ، هَدَاكَ إلَى الإسْلاَمِ. قَالَ: أجَلْ؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَ لَنَا أنَّا لَوَارِدُونَ النَّارَ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أنَّا خَارِجُونَ مِنْهَا).

وقال بعضُهم: الورودُ هو الإشرافُ على النار بلا دخول؛ لأن موضعَ المحاسبةِ يكون قريباً من النار، وقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[(١)] ولم يكن موسى دَخَلَ الماءَ، واستدلُّوا بما روي أن النبيَّ ﷺ قال: [لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ -إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- وَاحِدٌ شَهِدَ بَدْراً أو الْحُدَيْبِيَةَ][(٢)].

وعن مجاهدٍ أنهُ قالَ: (الْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ)[(٣)]. فعلَى هذا مَن حَمَّ مِن المسلمينَ فقد وَرَدَهَا، لأن الْحُمَّى مِن فَيْحِ جهنَّم.

وعن رسول اللهِ ﷺ أنَّهُ عَادَ مَرِيضاً مِنْ وَعَكٍ كَانَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: [أبْشِرْ؛ إنَّ اللهَ يَقُولُ: هِيَ نَارِي أُسَلِّطُهَا عَلَى عَبْدِي الْمُؤْمِنِ لِتَكُونَ حَظَّهُ مِنَ النَّارِ][(٤)].

قال الزجَّاجُ: (وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ عَلَى أنَّهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾[(٥)]) وهذهِ حُجَّةٌ لا معارضَ لَها[(٦)].

=وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه مرفوعاً في الرقم (٣٤٧٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ورواه الترمذي مرفوعاً في السنن: كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة مريم: الحديث (٣١٥٩)؛ وقال: هذا حديث حسن.

(١) القصص / ٢٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٩٦.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٧٩٨٠). و((النار)) ضبطت من رواية الطبري لأنها سقطت من أصل المخطوط.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٤٤٠. والترمذي في السنن: كتاب الطب: باب تطييب نفس المريض: الحديث (٢٠٨٨). ولفظه كما أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الطب: الحديث (٣٤٧٠).

(٥) الأنبياء / ١٠١ و ١٠٢.

(٦) قاله الزجاج نقلاً عن أبي إسحق، كما في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٢٧٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ الْحَتْمُ: القطعُ بالأمر، والمقضيُّ هو الذي قَضَى بأنه يكون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ ؛ أي الذين اتَّقوا الشركَ وصدَّقوا، ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي وَنَذر المشركينَ فيها جِثِيّاً على الرُّكب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ معناهُ: وإذا تُتلَى على الكفَّار آياتُ القرْآن الْمُنَزَّلَةِ قالوا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ ؛ أي الدِّينين، ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ خيرٌ مَسْكناً وخيرٌ مجلساً في الدُّنيا، فكذلكَ يكون في الآخرةِ.

يعني أنَّ مشركي قريشٍ كانوا يقولون لفقراءِ المؤمنين: أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً؛ نُحْنُ أم أنتم؟ والْمَقَامُ والمسكن والمنْزلُ والنَّدِيُّ والنادي: مجلسُ القوم ومجتمعُهم، وكانوا يلبسون أحسنَ الثِّياب، ثُمَّ يقولون مِثْلَ هذا للمؤمنين.

فأجابَهم اللهُ تعالى بقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي وَكَمْ أهلكنا قبلَ قُريشٍ مِن الأمم الخاليةِ هُم أحسنُ أموالاً وأحسنُ منظراً، والأثاثُ: المالُ، جَمْعُ الإبلِ والغنمِ والعبيد والمتاعِ، وقال الحسنُ: (الأثَاثُ: اللِّبَاسُ، وَالرِّئِيُّ: الْمَنْظَرُ).

وقُرئَ (وَرِياً) بغيرِ همزٍ من الرَّيِّ الذي هو ضدُّ العطشِ، والمرادُ: أن منظرَهم مُرْتَوٍ من النعمةِ كأنَّ النعيمَ بيِّن فيهم؛ لأن الرِّيَّ يتبعهُ الطَّرَاوَةُ، كما أنَّ العطشَ يتبعهُ الذُّبولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: مَن كان في العمايةِ عن التوحيدِ، ودِين الله فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ؛ أي لِيَزِدْ في مالهِ وعُمره وولدِهِ، ويقالُ: لَيَدَعْهُ اللهُ في طُغيانه حتى إذا وصلَ الآخرةَ لَم يكن له فيها نصيبٌ. وهذا اللفظُ أمْرٌ؛ ومعناهُ الخبرُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ ؛ يعني الذين مَدَّهُمُ اللهُ في الضلالةِ. وأخبرَ عن الجماعةِ لأنَّ لفظَ (مَنْ) يصلحُ للجماعةِ.

ثُم ذكرَ ما يوعدون، فقال: (إمَّا الْعَذابَ وَإمَّا السَّاعَةَ) يعني القتلَ والأسرَ والقيامةَ والخلود في النار، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ؛ أي أهُمْ أم المؤمنون؛ لأن مكانهم جهنمُ، ومكانَ المؤمنين الجنَّةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ هذا ردٌّ عليهم في قولِهم: أيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً، وَأحْسَنُ نَدِيّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ ؛ أي يَزيدُهم هذا بالإيْمان والشَّرائع، ويزيدُهم هُدًى بالأدلَّة والحجَج والطاعاتِ التي تَدْعُو إلى الحسناتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُها، سُميت باقياتٍ؛ لبقاء ثوابها للإنسانِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ ؛ أي أنفعُ من مقاماتِ الكفَّار التي يفتخرون بها، ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي وأفضلُ مَرْجِعاً في الآخرةِ، وأفضلُ ما يُرَدُّ على صاحبهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ ﴾ أنزلت هذه الآيةُ في العَاصِ بْنِ وَائِلٍ، قال خَبَّابُ بنُ الأرَتِّ: (كَانَ لِي دَيْنٌ عَلَى الْعَاصِ ابْنِ وَائِلٍ، فَحَسِبَ دَيْنَهُ مِنْهُ، فَقَالَ: لاَ أقْضِيْكَ حَتَّى تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ، قال: لاَ وَاللهِ؛ لاَ أكْفُرُ بمُحَمَّدٍ حَيّاً وَلاَ مَيْتاً وَلاَ حِيْنَ أبْعَثُ، قَالَ: فَدَعْ مَالَكَ، فَإذا بُعِثْتُ أعْطِيْتُ مَالاً وَوَلَداً وَأعْطِيْكَ هُنَالِكَ - قالَ ذلكَ مستهزءاً - قَالَ: فَذكَرْتُ ذِلكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

وقال الحسنُ:(نَزَلَتْ فِي الْوَلِيْدِ بْنِ الْمُغِيْرَةِ)، ومعنَى: لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً: لَئِنْ كَانَ ما يقولُ مُحَمَّدٌ في الآخرةِ حَقّاً لأُعطَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً فِي الآخِرَةِ. ومَن قرأ (وَوُلْداً) بالضمِّ؛ فمعناهُ واحدٌ، كالْحُزْنِ والْحَزَنِ، وقِيْلَ: إنه جمعُ الولدِ كما يقالُ أسَدٌ وَأسْدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي أعَلِمَ ذلكَ غيباً أمْ عَهِدَ اللهُ إليهِ عهداً بما تَمنَّى؟! وقال ابنُ عبَّاس: (وَمَعْنَاهُ: مَا غَابَ عَنْهُ حَتَّى يَعْلَمَ أفِي الْجَنَّةِ هُوَ أمْ لاَ). وقال الكلبيُّ:(أنَظَرَ مَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ).

---

(١) خرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠١٢). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٥٣٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس)) وذكره بلفظ قريب منه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أم اتَّخذ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً)، قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ أمْ قَالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ؛ فَأرْحَمُهُ بهَا)[١]. وقال قتادةُ: (أقَدَّمَ عَمَلاً صَالِحاً يَرْجُوهُ)[٢]، ﴿ كَلَّآ ﴾ ؛ أي ليس الأمرُ على ما قال: أنه يولّي المالَ والولد. ويجوزُ أن يكون معناهُ: كَلاَّ إنَّهُ لَمْ يَطَّلِعِ الْغَيْبَ، وَلَمْ يتَّخذْ عندَ الرحمن عهداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ ؛ أي سَنَأْمُرُ الْحَفَظَةَ بإثباتِ ما يقولُ لنجازيَهُ بهِ في الآخرة، ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي نزيدهُ عذاباً فوق العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ ؛ أي نَرِثُهُ المالَ والولدَ بعد إهلاكنا إياهُ، فلا يعودُ بعد ذلكَ إليه، كما لا يعودُ المال إلى مَن خَلْفَهُ بعد موته، ﴿ وَيَأْتِينَا ﴾ ؛ في الآخرةِ، ﴿ فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أي وَحِيْداً خالياً من المالِ والوَلَدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي واتَّخذ أهلُ مكة مِن دون اللهِ أصناماً آلِهَةً؛ ليكونوا لَهم أعوَاناً وشُفعاء في الآخرةِ. والعزُّ: الامتناعُ من الضمِّ، فَهُمُ اتخذوا هذه الآلهةَ؛ ليصيروا بها إلى العزِّ في زَعْمِهِمْ فلا يصيبُهم سوءٌ، وذلك أنّهم رَجَوا منها الشفاعةَ والنُّصرةَ والمنعَ من عذاب الله.

قولهُ: ﴿ كَلَّآ ﴾ ؛ أي لا يَمنعُهم منّي شيءٌ، ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ ؛ أي يَجْحَدُ الآلِهَةُ عبادةَ المشركين لَها كما قالوا: ﴿تَبَرَّأنَا إلَيْكَ مَا كَانُوا إيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي يصيرون أعوَاناً عليهم يكذّبونهم يلعنونهم يتبرَّأون منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ أي ألَم تَعْلَمْ أنّا خَلَّيْنَا بينَ الشياطين والكفار وسلطانِهم عليهم، فلَمْ نعصم الكفارَ من القبول[٤] منهم، وتسمَّى التخليةُ إرسالاً في سَعَةِ اللغة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَؤُزُّهُمْ ازّاً) أي

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٣٦؛ قال السيوطي: ((ابن أبي حاتم)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠١٧٠) بلفظ: ((بعملٍ صالح قدّمه)).

(٣) القصص / ٦٣.

(٤) في المخطوط: (القبور) وهو تصحيف والصحيح كما أثبتناه.

تُزعِجُهم إلى معصيةِ الله تعالى إزعاجاً، وتغريهم إغراءً. وقال القتيبيُّ: (تُحَرِّكُهُمْ إلَى الْمَعَاصِي). وأصلهُ الحركةُ والغَلَيَانُ، ومنهُ الحديث المرويُّ: [وَلِجَوْفِهِ ازِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ ؛ أي لا تَعْجَلْ بمسألة إهلاكهم، ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ أي نَعُدُّ أنفاسَهم نفساً بعد نفسٍ، كما نَعُدُّ أيَّامَهم وآجالَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي اذكُرْ لهم يا مُحَمَّدُ اليومَ الذي نَجمعُ فيه مَن اتَّقى اللهَ في الدُّنيا؛ أي اجتنبَ الكبائرَ والفواحش إلى دار الرَّحْمَن؛ وهي موضعُ الكرامةِ والثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَفْداً) أي رُكْبَاناً، قال ابنُ عبَّاس: (يُؤْتَوْنَ بنُوق لَمْ تَرَ الْخَلاَئِقُ مِثْلَهَا، عَلَيْهَا رِحَالُ الذهَب وَأزِمَّتُهَا الزُّبُرْجُدُ، فَيَرْكَبُونَ عَلَيْهَا حَتَّى يَقْرُبُوا أبْوَابَ الْجَنَّةِ)، وإنَّما وحَّدَ الوفدَ لأنه مصدرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ أي يحثُّهم على السيرِ إلى جهنم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ أي عَطَاشَى مشاةً حفاة عُراةً قد تقطَّعت أعناقُهم من العطشِ، والوِرْدُ: الجماعةُ التي تَردُ الماءَ، ولا يردُ أحدٌ الماءَ إلاّ بعدَ العطشِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ ؛ أي لا يقدرون على الشفاعةِ، ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ أي لكن مَن اتَّخذ عند الرحمن عهداً وهم المؤمنون، فإنَّهم يَملكون الشفاعةَ. قال ابنُ عبَّاس: (شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ). و (مَنْ) في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطعِ. قال ابنُ عبَّاس: (لاَ يَشْفَعُ إلاَّ مَنْ قَالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَتَبَرَّأَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَيْهِ، وَلاَ يَرْجُو إلاَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ).

وعن ابن مسعودٍ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذاتَ يَوْمٍ: [أيَعْجَزُ أحَدُكُمْ أنْ يَتَّخِذ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ اللهِ عَهْداً ؟!] قَالُوا: كَيْفَ ؟ قَالَ: يقولُ: [اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إنِّي أعْهَدُ إلَيْكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بأنِّي أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ، وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، وَأنَّكَ إنْ تَكِلْنِي

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: الحديث (٩٠٤). والنسائي في السنن: كتاب السهو: باب البكاء في الصلاة: ج ٣ ص١٣ وتقدم تخريجه وإسناده حسن.

إلَى نَفْسِي، تُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبَاعِدْنِي مِنَ الْخَيْرِ، وإنِّي لاَ أثِقُ إلاَّ برَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْهُ لِي عَهْداً تُوَفِّينَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيْعَادَ. فَإذا قَالَ ذلِكَ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهِ بطَابَعٍ وَوُضِعَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، نَادَى مُنَادٍ: أيْنَ الَّذِيْنَ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ][(1)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)﴾؛ أي قالَ المشركون: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وقالت النَّصارَى: المسيحُ ابنُ اللهِ، وقالتِ اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله. يقالُ لَهم: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إدّاً) أي مُنكراً عظيماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾؛ أي يَتَشَقَّقْنَ من عِظَمِ هذا القول، ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾؛ فتصدَّعُ، ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)﴾؛ أي يسقطُ بعضُها على بعضٍ بشدَّة صوتٍ، بأن سَمَّوا، ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾؛ قرأ أهلُ الحجاز والكسائي: (يَتَّفَطَّرْنَ) بالتاء مشدَّدةً، وقرأ نافعُ (يَكَادُ) بالياء لتقدُّم الفعل. قال المفسرون: اتخذ الرحمنُ ولداً، اقشعَرَّتِ الأرضُ، وغضبت الملائكةُ، وأسْعِرَتْ جهنمُ، وفَزِعَتِ السمواتُ والأرض والجبالُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)﴾ أي ما مِن أحدٍ في السَّموات والأرض إلاّ سيأتِي الرحمنَ مُقِرّاً بالعبودية، ويأتيهِ يومَ القيامة عَبْداً ذليلاً. يعني أن الخلقَ كلَّهم عبيدُه، وأن عيسى والعُزَيْرَ مِن جملة العبيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤)﴾؛ أي لقد عَلِمَ عددَهم وأفعالَهم، ولا يَخفَى عليه شيءٌ منهم مع كثرتِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾؛ لا أنْصارَ لَهم ولا أعوانَ ولا مالَ ولا ولد، كلُّ امرِيءٍ مشغولٌ بنفسه لا يهمُّهُ غيرُهُ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: الحديث (٨٩١٨). والحاكم في المستدرك: كتاب تفسير القرآن: باب تفسير آية ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾: الحديث (٣٤٧٨)؛ وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٨٤؛ قال الهيثمي: ((فيه المسعودي وهو ثقةٌ ولكنه قد اختلط وبقية رجاله ثقات)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾؛ أي يُحِبُّهُمْ في الدُّنيا، ويُحَبِّبُهُمْ إلى عبادهِ المؤمنين من أهلِ السَّموات وأهلِ الأرضين. وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [إذا أحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيلُ إنِّي قَدْ أحْبَبْتُ فُلاناً فَأحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أهْلِ السَّمَوَاتِ: إنَّ اللهَ قَدْ أحَبَّ فُلاناً فَأحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي الأَرْضِ. وَإذا أبْغَضَ الْعَبْدَ قَالَ مِثْلَ ذلِكَ. وَمَا أقْبَلَ عَبْدٌ بقَلْبهِ عَلَى اللهِ إلاَّ أقْبَلَ اللهُ بقُلُوب الْمُؤْمِنِينَ إلَيْهِ حَتَّى يَرْزُقَهُ اللهُ مَوَدَّتَهُمْ وَمَحَبَّتَهُمْ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾؛ أي يَسَّرْنَا قراءةَ القُرْآن على لسانِكَ، ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي بالقُرآن؛ ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ أي قَوْماً ذوي جَدَلٍ بالباطلِ، واللُّدُّ جَمْعُ الألَدِّ: شَدِيْدُ الْخُصُومَةِ، نظيرهُ الأصَمُّ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾؛ أي كَمْ أهلكنا يا مُحَمَّدُ قبلَ قومِكَ من قرونٍ ماضية، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾؛ أي هل تَرَى منهم مِن أحدٍ؟ ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾؛ أي صَوتاً.

والإحساسُ مأخوذٌ من الْحِسِّ، يقالُ: هل أحْسَسْتَ فُلاناً؛ أي هل رأيتَهُ. والرِّكْزُ: هو الصوتُ الْخَفِيُّ الذي لا يُفْهَمُ، ومنهُ الرِّكَازُ: وهو الْمُغَيَّبُ في الأرضِ.

قال الحسنُ في معنى الآية: (ذهَبَ الْقَوْمُ فَلاَ يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ). وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: هَلْ تَرَى مِنْ عَيْنٍ أوْ تَسْمَعُ مِنْ صَوْتٍ).

وعن أُبَيِّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ مَرْيَمَ أعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بزَكَريّا وَيَحْيَى وَمَرْيَمَ وَعِيْسَى وَهَارُونَ وَإبْرَاهِيْمَ وَإسْمَاعِيْلَ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الآداب: باب المحبة من الله: الحديث (٦٠٤٠). ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة: باب إذا أحب الله عبداً: الحديث (١٥٧/ ٢٦٣٧).

(٢) في المخطوط: (نظيره الأصم والأصم) فهو إما سهو من الناسخ، أو أنه أراد أن يقول: (والألَدُّ هو الأصمُّ عن الحقِّ).

وَإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَإدْرِيْسَ، وَبعَدَدِ مَنْ كَذبَهُمْ، وَبعَدَدِ مَـنْ دَعَـا للهِ وَلَـداً، وَبعَـدَدِ مَـنْ وَحَّدَ اللهَ تَعَالَى][1].

آخر تفسير سورة (**مريم**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٦ ص٢٣٥، وإسناده واهٍ.

سُورَةُ طـه

سُورَةُ طه مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَـةُ آلاَفٍ وَمِائَتَـان وَاثْنَـان وَأرْبَعُـونَ حَرْفـاً، وَأَلْـفٌ وَثَلاَثُمِائَةٍ وَإحْدَى وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَةٌ وَخَمْسٌ وَثَلاَثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طه ﴿١﴾ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرٍو ووَرْشٌ بفتحِ الطَّاء وكسرِ الْهَاء، وقرأ حمزةُ والكسائي وخَلَفٌ بكسرِ الطَّاء والْهَاء، وقـرأ البـاقون بـالتفخيمِ فيـهما. واختلفـوا في معناهُ، فقالَ أكثرُ المفسِّرين: إنَّ معناهُ: يا رَجُلُ؛ يعني النبيَّ ﷺ وهـو قـولُ ابـن عبَّـاس والحسنِ وعكرمة وابنِ جُبير والضحَّاك وقتادة ومجـاهد[(١)]، إلاّ أن عكرمـةَ قـال: (هُـوَ بلِسَانِ الْحَبَشَةِ)[(٢)]، وقال قتادةُ: (إنَّمَا يَقُولُ هَذِهِ اللُّغَةَ أهْلُ السِّرْيَانِيَّةِ[(٣)]).

وروَى السُّدِّيُّ عن أبي مَلَكٍ معنى قولهِ طه: (يَـا فُـلاَنُ)، قـال الكلـبيُّ: (بلُغَـةِ عَكٍّ: يَا رَجُلُ)[(٤)]، قال ابنُ الأنباريّ: (وَلُغَةُ قُرَيْشٍ وَافَقَتْ تِلْكَ اللُّغَةَ أيْضـاً فِـي هَـذا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٨٠٧٦-١٨٠٨٢). والسيوطي في الـدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٠.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٠؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميـد وابـن أبي حاتم عن عكرمة... وذكره).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠٨١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: مج ٩ ج ١٦ ص١٧١؛ قـال: (معنـاه: يـا رجـل؛ لأنـها كلمـة معروفة في عَكٍّ فيما بلغني، وأن معناها فيـهم: يـا رجـل). وفي الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١١ ص١٦٥ نقله القرطبي عن الكلبي قال: (لو قلت في عكٍّ لرجـل يـا رجـل لم يجـب حتـى تقـول: طه).

الْمَعْنَى؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُخَاطِبْ نَبِيَّهُ إلاَّ بلِسَانِ قُرَيْشٍ. قَالَ الشَّاعِرُ[١]:

إنَّ السَّـفَاهَةَ طَـهَ فِـي خَلاَئِقِكُـمْ لاَ قَـدَّسَ اللهُ أَرْوَاحَ الْمَلاَعِيْـن

يريدُ: يا رجلُ، وقال آخرُ:

هَتَفْـتُ بطَـهَ فِـي الْقِتَـالِ فَلَـمْ يُجِـبْ فَخِفْـتُ عَلَيْـهِ أَنْ يَكُـونَ مُوائِـلاَ[٢]

وقُرئ (طَهْ) بتسكين الْهَاء، ولهُ معانٍ؛ أحدُها: أن تكون الْهاءُ بدلاً من همزةِ الطَّاء كقولِهم في: أرَقْتُ هَرَقْتُ. والآخران: أن يكون على تركِ الهمزة طَا يا رجلُ بقدمِكَ الأرضَ، ثم يدخلُ الْهاءُ للوقفِ، فإنه رُوِيَ: [أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ بمَكَّةَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، فَكَانَ إذا صَلَّى رَفَعَ رجْلاً وَوَضَعَ أخْرَى، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (طَهَ) أيْ طَأ الأَرْضَ بقَدَمِكَ[٣].

وقال بعضُهم: أولُ السُّورة قَسَمٌ؛ أقْسَمَ اللهُ بطولِهِ وهدايتِه. وقال بعضُهم: الطاءُ من الطَّهارةِ، والْهاءُ من الهدايةِ، كأنهُ تعالى قالَ لنبيِّه ﷺ: يَا طَاهِراً مِنَ الذُّنُوب، وَيَا هَادِياً إلَى عَلاَّمِ الْغُيُوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾؛ أي لِتُجْهِدَ نفسكَ وتتعبَ، وذلك أنه لَمَّا نزلَ عليه الوحيُ اجتهدَ في العبادةِ، حتى أنه كان يُصلِّي على إحدى رجْلَيْهِ لشدَّة قيامِهِ وطولِه، فأمرَهُ اللهُ أن يُخَفِّفَ على نفسهِ، وذكرَ له أنهُ ما أنزلَ عليه القُرْآنَ ليتعبَ ذلك التعبَ، ولَم يُنْزِلْهُ،﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾؛ قال مجاهدُ: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِسَبَب مَا كَانَ يَلْقَى النَّبيُّ ﷺ مِنَ التَّعَبِ وَالسَّهَرِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ).

---

(١) قاله يزيد بن المهلهل.

(٢) نسبه الطبري في جامع البيان: ج ٩ ص١٧١ لمتمم بن نويرة.

(٣) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد عن الربيع بن أنس)). وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص٢٥١. وابن ماجة في السنن: كتاب الصلاة: باب ما جاء في طول القيام: الحديث (١٤١٩).

وقال الحسنُ: (هَذا جوَابٌ لِلْمُشْرِكِيْنَ، وَذلِكَ أنَّ أبَا جَهْلٍ وَالنَّضرَ بْنَ الْحَارِثِ قَالاَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: وَإنَّكَ لَتَشْقَى، لِمَا رَأوا مِنْ طُول عِبَادَتِـهِ وَشِـدَّةِ اجْتِـهَادِهِ، فَقَـالَ ﷺ: [بُعِثْتُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ] قَالُوا: بَلْ أنْتَ شَقِيٌّ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ (مَا أنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) وَلَكِنْ لِتَسْعَدَ وَتَنَالَ الْكَرَامَةَ بِهِ فِي الدُّنيا والآخرة).

والشَّقَاءُ في اللغة: احمرارُ ما شُقَّ على النفسِ من التعب. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصـدر؛ أي نَزَّلْنَـاهُ تَـنْزِيلاً. والعُلَى: جمع العَلْيَاءِ.

قَوْلُــهُ تَعَــالَى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ وقــد تقــدَّم تفسيرهُ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي له ما لهُ في السَّموات وما في الأرض، وما بينَـهما مـن الخلـق، معناهُ: أنهُ مَالِكُ كلِّ شيءٍ ومُدبرُهُ، و قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا بَيْنَهُمَا) يعني الهواء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) أي وما تحتَ التُّراب. والمفسِّرون يقولـون هـو الترابُ النديُّ الذي تحتَ الأرضِ السُّفلى، وَقِيْلَ: تحتَ الصخرةِ التي عليها الثورُ، ولا يعلمُ ما تحتَ الثَّرى إلاّ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: ما حاجتُكَ إلى الجهرِ، فإن اللهَ لا يحتاجُ إلى جـهركَ لِيَسْـمَعَ، فإنـه تعـالَى يَعْلَـمُ السِّرَ وَأخفَى منهُ. قال ابنُ عبَّاس: (السِّرُّ مَا أسْرَرْتَ بـهِ فِـي نَفْسِـكَ، وَأخْفَـى مِنْـهُ مَـا لَـمْ تُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَكَ مِمَّا يَكُونُ فِي غَدٍ، عِلْمُ اللهِ فِيْهِمَا سَوَاءٌ)[1] وَالتَّقْدِيْرُ: وَأخْفَـى مِنْـهُ، إلاّ أنهُ حُذِفَ للعلمِ بهِ.

وعن سعيدِ بن جُبير قال: (السِّرُّ مَا تُسِرُّهُ فِي نَفْسِكَ، وَأخْفَى مِنْهُ مَـا لَـمْ يَكُـنْ وَهُوَ كَائِنٌ، فَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا خَفِيَ عَنِ ابْنِ آدَمَ مِمَّا هُـوَ فَاعِلُـهُ قَبْـلَ أنْ يَفْعَلَـهُ)[2].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٠٩٥-١٨٠٩٦).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ أي له الصفاتُ العليا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ هذا استفهامُ تقريرٍ بمعنى الخبر، يريدُ: قد أتاكَ حديثُ موسى، ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس:(كَانَ مُوسَى عليه السلام رَجُلاً غَيُوراً لاَ يَصْحَبُ الرُّفْقَةَ؛ لِئَلاَّ يَرَى أحَدٌ امْرَأتَهُ، فَأَخطَأَ الطَّرِيْقَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَرَأى نَاراً مِنْ بَعِيْدٍ). ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ ؛ أي قَالَ لامرأتِهِ: أقيموا مَكَانَكُمْ، ﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ؛ أي رأيتُها وأبصرتُها، ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ ؛ أي بشُعلةٍ، ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن يدلُّني على الطريق. قال الفرَّاء: (أرَادَ هَادِياً، فَذكَرَ بلَفْظِ الْمَصْدَر)[1]. قال السديُّ: (لأنَّ النَّارَ لاَ تَخْلُو مِنْ أهْلٍ لَهَا وَنَاسٍ عِنْدَهَا).

كانت رؤيتهُ للنار في ليلةِ الجمعة، وكان قد استأذنَ شُعيباً عليه السلام في الرجوعِ إلى والدتهِ فأذِنَ لهُ، فخرجَ بامرأتهِ، فولدت في الطريقِ في ليلةٍ باردة مثلجة، وقد حادَ عن الطريقِ، فقدحَ فلم يرَ نورَ المقدحة شيئاً، فبينما هو في مداولةِ ذلك إذ أبصرَ ناراً عن يسار الطريق، فقال لامرأتهِ: امْكُثُوا - أي أقِيمُوا مكانكم - إنِّي أبصرتُ ناراً، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بقَبَسٍ، أوْ أجِدُ عَلَى النَّار مَن يدلُّني على الطريقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا أتَى النارَ أي شجرة خضراءَ من أسفلها إلى أعلاها كأنَّها نارٌ بيضاءُ تَتَّقِدُ، فسمِعَ تسبيحَ الملائكة، ورأى نُوراً عظيماً، فخافَ وتعجَّبَ، وألقِيَتْ عليه السكينةُ، ثُم نودي يا موسى، ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ ؛ وإنَّما كرَّرَ الكنايةَ؛ لتوكيدِ الدلالة، وإزالة الشُّبهة، وتحقيقِ المعرفة. قُرِئَ (إنِّي أنْ رَبُّكَ) بفتحِ الهمزة وكسرِها، فمن فتحَ فعلى معنى بأنِّي، ومَن كسرَ فعلى معنى الابتداء.

قال وهبٌ:(نودي من الشجرةِ، فقيل: يا موسى، فأجابَ سريعاً لا يدري مَن دعاهُ، فقال: إنِّي أسمعُ صوتَكَ فلا أرى مكانكَ، فأين أنتَ؟ قال: أنا فوقكَ ومعكَ

(١) ينظر: معاني القرآن: ج ٢ ص١٧٥.

وأمامكَ وخلفك وأقربُ إليك من نفسك، فعَلِمَ أن ذلك لا ينبغي إلاّ لربهِ عزَّ وَجَلَّ، فأيقنَ به)[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (إنَّمَا أمِرَ بخَلْعِ نَعْلَيْهِ لِيَنَالَ قَدَمَاهُ بَرَكَةَ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ، وَيُبَاشِرَ تُرَابَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ بقَدَمِهِ، فَيَنَالُهُ بَرَكَتُهَا) وقَوْلُهُ تَعَالَى: (الْمُقَدَّسِ) أي الْمُطَهَّرِ. قال عكرمةُ: (كَانَتْ نَعْلاَهُ مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ مَيْتٍ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ المقدَّس: هو المطهَّر، وَقِيْلَ: المباركُ، ولا يستدلُّ بما قالَهُ عكرمةُ على أنَّ جلودَ الميتة لا تَطْهُرُ بالدِّباغ؛ لأنه إنْ كانَ كذلك فهو منسوخٌ بقولهِ ﷺ: [أيُّمَا إهَابٍ دُبغَ طَهُرَ][٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (طُوًى) هو اسم الوادي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أي اخترتُكَ للرسالة؛ لكي تقومَ بأمري، فاستمِعْ لِما يوحَى إليك، فاحفظْهُ حتى تؤدِّيَهُ للناسِ. وقرأ حمزةُ: (وإنَّا اخْتَرْنَاكَ) بالتشديدِ في (إنَّا) على التعظيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ ؛ ولا تعبُدْ غيري ظاهرُ المعنى، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي لتَذْكُرَنِي بها بالتسبيحِ والتعظيم كذا قال مجاهدُ والحسن، وَقِيْلَ: لأَنْ أذكُرَكَ بالثناءِ والمدح، وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: إذا نَسِيْتَ الصَّلاَةَ، فَأَقِمْهَا إذا ذكَرْتَهَا)، قال ﷺ: [مَنْ تَأَخَّرَ عَنْ صَلاَةٍ أوْ نَسِيَهَا؛ فَلْيُصَلِّهَا إذا ذكَرَهَا، فَإنَّ ذلِكَ وَقْتُهَا] ثُمَّ قَرَأ (وَأقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي)[٤].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨١١٢).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الحيض: الحديث (١٠٥/ ٣٦٦). وأبو داود في السنن: كتاب اللباس: باب في أهب الميتة: الحديث (٤١٢٣).

(٤) تقدم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أنَّ القِيَامَةَ كَائِنَةٌ أكَادُ أُخْفِيْهَا عَنْ نَفْسِي، فَكَيْفَ أُظْهِرُهَا لِغَيْرِي)، قال المُبَرِّدُ: (هَذا عَلَى عَادَةِ مُخَاطَبَةِ الْعَرَب؛ يَقُولُونَ إذا بَالَغُوا فِي كِتْمَانِ السِّرِّ: كَتَمْتُهُ مِنْ نَفْسِي؛ أيْ لَمْ أُطْلِعْ عَلَيْهِ أحَداً).

والمعنى: أنَّ اللهَ تعالى بَالَغَ في إخفاءِ السَّاعةِ، فذكَرَهُ بأبلغِ ما تعرفُ العرب. قال قتادةُ: (هِيَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَةِ: أكَادُ أُخْفِيْهَا مِنْ نَفْسِي، وَلَعَمْرِي لَقَدْ أخْفَاهَا اللهُ عَنِ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِيْنَ وَالأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ، وَفِي مُصْحَفِ أُبَيٍّ وعَبْدِاللهِ: أكَادُ أُخْفِيْهَا مِنْ نَفْسِي، فَكَيْفَ يَعْلَمُهَا مَخْلُوقٌ؟).

ومعنى الآية: أكَادُ أُخفِيْهَا عن عبادي؛ كَي لا تأتيهم إلاّ بَغْتَةً، والفائدةُ في إخفائِها عن العبادِ: التهويلُ والتخويف، وفي ذلك مصلحةٌ لَهم؛ لأنَّهم إذا لَم يعلموا متى قيامُها كانوا على حَذرٍ منها في كلِّ وقتٍ، خائفين من الموتِ، مستعدِّين لذلكَ بالتوبةِ والطاعة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي بسَعْيِهَا، إما الثوابُ وإما العقابُ. وقرأ الحسنُ وابن جبير: (أَكَادُ أَخْفِيْهَا) بفتحِ الهمزة؛ أي أُظْهِرُهَا وَأبْرِزُهَا، يقالُ: خَفَيْتُ الشَّيْءَ إذا أظهرتهُ، وأخفيتهُ إذا سَتَرْتُهُ[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ ؛ أي فلا يَصْرِفَنَّكَ عَنِ الإيْمانِ بالسَّاعة مَن لا يصدِّقُ بها،﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ بالإنكار ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي فتهْلَكَ، وهو خطابٌ لِموسى عليه السلام، ونَهيٌ لسائرِ المكلَّفين. والصَّدُّ: هو الصَّرْفُ عن الخيرِ، يقالُ: صَدَّهُ عن الخيرِ، وصَدَّهُ عن الإيْمانِ، ولا يقالُ: صَدَّهُ عن الشَّرِّ، ولكن يقالُ: صَرَفَهُ عن الشرِّ ومَنَعَهُ عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي وما التي بيمينِكَ يا موسى؟ ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا ﴾ أي أعتمدُ عليها إذا أعْيَيْتُ، وإذا

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري: ج ٩ ص١٨٨.

مَشَيْتُ، فلفظُ أوَّل الآية استفهامٌ؛ ومعناه: التقريرُ علـى المخاطَب، أن الـذي في يـدهِ عصا؛ لكيلا تَهولهُ صارت ثُعباناً.

وَقِيْلَ: كان الغرضُ بهذا السُّؤال إزالةُ الوحشـةِ منـه؛ لأن موسَى كـان خائفـاً مُستوحشاً. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ ؛ أي أخبطُ به الشجرَ؛ ليتنـاثرَ وَرَقُهُ فيأكلهُ غنَمِي. وقرأ عكرمةُ: (وَأَهُشُّ) بالشِّين، يعني أزْجُرُ بها الغنـمَ، وذلـكَ أنَّ العربَ تقولُ: هَشّ وقَشّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي حوائجُ أخرى، تقولُ: لا إرَبَ لِي في هذا؛ أي لا حاجةَ لِي فيه، واحدُ الْمَآرب مَأْرُبَةٌ بضـمِّ الـراء وكسـرِها وفتحِها، وإنَّما لَم يقل: أخَرَ؛ لأجلِ رُؤوسِ الآيِ.

قـال ابـنُ عبَّـاس: (كَـانت مَآربُـهُ أنـه إذا ورد مـاء قصـر عنـه رشـاؤه وصلـه بالْمِحجنِ، ثم أدلَى العصا وكان في أسفلِها عكَّازةٌ يقاتلُ بها السباعَ، وكان يُلقي عليها كسائَهُ يستظلُّ تحتَها، ومن مآربهِ أيضاً أنـه كـان اذا أرادَ الاستسـقاءَ مِـن بـئرٍ أدلاهـا، فطالَتْ على طولِ البئر، فصارت شُعبتاها كالدَّلو، وكان يظهرُ على شعبتَيها الشَّمعتين بالليلِ- يعني: يضيءُ لهُ مد البصرِ ويهتدي بها - واذا اشتهَى ثمرة من الثمـار رَكَزَهـا في الأرضِ، فتغصَّنت أغصانُ تلك الشجرةِ، وأورقت أورقُها وأثمَرت)[١].

ثم كان من المعلومِ أنَّ موسى لَمْ يُرِدْ بـهذا الجـواب إعـلامَ اللهِ تعـالى؛ لأن اللهَ تعالى أعلمُ بذلكَ منه، ولكن لَمَّا اقتضى السؤالُ جواباً لَمْ يكن بـدٌّ لـه مـن الإجابـةِ، فذكرَ منافعَ العصا إقراراً بالنعمة فيها والتزاماً بما يجبُ عليـه مـن الشُّـكر للهِ، وهكـذا سبيلُ أولياءِ الله تعالى في إظهار شُـكر نِعَـمِ اللهِ تعـالى، وفي هـذا جـوابٌ عـن بعـضِ الْمُلْحِدَةِ في باب المسألةِ كانت عن فائدة ما في يده، ولَم يكن عن منافعِـها، فلِـمَ كـانَ الجوابُ عن ما لَم يسأل؟

(١) ينظر: الدر المنثور: ج ٥ ص٥٥٥، بمعناه، قال: (أخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنـذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه).

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي أَلْقِـهَا مـن يـدك، ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ تشتدُّ رافعـةً رأسَـها، عيناهـا تتوقَّـدان ناراً، تَمشي بسرعةٍ على بطنِها، لَها عُرْفٌ كعُرف الفَرسِ، فلما عاينَ ذلك موسى ولَّـى مُدبراً ولَم يُعقِّبْ هارباً منها، فنُودِيَ يا موسى: إرْجِعْ، فرجعَ وهـو شـديدُ الخـوفِ و ﴿ قَالَ ﴾؛ اللهُ لَـــه: ﴿ خُذْهَا ﴾ بيمينِـــك؛ ﴿ وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾؛ عصاً كما كانت.

فلما أمَرَهُ اللهُ بأخذِها أدنَى طَرَفَ ثوبهِ على يده، وكان عليه مَدْرَعَةٌ من صُوفٍ، فلما جعل طَرَفَ المدرعةِ على يدهِ ليتناولَها، قال مَلَكٌ: يا موسى؛ أرأيتَ لو أنَّ اللهَ قد رَعَاكَ ما تحاذرهُ؟ أكانت المدرعةُ تُغني عنكَ شيئاً؟ قال: لاَ؛ ولكنِّي ضعيفٌ ومن ضعفٍ.

فأمِرَ أن يُدخِلَ يدهُ في فَمِها فكشفَ عن يدهِ، ثُم وضعَها في فمِ الحيَّة، وإذا يـدهُ في الموضعِ الذي كان يضعُـها فيـه بـين الشُّعبتين اللَّتـين في رأسِ العصـا، وإنَّمـا أمِـرَ بإدخال يده في فمِها؛ لأنه إنَّما يُخشى من الحيَّة مِن فمِها، فأرادَ اللهُ أن يُريَهُ مـن الآيـةِ التي لَم يقدر عليها مخلوقٌ، ولئلا يفزعَ منها اذا ألقَاها عند فرعونَ، فلا يولِّي مُدبراً .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ قالَ الفرَّاءُ: (جَناحُ الإنْسَان عَضُـدُهُ أيْ مِـنْ غَـيْر أصـلِ إبطِـهِ)[1] والمعنى: أدْخِلْ يدكَ في جيبكَ تَخرج بيضاءَ ذات شُعاعٍ من غيرِ مَرَضٍ ولا بَرَصٍ آيـةً أخْرَى نعطيكَـها مـع العصـا، ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾؛ سِـوَى هَاتَين الآيتين، فكان عَلَيْهِ السَّلاَمُ إذا جَعَلَ يدَهُ في جيبهِ خرجت بيضاءَ يغلبُ شعاعُها نورَ الشمس. قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ لِيَدِهِ نُـورٌ سَاطِعٌ يُضِـيْءُ بـاللَّيْلِ وَالنَّـهَار كَضَـوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَأشَدُّ ضَوْءًا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي جَـاوزَ الحـدَّ في العصيان، وكَفَرَ وتكبَّرَ.

---

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص١٧٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ ﴾ أي وَسِّعْ لِي صَدري لأتمكَّنَ من تحمُّلِ أثقال الرسالة، والقيام بأدائها ومخاصمةِ الناس فيها، وسَهِّلْ لِي أمري برفعِ المشقَّة ووضع الْمَحَبَّةِ. قوله تعالى: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي وَارْفَعْ العُقْدَةَ من لساني؛ ليفقهوا قَولِي: كَلامِي.

وكان سببُ العُقْدَةِ في لِسانِهِ أنه كان في حُجرة فرعونَ، فأتى يومٌ فأخذ بلحيتهِ فَنَتَفَ منها شيئاً، وقال فرعونُ لامرأته آسْيَةُ: إنَّ هذا عَدُوِّي المطلوب وَهَمَّ بقتلهِ، فقالت له آسْيَةُ: لا تفعل، فإنه طِفْلٌ لا يعقلُ، ولا يفرِّقُ بين الأشياءِ ولا يُميز، وعلامةُ ذلك: أنه لا يُميز بين الدُّرَّةِ والجمرةِ، ثُم جاءت بطِشْتَيْنِ، فجعلت في أحدِهما الجمرَ من النار، وفي الآخرِ الجوهرَ والْحِلِيَّ، ووضعَتْهُما بين يَدَي موسى، فأراد مُوسى أن يأخذ شيئاً من الحليِّ، فأخذ جبريلُ بيدهِ فوضعَها على النار، فأخذ جمرةً ووضعَها في فمهِ حتى أحْرَقَ لسانَهُ، فكانت في لسانهِ رُتَّةٌ، فدفعَ عنهُ أكثرَ الضَّررين بأقلِّهما.

وقد اختلفوا في هذه العُقْدَةِ: هل زَالَتْ بأجمعِها في وقتِ نُبُوَّتِهِ، أم لاَ ؟ قال بعضُهم - وهو الأصحُ وإليه ذهبَ الحسنُ-: أنَّ الله استجابَ له، فَحَلَّ العُقدةَ من لسانهِ؛ لأنه تعالى قالَ ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾ فعلى هذا قولُ فرعونَ ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾[1] أي لا يأتِي ببيانٍ يُفْهِمُ، وكان هذا القولُ كذباً منهُ؛ ليصرفَ الوجوهَ عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ الوزيرُ الذي يُؤازرُ الأميرَ فيحملِ عنه بعضَ ما يحملُ، فيكون المعنى: واجعل لِي عَوْناً وظَهْرًا من أهلي، وقال الزجَّاج: (اشْتِقَاقُهُ مِنَ الْوِزْرِ وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي يُعْتَصَمُ بِهِ لِيَنْجُو مِنَ الْهَلَكَةِ).

ثُم بَيَّنَ الوزيرَ مَن هو، فقالَ: ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ﴾ ، قِيلَ: هرونُ مَفْعُولُ (اجْعَلْ)، تقديرهُ: اجْعَلْ هرونَ أخِي وزيراً لِي، ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي أَقَوِّي به ظَهرِي، والأَزْرُ الظَّهْرُ، لنتعاونَ على الأمرِ الذي أمَرْتَنا بـه، يقالُ: آزَرْتُ فُلاناً إذا عاونته.

---

(١) الزخرف / ٥٢ . الرُّتَّةُ؛ بالضم: العجمة في الكلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ ﴾ ، أي اجعلهُ شَريكاً لِي في تبليغ هذه الرسالة. ومن قرأ (أَشْدُدْ) بفتح الألـفِ و(أَشْرِكْهُ) بضـمِّ الألـف ردَّ الفعـلَ إلى موسى عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي كَي نُصلِّي لكَ، وَقِيـلَ: كـي نُـنزِّهَكَ كثـيراً، ونذكـرَكَ بـالحمدِ والثَّنـاء كثـيراً بمـا أَوْلَيْتَنـا مـن نِعْمَتِـكَ، ومَنَنْـتَ علينـا مـن تحمُّـلِ رسـالتِكَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي عالِماً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أوتيـتَ مـا سـألتَ يـا موسـى، وأوتيتَ مُـرادَكَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي أنعمْنا عليكَ كَرَّةً أخرى قبلَ هذه المرَّة.

ثم بَيَّنَ تلك النعمـة، فقـالَ تعـالى: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾ ؛ أي ألْـهَمْنَاهَا حين عَنَتْ بأمرِكَ، وما كان فيه سببُ نجاتِكَ من القتلِ، ﴿ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي ما يُلْهَمُ، ثم فسَّرَ ذلك الإلْهَامَ فقالَ: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ وكان السببُ في ذلك أن فرعونَ كان يقتلُ غِلْمَانَ بني إسرائيلَ على ما تقدَّم ذكرهُ، ثُم خَشِيَ أن يَفْنَى نسلُ بني إسرائيلَ، فكان يقتلُ بعد ذلك في سنةٍ ولا يقتلُ في سنةٍ، فوُلِدَ موسى في السَّنة التي يقتلُ فيها الغلمانَ، فنجَّاهُ الله من القتلِ بأن الْهَمَ أمَّهُ أن جعلته في التابوتِ، وأطْرِحَ التابوت في اليَمِّ وهو البحرُ، وأرادَ به النِّيْلَ ومعنى قولـه تعـالى: (أنِ اقْذِفِيهِ) أي اجعليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾ ؛ لفظهُ لفظ الأمرِ وهو خبرُ (بتقدير) حتى يلقيه اليَمُّ بالسَّاحل. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ؛ وأرادَ بـه فرعون.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ ؛ وذلـك أن أمَّ موسـى لَمَّـا اتخذت لِموسى تابوتاً جعلت فيه قُطْناً مَحْلُوجاً، ووضعت فيه موسَى وألقتْهُ في النِّيلِ، وكان يشرعُ منه نَهر كبيرٌ في دار فرعون، فبينما هو جالسٌ على رأسِ البِرْكَةِ مع امرأتهِ آسْيَةُ، إذا بالتابوتِ يَجِيْءُ بالماء.

فلما رأى ذلك أمَرَ الجواري والغلمان بإخراجِهِ فأخرجوهُ، فإذا هـو صـبيٌّ مـن أحسنِ الناس وَجْهاً، فلما رآهُ فرعون أحبَّهُ بحيثُ لَـم يتمالك، فذلـك قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) قال عطية العوفي[1]: (وَجَعَلَ عَلَيهِ مِسْحَةً مِنْ جَمَالٍ فَأَحَبَّهُ كُلُّ مَن رآهُ).

وقال عطاءٌ عن ابنِ عبَّاس: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّـي) أيْ لاَ يَلْقَاكَ أحَدٌ إلاَّ أحَبَّكَ مِنْ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ)[2]، وقـال عكرمـةُ: (أَلْقَيـتُ عَلَيْـكَ مَحبَّـةً ومَلاَحَةً وَحُسْـناً)[3]، فحيـن أبصـرَتْ آسية وجهَـهُ قـالت لفرعـون: قُـرَّةُ عَيْـنٍ لِـي ولكَ. وقال أبـو عبيـدةُ: (مَعْنَـاهُ: جَعَلْـتُ لَـكَ مَحَبَّـةً عِنْـدِي وَعِنْـدَ غَـيْرِي، أحَبَّـكَ فِرْعَوْنُ، فَسَلِمْتَ مِنْ شَرِّهِ، وَأحَبَّتْكَ امْرَأتُـهُ فَتَبَنَّتْـكَ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي ولِتُرَبَّى وتغذى بمرأى أراكَ على ما أريدُ بـك مـن الرفاهيَـةِ في غذائِكَ. وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: لِتُغَذى عَلَى مَحَبَّتِي).

وأرادَ في قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ ؛ وذلكَ أن موسى جعَلَ يبكي ويطلبُ اللَّبَنَ، فـأمَرَ فرعـونُ حتـى أتـى بالنِّساءِ اللَّواتِي حولَ فرعون لِيُرضعْنَ موسى، فلم يَقْبَلْ ثديَ واحدةٍ منـهن، وكـانت أخْتُ موسى مُتَّبعَةً للتابوتِ ماشيةً خَلْفَهُ.

فلما حُمل التابوتُ إلى فرعونَ، ذهبت هي معهُ، فقالت: هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَـى مَـنْ يَكْفُلُهُ؟ أي يرضعهُ ويضمُّه ويحصنهُ ؟ فقالوا: مَن هي ؟ قالت: امرأةٌ قد قُتِـلَ ولدُهـا، وهي تحبُّ أن تجدَ صبياً ترضعهُ. فأذِنَ لَها فرعونُ في إحضارها، فـانطلقت وأتـتْ بـأُمِّ

---

(١) عطيةُ بن سعد بن جُنادة العوفيّ الجدلي القيسي الكـوفي، أبـو الحسـن. تـابعي روى عـن بعـض الصحابة. تكلم فيه، وقال مسلم بن الحجاج: (قال أحمـد وذكـر عطيـة العـوفي، فقـال: ضعيـف الحديث، ثم قال: بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي ويساله عن التفسير). ترجم لـه ابـن حجـر في تهذيب التهذيب: ج ٥ ص٥٩٠-٥٩٢: الرقم (٤٧٥٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٦٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم)).

(٣) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٦٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد)).

موسى، فأعطتْهُ الثديَ فأخذهُ موسى، وفَرِحَ به فرعونُ، وجعل لَها الأجرة على الإرضاع، وحملتهُ أمُّهُ إلى دارها، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ ؛ أي رَدَدْنَاكَ إليها؛ كي تطيبَ نفسُها، ولا تحزن على ابنِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ ؛ يعني القِبْطِيَّ الذي وَكَزَهُ موسى فقضى عليه، ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ ؛ أي غَمِّ القَوَدِ، وخلَّصناكَ مِن أن تُقتَل. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ ؛ أي أوقعناكَ في مِحْنَةٍ بعدَ محنةٍ، ونحنُ نخلِّصُكَ منها، وذلك أنه حُمِلَ به في السَّنة التي يَذبحُ فرعونُ فيها الأطفالَ، ثم إلقاؤهُ في البحرِ، ومنعُ الرَّضاع إلاّ ثدي أمِّهِ، ثم جَرُّ لِحيَةِ فرعون حتى هَمَّ بقتلِهِ، ثم تناوله الجمرةَ، ثم قتلهُ القبطيَّ، ثم خروجهُ إلى مَدْيَنَ خائفاً يَترَقَّبُ.

فمعنى: (فَتَنَّاكَ فُتوناً) أي خلَّصناكَ مِن تلك الْمِحَنِ. وَقِيْلَ: معناه شَدَّدْنَا عليكَ في أمرِ المعاش حتى رَعَيْتَ لشعيب عشرَ سنين. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: اخْتَبَرْنَاكَ اخْتِبَاراً)[1]، وقال الضحَّاك: (ابْتَلَيْنَاكَ ابْتِلاَءً)، وقال مجاهدُ: (خَلَّصْنَاكَ خَلاَصاً)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ؛ يعني لَبِثْتَ في أهلِ مَدْيَنَ حين كنت رَاعياً لشُعيبٍ، مكثتَ عشرَ سنين. وتقديرُ الكلامِ: وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً؛ فخرجتَ إلى أهلِ مَدْيَنَ فلبثْتَ سِنِينَ. وبلادُ أهلِ مَدْيَنَ على ثلاثِ مراحل من مِصْرَ. وقال وهبُ: (لبثتَ في أهلِ مدينَ عند شُعيب ثمانِي وعشرين سنةً، عشرَ سنين التي رعَى فيها لشعيب، وثمانِي عشرة سنةً أقامَ عنده حتى وُلِدَ لهُ، وقتلَ القبطيَّ يوم قتلهِ وهو ابنُ اثْنَتي عشرةَ سنةً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ معناهُ: فلبثتَ سنين في أهلِ مَدين حين كنتَ راعياً لشُعيب، ثُم جئتَ على المقدار الذي قَدَّرَهُ اللهُ عليكَ، وكَتَبَهُ فِي اللَّوح الْمَحفُوظِ. قال ابنُ كيسانَ: (جَاءَ عَلَى رَأسِ أرْبَعِيْنَ سَنَةً، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي يُوحَى فِيْهِ إلَى الأَنْبيَاءِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨١٩١).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٦٨؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي اخْتَصَصْتُكَ لوحيــي ورسالَتِي، والاصطناعُ هو الإخلاصُ بالألطافِ. وقال الزجَّاج معناه: (اخْتَرْتُكَ لإقَامَةِ حُجَّتِي، وَجعَلْتُكَ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي).

قَوْلُهُ تَعَــالَى: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ ؛ أي بـاليدِ والعصا، ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي لا تُقَـتِّرَا في تبليـغ رسـالَتِي إلى فرعــونَ، ولا تضعُفَـا عنِ ذِكـري، وَقِيْـلَ: لا تُقصِّـرا ولا تُبْطِئَـا. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّم تفسيرهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ ؛ أي قـولاَ لـهُ بالشَّـفَقة، ولا تقـولاَ لـه قولاً عَنِيفاً، فيزدادَ غَيْضاً بغِلَظِ القول. قال السديُّ و عكرمةُ: (كَنِّيَاهُ قُـولاَ لَـهُ: يَـا أبَـا الْعَبَّاس) وَقِيْلَ: يا أبَا الوليدِ[١]، ويا أيُّها الملكُ. وَقِيْلَ: يعني بالقولِ اللَّـينِ: ﴿هَـلْ لَـكَ إلَى أنْ تَزَكَّى. وَاَهْدِيَكَ إلَى ربكَ فَتَخْشَى﴾[٢].

وعن السديِّ قال: (الْقَوْلُ اللَّيِّنُ: أنَّ مُوسَى أتَاهُ فَقَالَ لَهُ: تُؤْمِنُ بِمَـا جِئْـتُ بـهِ، وَتَعْبُدُ رَبَّ الْعَالَمِيْنَ عَلَى أنَّ لَكَ شَبَابَكَ فَلاَ تَـهْرَمُ، وَأنَّ لَـكَ مُلْكَـكَ لاَ تُـنْزَعُ حَتَّـى تَمُوتَ، وَلاَ تُنْزَعُ عَنْكَ لَذةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَاب وَالْجِمَاعِ حَتَّى تَمُوتَ، فَإذا مِتَّ دَخَلْـتَ الْجَنَّةَ. فَأعْجَبَهُ ذَلِكَ، وَكَـانَ لاَ يَقْطَـعُ أمْـراً دُونَ هَامَـانَ، وَكَـانَ هَامَـانُ غَائِبـاً، فَقَـالَ فِرْعَونُ: إنَّ لِي ذا أمْرٍ غَائِبٍ، فَاصْبِرْ حَتَّى يَقْدُمَ. فَلَمَّا قَدمَ قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ يَا هَامَـانُ إنَّ مُوسَى دَعَانِي إلَى أمْرٍ فَأعْجَبَنِي - وَأخْبَرَهُ بالَّذِي دَعَاهُ إلَيْــهِ - وَأرَدْتُ أنْ أقْبَـلَ مِنْـهُ. فَقَالَ هَامَانُ: قَدْ كُنْتُ أرَى أنَّ لَكَ عَقْلاً، بَيْنَمَا أنْتَ رَبٌّ فَتُرِيْدُ أنْ تَكُونَ مَرْبُوباً، وَأنْتَ تُعْبَدُ فَتُرِيْدُ أنْ تَعْبُدَ؟. فَغَلَبَهُ عَلَى رَأيِهِ فَأبَى.

رُوِيَ أنَّ رَجُلاً قَرَأ فِي مَجْلِسِ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ: (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً) فَبَكَى يَحْيَى ابْنُ مُعَاذٍ وَقَالَ: (إلَهِي، هَذا رِفْقُكَ بِمَنْ يَقُولُ أنَا إلَهٌ، فَكَيْـفَ رِفْقُـكَ بِمَـنْ يَقُـولُ أنْـتَ إلَهِي، إنَّ قَوْلَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ يَهْدِمُ كُفْرَ خَمْسِيْنَ سَنَةٍ).

(١) ينظر: معالم التنزيل: ص٨١٩.

(٢) النازعات / ١٨-١٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي يَتَّعِظُ أو يخشى العاقبةَ، وكلمة (لَعَلَّ) للترجِّي والطمعِ؛ أي اذهبَا على رجائِكُما وطمَعِكُما وأنا عالِمٌ بما يفعلُ، فإن قيلَ: كيفَ قال (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) وعلمهُ سابقٌ في فرعونَ أنه لا يؤمنُ، ولا يتذكر ولا يخشَى ؟ قِيْلَ: هذا مصروفٌ إلى غيرِ فرعون، تقديرهُ: لِكَي يتذكرُ متذكرٌ ويخشَى خَاشٍ إذا رأى بَرِئ ، والطَّافِي بمن خلقتَهُ ورزقتُهُ وصحَّحتُ جِسمَهُ وأنعمتُ عليه، ثم ادَّعى الربوبيةَ دوني.

قال بعضُ العارفين في قولِهِ تعالى: (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً): (إذا كَانَ هَذا رفقُكَ بِمَنْ ينافيكَ، فكيفَ رفقُكَ بمن يصافيكَ؟ هذا رفقُكَ بمن يعاديكَ، فكيفَ رفقُكَ بمن يواليكَ؟ هذا رفقُكَ بمن يسبُّكَ، فكيفَ رفقُكَ بمن يحبُّكَ؟ هذا رفقُكَ بمن يقولُ نداً فكيفَ بمن يقول فرداً ؟ هذا رفقُكَ بمن ضَلَّ، فكيفَ رفقُكَ بمن زلَّ؟ هذا رفقُكَ بمن اقترفَ، فكيفَ رفقُكَ بمن اعترفَ؟ هذا رفقُكَ بمن أصرَّ، فكيف رفقُكَ بمن أقرَّ؟ هذا رفقُكَ بمن استكبرَ، فكيف رفقك بمن استغفرَ ؟).

وعن وهب بن منبه قال: (أوحى اللهُ إلى موسى: انطلِقْ إلى فرعونَ برسالتِي، فمعكَ نظَرِي وأنتَ جندٌ عظيم من جُنودِي، بعثتُكَ إلى خلقٍ ضعيف قد عزَّته الدنيا حتى كفرَ وأقسَم بعزي لولا اتخاذُ الحجَّة عليه والعذرَ إليه لبطشتُ به بطشةَ جبارٍ يغضبُ لغضبهِ السَّموات والأرض، فإن أذنَ للسَّماء صَعَقَتْهُ، وللأرضِ ابتلعتْهُ، وللجبال دمَّرتهُ، وللبحار أغرقته، ولكنهُ وسعَهُ حِلْمي، فبلِّغْهُ رسالَتِي وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لا يغرُّ بك فألبسه من لباسِ الدُّنيا، فأجِبْ ربك الذي هو واسعُ المغفرة، أنه قد أمهلَكَ منذ خمسمائة سنة لَم تَهرمْ ولَم تسقمْ ولَم تفتَقِرْ، واعلم أنَّ أفضلَ ما تزينَ به العبادُ الزهدَ في الدنيا، ومن أهانَ وليّاً فقد بارزَنِي بالْمُحاربةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ معناه: قال موسى وهارونُ: رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا، قال ابنُ عبَّاس: (يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ)[1]، وَقِيْلَ: تغليب أو أن يطغى بتكبُّرٍ ويستعصِي علينا، ويقالُ: فرَّطَ علينا فلانٌ إذا أعجلَ بمكروهٍ، وفرَّطَ منه أمري بدر وسبق.

---

(١) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٨٠؛ عزاه السيوطي لابن أبي حاتم. وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٤٢٤.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ ﴾ ؛ أي معَكُمـا بالبصـيرةِ والعون، ﴿ أَسْمَعُ ﴾ ؛ ما يَرُدُّ عليكُمـا، ﴿ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ مـا يصنعـهُ بكمـا، وَقِيْلَ: معناهُ: أسْمَعُ دعاءَكما فأجيبـهُ، وأرى مـا يريـدُ بكمـا فأمنعـهُ، ولسـتُ بغـافلٍ عنكُما، فلا تُهتمَّا، ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ ؛ أرسـلنا إليـكَ، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ ؛ أي أطلِقْهُم مـن اعتقـالِكَ، ولا تُتْعِبْـهُمْ بالأعمـالِ الشَّاقة، ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ؛ أي بعلامةٍ من ربك وهي اليدُ والعصا، وهما أوَّلُ آية، وَقِيْلَ: اليدُ خاصَّة.

وكان فرعونُ قد أتعبَ بنِـي إسـرائيلَ بالأعمـال الشَّـاقة، مثـلَ اللَّـبن والطـين والبناء، وما لا يقدرونَ عليه. فلمَّا قال موسى: قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبك، قال: ما هيَ؟ فأدخلَ يدَهُ في جيب قميصه ثُم أخرجَها، فإذا هي بيضاءُ لَها شعاعٌ غَلَبَ نورَ الشمسِ، ولَم يُرهِ العصا إلاّ بعدَ ذلك يوم الزِّينة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ ليـس هـو بتحيَّـةٍ لفرعون ولكن معناهُ: أن مَن اتَّبَعَ الْهُدى سَلِمَ من عذاب الله بدليـلِ أنـه عقَّبَـهُ بقولـهِ تعـالى: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما يُعَذِّبُ اللهُ مَن كذبَ بما جئنا به وأعرضَ عنه، فأمَّا مَن اتَّبَعَهُ فإنه يَسْلَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي مـن إلَـهُكما الـذي أرسلَكُما، ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ﴾ ؛ أي ربُّنـا الـذي خَلَـقَ كُـلَّ شَيْءٍ على الْهَيْأَةِ التي ينتفعُ بها، فأعطاهُ صحَّته وسلامتَهُ وَركَّبَ فيه شهوتَهُ، ثـم هَـدَاهُ لمعيشتهِ. وَقِيْلَ: معناهُ: الذي صَوَّرَ كُلَّ جنسٍ من الحيـوان علـى صـورةٍ أخرى، فلـم يجعل خَلْقَ الإنسانِ كخلق البهائمِ، ولا خَلْقَ البهائمِ كخلق الإنسانِ، ولكن خَلَقَ كـلَّ شيء فقَدَّرَهُ تقديراً.

وقال الضحَّاك: (أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ؛ يَعْنِي لِلْيَدِ الْبَطْشَ، ولِلرِّجْـلِ الْمَشْـيَ، وَلِلِّسَانِ النُّطْقَ، وَلِلْعَيْنِ النَّظَرَ، وَلِلأُذُنِ السَّمْعَ)(١). وقال سعيدُ بن جبير: (أعْطَـى كُـلَّ

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٠.

شَيْءٍ شَكْلَهُ، لِلإنْسَانِ زَوْجَةً، وَلِلْبَعِيْرِ نَاقَةً، وَلِلْفَرَسِ رَمَكَةً[١]، وَلِلْحِمَارِ أتَاناً، وَلِلثَّوْرِ بَقَرَةً، ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ أي ألْهَمَ وعَرَّفَ كيف يأتِي الذكرُ الأنثى في النِّكاحِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ قال: ما حالُ، وما بيانُ الأُممِ الماضية، لَم يُبعثوا ولَم يُجازَوا على أفعالِهم، ومعنى البالُ: الشأنُ والحالُ. والمعنى: مَا حَالُهَا، فإنَّها لَم تُقِرَّ بالله، ولكنَّها عبدَتِ الأوثانَ، ويعني بالقُرُون الأُولى، مِثْلَ قوم نُوحٍ وعاد وثمود، ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ﴾ ؛ وإذا عَلِمَ لا بدَّ أن يُجازي. وَقِيْلَ: معناهُ: عِلْمُ أعمالِها عند ربي في كتاب الله، أراد به اللَّوحَ الْمَحفُوظَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يذهبُ عليه شيءٌ، ولا يُخطئُ ولا ينسى ما كان من أمرهم حتى يُجازيهم عليه، وَقِيْلَ: لا يغفلُ ربي ولا يتركُ شيئاً، ولا يغيبُ عنه شيءٌ، وفي هذا دليلٌ أنَّ الله تعالى لَم يكتُبْ أفعالَ العبادِ لحاجتهِ في معرفتها إلى الكتاب، ولكن لمعرفةِ الملائكة. ويقالُ: كان سؤالُ فرعون عن القرونِ الأُولى: هل بُعِثَ فيهم أنبياءُ كما بُعِثْتَ إلينا، فأحالَها على ما في المعلومِ من أمرها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ وقرأ أهلُ الكوفةِ (مَهْداً) بغيرِ ألف؛ أي فَرْشاً، والفراشُ: الْمِهَادُ لغةٌ فيه كالفُرُشِ والفِرَاشِ؛ أي جعلَها مبسوطةً ليمكن القرارُ عليها، ولَم يجعلها حادَّةً كرؤوسِ الجبال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً) أي طُرُقاً تذهبون وتجيئُونَ فيها وتسلكونَها. قال ابنُ عبَّاس: (سَلَكَ أيْ سَهَّلَ لَكُمْ فِيْهَا طُرُقاً)[٣]. ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ ؛ يعني المطرَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي فأخرَجْنا بالمطرِ أصنافاً من نباتٍ مختلف الألوان.

---

(١) الرَّمَكَةُ –بتفحتين-: الأنثى من البراذِين.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٤٢٥.
(٣) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ ؛ أي كُلُوا من نباتِ الأرض، وارْعَوا أنعامَكم من عُشْبهَا، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما ذكَرْتُ لكم لعلامةٍ دالَّة على البعثِ لذوي العقول من الناس، وإنَّما سُميت العقولُ (نُهى)؛ لأن أصحابَها ينتهون بها عن القبيحِ والمعاصي.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ؛ أي مـن الأرضِ خلقنـا أبـاكم آدمُ وكلُّكم من ذريَّته، ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ ؛ عند الموتِ والدفنِ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ للبعثِ،وقد جرَى ذكرُ الأرضِ في قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً﴾[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي أرَيْنَـا فرعونَ آياتنا السَّبع كلَّها فكَذبَ وأبَى، أي قال: ليست هذه مِـن الله، وأبَـى أن يُسْلِمَ ويقبلَ، ونسـبَ موسـى إلى السِّحر؛ فـ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ؛ أي مِصْرَ، ﴿ بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ ؛ أي مِثْلِ ما جِئْتَنَا به، ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ ؛ أي مِيْقاتاً وأجَـلاً في موضـعٍ معلـوم، ﴿ لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ﴾ ؛ أي لا نجـاوزهُ ولا يقـع منـا خَلْـفٌ في حضـورِهِ. قَوْلُـهُ تَعَالَى:﴿ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي مكاناً مُستوياً يُبَيِّنُ للناسِ مـا بيننـا، ويسـتوي حالُنا من الرِّضى به. وَقِيْلَ: تستوي مسافتهُ على الفريقينِ فتكونُ مسافةُ كلِّ فريقٍ إليه كمسافة الفريق الآخر.

فواعدَهُ موسى يوماً مَعْلُوماً وهو قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ أي يومُ العيدِ الذي لكم. قال سعيدُ بن جبير: (كَانَ يَـوْمَ عَاشُـورَاءَ)[(٢)]، قـرأ الحسـنُ: (يَوْمَ الزِّيْنَةِ) بنصب الميم؛ أي فِي يوم. وقرأ الباقون بالرفعِ على الخبرِ[(٣)].

---

(١) النبأ / ٦ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٥٨٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميـد وابـن المنذر عن ابن عباس)).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ج ١١ ص٢١٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ ﴾ ؛ أي ضُحى ذلك اليومِ، وأراد بالناسِ أهلَ مصر، ومعنى يُحشرون أي يجتمعون إلى العيدِ، وإنَّما جعلَ موسى موعدَهم نَهاراً في يومِ اجتماعهم؛ ليكون أبلغَ في الحجَّة، وأبعدَ من الرِّيبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنْ يُحْشَرَ) يحتمل أن يكون في موضعِ رفعٍ على معنى موعدٍ كما حُشِرَ الناسُ وقتَ الضُّحى يوم الزينة، ويحتملُ أن يكون في موضعِ خَفْضٍ عَطْفاً على الزينةِ، المعنى يومُ الزينةِ، ويومُ حشرِ الناس في وقتِ الضَّحوة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ ﴾ ؛ أي فأعرضَ فرعونُ عن الحقِّ والطاعة فجمع كَيْدَهُ ومَكْرَهُ، وذلك جمعهُ السَّحرةَ ثُم أتى الموعدَ، والمعنى: (فَجَمَعَ كَيْدَهُ) أي سحرتَهُ، قِيْلَ: كانوا أربعمائةِ ساحرٍ؛ و﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ ؛ للسحرة: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي لا تُشركوا مع اللهِ أحداً، ولا تَختَلِقُوا عليه كَذِباً بتكذيبي، ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ ؛ أي فيُهْلِكَكُمْ ويستأصِلَكم بعذاب من عندهِ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ ﴾ ؛ أي وقد خابَ مَنِ اختَلَقَ على الله كَذباً. ومعنى قولهِ: (وَيْلَكُمْ) أي ألْزمَكُمُ الوَيْلَ. قرأ أهلُ الكوفة: (فَيُسْحِتَكُمْ) بضمِّ التاء وكسرِ الحاء، يقالُ: سَحَتَهُ اللهُ وأسْحَتَهُ؛ أي أهْلَكَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ ﴾ ؛ أي فتشاورتِ السحرةُ فيما بينهم من فرعون في أمرِ موسى، وأسرُّوا المناجاةَ، فقالوا: إن غَلَبَنَا موسى اتَّبَعْنَاهُ وآمَنَّا به فهذا نَجواهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ ؛ أي قال الملأُ من قوم فرعون: إنَّ موسى وهارون لَسَاحِران، ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ ؛ من أرضِ مصرَ، ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ ﴾ ؛ أي بدِيْنِكُم الأمثلُ، وَقِيْلَ: معناه: ويَذْهَبَا بأهلِ طريقتكم.

واختلفَ القُرَّاء في قولهِ تعالى (إنْ هَذان)، قرأ أبو عمرو (هَذَيْنِ) على اللغة المعروفةِ وهي لغةُ أهلِ الحجاز، وقرأ نافعُ وابن عامر وحمزةُ والكسائي (هَذانِ)

بالألفِ[1] وهي لغةُ كنانةَ وبني الحارثِ بن كعب وخَثْعَـمَ وزيـدٍ وقبـائلَ مـن اليمـنِ: يجعلون ألِفَ الاثنين في الرفعِ والنصب والخفضِ علـى لفـظٍ واحـد، يقولـون: أتـاني الزَّيدان، ورأيتُ الزَّيدان، مَرَرْتُ بالزيدان. قال الفرَّاءُ: (أنْشَدَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِـي أسَـدٍ، وَمَا رَأيْتُ أفْصَحَ مِنْهُ:

فَـأطْرَقَ إطْـرَاقَ الأُفْعُـوَانِ وَلَـوْ يَـرَى ... مَسَـاغاً لِنَابَـاهُ الشُّـجَاعُ لَصَمَّمَـا)[2]

ويقولون: كَسَرْتُ يَدَاهُ وَرَكِبْتُ عُلاَهُ، يعني يديهِ وعليه، قال شاعرُهم[3]:

تَـزَوَّدَ مِنَّـا بَيْـنَ أُذْنَـاه ضَرْبَـةً ... دَعَتْـهُ إلَـى هَـابي الـتُّرَاب عَقِيْـمُ

أراد بين أذُنيهِ، فقال آخرُ:

أيُّ قُلُـوصِ رَاكِـبٍ تَرَاهَـا ... طَـارُوا عَلاَهُـنَّ فَطِـرْ عَلاَهَـا

أي عليهنَّ وعليها، وقال آخرُ :

إنَّ أبَاهَـا وَأبَـا أبَاهَـا ... قَـدْ بَلَغَـا فِـي الْمَجْـدِ غَايَتَاهَـا

وقال بعضُهم (إنْ) هنا بمعنـى: نَعَـمْ. رويَ أنَّ أعرابيـاً سـألَ ابـن الزُّبـير شيئاً فَحرَّمَهُ، فقال: لَعَنَ اللهُ نَاقَةً حَمَلَتْنِي إلَيْكَ، فَقَـالَ ابْـنُ الزُّبَيْرِ: (إنْ وَصَاحِبُـهَا) يعنِـي نَعَمْ[4]. وقال الشاعرُ:

بَكَـرَ الْعَـوَاذِلُ فِـي الصَّبَـا ... حِ يَلُمْنَنِـي وَألُومُهُنَّـهْ

وَيَقُلْـنَ شَـيْبُ قَـدْ عَـلاَ ... كَ وَقَـدْ كَـبرْتَ فَقُلْـتُ إنَّـهْ

---

(١) ينظر: الحجة للقراءات السبعة لأبي علي الفارسي: ج ٣ ص١٤٢.

(٢) في معاني القرآن: ج ٢ ص١٨٤، والبيت للمتلمس، كما في اللسان. والشجاع: هـو الذكـر مـن الحيَّات. وصمم: عض في العظم.

(٣) هوبر الحارثي، كما في لسان العرب.

(٤) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٢١.

أي نعم[(١)]. وقد ذكرَ أهلُ النحوِ لتصحيح هذه القراءةِ وجُوهاً:

أحدُها: ضَعْفُ عملِ (إنْ) لأنَّها تعملُ بالمشبَّه بالفعلِ وليست بأصلٍ في العمل، ألا ترى أنَّها لَمَّا خُففت لَم تعمل.

والثانِي: أنَّها تشبهُ (اللَّذيْنِ) في البناءِ؛ لأن (اللَّذيْنِ) في الرفع والنصب والخفض سواءٌ، ولأنَّ الألفَ في (هَذَان) ليس ألفَ التشبيهِ لوجودها في الوحْدَان، وإنَّما زِيْدَتْ النونُ في التثنيةِ ليكون فرقاً بين الواحدِ والاثنين، كما قالوا (الَّذِيْ) ثُم زادوا نُوناً تدلُّ على الجمعِ، قالوا (الَّذِيْنَ) في رفعِهم ونصبهم.

والثالثُ: (إنْ) ها هُنا مخففة وليست مضمرة إلاَّ أنه حُذفت الهاء.

والرابعُ: أنه لَمَّا حُذفت الألِفُ صارت ألفَ التثنية عِوَضاً منها.

والخامسُ: أنَّ (إنْ) بمعنى نَعَمْ[(٢)].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾ ؛ قرأ أبو عمرو (فَاجْمَعُوا) بوصلِ الألف وفتحِ الميم من الجمعِ، وتصديقهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَجَمَعَ كَيْدَهُ)، وقرأ الباقونَ (فَأَجْمِعُوا) بقطعِ الألف وكسرِ الميم، مأخوذٌ من أجْمَعْتُ الأمرَ إذا عزمتُ عليه وأحكمتهُ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (كَيْدَكُمْ) أي مَكْرَكُمْ وسِحرَكم، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ ﴾ ؛ مُجتمعين؛ ليكونَ أنظَمَ لأموركم، وأشدَّ لِهيبَتِكم. وَقِيْلَ: معناهُ: ثُم ائتوا الْمُصَلَّى. والعربُ تسمِّي الْمُصَلَّى صَفّاً. قال الزجَّاج:(فَعَلَى هَذا مَعْنَاهُ: ثُمَّ ائْتُوا الْمَوْضِعَ الَّذِي تَجْتَمِعُونَ فِيْهِ لِعِيْدِكُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي قد فَازَ بالفلاحِ والبقاء مَن كانت الغَلَبَةُ لهُ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٢١٨؛ قال القرطبي: (وعلى هذا يكون جائزاً أن يكون قولُ الله عزَّ وجل: ﴿إنْ هَذانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بمعنى نَعَمْ، ولا تنصب).

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٣١-٣٢. وجامع البيان للطبري: مج ٩ ج١٦ ص٢٢٦-٢٢٧.

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ أي قالتِ السَّحرةُ: يَا مُوسَى إمَّا أنْ تُلْقِيَ عَصَاكَ إلى الأرض، وإمَّا أنْ نَكُونَ أوَّلَ مَـنْ الْقَـى الْعِصِـيَّ والحبـالَ، ﴿ قَالَ ﴾ لَـهم موسـى: ﴿ بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾ ؛ فـألْقوا حبالَـهم وعِصِيَّهم.

روي أنَّهم كانوا سبعينَ ألفَ ساحرٍ، وكان عددُ ما عمِلُوا من الحبـال والعصـيّ حِمْلَ ثلاثِمائة بعيرٍ، فألْقوا مـا معـهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي تُمشي وتتحرَّكُ، وكانوا قد احتالُوا فيها بحيلةٍ، فكان كلُّ مَن رآها مِن بعيد يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّها تتحركُ.

قرأ ابنُ عامر: (تُخَيَّلُ) بالتاء، ردَّهُ إلى الحبال والعِصِيِّ، وقرأ الباقون بالياء، ردُّوهُ إلى الكيدِ والسِّحر[1]، وذلك أنَّهم لَطَّخُوا حبالَهم وعصيَّهم بـالزّئبق، فلمـا أصابَـهُ حـرُّ الشمس ارتعشت واهتزَّت، فظنَّ موسى أنَّها تقصـده[2]، ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي أحسَّ ووجَدَ، وَقِيْلَ: أضْمَرَ في نفسه خِيْفَةً.

فإن قِيْلَ: لِمَ جازَ أمرُهم بالإلقاءِ وهو كفرٌ ؟ قِيْلَ: يجوزُ أن يكون معناهُ: ألْقُـوا إنْ كنتم مُحِقِّيْنَ كما زعمتُم، ويجوزُ أن يكون أمراً بالإلقاءِ على وجه الاعتبار.

وقَوْلُهُ تَعَالَى (فَأوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، قُلْنَـا لاَ تَخَـفْ)، فـإن قِيْـلَ: مـا الذي خَافَهُ موسى؟ قِيْلَ: خافَ أن يلتبـسَ علـى النـاسِ أمـرُ السَّحَرَةِ فيتوهَّمـون أنَّ حبالَهم وعصيهم بمنْزِلة عصاهُ. وَقِيْلَ: كان خوفـهُ خـوفَ الطبـعِ لِمَـا رأى مـن كـثرةِ الحيَّات العِظَامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ عليهم بالظَّفرِ والغلبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ ؛ يعني العصَـا، ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ ؛ أي تَلْقَمْ وتَبْلَعْ ما طَرَحُوا من العصيِّ والحبالِ، ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ﴾ ؛ أي أنَّ الذي

---

(١) ينظر: جامع البيان: ج ٩ ص٢٣٢.

(٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٢.

صنعوهُ كَيْدُ سَاحِرٍ. وقُرئ (كَيْدُ سِحْرٍ) كما قالوا بمعنى حذر، ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ أي لا يَغْلِبُ حَقَّكَ بباطلهِ. وَقِيلَ: لا يُسْعَدُ السَّاحرُ حيث كان.

فألقَى موسى عصاهُ فتلقَّفت جميعَ ما صنعوا، ثُم أخذها موسى فرجعت عصا كما كانت، ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾؛ فما رفعُوا رؤوسَهم حتى رأوا الجنةَ والنار، ورأوا ثوابَ أهلِها، فعندَ ذلك قالوا: (لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البيِّنات) يعني الجنةَ والنار، وما رأوا مِن درجاتِهم.

قال: وكانتِ امرأةُ فرعون تسألُ مَنْ غَلَبَ؟ فقيل لَها: موسى، فقالت: آمنتُ برب موسى وهارون، فأرسلَ إليها فرعونُ، فقال: انظرُوا إلى أعظمِ صخرة تَجدونَها فأتُوها، فإنْ هي رجعت عن قولِها وإلاّ فألْقُوها عليها، فلما أتَوها رفعت ببصرها إلى السَّماءِ فرأتِ الجنَّةَ فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾[1] فانْتُزِعَتْ روحُها، والصخرةُ على جسدٍ لا روحَ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾؛ بموسى، ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾؛ في الإيْمان. والفرقُ بين (آمَنْتُمْ لَهُ) وآمنتُم بهِ: أنَّ في (آمَنْتُمْ لَهُ) معنى الاتِّباع لَهُ، وآمنتم به إيْمانٌ بالخبر من اتباع له في ما دعَا اليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾؛ أي رئيسُكم ومعلِّمُكم، وإنَّما قال فرعونُ هذه المقالةَ قصداً منه إلى صَرْفِ الناس عن اتِّباع موسى؛ لأن السَّحرةَ لَم يتعلَّموا من موسى، وإنَّما كانوا يعلَمون السحرَ قبل قُدوم موسى وقبل ولادته، ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾؛ قد تقدَّم تفسيرُه، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾؛ أي على جُذوع النَّخلِ، أقيمَ حرفُ (في) مقام حرفِ (على)، فكان فرعونُ أوَّلَ من قطعَ اليد والرِّجل من خلافٍ وصَلَبَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي لتعلمنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقَى عذاباً، أنا أمْ ربُّ موسى وهارون.

---

(١) التحريم / ١١ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ؛ أي قـالتِ السحرةُ لفرعونَ: لن نَختَارَكَ على ما جاءَنا من الحقِّ والبراهين يعني اليدَ والعصا. وقال عكرمةُ: (هُوَ لَمَّا رَفَعُواْ رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ رَأوا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَرَأواْ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ ؛ أي لن نُؤْثِرَكَ على اللهِ الذي فطَرَنا؛ أي خَلَقَنَا، ويجوزُ أن يكون قولهُ (وَالَّذِي فَطَرَنَا) قسَماً، ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ ؛ أي إصْنَعْ ما أنتَ صانع، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي إنَّما تحكمُ علينا في الدُّنيا وهي منقضيةٌ لا محالةَ، وأما الآخرةُ فليسَ لك فيها حظٌّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ ؛ أي إشْـرَاكُنا في الجاهليَّة وَ يغفر لنا ﴿ وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّـاس: (كَانَ فِرْعَوْنُ يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى تَعَلُّمِ السِّحْرِ حَتَّى لاَ يَنْقَطِعَ عَنْهُمْ)(١). وَقِيْلَ: إنه أكْرَهَ هؤلاء السَّحرة على معارضةِ مُوسى.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي هـو خـيرٌ ثواباً إنْ أُطِيْـعَ، وأبقَى عقاباً إنْ عُصِي. ويقالُ: ما عنـدَ اللهِ مـن الكرامـةِ والثـواب أفضـلُ وأدوم مما تعطينا أنتَ من المال، وهذا جوابٌ عن قوله (وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنَا أشَدُّ عَذاباً وَأبْقَى) وها هنا انتهى قولُ السَّحرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا ﴾ أي مَن يَأْتِ إلى موضع الحساب عاصياً، ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا ﴾ ؛ فيستريحَ، ﴿ وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ حياةً تنفعهُ، قال ابنُ عبَّاس: (الْمُجْرِمُ الْكَافِرُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ أي قد عَمِلَ الطاعاتِ، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي الرفيعةُ في الجنَّة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٢٦٧).

ودرجاتُ الجنة بعضُها أعلى من بعض، والعُلَى جمعُ العُلْيَا، قال ﷺ: [إنَّ أهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ هُوَ أسْفَلُ مِنْهُمْ كَأضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ، وَإنَّ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمْ][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾؛ أي مَنْ تَطَهَّرَ من الذنوب بالطاعة بدلاً من تَدَنُّسِ النفوسِ بالمعصية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي ﴾؛ يعني أسْرِ بهم في أوَّل الليل من أرضِ مصرَ، يعني بني إسرائيلَ، ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا ﴾؛ أي يَابساً، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أيْبَسَ لهم ذلك الطريقَ حتى لَم يكن فيه ماءٌ ولا طين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾؛ أي إنكَ آمنٌ لا تخافُ أن يُدركَكَ فرعونُ، ولا تخشَ الغرقَ من البحرِ.

وقرأ حمزةُ (لاَ تَخَفْ) على النَّهي مجزوماً، (وَلاَ تَخْشَى) بالألفِ، كأنه استأنفَ، وتقديرُهُ: وأنتَ لا تخشى، كقولهِ: ﴿يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾؛ مَن قرأ (فَأتْبَعَهُمْ) بالتخفيف فمعناهُ: ألْحَقَ جُنُودَهُ بهم، والباءُ في (جُنُودِهِ) زائدةٌ، والمعنى: أمَرَهُم أن يتَّبعُوا موسى وقومَهُ، ومن قرأ (فَاتَّبَعَهُمْ) بالتشديدِ، فالمعنى اتَّبَعَهُمْ بنفسهِ ومعهُ الجنود. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ ﴾؛ أي عَلاَهُمْ وسَتَرَهُمْ من البحرِ ما علاهُم وهو الغرقُ.

وذلك أنَّهُ لَمَّا تَراءَى الجمعان، أمرَ اللهُ موسى أن يضربَ بعصاهُ البحرَ، فضربه فانفلقَ الماءُ في عِرضِ البحرِ حتى صارَ فيه اثنا عشرَ طريقاً، وبَقِيَ الماءُ قائماً بين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٧. والترمذي في الجامع: كتاب المناقب: باب مناقب أبي بكر: الحديث (٢٣٥٨). وابن ماجة في السنن: الحديث (٩٦).

(٢) آل عمران / ١١١ .

الطريقين كالجبلِ، فسَلَكَ موسى، وأخذ كلُّ سِبْطٍ من بـني إسرائيل طَريقاً مـن هـذه الطُّرُق.

فلما أشرفَ فرعونُ وقومُهُ على البحر فرأوهُ مُنْفَلِقاً فيه طُرُقٌ يابسةٌ، أوْهَمَ قومَهُ أنَّ البحرَ إنَّما انفلقَ من هَيْبَتِهِ! فدخلَ فرعونُ خَلْفَ بني إسرائيلَ، فصاحَتِ الملائكةُ في القومِ: أنِ الْحَقُوا الْمَلِكَ حتى إذا دَخَلَ آخرُهم، وهَمَّ أوَّلُهم بالخروجِ أن يخرجَ، أطبقَ اللهُ تعالى البحرَ عليهم فغَرِقُوا.

وقال وهبٌ: (استعارَ بنُو إسرائيلَ حُلِيّاً كثيراً من القِبْطِ، ثُم خرجَ بـهم موسى من أوَّل الليل، وكانوا سبعينَ ألفاً، فأُخْبِرَ فرعونُ بذلك فركِـبَ في ستمائة ألـفٍ مِن القِبْطِ يَقُصُّ أثرَ بنِي إسرائيل.

فلما رأى قومُ موسَى رَهَجَ الخيلِ - أي غُبَارَها - قـالوا: إنـا لَمُدَركـون، قـال موسى: كلاَّ، إنَّ معي ربي سيهدينِ، فلما قَرُبوا قالوا: يـا موسـى أيـنَ تَمضـي البحـرُ أمامَنا وفرعونُ خلفَنا؟!

فضربَ البحرَ بعصاهُ فانفلقَ وصار فيـه اثنـا عشـرَ طريقـاً يابسـةً، لكـلِّ سِـبْطٍ طريقٌ، وصارَ بين كلِّ طريقين كالطَّوْدِ العظيم من الماءِ، وكانوا يَمُرُّونَ في الطريــق ولا يرَى بعضُهم بعضاً، فاستوحَشُوا وخافوا، فجعلَ اللهُ الأطوادَ شـبَكاتٍ يـرَى بعضُـهم بعضاً، ويسمعُ بعضُهم كلامَ بعضٍ.

فلما أتى فرعونُ الساحلَ ورأى بني اسرائيل قد عَدَوا البحرَ، جاء جبريلُ علـى رَمَكَةٍ[1] طالبةٍ للذكَرِ، وكان فرعونُ على حصان، فأدخلَ الرَّمَكَةَ في الماء فلم يتمـالكِ حصانُ فرعون أن اقْتَحَمَ على إثْرِها، ودخلَ القِبْطُ عن آخرهـم، فلمـا وَلَجُـوا كلُّـهم أوحى اللهُ تعالى إلى البحرَ: أنْ أغْرِقْهُمْ عن آخرهِم، فعلاهم الماءُ فغَرِقُوا).

قال كعبٌ: (فَعَرَفَ السَّامِرِيُّ فَرَسَ جِبْرِيْلَ، فَحَمَلَ مِنْ أثَـرِهِ تُرَابـاً، وَألْقَـاهُ فِـي الْعِجْلِ حِيْنَ اتَّخَذُوهُ).

---

(١) الرَّمَكَةُ: بفتحتين، الأنثى من البراذين، وجمعها رِمَاكٌ و رَمَكَات، وأرْمَاك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ ؛ أي أضلَّهُم حين دعاهُم إلى عبادتهِ، (وَمَا هَدَى) أي وما أرْشَدَهم حين أوردَهم مواقعَ الْهَلَكَةِ، وهذا تكذيبٌ له في قولهِ ﴿وَمَا أهْدِيكُمْ إلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ ؛ يعني فرعونَ أغرقَهُ بمرأى منهم، ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ ؛ قرأ حمزةُ: (نَجَّيْتُكُمْ... وَوَعَدْتُكُمْ... وَرَزَقْتُكُمْ)[2] بغير ألف.

وذلك أنَّ اللهَ وَعَدَ موسى بعد ما أغرقَ فرعونَ ليأتِي جانبَ الطُّور الأيْمَنَ فيؤتيهِ التوراةَ فيها بيانُ ما يحتاج إليه. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠﴾ في التِّيْهِ، ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ؛ أي من حَلاَل ما رزقناكم من الْمَنِّ والسَّلْوَى، واشكروا إنعامِي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ ، أي لا تَبْطَرُوا فيما أنعمتُ عليكم فتتَظَالَمُوا، ولا تُجاوزُوا عن شُكري إلى معاصِيّ، ولا تجحدوا نِعمَتِي فتكونوا طاغِين، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ ، أي فتجبُ عليكم عقوبَتِي. قرأ الأعمشُ والكسائيُّ: (فَيَحُلُّ) أي فينْزِلُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾ ؛ أي فقد تَرَدَّ في النار. وَقِيْلَ: معناهُ: فقد هَلَكَ وسقط في النار. وقرأ الكسائيُّ: (وَمَنْ يَحْلُلْ)[3] بضمِّ اللام، قال الفرَّاءُ : (وَالْكَسْرُ أوْلَى مِنَ الضَّمِّ؛ لأنَّ الضَّمَّ مِنَ الْحُلُولِ وَهُوَ الْوُقُوعُ، وَيَحْلِلُ بالْكَسْرِ يَجِبُ، وَجَاءَ التَّفْسِيرُ بالْوُجُوب لاَ بالْوُقُوعِ)[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ أي لِمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ، وآمَنَ باللهِ وعَمِلَ صالحاً، ثُم استقامَ على معرفةِ اللهِ وأداءِ فرائضه واجتناب مَحَارِمِهِ حتى ماتَ على ذلكَ بتوفيقِ اللهِ.

---

(١) غافر / ٢٩ .

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: ج ٣ ص١٤٩.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي: ج ٣ ص١٥٠.

(٤) في معاني القرآن: ج ٢ ص١٨٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣)﴾؛ الآيَة، روي: أنَّ موسى لَمَّا ذهبَ مع السبعينَ الذين اختارَهم إلى الميقاتِ ليأخذ التوراة من ربهِ، تعجَّلَ إلى الميقاتِ قبل السَّبعين شَوْقاً إلى رَبهِ، وخَلَفَ أولئكَ السبعين وأمَرَهم أن يلحقوهُ ويتبعوه إلى الجبلِ وهو الطُّورُ والميقاتُ، فقال اللهُ تعالى لهُ: (وَمَا أعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) ﴿قَالَ﴾؛ أي موسى: يا رب، ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾؛ أي هُم أولاء يجيئون بعدي، ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤)﴾؛ أي لتزدادَ رضىً عنِّي، والرِّضَى من اللهِ إيجابُ الدرجةِ والكرامة لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥)﴾ أي ابتَلَينا قومَكَ الذين خلفتهُم مع هارون وكانوا ستمائة ألفٍ. وقال الزجَّاجُ: (مَعْنَى: فَتَنَّا قَوْمَكَ؛ أيْ ألْقَيْنَاهُمْ فِي فِتْنَةٍ وَمِحْنَةٍ)، وقال ابنُ الأنباريِّ: (صَيَّرْنَاهُمْ مَفْتُونِيْنَ أشْقِيَاءَ بعِبَادَةِ الْعِجْلِ، فَافْتَتَنُوا بالْعِجْلِ غَيْرَ اثْنَي عَشَرَ ألْفاً). قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ بَعْدِكَ) أي مِن بعد انطلاقِكَ إلى الجبلِ، قولهُ (وَأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) أي دَعَاهُمْ إلى عبادةِ العجل وحَمَلهم عليها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾؛ أي رَجَعَ من الميقاتِ إلى السبعين، إلى قومهِ. فلما سَمِعَ صوتَ الفتنةِ رجعَ (غَضْبَانَ أسِفاً) أي حَزيناً شديدَ الحزن جزعاً مع عصبة و ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾؛ أي ألَمْ يَعِدْكُمْ إنزالَ التوراةِ لتعملُوا بما فيها فتستحقُّوا الجنةَ والكرامة الدائمة، ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾؛ مدَّةَ مُفارقتي إياكم، ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ بأن يَنْزلَ بكم بعبادتكم العجلَ، ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦)﴾؛ ما وَعَدَ الْمَوْلَى منْ حُسنِ الخلافة بعدي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ﴾؛ أي الذين لَم يعبدوا العجلَ، ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾، ونحنُ نَملكُ من أمرنا شيئاً؛ أي لَم نُطقْ رَدَّ عَبَدَةِ العجلِ مِن ما ارتكبوهُ لكثرَتِهم وقِلَّتِنا؛ لأنَّهم اثنا عشر ألفاً، والذين عَبَدُوا العجلَ خمسمائة ألفٍ وثمانية وثمانون ألفاً؛ لأنَّهم كانوا جميعاً ستَّمائة ألف.

وأكثرَ القُرَّاءُ (بِمِلْكِنَا) بالكسر أي بأمرنا. ومَن قرأ بفتحِ الميم فهو المصدرُ، ومَن قرأ بضمِّ الميم فمعناه: بسُلطاننا وقُدرتنا؛ أي لَم نقدِرْ على ردِّهم[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ﴾ ؛ أي أثقالاً وحمالاً من حِلِيِّ آلِ فرعون، والوِزْرُ في اللغة: هو الْحِمْلُ الثقيلُ، وذلك أن موسَى كان أمرَهم أن يستعيرُوا مِن حِلِيِّهم حين أرادوا أن يَسْرُوا، هكذا روي عن ابنِ عباس. وَقِيْلَ: إنهم كانوا استعارُوها؛ ليتزيَّنُوا بها في عِيْدٍ كان لَهم، ثم يردُّوها عليهم عند الخروجِ، وكان ذلك ذنْباً منهم، فعلى ذلك يكونُ معناه: حُمِّلْنَا آثاماً مِن حِلِيِّ القوم[٢].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ ؛ أي فقَذفْنَا الحلِيَّ في النار ليُذابَ، ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ ما معهُ من الحليِّ كما ألقينا، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد وقَّتَ لِموسى ثلاثينَ ليلةً ثُم أتَمَّها بعشرٍ، فلما مضت الثلاثونَ قال السامريُّ: إنَّما أصابَكم هذا عقوبةً لكم بالحليِّ الذي معكم، فاجْمَعُوها حتى يجيءَ موسى فيقضي فيها، فجُمعت لهُ، فصنعَ منها العجلَ في ثلاثةِ أيَّام، ثُم قَذفَ فيه القبضةَ التي[٣] اتخذها من أثرِ فرسِ جبريلَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ ؛ أي أخرجَ لَهم من النار صورةَ عِجْلٍ صاغَها من الحليِّ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهُ خُوَارٌ) أي صَوْتٌ كصوتِ العجلِ.

واختلفوا في هذا الْخُوَارِ؛ قال مجاهدُ: (خُوَارُهُ حَفِيْفُ الرِّيْحِ إذا دَخَلَتْ جَوْفَهُ، وَذلِكَ أنَّهُ كَانَ جَعَلَ فِي جَوْفِ الْعِجْلِ خُرُوقاً إذا دَخَلَتْهَا الرِّيْحُ أوْهَمَ أنَّهُ يَخُورُ). قال الحسنُ وقتادة والسديُّ: (كَانَ السَّامِرِيُّ ألْقَى عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ أثرِ فَرَسِ جِبْرِيْلَ كَمَا قَالَ:

---

(١) ينظر: جامع البيان: ج ٩ ص٢٤٥.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٣٠١).
(٣) في المخطوط: (الذي).

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾(١)، فَانْقَلَبَ الْعِجْلُ حَيَوَاناً يَخُورُ) أي وكان معلوماً في ذلكَ الزمانِ أنَّ مَن أخذ من حافرِ دابة مَلَكٍ، فألقاها على شيءٍ صارَ ذلك الشيءُ حيواناً.

قالوا: وإنَّما عَرَفَ أن راكبَ تلك الدَّابة جبريلُ؛ لأنَّها كانت لا تضعُ حافِرَها على موضعٍ إلاّ اخْضَرَّ. ويروَى أن هارونَ مَرَّ بالسامريِّ وهو يصنعُ العجلَ، فقالَ لهُ: ما تصنعُ ؟ قال: أصنعُ ما ينفع ولا يضرُّ، ثُم قال لِهارون: ادعُ لِي، فقال: اللَّهُمَّ أعْطِهِ ما يسألُ كما يحبُّ، فسألَ اللهَ أن يجعلَ للعجلِ خُواراً، فكان الخُوارُ يخرج من ذلك الجسدِ الْمُجَسَّدِ كما يخورُ الثور، فأوهَمَهم السامريُّ أنه حَيٌّ فافتتنَ به قومٌ فعبدوه، ولو رجَعُوا إلى عُقولِهم لعرفوا أنه لا يصلحُ أن يكون إلَهاً؛ لأنه مصنوعٌ صنعةَ آدميٍّ مخلوقٍ من حُلِيٍّ مخلوقة(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ ؛ أي قال لهم السامريُّ ذلك ووافقَهُ قومٌ على ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾ ؛ أي فنسِيَ السامريُّ الإسلامَ؛ أي فتَركَهُ، وَقِيْلَ: معناه: قال السامريُّ لِمن وافقَهُ على كُفْرِهِ: إن موسَى أرادَ هذا العجلَ، فترك الطريق الذي كان يصلُ إليه؛ أي أن موسى تركَ إلَهَهُ هنا، وذهبَ يطلبهُ.

قولهُ تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ ؛ أفلا يرى السامريُّ وأصحابهُ (أنَّهُ) يعني العجلَ لا يَرُدُّ إليهم جواباً، ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ جرَّ منفعةٍ ولا دفعَ ضُرٍّ شيءٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ ؛ وذلكَ أن السامريَّ لَمَّا دعاهُم إلى عبادةِ العجل وقال لَهم: إنَّ هذا إلَهُنا وإلَهُ موسى، وأن موسَى مَعْنِيٌّ في طلبهِ، وهو ههنا.

---

(١) طه / ٩٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٣٠٧-١٨٣٠٨).

فقامَ هرونُ فيهم خطيباً، وقالَ: يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بعبادةِ العجلِ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ؛ لا العجلُ، ﴿ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ ؛ لِما أدعوكم اليه، ﴿ وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ لا أمرَ السامريِّ، فعَصَوْهُ؛ ﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ ﴾ ؛ أي لا نزالُ مقيمين على عبادته، ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ ومعنى قولهِ تعالى (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ) أي من قبلِ أن يأتي موسى.

فلما رجعَ موسى؛ ﴿ قَالَ ﴾ لِـهارون: ﴿ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ بعبادةِ العجل، ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ ؛ لا زائدةٌ؛ أي ما منعكَ من اتِّباعي واللحوقِ بي بمن أقامَ على إيْمانِهِ، ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ بإقامتِكَ بينهم وقد كفروا، ثُم أخذ موسى برأسِ هارون ولِحيَتِه غضباً منهُ عليه فـ ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ﴾ ؛ ولا بشعرِ راسي، ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ ؛ إن فارقتُهم واتبعتك بمن أقامَ على دِينك أن يتفرَّقُوا أحزاباً، وخشيتُ أن يَقْتُلَ بعضُهم بعضاً و ﴿ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ ﴾ ؛ أي ولَم تحفَظْ، ﴿ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ وصيَّتي، ولَم تنتظِر قُدومِي وأمري، فلذلك لَم أتَّبعْكَ بمن أقامَ منهم على دِينك.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ هَارُونُ أخَا مُوسَى لأَبيْهِ وَأمِّهِ، وَإنَّمَا قَالَ: يَا ابْنَ أمَّ ليرفقَهُ ويستعطفه عليه)، وفي قولهِ (يَا ابْنَ أمَّ) قِراءَتان، مَن قرأ بفتح الميم جعلهُ بمنْزلة اسمٍ واحد يصلُ الثاني بالأول، مثلُ خمسةَ عشر، ومَن قرأ بالكسرِ فعلى معنى الإضافة، ودلَّتْ كسرةُ الميم على الياءِ التي بعدها.

فإن قِيْلَ: كيف جازَ أن يأخذ موسى بلحيةِ هارون ورأسه مع أن ذلك يقتضِي الاستخفافَ به؟ قِيْلَ: لأن العادةَ في ذلك الوقتِ لَم تكن كهذهِ العادة، بل كان ذلكَ في زمانِهم يجري مجرَى القبضِ على يده، وَقِيْلَ: لأنه أجرَى هرون مُجرى نفسهِ؛ لأنه لَم يكن يتَّهم، كما لا يتهم على نفسهِ، فقد يأخذُ الإنسانُ بلحيةِ نفسهِ إذا غَضِبَ، ويقال: (إنَّ عُمَرَ عليه السلام كَانَ إذا غَضِبَ يَفْتِلُ شَارِبَهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أفَعَصَيْتَ أمْرِي) أي فتركتَ وصيَّتي، قَوْلُـهُ تَعَالَى: (وَلَـمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) يعني: ولَم تحفظْ وصيَّتي حين قلتُ لكَ أخلفني في قومي وأصلِح.

فلما اعتذرَ هارونُ بهذا العذر أقبلَ موسى على السامريِّ؛ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي ما شأنُكَ وما الذي دعاكَ إلى ما صنعتَ ؟ وَقِيْلَ: معناه: ما هذا الْخَطْبُ العظيم الذي دعاكَ إلى ما صنعتَ، والْخَطْبُ هو الجليلُ من الأمرِ.

قال قتادةُ: (كَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ عُظَمَاءِ بَنِي إسْرَائِيْلَ، مِنْ قَبيْلَةٍ يُقَالُ لَهَا سَامِرَةٌ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ مَا قَطَعَ الْبَحْرَ مَعَ بَنِي إسْرَائِيْلَ مَرَّ بجَمَاعَةٍ وَهُمْ يَعْكِفُونَ عَلَى أصْنَامٍ لَهُمْ وَمَعَهُ بَنُو إسْرَائِيْلَ، فَقَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، فَاغْتَنَمَهَا السَّامِرِيُّ فَاتَّخَذَ الْعِجْلَ)، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ السَّامِرِيُّ مُجيباً لِموسى: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ أي رأيتُ ما لَم يَرَوا، بَصُرْتُ به، وعرفتُ ما لَم يعرفوا وفطنتُ ما لَم يفطنوا، قال له موسى: وما الذي بَصُرْتَ به دون بني إسرائيل؟

قال: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ؛ من حافرِ فرسِ جبريل، وكان قد أُلقي في نفسِي أن أقبضها؛ وما أُلقيهِ على شيءٍ إلاّ صارَ له روحٌ ولَحم ودمٌ، فحين رأيتُ قومَكَ طلبوا منكَ أن تجعل لَهم إلَهاً حدَّثتني نفسي بذلكَ، ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أي فطرحتُها في العجلِ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي زَيَّنَتْ لِي نفسي من أخذِ القبضة وإبقائها في صورةِ العجلِ. وَقِيْلَ: معناهُ (وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) أي أطمَعَتني نفسي في أن العجلَ ينقلبُ حيواناً.

وقرأ الحسنُ: (فَقَبَصْتُ قَبْصَةً)[1] بالصاد فيهما، والفرقُ بينهما أن القبضَ بجميع الكفِّ، والقبصَ بأطرافِ الأصابع.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ ؛ أي قال موسَى: فاذهَبْ مِن بيننا، فإن لكَ ما دُمْتَ حيّاً أن تقولَ: (لاَ مِسَاسَ) أي لا أمَسُّ ولا أمَسُّ ولا أخالطُ، وأمرَ موسى أن لا يؤاكلوهُ ولا يخالطوه ولا يبايعوهُ، فحَرَّمَ عليهم مخالطةَ السامريِّ زَجْراً لفعلِهِ، وكان هو يقيمُ في البريَّة مع الوحوشِ والسِّباع.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٣٣٢).

ويقالُ: إنه ابْتُلِيَ بالوَسْوَاسِ، ويقال: إنَّ موسى هَمَّ بقتلِ السامريِّ فقال اللهُ: لا تقتُلْهُ فإنه سخيٌّ! فكان السامريُّ إذا لَقِيَ أحداً يقـولُ: لاَ مِسَـاسَ؛ أي لا تَقْرَبْنِـي ولا تَمسَّنِي، وذلك عقوبة لهُ ولولدهِ، عَاقَبَـهُ اللهُ بذلـك حتـى أن بقايَـاهم اليـومَ يقولـون كذلكَ. وذُكِرَ أنه إذا مَسَّ واحدٌ مِن نَسْلِهِ أحداً من غيرِهم حَـمَّ كلاهُمـا في الوقـت. قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ ؛ معناهُ: وإن لـكَ يـا سـامريُّ أجَـلاً يُكَافِؤُكَ اللهُ فيه على ما فعلتَ وهو يومُ القيامة.

قرأ الحسنُ وابن مسعود: (نُخْلِفَهُ)[١] وابن كثير وابـن عـامرٍ (تُخْلِفَـهُ) بكسـرِ اللام؛ أي لن يغيبَ عنه بل يوافقهُ، ولا مذهبَ لك عنـه، وقـرأ البـاقون بفتـحِ الـلام بمعنى لن يَخْلَفَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ﴾ ؛ أي وانظر إلى العجـلِ الـذي أقمـتَ على عبادتهِ، وزعمتَ أنه إلَـهُكَ ومعبـودُك، ﴿ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْـهِ عَاكِفًا ﴾ ؛ أي مُقيماً تعبدهُ، تقولُ العرب ظَلْتُ أفْعَلُ كذا بمعنى ظَلَلْتُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ قـال ابنُ عبَّاس: (حَرَّقَهُ بالنَّار، ثُمَّ ذرَّاهُ فِي الْيَمِّ) وهذه القراءةُ تدلُّ على أن ذلك العجـلَ صار حيواناً لَحماً ودماً لأن الذهبَ والفضَّة لا يُمكن إحراقُهما بالنار.

وذُكِرَ في بعضِ التفاسير: أن موسى أخذ العجلَ فذبَحَهُ فسالَ منه دمٌ، لأنَّه كان قد صارَ دماً ولحماً، ثُم أحرقه بالنار ثم ذرَّاهُ في البحرِ[٢].

وكان الحسنُ يقرأ (لَنُحْرِقَنَّهُ) بالتخفيف، ومعناه: لَنَذْبَحَنَّهُ ثـم لنحرقنـه بالنـار، لأنـه لا يجـوزُ إحـراقُ الحيـوانِ قبـل الذبـحِ كمـا روي في الخـبر: [لاَ تُعَذِّبُـوا أحَـداً

---

(١) سقطت من المخطوط: (وابن مسعود: نُخْلِفَـهُ). وفي الكشـاف: ج ٣ ص٨٣؛ قـال الزمخشـري: (وعن ابن مسعود: (نُخْلِفَهُ) بالنون، أي لـن يخلفـه الله). وفي اللبـاب في علـوم الكتـاب: ج ١٣ ص٣٧٥؛ قال ابن عـادل:(وابـن مسـعود والحسـن بضـم نـون العظمـة وكسـر الـلام). وقـال: (والمعنى: لن يُخْلِفَ اللهُ مَوْعِدَهُ الذي وعَدَكَ).

(٢) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص٨٢٦.

بعَذاب اللهِ][1].

وقرأ أبو جعفرٍ وأشهبُ العقيلي: (لَنَحْرُقَنَّهُ) بنصب النون وضمِّ الراء؛ أي لَنَبْرُدَنَّهُ بالْمِبْرَدِ، يقال: حرقتُ الشيءَ أحرِقهُ اذا بَرَدْتَهُ[2]، والْمِحْرَقُ هو الْمِبْرَدُ، وهذه القراءةُ تدلُّ على أن العجلَ كان ذهباً، ولكن كان له خُوار. قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً) أي لَنُذرِّيَهُ في البحرِ تذرية، يقالُ: نَسَفَ فلانٌ الطعامَ بالْمِنْسَفِ إذا ذرَّاهُ ليطيرَ عنه قشوره وترابه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ أي قال لهم موسى: (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) أي لا معبودَ للخلق سواهُ، فهو الذي يستحقُّ العبادةَ لا العجلَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي أحاطَ علمهُ بكلِّ شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمال العباد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ؛ أي كما قصَصْنا عليكَ يا مُحَمَّدُ خبرَ موسى وقومِهِ كذلك نقصُّ عليك مِن أخبار مَن قد مضَى وتقدَّمَ من أخبار الرُّسل وأممِهم، ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ أي وقد أكرمناكَ بالقُرْآنِ العظيم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن أعرضَ عن القُرْآنِ فلم يؤمِنْ به فإنه يَحْمِلُ يوم القيامة إثماً. والوزْرُ ها هنا: الْحِملُ الثقيلُ من الإثم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ ؛ أي مُقيمين في عقوبةِ ذلك الإثمِ وعذابهِ، ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي ساء وزرُهُمْ، يومئذ حملاً.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد والسير: الحديث (٣٠١٧). والترمذي في الجامع: كتاب الحدود: باب ما جاء في المرتد: الحديث (١٤٥٨).

(٢) في مختار الصحاح: (حرق) قال الرازي: (و(حَرَق) الشيء بالتخفيف، بَرَدَهُ وحكَّ بعضَهُ ببعض).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ؛ قرأ أبو عمرٍو بنون مفتوحةٍ، وقرأ الباقون بياءٍ مَضمومة غير تسمية الفاعل، والصُّورُ: قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه يومئذٍ؛ ليقومَ الناسُ من قبورهم مثلَ بُوقِ الرَّحيل وبوقِ النُّزول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ ، قِيلَ: معناهُ: قد ازْرَقَّتْ أعينُهم من شدَّة العطشِ؛ لأن العطشَ إذا اشتدَّ يغيِّرُ سوادَ العينِ إلى الزُّرقة. وَقِيْلَ: معناهُ: عُمْياً، ومعنى الزُّرقَةِ الْخُضْرَةُ في سَوادِ العين كعَيْنَي السِّنَّور، والمعنى في هذا: تشويهُ الْخَلْقِ سوادُ الوُجوهِ، وزُرْقَةُ العيون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ؛ أي يَتَشَاوَرُونَ فيما بينهم، يقولُ بعضُهم لبعضٍ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ ؛ أي ما لَبثْتُمْ من النَّفخة الأُولى إلى الثانيةِ إلاَّ عشرَ ليال، وذلك أنَّهم يُكفُّ عنهم العذابُ فيما بين النَّفختين وهو أربعونَ سنةً، فاستَقْصَرُوا مدَّةَ لُبْثِهِمْ لِهولِ ما عاينوا. وَقِيْلَ: معناهُ: يقولون ما لَبِثْتُمْ في الدُّنيا إلاَّ عشرَ ليالٍ، وذلك لشدَّة ما يَرَوْنَ من هَوْلِ يوم القيامة يَنْسُونَ ما لَبثوا في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ ؛ أي أعلَمُهم عندَهم، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ ؛ نَسُوا مقدارَ لُبْثِهِمْ لشدَّة وهمِهم، فقالوا هذا القولَ وهو كذبٌ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ ؛ أي يسألُكَ الكفارُ عن حال الجبال يومَ القيامة: أينَ تذهبُ مع عِظَمِهَا. وقال ابنُ عبَّاس: (سَأَلَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيْفٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ، كَيْفَ تَكُونُ الْجِبَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ ؛ أي يُصيِّرُها رَمْلاً تسيلُ سَيلاً، ثُم يرسلُ عليها الرياحَ فتفرِّقُها كتَذْرِيَةِ الطعامِ من القشُور والتراب، فيصيِّرُها كالْهَبَاءِ وكالصُّوف المنفوشِ.

---

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٢٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي أرْضاً ملساءَ مستويةً لا نَبَاتَ فيها، والصَّفْصَفُ: الأَمْلَسُ الذي لا نباتَ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (الْعِوَجُ: الأَوْدِيَةُ، وَالأَمْتُ: الرَّوَابي)[1]، وقال مجاهدُ: (انْخِفَاضاً وَارْتِفَاعاً)[2]، وقال قتادةُ: (لاَ تَرَى فِيْهَا صَدْعاً وَلاَ أكَمَةً)[3]، وقال الحسنُ: (الْعِوَجُ: مَا انْخَفَضَ مِنَ الأَرْضِ، وَالأَمْتُ: مَا يَسْتُرُ مِنَ الرَّوَابي)، ويقالُ: مَدَّ حَبْلَهُ حتى ما تركَ فيه أمتاً، وملأ سقاءه حتى ما ترك فيه أمتاً؛ أي انثناءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي يومئذٍ يتّبعون داعِيَ اللهِ الذي يدعوهم إلى موقفِ القيامة وهو اسرافيلُ لا عِوَجَ لدعائهِ، وَقِيْلَ: لا عِوَجَ لَهم عن دعائهِ؛ أي لا يزيغون عنه، بل يَتْبَعُونَهُ سَرَايا لا يُعدِلُون عن الطريقِ يَميناً ولا شِمالاً ولا يَملكون التأخُّرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ أي ذلَّتِ الأصواتُ لِهَيْبَةِ الرَّحمن، وَقِيْلَ: سَكَنَتِ الأصواتُ لهُ، فَوَصَفَ الأصواتَ بالخشوعِ، والمعنى لأهْلِها، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ أي إلاَّ صَوتاً خَفيّاً يعني صوتَ نقل الأقدامِ إلى الْمَحْشَرِ.

والْهَمْسُ: الصوتُ الخفيُّ كأخفافِ صوت الإبل في المشي. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَى الْهَمْسِ تَحْرِيْكُ الشِّفَاهِ بغَيْرِ مَنْطِقٍ) وهو قولُ مجاهد[4]، والكلامُ الخفيُّ، والمعنى على هذا التفسير: سَكَنَتِ الأصواتُ فلا يَجْهَرُ أحدٌ بكلامٍ إلاّ كالمشير مِن الإشارة بالشَّفَةِ، وتحريكِ الفمِ مِن غيرِ صوتٍ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٥٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٥٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٦٠)

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٣٦٧). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٠٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ؛ أي لا تنفعُ لأحدٍ من الناس إلاّ مَن أذِنَ اللهُ أن يُشْفَعَ له فذاك الذي تنفعهُ الشفاعة، وَقِيلَ: لا تنفعُ شفاعةُ أحدٍ إلاّ مَن أذِنَ له الرَّحمنُ في أن يَشْفَعَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا وهم المؤمنونَ، فإنَّ اللهَ لا يرضَى إلاّ قول المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ؛ هذا كنايةٌ راجعةٌ إلى الَّذين يتَّبعون الداعيَ؛ أي يعلمُ ما قدَّمُوا واخلَفُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ الكنايةُ تعودُ إلى ما في قولِهِ (مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) أي هو يعلمُ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ ؛ أي ذلَّتِ الوجوهُ وخضعت واستسلَمَت للحيِّ الذي لا يَموتُ، القائمُ الذي لا نِدَّ لهُ، والعَانِي في اللغة: هو الأسيرُ، ومنهُ قولُهم: أخذتَ الشيءَ عُنْوَةً؛ أي غَلَبَةً بذلِّ المأخوذ منه، قال الشاعرُ:

مَلِيكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ ... لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

وقال الحسنُ: (الْقَيُّومُ: الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ حَتَّى يَجْزِيَهَا). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي خابَ مِن ثوابِ اللهِ مَن حَمل شِرْكاً، ومعنى خابَ أي خَسِرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ ؛ في سيِّئاته، ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ بالنُّقصان من حسناتِه، والْهَضْمُ: النَّقْصُ؛ يقال: هَضَمَنِي فلانٌ حَقِّي؛ أي نَقَصَنِي، وهذا شيءٌ يَهْضِمُ الطعامَ أي ينقصُ نقله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ؛ أي وهكذا أنزلناهُ قُرْآناً على اللُّغة العربية، ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ ﴾ ؛ أي وكرَّرْنا فيه، ﴿ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ؛ وَقِيلَ: معنى (وَصَرَّفْنَا) أي بَيَّنَّا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ، يعني الوقائعَ في الأُممِ الْمُكَذِّبَةِ؛ لكي يتَّقُوا الشِّركَ بالاتِّعاظ بمن قبلَهم، ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ أي يُحْدِثُ لَهمُ الْقُرْآنُ اعتباراً فيذكروا به عقابَ اللهِ، وَقِيلَ: معناهُ: أوْ يُحْدِثُ لَهُمْ

ذِكْراً شَرفاً بإيْمانِهم، كما قالَ تَعالَى ﴿وَإنَّهُ لَذِكْـرٌ لَـكَ وَلِقَوْمِـكَ﴾[١] أي شَـرَفٌ لَـكَ ولقومك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي ارتفعت صفةُ الرَّحمن فـوقَ كلِّ شيءٍ سواهُ، لأنه أقدرُ من كلِّ قادر، وأعلمُ من كلِّ عالِم، وكلُّ قادر وعالِم سـواهُ مُحتَاجٌ إليه، وهو غنِيٌّ عنه، قولهُ (الْمَلِكُ الْحَقُّ) أي يَحِقُّ له الْمُلْكُ، وإن كان مَلِـكٌ سواهُ يَملكُ بعضَ الأشياء ويبيد مُلْكَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ ؛ قال الحسنُ: [كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا أنْزلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ عَجَّلَ بقِراءَتِهِ مَخافَةَ نِسْيَانِهِ، وكَـانَ يَقْرَأ مَعَ الْمَلَكِ مَخَافَةَ أنْ يَذْهَبَ عَنْهُ، فَنُهِيَ عَنْ ذلِكَ] فقَالَ (وَلاَ تَعْجَـلْ بـالْقُرْآنِ) أيْ بقِرَاءَتِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَفْرَغَ جِبْرِيْلُ مِـنْ تِلاَوَتِـهِ عَلَيْـكَ)[٢]. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ أي زِدْنِي حِفْظاً لا أنساهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي أمَرْنَـاهُ أن لا يـأكلَ مِن الشَّجرةِ مِن قَبْلِ هؤلاء الذين نَقَضُوا عهدي، وتركُـوا الإيْمـانَ بـي، وهـمُ الذيـن ذكَرَهم اللهُ في قولهِ (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، والمعنى أن هؤلاءِ الذيـنَ صَـرَّفَ لَـهم في القُـرْآن الوعيدَ إذ ضيَّعُوا عـهدي وخـالَفُوا أمـري، فـإنَّ أبـاهُم آدمُ عليه السلام عَـهِدْنَا إليـه أيضـاً، ﴿ فَنَسِىَ ﴾ ؛ وتركَ عهدِي وما أُمِرَ بهِ، ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي لَم نَجِدْ له حِفْظاً لِمَا أمَرْنَا به.

وقال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: وَلَمْ نَجِدْ لَهُ صَبْراً عَمَّـا نُـهِيَ عَنْـهُ، وَلَـمْ نَجِـدْ لَـهُ رَأياً مَعْزُوماً عَلَيْهِ)، حيثُ أطاعَ عَدُوَّهُ إبليسَ الذي حَسَدَهُ وأبى أن يسجُدَ لهُ. قال الحسنُ: (كَانَ عَقْلُ آدَمَ كَعَقْلِ جَمِيْعِ ذُرِّيَّتِهِ)، قال اللهُ (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً). وجـاءَ في الحديث: [لَوْ وُزِنَ حِلْمُ بَنِي آدَمَ مُـذْ كَـانَ آدَمُ إلَـى أنْ تَقُـومَ السَّـاعَةُ لَرَجَـحَ حِلْـمُ آدَمَ عَلَـى

---

(١) الزخرف / ٤٤ .

(٢) أخرجه ابـن أبي حـاتم في التفسـير: ج ٧ ص٢٤٣٧. وفي الـدر المنثـور: ج ٥ ص٦٠٢؛ قـال السيوطي: ((أخرجه الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه)).

حِلْمِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً)][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾؛ قد تقدَّم تفسيرهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾؛ أي لكَ ولامرأتِك، فلا تَميلاَ إليه، ولا تعيلاَ منه، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾؛ أي فيكونُ ذلك سببَ خروجكما، ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ إلى شَدائدِ الدنيا وجُوعِها وعطَشِها وفقْرِها وتعبِها في طلب المعاش، وهذا معنى قولهِ: ﴿فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾؛ أي تتعبُ بالأكلِ من كدِّ يدِكَ، وما تكسبهُ لنفسك، والمعنى: إنَّ عيشَكَ لا يكونُ إلاّ من كدِّ يمينك وعرقِ جبينك. قال سعيدُ بن جبير: (أهْبَطَ اللهُ إلَى آدَمَ ثَوْرَيْنِ، فَكَانَ يَحْرِثُ عَلَيْهِمَا، وَيَمْسَحُ الْعَرَقَ عَنْ جَبِيْنِهِ)[(٢)] فهو شقاوُهُ الذي قَالَ اللهُ تَعَالَى، وكان مِن حَقِّهِ أن يقولَ: فَيَشْقَيَا أو تَشْقَى أنتَ وزوجُكَ، لكن غَلَّبَ المذكَّرَ؛ لأن تَعَبَهُ أكثرُ، وقِيْلَ: لأجلِ رُؤُوسِ الآيِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾؛ أي إنَّكَ ما دُمْتَ مُقيماً في الجنَّة على طاعةِ اللهِ فلا تجوعُ فيه ولا تَعْرَى؛ أي لكثرة ثِمَارها وأثوابها ونعيمِها، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾؛ أي لا تعطشُ، ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾؛ أي ولا تَبْرُزُ إلى الشَّمسِ؛ لأنه ليس في الجنَّة شَمسٌ، إنَّما هو ظِلٌّ ممدودٌ. وقرئ: (وَإنَّكَ لاَ تَظْمَأُ) بكسرِ الهمزة عطفاً على (إنَّ لَكَ أنْ لاَ تَجُوعَ)، وقرئ بالنصب عطفاً على (أنْ لاَ تَجُوعَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾؛ أي وَسْوَسَ لهُ ليأكلَ من الشجرةِ فـ ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي على شجرةٍ مَن أكلَ منها خُلِّدَ ولَم يَمُتْ، ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾؛ وَ يبقى في ملك لا يبلى ولا يفنَى.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور موقوفاً على محمَّد بن كعب: ج ٥ ص٦٠٤؛ وقال: ((أخرجه ابن المنذر)). وذكره ابن عادل الحنبلي في اللباب في علوم الكتاب موقوفاً على أبي أمامة الباهلي: ج ١٣ ص٤٠٢.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٠٥؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ ؛ أي أكلَ آدمُ وحـوَّاءُ مـن الشـجرة علـى وجهِ الخطـأ في التـأويلِ لا تعمُّـداً في المعصيـةِ إذ الأنبيـاءُ عَلَيْـهِمُ السَّـلاَمُ لا يُقيمـون المعصيةَ، وهم أشدُّ خوفاً من الله أن يفعلُوا ذلـك. لأنَّ بعـض المفسِّـرين قـالَ: إن اللهَ تعالى أشارَ بالنَّهي إلى شجرةٍ بعينِها، فقال لهُ: لا تَأْكُلْ من هذه الشجرةِ، وأرادُوا جنسَ تلك الشجرة، فنسِيَ آدمُ الاستدلالَ بذلك على الجنسِ، فحمـلَ النـهيَ علـى العيـنِ. وهذا كما رُوي عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ أخَـذ الذهَـبَ بـإحْدَى يَدَيْـهِ، وَالْحَرِيْـرَ بـالأُخْرَى، وَقَالَ: [هَذانِ حَرَامَانِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لإِنَاثِهِمْ][1] وأرادَ به الجنسَ دون العينِ.

قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ ؛ أي ظـهرت لَـهما عوراتُـهما، وإنَّما جمع السَّوءَاتِ ولَم يثنِّهما؛ لأن كلَّ شيءٍ من شيءٍ فهو جمْـعٌ في موضـعِ التثنيـة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا ﴾ ؛ أي جعـلاَ يقطعـان عليـهما، ﴿ مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ ؛ ويجعلانه على سوءاتِهما.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ ؛ أي عصـاهُ بـأكلِ الشـجرةِ، ﴿ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ أي فَعَلَ ما لَم يكن لهُ فِعْلُهُ. وَقِيْلَ: ضَلَّ حـين طلـبَ الْخُلْـدَ بأكلِ ما نُهيَ عن أكلهِ. وَقِيْلَ: الغَيُّ الفسادُ؛ أي فَسَدَ عليه عيشهُ، وَقِيْلَ: (فَغَـوَى) أي أخطأ، وَقِيْلَ: خابَ في طلبه في أكلِ الشجرة.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ ؛ أي اجتبـاهُ للرِّسـالة، وَقِيْــلَ: قَرَّبَـهُ، ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ؛ إلى ذِكْرِهِ، وَقِيْلَ: اصطفاهُ فتـابَ عليـه وهـداهُ حين قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا﴾[2] الآيةَ.

---

(١) عن عمر بن الخطاب؛ أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٣٦٢٩). في مجمـع الزوائـد: ج ٥ ص١٤٣؛ قال الهيثمي: ((وفيه عمرو بن جرير وهــو مـتروك)). و عـن علـي بـن أبي طـالب؛ أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب الصـلاة: بـاب الرخصـة في الحريـر والذهـب للنسـاء: الحديث (٤٣٢٠).

(٢) الأعراف / ٢٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ ﴾ ؛ قد تقدم تفسيره، قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ؛ يعني آدمَ وذريَّته وإبليسَ وذريَّته، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ ؛ أرادَ به الكتابَ والرَّسولَ، ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ ؛ أي مَنِ اتَّبعَ الكتابَ والرسول، ﴿ فَلَا يَضِلُّ ﴾ في الدُّنيا، ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ في الآخرةِ. قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنه: (ضَمِنَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ أنْ لاَ يَضِلَّ وَلاَ يَشْقَى)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ ؛ أي عن مَوْعِظَتِي، وَقِيلَ: عن القُرْآنِ فلم يؤمِنْ به ولَم يَتَّبعْهُ، ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ، الضَّنْكُ: الضِّيقُ والشدةُ والصُّعوبَةُ. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي أنَّ عَيْشَهُ يَكُونُ مُنَغَّصاً عَلَيْهِ غَيْرَ مُوقِنٍ بالْخَلْفِ وَالْجَزَاءِ)، وقال عبدُالله بنُ مسعودٍ وأبو سعيدٍ الخدريُّ والسديُّ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (مَعِيْشَةً ضَنْكاً) عَذابُ الْقَبْرِ؛ يَضِيقُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أضْلاَعُهُ)(٢)، وقال الحسنُ: (هُوَ الضَّرِيعُ وَالزَّقُّومُ فِي النَّارِ)، قال عكرمةُ: (هُوَ أكْلُ الْحَرَامِ فِي الدُّنْيَا الَّذِي يُؤَدِّيْهِ إلَى النَّارِ).

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قَالَ: [أتَدْرُونَ مَا الْمَعِيْشَةُ الضَّنْكَةُ؟] قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: [عَذابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِه، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّهُ لَيُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّيْناً، لِكُلِّ تِنِّيْنٍ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ، يَنْهَشُونَهُ وَيَلْسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَ لَحْمَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ أنَّ تِنِّيْناً نَفَخَ فِي الأَرْضِ لَمْ تُنْبتْ شَيْئاً](٣). وقال ابنُ زيد: (الْمَعِيْشَةُ الضَّنْكَى: الزَّقُّومُ وَالْغِسْلِيْنُ وَالضَّرِيعُ)، وقال الضحَّاكُ: (الْكَسْبُ الْخَبيْثُ)، وَقِيْلَ: إذا كان العبدُ سَيِّءَ الظنِّ باللهِ ضاقَ عليه عيشهُ وَضَنِكَ. وقال ابنُ جبير: (معنى قوله: (فَإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً) أي سَلَبَهُ الْقَنَاعَةَ حَتَّى لاَ يَشْبَعَ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٠٨). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٧ ص٢٤٣٨.

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٠٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور ومسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في عذاب القبر عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً)).

(٣) رواه ابن حبان في الصحيح: الحديث(٣١٢٢). والآجري في الشريعة:ج٣ ص١٢٧٣: الحديث (٨٤٠)، وإسناده حسن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (عَمَى الْبَصَرِ)، وقال مجاهدُ: (أعْمَى عَنِ الْحُجَّةِ؛ أيْ لاَ حُجَّةَ لَهُ يَهْتَدِي إلَيْهَا)[1]، ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ بعَيْنَـيَّ، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ﴾ ؛ تكونُ كمَا ﴿ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾ ؛ أي فتَركْتَهَا وأعرضتَ عنها، ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ؛ أي تُتْرَكُ في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ ؛ أي كما جَزَيْنَا مَن أعرضَ عن القُرْآن، كذلك نَجْزِي مَن أسْرَفَ على نفسهِ بالمعاصي، ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ؛ أي أشدُّ مِن عذاب الدُّنيا وأدومُ، لأن عذابَ الدُّنيا ينقطعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ ؛ مَن قرأ بالياء فمعناهُ: ألَمْ نُبيِّنْ، يعني كفَّارَ مكَّةَ كَمْ اهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُون، والمعنى: ألَمْ نُبيِّنْ لَهم طُرُقَ الاعتبار بكثرة إهلاكِنا القرونَ قبلَهم بتكذيب الرسُل فيعتَبروا ويؤمنُوا. وكانت قريشُ تَتَّجِرُ إلى الشَّام فترَى مساكنَ قومِ لُوطٍ وثمود وعلاماتِ الإهلاك. ومَن قرأ بالنُّون فمعناهُ: ألَمْ نُبيِّنْ لأهلِ مكة بَيَاناً يهتدون به فيرتَدِعُوا عن المعاصي. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ أي لِذوي العقول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربكَ في تأخيرِ العذاب عن هؤلاءِ الكفَّار إلى يومِ القيامة، قولهُ (وَأجَلٌ مُسَمًّى) لكان العذابُ لاَزماً لَهم، واقعاً في الحال. وتقديرُ الآية: وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربكَ وأجَلٌ مُسمًّى لَكَانَ لاَزماً؛ أي لكانَ العذابُ لاَزماً لَهم في الدُّنيا، كما لَزِمَ القرونَ الماضية الكافرةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ أي فاصبر يا مُحَمَّدُ على ما يقولون من الشَّتم والتكذيب فسيعودُ عليهم وَبَالُ ذلكَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ ؛ أي صَلِّ صلاةَ الفجرِ، ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ ﴾ ؛ يعني صلاةَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٢٦).

العصرِ، ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ ؛ يعني المغربَ والعشاءَ، وآناءُ اللَّيلِ ساعاتهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ ؛ يعني صلاةَ الظهر، قال قتادةُ: (كَأنَّهُ ذهَبَ إلَى أنَّهُ آخِرُ النِّصْفِ الأَوَّلِ مِنَ النَّـهَار طَـرَفٌ، وَأوَّلُ النِّصْـفِ الثَّـانِي طَـرَفٌ). وقَـال الحسنُ: ((وَقَبْلَ غُرُوبهَا): الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، (وَأطْرَافَ النَّهَار): صَـلاَةُ التَّطَـوُّعِ). قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ ؛ قرأ الكسائيُّ وأبو بكـر بضَـمِّ التـاءِ؛ أي تُعْطَـى الرِّضَى بالدرجاتِ الرفيعة، يرضاكَ اللهُ ويسمى مَرْضِياً، وتصديقهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبهِ مَرْضِياً﴾[١] . وقرأ الباقونَ (تَرْضَى) بفتـحِ التـاءِ؛ أي لَعَلَّـكَ تَرْضَـى بـالثَّواب والشَّفَاعةِ، ودليلُ ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضَى﴾[٢]، والمعنى: أقِمْ هذه الصَّلَواتِ لكي تُعطى من الثواب ما ترضَى[٣] .

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ؛ أي لا تَنْظُرَنَّ بعينِ الرَّغبة إلَى مَا مَتَّعْنَا به رجـالاً منـهم زيْنَـةَ الحيـاةِ الدُّنيا، ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ ؛ أي لِنَخْتَبرَهُمْ في ما أعطيناهم من الزِّينة. وَقِيْـلَ: لنجعلَـهُ فتنةً لَهم وضَلالاً بأنْ أزيدَ لَهم في النعمةِ، فيزدادوا كُفراً وطغياناً.

قال أبو رافع: (بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى يَهُودِيٍّ، فَقَالَ: [قُلْ لَهُ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَنِي إلَيْكَ لِتُسْلِفَهُ كَذا وَكَذا مِنَ الدَّقِيْقِ، أوْ تَبيْعَهُ وَتَصْبرَ عَلَيْهِ إلَى هِلاَلِ رَجَبٍ] فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا أبيْعُهُ وَلاَ أسْلِفُهُ إلاَّ برَهْنٍ! فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: [وَاللهِ لَوْ بَاعَنِي أوْ أسْلَفَنِي لَقَضَيْتُهُ، وَإنِّي لأَمِيْنٌ فِي الأَرْضِ، إذهَبْ بدِرْعِي إلَيْهِ] ثُمَّ حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ذلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ كانه يعزِّيهِ عَنِ الدُّنْيَا)[٤] .

---

(١) مريم / ٥٥ .

(٢) الضحى / ٥ .

(٣) ينظر: جامع البيان: ج ٩ ص٢٩١.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٥٣-١٨٤٥٤). وابن أبي حاتم في التفسـير: النـص (١٣٥٨٧). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦١٢؛ قـال السـيوطي: ((أخرجـه ابـن أبـي شـيبة وابـن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابـن أبـي حـاتم وابـن مردويـه والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في المعرفة)).

وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى (أزْوَاجاً) أي أصْنَافاً من نِعَـمِ الدُّنيـا وزهرَتِـها. قولـهُ: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾؛ أي وَرِزْقُ رَبكَ الذي وعدكَ في الجنَّة خَيْرٌ وَأبْقَى مما رُزِقَ هو.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾؛ أي وَامُـرْ قَوْمَـكَ الذين على دِيْنِكَ، ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾؛ لِخَلْقِنا ولا لنفسكَ، لَم نَخْلُقْكَ لِحاجتنا إليكَ كحاجة السَّادَةِ إلى عبيدِهم، بل ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾؛ ونرزقُ جميعَ خَلْقِنَا. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾؛ أي وَالْعَاقِبَةُ الْمَحمودةُ لِمن يَتَّقِـي اللهَ ولا يعصيهِ، وتقديرهُ: والعاقبةُ لأهـلِ التقـوى. [وكَـانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا دَخَـلَ عَلَيْـهِ بَعْـضُ الضِّيْقِ فِي الرِّزْقِ أمَرَ أهْلَهُ بالصَّلاَةِ، ثُمَّ قَرَأ هَـذِهِ الآيَـةَ (وَأْمُـرْ أهْلَـكَ بـالصَّلاَةِ) إلى آخِرِهَا][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾؛ أي قَـالَ المشـركون مِن أهلِ مكَّةَ: هَلاَّ يأتينا مُحَمَّدٌ بآيَةٍ من ربه كما أتى بها الأنبياءُ، نحوُ الناقـةِ والعصـا، ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾؛ أي بيـانُ مـا في التَّـوراة والإنجيلِ من البشارَةِ بما وافقهُما من صِفَةِ النبيِّ ﷺ. وَقِيْلَ: معناهُ: أوَلَـمْ يأْتِـهم مـا في الصُّحُفِ الأُوْلَى من أنبياءِ الأُمَمِ الذين أهلكنَاهم لَمَّا سألُوا الآيـاتِ ثُـم كَفَـرُوا بـها، فماذا يُؤَمِّنُهُمْ أن يكون حالُهم في سؤالِهم الآيَةَ كَحَالِ أولئكَ. وهذا البيانُ إنَّمـا قُـصَّ عليهم في القُرْآنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ ﴾؛ أي لَوْ أنَّـا أهلكنـاهُم بعـذاب الاسْتِئْصَال مـن قَبْـلِ إرسال الرُّسل لقالوا: هَلاَّ أرْسَلْتَ إلينا رَسُولاً يُرْشِدُنا إلى دِينِكَ فنتَّبعَ دلائلَـكَ، ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ﴾؛ في الدُّنيا بالقتلِ ونُفْضَحَ في الآخـرةِ بـالعذاب. والمعنـى: ولـو أنَّـا أهلكنا كُفَّارَ مكَّة بعذابٍ مِن قَبْلِ بعث مُحَمَّدٍ ﷺ ونُزولِ القُرْآنِ لقـالوا يـومَ القيامـةِ:

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٨٩٠). والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٩٧٠٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٦٧؛ قال الهيثمي: ((ورجاله ثقات)).

ربَّنا هَلاَّ أرسلتَ إلينا رسُولاً يدعُونا إلى طاعتِكَ فنتَّبعَ آياتِكَ من قَبْلِ أن ينْزلَ العذابُ، ﴿ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ؛ فِي جهنَّمَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: كلٌّ منَّا ومنكم مُنْتَظِرٌ، فانتظروا نحن ننتظر بكم ما وعَدَنا اللهُ فيكم من النَّصرِ والفتحِ، وأنتم تنتظرون بنَا أن نموتَ فتستريحون منَّا، وذلك أنَّهم كانوا يقولون: نتربَّصُ بمُحَمَّدٍ ريبَ الْمَنُون. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ ؛ فَسَتَعْلَمُونَ بعدَ هذا إذا قامتِ القيامةُ مَن أصحابُ الدِّين المستقيمِ، ومَن اهتدى إلى الرُّشد والصلاحِ نحنُ أم أنتم!

وعن أُبَيِّ بنِ كعبٍ عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ طَهَ أُعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَالأَنْصَار](١).

آخر تفسير سورة (طه) والحمد لله رب العالمين

(١) ينظر: تفسير الكشاف: ج ٣ ص٩٧، والحديث موضوع.

سُــورَةُ الأَنْبِيَاءِ

عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ وَثَمَانُمِائَةٍ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَأَلْـفٌ وَمِائَـةٌ وَثَمانٍ وَعِشْرِيْنَ كَلِمَةً، وَمَائَةٌ وَاثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ ﴿اقْـتَرَبَ لِلنَّـاسِ حِسَـابُهُمْ﴾ حَاسَـبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيْراً، وَصَافَحَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ كُلُّ نَبِيٍّ ذُكِرَ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ][1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ ؛ أي اقتربَ لأهلِ مكّـة حسـابُهم، والمعنـى: اقتربَتِ القيامةُ، واقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ، والْحِسَابُ هنا: إظْهَارُ مَا لِلْعَبْـدِ وَمَـا عَلَيْـهِ لِيُجَازَى عَلَى ذلِكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾ ؛ أي في غفلةٍ عمَّا يفعـلُ الله بهم ذلكَ اليوم، مُعرضون عن التَّأهُّب له بالإيْمـانِ بمُحَمَّـدٍ ﷺ والقُـرْآنِ. وَقِيْـلَ: معناهُ: وهم في غَفْلَةٍ عن قُـرْب الحسـاب والمـوت، معرضـون عـن الفكـرةِ في ذلـك، والتَّأهُّب لهُ، وهذا مِن اللهِ تنبيهٌ وعِظَةٌ؛ لئَلاَّ يغفلُوا عن الآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم ﴾ ؛ أي ما يأتيهم من وَحْيٍ، ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ ؛ تَنْزِيْلُهُ، والإحْدَاثُ يعودُ إلى الانزال. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَستَمِعُونَ الْقُرْآنَ مُستَهْزِئِيْنَ).

---

(١) أخرجه الثعلبي بإسناد واهٍ في الكشف والبيان: ج ٦ ص٢٦٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ منصوبٌ بقولهِ (يَلْعَبُونَ)، ومعناهُ: غَافِلَةً قلوبُهم عما يرادُ بهم، معرضةً عن ذِكْرِ اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾؛ أي تَنَاجَوا فيما بينهم سِرّاً.

ثم بَيَّنَ مَنْ هم فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي الذين أشْرَكُوا باللهِ، و(الَّذِيْنَ) في موضعِ الرفع بدلٌ من الضمير في (أسَرُّوا) كما في قولهِ تعالى ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾[1]، ويجوزُ أن يكون (الَّذِيْنَ) خُفِضَ نعتاً للناسِ؛ أي اقتربَ للناسِ الذين هذا حالُهم.

ثُم بَيَّنَ النَّجْوَى الذي أسَرُّوهُ بقولِه: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؛ أطْلَعَ اللهُ النبيَّ ﷺ أنَّهم قالوا: هَلْ مُحَمَّدٌ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فإذن تتبعون بشر مثلكم، ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾؛ وأنتم تعلمونَ أنه سِحْرٌ. قال السديُّ: (قَالُوا مُتَابَعَةُ مُحَمَّدٍ مُتَابَعَةُ السِّحْرِ)، والمعنى: أتَقْبَلُوا السِّحرَ، وأنتم تعلمون أنهُ سِحْرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: ربي الذي أعبدهُ وأدعوا إلى عبادتهِ هو اللهُ الذي يعلمُ ما تُسِرُّهُ العبادُ من القولِ في السَّماء والأرضِ، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤)﴾؛ لذلك كلِّه، العَالِمُ بما يجري عليه، ومَن هذه صفتهُ، فهو الذي يَجِبُ أن يُعْبَدَ دون الأصنامِ. وقرأ أهلُ الكوفةِ: (قَالَ رَبي) على الخبر. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي السميعُ لأقوالِهم، العليمُ بأفعالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾؛ أي قالَ الكفارُ: إنَّ ما أتِيَ به مُحَمَّدٌ تَخاليْطُ رُؤْيَا رآها في الْمَنَامِ، و (بَلْ) ها هنا انتقالٌ إلى خبرٍ آخرَ عنهم.

---

(١) المائدة / ٧١ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (بَلِ افْتَرَاهُ) أي قالوا اخْتَلَقَهُ كَذِباً من تلقاءِ نفسه، ثُم قالوا: (بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) فجعلوا يَنْقُضُونَ أقوالَهم قولَ متحيِّرٍ لا يُمْكِنُهُ الجزمُ على أمرٍ واحد. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ﴾ ؛ بالآياتِ، نحوُ انقلاب البحر، وإحياءِ الموتى، والناقة والعصا.

فقال اللهُ تعالى مُجيباً لهم: ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ ؛ أي ما آمنَتْ قبلَ مشركي مكَّة (مِنْ قَرْيَةٍ) يعني أهلَها، والمعنى: ما آمَنَتْ من قريةٍ مُهْلَكَةٍ بالآياتِ الْمُرْسَلَةِ، فكيفَ يُؤْمِنُ هؤلاء؟ والمعنى: أنَّ مَجِيْءَ الآياتِ لو كان سَبَباً للإيْمانِ من غيرِ إرادة الله لكان سَبباً لإيْمان أولئكَ، فلما بَطَلَ ذلك بَطَلَ هذا .

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ يعني ما أرْسَلْنَا قَبْلَكَ من الرُّسُلِ إلاّ رجَالاً مثلك، وهذا جوابٌ لقولِهم (هَلْ هَذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)، فقال اللهُ تعالى: لَمْ أرْسِلْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ إلاّ رجَالاً من بَنِي آدمَ لا الملائكةَ، ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾ ؛ وأرادَ بأهلِ الذِّكر علماءَ أهلِ الكتاب؛ لأن اليهودَ النصارى لا ينكرونَ أن الرُّسُلَ كانوا بَشَراً، وإنْ أنكرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقِيلَ: أرادَ بالذِّكر القُرآنَ، والمعنى: فاسألوا المؤمنينَ مِن أهلِ القُرْآنِ إن كنتم يا أهلَ مكَّة لا تعلمون. قال عَلِيٌّ (كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ): لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ: (نَحْنُ أهْلُ الذِّكْرِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ ؛ أي وما جعلنا الأنبياءَ ذوي أجسادٍ لا يأكلون الطعامَ، ولا يشربونَ الشراب، ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ﴾ ؛ لا يَموتُونَ، وذلك أنَّهم قالوا: مَا لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ؟ فأُعْلِمُوا أن الرُّسُلَ جميعاً كانوا يأكلون الطعامَ، وأنَّهم يَموتون كسائرِ البشر، وإنَّما وحَّدَ الجسدَ؛ لأنه مصدرٌ كالخلقِ.

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٧٢).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾؛ أي ثُم أنْجزْنا وعدَ الأنبياءِ في إنْجائنا إيـاهم، وإهـلاكِ الكفار المكذِّبين بهم، وأرادَ بالمسرفين الكفارَ، لأن الْمُسْرِفَ في اللغة هو الذي يتجاوزُ حَدَّ الحقِّ بما تباعدَ عنه، فالكافرُ أحقُّ بهذه الصفةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَنْجَيْنَاهُمْ) أي مِن العذاب (وَمَنْ نَشَاءُ) يعني الذين صدَّقُوهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي لَقدْ انزلْنَا إلَيْكُمْ كِتَاباً يا معشرَ قُرَيْشٍ، كِتَاباً فيه شرَفُكُمْ وعِزُّكم أن يَمسكم به يعني القُرْآن، والذِّكْرُ هو الشَّرَفُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1] أي شَرَفٌ، يقال: فلانٌ مذكورٌ في العُلاَ؛ إذا كان رَفِيْعاً. وقال الحسنُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (ذِكْرُكُمْ) أيْ مَا تَحْتَاجُونَ إلَيْهِ مِنْ أمْرِ دِيْنِكُمْ)[2]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾، ما فَضَّلَكُمْ به على غيرِكم، أنْزَلْتُكُمْ حَرَمِي، وبعثتُ فيكم نَبياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كم أهلكنا مِن أهـلِ قريـةٍ كـانوا مُشـركين، والْقَصْـمُ: الْكَسْـرُ والـدَّقُّ، ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾؛ أي وأحْدَثْنَا مِن بعدِ إهلاكهم قوماً آخرين، فسَكَنُوا دِيَارهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي فلمَّـا أحسَّ أهلُ القرية الكافرةِ عذابَنا إذا هم منها يهربُون سِراعاً هَرَبَ الْمُنْهَزِمِ مِن عـدُوِّهِ. ومعنى قوله (أحَسُّوا) أي رَأوا، وَقِيْلَ: معناهُ: لَمَّـا ذاقُـوا. والإحْسَـاسُ: هُـوَ الإدْرَاكُ بحَاسَّةٍ مِنَ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾؛ أي قِيْلَ لَهم: لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إلَى مَا نُعِّمْتُمْ فيه وإلى منازلكم، تقولُ الملائكة ذلكَ استهزاءً بهم وتقريعاً على ما فُرِّطَ منهم بحيثُ يسمعون النداءَ.

---

(١) الزخرف / ٤٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٣٦٠٧). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٣١٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ يقال لَهم ذلكَ على طريقِ الْهُزْؤِ بهم وهو توبيخٌ في الحقيقةِ، والمعنى: لكي تُسألوا شيئاً من دُنياكم فأنتم أهل برٍّ ونعمةٍ، فـ ﴿ قَالُوا ﴾ عند ذلك: ﴿ يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ لأنفسِنا حيثُ كذبنَا الرُّسلَ، اعترفوا بالذنب حين رأوا العذابَ، فقالوا هذا على سبيلِ النَّدمِ، ولَم ينفعْهم حينئذٍ الندمُ. والوَيْلُ: الوقوعُ في الْهَلَكَةِ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي فما زالت تلكَ الكلمةُ وهو قولُهم: (يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) لَم يزالوا يردِّدُونَها إلى أن ماتُوا وخَمَدُوا فصاروا كالزَّرْعِ الحصيدِ، والحصيدُ: هو الزَّرْعُ الْمَحْصُودُ، والْمَخْمُودُ: وهو الْمَهْمُودُ كَخُمُودِ النَّار إذا أُطْفِيَتْ.

قِيْلَ: نزلت هذه الآيةُ في أهلِ خَضُور[1] وهي قريةٌ من اليَمَنِ كان أهلُها من العرب، بعثَ اللهُ إليهم نبيّاً يدعوهم إلى اللهِ فكَذبوهُ وقتلوهُ، فسَلَّطَ اللهُ بُخْتَنَصَّرَ حتى قَتَلَهُمْ وسبَاهُم ونكَّلَ بهم، فلما أثْخَنَ فيهم القتلَ ندِمُوا وهربوا وانْهزمُوا، فقالت لَهم الملائكةُ على طريقِ الاستهزاء: لا تركُضُوا وارجِعُوا إلى مساكنكم وأموالكم، فَاتَّبَعَهُمْ بُخْتَنصَّرَ وأخذتْهُمُ السيوفُ، ونادَى مُنَادٍ من السَّماء: يا ثاراتِ الأنبياءِ، فلمَّا رأوا ذلك أقَرُّوا بالذنوب حيث لَم ينفعهم، فقالوا: يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيْداً بالسُّيوف، كما يُحْصَدُ الزرعُ، خَامِدِينَ أي مَيِّتِيْنَ.

قَوْلُهُ تعالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي ما خلقنَاهُما عَبَثاً ولا بَاطِلاً بل خلقنَاهُما لأمرٍ؛ أي لأُجَازي أوليائي، وأُعذِّبَ أعدائي. وَقِيْلَ: معناهُ: خلقناهما دلالةً على قُدرتِنا ووحدانيَّتنا؛ ليعتَبرُوا بخلقِهما ويتفكَّروا فيهما، فيعلمونَ أن العبادةَ لا تكونُ إلاَّ لخالِقِهما .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ ؛ قال قتادةُ: (اللَّهْوُ بلُغَةِ الْيَمَنِ الْمَرْأَةُ)[2]، وقال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ النِّسَاءَ)، وَقِيْلَ: جاء طاووس

---

(١) وتروى: خاضوراء بالألف المدودة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٩٥). وابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٣٦١٩).

وعطاء ومجاهدُ إلى الحسنِ فسألوهُ عن هذه الآية، فقالَ: (اللَّهْوُ الْمَـرْأةُ)[١]. وفي روايـة الكلبيِّ: (اللَّهْوُ الْوَلَدُ)[٢]. وَقِيْلَ: معناهُ: لو أردنا أن نَتَّخِذ شَريكاً أو ولَداً أو امـرأةً لَـم يكن لنتَّخذها مما نسبتُمونا[٣] إليه من الذي لا يسـمع ولا يعقـلُ ولا مِـن هـذه النسـاء والولدان، بل كما نَتَّخِذُهُ من جنسٍ أشرفَ من هـذا الجنسِ كما قَـالَ تَعَـالَى في آيـةٍ أخرى ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أنْ يَتَّخِذ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[٤]. وَقِيْلَ: معناهُ: لـو أردنا أن نتخذ ولداً نَلْهُو بـه لاتَّخذنـاهُ عندَنـا لا عندكـم؛ لأن ولـدَ الرجـل وزوجتـهُ يكونان عندَهُ وبحضرتهِ.

نزلت هذه الآيةُ في الَّذين قالوا اتَّخَذ اللهُ ولداً، ولو كان ذلـكَ جـائزاً في صِفَـةِ الله تعالى لَم يتخذ بحيثُ لَم يظهر لكم، ويسترهُ حتى لا تطَّلعوا عليه، تَعَـالَى اللهُ عَمَّـا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبيْراً. قَوْلُـهُ تَعَـالَى:﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي كُنَّـا مِمَّن يفعلُ ذلك، ولسنا مِمن يفعلهُ، وَقِيْلَ:(إنْ) هنا بمعنى (مَا) أي مَا كُنَّا فَاعِلِيْنَ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾؛ أرادَ بـالحقِّ القُـرْآنَ، وبالباطلِ الكُفْرَ، وَقِيْلَ: معناهُ: دَعْ ذاكَ الذي قالوا فإنه كذبٌ وباطل، بل نَقْذِفُ بالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ من كذبـهم، (فَيَدْمَغُـهُ) أي فيُهلِكُـهُ ويذهبـهُ،﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾؛ أي زائلٌ ذاهب، والمعنى: إنَّا نُبطِلُ كذِبَهم مما تبيَّن من الحقِّ حتى يضمحـلَّ ويذهـبَ، ثـم أوعدَهم على قولِهم فقال:﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي لكم العـذابُ مما تصفونَ اللهَ تعالى به من الصَّاحبة والولدِ.

ثُم بيَّـن أن جميـعَ الخلـق عبيـدهُ، فقـالَ:﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾؛ عَبيداً وملكـاً،﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾؛ يعـني الملائكـةَ،﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾؛ قال الزجَّاج: (إنَّ الَّذِيْنَ ذكَرْتُموهُـمْ بأنَّهُـمْ أوْلاَدُ اللهِ هُمْ عِبَادُهُ وَلاَ يَأْنفُونَ عَنْ عِبَادَتِـهِ، وَلاَ يَتَعظَّمُونَ عَنْهَا)،﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي ينقطِعون عـن العبـادة مـن الإعيَاءِ والتَّعب، مِن قولِهم: بَعِيْرٌ حَسِيْرٌ اذا أعْيَا وقام.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٤٩٣)

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٣٦١٥) عن عكرمة.

(٣) في المخطوط: رسم مبهم غير واضح، واخترنا أقرب حرف له فأثبتناه. (٤) الزمر / ٤ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ؛ أي يصلُّون للهِ تعالى الليلَ والنهار، ﴿ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي لا يَضْعُفُونَ عن عبادتهِ ولا يَمَلُّونَ. وَقِيْلَ: معناهُ: يُنَزِّهُونَ اللهَ، وإنَّما يقولون سُبْحَانَ اللهِ لا يَمَلُّونَ. قال الزجَّاج: (مَجْرَى التَّسْبيحِ مِنْهُمْ كَمَجْرَى النَّفَسِ مِنَّا، كَمَا لاَ يَشْغَلُنَا عَنِ النَّفَسِ شَيْءٌ فَكَذلِكَ تَسْبيْحُهُمْ دَائِمٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي أعَبَدَ أهلُ مكة أصناماً يُحيُونَ الموتَى؟! وفيه تقريعٌ لَهم بأنَّهم كاذبون أنَّها آلهةٌ، لأن الإلهَ يُحيي الموتى، وهي لا تُحيي، فكيفَ يستحقُّ العبادةَ؟ قِيْلَ: معنَى الآيةِ: لِمَ تَتَّخِذُون آلهةً مِن الأرضِ، وأصنامُهم كانت من الأرضِ؛ من أيِّ شيء كانت، من خشبٍ أو حجارةٍ أو فضَّة أو ذهب، هم يُنْشِرُونَ، أيُحْيُونَ الْمَوْتَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ ؛ لَخَرِبَتا وهَلَكَ مَن فيهما، وعيَّن صفةَ الآلِهَةِ؛ أي لوكان فيهما آلِهةٌ غيرُ اللهِ؛ أي لو كانَ في السَّماءِ والأرضِ آلِهةٌ غيرُ الله لَمَا قامتِ السَّمواتُ والأرض؛ لأنه لو أرادَ أحدُهما اتِّخاذ جسمٍ في مكان، وأرادَ آخرُ اتِّخاذ جسمٍ آخر في ذلكَ المكانِ لَمْ يَخْلُ: إما أن يُوجَدَ مرادُهُما أو لا يوجدُ مرادُهما، أو يوجدُ مرادُ أحدِهما دونَ الآخرِ.

فالأولُ باطلٌ؛ لأن في ذلك وجودُ جِسمَين في مكانٍ واحد. والثاني باطلٌ؛ لأنَّ في ذلك كونُهما عاجِزَين، والعاجزُ لا يستحقُّ الأُلوهيَّة، وإن وُجِدَ مرادُ أحدِهما دونَ الآخرِ، فالذي لا يوجدُ مرادهُ يكون عاجِزاً لا يصلحُ أن يكون إلَهاً.

والمعنى: لَوْ كانَ فيهما آلِهةٌ غيرُ الله كما يزعمُ المشركون، هذا قولُ جميعِ النحويِّين؛ قالوا: (إلاّ) ليسَ ها هنا باستثناءٍ، ولكنهُ مع ما بعده صفةٌ للآلِهة في معنى (غيْرَ)[1]. قال الزجَّاج[2]: (فَلِذلِكَ ارْتَفَعَ مَا بَعْدَهَا عَلَى لَفْظِ الَّذِي قَبْلَهَا[3]، قَالَ

---

(١) والمعنى: أنه قد يقع الوصف بـ (إلاّ) كما وقع الاستثناء بـ (غير)، والأصل في (إلاّ) الاستثناء، وفي (غير) الصفة. ثم قد يحمل أحدهما على الآخر، فيوصف بـ (إلاّ) ويستثنى بـ (غير).

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٣ ص٣١٥.

(٣) قال الزمخشري: (واعلم أن (إلاّ) و (غير) يتقارضان) يعني أن كل واحد منهما يستعير من الآخر حكماً هو اختص به؛ وذلك أن (غير) اسم تعمل فيه العوامل، فيجوز أن يقام مقام= الموصوف. =ينظر: شرح المفصل لابن الحاجب:ج١ ص٣٦٩-٣٧٠.

الشاعرُ:

وَكُـــلُّ أخٍ مُفارِقُـــهُ أخُـــوهُ[١] لَعَمْـــرُو أبيـــكَ إلاَّ الْفَرْقَـــدَانِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ ؛ أي تَنْزيهاً عمَّا يقولون عليه من الولدِ والشَّريكِ، ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ؛ أي لا يُسألُ عن أفعالِـهِ وقضائه في خلقِه من إعزاز وإذلال، وهداية وإضلال، وإسـعاد وإشـقاء؛ لأنـه الـربُّ مالكُ الخلق. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) ﴾ ؛ أي يقالُ لَهم يومَ القيامـةِ: لِمَ فعلتُمْ كذا؟ لأنَّهم عبيدٌ يجبُ عليهمُ امتثالُ أمرِ مَوْلاَهُمْ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس فَوْقَهُ أحدٌ يقول لهُ لشيءٍ فَعَلَهُ لِمَ فَعَلْتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً ﴾ ؛ هذا إنكارٌ عليـهم وتوبيـخٌ، ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ ﴾ ؛ أي حُجَّتَكُمْ بأن رَسُولاً من رُسُلِ الله انْبأ أمَّتَـهُ بـأن لَـهم إلَهاً غيرَ الله.

قولهُ تعالى: ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾ ؛ معنـاهُ: هـذا الْقُـرْآنُ فيـه ذكرُ مَن معي لِمَا يلزمُهم من الحلالِ والحرام والخطأ والصَّواب. وَقِيْلَ: خَبَرُ مَن معـي على دِينِي بما لَهم من الثواب والعقاب، وذِكْرُ مَنْ قَبْلِـي مِـن الأُمـم مَـن نَجَـا منـهم بالإيْمَانِ، وأهْلِكَ بالشِّركِ. وَقِيْلَ: معناهُ: هذا الْقُرْآنُ الذي هو ذِكْرُ مَن معي، والتـوراةُ والإنجيل هُما ذِكْرُ مَن قبلي، هل في جميعِ ذلك غيرُ توحيدِ الله تعالى؟

والمعنى: هذا الْقُرْآنُ وهذه الكُتُبُ التي أنزلت مِن قبلي، فانظرُوا هـل في واحـدٍ منهم أن اللهَ أمر باتخاذ آلهة سواه[٢]؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) ﴾ ؛ عن النظرِ في دلائلِ الله مقصِّرين على جهلِهم وتقليدهم.

=ينظر: شرح المفصل لابن الحاجب:ج١ ص٣٦٩-٣٧٠.

(١) البيت لعمرو بن معدكرب، وقد تقدم. وفي المخطوط ذكر الصدر منه فقـط، والشـاهد يقتضـي ذكر البيت كاملاً. والمعنى: الفرقدان: نجمان قريبان من القطب لا يفترقـان، يقـول: كـلُّ أخويـن غير الفرقدين لا بد أن يفترقا بسفرٍ أو موت.

(٢) في المخطوط: (هل في واحدٍ منهم أمرُ أنَّ اللهَ يتَّخذُ إلهَ سواهُ) وهي عبارة مربكة، ويبـدو أن فيـه تحريف من الناسخ، واخترنا عبارة القرطبي فهي أقرب لأسلوب المصنف رَحِمَهُ اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي ما أرْسَلْنَا مِن قبلك يا مُحَمَّدُ من رسولٍ إلاّ يُوحَى إليه أن يقولَ لقومهِ أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَاعْبُدُوهُ أي وحِّدُوهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ ﴾ ؛ أراد به قولَهم إنَّ المسيح ابنُ اللهِ، والملائكةَ بناتُ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ معناهُ: بل هم عبيدٌ أكرمَهم اللهُ بالطاعة واصطفاهُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾ ؛ لا يخرجُون بقولِهم عن حدِّ ما أمرَهم، ﴿ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ قَوْلُهُ: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما قدَّموا وما أخَّرُوا من أعمالِهم، ويقالُ: (مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ) من الدُّنيا (وَمَا خَلْفَهُمْ) من الآخرةِ، ويقال: يعلمُ ما عمِلُوا وما هم عامِلُون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ ؛ أي لا يشفعونَ إلاّ لِمن رَضِيَ اللهُ عنهُ وارتضى عملَهُ، قال ابنُ عبَّاس: (لِمَنْ قَالَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ)[1]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ أي وهم مِن خشيتِهم منه، فأضافَ المصدرَ إلى المفعول. قَوْلُهُ تَعَالَى: (مُشْفِقُونَ) أي خائِفُونَ، لا يأمَنُون مكرَهُ، وفي هذا بيانُ أنّ مَن هذه صفتهُ لا يكون إلَهاً مع اللهِ ولا ولداً لهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ ﴾ أي مَن يقُلْ مِن الملائكة إنِّي إلهٌ من دون اللهِ فذلك يَجزيهِ جهنَّمَ، قال المفسرون: يعني إبليسَ لأنه أمَرَ بطاعة نفسه، ودعا إلى نفسهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ أي كما جزَيْنَاهُ جهنمَ، نَجزي الظالمين الْمُشركين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس وعطاءُ والضحَّاك: (يَعْنِي كَانَتَا شَيْئاً وَاحِداً مُلْتَزِقَتَيْنِ، فَفَصَلَ اللهُ بَيْنَهُمَا بالْهَوَاءِ)[2]، قال كعبُ: (خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَعْضَهَا عَلَى

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٢٥). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٤٩.
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٣٢-١٨٥٣٣).

بَعْضٍ، ثُمَّ خَلَقَ رِيْحاً وَسْطَهُما، فَفَتَحْمهَا بِهَا).

وقال مجاهدُ: (كَانَتِ السَّمَوَاتُ طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا، فَجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَكَانَتِ الأَرْضُونُ مُرْتَفِعَةً طَبَقَةً وَاحِدَةً فَفَتَقَهَا اللهُ تَعَالَى، فَجَعَلَهَا سَبْعَ أَرْضِيْنَ)، وقال عكرمةُ: (كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقاً لاَ تُمْطِرُ، وَالأَرْضُ رَتْقاً لاَ تُنْبتُ، فَفَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَالأَرْضَ بِالنَّبَاتِ)[١].

وأصلُ الرَّتْقِ السَّدُّ، ومنهُ قيلَ للمرأةِ التي فرجُها ملتحمٌ: رَتْقَاءَ[٢]. وأصلُ الفَتْقِ الفتحُ، وذلك أنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا مُستويَتين لا فَتْقَ فيهما لِخروج الزَّرْعِ ونزولِ الغيث، ففُتِقَتِ السماءُ بالمطر، والأرضُ بالنباتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ؛ أي أحيينا بالمطرِ والنبات كلَّ ما على الأرضِ من حيوان، يعني أنه سببُ كلِّ شيء. وقال بعضُهم: يعني أنَّ كل شيءٍ حيٍّ فهو مخلوقٌ من الماءِ لقوله تعالى ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾[٣].

قال أبو العالية: (يَعْنِي النُّطْفَةَ)[٤]، فعلى هذا لا يتعلقُ هذا بما قَبْلَهُ، وهو احتجاجٌ على المشركينَ بقُدرةِ الله تعالَى، ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ أي أفلا يصدِّقُون بالإلهِ الذي فعَلَ ذلك؛ ليعلموا أنهُ الإلهُ دونَ غيرهِ. وإنَّما قال (رَتْقاً) ولَم يقل رَتْقَيْنِ؛ لأن الرَّتْقَ مصدرٌ. المعنى: كانتا ذوَي رَتْقٍ فجعلناهما ذوَائي فَتْقٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ ؛ أي جعلنا فيها جِبالاً أوْتَاداً فهي راسيةٌ كي لا تَميد بهم الأرضُ، والْمَيْدُ: الاضطرابُ بالذهاب في الجهات، قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الأَرْضَ بُسِطَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، فَكَانَتْ تَمِيْدُ بِأَهْلِهَا كَمَا تَمِيْدُ السَّفِيْنَةُ، فَأَرْسَاهَا اللهُ بِالْجِبَالِ الثِّقَالِ).

---

(١) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٢٦.

(٢) الرَّتْقُ: ضدُّ الفتق، قال ابن عرفة: (أيْ كَانَتَا مُصْمَتَتَيْنِ لاَ فُرْجَةَ بَيْنَهُمَا). نقله الهروي في كتاب الغريبين: ج ٣ ص٧١٢.

(٣) النور / ٤٥ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٤٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي جعلنا في الأرضِ طُرُقاً واسعةً ليهتدوا إلى مواطنِهم، والفَجُّ: الطريقُ الواسع بين الجبلَين. قَوْلُهُ تَعَالَى: (سُبُلاً) تفسيرُ الفِجَاجِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾؛ أي مَحفوظاً من السُّقوط، وَقِيْلَ: مَحفُوظاً من الشياطين بالنُّجوم، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ يعني المشركينَ يُعرِضُونَ عن آياتِها، يعني شَمسها وقمرَها ونجومها، لا يتفكَّرون فيها فيعلمون أن خالقَها لا شريكَ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾؛ أي خلقَهما بعد رَفْعِ السَّماء عن وجهِ الأرض و سخَّرَ ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ ﴾؛ من الشَّمس والقمر في مواضِعها التي رُكِّبَتْ فيها، ﴿ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ أي يَجْرُونَ بسرعةٍ كالسَّابحِ في الماء، وقد قال في مواضعِ آخر ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾[٢] يعني النُّجومَ، قال الضحَّاكُ: (الْفَلَكُ هُوَ الْمَجْرَى الَّذِي يَجْرِي فِيْهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)، ويقالُ: هو موجٌ كغرف يَجريان فيهِ. قال القتيبيُّ: (الْفَلَكُ الْقُطْبُ الَّذِي تَدُورُ بِهِ النُّجُومُ، وَهُوَ كَوْكَبٌ خَفِيٌّ بقُرْبِ الْفَرْقَدَيْنِ، وَبَنَاتُ نَعْشٍ عَلَيْهِ تَدُورُ السَّمَاءُ). وقال الحسنُ: (هُوَ الطَّاحُونَةُ كَهَيْأَةِ فَلْكَةِ الْمِغْزَلِ)[٣]، فالفَلَكُ في كلامِ العرب: هو كلُّ شيءٍ دَائِرٍ، وجمعهُ أفْلاكٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾؛ رويَ أنَّ هذا نزَلَ جواباً لقول الكفَّار: ننتظرُ بمُحَمَّدٍ ريبَ المنون فنستريحُ منه، والمعنى: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ البقاءَ الدائم؛ يعني أن سَبيْلَهُ سبيلَ من مضى مِن بني آدم في الموت، ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ يعني مشركي مكةَ لَمَّا قالوا: نتربصُ بمُحَمَّدٍ ريبَ المنون، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾، فقيلَ لَهم: إنْ ماتَ فأنتم أيضاً تَموتون؛ لأن كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ.

---

(١) الحجر / ١٧ . (٢) النازعات / ٣ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٥٦).

قالت عائشةُ: (استَأْذنَ أبو بَكْرٍ ﷺ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ مَاتَ وَأُسْجِيَ عَلَيْهِ الثَّوْبُ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَوَضَعَ فَمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى صُدْغَيْهِ وَقَالَ: وَا نَبِيَّاهُ؛ وَا خَلِيْلاَهُ؛ وَا صَفِيَّاهُ، صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ، كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ ؛ أي نَبْلُوكُمْ بالشدَّة والرَّخاء؛ والمرضِ والعافيةِ؛ والفقر والغنى، كلاهُما ابتلاءٌ من الله، وتشديدٍ في التَّعبُّدِ؛ ليظهرَ شكرُهم فيما يُحبُّون، وصبرُهم فيما يكرهون ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ للجزاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ ؛ روي أنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّ بأبي سُفْيَانَ وَأبي جَهْلٍ، فَقَالَ أبو جَهْلٍ لأبي سُفْيَان: هَذا نَبيُّ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، كَالْمُسْتَهْزِئ، فنزلت هذه الآيَةُ، ومعناها: وَإذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاَّ هُزُواً، يستهزؤن بك[٢].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ ؛ أي يقولُ بعضُهم لبعضٍ: أهذا الذي يُعيبُ آلِهتكم ويلومُكم على عبادتِها، تقولُ العربُ: فلانٌ يذكُرُ الناسَ؛ أي يغتابُهم ويعيبُهم، وفلانٌ يذكرُ اللهَ؛ أي يصفهُ بالعَظَمَةِ ويُثني عليهِ، فيحذفون من الذِّكر ما يُعقَلُ معناهُ، فيكون معنى قوله: (يَذْكُرُ آلِهتَكُمْ) أي يذكرُ آلِهتكم بسوءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي يَجحدون الألوهيَّة ممن هو منعمٌ عليهم، الْمُحيي الْمُميْتُ، وهذا في نِهاية جهلهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ؛ أي خَلَقَ اللهُ الإنسانَ من عَجَلٍ مشتَهياً للعجلةِ فيها هواهُ، ولذلك تستعجلُ أهلُ مكة الوعدَ والوعيدَ، يقالُ: فلانٌ خُلِقَ مِن كذا؛ أي أكثرَ ذلك الشيءَ كما يقال: خُلق فلانٌ من اللعب واللَّهو، والإنسانُ اسم جنسٍ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٣٦٥٥٠).

وقال عكرمةُ: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيْهِ الرُّوحَ وَصَارَ فِي رَأْسِهِ، أَرَادَ أَنْ يَنْهَضَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ رِجْلَيْهِ فَسَقَطَ، فَقِيْلَ: خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ). وقال السديُّ: (لَمَّا دَخَلَ الرُّوحُ عَيْنَي آدَمَ نَظَرَ إلَى ثِمَار الْجَنَّةِ، فَلَمَّا دَخَلَ الرُّوحُ فِي جَوْفِهِ اشْتَهَى الطَّعَامَ، فَوَثَبَ قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ الرُّوحُ رِجْلَيْهِ عَجَلاً إلَى ثِمَار الْجَنَّةِ فَلَمْ يَقْدِرْ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ)(١). وإذا كان خَلْقُ آدمَ من عجلٍ وُجِدَ ذلك في أولادهِ، وأورثَ أولاده العجلةَ حتى استعجلوا في كلِّ شيءٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ ؛ يعني القتلَ ببدر، ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ إنه نازلٌ بكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي يقولُ المشركونَ متى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنَا، يريدون وعدَهم يومَ القيامة إن كنتَ مِن الصادقين في هذا الوعدِ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي لو يعلمون ذلكَ ما استعجلوهُ ولا قالوا متى هذا الوعدُ. وَقِيْلَ: معناهُ: لو عَلِمُوا ذلكَ لعلموا صِدْقَ مُحَمَّدٍ ﷺ فيما توَعَّدهم به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ ؛ معناهُ: بل تأتيهم الساعةُ فُجْأةً وهم غافلون، ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ ؛ أي تُحَيِّرُهُمْ، يقال: بَهَتَهُ؛ إذا واجَهَهُ بشيءٍ فَحَيَّرَهُ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ يُمهلون التوبةَ، أو عُذراً، أو صلاحَ عملٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ أي ولقد استهزأتِ الأُمَمُ من قبلك برُسُلهم، كما استهزأ بِكَ قومُكَ، ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ بهم؛ أي فَحَلَّ بهم وبَالَ استهزائِهم، وكان ما أرادوهُ بالداعي عائداً عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بأَهْلِهِ﴾(٢)، وَقِيْلَ في الفَرق بين الْهَزْؤ وبين السُّخرية: أن في السُّخرية طلبَ الذِّلَّةِ؛ لأن التسخيرَ هو التذليلُ، وأما الْهَزْؤُ فهو استصغارُ القَدْر بضربٍ من القول.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٦٤). (١) فاطر / ٤٣ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ ؛ أي قُل مَن يحفَظُكم من بَأسِ الرَّحمن، وعوارضِ الآفات في الليلِ والنهار وعقوبات الدُّنيا والآخرة، ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ لا يلتفتون إلى شيءٍ من الْحُجَجِ والمواعِظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ ؛ مِن عذابنا، ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ معناه: أنَّ آلِهتَهم لا يقدرون على الدفعِ عن أنفسهم في دَرْءِ ما يَنْزِلُ بهم من كَسْرٍ أو فساد، فكان ينصرُهم ويَمنعُ عنهم ما يَنْزِلُ بهم، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ يعني الكفار. قال الكلبيُّ: (مَعْنَاهُ: وَلاَ هُمْ مُجَارُونَ مِنْ عَذابنَا) أي لا يُجيرهم منَّا أحدٌ، لأن الْمُجِيْرَ صاحبُ الْجَار، يقال: صَحِبَكَ اللهُ؛ أي حَفِظَكَ اللهُ وأجارَكَ. وقال قتادةُ: (مَعْنَاهُ: وَلاَ هُمْ يُصْحَبُونَ مِنَ اللهِ بخَيْرٍ)[(١)] يقالُ أصْحَبْتُ الرجلَ إذا أعطيتهُ أماناً يأمنُ به.

وقولهُ: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة متَّعهم اللهُ بما أنعمَ عليهم، ﴿ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ ؛ فاغترُّوا بذلكَ، والمعنى ما حَملهُم على الإعراضِ إلاّ الاغترارُ بطول الإمهال.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ؛ معناهُ: أفلا يُشاهدون أنَّا نفتحُ الأرضَ مِن جوانبها، وننقصُ من الشِّركِ بإهلاك أهلِها، فيزدادُ هو كلَّ يوم تَمكُّناً، وتزدادون ضَعْفاً ونقصاً؟ والمعنى: ألَم يَرَ المشركون الذين يُحاربون النبيَّ ﷺ ويقاتلونهُ أنا ننقصُهم، ونأخذ ما حولَهم من قُراهم وأرضهم؟ أفلا يَرَون أنَّهم هم المنقوصُون والمغلوبون؟

ومعنى قولهِ تعالى: ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي هم الغالبون للنبيِّ ﷺ، بل هو الغالبُ لَهم. وعن ابنِ عبَّاس في معنى نقصِها من أطرافها: (أيْ بذهَاب فُقَهَائِهَا وَخِيَار أهْلِهَا، فَكَيْفَ يَأمَنُ الرُّذالُ ؟).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٧١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّما أخوِّفُكم من عذاب الله بالقُرْآن الذي يُوحَى إلَيَّ لا مِن قِبَلِ نفسي، وذلك أنَّ اللهَ أَمَرَهُ بإنذارهم، كقولهِ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ هذا تَمْثِيْلٌ للكفار بالصُّمِّ الذين لا يسمعونَ النِّداءَ، والمعنى أنَّهم مُعانِدون، فإذا أسْمَعْتُهُمْ لَم يعملُوا بما سمعوهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذا مَا يُنذرُونَ) أي اذا ما يَخافُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي لو أصابَهم أدنى عذابٍ لأيقنُوا بالهلاكِ، وقال ابنُ كَيسان: (مَعْنَاهُ: وَلَئِنْ مَسَّهُمْ قَلِيْلٌ مِنْ عَذاب اللهِ)، وقال ابنُ جُريجٍ: (نصِيْبٌ مِنْ عَذاب اللهِ)، والمعنى: ولئن مسَّهُم طَرَفٌ من العذاب لأيقنوا بالهلاك، ودَعَوا على أنفُسِهم بالويلِ مع الإقرار أنَّهم ظلَمُوا أنفُسَهم بالشِّركِ، وتكذيب النبيِّ ﷺ. وَالنَّفْحَةُ: هي الدفعةُ اليسيرة الواقعةُ مِن الشيء دون مُعْظَمِهِ، يقالُ: نَفَحَهُ نَفْحَةً بالسَّيْفِ؛ أي ضَرَبَهُ ضربةً خفيفةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي نضعُ الموازينَ ذواتِ القسط لأهلِ يوم القيامة. قال الحسنُ: (هِيَ مِيْزَانٌ لَهُ كِفَّتَانِ وَلِسَانٌ، لاَ يُوزَنُ فِيْهَا غَيْرُ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، يُجَاءُ بِالْحَسَنَاتِ فِي أحْسَنِ صُورَةٍ، وَبالسَّيِّئَاتِ فِي أقْبَحِ صُورَةٍ، فَلاَ يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِ أحَدٍ، وَلاَ يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِ أحَدٍ). وقال مجاهدُ:(هَذا مَثَلٌ، وَإنَّمَا أرَادَ بالْمِيْزَانِ الْعَدْلَ)[٢].

ويروى: أنَّ داودَ عليه السلام سألَ ربَّهُ أن يُريَهُ الميزانَ، فلما رآهُ غَشِيَ عليهِ ثُم أفاقَ، فقال: إلَهي مَن الذي يقدرُ أنْ يَملأَ كفَّته حسناتٍ؟ فقالَ: يا داودُ إنِّي إذا رضيتُ عن عبدي ملأتُهما بتمرةٍ[٣]. ويقالُ: إنَّما يُوزنُ خاتِمَةَ العملِ، فمَن كان خاتِمةُ عملهِ خيراً، جُوزيَ بخيرٍ، ومَن كان شراً جُوزيَ بشَرٍّ.

---

(١) الأنعام / ٥١ . (٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٨١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٣٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ ؛ وإن كان العملُ الذي عَمِلَهُ وزنَ حبَّة من خَرْدَلٍ أتَيْنَا بها للجزاءِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وإنْ كان الظلامةُ مثقالَ حبَّة من خردلٍ أحضرناها للمجازاة حتى لا يبقى لأحدٍ عند أحدٍ ظلامةٌ.

قرأ أهلُ المدينةِ (مِثْقَالُ) بالرفع على (إنْ كَانَ) بمعنى وَقَعَ لا خبرَ لَها، وقرأ العامةُ بالنصب على معنى وإن كانَ ذلك الشيءُ، ومثلُهُ في لقمان[1]. قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ أي مُحْفِظِيْنَ، وَقِيْلَ: حافِظِين؛ لأن مَن حَسَبَ شيئاً عَلِمَهُ وحَفِظَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ ؛ أي التوراةَ يُفرِّقُ بها بين الحقِّ والباطلِ؛ والحلال والحرام، ﴿ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ مِن صِفَةِ التوراة مثل قولِهِ تعالى: ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾[2]، والمعنى: أنَّهم استضاؤُا بها حتى اهتَدَوا في دِينِهم، وقولُهُ تعالى: (وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ) أي موعِظَةً للمتقين الكبائرَ والفواحشَ. وعن ابن عبَّاس: أنهُ كان يقرأ (ضِيَاءً) بحذف الواو، وكان يقولُ: (آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ ؛ في الدُّنيا غائبين[4] عن الآخرةِ، ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ أي خائفون من أن تلحَقَهم الساعةُ، مما يَجري فيها من الْمُحَاسَبَةِ قبلَ إصلاح أعمالِهم.

---

(١) في سورة لقمان / ١٦، قال تعالى: ﴿ إنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أوْ فِي السَّمَوَاتِ أوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا الله إنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

(٢) المائدة / ٤٤ .

(٣) أخرجه بن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٦٥). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٣٤؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم)).

(٤) (أي غائبين؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربّاً قادراً، يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم) قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٢٩٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ ؛ أي هذا القُرآنُ الذي أنزلناهُ عليكَ يا مُحَمَّدُ، ذِكْرٌ يَتَبَرَّكُ به قارئهُ فيجزيه الأجرَ العظيم، ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة، وهذا توبيخٌ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي مِن قبل بُلوغِهِ، وَقِيْلَ: معناهُ: مِن قَبْلِ مُوسَى وهارون، والمعنى: آتيناهُ هُداهُ وهو صغير حين كان في السِّرْب حتى عرفَ الحقَّ من الباطل، ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي آتيناهُ رُشْدَهُ، ﴿ إِذْ ﴾ ، حين، ﴿ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ ، في الوقت الذي خرجَ من السرب فرآهم يعكفونَ على الأصنام: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي التصاويرُ التي لأجلِها مقيمون عليها، ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ بيَّنُوا بهذا الجواب أنه لا حُجَّةَ لَهم في عبادةِ الأصنام إلاَّ تقليدَهم لآبائهم، فأجابَهم إبراهيم، ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ ﴾ ؛ في عبادةِ الأصنام، ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ عن الحقِّ ظاهرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ قالوا له أجادٌّ أنتَ فيما تقولُ ؟ مُحِقٌّ أم لاعبٌ مازحٌ ؟ وذلك لأنَّهم كانوا يستبعدون إنكارَ عبادتِها، ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ ؛ أي بَلْ إلَهُكم مَالِكُ السَّمواتِ والأرض الذي خَلَقَهُنَّ ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ ؛ ما قلتُ لكم؛ ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ ؛ أي لأُبْطِلَنَّها ولأُكَسِّرَنَّها ولأَمْكُرَنَّ بها وقتَ مغيبكم عنها، وذلك لأنَّهم كانوا يعزمونَ على الذهاب إلى عِيدهم، فقال لَهم عند ذلك هذا القولَ. والكَيْدُ في اللغة: هو الإضْرَارُ بالشَّيء، قال مجاهدُ وقتادة: (إنَّمَا قَالَ إبْرَاهِيمُ هَذا الْقَوْلَ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِرّاً، وَلَمْ يَسْمَعْ ذلِكَ إلاَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ الَّذِي أفْشَاهُ سِرَّهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ)[1] .

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٩٢-١٨٥٩٣).

قال الشعبي: (كان لَهم في كلِّ سنةٍ مَجْمَعٌ وَعِيْدٌ، وكانوا إذا رجعوا من عِيدهم دخلوا على الأصنامِ فسجَدُوا لَها، فلما كان ذلك العيدُ قال أبو إبراهيمَ لهُ: يا إبراهيمُ لو خرجتَ معنا إلى عيدنا لأَعْجَبَكَ دِيْنُنا! فخرجَ إبراهيمُ معهم، فلما كان في بعضِ الطريق ألقَى نفسَهُ، وقال: إنِّي سَقِيْمٌ؛ أي اشتَكِي رجْلِي، فربَطُوا رجلَهُ وهو صريع، فلما مضَوا نادى في آخرهم: وَتَاللهِ لأَكِيْدَنَّ أصْنَامَكُمْ، ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾.

ثُم رجعَ إبراهيمُ إلى بيتِ أصنامهم، فوجدَ معهم صَنَماً كَبيراً إلى جنبه أصنامٌ أصغرُ منه، وإذا هم قد جَمعوا طعاماً فوضعوهُ بين يَدَي الأصنامِ وقالوا: إذا كان وقتُ رجوعِنا رجعنا وقد باركَتِ الآلِهةُ لنا في طعامِنا فأكلنا، فلما نظرَ إبراهيمُ إليهم وإلى ما بين أيدِيهم من الطعام، قال لَهم على طريقِ الاستهزاء بهم: ألاَ تَأْكُلُونَ ؟ فلما لَم يُجيبوهُ، قال لَهم: مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بالْيَمِيْنِ، وجعل يكسِرُهم بفأسٍ في يده حتى لَم يبقَ إلاَّ الصنمُ العظيم، فعلَّقَ الفأسَ في عُنُقِهِ ثُم خرجَ). فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ؛ فإنه لَم يكسرْهُ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إلاَّ كَبيراً لَهُمْ) فيه إضمارٌ؛ أي لَمَّا ولَّوا مدبرينَ جعلَهُم جُذاذاً. قرأ الكسائيُّ بكسرِ الجيم أي كَسْراً وقطعاً، جمع جَذِيْذٍ وهو الهشيمُ مثل خَفِيْفٍ وخِفَافٍ وكريْم وكِرَام، وقرأ الباقون بضمِّ الجيم؛ أي جعلهم حُطَاماً ورُفَاتاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ كَبيراً لَهُمْ) فإنه لَم يكسره، ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ فيحتجُّ عليهم إبراهيم ويُبرهِنَ لهم[2] على أن أصنامَهم لِمَ لَمْ تقدِرْ على دفع الكسرِ عن أنفسِها ؟ فلِمَ يعبدُوها ؟ وكيف يكونُ إلَهاً مَن لا يقدرُ على دفعِ ما نَزَلَ به؟. وَقِيْلَ: معناهُ: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؛ أي إلى دِين إبراهيم، وإلى ما يدعوهم إليه بوجوب الْحُجَّةِ عليهم في عبادةِ ما لا يدفعُ الضُّرَّ عن نفسه، وينتهوا عن جهلهم وعِظَمِ خطاياهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٥٩٧).

(٢) في المخطوط: (يدهنهم) وهو غير مناسب. وأثبتنا ما رأيناه مناسباً، والله أعلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾ ؛[١] فلمَّا رجعُوا مِن عيدهم ورأوا أصنامَهم مكسَّرةً، قالُوا: مَنْ فعَلَ هَذا بآلِهَتِنا ؟ ﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ أي فعَلَ ما لَم يكن لهُ أن يفعلَ، فقال الذي سَمع إبراهيمَ: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ وذلك أن بعضَهم كانوا قد سَمعوهُ يذكرُ أصنامَهم بالعيب ويقولُ: إنَّها ليست بآلِهة.

فقالوا: ينبغي أن يكون ذلك الفتَى هو الذي كسَرَها، ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ ﴾ ؛ بذلك الفتَى، ﴿ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ﴾ ؛ أي مَرْأى مِنَ، ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ لكي يشهدَ الذين عرفوهُ أنه يعيبُ الأصنامَ. وَقِيْلَ: إنه لَمَّا بلغَ النمرودَ وأشرافَ قومه ما فُعِلَ بأصنامِهم وما قالوهُ، في إبراهيمَ أنه هو الذي فعلَ ذلك، قال النمرودُ ومن معه: فَأْتُوا بهِ عَلَى أعْيُنِ النَّاس، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أنه هو الذي فعَلَ ذلك بهم، وكَرِهُوا أن يأخذوهُ بغيرِ بيِّنَةٍ. وَقِيْلَ: معناه: لعلَّهم يشهدون ما يُصنَعُ به من العقوبةِ؛ أي يحضرون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي فلمَّا أتوا به قالوا: أنتَ فعلتَ هذا الكسرَ بآلِـهتنا، ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ؛ الذي الفأسُ في عُنُقِهِ، ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ حتى يُخبرُوكم، وأراد بهذا تقريرهم بأنَّهم ظالِمون في عبادتِهم ما لا يدفعُ عن نفسه؛ لأن جماعتَهم كانوا يعلمون أن الصنمَ لا يعقلُ ولا ينطق، فأرادَ إبراهيمُ بذلك تَبْكِيْتَ القومِ وتوبيخَهم على عبادةِ مَن لا يعقلُ ولا يفعل، ولذلك قال: فاسألوهم إنْ كانوا يقدرون على النُّطقِ.

قوله تعالى: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ؛ أي فرجَعُوا إلى أنفسهم بالْمَلامَةِ، ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ في سؤاله؛ لأنَّها لو كانت آلِهةً لَم يَصِلْ إلى كسرها أحدٌ؛ ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ ؛ أي أدركتْهُم حيرةٌ فنكَّسُوا لأجلِها رؤوسَهُم، وأقرُّوا بما هو حُجَّةٌ عليهم، فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ ، يا إبراهيم، ﴿ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ فكسَرْتُهم لذلك.

---

(١) في المخطوط: (يا إبراهيم) ويبدو أنه تحريف.

وَقِيْلَ: معنى الآيةِ: تذكَّروا بقلوبهم، ورجَعُوا إلى عقولِهم، فقالوا: ما نراهُ إلاّ كما قالَ إنَّكُمْ أنْتُمُ الظَّالِمُونَ بعبادتِكم آلِهَةً لا تنطقُ ولا تبطشُ، ثُم أدركَتْهم الشقاوةُ، فعادوا إلى قولِهم الأوَّل وضلالِهم القديم، وهو قوله (ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤوسِهِمْ) أي رُدُّوا إلى الكفر بعد أن أقرُّوا على أنفسِهم بالظُّلم، فقالوا لإبراهيم: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ فلذلِكَ كسرتَهم.

فلما اتَّجهت الْحُجَّةُ عليهم بإقرارهم، وبَّخَهُمْ إبراهيمُ و﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ ؛ ولا يرزقكم ﴿ وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ إذا لم تعبدوهُ، ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ﴾ ؛ أي تَبّاً لكم، ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أنَّ هذه الأصنامَ لا تستحقُّ العبادةَ، إذ هي أحجارٌ لا حركةَ لَها ولا بيانَ، أفليس لكم ذهنُ الإنسانيَّةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ ؛ أي لَمَّا ألزمَتْهُم الحجةُ، وعجزوا عن الجواب غَضِبُوا فقالوا: حرِّقوهُ وَانْصُرُوا آلِـهَتَكُمْ بتحريقهِ؛ لأنه يعيبُها ويطعنُ فيها، فإذا حرقتموهُ كان ذلك نصراً منكم إياها. وَقِيْلَ: معناهُ: وانتقموا لآلِهتِكم وعظِّموها، ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ في هذا شيئاً.

فاشتَغَلوا بجمعِ الحطب حتى كان الشيخُ الكبير يأتِي بالحطب تقرُّباً إلى آلِهتهم، وحتى أن المريضَ كان يُوصِي بكذا وكذا من مالهِ فيشتري به حَطَباً فيُلقَى في النار، وحتى أن المرأةَ لتغزلُ فتشتري به حطباً، وتلقيه في النار. قال ابنُ عمر: (إنَّ الَّذِي أشَارَ عَلَيْهِمْ بتَحْرِيْقِ إبْرَاهِيْمَ رَجُلٌ يُسمَّى (هِيْزَنَ) فَخَسَفَ اللهُ بهِ الأَرْضَ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيْهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)(١).

فلما أجمعَ النمرودُ وقومه على إحراق إبراهيمَ حبسوهُ في بيتٍ وبَنَوا بيتاً كالحظيرةِ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾(٢) ثُم جمعوا له أصلابَ الحطب مِن أنواع الخشب، حتى أن المرأةَ كانت إذا مرَّت تقول:

---

(١) القول لشعيب الجبئي كما في جامع البيان: النص (١٨٦١٦).
(٢) الصافات / ٩٧ .

إذا عافانِي اللهُ لأجمعنَّ حطباً لإبراهيمَ، وكانت المرأةُ تنذرُ في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبنَّ في نار إبراهيم التي يحرقُ فيها احتساباً لدينها[١].

قال ابنُ اسحق: (كانوا يجمعون الحطبَ شهراً، فلما أجمعوا الحطبَ شعَلُوا في كلِّ ناحية ناراً، فاشتعلت النارُ واشتدَّت حتى أن الطائرَ كان إذا مرَّ بها احترقَ من شدَّة وَهَجِهَا، ثُم عمَدُوا إلىإبراهيمَ وقيَّدوهُ، ثُم اتخذوا مَنْجَنِيْقاً ووضعوهُ فيه مقيَّداً مغلولاً.

فصاحَتِ السمواتُ والأرض والملائكة صيحةً واحدة: يا ربَّنا إن إبراهيمَ ليس في أرضِكَ أحدٌ يعبدُكَ غيرهُ، أيُحرَقُ؟! فأذنْ لنا في نُصرتهِ، فقال اللهُ: إن استعاذ بشيءٍ منكم أو دعاهُ فلينصره، فقد أذنتُ له في ذلك، وإن لَم يدعُ أحداً غيري فأنا أعلمُ به، فأنا وَلِيُّهُ، فَخلُّوا بيني وبينَهُ.

فلما أرادوا إلقاءَهُ في النار، أتاهُ خازنُ الماء فقال لهُ: إن أذنتَ أخمدتُ النارَ، فإن خزائنَ المياه والأمطار بيدي، وأتاهُ خازن الرِّياحِ وقال: إن شئتَ طيَّرتُ النارَ في الهواء، فقال إبراهيمُ: لا حاجةَ لِي إليكم، ثُم رفعَ رأسَهُ إلى السَّماء وقال: اللَّهُمَّ أنتَ الواحدُ في السماء، وأنا الواحدُ في الأرضِ، ليس في الأرضِ أحدٌ يعبدك غيري، حَسْبِي اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ)[٢].

وروي: أن إبراهيمَ قال حين أوثقوهُ ليلقوه في النار: لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الْمُلْكُ، لاَ شَرِيْكَ لَكَ. قال: ثُم رَمَوا به في المنجنيقِ، فاستقبلَهُ جبريلُ عليه السلام وقال: يا إبراهيمُ ألَكَ حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليكَ فلا.

قال جبريل: قال: حَسْبِي من سؤالِي علمهُ بحالِي[٣]، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (لَوْ لَمْ يُتْبِعْ بَرْدَهَا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦١٩) عن السدي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦١٩).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٦٢٧) مختصراً.

سَلاَماً لَمَاتَ مِنْ بَرْدِهَا، فَلَمْ تَبْقَ يَوْمَئِذٍ نَارٌ فِي الأَرْضِ إلاَّ طُفِئَتْ وَخُمِدَتْ)[١].

قال السديُّ:(وَأَخذتِ الْمَلاَئِكَةُ بضَبْعَي[٢] إبْرَاهِيْمَ فَأَقْعَدُوهُ عَلَى الأَرْضِ، فَإذا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ[٣] وَوَرْدٌ أحمَرُ وَنَرْجِسٌ)[٤]. قال كعبُ:(مَا أحْرَقَتِ النَّارُ مِنْ إبْرَاهِيْمَ إلاَّ وثَاقَهُ)[٥].

قالوا: وكان إبراهيمُ في ذلك الموضعِ سبعةَ أيام، قال إبراهيمُ: ما كنتُ أياماً قط أنعمَ مني من الأيامِ التي كنتُ فيها في النار، ثُم يَصِفُ اللهُ ملكَ الظِّلِّ في صورةِ إبراهيم فأقعدَهُ فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسهُ، وبعثَ الله بقميصٍ من حرير الجنَّة، قال: فنظرَ النمرودُ مِن طرحٍ له فأشرفَ على إبراهيم، وما يشكُّ في موتهِ، فرأى إبراهيمَ في روضةٍ ورأى الْمَلَكَ قاعداً إلى جنبهِ والنارُ حواليه، فناداهُ النمرودُ: يا إبراهيمُ كبيراً إلَهُكَ الذي بلغَتْ قدرتهُ إلى أن حالَ بينك وبين ناري حتى لَم تضرك).

قال قتادةُ والزهريُّ: (مَا انْتَفعَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ بنَارٍ وَلاَ أحْرَقَتْ شَيْئاً إلاَّ وثَاقَ إبْرَاهِيْمَ، وَلَمْ تَبْقَ يَوْمَئِذٍ دَابَّةٌ إلاَّ أطْفَأتْ عَنْ إبْرَاهِيْمَ النَّارَ إلاَّ الْوَزَغُ، فَلِذلِكَ أمَرَ ﷺ بقَتْلِهِ، وَسَمَّاهُ فَاسِقاً)[٦]. قال شعيبُ الجبائي: (أُلْقِيَ إبْرَاهِيْمُ فِي النَّارِ وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً، وَذُبحَ اسْحَقُ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِ سِنِيْنَ، وَوَلَدَتْهُ سَارَةُ وَهِيَ بنْتُ تِسْعِيْنَ سَنَةً، وَلَمَّا عَلِمَتْ سَارَةُ بمَا أرَادَ اللهُ باسْحَقَ اضْطَرَبَتْ يَوْمَيْنِ، وَمَاتَتِ الْيَوْمَ الثَّالِثَ)[٧].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٣٠) عن أبي العالية. ونقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١١ ص٣٠٤ عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب.

(٢) الضبع: العضد.

(٣) (عذب) سقطت من المخطوط.

(٤) ذكره أيضاً البغوي في معالم التنزيل: ص٨٤٠.

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٢٠).

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٣١).

(٧) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٢٦). وعند الطبري (شعيب الجبيء).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا ﴾ ؛ أي وأرادوا الحيلـةَ في الإضـرار، ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمُ ﴾ ؛ الكفارَ الذين أرادوا إحراقَهُ، ﴿ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ بأن لَـم يَتِمَّ ما عَزَمُوا عليه، وتبيَّن عجزُهم عن نصرهم آلِهتـهم، فخَسِـرَ سعيُهم. وقـال ابـنُ عبَّاس: (هُوَ أنَّ اللهَ سَـلَّطَ الْبَعُـوضَ عَلَـى النَّمْـرُودِ وَجُنْـدِهِ حَتَّـى أخَـذتْ لُحُومَـهُمْ وَشَرِبَتْ دِمَاءَهُمْ، وَوَقَفَتْ وَاحِدَةٌ فِي دِمَاغِهِ حَتَّى أهْلَكَتْهُ).

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي نَجَّيْنَا إبراهيمَ من كيدِ النمرود، ونَجَّينا لوطاً معهُ؛ أي ورفعنا إبراهيمَ مِـن الْهَلَكَـةِ إلى الأرضِ المباركة وهي أرضُ الشَّام. وسُميت أرضُ الشامِ مباركـةً؛ لكثرةِ الأنبياء الذين بعثَهم اللهُ فيها. وعن أبي العاليةِ: (انـهُ ليـس مـاءٌ عـذب إلاّ وهـو يجـري مـن الصخرة التي ببيت المقدس)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ ؛ أي ووهَبْنَـا لإبراهيـمَ وَلَدَهُ اسحقَ وولدَهُ يعقوبَ، سُميَ يعقوبُ (نَافِلَةً) لأنه وَلَدُ وَلَدِهِ، والنافلـةُ في اللغـة: زيَادةٌ على الأصلِ، ونوافِلُ: الصلاةُ ما تطوَّعَ به المصلِّي. ويقـال: إنَّـهما جميعـاً نافلـةٌ؛ لأنهما عطيَّةٌ زائدةٌ على ما تقدَّم من النِّعَم. قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ: (سَأَلَ إبْرَاهِيـمُ رَبَّـهُ وَلَداً وَاحِداً، فَقَـالَ: رَب هَـبْ لِـي مِـنَ الصَّـالِحِيْنَ، فَأعْطَـاهُ اللهُ اسْـحَقَ وَلَـداً وَزَادَهُ يَعْقُوبَ)، قال ابنُ عبَّاس: (نَفَلَهُ يَعْقُوبَ؛ أيْ زَادَهُ إيَّاهُ عَلَى مَـا سَـألَ). قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ يعني إبراهيمَ وإسحق ويعقـوب، وجعلنـاهم أنبياءَ عاملين بطاعتنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي قَادةً في الخيرِ، ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ؛ أي يدعونَ الخلقَ إلى أمرنا ودِيننا، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي شـرائعَ النبوَّةِ، وَقِيْلَ: أمَرناهم بفعلِ الخـيرات، ﴿ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَـا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي خاضِعين مطيعين. وإنَّما قال (وَإقَامِ الصَّلاَةِ) بغير (هاء)؛ لأن الإضافةَ صارت عِوَضاً عن الهاءِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ؛ أي وَآتَينا لوطاً النبوَّةَ والعلمَ، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ ؛ يعني سَدُومَ، كان أهلُها يأتون الذُّكران في أدبارهم، ويتضارطون في مجالسِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ؛ قِيلَ: إنَّهم كانوا يعملونَ مع ذلك أشياء أُخَرَ من المنكراتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ ؛ بإنجائِنا إيَّاهُ من القومِ السُّوء وهلاكِهم، ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ؛ أي مِن الأنبياءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ؛ أي واذكُرْ نوحاً إذ نادَى ربَّهُ من قَبْلِ إبراهيمَ ولوطٍ يعني دعَا على قومه بالهلاكِ، فقالَ: ﴿رَب لاَ تَذرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[1]، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ ؛ ومَن معهُ من غَمِّ الغرق وكَرْبِه، والكَرْبُ أشدُّ الغَمِّ. ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ؛ أي منعناهُم مِن أن يَصِلوا اليه بسوءٍ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ ؛ أي كفاراً، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ؛ بالطُّوفان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ؛ أي وأكرمْنا داودَ وسليمان بالنبوَّة والحكمةِ إذ يحكُمان في الحرثِ، وقال قتادةُ: (زَرْعاً)[2]، وقال ابنُ مسعود: (كَانَ كَرْماً قَدْ نَبَّتَ عِنَباً)[3]، قَيَّدَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ) أي وقعت فيه بالليلِ ورعَتْهُ وأفسدتْه، والنَّفْشُ في اللغة: الرَّعْيُ بالليلِ، يقال: نَفشَتِ السَّائمةُ بالليلِ، وهَمَلَتْ بالنهار إذا رَعَتْ، والْهَمَلُ الرعيُ بالنهار، وكلاهما الرعيُ بلا راعٍ[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ ؛ أي لا يخفَى علينا منه شيءٌ، ولا يغيبُ عن علمِنا، وإنَّما قال (لِحُكْمِهِمْ) بلفظ الجمعِ لإضافة الحكم إلى مَن

---

(١) نوح / ٢٦ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٥٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٥٣).

(٤) ذكره الطبري في جامع البيان: مج١٠ ج١٧ ص٧٠. والبغوي في معالم التنزيل: ص٨٤٢.

حَكَمَ وإلى الْمَحكومِ لَهم، وقد يُذْكَرُ لفظُ الجمعِ في موضع التثنية ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ (١) أي أخوان.

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ؛ أي فَـهَّمْنَا القصةَ سليمانَ دون داود، ﴿ وَكُلًّا ﴾ ؛ منهما؛ ﴿ ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ؛ العلمُ والفصلُ بين الخصومِ.

قال ابنُ مسعودٍ وقتادةُ والزهريُّ: (وَذلِكَ أنَّ رَجُلَيْنِ دَخَلاَ عَلَى دَاوُدَ عليه السلام، أحَدُهُمَا صَاحِبُ حَرْثٍ، وَالآخَرُ صَاحِبُ غَنَمٍ، فَقَالَ صَاحِبُ الزَّرْعِ وَالْكَرْمِ: إنَّ هَـذا نَفَشَتْ غَنَمُهُ لَيْلاً فَوَقَعَتْ فِي حَرْثِي، فَلَمْ تُبْقِ مِنْهُ شَيْئاً. فَقَالَ: لَكَ رقَابُ الْغَنَمِ- وَكَانَا فِي الْقِيْمَةِ سَوَاءً- فَأَعْطَاهُ الْغَنَمَ بِالْحَرْثِ وَخَرَجَا.

فَمَرَّا عَلَى سُلَيْمَانَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ أحَدَ عَشَرَ سَنَةً، فَقَالَ: كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمَا؟ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: نِعْمَ مَا قَضَى، وَغَيْرُ هَذا كَانَ أرْفَقَ بالْكُلِّ، وَلَوْ وُلِّيْتُ أمْرَكُمَا لَقَضَيْتُ بغَيْرِ مَا قَضَى. فَأُخْبرَ دَاوُدُ بذلِكَ فَدَعَا فَقَالَ: كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أدْفَعُ الْغَنَمَ إلَى صَاحِب الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ نَسْلُهُمَا وَرسْلُهُمَا وَمَنَافِعُهَا وَسَمْنُهَا وَصُوفُهَا إلَى الْحَوْلِ، وَيَقُومُ أصْحَابُ الْغَنَمِ عَلَى الْكَرْمِ حَتَّى يَعُودَ كَهَيْأتِهِ يَوْمَ أفْسِدَ، ثُمَّ يَدْفَعُ هَؤُلاَءِ إلَى هَؤُلاَءِ غَنَمَهُمْ، وَيَدْفَعُ هَؤُلاَءِ إلَى هَؤُلاَءِ كَرْمَهُمْ.

فَقَالَ دَاوُدُ عليه السلام: نِعْمَ مَا قَضَيْتَ فِيْـهِ، فَالْقَضَاءُ قَضَاؤُكَ. وَحَكَمَ دَاوُدُ بَيْنَهُمْ بذلِكَ، فَقُوِّمَ بَعْدَ ذلِكَ الْكَرْمُ وَمَا أصَابُوهُ مِنَ الْغَنَمِ فَوَجَدُوهُ مِثْلَ ثَمَرِ الْكَرْمِ)(٢)، وهكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس(٣).

قال الحسنُ: (كَانَ الْحُكْمُ مَا قَضَى بهِ سُلَيْمَانُ، وَلَمْ يُعْفِ اللهُ دَاوُدَ فِي حُكْمِهِ) وهذا يدلُّ على أنَّ كلَّ مجتهدٍ يصيبُ، وإلى هذا ذهبَ بعضُ الناسِ فقالوا: إذا نَفشَتِ الغنمُ ليلاً في الزرعِ فأفسدتهُ، كان على صاحب الغنم ضمانُ ما أفسدته، وإن كان نهاراً

---

(١) النساء / ١١ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٨٦٥٥) عن ابن مسعود مختصراً، والأثر (١٨٦٦٢) عن قتادة والزهري.

(٣) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٦٧-٦٨.

لَم يضمن شيئاً، واستدلُّوا أيضاً بما رُوي: [أنَّ نَاقَةً كَانَتْ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ دَخَلَتْ حَائِطَ رَجُلٍ فَأفْسَدَتْهُ، فَقَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أهْلِ الأمْوَالِ حِفْظَهَا بالنَّهَار، وَعَلَى أهْلِ الْمَوَاشِي حِفْظَهَا باللَّيْلِ][(١)].

وأما أصحابُنا فلا يَروْنَ في هذه المسألةِ ضَمَاناً ليلاً ولا نهاراً، إذا لَم يكن صاحبهُ هو الذي أرسله فيه، ولا حُجَّةَ لَهم في هذهِ الآيةِ؛ لأنهُ لا خلافَ أن مَن نَفَشَتْ إبلهُ أو غنمهُ في حرثِ رجلٍ أنه لا يجبُ عليه أن يُسَلِّمَ الغنمَ، ولا يسلمُ أولادَها وألبانَها وأصوافَها إليه، فثبتَ أنَّ الْحُكْمَيْنِ اللذين حَكَمَ بهما داودُ وسليمان (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ) مَنسُوخَانِ بشريعةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقد رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنهُ قال: [الْعَجْمَاءُ جُبَارٌ][(٢)] وهذا خبرٌ مستعمل مُتَّفقٌ على استعمالهِ في البهيمة الْمُنْفَلِتَةِ إذا أصابت إنساناً أو مالاً أنه لا ضمانَ على صاحبها إذا لَم يرسلْها هو عليه، وليس في قصَّة البراءِ بن عازب إيجابُ الضمان، ولأنّ الأشياءَ الموجبةَ للضمان لا تختلفُ بالليل والنهار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا الجبالَ والطيرَ يسبحن مع داودَ؛ أي أن الجبالَ كانت تسيرُ مع داود أين يذهبُ، ومما يؤيدُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا جِبَالُ أوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[(٣)]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ هذه الأشياءَ دلالةً على نبوَّته. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي وعلَّمنا داودَ صَنْعَةَ الدِّرْعِ، وسُمي الدرع لَبُوساً؛ لأنَّها تُلبس، كما يقالُ للبعير: رَكُوبٌ؛ لأنه يُرْكَبُ، والسلاحُ كله لَبُوسٌ عند العرب دِرعاً كان أم جَوْشَناً أو سَيفاً أم رُمحاً، والْجَوْشَنُ هو الدرعُ الصغيرة. قال قتادةُ: (أوَّلُ مَنْ صَنَعَ الدِّرْعَ دَاوُدُ، وَإنَّمَا كَانَتْ مِنْ صَفَائِحَ، فَهُوَ أوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا وَحَلَّقَهَا)[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٤٣٦. وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: باب المواشي تفسد زرع القوم: الحديث (٣٥٦٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٤٧٥. والنسائي في السنن: ج ٥ ص٤٤-٤٥.

(٣) سبأ / ١٠ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٦٩). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٦٨٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ ؛ أي ليُحرزكم من شدَّة القتال. قرأ شيبةُ وأبو بكرٍ ويعقوبُ (لِنُحْصِنَكُمْ) بالنون، لقوله (وَعَلَّمْنَاهُ). وقرأ ابنُ عامر وحفص بالتاء، يعني الصَّنْعَةَ. وقرأ الباقون بالياءِ على معنى لِيُحْصِنَكُمُ اللَّبُوسُ[1].

وَقِيْلَ: على معنى لِيُحْصِنَكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (مِنْ بَأْسِكُمْ) أي من حربكم، وقيل: من وقع السلاح فِيكُمْ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ يا أهلَ مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ أي وسخَّرنا لسليمان الريحَ عاصفةً؛ أي شديدَ الهُبُوب. قال ابنُ عبَّاس: (إنْ أمَرَ الرِّيحَ أنْ تَعْصِفَ عَصَفَتْ، وَإذا أرَادَ أنْ تُرْخَى أرْخَتْ). وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (تَجْرِي بأَمْرِهِ إلَى الأَرْضِ) أي تجري بأمرِ سُليمان من اصْطَخَرَ إلى الأرضِ التي باركَ اللهُ فيها بالماءِ والشَّجر وهي الأرضُ المقدَّسة. روي: أنَّ الريحَ كانت تجري بسليمانَ وأصحابه إلى حيث شاءَ سليمانُ، ثُم يعودُ إلى منْزله بالشَّام. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ بصحَّة التدبيرِ فيه، علِمْنا أن ما يُعطى سليمان من تسخيرِ الريح وغيره يدعوهُ إلى الخضوعِ لربهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ ؛ أي وسخَّرنا له مِن الشياطين في البحرِ لاستخراجِ ما شاء من لُؤْلُؤٍ ومَرْجَانٍ وغيرِ ذلك من الجواهر. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي ويعملون دون الغواصة من أعمال البناء، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ أي مِن أنْ يُفسدوا ما عملوا، ومن أن يَهيجوا على أحدٍ في زمانه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ ؛ أي دَخَلَ الضرُّ في جسدِي، ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ؛ بالعبادِ، فكان هذا تعْرِيضاً منهُ بالدعاءِ لله لإزالة ما بهِ من الضُّرِّ، ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ دعاءَهُ، ﴿ فَكَشَفْنَا مَا

---

(١) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٧٢. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٥٨-١٥٩.

(٢) ص / ٣٦ .

بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ ؛ وقولهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ ؛ قال ابنُ مسعود وقتادة والحسنُ: (أحْيَا اللهُ لَهُ أوْلاَدَهُ الَّذِيْنَ هَلَكُوا فِي الدُّنْيَا بأعْيَانِهِمْ وَرَدَدْنَا لَهُ مِثْلَهُمْ).

ويقالُ: أبْدَلَهُ اللهُ بكلِّ شيء ذهبَ عنه ضِعْفَ، وعن ابن عبَّاس قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾[1] فقال: [يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، رَدَّ اللهُ امْرَأتَهُ وَزَادَ فِي شَبَابهَا حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةَ وَعِشْرِيْنَ ذكَراً][2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ؛ أي فَعَلْنَا ذلك به رحمةً من عندنا، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ ؛ أي وموعظةً للمطيعين.

قال وهبُ بن مَنبه: (كان أيوبُ عليه السلام رجلاً من الرُّوم من ذريَّة اسحق بن إبراهيمَ وكانت أمُّهُ من ولدِ لُوطٍ، وكان اللهُ قد اصطفاهُ وبناه وبسطَ عليه الدُّنيا، وآتاهُ من أصناف المال من البقرِ والإبل والغنم والخيل والْحُمرِ ما لا يؤتيهِ أحداً، وكان قد أعطاهُ الله أهلاً ووَلداً من رجالٍ ونساء، وكان له خمسمائة عبدٍ، لكلِّ عبدٍ امرأةٌ وولد ومال.

وكان أيوبُ عليه السلام بَرّاً تَقِياً رحيماً بالمساكين، يُكْرِمُ الأراملَ والأيتام ويَكْفُلُهُمْ، ويُكْرِمُ الضيفَ، وكان شَاكراً لأنْعُم اللهِ، مؤدِّياً لحقِّ الله، قد امتنعَ من عدوِّ الله إبليسَ أن يصيبَ منه ما يصيبُ من أهلِ الغِنَى من الفتنةِ والغفلة والشَّهوة والتشاغُلِ عن أمر الله بما هو فيه من الدُّنيا، وكان كثيرَ الذكرِ لله تعالى مجتهداً في العبادةِ، وكان إبليسُ لا يُحْجَبُ عن شيءٍ من السَّموات.

ومن هنا وصلَ إلى آدمَ عليه السلام حين أخرجَهُ من الجنةِ، فلم يزلْ على ذلك يصعدُ في السَّموات حتى رفعَ اللهُ عيسى عليه السلام فحُجِبَ من أربعٍ، وكان يصعدُ في الثلاثِ،

---

(١) ص / ٤٣ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٨٦٨٦) بإسناد ضعيف. وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٦٠؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه وابن عساكر من طريق جويبر بن الضحاك عن ابن عباس وذكره)).

فلمَّا بعثَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ حُجِبَ من الثلاثِ الباقيات، فهو وجنودهُ مَحْجُوبُــونَ مـن جميعِ السموات إلى يوم القيامةِ إلاّ مَن استَرَقَ فأتبعهُ شهابٌ ثاقب.

فلما كان إبليسُ في زمانِ أيوبَ يصعدُ إلى السَّماء، سَمِعَ تحاديثَ الملائكة بصلاة أيوبَ، وذلك حين ذكَرَهُ اللهُ وأثنى عليهِ، فأدركَهُ الحسدُ بأيوب، فصعـدَ سـريعاً حتـى وَقَفَ مِن السموات موقفاً كان يَقِفُهُ، وقال: إلَــهي؛ عبدُكَ أيـوبُ قـد أنعمتَ عليـه فشكركَ، وعَافَيتَهُ فَحَمِدَكَ، ولَم تُجَرِّبْهُ بشدَّة ولا بـلاءٍ، وأنـا لـك زعيـمٌ لَئِـنْ جرَّبتَـهُ بالبلاءِ ليَكْفُرَنَّ بكَ.

فقالَ اللهُ تعالى: انطلق؛ فَقَدْ سَلَّطْتُكَ على مالهِ، فانقضَّ إبليسُ حتى وقعَ علـى الأرضِ وجَمَعَ عفاريتَ الجنِّ وقال لَهم: ماذا عندَكم من القـوَّة ؟ فـإنِّي قـد سُـلِّطْتُ على مالِ أيُّوبَ، وهي المصيبةُ الكبرى والفتنــةُ الـتي لا تُصْـبرُ عليـها الرجـالُ، فقـال عفريتٌ مِن الجنِّ: أعطيتُ من القوةِ ما إذا شِئْتُ تَحَوَّلْتُ إعصاراً من النار، وأحرقـتُ كلَّ شيءٍ أتى عليه، فقال لهُ ابليسُ: إذهــب إلَـى الإبـلِ ورُعاتِـها، فذهـب إلى الإبـلِ فوجدَها في المرعى، فلم يشعُرِ الناسُ حتى ثارَ إعصارٌ تنفخُ منه السَّموم، لا يدنو منــهُ أحدٌ إلاّ احترقَ، فلم يزل يُحرِقُها ورعائها حتى أتى على آخرِها.

فلمَّا فَرَغَ منها تَمَثَّلَ إبليسُ على قعودٍ منها كَرَاعِيْهَا، وانطلقَ إلى أيوبَ فوجــده قائماً يصَلِّي، فقال: يا أيوبُ؛ هل تدري ما صَنَعَ ربُّكَ الـذي اخترتَـهُ وعبدتـه بـإبِلِكَ ورُعاتِها ؟ فقال أيوبُ: إنَّها مالهُ أعارَنِيها وهو أولَى به منِّي إذا شاءَ نَزَعَهُ، وقد وَطِئتُ نفسي ومالِي على أنَّهما للفناءِ.

فقال إبليسُ: إن رَبَّكَ أرسلَ عليها ناراً فاحترقت هي ورعاتُها، فصارت الناسُ مبهوتون يتعجَّبون منهم، ويقولون: لو كان إلَهُ أيوبَ يقدرُ على أن يصنعَ شـيئاً لَمَنَـعَ عن إبلِ وليِّه، وقومٌ منهم يقولون: بل إلَهُ أيوبَ هو الذي فَعَلَ ذلك، أشْمَتَ به عدوَّهُ وتجمع به صَدِيْقَهُ.

فقالَ أيوبُ: الحمدُ لله على ما قَضَى اللهُ وقَدَّرَ، ولو عَلِمَ اللهُ منـك أيُّـها العبـدُ خيراً لَتَقَبَّلَ روحَكَ مع تلك الأرواحِ، فَيَأْجُرُني اللهُ فيك وتَموتُ شهيداً، ولكنه عَلِـمَ منك شرّاً فَأَخَّرَكَ وخلَّصك.

فرجعَ إبليسُ إلى أصحابهِ خَاسِئاً ذليلاً، فقال لَهم: ماذا عندَكم من القـوَّة؟ إنِّي لَم أخْرِجْ قَلْبَهُ، فقال عفريتٌ: عندي من القوَّة ما إذا شئتُ ضجت صوتاً ما سَمعه ذو روحٍ إلاَّ خرجت روحهُ، فقال إبليسُ: إذهب إلى الغَنَمِ ورعاتِها، فانطلَقَ إليـهم، فلما تَوَسَّطَ الغنمَ والرُّعاةَ صاح صوتاً فماتوا جميعاً .

ثُم خرجَ إبليسُ متمثِّلاً براعٍ من رعاتِها إلى أيـوبَ فأخـبرَهُ بذلـك، فحمـدَ الله وقال لهُ مِثْلَ ما قال في المرَّة الأولى، فرجعَ إبليسُ إلى أصحابهِ ذليلاً خاسئاً وأمَرَهُمْ إلى أصحاب الحرث والزُّروعِ فأهلكُوهم. وكان أيوبُ عليه السلام كلَّما انتهى إليـه هـلاكُ مـالٍ من ماله حَمَدَ الله وأثنى عليهِ ورَضِيَ بالقضاءِ، وألزمَ نَفْسَهُ الصبرَ على البلاءِ حتى لَمْ يبق له مالٌ.

فلما رأى إبليسُ أن مَالَهُ قد فَنِيَ، وأنه لَم يُصِبْ منه حاجتَهُ صَعَـدَ إلى السـماءِ وقالَ: يا رب؛ إن أيوبَ يرى أنـكَ مـا أهلكـتَ مِـن مالـه أخْلَفْتَـهُ عليـهِ، فـهل أنـتَ مُسَلِّطُنِي على أولادهِ ؟ فإنَّها الفتنةُ الْمُضِلَّةُ والمصيبةُ التي لا يقومُ لَها قلوبُ الرجـال. ولا يقوَى عليها صبرُهم، فَسَلَّطَهُ اللهُ على ذلكَ.

فانقضَّ إبليسُ حتى جاء إلى أولادِ أيوبَ وهم في قصورهم، فلـم يـزل يُزَلْزِلُـهُ بهم حتى تَدَاعَى من قواعدهِ، ثم جعل يَرْقَبُهُمْ بالخشب والحجارة حتى مَثَّلَ بـهم كـلَّ مُثْلَةٍ، ثُم ذهبَ إبليسُ إلى أيوبَ متمثِّلاً بالمعَلِّم الذي كان يعلِّمُهم الحكمةَ وهو مجروحٌ يسيلُ دَمُهُ ودماغه، فأخبرَهُ بذلكَ، فقال لهُ: يا أيوبُ؛ لو رأيـتَ بَنِيْـكَ كيـف حالُـهم، منكَّسِين على رؤوسهم يسيلُ دماغُهم من أنوفهم، ولو رأيتَ كيف شُـقِقَتْ بطونُـهم، وتنثرت أمعاؤُهم لَتَقَطَّعَ قلبُكَ عليهم، ولَم يزل يردِّدُ هذا القولَ حتى رَقَّ قلبهُ وبكى، فقبضَ قبضةً من التراب ووضعه على رأسهِ، فَاغْتَنَمَ إبليسُ ذلك وصَعَدَ سريعاً بالذي كان من جزعِ أيوبَ. ثُم لَم يلبث أيوبُ أنْ نَدِمَ على ذلـكَ واسـتغفرَ رَبَّـهُ، فصعـدتِ الملائكة بتوبته فسبقوا إبليسَ.

ووقف إبليسُ خزياً ذليلاً. وقال: إلَهي هل أنتَ مُسَـلِّطُنِي علـى جسـدهِ فـإنِّي زعيمٌ لك إن سلطتني عليه ليَكْفُرَنَّ بكَ، فقال اللهُ تعالى: قـد سَـلَّطْتُكَ علـى جسـدهِ، ولكن ليس لك سلطانٌ على لسانهِ ولا على قلبه. ولَم يُسَلِّطْهُ اللهُ عليه إلاَّ ليُعظِمَ لـه الثوابَ. ويجعله عبرةً للصابرين. وذكرى للعابدين؛ ليقتَدُوا به في الصبرِ.

فانقضَّ إبليسُ سريعاً فوجدَ أيوب سَاجِداً، فأتاهُ من قِبَلِ الأرضِ في وجهه، فنفخَ في مِنْخَرَيْهِ نفخةً اشتعلَ منها جسدهُ، فذهَلَ وخرجَ به من قَرْنِهِ إلى قدمهِ مثل ثآلِيل[1] ووقعت عليه حَكّةٌ لا يَملكُها، فَحَكَّ بأظفار حتى سقطت كلُّها، ثم حَكَّهَا بالفخّار والحجارة، فلم يَزَلْ يَحُكُّهَا حتى نَزَلَ لحمهُ وتقطَّعَ وتغيّر وَانْتَنَّ، فأخرجَهُ أهلُ القرية، وجعلوه على كِنَاسَةٍ، واعتزله جميعُ الناس إلاّ امرأتَهُ (رَحْمَةُ بنتُ إفرائيم بن يوسفِ بن يعقوب) فإنَّها كانت تتخلَّفُ إليه بما يصلحهُ ويلزمه.

فلما طالَ عليه البلاءُ، وتَمادى عليه الضُّرُّ، ورفضه جميعُ الناسِ حتى أهلَ دِيْنِهِ تركوهُ ولَم يتركوا دينَهُ، فأقبلَ على الدُّعاء متضرِّعاً، وقال: إلَهي؛ لأيِّ شيءٍ خلقتني؟ ليتَكَ لَم تخلقني، بل ليتني كنتُ حيضةً القتني أمِّي، فلو كنتَ أمتَّني كان أجملَ بي، إلَهي أنا عبدٌ ذليل، إنْ أحسنتَ إليَّ فَالْمَنُّ لَكَ، وإن عاقبتَني فبيدكَ عُقوبَتي، جعلتَني للبلاءِ غَرَضاً وللفتنةِ نَصباً، وقد وقعَ بي بلاءٌ لو سَلَّطْتَهُ على جبلٍ أضعفَ عن حملهِ، فكيف يحملهُ ضعفي ؟

إلَهي تقطَّعت أصابعِي فإنِّي لا أقدرُ أحمل اللقمةَ بيدي، إلَهي تساقطت لَهَواتِي ولحمُ راسي، وما يرادُ بي، وسالَ دِماغي من فمي، وتساقط شعرُ عيني، وكأنَّما أحْرِقَ وجهي، فحدقتايَ متدلّيتان على وجهي، ووَرِمَ لساني حتى ملأ فمي فما أدخلُ فيه طعامي إلاّ غصَّها، ووَرِمَتْ شفتَايَ حتى غَطَّتِ العليا أنفي، وغطَّت السُّفلى ذقْنِي، وتقطَّعت أمعائي في بطني. إلَهي ذهَبَتْ قوَّة رجلاي حتى لا أطيقُ حملَها، وذهبَ المالُ حتى صِرْتُ أسالُ اللقمةَ مَن كنتُ أعُولُهُ فيمنُّها عليَّ ويعيِّرُنِي.

إلَهي هَلَكَ اولادي ولَم تُبْقِ منهم واحداً لإعانتي ونفعني، إلَهي قد مَلَّنِي أهلي وعقَّني أرحامي وانكرني معارفي، وأعرضَ عني صديقي وهجرني أصحابي، وجُحدت حقوقي ونُسيت صَنائعي. أصرخُ فلا أحدَ يصرخني، وأعتذرُ فلا أحد يَعْذُرُنِي، وأدعو فلا أحدَ يجيبُ. إن فضلكَ هو الذي أذلَّني وأعمانِي، وسلطانكَ هو الذي أسقمَني

---

(١) الثآليلُ جمعٌ، واحدها: الثُؤْلُولُ. ينظر: مختار الصحاح: ص٨١. وفي الكشف والبيان: ج ٦ ص٢٩٠ نقله الثعلبي قال: (ثآليل مثل اليات الغنَم).

وأنْحَلَنِي، فلو أن ربي فرغَ الهيبةَ التي في صدري وأطلقَ لساني حتى أتكلمَ بما ينبغي للعبدِ أن يُحَاجَّ عن نفسه لرجوتُ أن يصافيني، ولكنه ألقاني وتعالَى عني، فهو يراني ولا أراهُ، ويسمعُني ولا أسمعه لا هو نَظَرَ إلَيَّ فرحمني ولا هو أدناني منه فأتكلمُ بحاجتي، وأنطق ببراءتي وأخاصمُ عن نفسي.

فلما قال ذلك أيوبُ، نُودِيَ: يا أيوبُ؛ إنِّي لَم أزل منكَ قريباً، فَقُمْ خاصِمْ عن نفسِكَ، وتكلَّم ببراءتك، وشُدَّ إزاركَ، وقُمْ مقامَ جبَّار لتخاصمني. يا أيوبُ؛ إنكَ أردتَ أن تخاصمني بعيبك، وتحاجني بخطئكَ، أم أردتَ أن تُكاثرني بضعفك، أين أنتَ منِّي يوم خلقتُ السمواتِ والأرض؟ هل علمتَ بأيِّ مقدار قدرتُها، أم كنتَ معي يوم مددتُ أطرافها، أم هل علمتَ ما في زواياها؟

أين أنتَ منِّي يوم سَخَّرْتُ البحارَ وانبعثت الأنهار، أقُدْرَتُكَ حبَسَتِ البحارَ وأمواجَها؟ أم قُدْرَتُكَ فتحت الأرحامَ حين بلغت مدَّتَها ؟ أين أنتَ يوم نصبتُ شوامخَ الجبال، ويوم صببتُ الماء على التراب؟ أ بحكمتكَ أحصيتَ القطرَ وقسَّمت الأرزاقَ ؟ أم قدرتُكَ تسيِّرُ السحابَ ؟ أم هل خزنت أرواح الأمواتِ خزانة الثلج وجبال البَرد؟ وهل تدري أينَ خِزانة الليل والنهار؟ وأين طريقُ النور، ومن جعل العقول في أجوافِ الرِّجال ؟ أين أنتَ يا أيوبُ يوم خلقتُ التنين رزقه في البحر ومسكنه في السحاب، عيناهُ توقدان ناراً ومنخراهُ يثوران دخاناً، يثور منهما لَهباً كأنه إعصارٌ، النار جوفهُ يحترق ونفَسُهُ تلتهبُ، كأنَّ صريفَ أسنانهِ أصواتُ الصواعق، وكأنَّ وسطَ عينه لَهيبُ البرق، لا يفزعه شيء، ويهلكُ كلَّ شيء يَمر عليه، هل أنتَ يا أيوبُ آخذه بأحبولَتِكَ، أو واضعُ اللِّجام في شدقه ؟ هل تحصي عمره أو تعرفُ أجله أو تعطيه رزقه ؟ .

فقالَ عند ذلك أيوبُ: قَصُرْتُ عن هذا الأمر، ليتَ الأرضَ تنشقُّ لِي فأذهبُ فيها، اجتمعَ عليَّ البلاءُ الحي، قد جعلتني لكَ كالعدوِّ، وقد كنتَ تُكرمُني إلهي، هذه كلمةٌ زلَّت على لساني فلن أعودَ بشيءٍ تكرههُ مني، قد وضعتُ يدي على فمِي، وعضَضْتُ على لساني، والصقتُ خَدِّي بالتراب ودَسَّيْتُ فيه وجهي لِذِلِّي وسكتُّ كما أسكتتني خطيئتي، ربي اغفرْ لِي ما قُلْتُ فلا أعودُ لِمثله أبداً.

فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يا أيوبُ؛ قد نَفَذَ فيك عِلْمِي، وسبقت رحْمَتي غضَبي، إن أخطأتَ فقد غفرتُ لك، ورددتُ عليك مالكَ وأهلكَ مثلَهم معهم؛ لتكون لِمن خلفكَ آيةً، وتكونَ عبرةً لأهلِ البلاء وعِبرةً للصابرين، ارْكُضْ برجلِكَ، هَذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ فِيْهِ شِفَاؤُكَ فاركُضْ برجلِكَ، فانفجرت له عينٌ فدخلَ فيها فاغتسلَ منها، فأذهبَ الله عنهُ كلَّ ما كان به من البلاءِ.

فأقبَلَتِ امرأتهُ تَلْتَمِسُهُ في مضجعهِ فلم تَجِدْهُ، فقامت كَالْوَالِهَةِ فوجدته جالساً عند العينِ فلم تعرفْهُ، فقالت لهُ: يا عبدَ اللهِ؛ هل لكَ عِلْمٌ بالرجلِ الْمُبْتَلَى الذي كان ها هنا ؟ فقال: وَهَلْ تعرفينهُ ؟ قالت: نَعَمْ؛ وما لِي لا أعرفهُ ؟ فَتَبَسَّمَ فقال أنه هو، فعَرَفَتْهُ بمَضْحَكِهِ، فاعتنقتهُ)[١]. قال ابنُ عبَّاس: (فَوَا الَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ مَا فَارَقَتْهُ مِنْ عِنَاقِهِ حَتَّى مَرَّ بهِمَا كُلُّ مَالٍ لَهُمَا وَوَلَدٍ)[٢].

قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [أقَامَ أيُّوبُ فِي بَلاَئِهِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيْبُ وَالْبَعِيْدُ][٣]، وقال الحسنُ: (مكثَ أيوبُ مطروحاً على كِنَاسَةٍ في مزبلةٍ سبعَ سنين، وكان مع ذلك لا يَفْتُرُ عن ذكرِ الله والثَّناءِ عليه، والصبرِ على بلائه.

فصرخَ إبليسُ صرخةً جَمع فيها جنودَهُ من أقطار الأرض جَزَعاً من صبرِ أيوبَ، فلمَّا اجتمعوا إليه قالُوا له: ما أصابكَ ؟ قال: أعيَانِي هذا العبدُ الذي سألتُ اللهَ أن يُسَلِّطَنِي عليهِ وعلى ماله وولدِهِ، فلم أدَعْ له مالاً ولا وَلداً، فلم يَزْدَدْ إلاّ صبراً وثناءً على اللهِ، ثم سُلِّطْتُ على جسدهِ فتركتهُ جيفةً ملقًى على كناسةِ بني إسرائيلَ لا يقربهُ إلاّ امرأتُهُ، فاستغثتُ بكم لِتقوُّوني عليه.

---

(١) ينظر: جامع البيان: مج ١٠ ج١٧ ص٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٧٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في السنن: الحديث (٢٨٩٨). والحاكم في المستدرك: كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء: باب ذكر بلاء أيوب: الحديث (١٤٧١)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وفي مجمع الزوائد: ج ٨ ص٢٠٨؛ قال الهيثمي: ((رواه أبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح)).

فقالوا له: وأين مَكْرُكَ وأين خداعُكَ الذي أهلكتَ بها من مضَى من الأمـمِ ؟ قال: بَطَلَ ذلك كله مع أيوبَ، فأشيروا عليَّ. قالوا: أنتَ حين أخرجتَ آدم من الجنَّـة من أين أتيتَهُ ؟ قال: مِن قِبَلِ امرأتهِ، قالوا: فشأنُكَ بـأيوبَ مِـن قِبَـلِ امرأتـهِ، فإنـه لا يعصِيها، وليس يقربهُ أحدٌ غيرُها.

قال: أصبْتُم، فانطلقَ حتى أتى امرأتَهُ فتمثَّلَ لهـا في صـورةِ رجُـلٍ، فقـال: أيـن بعلُكِ يا أمَةَ اللهِ ؟ قالت: هو ذاكَ يَحُكُّ قروحَهُ والـدودُ يـتردَّدُ في جسـدهِ، فوَسْـوَسَ إليها وذكَّرَها بأيامِ شباب أيوبَ وجماله، وما كانا فيه من النِّعَمِ والحال الطيِّب، وكيـفَ تَقلَّبَ عليهم الزمانُ حتى صارَ أيوبُ في هذا الضَّرر العظيم، ولَم يزل يذكِّرُها بأيامٍ قد مضت حتى أبكَاهَا، فلما عَلِمَ أنَّها قد جَزِعَتْ وحزنت، أتَاهَا بسَخْلَةٍ وقال لَها: قُولِي لأيوبَ يذبحُ هذه الشاة لِي وهو يبرأ.

قال: فجاءت إلى أيوب وقالت لهُ: إلى متى يُعَذِّبُكَ اللهُ ألاَ يرحمُكَ ؟ أين المـالُ، أين الماشيةُ، أين الولدُ، أين لونُكَ الحسنُ ؟ قد تغير وصارَ كمـا تـرى، أيـن جسـمُكَ الحسنُ؟ قد بَلِيَ وتردَّد فيه الديدانُ، فَاذْبَحْ هذه السخلةَ لِمن أمرَنِي واسترح.

فقال لها أيوبُ: أتاكِ عدوُّ الله فنفخَ فيك فَاحِشَهُ، ويلَـك أرأيـتِ الـذي تبكـينَ عليه من المال والولدِ والصحَّة، مَن أعْطَانِيَهُ ؟ قالت: اللهُ، قال: فَكَمْ مُتِّعْنَا به ؟ قالت: ثمانين سنةً، قال: فكَم ابتلانا اللهُ ؟ قالت: سبعَ سـنين، قـال: وتلـك مـا عَدَلَـتْ ولا أنصفتْ، ألاَ صبرْتِ حتى تكون في البلاءِ ثمانين سنةً، كما كنا في الرَّخاء ثمانين سنةً، واللهِ لئن شَفَانِي اللهُ لأجلدنَّكِ مائة جلدةٍ، كيف تأمريني أن أذبحَ لغيرِ الله ؟ طعـامُكِ وشرابُكِ عليَّ حرامٌ أن أذوقَ شيئاً مِما تأتينِي به بعد إذا قُلْتِ لِي هذا القولَ، فاعتزلِي عنِّي ولا أراكِ، فطرَدَها فذهبَتْ[(١)].

وقال وهبُ: (لَمْ يَأْمُرْهَا إبْلِيسُ بذبْحِ السَّخْلَةِ، وَإنَّمَا قَالَ لَهَا: لَوْ أنَّ بَعْلَكِ أكَلَ طَعَاماً، وَلَمْ يُسَمِّ عَلَيْهِ لَعُوفِيَ مِنَ الْبَلاَءِ).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٧٥-١٨٦٧٨).

وروي: أن إبليسَ قال لَـها: اسـجُدِي لِـي سجدةً وأردُّ عليـكِ المالَ والأولاد وأعافِي زوجَكِ، فأنا الذي صنعتُ بكم ما صنعتُ، فرجعت إليه فأخبرتْهُ بذلك، فقال لَها: أتاكِ عدوُّ الله لِيَفْتِنَكِ عن دِيْنِـكِ، وحلـفَ إنْ عافـاهُ الله ليضربَنَّـها مائـةَ جلـدةٍ، وحرَّم طعامَها وشرابَها وطرَدَها، فلما نظرَ أيوبُ إلى أنه قد طردَ امرأتـه وليـس عنـدهُ طعامٌ ولا شراب ولا صديقٌ خرَّ ساجداً للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وقال: إلَهي مسَّنِي الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين، مِن طمعِ إبليس في سجود امرأتِي له، ودعائه إياها وإيَّاي إلى الكفر).

وإنَّما قال (مَسَّنِيَ الضُّرُّ) حين قصدَت الدُّودةُ إلى قلبِهِ ولسانه، فخَشِيَ أن يَفْـتَرَ عن ذكرِ الله، وَقِيْلَ: إنَّما قال ذلكَ حين أتاهُ صديقان فقامَا مِن بعيدٍ لا يقـدرون علـى الدُّنُوِّ منهُ من ريحِهِ، فقال أحدُهما لصاحبه: لو عَلِمَ اللهُ في أيُّوبَ خـيراً مـا ابتـلاهُ بمـا ترى، قال: فما سَمِعَ أيوبُ شيئاً كان أشدَّ عليه مـن هـذه الكلمـةِ، فعنـد ذلـك قـالَ: مَسَّنِيَ الضُّرُّ من شَماتة الأعداءِ، يدلُّ عليه ما روي أنه قيل لهُ بعد ما عُوفِيَ، مـا كـان أشدَّ عليك في بَلائِكَ ؟ قال: شَماتةُ الأعداءِ، وأنشَدُوا في معناهُ:

كُـلُّ الْمَصَـائِب قَـدْ تَمُـرُّ عَلَى الْفَتَـى ... فَتَـهُونُ غَـيْرَ شَـمَاتَةِ الْحُسَّـادِ
كُـلُّ الْمَصَـائِب تَنْقَضِـي أيَّامُـهَا ... وَشَـمَاتَةُ الْحُسَّـادِ بِالْمِرْصَـادِ

قال وهبُ: (فلما طردَ أيوبُ امرأتَه، وبقي وحيداً ليسَ معه مَن يُطْعِمُهُ ويسقيهِ، قال عند ذلكَ: يَا رَب إنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِيْـنَ، فقـال لَـهُ اللهُ: إرفَـعْ رأسَكَ؛ فقد استَجَبْتُ لكَ، ارْكُضْ برجلِكَ، فركَـضَ برجلـهِ، فنَبَعَـتْ عَيْـنٌ فاغتسـلَ منها، فلم يبقَ مِن دائهِ شيءٌ ظاهرٌ إلاَّ سقطَ عنه، وأذهب اللهُ عنه كلَّ ألَمٍ وسَقَمٍ، وعاد إليه شبابهُ وجماله أحسنَ مما كان وأفضلَ، ثُم ضربَ برجله فنَبَعَتْ عينٌ أخرى، فشَربَ منه، فلم يبقَ في جوفه داءٌ إلاّ خرجَ، فقام صَحيحاً وكُسِيَ حُلَّةً، ثُم الْتَفَتَ عـن يَمينـه فرأى جميعَ ما كان له من أهلٍ ومال وولدٍ، وقد صار معهم مثلُـهم، قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: (وَآتَيْنَاهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) .

قال وهب: (كَانَ لَهُ سَبْعُ بَنَاتٍ وَثَلاَثَةُ بَنِيْـنَ)، وقـال ابـنُ يسـار: (سَبْعَةُ بَنِيْـنَ وَسَبْعُ بَنَاتٍ، فَرَدَّهُمُ اللهُ بأعْيَانِهِمْ، وَأعْطَاهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ) وهذا قولُ ابنِ مسعود وقتادةُ

وكعب؛ قالوا: (أَحْيَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَبْدَلَهُ بكُلِّ شَيْءٍ ذهَبَ عَنْهُ ضِعْفَيْنِ)، قال ابنُ عبَّاس: (رَدَّ اللهُ امْرَأتَهُ فِي شَبَابهَا حَتَّى وَلَدَتْ لَهُ سِتَّةً وَعِشْرِيْنَ وَلَداً ذكَراً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ﴾ ؛ أي واذكُرْ إسْمَاعِيلَ وَإدْرِيسَ وَذا الْكِفْلِ، واختلفوا في ذكر ذي الْكِفْلِ، قال أبو موسى الأشعريُّ وقتادة ومجاهدُ: (كَانَ ذُو الْكِفْلِ رَجُلاً صَالِحاً تكفَّل لنبيٍّ من الأنبياءِ أنه يصومُ النهار ويقوم الليلَ، وأن لا يغضبَ ويقضي بالحقِّ، فوفَّى بذلك كله، فأثنَى اللهُ عليه وذكَرَهُ مع الأنبياءَ. وذلك أن نبيّاً من بنِي إسرائيل أوحَى اللهُ إليه: أنِّي أريدُ قَبْضَ روحِكَ، فاعْرِضْ مُلْكَكَ على بني إسرائيل، فمَنْ تَكَفَّلَ لكَ أن يصلي بالليلِ لا يَفْتَرَ، ويصومَ النهار ولا يُفْطِرَ، ويقضي بين الناس ولا يغضبَ، فادفع مُلْكَكَ إليه. ففعل ذلكَ، فقامَ شابٌّ فقالَ: أنا أتَكَفَّلُ لكَ بهذا، فتكَفَّلَ ووفَّى به، فشَكَرَهُ اللهُ وأثنى عليهِ، ولذلك سُمي ذا الْكِفْلِ). وقال الحسن: (هُوَ نَبِيٌّ اسْمُهُ ذُو الْكِفْلِ) ومعنى ذُو الكِفْلِ؛ أي ضُوعِفَ ثوابهُ على ثواب غيره مِمن آمَنَ به في زمانهِ[1].

وقال مجاهدُ أيضاً: (لَمَّا كَبرَ الْيَسَعُ عليه السلام قالَ: لو أنِّي استخلفتُ رجلاً على الناسِ يعملُ عليهم في حياتِي حتى أنظرَ كيف يعملُ، قالَ: فجمعَ الناسَ وقال: مَن يَتَكَفَّلُ لِي بثلاثةٍ اسْتَخْلَفْتُهُ: يصومُ النهارَ، ويقومُ الليلَ، ويحكمُ بين الناس ولا يغضبُ؟ فقام رجلٌ تُرد به العيون فقال: أنا، فردَّهُ في ذلك اليومِ، ثُم قال كذلكَ في اليوم الثانِي، فقامَ ذلك الرجل فردَّهُ، فقال مثلَ ذلك في اليومِ الثالث، فقامَ ذلك الرجلُ، فاستخلفَهُ فَوَفَّى بذلك كله)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ أي على طاعةِ اللهِ وعن معاصيه، ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؛ يعني ما أنْعَمَ اللهُ عليهم من النبوَّة، وما صيَّرهم اليه في الجنَّةِ من الثواب.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٩٤). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٠١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٦٩٣). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٠٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا ﴾ ؛ يعني يُونُسَ بْنَ مَتَّى احْبَسَهُ الله في بَطْنِ النُّون، وهو الحوتُ، ومعنى الآيةِ: وَاذْكُرْ ذا الحوتِ إذْ ذهَبَ مُغَاضِباً لقومِهِ. روي: أنهُ خرجَ مِن بينهم قَبْلَ أن يؤذنَ له في الخروجِ، وكان خروجهُ من بينهم خطيئةً، وإنَّما خرجَ منهم على تركِهم الإيمانَ به، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس والضحَّاك.

وَقِيْلَ: كان يونسُ وقومُهُ يسكنون فلسطين فعداهم مَلِكٌ فسبَى منهم خَلْقاً كثيراً، فأوحَى اللهُ إلى أشعيا النبيِّ ﷺ: إذهَبْ إلى الملكِ حزقيا فقُل له: تَوَّجْهُ نبياً قوياً أميناً، فإنِّي ألقِي في قلوب أولئك التخلية حتى يُرسلوا معه بني إسرائيل، فقال الملكُ: مَن ترى يرسلُ؟ وكان في مَملكته خمسةٌ من الأنبياءِ، فقال لهُ: أرسِلْ يونسَ فإنه قويٌّ أمين، فأتى الملكُ يونسُ فأخبرَهُ أن يخرجَ، فقال يونسُ: هل أمَرَكَ اللهُ بإخراجي؟ قال: لاَ، فقال: فهل سَمَّانِي لكَ؟ قال: لا، قال: فهنا أنبياءٌ غَيري أقوياءُ أمناءُ، فألَحُّوا عليه فخرجَ مُغاضباً للنبيِّ والملكِ ولقومه.

فأتى بحرَ الرُّوم، فإذا سفينةٌ مشحونةٌ فركِبَ مع أصحابها، فلما صارت في لُجَّةِ البحرِ انكفأَتْ حتى كادوا يغرَقون، فقال الملاَّحون: ها هنا عبدٌ آبقٌ عاصٍ، فاقترعُوا، فمَن وقعت عليه القرعةُ ألقيناهُ في البحرِ، لئن يغرقَ واحدٌ منَّا خيرٌ مِن أن تغرقَ السفينةُ بما فيها. فاقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعةُ كلُّها على يونسَ، فقال يونسُ: أنا الرجلُ العاصي والعبدُ الآبقُ، وألقَى نفسَهُ في الماءِ. فجاءَ حوتٌ فابتلعه، ثُم جاء حوتٌ آخر أكبرَ منه فابتلعَ الحوتَ أيضاً. فأوحَى الله إلى الحوتِ لا تُؤْذِي منه شعرةً، فإنِّي قد جعلتُ بطنَكَ سِجْنَهُ، ولَم أجعلْهُ رزقاً لكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ ، بالعقوبةِ، يقال قَدَرَ اللهُ الشيءَ وقَدَّرَهُ؛ أي قَضَاهُ. وَقِيْلَ: معناه: فظَنَّ أن لن نُضَيِّقَ عليه السجنَ، من قولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾[1] أي ضُيِّقَ، وقولهِ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[2]، وقد

---

(١) الطلاق / ٧ .

(٢) الروم / ٣٧ .

ضَيَّقَ اللهُ على يونس أشدَّ تضييقٍ. وَقِيْلَ: معناهُ: (فَظَنَّ أنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) ما قَدِرْنَا من كونه في بطنِ الحوت.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (هِيَ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ)(١)، وقال سالِمُ ابن أبي الْجَعْدِ: (كَانَ حُوتاً فِي بَطْنِ حُوتٍ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ ؛ أي الظَّالِمين لنفسي في خُروجي من قومي قبلَ الإذن. قال الحسنُ: (وَهَذا مِنْ يُونُسَ اعْتِرَافٌ بذَنْبِهِ، وَتَوْبَتِهِ مِنْ خَطِيْئَتِهِ، تَابَ إلَى رَبهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَرَاجَعَ نَفْسَهُ). قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إلاَّ فَرَّجَ اللهُ عَلَيْهِ، كَلِمَةُ أخِي يُونُسَ: لاَ إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ](٣).

وقال وهبُ بن منبه: (إنَّ يونسَ بن متَّى عليه السلام كان عبداً صالحاً، وكان في خُلُقِهِ ضيقٌ، فلمَّا حُملَتْ عليه أثقالُ النبوَّة، تفسَّخَ تحتَها تفسُّخَ الربعِ تحت الحملَ الثقيل فقذفَها بين يديهِ، وخرجَ هارباً منها(٤) فلذلكَ أخرجَهُ اللهُ من أوْلِي العَزْمِ قال اللهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(٥) وقال ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾(٦) أي لا تَلْقَ قَوْلِي كما أَلقاهُ)(٧). قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَظَنَّ أنْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧١٦).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧١٩). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٦٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن جرير)).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٧٠. والترمذي في الجامع: كتاب الدعوات: الحديث (٣٥٠٥). والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء والتكبير: باب من دعا بدعوة ذي النون: الحديث (١٩٠٥) وصححه. وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص١٥٩؛ قال الهيثمي: ((رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد وأبو يعلى وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير إبراهيم بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص، وهو ثقة)).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(١٨٧٠٤). والربع: ولد الناقة أول ما يحمل عليه.

(٥) الأحقاف / ٣٥ . (٦) القلم / ٤٨ .

(٧) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٥١-٨٥٢.

لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) أي ظَنَّ أن لـن نَقْضِيَ عليـه بمـا قضَينـا مـن العقوبـةِ، ودليلـهُ قـراءة الزهريِّ: (أنْ لَنْ نُقدِّرَ عَلَيْهِ) مُشدَّداً. وقرأ عبيدُ بن عمير: (يُقدَّرَ عَلَيْهِ) بالتشديد على الْمَجهُول.

واختلَفُوا في مُدَّةِ لَبْثِهِ في بطنِ الحوت، فقيلَ: أربعونَ يوماً، وَقِيْـلَ: سبعةُ أيَّام، وَقِيْلَ: ثلاثةُ أيَّام، وأمسكَ اللهُ نَفْسَهُ فلم يقتلْهُ هناكَ. وروى أبو هريرةُ عن رسـول الله ﷺ قال: [لَمَّا أَرَادَ اللهُ حَبْسَ يُونُسَ فِي بَطْنِ الْحُـوتِ أَوْحَـى اللهُ إلَـى الْحُـوتِ: أَنْ خُذْهُ وَلاَ تَخْدِشْ لَهُ لَحماً وَلاَ تَكْسِرْ لَهُ عَظْماً. فَأَخَذَهُ ثُمَّ هَـوَى بِـهِ إلَـى مَسْكَنِهِ فِـي الْبَحْرِ، فَلَمَّا انْتَهَى بِهِ إلَى أسْفَلِ الْبَحْرِ سَمِعَ يُونُسُ حِسّاً، فَقَالَ فِي نَفْسِـهِ: مَـا هَـذا ؟ فَأَوْحَى اللهُ إلَيْهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: أنَّ هَذا تَسْبِيْحُ دَوَاب الْبَحْرِ، قال: فَسَبَّحَ وَهُـوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَسْبِيْحَهُ، فَقَـالُوا: رَبَّنَـا إنَّـا سَـمِعْنَا صَوْتـاً ضَعِيْفـاً بأَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟ قَالَ: ذلِكَ عَبْدِي يُونُسُ عَصَانِي فَحَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، قَالُوا: الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ لَهُ إلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَـةٍ عَمَـلٌ صَـالِحٌ؟ قَـالَ: نَعَـمْ. فَشَفَعُوا لَهُ، فَأَمَرَ اللهُ الْحُوتَ، فَقَذَفَهُ عَلَى السَّاحِلِ وَهُوَ سَقِيْمٌ][١].

وعن ابن عبَّاس قالَ: (أتَى جِبْرِيْلُ إلَى يُونُسَ فَقَـالَ: انْطَلِـقْ إلَـى أهْـلِ نِيْنَـوَى فَأنْذِرْهُمْ أنَّ الْعَذابَ قَدْ حَضَرَهُمْ، قَالَ: حَتَّى الْتَمِسَ دَابَّـةً، قَـالَ: الأَمْـرُ أعْجَـلُ مِـنْ ذلِكَ، فَانْطَلَقَ إلَى السَّفِيْنَةِ فَرَكِبَهَا فَأَخْشَبَتِ السَّفِيْنَةُ، فَسَـاهَمُوا فَخَـرَجَ السَّـهْمُ عَلَيْـهِ، فَجَاءَ الْحُوتُ يُبَصْبِصُ بذنَبِهِ فَالْتَقَمَهُ، فَنُودِيَ الْحُوتُ: إنَّا لَمْ نَجْعَلْهُ رِزْقـاً لَـكَ، وَإنَّمَـا جَعَلْنَاكَ لَهُ سِجْناً، وَانْطَلَقَ الْحُوتُ مِنْ ذلِكَ الْمَكَانِ حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى الأيْكَـةِ، ثُـمَّ مَـرَّ عَلَى دِجْلَةَ)[٢].

وكَانَ ابنُ عبَّاس يقولُ: (كَانَتْ رسَالَةُ يُونُسَ بَعْدَ مَا نَبَذهُ الْحُوتُ، وَدَلِيْـلُ هَـذا أنَّ اللهَ ذكَرَ قِصَّةَ يُونُسَ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ، ثُمَّ عَقَّبَهَا بقَوْلِهِ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إلَى مِائَةِ أَلْفٍ أوْ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الحديـث (١٨٧٢٣). وفي مجمـع الزوائـد: ج ٧ ص٩٨؛ قـال الهيثمي: ((رواه البزار عن بعض أصحابـه ولم يسمعه، وفيـه ابـن إسـحق وهـو مدلـس، وبقيـة رجاله رجال الصحيح)).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٣٧٠٩).

يَزِيدُونَ﴾[(١)]). وقال آخرون: بل كانت قصةُ الحوتِ بعد دعائهِ قومَهُ، وتبليغهِ الرسالةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ ؛ أي أجَبْنَا دعوته ونَجَّيْنَاهُ من تلك الظُّلمات، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ ؛ إذا دَعَوْنِي، كما نَجَّينا ذا النُّون. قال رسولُ اللهِ ﷺ: [اسْمُ اللهِ إذا دُعِيَ بِهِ أجَابَ، وَإذا سُئِلَ بِهِ أعْطَي: دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى] قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ هِيَ لِيُونُسَ خَاصَّةً أمْ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِيْنَ؟ قَالَ: لِيُونُسَ خَاصَّةً، وَلَهُ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ عَامَّةً، أدْعُوا بهَا، ألَمْ تَسْمَعْ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى (وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)][(٢)].

واختلفَتِ القراءاتُ في قولهِ (وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)، قرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: (نُجِّي الْمُؤْمِنِيْنَ) بنون واحدةٍ وتشديد الجيمِ وتسكين الياءِ. وجميعُ النحويين حَكَمُوا على هذه القراءةِ باللَّفظِ، وقالوا: هي لَحْنٌ، ثُم ذكرَ الفرَّاء لَها وجهاً فقالَ: أضْمَرَ الْمَصْدَرَ فِي (نُجِّي) أي نُجِّيَ النَّجاءُ الْمُؤْمِنِيْنَ[(٣)]، كَقَوْلِكَ: ضَرَبْتُ الضَّرْبَ زَيْداً عَلَى إضْمَارِ الْمَصْدَرِ؛ أي ضُرِبَ الضَّرْبَ زَيْداً، وقال الشاعر[(٤)]:

وَلَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ ... لَسُبَّ بذلِكَ الْجَرْوِ الْكِلاَبَا

ومِمن صوَّبَ هذه القراءةَ أبو عُبيد، وأما أبو حاتم السَّجستانيُّ فإنه لَحَنَها ونسبَ قارئها إلى الجهلِ وقال: (هَذا لَحْنٌ لاَ يَجُوزُ فِي اللُّغَةِ، وَلاَ يُحْتَجُّ بِمثْلِ ذلِكَ الْبَيْتِ عَلَى كِتَاب اللهِ، إلاَّ أنْ تَقُولَ: وَكَذلِكَ نُجِّيَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَوْ قَرأ ذلِكَ لَكَانَ صَوَاباً).

قال أبو علي الفارسيُّ: (هَذا إنَّمَا يَجُوزُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ، فَإنْ قِيلَ: لِمَ كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ بِنُونٍ وَاحِدَةٍ؟ قِيلَ: لأنَّ الثَّانِيَةَ لَمَّا سُكِّنَتْ وَكَانَ السَّاكِنُ غَيْرَ ظَاهِرٍ

---

(١) الصافات / ١٤٧ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٢٤). والحاكم في المستدرك: كتاب الدعاء: الحديث (١٩٠٨).

(٣) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٠؛ قال الفراء: (ضُرِبَ الضَّرْبُ زَيداً، ثُمَّ تُكَنِّي عَنِ الضَّرْبِ فَتَقُولُ: ضُرِبَ زَيداً. وَكَذلِكَ نُجِّيَ النَّجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ).

(٤) قُفَيْرَةُ كجُهَينة: أمُّ الفرزدق. والبيت لجرير يهجو به الفرزدق.

عَلَى اللِّسَان حَذفَهُ، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي (ألاَّ) فَحَذفُـوا النُّـونَ مِـنْ (أنْ لاَ) لخفائـها إذا كَانَتْ مُدْغَمَةً فِي اللاَّمِ)[١].

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي وَاذكُرْ دعاءَ زكريَّا إذْ نَادَى رَبَّهُ فقالَ رب لا تترُكْني وحيداً؛ أي ارزُقْنِي ولداً آنَسُ به ويعينني على أمرِ الدِّين والدُّنيا، ويقومُ بأمرِ الدين بعد وفاتِي، وأنتَ وارثُ جميعِ الخلقِ؛ لأنَّ مردَّهم صَائرُون إليكَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ ؛ أي فَأَجَبْنَا له دعاءَه هذا، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ ؛ عَقْرَ امرأتِهِ، قال قتادةُ: (كَانَتْ عَقِيْماً فَجَعَلْنَاهَا وَلُوداً)[٢]، وَقِيْلَ: كانت سَـيِّئَة الْخُلُقِ فرزَقَها اللهُ حُسن الْخُلقِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ؛ أي يُبَادِرُونَ إلى الطاعات مخافةَ أن يَعْرِضَ لَهم مـا يَشْـغَلُهُمْ عنـها، ويعـني بذلـكَ زكريَّـا وامرأتَـهُ ويَحيى، وقال بعضُ المفسِّرين: الكنايةُ تعود على الأنبيـاءِ الذيـن ذكَرَهـم اللهُ في هـذه السورةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ؛ أي طَمَعاً في ثوابنا وخوْفاً من عقابنا، ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ أي خاضِعين حَذِرينَ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ ؛ وهـي مَرْيَـم بنـتُ عِمْـرَانَ، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ؛ أي نَفَـخَ جـبريلُ في جَيْـب دِرعِـهَا بأمرِنـا، والمعنى: وَاذكُرِ التي حَفَظَتْ فرجَها مما لا يحلُّ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي دلالةً للعالَمين من حيث أنَّها جاءت بالولدِ من غير بَعْلٍ، تكلَّم في المـهدِ بما يوجبُ بـراءةَ شأنِها من العيب، وفي ذلك دليلٌ على مَقْدُورَاتِ اللهِ، وعلى هذا لَم يقـل آيَتَـينِ؛ لأنَّ شأنَهما في الدلالةِ كان واحداً.

---

(١) في الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٦٠. وينظر: جامع البيـان: ج ١ ص١٠٨. وهـو مـن كـلام الطبري وليس من نص عبارة أبي علي الفارسي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٢٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ والحسن: (مَعْنَاهُ إنَّ هَذا دِيْنَكُمْ دِيْنٌ وَاحِدٌ)[١] والأُمَّةُ الدِّيْنُ، ومنهُ قولُهُ ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾[٢] أي على دِيْنٍ. الأصلُ أنه يقالُ للقومِ الذين يجتمعون على دِيْنٍ واحد: أُمَّةٌ، فتقوم الأُمَّةُ مقامَ الدِّين. وهو نُصِبَ على الحالِ؛ أي حالَ اجتماعها على الحقِّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ ؛ أي لا دِيْنَ سِوَى ديني ولا ربَّ غيري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ معناهُ: كان أمرُهم في الدِّين واحداً، ولكن تفرَّقُوا واختلفوا بما لا يجوزُ؛ وهم اليهودُ والنصارى والْمَجوس. قَوْلُهُ تَعَالَى: (كُلٌّ إلَيْنَا رَاجِعُونَ) أي جميعُ أهلِ هذه الأديان راجعون إلى حُكْمِنا يومَ القيامةِ، فنجزيَهم بأعمالِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ ؛ أي لا جُحُودَ لعملِه، بل يتقبَّلُها اللهُ ويُثْنِي عليها، والمعنى: لا يَمْنَعُ ثوابَ عملِه، ولا يَجْحَدُ إحسانَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي نَأْمُرُ الْحَفَظَةَ أن يكتُبوا لذلكَ العاملِ عملَهُ لنجازيَهُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي واجبٌ على كلِّ قرية اذا أُهْلِكَتْ لا ترجعُ إلى دُنياهَا. قال الكلبيُّ: (يَعْنِي بقَوْلِهِ (أهْلَكْنَاهَا) عذبْنَاهَا أنَّهم لا يرجعونَ إلى الدُّنيا). والمعنى: أنَّ الله تعالى حَكَمَ على مَن أُهْلِكَ أن يبقَى في الأرضِ مدفوناً إلى يومِ القيامة، وأن لا يرجعَ إلى الدُّنيا. قرأ حمزةُ والكسائي: (وَحِرْمٌ) بكسرِ الحاء وجزمِ الراء من غير ألِفٍ، وهما لُغتان مثل حِلٌّ وَحِلاَّنٍ[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٣٠) عن ابن عباس. والأثر (١٨٧٣١) عن مجاهد.

(٢) الزخرف / ٢٢ .

(٣) ينظر: جامع البيان: مج ١٠ ج١٧ ص١١٣. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٦١.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ ؛ أي إذا فُتحت جهة يأجوجَ ومأجوج، وفتحُها إخراجُها من السدِّ. قرأ ابنُ عامر ويعقوب: (فُتِّحَتْ) بالتشديدِ على التكثير.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي من كلِّ أكَمَةٍ ورَبْوَةٍ مرتفعةٍ من الأرض يخرجون بإسراع، والْحَدَبُ: الارتفاعُ ومنه الْحَدَبَةُ خروجُ الظَّهرِ، وتبيِّنهُ. والنُّسُولُ: هو الخروجُ بسرعةٍ كَنَسَلاَنِ الذِّئب يعني مشيه اذا أسرعَ فيها.

والمعنى: أنَّهم مِن كلِّ نَشْزٍ من الأرضِ يُسرعون ويتفرَّقون في الأرض، فلا يُرَى أكمةٌ إلاَّ وفوقَها قومٌ منهم يهبطون منها مُسرعينَ، فلا يَمرُّونَ بماءٍ إلاّ شَربُوهُ ولا بشيءٍ إلاّ أفسدوهُ.

قال المفسِّرون: أولادُ آدمَ عشرةُ أجزاءٍ، تسعةٌ يأجوجُ ومأجوجُ، وقد ذكرنا قصَّتَهم في سورةِ الكهف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ ؛ قِيْلَ: إن الواوَ ها هنا مُقْحَمَةٌ، والمعنى: حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ، يكون ذلكَ عندَ اقتراب السَّاعة، وذكَرَ الوعدَ والمراد به الْمَوْعِدَ.

رُوي عن حذيفةَ ﷺ أنَّهُ قالَ: (لَوْ أنَّ رَجُلاً اقْتَنَى فُلُوّاً[١] بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَمْ يَرْكَبْهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ؛ أي تَشْخَصُ أبصارُهم يومَ القيامة نحو الجهةِ التي يتوقَّعون نزولَ العذاب بهم منها. وَقِيْلَ: خَشَعَتْ أبصارُهم من شدَّة الأهوال ذلكَ اليوم. قال الكلبيُّ: (شَخَصَتْ أبْصَارُهُمْ فَلاَ تُطِيْقُ تَطْرُفُ مِنْ شِدَّةِ الأَهْوَالِ)، فأما الضميرُ في قولهِ (فَإذا هِيَ شَاخِصَةٌ) يعودُ إلى معلومٍ

---

(١) الفَلُوُّ: بتشديد الواو: الْمُهْرُ، والأنثى (فَلُوَّة). وعند الطبري بلفظ: [افْتَلَى فَلُوّاً] أي نتجها.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٥٨). وذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٥٤. والسيوطي في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٧٨.

قد بَيَّنَهُ وهو قولهُ (أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا)، كقول الشاعر[١]:

لَعَمْرُ أبِيْهَا لا تَقُولُ ظَعِيْنَتِي ... إلاَّ فَرَّ عَنِّي مَالِكُ بْنُ أبي كَعْب

فكنى عن الظعينة ثم أظهرها[٢] ويكونُ تقديرُ الكلام: فإذا الأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا. وَقِيْلَ: يكون قوله (هِيَ) عمادٌ مثلُ قوله ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾[٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ ﴾ ؛ أي قالوا يا وَيْلَنَا؛ ﴿ قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ ؛ اليومِ في الدُّنيا، ﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ لأنفسِنا بالكفر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ معناه: إنَّكم يا أهلَ مكَّة وما تعبدون من الأصنام وَقُودُ جهنَّم. والْحَصَبُ في اللغة: هو كُلُّ ما يُرمى به، يقال: حَصَبَهُ بالْحَصَا إذا رماهُ بها، وفي القراءةِ الشاذة: (حَضَبُ جَهَنَّمَ) وهي قراءةُ[٤] ابن عبَّاس، والْحَضَبُ: ما يُهَيَّجُ به النارُ، ومنه قيلَ لدِقَاقِ النار حَضَبٌ. وقرأ عليٌّ وعائشةُ: (حَطَبُ جَهَنَّمَ)[٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) أي فيها خالدون، والحكمةُ في إدخال الأصنام النارَ مع أنَّها لا ذنْبَ لَها في عبادةِ مَن يعبدُها: أن يُقصدَ بإدخالِها تعذيبُ عُبَّادِهَا، فما كان منها حَجَراً أو حديداً يُحْمَى فَيَلْتَزِقُ بعُبَّادها، وما كان منها خَشَباً جُعِلَ جَمْرَةً فيعذبون بها، أو يكون في إدخالِ معبُودِهم معهم في النار زيادةَ ذُلٍّ وصَغَارٍ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ ؛ اسْتِجْهَالاً لَهم في عبادة الأصنام؛ أي لو كان الأصنامُ آلِهَةً كما يزعمُ الكفار ما وَرَدُوهَا؛ أي دخلَ عابدُوها النارَ، ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ يعني العابدُ والمعبودُ.

---

(١) هو من شواهد الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٢. ومالك بن كعب قاله في حرب كانت بينه وبين رجل من بني ظفر.

(٢) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٢؛ قال الفراء: (فذكر الظعينة وقد كنى بها في (لعمرِ)).

(٣) الحج / ٤٦ . ينظر: معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص٢١٢.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٦٨).

(٥) ينظر: جامع البيان: مج ١٠ ج١٧ ص١٢٣-١٢٤؛ ذكره الطبري قال: (وروي عن علي وعائشة أنهما كانا يقرءان ذلك).

قَوْلُــهُ تَعَـــالَى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ الزَّفِيْرُ شِدَّةُ النَّفَسِ بهَوْلِ ما يردُ على صاحبهِ، وهم فيها لا يَسْـمَعُونَ شيئاً، ولا يرَى أحدٌ منهم أنَّ في النار أحداً يُعَذبُ غيرهُ. قال ابنُ مسعودٍ: (يُجْعَلُونَ فِي تَوَابيتَ مِنْ نَارٍ، ثُمَّ جُعِلَتْ تِلْكَ التَّوَابيْتُ فِي تَوَابيْتَ أخْرَى فَلاَ يَسْمَعُونَ شَيْئاً)[1].

وعن رسول الله ﷺ: أنَّهُ أتَى قُرَيْشاً وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ مُجْتَمِعُونَ وَحَوْلَهُمْ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً مَصْفُوفَةً، لِكُلِّ قَوْمٍ صَنَمٌ لَهُمْ، فَقَالَ ﷺ: [إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وَاردُونَ] ثُمَّ ذهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذلِكَ، فَأَتَاهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى فَرَآهُمْ يَتَهَامَسُونَ، فَقَالَ: فِيْمَ حَوْصُكُمْ؟! فَأَخْبَرَهُ الْوَلِيْدُ بْنُ الْمُغِيْرَةِ بمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزِّبَعْرَى: أمَا وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ.

فَدَعَوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزبعرى: أنْتَ قُلْتَ أنَّا وَمَا نَعْبُدُ فِي النَّار ؟ قَالَ: خَصَمْتُكَ وَرَب الْكَعْبَةِ، ألَيْستِ الْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْراً، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيْحَ، وَبَنِي مَلِيْح يَعْبُدُونَ الْمَلاَئِكَةَ ! أفتَرَى أنَّ هَؤُلاَءِ لاَ يَكُونُونَ فِي النَّار؟ فَبَيَّنَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ تَعَالَى أرَادَ بهِ الأَوْثَانَ. وفي الآية ما يدلُّ على ذلكَ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى (وَمَا تَعْبُدُونَ) لا يكون إلاَّ لِمَا لا يعقلُ، إذ لو أرادَ الملائكةَ والناسَ لقال (وَمَنْ تعبدون)[2]. ثُم أنزلَ اللهُ تعالى:

قَوْلُــهُ تَعَـــالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ هم الذين سَبَقَتْ لَهم مِنَّا الْحُسْنَى؛ أي وَجَبَتْ لَهم العِدَةُ من اللهِ تعالى بالبُشرى والسعادة.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٧٧٠). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٣٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: الحديث (١٢٧٣٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٩٦؛ قال الهيثمي: ((وفيه عاصم بن بهدلة وقد وثق وضعفه جماعة)).

ويدخلُ في هذه الآية جُملة المؤمنين؛ لما رُوي أنَّ عثمان[(١)] سَمعَ علياً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يقرأ هذه الآيةَ (إنَّ الَّذِينَ سبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) قال: (أنَا مِنْهُمْ وَأبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ وَسَعِيْدُ وَعَبْدُالرَّحْمَنِ وَأبُو عُبَيْدَةَ)[(٢)]. وقال الجنيدُ: (سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْعِنَايَةُ فِي الْهِدَايَةِ، فَظَهَرَتِ الْوِلاَيَةُ فِي النِّهَايَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) مُنَحَّوْنَ عن النار، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ ؛ أي حِسَّهَا وحركةَ تلهُّبها، والمعنى: لا يسمعون صوتَ النار، ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ أي فِي مَا اشْتَهَتْ أنفُسُهُمْ من نعيمِ الجنَّة مقيمون دائمون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ ؛ قال أكثرُ المفسِّرين: يعني إطباقَ جهنَّم على أهلِها، وقال ابنُ عباس: (النَّفْخَةُ الأَخِيْرَةُ). وَقِيْلَ: هو ذبحُ الموتِ بين الفريقين. وَقِيْلَ: هو حين يؤمرُ بأهلِ النار إلى النار، وذلك حين يقالُ ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[(٣)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ؛ أي بالتَّهنئةِ على باب الجنَّة، فيقولون لهم: ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ: (السِّجِلُّ هُوَ الصَّحِيْفَةُ تُطْوَى بمَا فِيْهَا مِنَ الْكِتَابَةِ) واللاَّمُ في قوله (لِلْكُتُب): بمعنى (على)، وقال السديُّ: (هُوَ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالصُّحُفِ، إذا مَاتَ الإنْسَانُ رُفِعَ كِتَابُهُ إلَيْهِ فطَوَاهُ). وَقِيْلَ: إن السِّجِلَّ كاتبٌ لرسولِ الله ﷺ. ويقالُ: هو الرجلُ بلغة الحبشَة.

---

(١) في الكشف والبيان:ج٦ ص٣١٠؛ قال الثعلبي:(عن ابن عم النعمان بن بشير وكان من سمَّار علي – قال...) وذكره. وفي جامع البيان:: الأثر (١٨٧٧١): (عن محمد بن حاطب وقال: عثمان منهم).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٣٦). وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٨١؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي حاتم وابن عدي وابن مردويه)).

(٣) يس / ٥٩ .

قرأ أبو جعفر: (تُطْوَى السَّمَاءُ) بالتاء، ورفعَ (السَّمَاءُ) على ما لَم يُسَمَّ فاعلُـهُ. وقرأ أهلُ الكوفة: (لِلْكُتُب) على الجمعِ.

والمرادُ بطيِّ السَّماءِ أنَّ اللهَ تعالى يَطْويْهَا، ثُم يفتحُها ثم يُعيدها، ولذلـك قـال: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ ؛ أي كما بدأناها أوَّلَ مرَّة، نعيدُها إلى الحالـةِ الأُولى. ويجوزُ أن يكون معنى قولهِ (كَمَا بَدَأْنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) نعيدُ الخلقَ للبعثِ كما بدأناهُ في النُّطفةِ، ودليلُ هذا القول قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1].

والطَّيُّ في هذه الآيةِ يحتملُ معنيين؛ أحدهما: الدَّرْجُ الذي هو ضِدُّ النَّشْرِ، قَـالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ﴾[2]. والثَّـانِي: الإخفـاءُ والتَّعْمِيَـةُ والْمَحْـوُ والطَّمسُ؛ لأن اللهَ تعالى يَمحُو رسُومَها ويُكْدِرُ نُجومَها. وَقِيْلَ: معنى قولهِ تعالى (كَمَا بَدَأنَا أوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ): كمـا بدأنـاهُم في بطُـونِ أمَّهاتِـهم حفـاةً عُـراة غُـرْلاً، كذلـك نعيدُهم يومَ القيامةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾ ؛ نُصِبَ على المصـدر بمعنـى: قـد وَعَدْنَـاهم هذا وَعْداً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ ما وعَدْنَـاكم مِـن ذلـك، وَقِيْلَ: فاعلينَ الإعادةَ والبعثَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي كَتَبْنَا في زَبُور داودَ مِـن بعـدِ تـوراةِ مُوسـى. وقال ابـنُ عبَّـاس والضحَّـاك: (الذِّكْـرُ التَّـوْرَاة، وَالزَّبُـورُ الْكُتُـبُ الْمُنَزَّلَـةُ مِـنْ بَعْـدِ التَّوْرَاةِ)[3]. وَقِيْلَ: الزبورُ زبورُ داود، والذِّكْرُ الفرقانُ، و(بَعْدِ) بمعنـى (قَبْـلِ) كقولـهِ تعالى ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾[4] أي أمَامَهُم، وقولهُ ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحَاهَا﴾[5] أي قَبْلَ ذلك. قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) يعني أرضَ الجنَّـة يرثُـها عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ مِن أمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ. وَقِيْلَ: جميعُ المؤمنينَ العاملين بطاعة الله .

---

(١) الأعراف / ٢٩ . (٢) الزمر / ٦٧ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٠٤-١٨٨٠٥).

(٤) الكهف / ٧٩ . (٥) النازعات / ٣٠ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ في هذا القُرْآنِ بلاغاً للكفاية، والمعنى: أن من اتبع القرآن وعمل به كان بلاغـهُ في الجنَّـة، وقولهُ تعالى(لِقَوْمٍ عَابدِينَ)؛ قال كعبٌ: (هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِيْنَ يُصَلُّـونَ الصَّلَـوَاتِ الْخَمْس، وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ)[1]. ورُوي: أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـرَأ (إنَّ فِـي هَـذا لَبَلاَغاً لِقَوْمٍ عَابدِينَ)، ثُمَّ قَالَ: [هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِـي الْجَمَاعَـةِ فِـي الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ][2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ معنـاهُ: وَمَـا أرْسَلْنَاكَ يا مُحَمَّدُ إلاَّ نِعْمَةً للعالَمين . قال ابنُ زيد: (يَعْنِي لِلْمُؤْمِنِيْنَ خَاصَّـةً)، وقـال ابنُ عبَّاس: (هُوَ عَامٌّ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ كُتِبَ لَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ، وَمَـنْ لَـمْ يُؤْمِنْ عُوفِيَ مِمَّا أصَابَ الأُمَمَ مِنَ الْمَسْخِ وَالْخَسْفِ وَالْغَرَق)[3]. والمعنى: أنهُ كان إذا أرْسِلَ نبيٌّ من الأنبياءِ؛ فإنْ آمَنَ به قومهُ وإلاَّ عُذِّبوا، وأرسل النبيُّ ﷺ فكان كـلُّ مَـن كفرَ به يؤخَّرُ إلى يومِ القيامة فهو نعمةٌ على الكـافرِ إذ عُوفِـيَ ممـا أصـابَ الأمـمَ مـن المسخِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: إنَّما يُوحَـى إلَيَّ في القُرْآن؛ ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ وهو اللهُ لا شريكَ له؛ ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يا أهلَ مكَّة مُسلمونَ مُخلصون لهُ بالعبادة والتوحيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ ؛ أي فإنْ أعرَضُوا عـن قبـولِ قولِـكَ، ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ ؛ أي أعلمْتُكم بالوحي من اللهِ على سـواءٍ في الإعـلامِ؛ أي لَم أظْهِرْ بعضَكم على شيءٍ كتمتهُ عن غيرهِ. وَقِيْلَ: عَلَى سَوَاءٍ في العلمِ، إنِّـي حـربٌ لكم لا صُلْحَ بيننا، وإنِّي مخالفٌ لدِينكم فتأهَّبوا لِمـا يُـراد بكـم؛ إذ ليـس العِنَـادُ مـن أخلاقِ الأنبياء صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨١٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٥ ص٦٨٧؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن مردويه)).

(٣) أخرجـه الطـبري في جـامع البيـان: الأثـر (١٨٨٢٠). وفي الـدر المنثـور: ج ٥ ص٦٨٧؛ قـال السيوطي:(أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في الدلائل).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ أي مَا أدْري متى توعدون به من العذاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ معناهُ: إن اللهَ يعلمُ ما تُعْلِنُونَ به من القول، ويعلمُ ما تَكْتُمُونَ من سرِّكم، لا يغيبُ مِن عِلْمِهِ شيءٌ منكم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ ؛ أي ومَا أدْري لعلَّ تأخيرَ العذاب اختبارٌ لكم؛ ليَرى كيفَ صُنْعُكُمْ، ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ آجالِكُم؛ أي تُمتَّعون إلى انقضاءِ آجالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي قُل لَهم يا مُحَمَّدُ: رب احْكُمْ بعذاب أهلِ مكَّة الذي هو حقٌّ نازلٌ بهم، والحقُّ: ها هُنا هو العذابُ، كأنه استعجلَ العذابَ لقومه، فعُذّبُوا يومَ بدر. قال قتادةُ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا شَهِدَ قِتَالاً قَالَ: [رَب احْكُمْ بالْحَقّ])[1]، قال الكلبيُّ: (فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بالْقَتْلِ يَوْمَ بَدْر، وَيَوْمَ الأَحْزَاب، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ، وَيَوْمَ الْخَنْدَقِ). والمعنى: أفْصِلْ بَيْنِي وبين المشركين بما يظهرُ به مِن الحقِّ للجميعِ.

وقرأ حفصٌ: (قُلْ رَب احْكُمْ بالْحَقّ) على الخبر؛ أي قالَ الرسولُ ذلك. وقرأ الضحَّاك ويعقوب: (قِيْلَ رَب احْكُمْ بالْحَقّ) بإثبات الياءِ على وجه الخبر؛ أي هو أحكَمُ الحاكِمين، وكيفَ يجوزُ أن يسألَهُ أن يَحْكُمَ بالحقِّ، وهو لا يحكمُ إلاّ بهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي على كَذِبكُمْ وباطِلِكم وقولِكم: ما هَذا إلاّ بَشَرٌ مثلُكم، وقولكم: اتَّخَذ الرحمنُ ولَداً. والوَصْفُ بمعنى المكذب كقولهِ تعالى ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾[2]، وقولهِ ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[3].

آخر تفسير سورة (**الأنبياء**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٢٦). وعبدالرزاق في التفسير: ج ٢ ص٣٩٥. وفي الدر المنثور: ج ٥ ص٦٨٩؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة)).
(٢) الأنعام / ١٣٩ .
(٣) الأنبياء / ١٨.

سُورَةُ الْحَجِّ

سورة الحجِّ مَكِّيَّةٌ إلاّ الآياتِ: قولهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ﴾ إلى آخرِ الآيتين، وقولهُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ إلى آخرِ الآيتين، وقولهُ تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ إلى آخرِ هذه السُّورة، فهذه الآياتُ مدنيَّات، وكلُّ شيءٍ في القُرْآنِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾ فهو مَدَنِيٌّ، وكلُّ شيء فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مَكِّيٌّ وفيه مدنيٌّ، ولا يوجدُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾ إلاّ مدنيّاً فقط، هكذا رُوي عن ابنِ عبَّاس.

وعددُ آياتِ السُّورَةِ ثمانٍ وتِسعُونَ آيةً، وخمسةُ آلافٍ وخمسةٌ وتسعُونَ حرفاً، ومِائتَانِ وإحدَى وتِسعونَ كلمةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ يَا أَهْلَ مَكَّةَ اتَّقُوا رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا عِقَابَهُ إنَّ زَلْزَلَةَ قِيَامِ السَّاعة شيءٌ عظيمٌ) أي هَوْلٌ عظيم، لا يوصفُ لفظهُ، والزَّلْزَلَةُ: شدَّةُ الحركةِ مع الحالِ الهائلة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾؛ أي يوم تَرَوْنَ تلك الزَّلْزَلَةَ تَذْهَلُ في ذلك اليومِ كلُّ مُرضعةٍ عمَّا أرْضَعَتْ؛ أي تَنْسَى. وَقِيْلَ: تَشْتَغِلُ، وَقِيْلَ: تترك، يقالُ: ذهلْتُ عن كَذا إذا تركتهُ. وَقِيْلَ: معنى الآية: يوم تَرَوْنَ الزلزلةَ تَشْتَغِلُ كلُّ مرضعةٍ عن ولدِها بغيرِ فطام، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾، وتضعُ الحامل ما في بطنِها لغيرِ تَمام. وهذا إنَّما يكون على وجهِ التَّشبيهِ، والمعنى: أنْ لو كانت ثَمَّ مرضعةٌ لذهِلَتْ عن ولدِها، وحاملٌ لوضعَتْ حَملَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ ﴾ ؛ أي من شِدَّةِ الفَزَعِ والخوف من عذاب الله يتحيَّرون كأنَّهم سُكارى، ﴿ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ ﴾ ؛ من الشَّراب، ﴿ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ والمعنى: ترى الناسَ كأنَّهم سُكارى من ذهُول عقولِهم لشدَّة ما يمر بهم فيضطَربون اضطرابَ السَّكران، وسُكَارَى جمعُ سَكْرَان. وقرأ أهلُ الكوفة (سُكْرَي وسُكْرَى) بغيرِ ألف. قال الفرَّاء: (هُوَ وَجْهٌ جَيِّدٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْهَلْكَى وَالْجَرْحَى وَالْمَرْضَى)(١).

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لآدَمَ: يَا آدَمُ؛ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّار. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ؛ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إلَى النَّار، وَوَاحِدٌ إلَى الْجَنَّةِ. فَعِنْدَ ذلِكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ الْحَامِلُ مَا فِي بَطْنِهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى].

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! أيُّنَا ذلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَبْقَى؟ قَالَ: [أبْشِرُوا؛ إنِّي لأَرْجُو أنْ يَكُونَ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ] ثُمَّ قَالَ: [إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فَكَبَّرْنَا وَحَمَدْنَا، ثُمَّ قَالَ: [إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الْجَنَّةِ] فَكَبَّرْنَا وَحَمَدْنَا(٢)، ثُمَّ قَالَ:[إنِّي لأَرْجُو أنْ تَكُونُوا ثُلُثَي أهْلِ الْجَنَّةِ، وَأهْلُ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفّاً، ثَمَانُونَ مِنْهَا أُمَّتِي](٣) ثُمَّ قَالَ ﷺ: [يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بغَيْرِ حِسَابٍ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفاً] فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مَحِيصٍ: أدْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: [أنْتَ مِنْهُمْ] فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَار فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أدْعُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: [سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ](٤).

---

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾: الحديث (٤٧٤١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٣٤٧. والطبراني في الأوسط: الحديث (٥٤٣). وفي مجمع الزوائد: ج ١٠ ص٤٠٣؛ قال الهيثمي:((هو في الصحيح باختصار رواه أحمد والبزار والطبراني في الثلاثة ورجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وقد وثق)).

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح:كتاب الإيمان: باب موالاة المؤمنين: الحديث (٣٦٧/ ٢١٦ و٣٧١/ ٢١٨ و٣٧٢/ ٢١٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارثِ؛ كَانَ يُكَذِّبُ بالْقُرْآن وَيَزْعُمُ أنَّهُ مِنْ أسَاطِيْرِ الأوَّلِيْنَ، وَكَانَ كَثِيْرَ الْجَدَلِ، وَيَقُولُ: الْمَلاَئِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَيَزْعُمُ أنَّ اللهَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى إحْيَاءِ الْمَوْتَى). والمعنى: ومِن الناسِ مَن يُخاصِمُ في دِين اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا حُجَّةٍ، ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي مُتَمرِّدٍ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ ؛ أي كُتِبَ عليهِ الشيطانُ إضلالَ مَن تولاَّه؛ ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾ وهدايتَهُ إياهُ ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ وقِيْلَ: الهاءُ في قولهِ (كُتِبَ عَلَيْهِ) راجعةٌ إلى مَن يَتَّبعِ الشيطانَ فيتقبَّلَ منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ ؛ معناهُ: يا أهلَ مكة إن كُنتم في شَكٍّ مِنَ البعثِ بعد الموتِ، فتفكَّرُوا في ابتداءِ خَلْقِكُمْ فإنَّ إعادَتَكم ليست بأشدَّ مِن أوَّل خلقِكم، ثم بيَّن ابتداءَ خلقِهم فقالَ: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي خلقنا أباكُم آدمَ، ثُم صوَّرناهُ لَحماً ودَماً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ؛ أي ثُم جعلناكم بعد ذلكَ من النُّطفة التي تكون من الذكر والأنثى، ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقنا ﴿ مِنْ ﴾ تلكَ النطفةِ ﴿ عَلَقَةٍ ﴾ ؛ وهي قطعةٌ من الدمِ ﴿ ثُمَّ ﴾ ؛ جعلنا العلقةَ ﴿ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ ؛ وهي القطعةُ من اللَّحم، تسمَّى مُضْغَةً؛ لأنَّها مقدارُ ما يُمضَغُ من اللَّحم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ ؛ أي تامَّة الخلقِ وغيرِ تامةِ الخلقِ، وَقِيْلَ: مصوَّرةٍ وغيرِ مصوَّرةٍ، وهي السِّقْطُ. قال عبدُالله بنُ مسعود: [إذا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ؛ بَعَثَ اللهُ مَلَكاً يَأْخُذُهَا بكَفِّهِ فَيَقُولُ: يَا رَب مُخَلَّقَةٌ أوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ ؟ فَإنْ قَالَ: غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ؛ مَجَّتْهَا الأَرْحَامُ دَماً، وَإنْ قَالَ: مُخَلَّقَةٌ، قَالَ: يَا رَب أذكَرٌ أمْ أنْثَى؟ وَمَا رِزْقُهَا وَمَا أجَلُهَا ؟ وَشَقِيٌّ أمْ سَعِيْدٌ ؟ وَبأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ؟

فَيَقَالُ لَهُ: اذهَبْ إلَى أمِّ الْكِتَاب فَإنَّكَ تَجِدُ ذلِكَ، فَاسْتَنْسِخْ مِنْهُ صِفَةَ هَذِهِ النُّطْفَةِ، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْتَنْسِخُهَا. فَتُخْلَقُ فَتَعِيْشُ فِي أجَلِهَا، وَتَأكُلُ رِزْقَهَا، حَتَّى إذا جَاءَ أجَلُهَا مَاتَتْ، فَتَذْهَبُ إلَى الْمَكَانِ الَّذِي كُتِبَ لَهَا][1].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٨٨٤٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ؛ أي لِنُبَيِّنَ لكم كمالَ قُدرَتِنا وحُكمِنا في تصريفِنا في الخلقِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي ونَترُكُ في الأرحامِ ما نشاءُ من الولدِ إلى وقت التَّمامِ ولا نُسقِطُهُ. ورُوي عن عاصم: (وَنُقِرَّ) بالنصب على العطف، وقراءةُ الباقينَ بالرفع على معنى: ونَحْنُ نُقِرُّ. قولُهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ ؛ أي ثُم نُخرجُكم من الأرحامِ طِفْلاً صِغاراً، وإنَّما لَم يقل أطفَالاً لأنه لَم يُخْرِجْهُمْ من أمٍّ واحدة، ولكن يُخرجهم من أمَّهات شتَّى، كأنهُ قال: ثُم نخرجُ كلَّ واحدٍ منكم طفلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ ؛ أي ثُم لِنُعَمِّرَكُمْ لتبلغُوا أشُدَّكم بمعنى الكمالِ والقوة، ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ ؛ قبلَ بلُوغِ الأشُدِّ، ﴿ وَمِنكُم مَّن ﴾ ؛ يُعَمَّرُ حتى ﴿ يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ ؛ أي هَوانِهِ وأخسِّهِ وهو الْهَرَمُ والْخَرَفُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ ؛ أي لكَيْلاَ يَعْقِلَ مِن بعد عقله الأوَّلِ شيئاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ ؛ هذه دلالة أخرى تدلهم على إحياءِ الْمَوْتَى بإحياءِ الأرضِ الميتَةِ، والْهَامِدَةُ: هي اليابسةُ الجافَّةُ، كأنه قال: وتَرَى الأرضَ يابسةً جافَّةً ذاتَ تُرابٍ كالنار إذا اطفئت ورمدت، ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ﴾ ؛ أي على الأرضِ، ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ ؛ أي تحرَّكَت بالنباتِ، وازدادت وأضعَفت النباتَ، وذلك أن الأرضَ ترتفعُ على النباتِ، فذلك تحريكُها، وهو معنى قولِهِ (وَرَبَتْ) أي ارتفعَتْ وزَادَتْ وانتفخت للنباتِ، من رَبَا يَرْبُو إذا ازدَادَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾ ؛ أي وأخرجت أكماً من كلِّ لون حَسَنَ البهجةِ، ومِن كلِّ صنفٍ مؤنق العين، والبهيجُ الحسنُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ﴾[1] .

(١) النمل / ٦٠

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ؛ أي ذلك الذي وصفناهُ من تعريفِ الخلق على هذه الأحوال في إحياء الأرضِ الميتة؛ لتعلَمُوا وتُقِرُّوا بأنَّ اللهَ هو المستحقُّ لصفات التعظيمِ، وهو الإلهُ الواحد الذي يقدرُ على كلِّ شيء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى) أي ويدلُّكم على أنه يُحيي الموتى كما أحيَاكم ابتداءً، ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ ، وبأنهُ على كلِّ شيء من الإيجادِ والإعدام قديرٌ، وَ يدلُّكم ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ للحسنات والجزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾ ؛ نزلَتْ في النَّضْر بن الحارثِ أيضاً، وَقِيلَ: نزلت في أبي جهلٍ، ومعناهُ: يجادلُ ليُحِقَّ الباطلَ، ويُبطِلَ ما دلَّ عليه الدليلُ بغيرِ معرفةٍ ودليل ولا كتابٍ منير فيه حُجَّةُ ما يقول.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ ؛ أي لاَوي عُنُقِهِ متكبراً مُعرضاً عن ما يُدْعَى إليه كِبْراً، وهو منصوبٌ على الحال، والمعنى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ متكبِراً شامِخاً بأنْفهِ، ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي عن دِين الله وطاعته.

وقولُهُ تعالى: ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ ؛ أي عقوبةٌ بالْمَذمَّةِ والقتلِ، ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي عذابَ النار، فقُتِلَ النَّضرُ بن الحارث يومَ بدرٍ أسيراً، ومَن قال: نزلت في أبي جهلٍ فهو قُتِلَ أيضاً يوم بدر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ ؛ مبالغةٌ في إضافةِ الْخِزْي إليه، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، فإن قِيْلَ: لِمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (بظَلاَّمٍ) على صفةِ المبالغة وهو لا يظلمُ مثقالَ ذرَّة ؟ فقيل: تعالى إنه لو فعَلَ أقلَّ قليلِ الظُّلم، لكان عظيماً منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَاتُ فِي أنَاسٍ مِنْ بَنِي أسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، أصَابَتْهُمْ سَنَةٌ شَدِيْدَةٌ فَأجْدَبُوا فِيْهَا، فَمَضَوا بعِيَالِهِمْ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ إلَى الْمَدِيْنَةِ مُهَاجِرِيْنَ، فَكَانُوا إذا أعْطُوا مِنَ

الصَّدَقَةِ، وَأصَابُوا خَيْراً اطْمَأنُّوا بذلِكَ وَفَرِحُوا بِهِ، وَإنْ أصَابَهُمْ وَجَعٌ وآفَـةٌ، وَوَلَـدَتْ نِسَاؤُهُم الْبَنَاتِ، وَتَأخَّرَتْ عَنْهُمُ الصَّدَقَةُ، قَالُوا: مَا أصَابَنَا مُذْ كُنَّا عَلَى هَذا الدِّيْـنِ إلاَّ شَرٌّ، فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِيْنِهِ، وَذلِكَ الْفِتْنَةُ)[١].

ومعنى الآيَةِ (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ) أي على ضَعْفٍ في العبادةِ، لضَعْفِ القيامِ على الأحْرُفِ لا يدخلُ في الدِّين على ثبـاتٍ وتَمَكُّـنٍ. وَقِيْـلَ: معناهُ: على شَكٍّ كأنه قائمٌ على حَرْفِ جدارٍ وطرفِ جَبَلٍ، لا يدخلُ في الدِّيـن علـى ثبـاتٍ ويقـين وطُمأنينـة، فـهو كـالمضطرب علـى شـفا جُـرْفٍ، ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ﴾؛ رخاءً وعافية وسعة، ﴿ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ على عبادةِ الله بذلـك الخيـر، ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾؛ أي مِحْنَةُ تَضْيِيقِ الْعَيْشِ ونحو ذلك، ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾؛ أي رجعَ إلى دينه الأوَّل وهو الشِّرْكُ باللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ﴾؛ أي خَسِرَ في الدُّنيا العزَّ والغنيمة، وفي الآخرة الجنَّـةَ، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾؛ أي الظاهرُ. قرأ الأعرجُ ويعقوبُ:(انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَاسِراً الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) بـالألف (وَالآخِرَةِ) بالخفض، ونَصَبَ (خَاسِرَ) على الحال[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾؛ أي يعبدُ مِن دون الله مـا لا يضـرُّهُ إن تـركَ عبادتَـهُ، ولا ينفعـهُ إن عَبَـدَهُ، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾؛ عـن الحـقِّ والرُّشْـد، ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾؛ أي يدعُو ما لا نَفْعَ له أصـلاً، ومِـن عـادة العـرب أنـهم يقولـون لشـيءٍ لا مَنْفَعَةَ فيه: لَضَرَرُهُ أكثرُ من نفعهِ، كما يقولون لشيء لا يكـونُ أصـلاً: هـذا بعيـدٌ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾؛ أي بئـسَ النـاصرُ، وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي بئْسَ الصاحبُ والْمُعاشِرُ، يعني الصنمَ.

واختلفُوا في اللاَّم في قوله (لَمَنْ ضَرُّهُ) :قيل معناهُ التأخير كأنه قالَ: يدعو مَـن واللهِ لَضَرُّهُ أقربُ من نفعهِ، وإنَّما قُدمَتِ اللامُ للتأكيد، ونظيرُ هذا قولُهم: عندي لَمَـا غيرهُ خيرٌ منه، معناه: عندي ما لَغَيْرُهُ خيرٌ منه. وقيل (لَمَنْ ضَرُّهُ) كلامٌ مبتـدأ وخـبرهُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٦٣). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٧٩٧).

(٢) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص١٦٣.

(لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيْرُ)، ويكون المعنى الذي هو الضلالُ البعيد يدعوهُ، فهذا حدٌّ الكلامِ وما بعده كلام مستأنفٌ. وَقِيْلَ: هذه اللامُ صلةٌ؛ أي يدعو مَن ضَرُّهُ أقربُ من نفعهِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ بأوليائه وأهلِ طاعته من الكرامةِ، وبأهلِ معصيته مِن الْهَوَان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ الآيةُ، معناهُ: مَن كان يظنُّ أن لن يَنْصُرَ اللهُ مُحَمَّداً ﷺ فليطلُبْ سَبَباً يصلُ بـه إلى السماءَ، ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ ؛ نصرةَ اللهِ لِنَبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ ﴾ ؛ أي يَتَهَيَّأُ له الوصولُ إلى السَّماء بحيلةٍ، فكما لا يُمكنه أن يحتالَ في الوصولِ إلى السَّماء، كذا لا يُمكنه الحيلةُ في قطعِ نَصْرِ اللهِ تعالى للنبيِّ ﷺ.

وَقِيْلَ: معناهُ: مَن كان يظنُّ أن لن يَنْصُرَ اللهُ النبيَّ ﷺ حتى يظهرَ على الدِّين، فَلْيمُتْ غيْظاً. وَقِيْلَ: إن الْهاءَ راجعةٌ إلى (مَنْ كَانَ يَظُنُّ) كأنه قال: مَنْ كان يظنُّ أن لن يرزقَهُ اللهُ فليَمْدُدْ بحبلٍ إلى سقف بيتهِ واضفَى ذلك على حَلْقهِ مُخنِقاً نفسَهُ ليذهبَ غيظُ نفسهِ.

وهذا مَثَلٌ ضُرِبَ لِهذا الجاهلِ؛ أي مِثْلُ هذا الذي يظنُّ أن لن يرزقَهُ اللهُ على سبيلِ السَّخَطِ مثلُ مَن فعلَ هذا الفِعْلَ بنفسهِ، هل كان ذلكَ إلا زائداً في ثلاثةٍ؟ وهل تذهبُ حقيقة نفسه غَيْظَهُ في رزقهِ؟ وإنَّما ذكَرَ النُّصْرَةَ بمعنى الرِّزق؛ لأن العربَ تقولُ: مَن يَنْصُرُنِي نَصَرَهُ اللهُ؛ أي مَن يُعطيني أعطاهُ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ (مَا) بمعنى المصدر؛ أي هل يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ وحيلتهُ غَيْظَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ؛ أي وكذلكَ أنزلنا القُرْآنَ على مُحَمَّدٍ ﷺ دلالاتٍ واضحاتٍ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى ﴾ ؛ إلى النبوَّة، ﴿ مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: يَهْدِي إلى الدِّين وإلى الثواب.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٦٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ ؛ أي إنَّ الذين آمَنوا بمُحمَّدٍ والقُرآن وجميعِ أصناف الكفَّار من اليهودِ، ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ بين هؤلاءِ الفِرَق الخمس وبين المؤمنين، ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ بأن يُدْخِلَ المؤمنين الجنَّةَ، وتلكَ الفِرَقَ النارَ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ أي عليمٌ بكلِّ شيء من أعمالِ هؤلاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ؛ أي ألَم تعلم يا مُحمَّدُ أنَّ الله يسجدُ له أهلُ السَّموات مِن الملائكة، ﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ مِن الجِنِّ والإنسِ من المؤمنين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ ؛ يَسْجُدُونَ للهِ؛ أي يَخْضَعُونَ؛ لأنَّ سجودَ هذه الأشياءِ خضوعُها وانقيادُها لِخالِقِها فيما يريدُ منها. وقال أبو العاليةِ: (مَا فِي السَّمَاءِ نَجْمٌ وَلاَ شَمْسٌ وَلاَ قَمَرٌ إلاَّ وَهُوَ يَسْجُدُ للهِ حِيْنَ يَغِيْبُ، ثُمَّ لاَ يَنْصَرِفُ حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أي وكثيرٌ من الكفَّار الذين سيؤمِنُونَ من بَعْدُ، وانقطعَ ذِكْرُ الساجدين ثُم استثناهُ فقالَ: ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أي مِمَّن لا يُوَحِّدُهُ وأبَى السجودَ، وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ ؛ أي مَن يُهنِ اللهُ بالشَّقاءِ، فما أحدٌ يُكرِمُهُ بالسعادةِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ مِن الإهانةِ والكرامةِ والشَّقاوةِ والسعادةِ، وهو المَالِكُ للعقوبةِ والمثوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ﴾ ؛ أرادَ بالخصمين المؤمنينَ والكفارَ، وقِيْلَ: أهلُ الكتاب وأهل القُرآن، والمعنى: اختَصَمُوا في دِين ربهم، فقالتِ اليهودُ والنصارى: نحنُ أولَى باللهِ منكم؛ لأنَّ نبيَّنا قَبْلَ نبيِّكم، وكتابَنا قبلَ كتابكم، وقال المسلمونَ: نحنُ أحقُّ باللهِ منكم، آمَنَّا بكتابنا وكتابكُم ونبيِّنا ونبيِّكم، وأنتُم كفرتُم بنَبيِّنا حَسَداً.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٨٢).

وَقِيْلَ: أرادَ بالخصمينِ الفريقين الذين تَبَارَزُوا يومَ بَدْرٍ. والخصمُ يقع على الواحدِ والجميع، ألا ترى أنه جَعَلَ الكفارَ خصماً، والمؤمنين خَصْماً، ولهذا قال (اخْتَصَمُوا)؛ لأنَّهما جَمْعَان وليس برَجُلين. وكان أبو ذرٍّ ﷺ يُقْسِمُ أنَّ هذه الآية نَزَلَتْ في ستَّةِ نفرٍ مِن قُرَيشٍ تَبَارَزُوا يومَ بدرٍ بثلاثةٍ من المؤمنين وهم: (حَمْزَةُ؛ وَعَلِيٌّ؛ وَعُبَيْدَةُ بْنِ الْحَارِثِ) وثلاثةٌ مِن المشركين وهُم: (عُتْبَةُ؛ وَشَيْبَةُ؛ وَالْوَلِيْدُ بْنُ عُتْبَةَ)، قال: وقال عليٌّ ﷺ: (إنِّي لأَوَّلُ مَنْ يُبْعَثُ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّوَجَلَّ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ ؛ أي نُحَاسٌ قد أُذِيْبَ في النار فيُجْعَلُ على أبدانِهم بمَنْزِلَةِ الثياب، وليس شيءٌ إذا حُمِيَ أشدُّ حَرّاً من النُّحاس، ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ وهو الماءُ الحارُّ الذي قد انتهى حرُّهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ أي يُذابُ بالحميمِ الذي يصبُّ مِن فوق رؤوسهم ما في بطونِهم من الشُّحوم حتى يخرجَ من أدبارهم، وتُذابُ به الجلودُ أيضاً، فإن جلودَهم تتساقطُ من حرِّ الحميم. والصَّهْرُ الإذابَةُ، يقالُ: صَهَرْتُ الإلْيَةَ بالنَّار أصهرها؛ أي أذبتُها .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ الْمَقَامِعُ جمعُ مِقْمَعَةٍ؛ وهي مِدَقَّةُ الرَّأس. رُوي أنَّ الملائكةَ يضربون وُجُوهَهُمْ بأعْمِدَةٍ من حديدٍ، فيَهْوُونَ في النَّار سبعينَ خريفاً. قال مقاتلُ:(تَضْرِبُ الْمَلاَئِكَةُ رَاسَ الْكَافِرِ بالْمَقْمَعَةِ فَيَنْقَبُ رَاسُهُ، ثُمَّ يُصَبُّ فِيْهِ الْحَمِيْمُ الَّذِي انْتَهَى حَرُّهُ، فينفذُ الْجُمْجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إلَى جَوْفِ الْكَافِرِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ مِنَ الأَمْعَاءِ حَتَّى يُحْرِقَ قَدَمَيْهِ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ ؛ أي كلما رَفَعَتْهُمُ النارُ بلَهَبِهَا فحَاوَلُوا الخروجَ منها في غَمِّ العذاب أُعِيْدُوا في النار بضرب الْمَقَامِعِ، وَقِيْلَ لَهم: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي الْمُحْرِق مثل الأَلِيْمِ بمعنى الْمُؤْلِم. وعن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ في قولهِ تعالى (وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ)

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٨٥). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٣٨١٦). والأثر رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: باب ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾: الحديث (٤٧٤٣).

(٢) في تفسير مقاتل: ج ٢ ص٣٨٠.

قال: [لَوْ وُضِعَ مَقْمَعٌ مِنْ حَدِيْدٍ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الثَّقَلاَنِ مَا رَفَعُوهُ مِنَ الأَرْضِ][(١)].

ثم ذكَرَ اللهُ الخصمَ الآخر فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرهُ في سورةِ الكهف.

قرأ أهلُ المدينة وعاصم: (وَلُؤْلُؤاً) بالنصب على معنى (يُحَلَّوْنَ فِيْهَا لُؤْلُؤاً)، ومَن قرأ بالخفضِ كان المعنى (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ).

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المرادِ. قال أبو سعيدٍ الخدريُّ: [مَنْ لَبسَ الْحَرِيْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ، وَإنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَبسَهُ أهْلُ الْجَنَّةِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ هُوَ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ؛ أي هُدُوا في الدُّنيا إلى القول الطيِّب، وهو قولُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ، وَقِيْلَ: إلى القُرْآن. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ فاللهُ الحميدُ، والصِّراطُ: طريقُ الجنَّة. والمعنى: أرْشِدُوا إلى الإسلامِ. ويجوزُ أن يكون (الْحَمِيْدِ) نعتاً للصراطِ كما في قولهِ تعالى ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾[(٣)]. وَقِيْلَ: معنى الآية: وأرْشِدُوا إلى القولِ الطيِّب في الآخرةِ مثلُ قولِ الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[(٤)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ معناهُ: إنَّ الذين كفَرُوا بمُحَمَّدٍ والقُرْآن (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ) عطفُ المضارعِ على المضافِ؛ لأن المرادَ بالمضارعِ الماضي أيضاً. ويجوزُ أن يكون المعنى الذين كَفَرُوا فيما مَضَى وهُمُ الآنَ يصدُّون عن سبيلِ الله مع كُفْرِهم، والمعنى: يَمْنَعُونَ الناسَ عن طاعةِ اللهِ و عن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال: باب أول شافع: الحديث (٨٨٠٩)؛ وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ج ٣ ص٢٣ مرفوعاً. وابن حبان في السنن: الحديث (٥٤٣٧). والحاكم في المستدرك: كتاب اللباس: الحديث (٧٤٨) وصححه.

(٣) الواقعة / ٩٥ . (٤) الزمر / ٧٤ .

الطَّوافِ في ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ؛ وهم أبو سُفيان وأصحابهُ الذين صَدُّوا النبيَّ ﷺ عامَ الحديبيةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ ﴾ ؛ معناه: الذي جعلناهُ للناسِ كلِّهم، لَم يخصَّ به بعضَهم دون بعضٍ سِوَى المقيمِ فيه، والذي يأتي مِن غيرِ أهلهِ، وليس الذين صَدُّوا عنهُ بأحقَّ به مِن غيرِهم.

قِيْلَ: المراد بالمسجدِ الحرام في هذه الآية الْحَرَمُ كلُّهُ، كما في قولهِ تعالى: ﴿إلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(١) وكان العهدُ بالحديبيةِ. وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [إنَّ مَكَّةَ لاَ يَحِلُ بَيْعُ رِبَاعِهَا وَلاَ إجَارَةُ بُيُوتِهَا](٢). وَقِيْلَ: إن المرادَ بالمسجدِ الحرام نَفْسُ المسجدِ سِوَى الْمُعْتَكَفِ فيه. الْمُجَاوِرُ والبادِيُ الذي يكون مُلازماً له في حُرمتهِ وحقُّ الله عليهما فيه سواءٌ.

قرأ حفصٌ: (سَوَاءً) بالنصب بإيقاعِ الْجَعْلِ عليه، لأن الجعلَ يتعدَّى إلى مفعُولين. وقرأ الباقون بالرفعِ على الابتداءِ، وما بعدهُ خبره. وَقِيْلَ: (سَوَاءٌ) خبرُ مبتدأ متقدِّم تقديرهُ: العَاكِفُ فِيْهِ وَالْبَادِي سَوَاءٌ(٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ معناه: وَمَن يُرِدْ فيه إلحاداً بظُلْمٍ، وفي هذا دليلٌ أن المرادَ بالمسجد الحرامِ كلُّ الْحَرَمِ، فإن الذنبَ في الحرمِ أعظمَ منه في غيره، فعلى هذا يكونُ قوله (سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) أي سواءً في النُّزول، فليس أحدُهما أحقُّ بالمنْزِل يكون فيه. وحرَّمُوا بهذه الآية كِرَاءَ دور مكَّة وإجارتها في أيام الموسم.

---

(١) التوبة / ٧ .

(٢) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١ ص٣٣؛ قال القرطبي: (كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً ووهم فيه، والصحيح أنه موقوف، وأسند الدارقطني أيضاً عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: وذكره). والحديث أخرجه الدارقطني في السنن: ج ٣ ص ٥٨: الرقم (٢٢٣-٢٢٧).

(٣) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص١٨١.

قال عبدُالله بن أسباط: (كَانَ الْحُجَّاجُ إذا قَدِمُوا مَكَّةَ لَمْ يَكُـنْ أحَـدٌ مِـنْ أهْـلِ مَكَّةَ أحَقَّ بمَنْزِلِهِ مِنْهُمْ)[١]، رُوي: (أنَّها كَانَتْ تُدْعَى السَّوَائِبُ فِي زَمَنِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وأبي بَكْرٍ وَعُمَرَ، مِنِ احْتَاجَ سَكَنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى أسْكَنَ)[٢].

والإلحادُ هو الشِّرْكُ بالله تعالى، وَقِيْلَ: كلُّ ظالِمٍ فيه فهو ملحـدٌ. وعـن رسـول الله ﷺ أنه قالَ: [احْتِكَارُ الطَّعَامِ بمَكَّةَ إلْحَادٌ][٣]. وأمَّا دخولُ الباء في قوله: (بإلْحَادٍ) فعلى معنى: ومَن إرادتهُ فيه بأنْ يُلْحِدَ بظلمٍ. وَقِيْلَ: الإلحادُ دخول مكة بغـيرِ إحـرامٍ، وأخذُ حَمَامِ مكَّة وأشياء كثيرة لا يجوزُ للمُحْرِمِ أن يفعَلَها. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: (نُذِقْـهُ مِـنْ عَذابٍ ألِيمٍ) خبرٌ لكـل مـا تقـدَّم مـن الجملتـين مـن قولـهِ تعـالى (إنَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا وَيَصُدُّونَ)، ومِن قولهِ تعالى (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإلْحَادٍ بظُلْمٍ).

قَوْلُـهُ تَعَــالَى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا ﴾ ؛ معناه: واذكرُوا إذ جَعَلْنَا البيتَ مَثْوىً لإبراهيمَ ومَنْزلاً. قال الحسنُ: (بَوَّأنَاهُ نَزَّلْنَاهُ)، وقال مقـاتلُ: (دَلَلْنَـاهُ عَلَيْـهِ)[٤]، وَقِيْـلَ: هيَّأنـا، نظـيرهُ ﴿تُبَـوِّئُ الْمُؤْمِنِـينَ﴾[٥]، ﴿وَبَوَّأكُمْ فِي الأرْضِ﴾[٦]، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾[٧]، وَقِيْلَ: معنى (بَوَّأنَا) أي بَيَّنَّا له مكانَ البيت.

قال السديُّ: (لَمَّا أمَرَ اللهُ تَعَالَى ببنَاءِ الْبَيْتِ لَمْ يَدْرِ إبْرَاهِيمُ أيْـنَ يَبْنِـي، فَبَعَـثَ اللهُ إلَيْهِ رِيْحاً، فَكَشَفَتْ لَهُ مَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ عَنِ الأسَاسِ الأوَّلِ الَّذِي كَانَ الْبَيْتُ عَلَيْـهِ قَبْلَ أنْ يُرْفَعَ أيَّامَ الطُّوفَانِ)[٨]، وقال الكلبيُّ: (فَبَعَثَ اللهُ إلَيْهِ سَحَابَةً عَلَى قَـدْرِ الْبَيْـتِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٠٥).

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٦؛ قال السيوطي: ((أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجة عن علقمة بـن نضلة)).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٨٤ الرقم (١٣٨٦٥). والبيهقي في شعب الإيمان: الحديث (١١٢٢١) كلاهما عن ابن عمر.

(٤) في تفسير مقاتل: ج ٢ ص٣٨١.

(٥) آل عمران / ١٢١. (٦) الأعراف / ٧٤ . (٧) العنكبوت / ٥٨ .

(٨) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٨٢٩). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٢٦.

فِيهَا رَأسٌ يَتَكَلَّمُ فَقَامَتْ بِحِيَالِ الْبَيْتِ، وَقَالَتْ: يَا إبْرَاهِيمَ إبْنِ عَلَى قَدْرِي)، قَوْلُهُ تَعَالَى: (أنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً) أي قلنا له وأوحَينا إليه أن لا تَعْبُدْ معي غيري.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي طَهِّرْ مِن ذبائحِ المشركين، ومما كانوا يطرحونَ حولَهُ من الدَّمِ والفَرْثِ، وَقِيلَ: طَهِّرْهُ من عبادةِ الأوثانِ، ومن دخولِ المشركين فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: (لِلطَّائِفِينَ) الذين يَطُوفُونَ حَوْلَهُ، وأما القائمونَ الرُّكَّعُ السُّجُودُ فهم الْمُصَلُّونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ ؛ أي وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ أيضاً أن أذِّنْ فِي النَّاسِ بالْحَجِّ يَأْتُوكَ رجَالاً، فقال: يا رب وما يبلغُ صَوْتِي ؟ فقال: عليك الأذانُ وعليَّ البلاغُ، فصَعَدَ أبا قُبَيْسٍ، ونادَى في الناسِ: الاَ إنَّ رَبَّكُمْ قد بَنَى بيتاً، وأمرَكم أن تَحُجُّوهُ فَحُجُّوهُ، فاسمعَ اللهُ نداءه جميعَ مَن في أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النِّساء، وما بينَ المشرقِ والمغرب، والبرِّ والبحر، فلَبَّاهُ كلُّ حَجَرٍ ومَدَرٍ، وكلُّ مؤمنٍ ومؤمنة في أصلاب الآباء وأرحام الأمَّهات، قالوا: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فجعلَ اللهُ التلبيةَ شعاراً للحجِّ، فكلُّ مَن حَجَّ فهو ممن أجابَ إبراهيمَ عليه السلام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ ؛ معناهُ: يأتوكَ مُشَاةً على أرجُلِهم وعلى كلِّ جَمَلٍ مهزولٍ أضمَرَهُ السفرُ، ورجَالٌ جمع رَاجِلٍ، نحو صاحِبٍ وأصحابٍ. وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (مَا نَدِمْتُ عَلَى شَيْءٍ فَاتَنِي إلاَّ أنِّي لَمْ أحُجَّ رَاجِلاً)(١)، وقد حَجَّ الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا خمساً وعشرين حَجَّةً ماشياً من المدينةِ إلى مكَّةَ، وأن النَّجَائِبَ لتقادُ معه.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال للحُجَّاج: [لِلرَّاكِبِ كُلُّ خَطْوَةٍ تَخطُوهَا رَاحِلَتُهُ سَبْعِيْنَ حَسَنَةً، وَلِلحَاجِّ الْمَاشِي بكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الْحَرَمِ] قِيْلَ: وَمَا حَسَنَاتُ الْحَرَمِ؟ قَالَ: [الْحَسَنَةُ بمِائَةِ ألْفٍ](٢).

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٤٩). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٤٨٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٢٦٩٦). والحاكم في المستدرك: كتاب المناسك: الحديث (١٧٣٥). وفي مجمع الزوائد: ج ٣ ص٢٠٩؛ قال الهيثمي: ((رواه البزار والطبراني في الأوسط=

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي من بُلدانٍ شتَّى، مِن كلِّ طريقٍ بعيد، يقالُ عَميقَة إذا كانت بعيدةَ القرار. وإنَّما قال (يَأْتِيْنَ)؛ لأنه في معنى الجمعِ، وَقِيْلَ: معناهُ: وعلى نَاقَةٍ ضَامِرَةٍ.

وعن بشْرِ بن مُحَمَّدٍ قال: رأيتُ في الطَّوافِ كَهْلاً قد أجهدتْهُ العبادةُ، واصفَرَّ لونهُ، وبيدِهِ عصا وهو يطوفُ معتمداً عليها، فتقدَّمتُ إليه لأسألَهُ، فقال لِي: مِن أينَ أنتَ؟ فقلتُ: من خُراسان، قال: من أيِّ ناحيةٍ هي ؟ قلتُ: من نواحي المشرق، فقال لِي: فِي كم تقطعونَ هذا الطريقَ؟ قلتُ: شهرين أو ثلاثة، قال: أفلاَ تَحُجُّونَ في كلِّ عام وأنتم جيرانُ البيتِ؟ قلتُ: وأنتم كم بينَكُم وبين هذا البيتِ؟ فقال: مسيرةُ خمسِ سنين، فقلتُ: واللهِ إن هذا الجهدُ لَبَيِّنٌ، والطاعةُ الجميلة والمحبة الصادقةُ، فضَحِكَ في وجهي وأنشأ يقولُ:

زُرْ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ شَاطتَ بِكَ الدارُ ... وَحَالَ مَنْ زُرْتَهُ حُجُبٌ وَأَسْتَارُ

لاَ يَمْنَعَنَّكَ بُعْداً مِنْ زِيَارَتِهِ ... إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَّارُ

وقولُهُ تعالى: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي ليشْهَدوا ما ندبَهم اللهُ إليه مما لَهم فيه نفعُ آخِرتِهم، ويدخلُ في ذلك منافعُ الدُّنيا من التجارةِ بيعاً ورُخصةً. قال ابنُ جبير: (يَعْنِي بالْمَنَافِعِ التِّجَارَةَ)، وقال مجاهدُ: (هِيَ التِّجَارَةُ وَمَا يُرْضِي اللهَ مِنْ أمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)[(١)].

وعن عمرَ بنِ عبدِالعزيز أنه كان يقول إذا وَقَفَ بعرفةَ: (اللَّهُمَّ إنَّكَ دَعَوْتَ إلَى حَجِّ بَيْتِكَ، وَذكَرْتَ الْمَنْفَعَةَ عَلَى شُهُودِ مَنَاسِكِكَ، وَقَدْ جِئْتُكَ فَاجْعَلْ مَنْفَعَةَ مَا تَنْفَعُنِي بِهِ أنْ تُؤْتِيَنِي فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَأنْ تقيَنِي عَذابَ النَّار).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (الأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ الْعَشْرُ، وَالأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ

=والكبير بنحوه وفيه قصة. وله عند البزار إسنادان أحدهما فيه كذاب والآخر فيه إسماعيل بن إبراهيم عن سعيد بن جبير ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات)).

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٥٦).

أَيَّامُ التَّشْرِيْقِ)، وإنَّما قال لَها معدوداتٍ؛ لأنَّها قليلةٌ، وَقِيْلَ لتلكَ المعلوماتِ الحرصُ على علمِنا بحسابها من أجلِ وَقْفِ الحجِّ في آخرها، وإلى هذا ذهبَ أبو حنيفةَ.

وقال أبو يوسُفَ: (الأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ أَيَّامُ النَّحْرِ وَهِيَ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ، وَالأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ أَيَّامُ التَّشْرِيْقِ وَهِيَ ثَلاثَةٌ بَعْدَ الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنْ أَيَّامِ النَّحْرِ، فَيَكُونُ الْيَوْمُ الأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ النَّحْرِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ دُونَ الْمَعْدُودَاتِ، وَالْيَوْمُ الآخِرُ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ مِنَ الْمَعْدُودَاتِ دُونَ الْمَعْلُومَاتِ، وَيَوْمَيْنِ مِنْ وَسَطِهَا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَالْمَعْدُودَاتِ جَمِيْعاً)، وكان يستدلُّ على هذا القول في الأيَّام بهذه الآية، فإنه تعالى قالَ: (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ)، فاقتضى ظاهرُهُ أن المرادَ التسميةُ على ما ذُبحَ من بَهيمة بالْمُتْعَةِ والقِرَانِ.

وأما على قول أبي حنيفةَ، فالمرادُ بالذِّكْرِ إكثارُ الذِّكر في أيامِ العَشْرِ، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أفْضَلُ فِيْهِنَّ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيْقِ، فَأَكْثِرُوا فِيْهَا مِنَ التَّحْمِيْدِ وَالتَّكْبِيْرِ وَالتَّهْلِيْلِ][١].

وعلى هذا يكونُ معنى (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) لِمَا رزقتُهم من بَهيمة الأنعام،كما قال ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾[٢] أي لِما هَدَاكُمْ، وقال محمَّدُ بن كعبٍ: (الْمَعْلُومَاتُ وَالْمَعْدُودَاتُ وَاحِدٌ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) يعني الهدايا والضَّحايا من الإبلِ والبقرِ والغنمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إذا ذبَحُوا لَطَّخُوا وَجْهَ الْكَعْبَةِ، وَشَرَّحُوا اللَّحْمَ فَوَضَعُوهُ عَلَى الْحِجَارَةِ حَتَّى تَأْكُلَهُ السِّبَاعُ وَالطَّيْرُ، وَقَالُوا: لاَ يَحِلُّ لَنَا أنْ نَأْكُلَ شَيْئاً جَعَلْنَاهُ للهِ.

فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ كُنَّا نَضَعُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ألاَ نَضَعُهُ الآنَ ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ). (فَكُلُوا مِنْهَا) يعني الأنعامَ التي تَنحرون، (وَأطْعِمُوا الْبَائِسَ)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص١٣١ بهذا اللفظ. للحديث ألفاظ أخرى عند البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجة والطبراني والبيهقي وغيرهم.

(٢) البقرة / ١٨٥ .

وهو الذي قد أصابَهُ ضررُ الجوعِ، و(الْفَقِيْرَ) الذي لا شيءَ لهُ. وَقِيْلَ: البائسُ الذي بَيَّنَ عليه أثرُ البُؤْسِ بأن يَمُدَّ يده إليكَ. وَقِيْلَ: البائسُ الزَّمِنُ. وإنَّما خصَّصَ البائسَ الفقيرَ؛ لأنه أحوجُ من غيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ ؛ قال ابنُ عباس: (التَّفَثُ هُوَ الْمَنَاسِكُ كُلُّهَا)[(١)]، والمرادُ ها هنا رَمْيُ الجِمَار والْحَلْقُ، ويقال: قضاءُ التَّفَثِ إزالةُ الشَّعث، وفي هذا دليلٌ على أن المرادَ بقوله (عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ) دمُ الْمُتْعَةِ والقِرَان؛ لأن اللهَ تعالى رَتَّبَ عليه قضاءَ التَّفَثِ والطوافَ بالبيتِ الحرام، لا دمَ تَرَتَّبَ على هذهِ الأفعال إلاّ دمُ المتعة والقِرَان، فذكرَ هذه الآيةَ في جواز الأكل مما يُذْبَحُ. وَقِيْلَ: التَّفَثُ هو الوسخُ والقَذرُ من طولِ الشَّعر والأظفار، وقضاؤه وإذهابهُ وإزالته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ ؛ يعني نَحْرَ ما نَذرُوا من البُدْن، وَقِيْلَ: يعني ما نَذرُوا من أعمال البرِّ في أيام الحجِّ، وربَّما نَذرَ الرجلُ أن يتصدَّقَ إنْ رَزَقَهُ اللهُ لقاءَ الكعبة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ يعني طوافَ الزِّيارةِ بعد التروية، أما يومُ النَّحر وما بعده فيسمَّى طوافَ الإفَاضَةِ. والعتيقُ القديمُ؛ لأنه أولُ بيتٍ وُضِعَ للناسِ. وَقِيْلَ: [أُعْتِقَ من أيدِي الْجَبَابرَةِ، فَلاَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ جبَّارٌ قَطْ إلاّ أذلَّهُ اللهُ][(٢)]. وعن ابن عبَّاس قال: حَجَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا أتَى وَادِيَ عَسَفَانَ قَالَ: [لَقَدْ مَرَّ بهذا الْوَادِي نُوحٌ وَهُودٌ وَإبْرَاهِيْمُ عَلَى بَكْرَاتٍ حُمْرٍ خَطْمُهُنَّ اللِّيْفُ، يَحُجُّونَ الْبَيْتَ الْعَتِيْقَ][(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٨٩٨٣). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص١٣٨٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٨٩٩٤). عن عبدالله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ... وذكره. وأخرجه الترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٧٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب. والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٥١٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٣٢.

قولـهُ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ ؛ أي ذلِكَ الذي أمِرْتُمْ به، ومَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ باجتناب ما حَرَّمَ اللهُ تعظيماً للهِ فهو خيرٌ له في الآخرةِ مِن تَرْكِ استعظامهِ. وقال بعضُهم: الْحُرُمَاتُ ها هنا البيتُ الحرامُ والبلدُ الحرامُ والشهر الحرام والمسجدُ الحرام. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ) أي قال: المعظِّم خيرٌ له عند رَبهِ من التَّهَاوُنِ، يعني في الآخرةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ ؛ أي رُخِّصَتْ لكـم بَهيمـةُ الأنعامِ أن تأكلوها، ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ في كتاب الله مـن الْمَيْتَـةِ والـدمِ وغير ذلك مما بَيَّنَهُ اللهُ في سورة المائدةِ من الْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُـوذةِ وَالْمُتَرَدِّيَـةِ وَالنَّطِيْحَـةِ ومما لَم يُذْكَرِ اسـمُ اللهِ عليـهِ. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: وأحِلَّـتْ لكـم بَهيمـةُ الأنعـامِ في حـال إحرامِكم إلاّ ما يُتْلَى عليكم من الصَّيدِ، فإنه حرامٌ في حال الإحرامِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ ؛ أي فَـاجْتَنِبُوا عبادتَـها وتعظيمَـها وأن تذبَحُـوا لَـها، كمـا يفعـلُ المشـركون، سَـمَّاها رجْسـاً اسْـتِقْذاراً لَـها واستخفافاً لَها، وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَنْحَرُونَ هداياهم، ويَصُبُّـونَ عليـها الدمـاءَ، وكانوا مع هذه النَّجاساتِ يعظِّمونَها.

ويجوز أن يكون سَمَّاها رجْساً للُزُومِ اجتنابها كاجتناب الأنْجَاسِ. وأما حَـرفُ (مِنَ) في قولهِ (مِـنَ الأَوْثَـانِ) لتخصيـصِ جنسٍ مـن الأجنـاس، والمعنـى: فَـاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الذي هو مِن وَثَنٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ يعني قولَ الكذب، ومِن أعظمِ وجُوهِ الكذب الكفرُ باللهِ، والكذبُ على اللهِ، ويدخلُ في ذلـك شـهادةُ الـزُّور، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّور بالإشْرَاكِ باللهِ][1]، وقال ﷺ: [شَاهِدُ الزُّور لاَ تَزُولُ قَدَمَاهُ مِنْ مَكَانِهَا حَتَّى تَجِبَ لَهُ النَّارُ][2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٤ ص١٨٧. والترمذي في الجامع: كتاب الشـهادات: الحديـث (٢٢٩٩). والبيهقي في السنن الكبرى: الحديث (٢٠٩٦٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب الأحكام: الحديث (٧١٢٤). والبيـهقي في السـنن الكـبرى: الحديث (٢٠٩٦٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ ؛ أي مُخلصين للهِ مستقيمين على أمرهِ غيرَ مشركين في تلبيةٍ ولا حَجٍّ، وذلكَ أنّ أهلَ الجاهليةِ كانوا يقولون في تلبيتِهم: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إلاَّ شَريكاً تَملكهُ يَعْنُونَ الصَّنَمَ. وانتصبَ قولهُ: (حُنَفَاءَ) على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي سَقَطَ من السَّماءِ، ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ ؛ في الْهَواءِ فتُمزِّقُهُ، أو تذهبُ به الريحُ في موضعٍ بعيدٍ؛ أي مُنْحَدَرٍ فيقعُ على رأسهِ فيهلَكُ، أي كما أنَّ الذي سَقَطَ من السماءِ لا يَملكُ نفعاً ولا دفعَ ضُرٍّ، وكذلك الذي تُهوي به الريحُ في مكان سَحيقٍ، وكذلك المشركُ لا ينتفعُ بشيءٍ مِن أعْمَالِهِ ولا يقدرُ على شيءٍ منها.

قرأ أهلُ المدينة (فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ) بالتشديد أي فَتتخطِفُهُ، فأُدْغِمَ أحدُ التَّائين في الأُخرى، والْخَطْفُ: الأخذُ بسرعةٍ. قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيدُ يَخْطِفُ لَحْمَهُ)، ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ ؛ أي تُسْقِطُهُ، ﴿ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ أي بعيدٍ. شَبَّهَ حالَ الْمُشْرِكِ بحال هذا الْهَاوي من السَّماء في أنه لا يَمْلِكُ حيلةً حتى يسقطَ فهو هالكٌ لا مَحالةَ، إما بإسْلاَب الطَّيرِ، وإما بالسُّقوطِ في المكان السَّحيق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي ذلك التباعدُ والهلاكُ لِمَنْ أشْرَكَ باللهِ، مَن يُعظِّمْ شعائرَ اللهِ؛ أي مَنَاسِكَ اللهِ. وَقِيْلَ: أراد بالشَّعِيْرة الْبُدْنَ، فمَن عظَّمَها باستمنانِها واستحسانِها، ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ يعني من صَفَاوَةِ القُلُوب. وإنَّما أضافَ التَّقْوَى إلى القلوب؛ لأن حقيقةَ التقوى تَقْوَى القلوب.

قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ؛ أي لكم في بَهيمة الأنعامِ المنافعُ تركَبُوها، وتَشرَبُونَ ألبانَها قبلَ أن تشعروها وتسمُّوها هَدْياً إلى أن تقادُوها، وسموها هدياً، وأما إذا قلدوها وسَمُّوها هَدْياً انقطعت هذه المنافعُ فلا يجوزُ له حينئذٍ شُرْبُ ألبانِها ولا جَزُّ أصوافِها ولا بيعُ أولادِها.

وأما ركوبُها عند الشافعيِّ يجوزُ إذا لَم يُضِرَّ بها، وعندنا لا يجوزُ إلاّ اذا اضطُرَّ إليه. وعن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ أنه رَأى رَجُلاً يَسُوقُ بَدَنَةً، فَقَالَ لَهُ: [وَيْحَكَ!

ارْكَبْهَا] فَقَالَ لَهُ: إنَّهَا بَدَنَةٌ، فَقَالَ:[وَيْحَكَ! ارْكَبْهَا][(١)]، وهذا عندنا محمولٌ على أنَّـهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إنَّما أباحه لضرورة علمه مِن الرجُل فـأذِنَ لـه في ذلـكَ إن لم يجد ظـهراً غيرها، يدلُّ على ذلك أنه لا يجوزُ له أنْ يوجِّهَها للركوب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ يعني أنَّ نحرها إلى الْحَرَمِ، وعبَّر عن الحرم بالبيت؛ لأن حرمةَ الحرمِ متعلقـةٌ بـالبيت، كمـا قـالَ تَعـالَى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾[(٢)]، ومن المعلومِ أنَّهُ لا يُذبَحُ عند البيتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ ؛ أي لكلِّ أمَّةٍ مُسلِمَةٍ سَبَقَتْ قبلَكم جعلنا لها عِيْداً، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ ؛ عند الذبحِ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولكـلِّ أمَّـةٍ جعلنـا عِبَـادَةً في الذبْـحِ. وَقِيْـلَ: معناهُ: جعلنا مُتَعَبَّداً يعبدون اللهَ فيه.

قرأ أهلُ الكوفة (مَنْسِكاً) بكسرِ السِّين؛ أي مَذْبَحاً وهو موضعُ القُرْبَـانِ، وقـرأ الباقون بفتحِ السِّين على المصدر مثل الْمَدْخَـلِ والْمَخْـرَجِ؛ أي هِرَاقَـةُ الـدَّمِ أو ذبـحُ القُرُبَاتِ، فمَن فتحَ السين أخذهُ من نَسَكَ يَنْسُكُ مثل دَخَلَ يَدْخُلُ، ويستوي فيه المكان والمصدرُ، ومَن كسَرَها أخذهُ من نَسِكَ يَنْسِكُ مثل جَلَسَ يَجْلِسُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ﴾ ؛ أي أخلِصُـوا دِينَكـم وأعمـالكم للهِ تعـالى، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي المتواضعـين بالجنَّـةِ، واشتقاقُ الْمُخْبتِيْنَ مِنَ الْخَبَتِ وهو المكانُ المطمئنُّ، وقال مجـاهدُ: (يَعْنِـي الْمُخْبتِيـنَ: الْمُطْمَئِنِّيْنَ إلَى اللهِ)، وقال الأخفشُ: (الْخَاشِعِيْنَ)، وَقِيْلَ: الخائفين، وَقِيْلَ: هم الذيـن إذا ظلموا لا ينصرون.

قولهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي إذا خُوِّفُـوا بـالله خـافُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ ؛ أي وبَشِّرِ الصَّابرينَ عَلَى مَا أصابَـهُمْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٩١. والبخـاري في الصحيـح: كتـاب الحـج: الحديـث (١٦٨٩). ومسلم في الصحيح: كتاب الحج: الحديث (٣٧٢/ ١٣٢٢).

(٢) المائدة / ٩٥ .

مِن البَلاَيَا والنوائب الشدائد، وَ بَشِّر ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ؛ في أوقاتِها، وحُذفت النونُ لطولِ الاسم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي يتصدَّقون من الواجب وغيرِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ جمع بَدَنَةٍ وهي الناقةُ والبقرة، والبَدَانَةُ الضخامةُ، والمعنى: والإبلَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ من أعْلاَمِ دِيْنِ اللهِ؛ أي جعلناها لكم فيها عبادةٌ لله من سَوْقِهَا إلى البيتِ وتقليدِها وإشعارِها ونَحرها والإطعامِ منها، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ ؛ يعني النفعَ في الدُّنيا والآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ ؛ أي عند نَحرها، وصَوَافَّ جمعُ الصَّافَّةِ وهي القائمةُ على ثلاثِ قوائم قد عُقلت، وكذا السُّنة في الإبلِ، ومعنى الآية: فَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ على نَحْرِهَا قِيَاماً معقولة إحدى يدَيها وهي اليُسرى. وعن يحيى بن سالِم قال: (رَأيْتُ ابْنَ عُمَرَ وَهُوَ يَنْحَرُ بَدَنَتَهُ، فَنَحَرَهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ مَعْقُولَةٌ إحْدَى يَدَيْهَا)[1] يعني اليسرى.

ورويَ عن ابنِ مسعود كان يقولُ: (صَوَافِن) بالنون وهي المعقولةُ[2]، مِن قولِهم: صَفَنَ الفرسُ إذا قامَ على ثلاثِ قوائم، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾[3]. وقرأ الحسنُ ومجاهد: (صَوَافِي) بالياءِ أي صافيَةً خالصةً لله تعالى[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ ؛ أي سَقَطَتْ بعدَ النحرِ، فوضعت جنوبُها على الأرضِ وخرجت روحُها، ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ ؛ ولا يجوزُ الأكلُ من البُدْنِ إلاّ بعد خروجِ الروح، لأن ما بينَ عن الحيِّ فهو ميتٌ. وأصلُ الوُجُوب الوُقُوعُ، ومنه وَجَبَتِ الشمسُ إذا وقعت في الْمَغِيْب، ووجبَ الحائطُ إذا وقعَ، ووجبَ القلبُ إذا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٤٩).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٥٨). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٥٣؛ قال السيوطي: ((أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن الأنباري عن قتادة)).

(٣) ص / ٣١ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٥٤).

وقعَ فيه الفزعُ، ووجبَ الفِعلُ إذا وجبَ ما يلزمُ به فعله. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَكُلُوا مِنْهَا) أَمرُنا بإباحةٍ ورُخصةٍ مثلُ قولِه: ﴿وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾(١)، وقولِه تعالى ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ ؛ اختلفُوا في معناها، فرُويَ عن ابن عبَّاس ومجاهد: (أَنَّ الْقَانِعَ هُوَ الَّذِي يَقْنَعُ وَيَرْضَى بِمَا عِنْدَهُ وَلاَ يَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَعْتَرِضُ لَكَ أَنْ تُطْعِمَهُ مِنَ اللَّحْمِ)، يقالُ: قَنِعَ قَنَاعَةً إذا رَضِيَ قانع، وعَرَاهُ واعْتَرَاهُ إذا سألَهُ، وكذلك قال عكرمةُ وقتادة: (إنَّ الْقَانِعَ هُوَ الْمُتَعَفِّفُ الْجَالِسُ فِي بَيْتِهِ، وَالْمُعْتَرَّ السَّائِلُ الَّذِي يَعْتَرِيكَ وَيَسْأَلُكَ)(٣).

قال سعيدُ بن جبير والكلبيُّ: (الْقَانِعُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرُّ هُوَ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ وَيُرِيكَ نَفْسَهُ وَلاَ يَسْأَلُكَ)(٤)، فعلى هذا يكون القانعُ من القُنُوعِ وهو السُّؤالُ، يقال منه: قَنَعَ الرجلُ يَقْنَعُ إذا ذهبَ يسأل، مثل ذهبَ فهو قانعٌ. قال الشمَّاخُ:

كَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنَى مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ الْقُنُوعِ(٥)

أي من السُّؤال. وقال زيدُ بن أسلمَ: (الْقَانِعُ هُوَ الْمِسْكِيْنُ الَّذِي يَطُوفُ فَيَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرُّ الصَّدِيْقُ الزَّائِرُ، وَالْمُعْتَرُّ الَّذِي يَعْتَرِي الْقَوْمَ لِلَحْمِهِمْ وَلَيْسَ بِمِسْكِيْنٍ إلاَّ أنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ ذبِيْحَةٌ، يَأْتِي الْقَوْمَ لأَجْلِ لَحْمِهِمْ)(٦).

وقرأ الحسنُ: (وَالْمُعْتَرِي) بالياء من قولِهم: اعْتَرَاهُ إذا غَشِيَهُ لحاجته. وروى عطاءٌ عن ابن عبَّاس: (أنَّ الْقَانِعَ الَّذِي يَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَأْتِيْكَ بِالسَّلاَمِ، وَيُرِيكَ

---

(١) المائدة / ٢ . (٢) الجمعة / ١٠ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٧٥-١٩٠٧٦).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٨٠).

(٥) ذكره الطبري في جامع البيان: النص (١٩٠٨٢). والزجاج في معاني القرآن: ج ٣ ص٣٤٨. والمفاقر: وجوه الفقر، والقنوع السؤال.

(٦) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٠٨٦).

وَجْهَهُ، وَلاَ يَسْأَلُ)، وعن مجاهد: (أنَّ الْقَانِعَ جَارُكَ الْغَنِيُّ، وَالْمُعْتَرَّ الَّذِي يَعْتَرِيْكَ مِنَ النَّاسِ).

فعلى هذا تقتضي الآيةُ: أن المستحبَّ أنْ يتصدَّقَ بالثُّلُثِ؛ لأن في الآيةِ أمرٌ بالأكلِ وإعطاءِ الغنيِّ وإعطاءِ الفقيرِ السائلِ. وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ في الحرم: [الأَضَاحِي كُلُوا وَادَّخِرُوا][1]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فإذا جمعت بين الآية والخبر جُعِلَ الثلثُ للصدقةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ؛ أي مِثْلَ ما وَصَفْنَا من نَحرها وقيامها سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ؛ أي ذَلَّلْنَاهَا لكم؛ لتتمكَّنوا من نَحرها على الوجهِ الْمَسْنُونِ؛ لكي تَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ تعالى.

قولهُ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ قال الكلبيُّ: (كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْحَرُونَ الْبُدْنَ لِلأَصْنَامِ وَيُلَطِّخُونَ الْبَيْتَ بدِمَائِهَا قُرْبَةً إلَى اللهِ فَنَهَى عَنْ ذلِكَ). والمعنى: لن يرفعَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها، ولكن يُرفَعُ إلى اللهِ منكمُ الأعمالُ الصالحة والتَّقْوَى، وهو ما أُرِيْدَ به وجهه الكريم.

ويقالُ: إنَّما لا يَتَقَبَّلُ الله اللحومَ والدماء لأنها فعلُ الله، ولكن يتقبلُ التقوى الذي هو فِعْلُ العبدِ، فيوجبُ الثوابَ على ذاك، والمعنى: لن يتقبَّلَ اللهُ اللحومَ والدماء اذا كانت من غيرِ تقوى، وإنَّما يتقبَّلُ منكم التقوَى والطاعةَ في ما أمَركم بهِ، بالنيَّة والإخلاصِ به.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ ؛ أي ذلَّلَهَا لكم، ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي لِتُعَظِّمُوهُ، ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ؛ لِدِيْنِهِ، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ؛ بالجنَّة يعني الموحِّدين المخلصين. ويقالُ: معنى قوله (عَلَى مَا هَدَاكُمْ) يعني ما بَيَّنَ لكم وأرشَدَكم لِمَعَالِمِ دِيْنِهِ ومناسكِ حَجِّهِ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب الأضاحي: الحديث (٧٦٤٣). وأخرجه البخاري بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال: [كُلُوا مِنَ الأَضَاحِي ثلاثاً] في الصحيح: كتاب الأضاحي: الحديث (٥٥٧٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ؛ أي إذا ما أمِرْتُمْ فَعَلْتُمْ به وخالَفْتُم فعلَ الجاهليَّة في نَحْرِهِمْ وإشراكِهم باللهِ، فإن اللهَ يدفعُ عنكم غائِلَةَ المشركِينَ وأذاهُم وينصركم عليهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي لا يحبُّ كلَّ مُظْهِرٍ للنصيحة مُضْمِرٍ للغشِّ والنِّفاق كافر باللهِ وبنعمتِهِ.

قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ الَّذِيْنَ خَانُوا اللهَ بأنْ جَعَلُوا مَعَهُ شَرِيْكاً وَكَفَرُوا نِعَمَهُ)، قال الزجَّاجُ: (مَنْ ذكَرَ غَيْرَ اسْمِ اللهِ وَتَقَرَّبَ إلَى الأَصْنَامِ بذبيْحَتِهِ فَهُوَ خَوَّانٌ كَفُورٌ)[1]، قرأ أبو عمرٍو وابنُ كثير: (يَدْفَعُ)، وقرأ الباقون: (يُدَافِعُ)، وهو بمعنى واحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هَذِهِ أوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الإذْنِ بالْقِتَالِ، أذِنَ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِيْنَ الْمُهَاجِرِيْنَ أنْ يُقَاتِلُوا كُفَّارَ مَكَّةَ بسَبَبِ مَا ظُلِمُوا بأنْ أخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ) ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ هذا وَعْدٌ لَهم بالنَّصرِ.

وَقِيْلَ: كان مُشركُو مكَّة يؤذُونَ أصحابَ رسول الله ﷺ فلا يزالون مَحْزُونِيْنَ من ((بين))[2] مَشْجُوجٍ ومضروبٍ، ويَشْكُونَ ذلك على رسول الله ﷺ فيقولُ لهم: [اصْبرُوا فَإنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بالْقِتَالِ][3] حتَّى هَاجَرُوا، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ بالمدينة.

قرأ نافعُ وأبو عمرو وعاصم: (أُذِنَ) بضمِّ الألف وكسرِ الذال، وقرأ الباقون (أَذِنَ) بالفتح؛ أي أذِنَ اللهُ لَهم، وقوله (يُقَاتَلُونَ)، قرأ نافع وابنُ عامر وحفص: بفتح التاء؛ أي أذِنَ للمؤمنينَ الذين يُقَاتِلُهُمُ المشركونَ، وقرأ الباقون بكسرِها، يعني أذِنَ لهم في الجهادِ يقاتلون المشركينَ[4].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ ؛ أوَّلُ آيةٍ بَدَلٌ من (الَّذِيْنَ يُقَاتَلُونَ) أي أخرجَهم أهلُ مكة مِن منازلِهم بغيرِ جُرْمٍ منهم.

---

(١) معاني القرآن: ج ٣ ص٣٤٩.
(٢) ((بين)) سقطت من المخطوط.
(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٦٩.
(٤) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٢٢٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) معناه: لَمْ يُخرجُوهم إلاّ بأن كانوا يُوَحِّدُونَ اللهَ تعالى فأخرَجُوهم لتوحيدِهم، المعنى: لَمْ يُخرجوهم مِن ديارهم إلاّ لقولهم رَبُّنَا اللهُ، فيكون (أنْ) في موضع الخفضِ رداً على الباء في قولِهِ (بغَيْرِ حَقٍّ)، ويجوز أن تكون (أنْ) في موضع نصبٍ على الاستثناء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ ﴾ ؛ أي لولا أنْ يدفعَ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِمَ في زمنِ كلِّ شيء ما بُنِيَ للصلاةِ والعبادة نحو الصَّوامعَ، ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ .

قال مجاهدُ والضحَّاك:(يَعْنِي صَوَامِعَ الرُّهْبَان)[1]، وقال قتادةُ: (الصَّوَامِعُ لِلصَّابِئِيْنَ؛ وَهِيَ مُتَعَبَّدَاتُهُمْ، وَالْبيَعُ جَمْعُ بَيْعَةٍ؛ وَهِيَ مُتَعَبَّدُ النَّصَارَى، وَالصَّلَوَاتُ هِيَ كَنَائِسُ الْيَهُودِ، وَكَانَ الْيَهُودُ يُسَمُّونَهَا بالْعَبْرَانِيَّةِ صَلَوَاثَا، وَالْمَسَاجِدُ الَّتِي يُصَلِّي فِيْهَا الْمُسْلِمُونَ)[2].

والمعنى: لولا كَفُّ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض بالجهادِ، وكَفُّ الظُّلم لحربٍ في كلِّ شريعةٍ، كلٌّ بَنى المكان الذي يُصَلَّى فيه، فكان لولا الدفعُ لَهُدِمَ في زمنِ موسى عليه السلام الكنائسُ، وفي زمنِ عيسى عليه السلام الصَّوامِعُ والبيَعُ، وفي زمن مُحَمَّدٍ ﷺ المساجدُ. وعن مجاهد أنه قال: (الْبيَعُ لِلْيَهُودِ يُسَمُّونَهَا صَلَوَات)، وقال أبو العاليةِ: (هِيَ مَسَاجِدُ لِلصَّابِئِيْنَ). فعلى هذا يكون المعنى: لَهُدِّمَتْ صوامعُ الصلواتِ. ويقال: أرادَ بالصَّلواتِ الصلوات المعهودة التي للمسلمين، وهَدْمُهَا إبطالُها وإهلاكُ مَن يفعلُها.

والأَوْلَى أنْ يستدلَّ بهذه الآية على أنَّ هذهِ المواضعَ المذكورة التي يجري فيها اسمُ الله تعالى لا يجوزُ أن تُهْدَمَ في شريعةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ على كلِّ مَن كان له ذِمَّةٌ، أو جهاد من الكفَّار، فأما في ديار الحرب فيجوزُ للمسلمين هدمُها إذا فُتحت دارُهم عنوةً، ولَم يُقَرُّوا عليها بالجزيةِ، كما يجوزُ هَدْمُ سائر دورهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩١١١).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩١١٤ و١٩١١٦ و١٩١٢٢ و١٩١٢٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَهُدِّمَتْ) الْهَدْمُ هو نَقْضُ البناءِ. قرأ أهلُ الحجاز (لَهُدِمَتْ) بالتخفيف. فإن قِيْلَ: لِمَ قَدَّمَ مُصَلَّيَاتِ الكافرينَ على مساجدِ المؤمنين ؟ قِيلَ: لأنَّها أقدمُ، وَقِيْلَ: لقربها من الهدمِ، وقُرب المساجد من الذِّكْر، كما خُرِّجَ السَّابقُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ إلى قولهِ تعالى: ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾؛ أي لَيَنْصُرَنَّ اللهُ تعالى مَنْ يَنْصرُ دِيْنَهُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي لَقَوِيٌّ على أخذِ الأعداء، عَزِيْزٌ أي مُمتنعٌ بالنعمةِ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ نعتٌ للذين يُنصرون بدِين الله؛ أي همُ الذين إنْ مكَّنَهم الله في الأرضِ ينصرُهم الله في عدوِّهم حتى يُمَكَّنُوا في البلادِ، لَم يعملوا ما عَمِلَهُ الذين مِن قبلِهم، ولكن أقامُوا الصلاةَ المكتوبة، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وأعطوا الزكاةَ المفروضة، وأمَرُوا بالحقِّ ونَهوا عن الباطلِ. قال مقاتلُ: (هُمْ أصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ)(٢)، وقال الحسنُ: (هُمْ هَذِهِ الأُمَّةُ أهْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ). وقولهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾؛ بَطَلَ كلُّ مُلْكٍ سوى مُلْكِهِ، فتصيرُ الأمور كلها إليه بلا مُنَازعٍ ولا مُدَّعٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾؛ في هذه الآية تَسْلِيَةٌ للنبيِّ ﷺ، والمعنى: إنْ يُكَذِّبُوكَ - قومُكَ- فقد كَذَبَتِ الأُمَمُ أنبياءهم من قبلِكَ، وقولهُ: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾؛ أي كذبَهُ فرعونُ، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ أي أمْهَلْتُهُمْ، وأخَّرتُ عقوبتَهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾؛ بالعقوبةِ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي فكيفَ كان إنْكَاري عليهم حتى بيدُوا أو خُرِّبَتْ قُراهم، فأبدلتُهم بالنعمةِ نقمةً؛ وبالكثرةِ قلَّةً؛ وبالحياة هلاكاً. قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ: فَأَنْكَرْتُ أبْلَغَ الإنْكَار).

---

(١) فاطر / ٣٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ص٢٤٩٨: النص (١٣٩٧٧) عن أبي العالية.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ؛ أي كَمْ مِن قريةٍ أهلكناها بالعذاب بكُفرهم. وقُرِّي أهلكناهـا، والاختيـارُ أهْلَكْتُـهَا بالتـاء لقولـه (فَأمْلَيْتُ)، قولـهُ: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ؛ أي سـاقطةٌ علـى سُقُوفِهَا، وذلك أن السَّقْفَ يقعُ قبلَ الحيطان، ثم تقـع الحيطـان عليـه، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ ؛ أي كم بئر عطلها أربابُـها وَ كـم مـن ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ ؛ عطَّلَهُ أهلهُ. والْمَشِيْدُ هو الْمُجَصَّصُ، والشِّيْدُ الْجُصُّ والنُّورةُ، ويجوزُ أن يكون معنـى الْمَشِيْدِ الرفيعُ، يقال: شَادَ البناءَ وأشَادَهُ إذا أطْلاَهُ بالشِّيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ؛ أي أفَلَمْ يَسِرْ قومُكَ يا مُحَمَّدُ في أرضِ اليَمَنِ والشَّام؛ لينظروا آثـارَ الْمُهْلَكِيْنَ، فيعقلوا بقلوبهم ما نُزِلَ بمن كَذب من قبلهم، ويسمَعُوا بآذانِهم خَبَرَ الأمـمِ الْمُكَذِّبَةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فتَكُونَ لَهُمْ) نُصِبَ على جواب الْجَحْدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ ؛ الهاءُ في قوله (فَإنَّهَا) عمادٌ، وهو إضمارٌ على شريطةِ التفسير، والمعنى: فإنَّ الأبصارَ لا تَعْمَـى؛ أي يَـرَوْنَ بأبصـارهم، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ ؛ قلوبُـهم بذهابِـــها عــن إدراكِ الحقِّ بما يؤدِّي إليه الدليلُ.

وفي الآية دليلٌ أنَّ العقلَ في القلب بخلاف ما قالَهُ الفلاسفةُ والأطباء: أن مَحَلَّ العقلِ الرأسُ الدماغ؛ لأن العقلَ لو لَم يكن في القلب لَم يُوصَفِ القلـبُ بـأن يَعْمَـى، كما لا تُوصَفُ بذلك اليدُ والرِّجل، وأما وصفُ القلوب بأنَّها في الصُّدور فعلى وجهِ التأكيد، كما في قولهِ تعالى ﴿يَقُولُـونَ بأفْواهِـهِمْ﴾(١)، وقولـهِ تعـالى ﴿وَلا طَـائِرٍ يَطِـيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾(٢).

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ ؛ أي وَيَسْتَعْجِلُونَكَ يا مُحَمَّدُ بالْعَذَاب، كما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَـفاً مِـنَ السَّـمَاءِ﴾(٣)،

(١) آل عمران / ١٦٧ . (٢) الأنعام / ٣٨ .

(٣) الشعراء / ١٨٧ .

وقالوا ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[1]، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ في إنزال العذاب بهم في الدُّنيا .قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾؛ معناهُ: إنَّهم يستعجلونَ بالعذاب، وإنَّ يوماً من أيَّام عذابهم في الآخرةِ ألفُ سنةٍ، فكيفَ يستعجلونه ؟! قال الفرَّاء في هذه الآية: (وَعِيدٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)[2].

وَقِيْلَ: معناهُ: وإنَّ يوماً عندَ الله والفَ سنةٍ في قدرته لواحدٌ، فليس تأخُّرُ العذاب عنهم إلاّ تفضُّلاً من اللهِ عليهم. قال الزجَّاجُ: (أعْلَمَ اللهُ أنَّهُ لاَ يَفُوتُهُ شَيْءٌ، وَإنَّ يَوْماً عِنْدَهُ وَألْفَ سَنَةٍ سَوَاءٌ، وَلاَ فَرْقَ بَيْنَ إيْقَاعِ مَا يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنَ الْعَذَابِ فِي تَأْخِيْرِهِ فِي الْقُدْرَةِ، إلاَّ أنَّ اللهَ تَفَضَّلَ بالإمْهَالِ، فَسَوَاءٌ عِنْدَهُ فِي الإمْهَالِ يَوْمٌ وَألْفُ سَنَةٍ؛ لأنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ مَتَى شَاءَ أخَذهُمْ)، قال الكوفيُّون وابنُ كثير: (مِمَّا يَعُدُّونَ) بالياء، وقرأ الباقونَ بالتاء[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي قُل لَهم يا مُحمَّد: يا أهلَ مكَّة إنَّما أنا لكم رسولٌ مُخَوِّفٌ بالنار لِمن عصَى اللهَ بلُغَةٍ يعرفونها،﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾؛ لدينهم، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾؛ حَسَنٌ في الجنَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾؛ أي والذينَ أسْرَعُوا في تكذيب آياتنا، وإبْطَال الدين مُبالِغِين للهِ ظَانِّينَ أن يعودنا ويفوتنا بقولهم أنْ لا جنةَ ولا نار ولا بعثَ ولاَ نشور، ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾؛ قال قتادةُ:

---

(١) الأنفال / ٣٢ .

(٢) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٢٩.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٢ ص١٧٤.

(ظَنُّوا بجَهْلِهِمْ أنَّهُمْ يُعْجِزُونَ اللهَ فَلاَ يَقْـدِرُ عَلَيْـهِمْ، وَهَيْـهَاتَ)[١]. وهـذا كقولـهِ ﴿أمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أنْ يَسْبقُونَا﴾[٢]، ومَن قـرأ (مُعْجِزِيـنَ) فمعنـاهُ: أنّـهم كانوا يُعْجِزُونَ مع مَن اتبعَ النبيَّ ﷺ أي ينسبونَهم إلى العجزِ.

وقولـهُ تعـالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾؛ قال ابنُ عبَّاس وابن جُبير والضحَّـاكُ: (وذلـكَ أنَّ الشـيطانَ أتـى رسـولَ الله ﷺ في صُورةِ جبريلَ وهو قائمٌ يصلّي عند الكعبةِ يقرأ سورةَ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ حتَّى اذا انتهى إلـى قولهِ تعالى ﴿أفَرَأيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْـرَى﴾[٣] ألقـى الشـيطانُ علـى لسانه (تلكَ الغَرَانِيْقُ العُلى منها الشفاعةُ ترتَجـى)، فلمـا سمـعَ المشـركون أعجبَـهم ذلك، فلما انتهى إلى آخرِ السورة سَجَدَ، وسَجَدَ معه المسلمون والمشركونَ إلاّ الوليـدَ بن المغيرة، فإنه لَم يقدر على السُّجود لكِبَرِه، فقال: ائتونِي بـالتُّراب، فـأتوهُ بالـتراب فوضعَهُ على كَفِّهِ، ثم سجد على كفِّه، فلما نزلَ جبريلُ على النبيِّ ﷺ ذكرَ لـه ذلـكَ، فقال جبريلُ: ما جئتُكَ بهذه ولا أنزلَهُ اللهُ تعالى، فقالَ: أتاني شيءٌ في مثـلِ صورتِـكَ فألقاهُ عليَّ)[٤].

وهذا حَدِيْثٌ أنْكَرَ أهْلُ الْعِلْمِ إجْرَاءَهُ على ظاهرِهِ، وقالوا: كيفَ يجوزُ أن يجعلَ اللهَ للشيطان على رسولهِ هذا السلطانَ، أوَ يختارُ لرسالته مَن لا يُمَـيِّزُ بـين وحـيِ الله ووساوسِ الشَّيطان؟! ومِن المعلوم أن مَن نَسبَ النبيَّ ﷺ به إلى مـا يرجـعُ إلى تعظيـمِ الأصنام فقد كفَرَ، إلاّ أنه يحتملُ أن يكون الشيطانُ ألقى في تلاوةِ النبيِّ ﷺ ما لَم يَقُلْهُ، وخُيِّلَ إلى مَن سَمع تلاوتَهُ مِن الذين كانوا بالبُعْدِ منهُ أنه جرَى على لسانهِ، وإنَّما هـو من لسانِ الشيطان، وكان ذلك فتنةً للتابعين، وكان النبيُّ ﷺ مَعْصُوماً مِـن أن يَجْـرِيَ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩١٥٣). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٥٠٠.

(٢) العنكبوت / ٤ .

(٣) النجم / ١٩ و٢٠ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٩١٥٨ و١٩١٥٩ و١٩١٦٠).

على لسانهِ ما لَم يُنَزِّلْهُ اللهُ. وقد يُذْكَرُ التَّمَنِّي ويرادُ به القراءةُ كما قال الشاعر[١]:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لاَقِي حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال جماعةٌ من المفسِّرين: كان رسولُ الله ﷺ حَريصاً على إيْمان قومهِ، وتَمنَّى في نفسهِ مِن الله أن يأتيه ما يقاربُ بينه وبين قومهِ، فجلسَ ذات مرَّة بهم في مجلسٍ كثيرٌ أهلهُ، وأحبَّ يومئذ أن يأتيه من اللهِ شيءٌ فقرأ عليهم سُورة النَّجْمِ، فلما بَلَغَ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ ألقى الشيطانُ على لسانهِ (تلك الغرانيقُ العلى وأن شفاعتهم ترتجى) فلما سَمعت قريشُ ذلك فرحُوا وقالوا: قد ذكَرَ مُحَمَّدٌ آلِهَتنا بأحسنِ الذكر، ومضَى النبيُّ ﷺ في قراءته، فلما ختَمَ السورةَ سَجَدَ في آخرها وسجدَ معه المسلمون والمشركون إلاّ الوليدَ بن المغيرةِ وسعيدَ بن العاص فإنَّهما أخذا حفنةً من البطحاءِ ورفَعَاها إلى جبهَتِهما وسجدا عليها؛ لأنَّهما كانا شَيخين كبيرين لَم يستطيعا أن يسجُدَا.

وتفرَّقت قريشُ وقد سرَّهم ما سَمِعُوا[٢] وقالوا: قد عرفنا أن آلِهَتنا تشفعُ لنا، فنَزَلَ جبريلُ على النبيِّ ﷺ فقال لهُ: يا مُحَمَّدُ لقد تَلَوْتَ قومَكَ ما لَم آتِكَ بهِ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، فاشتدَّ ذلك على النبيِّ ﷺ وحَزِنَ حُزناً شديداً وخافَ من اللهِ خوفاً كثيراً، فأنزلَ الله هذه الآيةَ تُطيِّبُ نفسَ مُحَمَّدٍ ﷺ وتخبرَهُ[٣] بأن الأنبياءَ قبله كانوا مثله، ولم يُبعث نبياً إلاّ تَمنَّى أن يؤمنَ قومهُ، ولَم يَتَمَنَّ ذلك نبيٌّ إلاّ ألقى الشيطانُ عليه ما يُرْضِي قومَهُ. فلما نزلت هذه الآيةُ قالت قريشُ: نَدِمَ مُحَمَّدٌ على ما ذكرَهُ من منْزِلة آلِهتنا عندَ الله فغيَّر ذلك وجاءَ بغيره[٤].

---

(١) البيت لحسان بن ثابت ﷺ يرثي عثمان بن عفان ﷺ وأول ليلة أو أول ليلِهِ، أي قرأ القرآن كله أول الليل. وسيأتي بلفظ آخر قريباً.

(٢) في المخطوط: (فأسمعوا) وهو غير مناسب.

(٣) في المخطوط: (ويخبره).

(٤) روايات من حديث مُحمَّد بن كعب القرظي، أخرجه الطبري في جامع البيان: الرقم (١٩١٥٥-١٩١٥٦).

وقال عطاءُ عن ابنِ عبَّاس: (إنَّ شيطاناً يقالُ له الأبيضَ أتى النبيَّ ﷺ فألقى في قُرْآنِهِ: إنَّها الغرانيقُ العُلى وأن شفاعتها لترجى، ولَم يقُلْها النبيُّ ﷺ، بل سَمِعه القومُ من الشيطان، وكلُّ ذلك فتنةٌ من الله تعالى لعبادهِ المسلمين والمشركين، فالمشركونَ ازدادُوا كُفْراً بذلك، والمسلمونَ اشتدَّ عليهم الأمرُ).

ومعنى الآيةِ: وما أرسلنَا من قبلِكَ من رسولٍ وهو الذي يأتيه جبريلُ بالوحي عَيَاناً وشِفَاهاً، ولا نبيٍّ وهو الذي تكونُ نبوَّتُهُ إلْهَاماً أو مَنَاماً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ مرسلٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ إذا تَمَنَّى) أي أحبَّ شيئاً واشتهاهُ وحدَّثَ نفسه من غيرِ أن يؤمرَ به (أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَتِهِ) أي في قراءتهِ وتِلاوته، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ﴾[1] أي قراءةً تُقرأ عليهم. قال الشاعرُ في عثمان رضي الله عنه:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهَا لاَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال الحسنُ: (أَرَادَ بِالْغَرَانِيْقِ الْمَلاَئِكَةَ) يعني أن شفاعتَهم تُرتَجى منهم لا من الأصنام. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ) أي يُبْطِلُهُ ويزيله ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتهِ فيُثْبتُها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ؛ بمصالح عبادهِ، ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ ؛ في تدبيرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ؛ أي ليجعلَ ما يُلقي الشيطانُ في قراءتهِ فتنةً للذين في قلوبهم شَكٌّ ونفاقٌ؛ لأنَّهم افْتُتِنُوا بما سَمِعوا فازدادوا عُتُوّاً، وظَنُّوا أن مُحَمَّداً ﷺ يقولُ الشيءَ مِن عند نفسهِ فيبطلهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ؛ يعني المشركينَ كذلك ازدَادُوا فتنةً وضلالة وتكذيباً، سَمَّاهم قاسيةَ قلوبهم؛ لأنَّها لا تلينُ لتوحيدِ الله، وقولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ؛ يعني أهلَ مكَّة، ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ ؛ أي مشاقَّةٍ بعيدةٍ عن الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ؛ معناه: وليَعْلَمَ المؤمنون رُجُوعَكَ إلى الصواب، إنَّ ذلك حقٌّ من ربكَ فتخضعَ وتَذِلَّ له قلوبُهم. وَقِيْلَ: معناهُ: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ التوحيدَ والقُرْآنَ.

---

(١) البقرة / ٧٨

قال السديُّ: (التَّصْدِيْقُ أنَّهُ الْحَقُّ) أي إنَّ نَسْخَ ذلك وإبطالَهُ حقٌّ من اللهِ، ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ ؛ وتصديقِ النَّسْخِ، ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ أي تَرِقَّ قلوبُهم للقُرْآنِ فينقَادُوا لأحكامه، بخلافِ المشركين الذين قِيْلَ: لهم (وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ فيه بيانُ أن هذا الإيْمَانَ والإخْبَاتَ إنَّما هو بلُطفِ الله وهدايته إياهم، والمعنى: وإنَّ اللهَ لَهَادِيْهِمْ إلى دِينٍ يرضاهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ ؛ أي في شَكٍّ من القُرْآن، ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ ؛ يعني سَاعَةَ موتِهم، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ يعني يوم بَدْرٍ في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد[1]، سَمَّاهُ اللهُ العقيمَ الذي لا يأتِي بخير. وَقِيْلَ: يومُ القيامةِ سَمَّاهُ الله عَقِيْماً لأنه لا مِثالَ له في عِظَمِ أمرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أي الْمُلْكُ يومَ القيامةِ للهِ تعالى من غير مُنَازعٍ ولا مُدَّعٍ، لا يظهرُ الأمر فيه إلاَّ للهِ تعالى، ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ فيقضي فيه بين المؤمنينَ والكافرين بإدخال المؤمنين الجنَّةَ، وإدخال الكافرين النارَ.

قوله: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ؛ معناهُ: والذين هَاجَرُوا وأخْرجُوا من ديارهم وأوطانِهم في طاعةِ الله من مكَّة إلى المدينةِ، ثُم قُتِلُوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رزقاً حَسَناً وهو نعيمُ الجنة، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴾ ؛ يعني به المنازلَ التي أعدَّها اللهُ لَهم في الجنَّةِ، لَهم فيها ما تشتهي الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ، خالدين فيها لا يَبْغُونَ

(١) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص٢٥٣.

عنها حِوَلاً، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ ؛ أي عَلِيْمٌ بمصالح عباده ونيَّاتِهم، ﴿ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ لا يُعَجِّلُ بعقوبةِ أعدائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ ؛ الآيةُ؛ أي ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنَا عليكَ، ثُم قال (وَمَنْ عَاقَبَ بمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ)، ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في قومٍ من المشركين لَقُوا جماعةً من المسلمين فقَاتَلُوهُمْ في الشَّهرِ الحرام، فنَهَاهُمُ المسلمونَ عن ذلك فأَبَوا، فلما أبَوْا قاتَلَهم المسلمون فنُصِرُوا؛ أي ومَن عاقبَ بالقتال بمثل ما عُوقِبَ بهِ؛ أي بالقتال في الشهر الحرامِ ثُم بُغِيَ على الدافعِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ على مَن بَغَى عليه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ ﴾ ؛ أي متجاوزٌ عن مَن فاتَ ﴿ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ لِمن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي ذلك النصرُ بأنه القادرُ على ما يشاء، فمِن قدرتهِ أنه يُولِجُ الليلَ في النهار، ﴿ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي سَمِيْعٌ لِمَنْ دعاهُ بَصِيْرٌ بعبادهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي ذلك الذي نَقَلْتُهُ من نُصْرَةِ المؤمنين بأنَّ اللهَ ذو الحقِّ في فعلهِ وقدرتهِ، ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ ﴾ ؛ المشركونَ؛ ﴿ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ ؛ ليس فيه نفعٌ ولا ضررٌ، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ﴾ ؛ على كلِّ شيء بقدرتهِ، ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ الذي يَصْغُرُ كلُّ شيء سِواهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ ؛ أي ألَم تَعْلَمْ وتشاهد أنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً؛ يعني المطرَ، فتُصبحُ الأرضُ ذاتَ خُضرةٍ بالنبات، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ ﴾ ؛ بأرزاق عباده واستخراجِ النبات من الأرض، ﴿ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ بما في قلوب العباد وبما يصلحُ لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ عَبْداً ومَلِكاً، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ ؛ عن عبادهِ، ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ إلى أوليائهِ وأهلِ طاعته، وَقِيْلَ: الْغَنِيُّ عن إيمانِ الخلق وطاعتهم، الْمَحْمُودُ في أفعالهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي ألَم تَعْلَمْ أنَّ اللهَ ذلَّلَ لكم مَا فِي الأَرْضِ؛ يعني البهائمَ التي تُرْكَبُ، وَ سَخَّرَ لكم ﴿ وَٱلْفُلْكَ ﴾ ؛ أي السُّفُنَ؛ ﴿ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ ؛ أي حَبَسَ عنكم السَّماءَ حتى لا تقعَ عليكم فتهلكُوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: (إلاَّ بإذْنِهِ) أي إلاّ بإرادتِهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي مُتَفضِّلٌ على عبادهِ، مُنْعِمٌ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ؛ أي أحيَاكُم في أرحامِ أمَّهَاتِكم، ولَم تكونوا شيئاً. وَقِيْلَ: معناهُ: أحياكُم بعدَ أن كنتم نطفةً ميتة، ثُم يُميتُكم بعدَ إنقضاء آجالِكم، ثُم يحييكم بعدَ الموتِ عند البعث للحساب، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ يعني الْمُشْرِكَ الجحودَ لنِعَمِ الله حتى تَرَكَ توحيدَهُ بعد ظهور الآيات الداعية إلى الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ ؛ أي لكلِّ أهلِ دِين جعلنا شَريعةً هم عاملون بها، وَقِيْلَ: مَوْضِعاً تعتادُونه لعبادةِ الله، ومَكَاناً تعيشونه وتعملون الخيرَ فيه. وَقِيْلَ: معناهُ: لكلِّ أمَّةٍ جعلنا عِبراً. وقال قتادةُ: (مَوْضِعُ قُرْبَانٍ يَذْبَحُونَ فِيْهِ)، وَقِيْلَ: الْمَنْسَكُ جميعُ العباداتِ التي أمرَ اللهُ بها، كما قالَ ﷺ يومَ الأضحى: [إنَّ أوَّلَ نُسُكٍ فِي يَوْمِنَا هَذا الصَّلاَةُ ثُمَّ الذبحُ][1] . وَقِيْلَ: أراد بالمنسكِ في هذه الآية الْمَذْبَحَ الذي يتقرَّبون فيه بذبائحِهم إلى اللهِ تعالى، كما جعلَ مكاناً منحراً للإنسان؛ لأن النُّسُكَ إذا أُطْلِقَ أُريد به الذبحُ من جهة القُرْبَةِ، كما قالَ ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُكٍ﴾[2] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ ؛ معناه: النَّهْيُ عن المنازعةِ بعد ظهور ما يوجبُ نَسْخَ الشرائعِ المتقدِّمة، كما يقالُ: لا يُخَاصِمُكَ فلانٌ في هذا الأمر. وَقِيْلَ: معناهُ: لا ينازعَنَّكَ في أمرِ الذبح، وذلك أن كفارَ قريش خَاصَمُوا رسولَ اللهِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ج٤ ص٢٨٢. والبيهقي في السنن الكبرى:ج ٥ ص٩٨.
(٢) البقرة / ١٩٦ .

ﷺ وأصحابَهُ في أمرِ الذبيحة؛ وقالوا: ما لكم تأكلونَ ما قتلتُم بأيديكم، ولا تـأكلونَ ما قَتَلَهُ الله ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي ادْعُ إلى دينِ ربكَ وطاعته إنَّكَ على هُدًى مستقيم، وَقِيْـلَ: علـى دَلاَلَـةٍ وديـنٍ مستقيم. ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ ﴾ ؛ على سبيلِ المراءِ والتَّعَنُّـتِ كمـا يفعلـهُ السـفهاء، ﴿ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي إدفعْهُم بهذا القول، ولا تُجَـادِلْ إلاّ لِتَبْيِيْـنِ الحـقِّ، والمعنى: وإنْ خَاصَمُوكَ في أمرِ الذبيحةِ فَقُلِ اللهُ أعْلَمُ بما تَعْمَلُونَ مِـنَ التكذيـب فـهو يُجازيكم به، وهذا قَبْـلَ الأمـرِ بالقتـال. وقولـهُ تعـالى: ﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ ؛ أي يَقْضِي بينكم يومَ القيامة، ﴿ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ من الدِّين والذبيحةِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ ؛ أي قـد عَلِمْتَ وأيقنتَ ذلك، وهذا استفهامٌ يراد به التقرير، وَقِيْلَ: معناهُ: ألَمْ تعلم يا مُحَمَّـدُ أنَّ الله يعلمُ أعمالَ أهلِ السَّماء والأرضِ وأسـرارَهم ؟ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ ﴾ ؛ يعني ما يَجري في السَّماء والأرض، كلُّ ذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ ﴾ ؛ أي أنَّ عِلْمَ اللهِ بجميعِ ذلكَ عليه يسيرٌ سهلٌ.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ ﴾ ؛ معناهُ: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِه الأصنامَ ما لَم يُنَزِّلْ بـه كِتَابـاً ولا حُجَّـةً، ومـا ليـس لَـهم بـه علـمٌ أنَّـها آلِهـةٌ، ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي ومَـا للمشركين مِن مانعٍ يَمْنَعُ عذاباً عنهم، نزلت هذه الآيةُ في أهلِ مكَّة.

قَوْلُـــهُ تَعَـــالَى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ ﴾ ؛ أي وإذا يُقْـرَأ عليـهم القُـرْآنُ تَعْـرفُ في وجوهِـهُمُ الإنكـارَ للقُرْآنِ مـن الكراهـةِ والعُبُـوس، ﴿ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ ﴾ ؛ أي يكادون يَسْطُونَ بالمؤمنين ليَرُدُّوهم. وَقِيْـلَ: معنـاهُ: يكـادون يَقِعُـونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ مِن شدَّة الغيظِ. وَقِيْلَ: يكادون يَسْطُونَ إلى المؤمنينَ أيدِيَهم بالسُّوء. يقـالُ: سَطَا فلانٌ على فلانٍ إذا تناولَهُ بالسَّطْوِ والعنف، وأخذهُ بالشدَّة والإخافةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ﴾ ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّدُ أفأُخبرُكمْ بشَرٍّ عليكم من غَيْظِكم على التالي لآياتِ الله وهو ﴿ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ يصيرون إليها، ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: إنَّ الكفارَ قالوا: واللهِ ما رأينا قَوْماً أقلَّ حَظّاً منكم يا أصحابَ مُحَمَّدٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: قُلْ يا مُحَمَّدُ: أفأخبرُكم بشَرٍّ مِنْ ذلِكُمْ؛ أي بشَرٍّ مما قُلْتُمْ: النارُ مَن دخلَها فحالهُ شرٌّ مِن حالنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ ؛ معناهُ: يا أهلَ مكَّةَ بُيِّنَ مَثَلُ آلِهَتِكُمْ فاسْتَمِعُوا لَهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ من الأصنام، ﴿ لَن يَخْلُقُوا۟ ﴾ ؛ أي لن يقدِرُوا أن يخلقوا، ﴿ ذُبَابًا ﴾ ؛ مع صُغْرِهِ وقِلَّتِهِ، ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ ؛ العابدُ والمعبُودُ على ذلكَ، وكان لهم ثلاثمائة وستُّون صَنَماً حولَ الكعبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَطْلُونَ أصْنَامَهُمْ بالزَّعْفرَان وَالْعَسَلِ، فَيَأْتِي الذُّبَابُ فَيَحْمِلُهُ فَلاَ يَقْدِرُونَ أنْ يَسْتَرِدُّوهُ مِنَ الذُّبَاب)[١]. وقال السديُّ: (كَانُوا يَجْعَلُونَ لِلأَصْنَام طَعَاماً، فَيَقَعُ عَلَيْهِ الذُّبَابُ فَيَأْكُلُ مِنْهُ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ إنْقَاذَهُ مِنْهُ)[٢] فـ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ ﴾ ؛ من الأصنام، ﴿ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ هو الذبابُ. وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ ضَعُفَ الْعَابِدُ وَالْمَعْبُودُ)[٣]. وَقِيْلَ: معناهُ: ضَعُفَ الذُّبابُ الطالبُ لِما يأخذهُ من الصَّنمِ، وضَعُفَ المطلوبُ يعني الصَّنَمَ. وَقِيْلَ: ضَعُفَ الطالبُ مِن هذا الصنمِ المتقرِّب إليه، والصنمِ المطلوب منه ذلك.

وَقِيْلَ: إن المشركينَ كانوا خرَجُوا في عيدٍ لَهم بأصنامِهم، وقد زيَّنُوها باليواقِيتِ واللآلِئ وأنواعِ الجواهر، وطيَّبُوها بأنواع الطِّيب وغشَّوها بالْحِلِيِّ والْحُلَلِ، فجاء ذبابٌ فأخذ شَطْبَةً من تلك الزِّينة - أي قِطْعَةً - فطارَ بها في الهواءِ، فأراهم اللهُ تعالى العبرةَ في ضَعْفِهم وضعفِ معبودهم، فلا أحدٌ مما لا يُمكنه الاستنقاذُ من الضعيفِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٥٠٥.

(٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٧٥.

(٣) ينظر: معالم التنزيل للبغوي: ص٨٧٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ ؛ أي ما عَرَفُوهُ حقَّ معرفتِهِ، ولا عظَّمُوهُ حقَّ تعظيمه حيث عَدَلُوا به مَن لا يقدرُ أن يَخْلُقَ ذُباباً، أو يستنقذ مِن ذبابٍ ما ذهبَ به منه، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي قَوِيٌّ على خَلْقِهِ، عَزِيْزٌ في مُلكه، لا يقدرُ أحدٌ على مُغالبَتِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ ؛ معناهُ: اللهُ يختارُ من الملائكة رُسُلاً يعني جِبريل وميكائيلَ وإسرافيل ومَلَكَ الموتِ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِۚ ﴾ يعني من النبيِّين. أخبرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ الاختيارَ إليه، ويختارُ من يشاءُ ممن خَلَقَهُ، فيجعلُهم رُسُلَهُ وأنبياءَهُ يبعثُهم إلى خَلْقِهِ، فأطيعوهم واحذَرُوا معصيتَهم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌۢ ﴾ ؛ بمقالَتِكم، ﴿ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ بأعمالكم وضمائرِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ ﴾ ؛ أي يَعْلَمُ ما بين أيدِي الملائكةِ ورُسُلِهِ قَبْلَ أن يخلِقَهم، (وَمَا خَلْفَهُمْ) أي ما يكون بعد فنائهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ عواقب الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ ﴾ ؛ أي صَلُّوا، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ ؛ أي بجميع العبادات، ﴿ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ ﴾ ؛ من أنواعِ البرِّ مثلِ صِلَةِ الرَّحِم، وبِرِّ الوالدين، ومكارمِ الأخلاق، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ روي أنَّهم كانوا في أوَّلِ الإسلام يسجدون بغيرِ رُكوع، حتى نزلت هذه الآيةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾ ؛ أي جَاهِدُوا المشركين بحسب الطَّاقة واستفراغِها، ولا تخافُوا في اللهِ لومةَ لائمٍ، وقال بعضُ المفسِّرين: معناهُ: اعبدوا اللهَ حقَّ عبادتِهِ وأطيعوهُ حقَّ طاعته. قال السديُّ: (هُوَ أنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَى)[1] وقال مقاتلُ: (نَسَخَتْهَا آيَةُ التَّغَابُنِ ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2])، وَقِيْلَ: هو مجاهدةُ النَّفسِ والهوَى، وذلك حقُّ الجهاد وهو الجهادُ الأكبر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٥٠٦.

(٢) الآية / ١٦.

وقال بعضُهم: هو حقُّ الجهاد[١]؛ لِمَا رُوي عن النبيِّ ﷺ قال حينَ رجعَ من بعضِ غزواته: [رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ][٢]. وقال بعضُهم: في حقِّ الجهاد أنه [كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ][٣]. وقال الحسنُ: (هُوَ أنْ تُؤَدِّيَ جَمِيْعَ مَا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ، وَتَجْتَنِبَ جَمِيْعَ مَا نَهَاكَ اللهُ عَنْهُ، وَتَتْرُكَ رَغْبَةَ الدُّنْيَا). وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ: جَاهِدُوا بالسَّيْفِ مَنْ كَفَرَ باللهِ، وَإنْ كَانُواْ الآبَاءَ وَالأَبْنَاءَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾؛ أي اختارَكم لدِينه وجهادِ أعدائه، والاجْتِبَاءُ: هو اختيار الشَّيء بِمَا فِيْهِ مِنَ الصَّلاَحِ، يقال: الحقُّ يُجْتَبَى، والباطلُ يُتَّقَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾؛ أي ما جعلَ عليكم في شرائعِ دِينكم من ضِيْقٍ، وذلك أنه ما يتخلَّص منه بالتوبةِ، وما يتخلَّص منه بردِّ المظلمةِ، ويتخلصُ منه بالقصاصِ، وليس في دِين الإسلام ما لا سبيلَ إلى الخلاصِ من العقاب به، بل مَن أذنبَ ذنباً جعلَ اللهُ له مَخرجاً منه بالتوبةِ والكفَّارات، ولَم يبقَ في ضِيْقِ ذلك الذنب. وقال مجاهدُ: (يَعْنِي الرُّخَصَ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ كَالْقَصْرِ؛ وَالتَّيَمُّمِ؛ وَأكْلِ الْمَيْتَةِ؛ وَالإفْطَارِ عِنْدَ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾؛ أي إلْزَمُوا واتَّبعُوا مِلَّتَهُ، وَقِيْلَ: معناهُ: وَسَّعَ عليكم في الدِّين كَمِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ، إلاّ أنه لَمَّا حَذفَ حرفَ الجرِّ نصبَ الْمِلَّةَ، وإنَّما أمَرَ باتِّباع ملَّة إبراهيمَ؛ لأنَّها داخلةٌ في مِلَّةِ نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

وإنَّما قال: (أبِيْكُمْ إبْرَاهِيْمَ) وإن لَم يكن جميعُهم من نَسَبهِ؛ لأن حرمةَ إبراهيمَ عليه السلام على المسلمين كحرمةِ الوالدِ على الولد، وحَقَّهُ كحقِّ الوالدِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[٤].

---

(١) في جامع البيان: تفسير الآية: مج ١٠ ج١٧ ص٢٦٨؛ قال الطبري: (وحق الجهاد: هو استفراغ الطاقة فيه).

(٢) ذكره البغوي أيضاً في معالم التنزيل: ص٨٧٦.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب الملاحم: باب الأمر والنهي: الحديث (٤٣٤٤). والترمذي في الجامع: أبواب الفتن: الحديث (٢١٧٤).

(٤) الأحزاب / ٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ نزول القُرْآن، ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ ؛ القُرْآن، كما رُوي أنَّ الله تعالى أوحَى إلى إبراهيمَ: يُبْعَثُ بعدَكَ نبيٌّ فيكون قومُهُ مسلمينَ. وَقِيْلَ: معناهُ: إن إبراهيمَ سَمَّاكم المسلمينَ، كما قال في دعائهِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي لِيَكونَ مُحَمَّدٌ ﷺ شَهيداً عليكم يومَ القيامة بطاعةِ مَن أطاعَ في تبليغه، وعِصيَانِ مَن عَصَى، ﴿ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ؛ أنَّ الرُّسُلَ بلَّغتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ؛ أي أدُّوهُما كما وَجَبَتَا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ ؛ أي واعتَصِمُوا بدينِ الله وتَمسَّكوا به. وَقِيْلَ: معناهُ: اتَّقُوا باللهِ وتوكَّلوا عليهِ، ﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ ؛ أي هو ربُّكم وحافِظُكم، ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي فَنِعْمَ الحافظُ لكم، ونِعْمَ الناصرُ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ؛ أُعْطِيَ مِنْ أجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ اعْتَمَرَهَا بعَدَدِ مَنْ حَجَّ وَاعْتَمَرَ فِيْمَا مَضَى وَفِيْمَا يَبْقَى][(٢)].

آخر تفسير سورة (**الحج**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) البقرة / ١٢٨ .

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص١٦٩.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ مكّيّةٌ، وَهِيَ أرْبَعَةُ آلاَفٍ وثَمَانُمِائَةٍ وَحَرْفَانِ، وَألْفٌ وثمانُمِائَةٍ وَأرْبَعُونَ كَلِمَةً، ومِائَةٌ وثماني عَشْرَةَ آيَةً.

وعَنْ رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ بَشَّرَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ بالرَّوحِ وَالرَّيْحَانِ، وَمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ عِنْدَ نُزُولِ مَلَكِ الْمَوْتِ][1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ ؛ أي فازَ ونَجا وسَعِدَ المصدِّقون بالله ورسولهِ، وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [لَمَّا خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ، فِيْهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأتْ؛ وَلاَ أذُنٌ سَمِعَتْ؛ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ - ثَلاَثاً - ثُمَّ قَالَتْ: أنَا حَرَامٌ عَلَى كُلِّ بَخِيلٍ وَمُرَاءٍ][2]. قرأ طلحة بن مُصرِّف: (قَدْ اُفْلِحَ الْمُؤْمِنُونَ) على الْمَجْهُول؛ أي اُبْقُوا[3] في الثواب، وحرفُ (قَدْ) في اللُّغة لتزيينِ الكلام وتحسينه، وَقِيْلَ: لتقريبِ الحالة الماضية الى الحالةِ الآتية، فدلَّ على أن فلاحَهم قد حصلَ وهم عليه في الحالِ، وهو أبلغُ في الصِّفة من تجريدِ ذكر الفعل، والفَلاَحُ هو البقاءُ والنجاح.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٢٠١ وإسناده واه.

(٢) رواه الحاكم مختصراً في مستدركه: ج ٣: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٣٢). وأخرجه الطبري في جامع البيان بلفظ آخر عن كعب. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٨٣؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن عدي والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس).

(٣) في المخطوط: (اتقوا) وهو غير مناسب، وجرى التصحيح كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٠٣.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي مُتواضِعُـون خائفون، ويقالُ: سَاكِنُونَ بالقلب والجوارح فلا يَلْتَفِتُونَ يَميناً ولا شِـمالاً، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ: أنَّهُ رَأى رَجُلاً يَعبَثُ بلِحْيَتِهِ فِي الصَّلاَةِ، فَقَالَ ﷺ: [وَلَـوْ خَشَـعَ قَلْبُـهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ][1]، وعنه ﷺ: [أنَّهُ كَانَ إذا وَقَفَ فِي الصَّـلاَةِ رَفَـعَ بَصَـرَهُ نَحْـوَ السَّمَاءِ، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ جعل نَظَرَهُ إلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِ][2]. وحقيقة الخشـوع: هو جَمْعُ الْهِمَّةِ لتدبُّر الأفعال والأذكار.

وعن الحسن أنه قال[3]: (إنَّ الْخَاشِعِيْنَ هُمُ الَّذِيْنَ لاَ يَرْفَعُونَ أيْدِيَهُمْ فِي الصَّلاَةِ إلاَّ فِي التَّكْبِيْرَةِ الأوْلَى) وقال ابن عبَّاس: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ تَعَالَى: (خَاشِـعُونَ) أيْ أذِلاَّءُ)، وقال مجاهدُ: (الْخُشُوعُ هُوَ غَضُّ الْبَصَرِ وَخَفْضُ الْجَنَاحِ). وكان الرجلُ مِـن العلمـاءِ إذا قامَ إلى الصلاةِ يخافُ الرحمنَ أن يُسْنِدَ بصرَهُ إلى شيءٍ، وأن يُحَدِّثَ نفسَهُ بشيءٍ من الدُّنيا. وقال عمرُو بن دينـار: (لَيْـسَ الْخُشُـوعُ الرُّكُـوعُ وَالسُّـجُودُ، وَلَكِنَّـهُ السُّـكُونُ وَحُسْنُ الْهَيْئَةِ فِي الصَّلاَةِ).

وقال عطاءُ: (هُوَ أنْ لاَ تَعْبَثَ بشَيْءٍ مِنْ جَسَدِكَ فِـي الصَّـلاَةِ)، وعـن أبـي ذرٍّ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: [إذا قَامَ أحَدُكُـمْ إلَـى الصَّـلاَةِ فَـإنَّ الرَّحْمَـةَ تُوَاجِهُـهُ، فَـلاَ يُحَرِّكَنَّ الْحَصَى][4]. وَقِيْلَ: نظرَ الْحَسَنُ إلى رجلٍ يعبثُ ويقول: اللـهم زوِّجـني مِـن

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص٨٥؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الـترمذي عـن أبـي هريـرة). وفي تخريج الإحياء: ج ١ ص٣٣٩؛ قال العراقي: (رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديـث أبـي هريرة بسند ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب. رواه ابن أبـي شـيبة في المصنـف، وفيه رجل لم يسم).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: ج ٣: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٣٥). وأخرجه الطـبري في جـامع البيان: ج ١٠ ص٤: النص (١٩٢٣١).

(٣) في الأصل المخطوط: (كان) ومقتضى السياق: (قال).

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٥٠. والترمذي في السنن: كتاب الصلاة: باب ما جـاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة: الحديث (٣٧٩). والنسائي في السنن: كتاب صفة الصلاة: باب النهي عن مسح الحصى: الحديث (١١١٤). وأبو داود في السنن: كتاب الصلاة: بـاب في مسح الحصى في الصلاة: الحديث (٩٤٥).

الْحُور العِيْنِ، فقال لهُ الحسنُ: (بِئْسَ الْخَاطِبُ أَنْتَ، تَخْطُبُ وَأَنْتَ تَعْبَثُ). وقال قتادةُ: (الْخُشُوعُ هُوَ وَضْعُ الْيَمِيْنِ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلاَةِ). وقال بعضُهم: (هُوَ جَمْعُ الْهِمَّةِ لَهَا وَالإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهَا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (مَعْنَاهُ: عَنِ الْمَعَاصِي مُعْرِضُونَ)، وقال الزجَّاج: (اللَّغْوُ هُوَ كُلُّ بَاطِلٍ وَلَهْوٍ وَلَعِبٍ وَهَزْلٍ). وقيل: اللَّغْوُ الذي يُعرِضون عنه: هو كلُّ ما لا فائدةَ فيه، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[1] أي شَغَلَهُمُ الْجِدُّ فيما أمرَهم اللهُ به عن كلِّ باطلٍ ولَهوٍ ولعب، وعن كلِّ ما لا فائدةَ فيهِ من قولٍ وفعل. وقال مقاتلُ: اللَّغْوُ (هُوَ الشَّتْمُ وَالأَذَى)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ أي مؤدُّون، فعبَّرَ عن التأديةِ بالفعلِ لأنه فعلٌ. قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي بِهِ الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَةَ)، وَقِيْلَ: معناهُ: والذينَ هُم للعملِ الصالح فاعِلُونَ، ويدخلُ في هذا كلُّ فعلٍ يُذْكَرُ به الإنسانُ ويُحمَدُ عليهِ، كما يقالُ: ما أعطَى اللهُ أحداً نعمةً إلاّ أوجبَ عليه فيها زكاةً، فزكاةُ العلمِ نشرهُ وتعليمهُ، وزكاةُ الْجَاهِ إعانةُ الملهوفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ؛ أي يحفظونَها عن الحرام، ويغضُّون البصرَ عما لا يحلُّ لهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ؛ أي يُلامون في إطلاق ما حُرِّمَ عليهم إلاّ على أزواجِهم وإمَائِهم فإنَّهم لا يُلامون فيه. قال مجاهدُ: (يُفْرَضُ عَلَى الرَّجُلِ حِفْظُ فَرْجِهِ إلاَّ مِنَ امْرَأَتِهِ وَأَمَتِهِ، فَإِنَّهُ لاَ يُلاَمُ عَلَى ذلِكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ؛ أي مَن طَلَبَ للوَطْءِ طريقاً سِوَى ما أحلَّ اللهُ من النساءِ الأربع أو ما مَلكت أيمانُهم فأولئكَ همُ الْمُجَاوِزُونَ من الحلالِ إلى الحرام، فمَن زنَى فهو عادٍ.

---

(١) الفرقان / ٧٢ .

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٣٩٢.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾؛ أي الذين هُم لِمَا ائْتُمِنُوا عليه فيما بينَهم وبين الله وبينَ الناس حَافِظُونَ حتى يؤدُّوه على وجهِهِ. والرَّعْيُ: هو القيامُ على إصلاحِ ما يتولاَّهُ، كما قال ﷺ: [كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ](١)، وقال اللهُ تعالى ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلَى أهْلِهَا﴾(٢). وقرأ ابنُ كثير: (لأَمَانَتِهِمْ) بالتَّوحيدِ لأنه مصدرٌ واسمُ جنسٍ فيقعُ على الكثيرِ(٣)، والأمانةُ قد تكون بين العبيدِ، كالودائعِ وأشباهِها، وتكون بين الله وعبيدِهِ كالصِّيام والاغتسال من الجنابة والصَّلاة، فيجبُ على المؤمنينَ الوفاءُ بجميع حقوق الأمانات. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) يشتملُ على طاعةِ الله تعالى التي يجبُ الوفاء بها، وعلى جميعِ العقود والأيْمَان والنُّذور.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾؛ أي يُواظِبُونَ على الصَّلواتِ، ويجتهدون في أوقاتِها المداومون فيها بفرائضِها وسُنَنِها وآدابها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي أهلُ هذه الصِّفات التي ذكَرَها اللهُ من أوَّل هذه السُّورة إلى هَهُنا هُمُ الْوَارِثُونَ الذين يَرِثُونَ يومَ القيامةِ منازلَ أهلِ النَّار من الْجَنَّةِ التي كانت لَهم لو أطاعُوا اللهَ ورسولَهُ. قال ﷺ: [مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ وَلَهُ مَنْزِلاَنِ، مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّار، فَإنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ](٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾؛ الفِرْدَوْسُ في اللُّغة: هو الْبُسْتَانُ الْجَامِعُ لِمَحَاسِنِ أجْنَاسِ الْكُرُومِ وَغَيْرِهَا. وقال عكرمةُ: (الْفِرْدَوْسُ هُوَ الْجَنَّةُ بلُغَةِ الْحَبَشَةِ).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: ج ٧: الحديث (٦٨٧٦. والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: باب (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً): الحديث (٥١٨٨).

(٢) النساء / ٥٨ .

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٧٧. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٧٨.

(٤) رواه ابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: باب صفة الجنة: الحديث (٤٣٤١) بإسناد صحيح.

وفي الحديثِ: أنَّ حَارِثَةَ بْنَ سُرَاقَةَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَتْ أمُّـهُ: يَـا رَسُـولَ اللهِ إنْ كَانَ ابْنِي مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ لَمْ أبْكِ عَلَيْهِ، وَإنْ كَانَ مِنْ أهْلِ النَّارِ بَالَغْتُ فِي الْبُكَاءِ عَلَيْـهِ، فَقَالَ: [يَا أمَّ حَارِثَةَ! إنَّ ابْنَكِ قَدْ أصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ][1].

وعن رسول اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: [لَقَدْ أنْزِلَتْ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَـنْ أقَامَـهُنَّ دَخَـلَ الْجَنَّةَ] ثُمَّ قرأ (قَدْ أفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) إلى آخر الآيات العشر[2]. وقال مجاهدُ: (مَنْ حَفِظَ الْعَشْرَ مِنْ سُـورَةِ الْمُؤْمِنِيْـنَ وَرِثَ الْفِرْدَوْسَ). قـال ابـنُ عبَّـاس: (الْفِـرْدَوْسُ خَيْرُ الْجِنَانِ)، وقالَ ﷺ: [إنَّ اللهَ غَرَسَ الْفِرْدَوْسَ بِيَـدِهِ، ثُـمَّ قَـالَ: وَعِزَّتِـي وَجَلاَلِـي؛ لاَ يَدْخُلُهَا مُدْمِنُ خَمْرٍ وَدَيُّوثٌ] قَالُوا: مَا الدَّيُّوثُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [الَّـذِي يَرْضَـى الْفَوَاحِشَ لأَهْلِهِ][3].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي خلقنا آدمَ من سُلالة سُلَّتْ مِن طين، والسُّلاَلَةُ: ما سُلَّ مِن الشيءِ؛ أي نُزِعَ واسْتُخْرِجَ منهُ، يقالُ للنُّطفةِ: سُلاَلَةٌ، والولدُ سَـلِيْلٌ وسُـلاَلَةٌ. قـال مجاهدُ: (السُّـلاَلَةُ مَنِيُّ بَنِـي آدَمَ)[4]، وقال عكرمةُ: (هُوَ الْمَاءُ سُلَّ مِنَ الظَّهْرِ سَلاًّ)، والمرادُ بالانسان وَلَدُ آدمَ، وهو اسمُ جِنْسٍ يقعُ على الجميعِ. والمعنى: خَلَقْنَا ابْنَ آدَمَ مِـن سُـلالةٍ مِـن طـينٍ؛ أي مِـن صَفْوَةِ ماء آدم الذي هو من طينٍ[5].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾؛ ثم خلقنا ولـدَ آدمَ من نُطفة في موضعٍ حريز يعني الرَّحِمَ، مَكَّنَ فيه الماءَ بـأن هُيِّأَ لاسـتقرارهِ فيـه إلى بُلوغِ أمره الذي جُعِلَ لَهُ. وإنَّما سُمي الْمَنِيُّ سُلاَلَةً؛ لأنه سُـلَّ مـن أصـلاب الرجـل وتَرائِب النِّساءِ، ثُم يكون قرارهُ في أرحامِ الأمَّهاتِ.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب من أتاه سهم غرب فقتله: الحديث (٢٨٠٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٣٤.

(٣) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٧٨. والديلمي في الفردوس: النص (٦٧٥) عن علـي ﷺ. وذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (١٥١٣٥) وتمامه كما في الرقم (١٥١٣٧)، وعزاه إلى الخرائطي في مساوئ الأخلاق عن عبدالله بن نوفل.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٢٦٣).

(٥) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٢٦٢) عن ابن عباس.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ ؛ أي صَيَّرْنا النطفةَ دَماً منعَقِداً، ثم صيَّرنا الدمَ لَحماً بلا عظمٍ، والْمُضْغَةُ: هي القطعةُ الصغيرة من اللَّحمِ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا ﴾ ؛ أي حولنا المضغة عظاماً، ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ﴾ ؛ أي ثم ألبسنا العظام لحماً؛ ليكون أبهى في النظر وليكون اللحم وقاية للعظم. وقرأ ابن عامر: (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَظْماً فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ لَحْماً)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ بأنْ جعلنا فيه الرُّوحَ بعد أن لم يكن، ثُم جعلناه ذكَراً أو أنثى إلى أن أعطيناهُ الفهمَ والتميِيز ليأخذ ثَدْيَ أمِّهِ عند الحاجةِ فيرتضعُ ويشتكي إذا تَضرَّرَ بشيءٍ. وقال مجاهدُ:(مَعْنَى قَوْلِهِ: (ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) يَعْنِي سَوَّيْنَا شَبَابَهُ). وقال قتادةُ: (يَعْنِي أنْبَتْنَا شَعْرَهُ وَأسْنَانَهُ)[2]. وَقِيْلَ: معناهُ: أعطيناهُ العقلَ والقوَّةَ والفهمَ، وربَّيْنَاهُ حالاً بعد حالٍ إلى أن بلغَ أن يتقلَّبَ في البلادِ.

وَقِيْلَ: إذا اجتمعَ الماءُ المتخلِّقُ منه الولدُ، فأولُ الحالاتِ أن يزيدَ، ثُم يستحيلُ ذلك الماءُ علقةً، وهو دمٌ غبيطٌ، ثُم يصيرُ مُضغةً، وفي تلك الحالةِ تظهرُ الأعضاءُ النَّفِيْسَةُ كالقلب والدِّماغ والكبدِ، فالقلبُ أول عُضْوٍ مكوَّن ثم الدماغُ ثم الكبدُ، ثُم يُنَحَّى بعضُها عن بعضٍ، وتخطَّطُ الأطرافُ، ثم يصير لَحماً على عِظَامٍ، وعظامُ البَدَنِ مائتان وأربعونَ عَظْماً، فإذا نُفِخَ فيه الروحُ لأربعةَ أشْهُرٍ انقسمَ دمُ الحيضِ ثلاثةَ أقسامٍ: قسمٌ يتغذى به الولدُ، وقسم يَحْتَبِسُ إلى النِّفَاسِ، وقسمٌ يصعدُ إلى الثَّدي.

وإنَّما ينفخُ الرُّوحُ في الجنينِ لأربعةِ أشهُرٍ؛ لأنه يكون نطفةً أربعين يوماً، ثُم يكون علقةً أربعين يوماً، ثُم يصيرُ مضغةً أربعينَ يوماً، ثُم ينفخُ فيه الرُّوحُ. ويكون

---

(١) في المخطوط تصحيف: رسمها الناسخ بلفظ: (فخلقنا المضغة عظماً فكسونا المضغة لحماً) وهو غير مناسب، والصحيح ما أثبتناه. وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر: (عَظْماً) بسكون الظاء على التوحيد في الموضعين، يريد الإفراد لا الجمع. ينظر: معالم التنزيل: ص٨٧٩. وتفسير ابن عطية: ص١٣٢٥.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: ج ١٠ ص١٥: النص (١٩٢٧٢).

الولدُ في بطنِ أمِّهِ معتمداً على رجليه وراحة يدَيه على رُكبتيه وظـهرهُ إلى وجـهِ الأم، ووجههُ إلى ظهرها حتى لا تتأذى الأمُّ بنَفَسِهِ.

وإنَّما خلَقَ اللهُ عَيْنَيْهِ في رأسهِ لتكونَ مشرفةً علـى جميعِ الأعضـاء في الجـهات كلها، كالطَّليعةِ للعسكرِ، وأصلحُ المواضـع للطلائـع المكـانُ الْمُشْـرِفُ، وجعلَـهُما في كَهْفَين حراسةً لَهما وتوفيراً لضوئِهما، وجعلَ لَهما الْهُدُبَ ليدفعَ ما نظر إليهما.

وخلقَ اللهُ الأنفَ لينحصرَ فيه الهواءُ الْمُسْتَنْشَقُ لترويحِ الرِّئة والدمـاغ. وخلـقَ الفَمَ وعاءً لجميعِ الكلام، وخلقَ اللِّسان آلةً للنُّطقِ، ولتقليب الطعام المضوغِ، والمضغُ يكون في جانِبَي الفمِ حراسةً لأداةِ النُّطـق. وخلـقَ الشَّـفَتين غطـاءً للفـمِ والأسـنان، ويَحْجُبَ اللُّعَابَ، ومُعيناً على الكلامِ، وجَمالاً في الصُّورة، والأسنانُ تُقَطِّعُ؛ والأنيابُ تكسرُ؛ والأضراسُ تطحَنُ. وخصَّ الفكَّ الأسـفلَ بـالتحريكِ؛ لأن تحريـكَ الأخـفِّ أحسنُ، لأن الأعلى يشتملُ على الأعضـاءِ الشَّـريفة فلـم يُخاطرهـا في الحركـةِ؛ لأن الحركةَ تُضْعِفُهَا. وجعلَ ماءَ الأذن مُرّاً لئلاَّ يقيمَ فيه الْهَوَام، فإذا دخلَ الأُذنَ دابَّـةٌ لَـم يكن لَها هَمٌّ إلاَّ الخروجَ. وجعلَ ماءَ العين مالحاً لئلاَّ يذوبَ، وجعل مـاءَ الفـمِ عَذِبـاً ليُطَيِّبَ طعمَ الطعام.

وخلقَ اللهُ الأصابعَ آلَةً لعملِ الأشياء كالكتابـةِ والصِّناعـة والخياطـة، وجعلَـها على الكفِّ لتحفظَ ما يُجعل فيها، ولَم يَخلقِ الأصابعَ خاليةً من العظامِ لتكون أفعالُها قويَّة، ولَم يجعَلْ عِظَامَها مُجَوَّفَةً لتكون أقوَى على القبضِ والحركات. وجعل القلـبَ في وسطِ الصَّدر لأنه أعدلُ الأماكنِ وقد مُيِّلَ قليلاً إلى اليَسار ليبعدَ عن الكبد، والرِّئةُ، وغطاءً للقلب ووقايةً له، وهو بيتُ النَّفَسِ ومنْزل الفَـرَحِ. وخلـقَ اللهُ الأمعـاءَ كثـيرة التَّلافِيْفِ ليطولَ سَتْرُ الغذاءِ، فلا يحتاجُ الإنسانُ إلى الغذاء في كـلِّ وقـتٍ، وخلـقَ اللهُ القدم أخْمَصَ ليمسِكَ الماشيَ في الدَّرَجِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ أي الْمُصَوِّرِيْـنَ الْمُحَوِّلِيْنَ من حال إلى حال، ومعنى قولهِ (تَبَارَكَ اللهُ) أي اسـتحقَّ التعظيـمَ والثنـاء، وَقِيْلَ: دَامَ لَم يزل ولا يزالُ. وقولهُ تعالى: (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) لا يقتضي أن يكون معهُ

خالقٌ آخر كما قال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[١]، ويقال: (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) أي أحسنُ المقدِّرين، فإنَّ الخلقَ هو التقديرُ كما قال تعالى مُخبراً عن عيسى عليه السلام ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾[٢] أي أقدِّرُ لكم من الطَّير.

قال ابنُ عبَّاس: (كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ شُرَيْحٍ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمْلَى عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ إلَى قَوْلِهِ (آخَرَ) خَطَرَ بِبَالِهِ (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، فَلَمَّا أَمْلاَهَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ كَذلِكَ، قَالَ عَبْدُاللهِ: إنَّ مُحَمَّداً نَبِيٌّ يُوحَى إلَيْهِ، وَأنَا نَبِيٌّ يُوحَى إلَيَّ. فَلَحِقَ بِمَكَّةَ فَمَاتَ كَافِراً)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾؛ أي بعدَ الحياة والْخَلْقِ الْحَسَنِ والصُّورة الحسنة مَيِّتُونَ عند انقضاءِ آجَالِكُمْ. قرأ أشهبُ العقيليُّ: (لَمَائِتُونَ) بالألفِ، والْمَيِّتُ وَالْمَائِتُ الذي لَم تفارقه الروحُ وهو سيموتُ، والْمَيْتُ بالتخفيفِ الذي فارقَهُ الروحُ، فلذلكَ لَم يُخفَّف كقول ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ يعني مِن قُبوركم للجزاء والحساب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾؛ أي سبعَ سَمواتٍ، سُميت طرائقَ؛ لأن كلَّ شيءٍ فوقَ شيءٍ فهو طريقةٌ، يقالُ: طَارَقْتُ نَعْلِي إذا جعلتُ جِلداً فوقَ جلدٍ. ويقالُ: سُميت طرائقُ لأنَّها طُرُقُ الملائكة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي وما كُنَّا عن حِفْظِ السَّموات، وعن إنزالِ المطر على العبادِ وقتَ الحاجةِ غافلينَ، ولو جَازَتِ الغفلةُ لَسقطَتِ السَّمواتُ بعضُها على بعضٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي أنزلنا المطرَ من السَّماء بقدر الحاجةِ إليه؛ أي بقَدْر ما يكفيهم للمعيشةِ، وَقِيْلَ: بقدرٍ يعلمهُ

(١) الفرقان / ٢٤ .
(٢) آل عمران / ٤٩ .
(٣) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٧ ص٤٠؛ قال القرطبي: (رواه الكلبي عن ابن عباس).
(٤) الزمر / ٣٠ .

الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ) أي جعلنا سُكْنَاهُ ومستقرُّهُ في الأرض مثل العيون والغُدْرَان والرَّكَايَا. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: [أنْزَلَ اللهُ مِنَ الْجَنَّةِ خَمْسَةَ أنْهَار: سِيحُون وَهُوَ نَهْرُ الْهِنْدِ، وَجِيحُونُ وَهُوَ نَهْرُ بَلْخ، وَدِجْلَةُ وَالْفُرَاتُ وَهُمَا نَهْرَا الْعِرَاق، وَالنِّيلُ وَهُوَ نَهْرُ مِصْرَ، أنْزَلَهَا اللهُ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أسْفَلِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِهَا عَلَى جَنَاحَي جِبْرِيْلَ. وَذلِكَ قَوْلُهُ (فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ). فَإذا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ يَأجُوجَ وَمَأْجُوجَ أرْسَلَ اللهُ جِبْرِيْلَ فَرَفَعَ مِنَ الأَرْضِ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْحَجَرَ الأَسْوَدَ وَهَذِهِ الأَنْهَارَ الْخَمْسَةَ، فَيَرْفَعُ ذلِكَ إلَى السَّمَاءِ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ فَإذا رُفِعَتْ هَذِهِ الأَشْيَاءُ فَقَدَ أهْلُهَا خَيْرَ الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا][1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ ؛ أي أخرجنا لكم بذلك المطر بساتينَ من نخيلٍ وكرُوم، وإنَّما خصَّها بالذِّكر لأنَّها أشرفُ الثِّمار، وقولُه تعالى: ﴿ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ ؛ سِوَى النخيلِ والأعناب، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ بإباحةِ الله لكم تأكلونَها صيفاً وشتاءً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ ؛ أي وأنْبَتْنَا بذلكَ المطر شجرةً وهي الزيتونةُ تخرجُ من جبلِ سَيْنَاءَ للبركةِ، كأنه قالَ: من جبلِ البركةِ. وقُرئ (طُور سَيْنَاءَ) بفتح السِّين. واختلفوا في المرادِ بالطُّور، قال بعضُهم: هذا الجبلُ الذي نادَى موسَى ربَّهُ عندَهُ. يقالُ: إن أصلَ شجرةِ الزيتون من ذلكَ الجبلِ؛ أي أوَّلُ ما غُرِسَتْ فيه. وقال بعضُهم: هو جبلٌ بالشَّام كثيرُ الأشجار والأثمار. وَقِيْلَ عن الزيتونةِ: أولُ شجرةٍ نَبتَتْ في الأرضِ بعد الطُّوفان. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ؛ قرأ أكثرُ القرَّاءِ (تَنْبُتُ) بفتح التاءِ وضمِّ الباء؛ أي تنبتُ بثمار الدُّهن يعني الزَّيْتَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بضمِّ التاءِ وكسرِ الباء، ومعناهُ معنى الأولِ. والباءُ في قولهِ تعالى (بالدُّهْنِ) للتعدِّي، يقالُ: أنْبَتَهُ وَنَبَتَ بهِ، وَنَبَتَ

(١) أخرجه الخطيب في تأريخ بغداد: ج ١ ص٧٩-٨٠: باب ذكر نهري بغداد دجلة والفرات وما جعل الله فيهما من المنافع والبركات.

الشَّيْءُ وَأَنْبَتَ بمعنى واحدٍ، قال الشاعرُ:

رَأَيْتُ ذوي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ قَطِيْناً لَهُمْ حَتَّى إذا أَنْبَتَ الْبَقْلُ

ويجوزُ أن تكون الباءُ زائدةً على قراءةِ مَن ضَمَّ التاءَ، كقوله ﴿وَلا تُلْقُوا بأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ﴾[١]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ) يعني الإدامَ، لأن الزيتَ إدامٌ يُصْبَغُ به الخبزُ، يقال: صِبْغٌ وصِبَاغٌ كما يقالُ: لِبْسٌ وَلِبَاسٌ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ ؛ أي لَعِظَةً ودلالةً على وحدانيَّتنا لو اعتبرتُم واستدلَلْتم، ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ يعني اللَّبنَ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ ؛ مِن الأولادِ والأوتارِ والأصوافِ والأشعارِ والرُّكوبِ على الإبلِ، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ؛ يعني لُحومَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ أي تُحملون على الإبلِ في البَرِّ وعلى السُّفن في البحر، وهذا كقولهِ تعالى ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٣] يقالُ: إن اللهَ تعالى جعلَ للناسِ مركَبين، مركباً لَيِّناً لسيرِ البرِّ، ومركباً يَابساً لسيرِ البحرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي أرسلناهُ إليهم ليدعوَهم إلى عبادتِنا، ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ عبادةَ غيرِه. ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ ؛ أي الأشرافُ منهم والرؤساءُ قالوا لسُفَائِهم: ﴿ مَا هَٰذَآ ﴾ ؛ الذي يدعوكُم إلى التوحيدِ، ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ؛ أي آدَمِيٌّ مثلُكم، ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ أي يَتقدَّمَ عليكم بدعوَى النبُوَّةِ ليكونَ له الفضلُ عليكم فتكونوا له تَبعاً، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ؛ أن يُرسِلَ إلينا رسولاً مِن عنده، ﴿ لَأَنزَلَ ﴾ ؛ أي لأرسلَ ﴿ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ ؛ مِن عنده، ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ ؛ بمثلِ هذه الدَّعوةِ، ﴿ فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ ولا أرسَلَ

---

(١) البقرة / ١٩٥ .

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٠.

(٣) الاسراء / ٧٠ .

إليهم بشراً، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ ؛ أي قالوا: ما نوحُ إلاّ رجلٌ به جُنُونٌ، ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي فانتَظِروا حتى يَموت فنستريحَ منه.

فلما يَئِسَ من إيْمانِهم؛ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي أعِنِّي عليهم بتكذيبهم إيَّايَ وجُحُودِهم نبُوَّتِي، والمعنى: انصُرْنِي عليهم بإهلاكِهم جَزاءً لَهم بتكذيبهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ ؛ أي وأرسَلْنا إليه جبريلَ أن يُعَلِّمَهُ صنعةَ الفُلْكِ ليصنَعَها بمَرأى مِنَّا، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ ؛ بنجاتِكَ وإهلاكِهم، ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ ؛ ونبعَ الماءُ من تنُّور الخسارة. وعن عَلِيٍّ رضي الله عنه: (أنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ (وَفَارَ التَّنُّورُ) أيْ طَلَعَ الْفَجْرُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ ؛ أي احْمِلْ في السَّفينة من كلِّ ذكَرٍ وأنثى، كما رُوي أنَّ اللهَ تعالى حَشَرَ إليه جميعَ الحيواناتِ حتى أخذ مِن كلِّ جنسٍ زوجاً، ويقرأ (مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ) بالتنوين، فعلى هذه القراءةِ يكون الفعلُ واقعاً على زوجَين، وأما على القراءةِ الثانية فالفعلُ واقعٌ على اثنين(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ ؛ معناهُ: واحمِلْ فيها أهلَكَ، ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ ؛ أي إلاّ من حَقَّ عليه العذابُ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ ، لكُفْرِهِ وهو ابنهُ كنعان وامرأتهُ وأهلَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ ؛ أي لا تسألْني نجاةَ الذين ظلَمُوا من أهلِكَ، ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ مع الأجانب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ ؛ أي إذا اعتدلْتَ في السفينة راكباً واستقرَّ بكَ ولِمن معكَ الفلكَ في الماءِ، ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ؛ أي احمدُ اللهَ، ﴿ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ ؛ أي أنزِلْني من السَّفينة موضِعاً مُباركاً. وقال بعضُهم: أراد به الإنزالَ في السَّفينة وهو

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨١-١٨٢.

الأقربُ؛ لأنه إنَّما أُمِرَ بهذا الدُّعاء في حال استوائهِ على السفينة، فاقتضَى أن السفينةَ هي المَنْزِلُ دون مَنْزِلٍ آخرَ.

وقرأ العامةُ (مُنْزَلاً) بضمِّ الميم على المصدر؛ أي إنْزَالاً مُباركاً، وقرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزَّاي؛ أي مَوْضِعاً مُباركاً[1]، قال مقاتلُ: (يَعْنِي بالْبَرَكَةِ أنَّهُمْ تَوَالَدُواْ وَكَثُرُوا)[2].

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي أنتَ خيرُ المنْزِلين في الدُّنيا والآخرةِ، وهذا اللفظُ سُنَّةٌ لكلِّ مَن أرادَ أن ينْزِل منْزلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾؛ معناهُ: أنَّ في أمرِ نوحٍ والسَّفينة وهلاكِ أعداء الله لدلالاتٌ على قُدرةِ الله ووحدانيَّته، ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي ما كُنَّا إلاَّ مُبْتَلِيْنَ بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم؛ أي مختبرين إيَّاهم كيفَ نرى طاعةَ المطيعين ومعصيةَ العاصين.

وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾؛ أي ثُم خلَقْنا من بعدِ هلاك قومِ نوح قوماً آخرين يعنِي: عاداً، ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾؛ يعني هُوداً عليه السلام فإنَّ أولَ نَبيٍّ بعدَ نوحٍ هُودٌ عليه السلام فقال لَهم: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ إلى آخرِ الآية.

قولهُ تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ ﴾؛ أي جَحَدُوا البعثَ والنُّشور، ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي متَّعناهُم في الحياةِ الدُّنيا وأعطيناهم من نَعِيْمِ العَيْشِ ووسَّعنا عليهم ونعَّمناهم؛ أي قال أشرافُ قوم هُودٍ ورؤساؤُهم الذين جَحَدُوا بالبعثِ والنشور ومتَّعناهم في الحياةِ الدُّنيا: ﴿ مَا هَٰذَآ ﴾؛ أي ما هو ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾؛ أي آدميٌّ مثلكم، ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا

(١) نقله الطبري في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٢٥؛ قال: (وقرأه عاصم) وذكره. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١١٩-١٢٠؛ قال القرطبي: (وقرأ زر بن حبيش وأبو بكر عن عاصم والمفضل) وذكره.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٣٩٥.

﴿ تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ﴾ ؛ أي يأكلُ مِن الطعامِ الذي تأكلونَ منه؛ ويشربُ مِن الذي تشربونَ، فليس هو بأولَى بالرِّسالة منكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) ﴾ ؛ معناهُ: لئِنْ أطعتُم آدمياً بَشَراً مثلَكُم إنَّكم إذا لَمبعوثون، وهذا القولُ منهم دليلٌ على غايةِ جهلِهم حيث عبَدُوا أصناماً لا تضُرُّ ولا تنفعُ، ولَم يعدُّوا ذلك خُسراناً، والأصنامُ أجسامٌ مثلُهم بل دونَهم.

ثُم عَدُّوا عبادةَ الله وطاعتَهُ هو خُسراناً، قالوا: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ ﴾ ؛ أي وصرتُم، ﴿ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ ؛ باليةً؛ ﴿ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ﴾ ؛ أي أن تُخرجوا من قبُوركم، ﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) ﴾ ، أي بُعْداً بُعْداً لِمَا تُحاولون من البعثِ بعدَ الموت، وهذه كلمةُ استنكارٍ واستبعاد، ويقرأ (هَيْهَاتَ) سبعَ قراءاتٍ بالنَّصب والكسر والرفعِ والتنوينِ وغير التنوين والسُّكون[1]، فمَن نصَبَ جعلَها مثل (أَيْنَ وكَيْفَ)، وَقِيْلَ: لأنَّها أداةٌ مثلُ خمسةَ عشرَ وبَعْلَبَكَّ، ومَن رفعَ جعلَهُ مثل(مُنْذُ وَقَطُّ وحَيْثُ)، ومَن كسرَ جعله مثلُ أمس. قال الشاعرُ:

تَذكَّرْتُ أيَّاماً مَضَيْنَ مِنَ الصِّبَا ... وهَيْهَاتَ هَيْهَاتاً إلَيْكَ رُجُوعُهَا

وقال آخر :

لَقَدْ بَاعَدَتْ أُمُّ الْحَمَارِسِ دَارَهَا ... وَهَيْهَاتَ مِنْ أُمِّ الحمَارِسِ هَيْهَاتاً هَيْهَات

ومعنى (هَيْهَاتَ) بَعُدَ الأمرُ جداً حتى امتنعَ، وهو اسمٌ سُمي به الفعلُ، وهو بَعُدَ كما قالوا: صَهْ بمعنى اسْكُتْ، ومَهْ بمعنى لا تَفْعَلْ، وليسَ له اشتقاقٌ وفيه ضمير مرتفعٌ عائد إلى قولهِ (مُخْرَجُونَ)، والتقديرُ (هَيْهَاتَ) أي هو الإخراجُ، والمعنى: بَعُدَ إخراجُكم للوعدِ؛ أي الذي توعَدُون. قال أبو عمرو: (إذا وَقَفْتَ فَقُلْ هَيْهَاه بالْهَاءِ) وقال الفرَّاءُ: (كَانَ الْكِسَائِيُّ يَخْتَارُ الْوَقْفَ عَلَيْهَا بِالْهَاءِ، وَأَنَا أَخْتَارُ التَّاءَ لأَنَّهَا لَيْسَتْ

(١) ذكر ست قراءات ولعله جمع بين أنواع التنوين. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٨ ص١٢٢ نقل القرطبي عن الأنباري أنها عشر لغات. والسبع هي: (هيهاتَ) و(هيهاتِ) و(هيهاتٍ) و(هيهاتاً) و(هيهاتُ) و(هيهاتٌ) و(هيهاتْ).

هَاءَ التَّأْنِيْثِ)[١]. ورُوي أن سيبويه قال: (هِيَ بِمَنْزِلَةِ بَيْضَات)[٢] يَعْنِي فِي التَّأْنِيْثِ، فإذا كَانَ كَذلِكَ كَانَ الْوَقْفُ بالْهَاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا ﴾ ؛ أي قالوا ما هِيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا التي نحنُ فيها، ﴿ نَمُوتُ وَنَحۡيَا ﴾ ؛ أي يَموت قومٌ ويَحيا قومٌ آخرون، ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ بعدَ الموتِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ؛ أي قالُوا: مَا هُودٌ إلاّ رَجُلٌ اختلَقَ على اللهِ كَذِباً بأنه رسولٌ إلينا، وأنَّا نُبعَثُ، ﴿ وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي بمُصدِّقين فيما يقولُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي قال هودُ: رب أعِنِّي عليهم بتكذيبهم إيَّايَ، ﴿ قَالَ ﴾ ؛ اللهُ: ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ ؛ على تكذيبهم أي عمَّا قليلٍ من الزَّمان والوقتِ، يعني عندَ الموتِ وعند نزول العذاب بهم، ﴿ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ على الكُفر والتكذيب، ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ؛ أي صاحَ بهم جبريلُ صيحةً واحدة فماتُوا عن آخرِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: (بِالْحَقِّ) أي باستحقَاقِهم العذابَ بكُفرهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءً ﴾ ؛ أي صيَّرناهم بعدَ الهلاكِ كغُثَاءِ السَّيْلِ، وهو ما يكونُ على وجهِ السَّيْلِ من القَصَب والحطب والحشيشِ والأشجار اليابسة المتبقِّية الباليةِ، إذا جرَى السيلُ رأيتَ ذلك مُخالطاً زَبَدَ السَّيلِ، والمعنى: صيَّرناهم هَلكاً فَيبسُوا كما يَبسَ الغُثَاءُ مِن نَبتِ الأرضِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَبُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ أي بُعْداً من رحمةِ اللهِ للقومِ الكافرين.

---

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص٢٣٦.

(٢) في أصل المخطوط تصحيف للكلمة (بيضات). وتم الضبط على ما نقله ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٤ ص٢١٠. وينظر: الكتاب لسيبويه: ج ٣ ص٢٩١-٢٩٢. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ أي ثُم خلَقْنا بعدَ هلاكِ قومِ هُودٍ أهلَ أعصارٍ آخرينَ فسَكَنوا ديارَهم إلى أن هلكوا، ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي لا تموتُ أمةٌ قبل أجلِها ولا يتأخرُ موعدُهم عنه، وقولهُ تعالى: (مِنْ أمَّةٍ) مِن ها هُنا صلةٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ ؛ أي بعضُها في إثرِ بعضٍ مُتَرادفِين، ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً ﴾ ؛ أي قوماً، ﴿ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ ؛ في الْهَلاكِ والتعذيب، ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ ؛ لِمَن بَعْدَهم من الناسِ يتحدَّثون بأمرِهم وشأنِهم ويتمثَّلُ بهم في السرِّ. ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: (تَتْراً) بالتنوينِ، وقرأ الباقونَ بغيرِ تنوينٍ مثل سَكْرَى وشَكْوَى، فمَن نوَّنَ كان الألفُ فيه كالألفِ في أنتَ زيداً أو عمراً، فإذا وقَفْتَ كان ألِفاً، يعني توقف عليه بالألفِ، ومَن لَم يُنوِّنْ كتَبَها بالياءِ[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ ظاهرُ المعنى. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ ؛ أي تكبَّرُوا عن الإيمانِ باللهِ وعبادتهِ، ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ ، أي وكانوا قوماً قاهرينَ للناسِ بالبَغْيِ والتَّطاوُلِ عليهم كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾[2]، وقال مقاتلُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ (عَالِيْنَ) أيْ مُتَكَبرِيْنَ عَنْ تَوْحِيْدِ اللهِ)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ ؛ أي ليسَ لَهم فضلٌ علينا، ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ؛ يعني بَنِي إسرائيلَ لنا مطيعونَ، ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ بتكذيبِهما. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ ؛ يعني التوراةَ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ لكي يهتَدُوا به من الضَّلالةِ.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٢.

(٢) القصص / ٤.

(٣) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٣٩٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ ؛ أي جعلْنا ولادةَ عيسى من غيرِ أبٍ دلالةً على التوحيدِ والبعثِ، ولَم يقل: آيتَيْن؛ لأن معنى الآيةِ فيهما واحدةٌ. وَقِيْلَ: معنى كلٍّ واحدٍ منهما آيةٌ، كما قال ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾[1] أي آتَتْ كلُّ واحدةٍ أكُلَها، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ﴾[2] ولَم يقُلْ أرْجَاسٌ. وَقِيْلَ: معناهُ: جعلنا شأنَهما واحداً؛ لأن عيسى وُلِدَ من غيرِ أبٍ، وأمُّهُ ولَدَت من غير مسيسِ ذكرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ ؛ أي جعلنَاهُما يأْويَانِ إلى بُقعة مرتفعة ذاتِ استواءٍ واستقرار، ومكان ظاهر. والرَّبْوَةُ: المكانُ المرتفع من الأرضِ.

واختَلَفُوا في هذه البُقعةِ، قال قتادةُ: (يَعْنِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ أرْفَعُ مَوْضِعٍ فِي الأَرْضِ وَأقْرَبُ مَوْضِعٍ إلَى السَّمَاءِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيْلاً)[3]، وقال أبو هريرةَ: (هِيَ رَمْلَةُ بأَرْضِ فِلَسْطِيْنَ)[4]، وروى الحسنُ وابنُ المسيَّب: (أنَّهَا دِمَشْقُ). وقولهُ تعالى (ذاتِ قَرارٍ) أي مُستويةٍ ليستقرَّ عليها ساكِنُوها، وهي مع ذلك ساحةٌ واسعة، والْمَعِيْنُ الماءُ الجاري الطاهرُ الذي تراهُ العيون، يقال عَانَتِ الرُّكبة إذا سَالَتْ بالماءِ.

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ ؛ قال الحسنُ ومجاهد والسديُّ والكلبي وقتادةُ ومقاتل:(الْخِطَابُ فِي هَذِهِ الآيَةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَحْدَهُ، إلاَّ أنَّهُ ذكَرَهُ بلَفْظِ الْجَمَاعَةِ، لِمَا فِي الْخِطَاب مِنْ تَضْمِيْنِ أنَّ الرُّسُلَ جَمِيْعاً أمِرُوا بهَذا الْخِطَاب، وَقِيْلَ لَهُمْ: كُلوُا مِنَ الطَّيِّبَاتِ؛ أيْ مِنَ الْحَلاَلِ، أمَرَهُمُ اللهُ أنْ لاَ يَأْكُلُوا إلاَّ حَلاَلاً).

قال الحسنُ: (أمَا وَاللهِ مَا عَنَى بهِ أصْفَرَكُمْ وَلاَ أحْمَرَكُمْ وَلاَ حُلْوَكُمْ وَلاَ حَامِضَكُمْ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: انْتَهُوا إلَى الْحَلاَلِ مِنْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاعْمَلُوا صَالِحاً)

---

(١) الكهف / ٣٣ . (٢) المائدة / ٩٠ .

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣١١).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣٠٧)

أي اعملُوا ما أمَرَكم به اللهُ وأطيعوه في أمرهِ ونهيه. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّباً ، وَإنَّ اللهَ أمَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ بِمَا أمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِيْنَ، فَقَالَ تَعَالَى (يَا أيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وقال ﴿يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[١]، - ثُمَّ ذَكَرَ - الرَّجُلُ[٢] يُطِيْلُ السَّفَرَ أشْعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَهُ إلَى السَّمَاءِ: يَا رَب يَا رَب! مَطْعَمُهُ حَرَامٌ؛ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ؛ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ؛ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ؟!][٣]. ويُروى عن عيسَى: كان يأكلُ من غزْلِ أمِّهِ[٤]، وكان نبيُّنا ﷺ كان يقولُ: [جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَنِي][٥] فبيَّن أن رزْقَهُ من الغَنِيْمَةِ وأطيب الطيِّبات الغنيمةُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ أي دِينُكم ودينُ مَن قبلَكم دينٌ واحد. وَقِيْلَ: جماعتُكم جماعةٌ واحدة كلُّكم عبادُ اللهِ، ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ أي فاتَّقُوا عذابي، وافعَلُوا ما أمَرْتُكم به واتركُوا ما نَهيتُكم عنه.

قرأ الكوفيُّون: (وَإنَّ هَذِهِ أمَّتُكُمْ) بكسرِ الهمزة على الابتداء. وقرأ الباقونَ بفتحِها مع التشديدِ، وخفَّفَ النونَ ابنُ عامر مع فتحِ الهمزة، فمَن فتحَ الهمزة وشدَّدَ

---

(١) البقرة / ١٧٢ .

(٢) الجملة من كلام الراوي، والضمير فيه إلى النبي ﷺ. والرجلُ: بالرفع مبتدأ مذكور على سبيل الحكاية من لفظ سيدنا الرسول مُحَمَّد ﷺ، ويجوز أن ينصب على أنه مفعول (ذكَرَ).

(٣) رواه مسلم في الصحيح: كتاب الزكاة: باب قبول الصدقة من الكسب الطيب: الحديث (٦٥/ ١٠١٤ و١٠١٥). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٢٨ و٤٠٠. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: باب ومن سورة البقرة: الحديث (٢٩٨٩).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣١٩) عن عمرو بن شرحبيل.

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٩٢. وعلقه البخاري في الصحيح: كتاب الجهاد: باب ما قيل في الرماح؛ وقال: (ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ). وفي مجمع الزوائد: ج ٥ ص٢٦٧؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان، وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات).

النون فمعناه: وبأنَّ هذهِ، وَقِيْلَ: وَاعْلَمُوا إنَّ هذه أمَّتُكم أمةٌ واحدةٌ، أي مِلَّتُكُمْ ملَّةٌ واحدة وهي دينُ الإسلامِ، ومَن خفَّفَ مع الفتحِ جعل (أنْ) صلةً، وتقديرهُ: وهذهِ أمَّتُكم، وَقِيْلَ: تكون مخفَّفةً من الثقيلةِ كقوله تعالى ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾؛ معناه: أنتم أهلُ ملَّةٍ واحدة فلا تكونوا كالذين تفرَّقُوا واختلفوا فتقطَّعوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً؛ أي فِرَقاً، وَقِيْلَ: معناهُ: كُتُباً مختلفةً ديوانُها، فكَفَرُوا بما سِوَاها كاليهود آمَنُوا بالتوراةِ وكفرُوا بالإنجيلِ والقُرْآن، والنصارَى آمَنُوا بالإنجيل وكفروا بالقُرْآنِ. وقُرِئَ (زُبَراً) بفتح الباء ومعناهُ قِطَعاً وجماعاتٍ، ومنه زُبَرُ الحديدِ قِطَعُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾؛ أي كلُّ طائفةٍ بما عندَهم من الاعتقادِ مُعْجَبُونَ، فاترُكْهم في ضَلالتِهم وجهالتهم إلى أن يأتيَهم ما وُعِدُوا به من العذاب. وَقِيْلَ: إلى أن يَموتوا فيظهرُ لَهم الحقُّ من الباطلِ عند المُعَايَنَةِ في القيامةِ. وَقِيْلَ: كلُّ حِزبٍ من المشركين واليهودِ والنصارى بما عندَهم من الدِّين رَاضُونَ، يَرَوْنَ أنَّهم على الحقِّ، ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾؛ أي في ضَلالتِهم وجهالتِهم وغفلتهم حتى يَرَوْنَ العذابَ بالسَّيفِ أو بالموتِ، يعني: كفارَ مكَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾؛ أي يَظُنُّونَ أنَّ إمدادَنا إيَّاهم بالمال والبنين مسارعةً منا لَهم في الخيراتِ لكرامتهم علينا ومنْزلتهم عندنا، ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ أن ذلك استدراجٌ لَهم وإملاءٌ إلى حينٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧﴾ أي حَذِرُونَ من عذابهِ، والإشْفَاقُ هو الخوفُ، يقالُ: أنا مُشْفِقٌ من هذا الأمرِ؛ أي خائفٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨﴾؛ أي يصدِّقون بالقُرْآن أنه مِن عندِ اللهِ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾؛ معهُ غيرَهُ، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ

---

(١) يونس / ١٠. ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٣-١٨٤.

ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ؛ أي والذينَ يتصدَّقون بالأموال، ويعملون ما عَمِلُوا من الصَّالحاتِ، وقلوبُهم فَزِعَةٌ خائفةٌ أن لا يُقْبَلَ منهم ذلكَ. قال مجاهدُ: (الْمُؤْمِنُ يُنْفِقُ مَالَهُ وَقَلْبُهُ وَجِلٌ)[١].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)، فَقَالَ: [لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيْقِ، الَّذِيْنَ يَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخَافُونَ أنْ لاَ تُقْبَلَ مِنْهُمْ، وَيُصَلُّونَ وَيَعْرِفُونَ الاَّ تُقْبَلَ مِنْهُمْ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَعْرِفُونَ الاَّ تُقْبَلَ مِنْهُمْ][٢]. وقال الحسنُ: (وَالَّذِيْنَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا؛ أيْ يَعْمَلُونَ مَا عَمِلُواْ مِنَ الْبرِّ وَهُمْ يَرَوْنَ أنَّ ذلِكَ لاَ يُنْجِيْهِمْ مِنْ عَذاب اللهِ)[٣]، قال الزجَّاجُ: (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ؛ أي لأنَّهم يوقنونَ برجوعِهم إلى اللهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الصِّفَةِ هم الذينَ يُسارعون في الأعمالِ الصالحةِ، ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ ؛ أي إليها سَابقُونَ، يكون (لَهَا) بمعنى إليها، كقولهِ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[٤] أي إليها. وَقِيْلَ: معناهُ: وَهُمْ لَهَا سَابقُونَ في الجنَّةِ؛ أي مِن أجلِ مُسارعتهم في الخيراتِ سابقونَ في الجنَّة.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ؛ أي إلاَّ طَاقَتَها من العملِ، فمَن لَم يستطع أن يصلِّيَ قائماً فيصلِّي قاعداً. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ ؛ أي عندَ ملائكتِنا المقرَّبين كتابٌ يشهدُ لكم وعليكم، يريدُ به صحائفَ الأعمالِ، وَقِيْلَ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٣٣٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص١٥٩. والترمذي في السنن: كتاب التفسير: باب ومن سورة المؤمنون: الحديث (٣١٧٥). وابن ماجة في السنن: كتاب الزهد: باب التوقي على العمل: الحديث (٤١٩٨).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣٣٦).

(٤) الزلزلة / ٥.

يعني اللوحَ الْمَحفوظَ، فيه كلُّ شيءٍ مكتوبٌ، سبقَ في علمِ الله، ﴿ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي يُبيِّنُ الصدقَ، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي لا يُنْقَصُونَ من ثواب أعمالِهم، ولا يزادُ على سيِّئاتِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾ ؛ أي قلوبُ أهلِ مكَّة في غفلة وجهالةٍ، ﴿ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الذي تقدَّم ذكرهُ من أعمال البرِّ. وَقِيْلَ: في غفلةٍ من القُرْآن، ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ ؛ خبيثةٌ لا يرضاها اللهُ مِن المعاصي والخطايا، ﴿ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ أي من دون أعمالِ المؤمنين، ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ ويجوزُ أن يكون قولهُ (مِنْ هَذا) إشارةٌ إلى الكتاب الذي ينطقُ بالحقِّ؛ أي قلوبُهم في غفلةٍ من ذلك الكتاب، وأعمالُهم التي عَمِلُوها مُحْصَاةٌ فيه، ولَهم أعمالٌ مِن دون ما هم عليهِ لا بدَّ أن يعملُوها، وهو ما سَبَقَ في علمِ الله أنَّهم يعملونَهُ. والغَمْرَةُ: الغفلةُ التي تُغَطِّي القلبَ وتَغْلِبُ عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي حتى إذا أخَذْنا أعيانَهم ورؤساءَهم بالقتلِ يومَ بدرٍ وبما يَرَوْنَ من العذاب وقتَ المعاينة، وقال الضحَّاك: (بالْجُوعِ حِيْنَ دَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: [اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ سِنِيْنَ كَسِنِيْنِ يُوسُفَ](١) فَابْتَلاَهُمُ اللهُ بالْقَحْطِ حَتَّى أكَلُوا الْعِظَامَ وَالْجِيفَ وَالْكِلاَبَ وَالأَوْلاَدَ وَالْقَذرَ)(٢). قَوْلُهُ تَعَالَى: (إذا هُمْ يَجْأَرُونَ) أي يَصِيحُونَ ويصرخون بالتوبةِ، وَقِيْلَ: يَجْزَعُونَ ويستغيثونَ. وأصلُ الْجُؤَار رَفْعُ الصَّوْتِ بالتَّضَرُّعِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؛ وَعِيداً بهم كالاستهزاءِ مثل قولهِ ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا﴾(٣)، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ أي لا

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الدعوات: باب الدعاء على المشركين: الحديث (٦٣٩٣). ومسلم في الصحيح: كتاب المساجد: باب استحباب القنوت: الحديث (٢٩٥/ ٦٧٥).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٨٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٣٥.

(٣) الأنبياء / ١٣.

تُمْنَعُونَ من عذابنا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ؛ أي تُقْرَأ عليكم في الدُّنيا، يعني القُرْآنَ، ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ؛ أي تُوَلُّونَ مُدبرين وتُعرضون عن الإيْمان به، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ ؛ أي مُتَعَظِّمِينَ ببيتِ الله الكعبة. وَقِيْلَ: بحَرَمِ اللهِ أنهُ لا يظهرُ عليكم أحدٌ، فالكنايةُ تعودُ إلى الْحَرَمِ وهو كنايةٌ من غيرِ مذكور، والمعنى: والمستكبرينَ في البيتِ الحرام لأمْنِهم فيهِ مع خوفِ سائرِ الناس في مواضعهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ؛ أي سُمَّاراً تَهْجُرُونَ القُرْآنَ والنبيَّ ﷺ، والْهَجْرُ: هَجْرُ الحقِّ بالإعراضِ عنه، وقد يقالُ: هَجَرَ المريضُ إذا هَذَا في كلامهِ. والسَّمَرُ: الحديثُ بالَّليلِ، كانوا يتحدَّثون حولَ الكعبة في أوائلِ الليل بالطَّعْنِ في النبيِّ ﷺ وفي الإسلامِ والمسلمين، وإنَّما وحَّدَ (سَامِراً) لأنه في موضعِ المصدر.

قال الحسنُ ومقاتل: (الْمَعْنَى: يَهْجُرُونَ الْقُرْآنَ وَيَرْفُضُونَهُ فَلاَ يَلْتَفِتُونَ إلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ) الآيَةُ). ويجوزُ أن يكون معناهُ مِن الْهَجْرِ؛ وهو الكلامُ القبيح، يقالُ: هَجَرَ هَجْراً؛ إذا قالَ غيرَ الحقِّ، وهو قولُ السديِّ والكلبي وقتادةَ ومجاهدٍ، وكانوا إذا دخَلُوا البيتَ سَبُّوا النبيَّ ﷺ والقُرْآنَ[1]. ويقالُ أيضاً في هذا المعنى: أهْجَرَ هَجْراً؛ إذا أفْحَشَ في مَنْطِقِهِ، ومنهُ قراءةُ نافع: (تُهْجِرُونَ) أي يَفْحُشُونَ في الكلامِ، ويقولونَ الْخَنَا، وذلك أنَّهم كانوا يسبُّون النبيَّ ﷺ[2]، والْهَجْرُ هو الْفُحْشُ مِن الكلامِ، يقال في الْمَثَلِ: (مَنْ كَثُرَ هَجْرُهُ وَجَبَ هَجْرُهُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ ؛ أي أفلَمْ يَدَّبَّرُوا القُرْآنَ في حُسْنِ لفظهِ ونَظْمِهِ، وكثرةِ فوائده ومعانيهِ، مع سلامتهِ من التناقُضِ والاختلاف، فتعلَّمُوا أنه مِن عند اللهِ، ويقالُ: معناهُ: أفلَمْ يدَّبَّرُوا القُرْآنَ فيعرِفُوا ما فيهِ من العِبَرِ والدَّلالاتِ على صدقِ النبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣٨٣) عن مجاهد، و(١٩٣٨٧) عن الحسن وقتادة.

(٢) نقله الطبري في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٥٣، وذكر الآثار فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أم جاءَهم أمرٌ بَدِيعٌ لَم يأتِ آباءَهم؛ أي ألَم يعلَمُوا أن الرُّسُلَ قد أُرسِلُوا إلى مَن قبلهم ؟ والمعنى: أجاءَهم ما لَم يأتِ آباءَهم الأوَّلين فأنكروهُ وأعرضُوا عنه. ويحتملُ أن يكون معناهُ: بل جاءَهم ما لَم يأتِ آباءَهم الأوَّلين فأنكروهُ وتركوا التدبر له[1]. لأن (أمْ) بمعنى: (بَلْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ ﴾ ؛ بالصِّدق والأمانة قبلَ إظهار الدَّعوة؟ ﴿ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ . قال ابنُ عبَّاس: (كَانُوا يَعْرِفُونَ مُحَمَّداً ﷺ صَغِيْراً وَكَبِيْراً صَادِقَ اللِّسَانِ وَفِيَّ الْعَهْدِ) وفي هذا توبيخٌ لَهم بالإعراضِ عنهُ بعدَ ما عرَفُوا صدقَهُ وأمانتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ ؛ أي قالوا: إنَّ مُحَمَّداً مجنونٌ لِيَصُدُّوا الوجوهَ ويصرفُوها عنهُ، وقد كذبوا في ذلكَ، فإن الْمَجْنُونَ يَهْذِي ويقولُ ما لا يفعلُ، ﴿ بَلْ جَآءَهُم ﴾ ؛ النبيُّ ﷺ ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛ أي بالقُرآن الذي لا تَخفى صِحَّتُهُ وحُسْنُهُ على أحدٍ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ، قال مقاتل والسدي: (الْحَقُّ هُوَ اللهُ) والمعنى: لو جعلَ مع نفسهِ شَريكاً كما تُحبُّون، ﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ ؛ كقولهِ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]. وَقِيلَ: معناهُ: لو وُضِعَ الحقُّ على أهوائِهم لَهَلَكَ أهلُ السَّمواتِ والأرض؛ لأنَّ الحقَّ يدعُو إلى الْمَحَاسِنِ، والْهَوَى يدعُو إلى الْقَبَائِحِ، ولو جُعِلَ الْهَوَى مَتْبُوعاً لَبَقِيَتِ الأمورُ على الظُّلم والجهالاتِ، فتُخْلَطُ الأمورُ أقبحَ الاختلاطِ، ولَم يُوثَقْ بالوعدِ والوعيد، فأدَّى ذلك إلى الفسادِ؛ لأن الْهَوَى هو ميلُ النفسِ إلى الْمُشْتَهَى من غيرِ داعي الْهَوَى.

---

(١) سقطت من المخطوط مع تصحيف كلمة (تركوا)، وتمامه ضبط كما في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٣٩.

(٢) الأنبياء / ٢٢ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ ؛ أي أعطيناهُم القُرآنَ الذي فيه عِزُّهُمْ وشَرَفُهُمْ، وأمِرُوا بالعملِ بما فيه، ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم ﴾ ؛ القُرْآنَ، ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ وهو نظيرُ قولهِ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾(١) وقولهِ ﴿كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾(٢) والمعنى: تَوَلَّوا عمَّا جاءَهم به من شَرَفِ الدُّنيا والآخرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ ؛ معناهُ: أم تسألُهم على تبليغِ الرِّسالة الْجُعْلَ فيتثاقلون لذلك، قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَخَرَاجُ رَبك) أي ما وَعَدَ اللهُ لكَ من الأجرِ والثواب في الآخرة، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ أي أفضلُ الْمُعْطِيْنَ. وأصلُ الْخَرْجِ وَالْخَرَاجِ: الضريبةُ والغلَّة، كخراجِ الأرض.

وقال النضرُ بن شُميل: (سَأَلْتُ أبَا عَمْرو بْنِ الْعَلاَءِ عَنِ الْفَرْق بَيْنَ الْخَرْجِ وَالْخَرَاجِ، فَقَالَ: الْخَرَاجُ مَا لَزِمَكَ وَوَجَبَ عَلَيْكَ أدَاؤُهُ، وَالْخَرْجُ مَا تَبَرَّعْتَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وُجُوبٍ)(٣)، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي إلى طريقٍ قائم يرضاهُ الله وهو الإسْلاَمُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ معناهُ: وإنَّ الذينَ لا يصدِّقون بالقيامةِ عن دينِ الحقِّ لَنَاكِبُونَ؛ أي مائلونَ عادِلُون، ومنه النَّكْبَاءُ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّهم في الآخرةِ عن صراطِ جهنَّم يسقطونَ يُمْنَةً ويُسْرَةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي ولو رحِمْنَاهُمْ وكشَفْنا ما بهم من الشدَّة التي أصابت أهلَ مكَّة من الْجُوعِ والقحطِ الذي أخذهم سبعَ سنين لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ؛ أي لَتَمَادَوا في ضلالَتِهم يتحيَّرونَ ويتردَّدُونَ. وَقِيْلَ: ولو رحِمنَاهُم في الآخرةِ فردَدْناهُم إلى الدُّنيا لعَادُوا إلى الكُفرِ كما كانوا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾(٤).

---

(١) الزخرف / ٤٤ . (٢) الأنبياء / ١٠ .

(٣) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٥٢. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٤٢ مختصراً.

(٤) الأنعام / ٢٨.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ ؛ يعني الجوعَ الذي أصابَهم بدعوةِ النبيِّ ﷺ:[اللَّهُمَّ سِنِيْنَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ][(١)] فَجَاعُوا حتى أكلُوا الوبَر والدمَ[(٢)]، ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي فما خضعوا لربهم وما تضرَّعوا ولا انقادُوا في الأمرِ لله وما رَغِبُوا إليه في الدُّعاء، ولو كشفَ عنهم العذابَ لَم يشكُرُوا، والاستكانةُ: طلَبُ السُّكُونِ، والتَّضرُّعُ: طلبُ كَشْفِ البلاءِ مِن القادر عليهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنه القتلُ يومَ بدر، وَقِيْلَ: إنه عذابُ الآخرة، ﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي آيسُون يتحيَّرون، والإبْلاَسُ: اليأسُ مع التحيُّر. وَقِيْلَ: لَمَّا أصابَهم من الجوعِ ما أصابَهم، جاءَ أبو سفيانَ إلى النبيِّ ﷺ وقالَ: أنْشِدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ، ألَسْتَ تَزْعُمُ أنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ ؟ قالَ [بَلَى] قالَ: فإنَّكَ قَدْ قَتَلْتَ الآبَاءَ بالسَّيْفِ وَالأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، فَأنْزَلَ اللهُ تعالَى هذه الآيةَ[(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ؛ أي خلقَ لكم السمعَ تسمعون به، والأبصارَ تُبصرون بها، والقلوبَ تعقِلُون بها، فشُكرُكم فيما أعطي[(٤)] إليكم قليل[(٥)]، والأفئدةُ هي القلوبُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي خلَقكم في الأرضِ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ ؛ أي تُجمعون إلى موضعِ الحساب والجزاءِ.

---

(١) تقدم.

(٢) في المخطوط: (الوس بالدم) والصحيح كما أثبتناه. وهو يسمى الْعِهْلز. أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٣٩٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٣ ص١٥٥: كتاب التفسير: باب كراهة السمر: الحديث (٣٥٣٩). والبيهقي في دلائل النبوة: ج ٤ ص٨١. وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٧٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه علي بن الحسين بن واقد، وثقه النسائي وغيره، وضعفه أبو حاتم. وأخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٣٩٨) بإسناد آخر.

(٤) في المخطوط: (طبع) وهو غير مناسب.

(٥) في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٤ ص٢٤٦؛ ذكر ابن عادل قال: (قال أبو مسلم: وليس المراد أنَّ لهم شكراً وإن قلَّ، لكنه كما يقال للكفور والجاحد للنعمة: ما أقلَّ شكرَ فلان).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ ؛ أي يُحييكم في أرحامِ أمَّهاتكم، ويُميتُكم عندَ انقضاء آجالِكم، ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ؛ أي لهُ مُلكُ اختلافِهما ومُرورهما يوماً بعد ليلةٍ، وليلةً بعد يوم، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ؛ أدِلَّةَ اللهِ تعالى تستدلُّون به على وحدانيَّة اللهِ تعالى.

قولهُ: ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ؛ أي لَم يَعْقِلُوا أدِلَّتَنا ولَم يستدِلُّوا بها علينا، بل كَذبُوا بالبعثِ كما كذبَ آباؤُهم قبلَهم، والمعنى: كذبت قريشُ بالبعثِ مثلَ ما كذبَ الأولون، ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ؛ بعدَ الموتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي خُوِّفْنَا بهذا الذي تُخوِّفُنَا به من قبلِ أن تُخوِّفنا به، ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي ما هذا الذي تُخوِّفُنا به يا مُحمَّدُ إلاّ أحاديثُ الأوَّلين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل ﴾ ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ ؛ من الخلقِ والعجائب، أجِيبُوا ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؛ خالِقَها. ثُم أجابَ اللهُ عنهم لَمَّا عَلِمَ أنَّهم لا يُجيبون فقال: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ ﴾ لَهم يا مُحَمَّدُ: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ ؛ فتستدِلُّون على أنَّ مَن لهُ مُلكُ السَّموات والأرضِ وما فيهما قادرٌ على البعثِ والنُّشور، فإنَّ مَن مَلَكَ الأرضَ ومَن فيها مَلَكَ إنشاءَها بعدَ هلاكِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ؛ عِقابَهُ على إنكار البعث. ومَن قرأ (سَيَقُولُونَ للهِ) ومعناهُ: كأنه قال: لِمَنِ السَّمواتُ ؟ فقال: للهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي مَن ذا الذي لهُ خزائنُ كلِّ شيء وهو يُغِيثُ ويَمنع من السُّوء، ولا يَمنع منه مَن أرادَ به سوءً، أجِيبُوا ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ ؛ ملكوتُ كلِّ شيء، ﴿ قُلْ ﴾ لَهم يا مُحَمَّدُ ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ؛ أي تُصرَفُونَ عن الحقِّ إلى ما ليسَ له أصلٌ ولا حقيقةٌ، وقد أُلْقِيَ إليكم حقائقُ الأدلة.

والمعنى بقوله: (فَأَنّى تُسْحَرُونَ) أي كيفَ يُخَيَّلُ لكمُ الحقُّ باطلاً، والصحيحُ فاسداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ ؛أي جِئْنَاهُمْ بالحقِّ وبَيَّنَّا لَهم، يعني أتيناهم بالتوحيدِ والقُرْآنِ، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ فيما يُضِيْفُونَ إلى اللهِ من الولدِ والشَّريك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ ؛ هذا ردٌّ على اليهودِ في قولِهم: عُزيرٌ ابن اللهِ، وعلى النصارى في قولِهم: المسيحُ ابن اللهِ، وعلى مَن قال مِن المشركين: الملائكةُ بنات الله، ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ﴾ ، هذا ردٌّ على عَبَدَةِ الأوثان. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ ؛ معناهُ: لو كان معهُ آلِهةٌ لانفردَ كلُّ إلهٍ بخلقهِ، لا يرضى أن يُضافَ خلقهُ وإنعامه إلى غيرِه، ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي لطلبَ بعضُهم قَهْرَ بعضٍ، فلم يَنْتَظِمْ أمرُهما كما لا ينتظمُ أمر بلدٍ فيه ملِكان قاهران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي تَنْزِيْهاً للهِ ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ من اتِّخاذِ الولد والشريكِ، ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ ؛ مَن خفضَهُ جعلَهُ نَعْتَ اللهِ، ومَن رفعه كان خبرَ مبتدأ محذوفٍ تقديرُهُ: هو عَالِمٌ، فقراءةُ الخفضِ هي قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو، وقراءةُ الباقين بالرفعِ(١). ومعنى الآيةِ: عَالِمِ ما غابَ عن العبادِ وما عَلِمَهُ العبادُ، ﴿ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: قُلْ يا مُحَمَّدُ رب أرني ما يوعدونَ من العذاب والنِّقمة؛ يعني القتلَ ببدر. وَقِيْلَ: معناهُ: قُل يا مُحَمَّد: يا ﴿ رَبِّ ﴾ ؛ إنْ أريْتَنِي ما يوعدونَ من العذاب، ﴿ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ أي منهُم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٦. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٤٧؛ قال القرطبي: (وقرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي: (عالِمُ) بالرفع على الاستئناف، أي هو (عَالِمُ الْغَيْبِ). الباقون بالجر على الصفة لله. وروى رويس عن يعقوب: (عَالِمَ) إذا وصل خفضاً و(عالِمُ) إذا ابتدأ رفعاً).

لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ؛ أي نحنُ قادرونَ على تعذيبهم، لكنَّ الإمهالَ لحكمةٍ تقتضي ذلكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ؛ يعني بالإحسان الإعراضِ والصَّفحِ، والسَّيِّئَةُ: أذى المشركينَ إيَّاهُ، وهذا قبل الأمر بالقتال، والمعنى: اذكر لهم الْمُقَائَلَةَ والحجةَ على طريق التلطُّفِ والاستدعاءِ إلى الحق كما قال تعالى ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾(١). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي بما يكذِّبون وبما يقولونهُ من الشِّرك فيجازيهم عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ أي اعْتَصِمُ بكَ وأمتنعُ بكَ مِن هَمَزَاتِ الشَّياطين، وهمزاتُ الشياطين: دفعُهم الناسَ إلى المعاصي بالإغواءِ، ويقال: الْهَمْزَةُ هي الْوَسْوَسَةُ الشَّاغِلَةُ عن أمرِ الله تعالى، ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ عندَ القراءةِ وعند الموتِ وعند الغضَب. وعن الحسن: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَامَ إلَى الصَّلاَةِ فَهَلَّلَ وَكَبَّرَ ثلاثاً؛ وَقَالَ: [أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ، مِنْ هَمْزِهِ وَلَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ] فَسُئِلَ عَنْ هَمْزِهِ؛ فَقَالَ: [هُوَ أخْذُ الشَّيْطَانِ لِلإنْسَانِ حَتَّى يُصْرَعَ وَيَجِنَّ] وَسُئِلَ عَنْ نَفْثِهِ؛ فَقَالَ: [هُوَ الشِّعْرُ] وَسُئِلَ عَنْ نَفْخِهِ؛ فَقَالَ: [إنَّهُ الْكِبْرُ](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أن هؤلاء الكفار الذين يُنكرونَ البعثَ يَسألونَ الرجعةَ إلى الدُّنيا عند معاينةِ الموت. والمعنى: حتَّى إذا عَايَنَ أحدُهم الموتَ وأعوانه قال: رِّب ارْجِعُونِ إلى الدُّنيا.

وإنَّما قال: (رَب ارْجِعُون) بلفظ الجماعةِ لأن اللهَ تعالى يُخبر عن نفسهِ بما يخبرُ به عن الجماعةِ في قولهِ تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾(٣) وأمثالِهِ، وكذلك العربُ

---

(١) طه / ٤٤ .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٥٣. وعبدالرزاق في المصنف: ج ٢ ص٨٤: الحديث (٢٥٨٠).

(٣) ق / ٤٣ .

تُخَاطِبُ الرجلَ الواحد بلفظِ الجماعة كما يقولُ الرجل لآخر: أنتم تفعلونَ كذا ونحنُ نفعل كذا، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ﴾(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأعْمَلُ طَاعَةَ اللهِ)(٢) ﴿فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾؛ أي في ما مَضَى مِن عُمري، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّآۚ﴾ لا يرجعُ إلى الدُّنيا، ولا يجوزُ أن يكون (لَعَلَّ) في هذه الآية للشَّكِّ؛ لأنه لا معنى لذلكَ مع حرصهِ على الرَّجعة والنجاةِ من الموت والعذاب، وإنَّما المعنى: لِكَي أعملَ صالحاً، و(كَلاَّ) كلمة رَدْعٍ وزَجْرٍ وتنبيهٍ أي لا يكونُ له ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي من مسألةِ الرُّجوع إلى الدُّنيا، ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾، عند موتهِ ولا فائدة في ذلك، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾؛ أي مِن أمَامِهم حَاجزٌ وحجابٌ بينهم وبين الرُّجوعِ إلى الدُّنيا، وهم فيه إلى يومِ يبعثون، فالقبرُ حاجزٌ، وكل فصلٍ بين شَيْئين بَرْزَخٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾؛ قال ابنُ عبَّاس: (يَعْنِي النَّفْخَةَ الأوْلَى)(٣). وَقِيْلَ: هي النفخةُ الثانية. وقولهُ تعالى: (فَلاَ أنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ)، قال الحسنُ: (وَاللهِ إنَّ أنْسَابَهُمْ لَقَائِمَةٌ بَيْنَهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأبِيهِ﴾(٤) وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَنْتَفِعُونَ بأنْسَابهِمْ وَلاَ يَتَعَاطَفُونَ عَلَيْهَا، فَكَأنَّهُمْ لاَ أنْسَابَ لَهُمْ).

وَقِيْلَ: معناهُ: لا تَفَاخُرَ بينهم كما يتفاخَرون في الدُّنيا، ولا يتساءَلون كما تسألُ العربُ في الدُّنيا: مِن أيِّ قَبيلٍ أنتَ ؟ وَقِيْلَ: لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن خبرهِ وحالهِ كما كانوا في الدُّنيا؛ لشُغْلِ كلٍّ واحد منهما بنفسه، ولا يسألُ بعضهم بعضاً أنْ يحمل شيئاً من ذنوبهِ.

---

(١) القصص / ٩ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص١١٥؛ قال السيوطي: (أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عكرمة).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٤٢٤).

(٤) عبس / ٣٤-٣٥ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ ؛ يعني بالطاعات؛ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بكلمةِ التَّوحيدِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قال ﷺ: [وَلَوْ وُضِعَتِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيْهِنَّ وَالأَرْضُ فِي كَفَّةٍ، رَجَحَتْ بِجَمِيْعِ ذلِكَ][١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ ؛ يعني بكلمة الشرك ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى. قوله تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ؛ قِيْلَ: الفَلْحُ هو الإحراقُ، يقالُ: لَفَحَتْهُ النارُ إذا أحْرَقَتْهُ، وتأثيرُ الفَلْحِ أعظمُ مِن تأثير النَّفْحِ، والنفحُ مذكورٌ في قوله ﴿نَفْحَةٌ مِنْ عَذاب ربكَ﴾[٢]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ الْكُلُوحُ: تَقَلُّصُ الشَّفَتَيْنِ عنِ الأَسْنَانِ حتى تبدُو الأسنانُ.

قال الحسنُ: (تَغْلَظُ شِفَاهُهُمْ، وَتَرْتَفِعُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا، وَتَنْزِلُ شَفَتُهُ السُّفْلَى، فَتَظْهَرُ الأَسْنَانُ، فَهُوَ أَقْبَحُ مَا يَكُونُ). قال ﷺ: [وَتَشْوِيْهِ النَّارُ حَتَّى تُقَلِّصَ شَفَتَهُ الْعُلْيَا فَتَبْلُغَ وَسَطَ رَأسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ][٣]، قال ابنُ مسعود: (أَلَمْ تَرَ إلَى الرَّأسِ الْمَسْمُوطِ بالنَّار كَيْفَ بَدَتْ أَسْنَانُهُ وَقَلَّصَتْ شَفَتَاهُ)[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ أي تَجحدُون، ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ ؛ بكثرةِ معاصِينا، ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ في الدُّنيا فلم نهتَدِ. قرأ الكوفيُّون غيرُ عاصم:(شَقَاوَتُنا) بالألف وفتح الشِّين، وهُما بمعنى واحدٍ. الشِّقْوَةُ: هي الْمَضَرَّةُ اللاَّحِقَةُ فِي العَاقِبَةِ،

---

(١) الحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥ ص٣٦٥: الحديث (٤٧٢٢) وهنا ساقه بمعناه. والترمذي في الجامع: أبواب الإيمان: باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله: الحديث (٢٦٣٨)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) الأنبياء / ٤٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٨٨. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٢٥٨٧). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: باب بيان عذاب أهل النار: الحديث (٣٥٤٢).

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص١١٨؛ قال السيوطي: (أخرجه أبو نعيم في الحلية).

والسَّعَادَةُ: هي المنفعةُ التي تكون في العاقبةِ. والشَّقْوَةُ بفتحِ الشِّين بمَنْزِلَةِ الفَعْلَةِ الواحدةِ، وكسرُ الشِّين في هذا دالٌّ على الكثرةِ واللُّزوم[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ ؛ أي مِن النار إلى الدُّنيا، ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التَّكذيب والمعاصِي، ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ ؛ (اخْسَئُوا) كلمةُ إهَانَةٍ ومَذَلَّةٍ؛ وهي في الأصلِ لطردِ الكِلاب، تقولُ: خَسَأْتُ الكلبَ إذا طَرَدْتُهُ؛ فَخَسَأَ أي تباعَدَ. قال الزجَّاجُ: (مَعْنَاهُ تَبَاعَدُوا تَبَاعُدَ سُخْطٍ، وَابْعُدُوا بُعْدَ الْكَلْبِ، وَلاَ تُكَلِّمُونِ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ، وَلاَ تَسْأَلُونِ الْخُرُوجَ مِنَ النَّار، فَإنِّي لاَ أدْفَعُ عَنْكُمُ الْعَذابَ، وَلاَ أهَوِّنُهُ عَلَيْكُمْ)[2].

قال عبدُالله بن عَمرو: (أنَّ أهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَالِكاً أرْبَعِيْنَ عَاماً فَلاَ يُجِيْبُهُمْ، ثُمَّ يَقُولُ: إنَّكُمْ مَاكِثُونَ، ثُمَّ يُنَادُونَ رَبَّهُمْ: رَبَّنَا أخْرِجْنَا مِنْهَا فَإنْ عُدْنَا فَإنَّا ظَالِمُونَ. فَلاَ يُجِيْبُهُمْ مِقْدَارَ عُمْرِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: إخْسَئُوا فِيْهَا وَلاَ تُكَلِّمُون بَعْدَ ذلِكَ، وَيَكُونُ لَهُمْ زَفِيْرٌ كَزَفِيْرِ الْحَمِيْرِ، وَشَهِيْقٌ كَشَهِيْقِ الْبِغَالِ، وَعَوِيٌّ كَعَوِيِّ الْكِلاَب)[3].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ﴾ ؛ أي يقالُ لهم: إنه كان طائفٌ مِن عِبادي يقولُون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ ؛ وهم الأنبياءُ والمؤمنون، وهذا تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ بما عامَلُوا الأنبياءَ والمؤمنين باتِّخاذِهم سِخْرِيّاً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ ؛ أي تَسْخَرُونَ منهم وتَسْتَهْزِئُونَ بهم. قرأ نافعُ وحمزة والكسائيُّ: بضَمِّ السِّين ها هنا وفي ص، وقرأ الباقونَ بكسرِها وهُما

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٦-١٨٧.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٢٠؛ قال الزجاج: (مَعْنَى اخْسَئُوا: تَبَاعَدُوا تَبَاعُدَ سُخْطٍ، يُقَالُ: خَسَأْتُ الْكَلْبَ أخْسَؤُهُ: إذا زَجَرْتُهُ لِيَتَبَاعَدَ).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٤٤). وابن أبي حاتم في التفسير: ج ٨ ص٢٥٠٨: الأثر (١٤٠٤٦).

لُغتان، ولَم يختلفوا في الزُّخْرُفِ أنه بالضَّمِّ؛ لأنه بمعنى التَّسخير[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠﴾؛ لاشْتِغالِكم بالسُّخرية منهم وبالضَّحكِ، فنَسَبَ الأنبياءَ إلى عبادِهِ المؤمنينَ، وإن لَم يفعلوا؛ لِمَا أنَّهم كانوا السببَ فيه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾؛ على أذيَّتِكُمْ واستهزائِكم، ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾؛ في الجنَّةِ. قرأ حمزةُ والكسائيُّ (إنَّهُمْ) بالكسرِ على الاستئنافِ، وقرأ الباقونَ بالفتح على معنى جَزَيْتُهُمْ بالْفَوْزِ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾؛ أي كم لبثتم في القبور؟ وقيل المكث في الدنيا، يقول الله تعالى للكفار يوم البعث: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾؛ فيرَوْنَ أنَّهم لَم يلبثُوا إلاَّ يوماً أو بعضَ يومٍ لعِظَمِ ما هُم فيه من العذاب، نَسوا ذلكَ. ويقالُ: يَلْحَقُهُمْ دَهْشَةٌ وحَيرةٌ فيَنْسَوْنَ ذلكَ. وقولهُ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾؛ يعني الملائكةَ الذين يحفظونَ عليهم آجالَهم. وقرأ ابنُ كثيرٍ: (قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ) على فعلِ الأمر، وقولهُ: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾؛ في جَنْبِ لُبْثِكُمْ في العذاب[3]، ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾؛ أي أظَنَنْتُمْ أنا خَلَقْناكُمْ للعَبَثِ تأكلونَ وتشربون وتفعلونَ ما تُريدون وتموتون، ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾؛ أي فلا تُحشرونَ للحساب، ولا تُرجعون إلى موضعٍ لا تَملِكون فيه لأنفسِكم ضرّاً ولا نفعاً؟

قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أفَحَسِبْتُمْ أنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً كَمَا خَلَقْنَا الْبَهَائِمَ، لاَ ثَوَابَ لَها وَلاَ عِقَابَ عَلَيْهَا لَمَا قَالَ ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[4]) أي يُهمَلَ

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٧. (٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٩.

(٣) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص١٨٩.

(٤) القيامة / ٣٦.

كَمَا تُهْمَلُ الْبَهَائِمُ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ ؛ أي هو الْمَلِكُ الْحَقُّ الذي لهُ الملكُ؛ لأنه مَلَكَ غَيْرَهُ، وكلُّ مَن مَلَكَ غَيْرَهُ فملكهُ مستعارٌ له، فإنه لا يَملِكُ إلاّ بتمليكهِ الله إياه، فكأنه لا يعتَدُّ بملكه في ملكِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ سُمي العرشُ كَرِيْماً لكثرةِ خيرهِ بمن حولَهُ، يقالُ: فلانٌ كريمٌ؛ أي كثيرُ الخيرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ ؛ أي مَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ لَم يَنْزِلْ بعبادتهِ كتابٌ ولا بُعِثَ لها رسولٌ ولا حُجَّةَ لَهُ عليه، فإنَّما حسابهُ عندَ ربهِ، فهو يجازيهِ بما يستحقُّ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ ؛ أي لا يُسْعَدُ من جَحَدَ وكَذبَ، ولا يَأْمَنُ ولا ينجُو من عذاب الله الكافرونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ يحتمل أن يكون أمراً للنبيِّ ﷺ بالاستغفار منهُ، كما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: [إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِيْنَ مَرَّةً][2]، ويُروى [مِائَةَ مَرَّةٍ][3].

وعن ابنِ مسعود: أنَّهُ مَرَّ بشَابٍّ مُبْتَلَى، فَقَرَأَتِ فِي أذُنِهِ (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً) حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ فَبَرِئَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَمَاذَا قَرَأتَ فِي أذُنِهِ ؟] فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: [وَالَّذِي بَعَثَنِي بالْحَقِّ نَبيّاً؛ لَوْ أنَّ رَجُلاً مُؤْمِناً قَرَأهَا عَلَى جَبَلٍ لَزَالَ][4].

آخر تفسير سورة (**المؤمنــون**) والحمد لله رب العالمين

---

(١) الغاشية / ٢٦ .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٥ ص١٢٤: الحديث (٤٢٣٤). والإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٨٢. وابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: الحديث (٣٨١٦).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: ج٣ ص٤٥٦: الحديث (٢٩٧٨). والإمام أحمد في المسند: ج٥ ص٣٩٤. وابن ماجة في السنن:كتاب الأدب: باب الاستغفار: الحديث (٣٨١٥).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٤٠٧٠). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٢٢؛ قال السيوطي: (أخرجه الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن السني في عمل اليوم والليلة وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه).

سُورَةُ النُّـــورِ

سُورَةُ النُّور مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَةُ آلافٍ وَسِتُّمِائَةٍ وَثَمَانُونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَثَلاثُمِائَةٍ وَسِتَّ عَشْرَةَ كَلِمَةً، وَأَرْبَعٌ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ ؛ أي هذهِ سورةٌ أنزَلْنَا جبريلَ عليه السلام بها، وقرأ طلحةُ بن مُصَرِّف (سُورَةً) بالنصب على معنى: أنْزَلْنَا سورةً كما يقالُ: زيداً ضربتهُ، ويجوزُ أن يكونَ نصباً على الإغراءِ[1]. قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَرَضْنَاهَا) أي أوْحَيْنَا فيها أحكاماً وفرائضَ مختلفة عليكُم وعلى مَن بعدَكم إلى يوم القيامةِ، وجَحَدَ من قرأ بالتخفيفِ، قولهُ ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾[2] أي أحكامَ القُرْآن، والتشديدُ في (فَرَّضْنَاهَا) لكثرةِ ما فيها من الفرائض[3]. قال مجاهدُ: (يَعْنِي الأَمْرَ بِالْحَلاَلِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْحَرَامِ)[4]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ ؛ أي دلالاتٍ واضحاتٍ على وحدانيَّتنا وأحكامِنا لكي تتَّعِظُوا فتعمَلُوا بما فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ ؛ قال سِيبَوَيْهِ: (مَعْنَاهُ فِي الْفَرَائِضِ عَلَيْكُمْ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي؛ لأَنَّهُ لَوْلاَ ذلِكَ لِنُصِبَ بِالأَمْرِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: فَاجْلِدُوا)[5]. والْجَلْدُ في اللُّغة: ضَرْبُ الْجِلْدِ، يقالُ: جَلَدَهُ؛ إذا ضَرَبَ جِلْدَهُ ورأسَهُ، إذا ضَرَبَ رَأسَهُ وَبَطْنَهُ، إذا ضَرَبَ بَطْنَهُ.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٨. والكشاف للزمخشري: ج ٣ ص٢٠٣.
(٢) القصص / ٨٥ .
(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٨. والكشاف للزمخشري: ج ٣ ص٢٠٣.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٤٥٦).
(٥) ينظر: الكتاب لسيبويه: ج ١ ص١٤٣-١٤٤، ذكره بمعناه.

ومعنى الآيةِ: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي إذا كانا حُرَّيْنِ بالِغَين عاقلَين بكْرَين غيرِ مُحصنين، فَاضْرِبُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ. فأمَّا إذا كانا مَملُوكَين، فيُحَدُّ كلُّ واحدٍ منهما خمسونَ جلدةً في الزِّنا لقولهِ تعالى في الإمَاءِ: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[1] يعني إذا عقِلْنَ فعليهنَّ نصفُ حدِّ الحرائر.

وإذا كان الزَّانِي مُحصِناً فحدُّهُ الرجمُ؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ رَجَمَ مَاعِزَ بنَ مالك الأسلمِيِّ بزنَاهُ، وكان قد أحصَنَ. وكانَ عمرُ عليه السلام يقولُ: (إنِّي لأَخْشَى إنْ طَالَ الزَّمَانُ أنْ يَقُولَ قَائِلٌ: لاَ نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، فَيَضِلُّواْ بتَرْكِ الْفَرِيْضَةِ أنْزَلَهَا اللهُ، وَقَدْ قَرَأنَا: [الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ] وَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، وَلَوْلاَ أنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللهِ لَكَتَبْتُ ذلِكَ عَلَى حَاشِيَةِ الْكِتَابِ)[2]. واجتمعتِ الأمةُ على رجمِ الْمُحْصَنَيْنِ إذا زَنَيَا إلاَّ الخوارجَ.

وأما الإحصانُ في هذا فهو أن يكونَ حُرّاً بالِغاً عاقلاً مُسلماً قد تزوَّجَ قبلَ ذلك نِكاحاً صحيحاً، ودخلَ بزوجتهِ في وقتٍ كانا جميعاً فيه على صفةِ الإحصانِ، وهذا قولُ أبي حنيفةَ ومحمَّد، فإنَّهما يشرُطانِ هذه الشَّرائطَ السبعةَ في إحصانِ الزَّانِي.

وأما أبو يوسُفَ فلا يجعلُ الإسلامَ من شرائطِ الإحصان، ولا يشترطُ كونُهما على صفةِ الإحصان وقتَ الدُّخول في النكاح الصحيح، فجعلَ الرجلَ البالغَ العاقل المسلمَ مُحْصَناً بالدخول بزوجتهِ الأَمَةِ والصبيَّة والكتابيَّة، ويجعلُ الزوجين الرَّقيقين محصَنين بالدخول في النكاحِ الذي بينَهم إذا أُعتِقَا بعدَ ذلك، فإن لَم يوجد الدخولُ في ذلك النكاحِ بعدَ العِتقِ إلى أن زَنَى واحدٌ منهما، فهُمَا غيرُ محصَنين عندَهُ.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ: أنْشُدُكَ اللهَ

---

(١) النساء / ٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الحدود: باب رجم الحبلى: الحديث (٦٨٣٠). ومسلم في الصحيح: كتاب الحدود: باب رجم الثيب بالزنى: الحديث (١٥/ ١٦٩١). والإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٢٩ بإسناد صحيح.

إلاَّ قَضَيْتَ لِي بكِتَاب اللهِ، فَقَالَ الْخَصْمُ الآخَرُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ؛ اقْضِ بَيْنَنَا بكِتَاب اللهِ، فَقَالَ ﷺ: [قُلْ] قَالَ: إنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفاً عَلَى هَذا، فَزَنَى بامْرَأتِهِ، وَإنِّي أخْبِرْتُ أنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُهُ بمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيْدَةٍ، فَسَألْتُ أهْلَ الْعِلْمِ فَأخْبَرُونِي أنَّ عَلَى ابْنِي مِائَةَ جَلْدَةٍ وَتَغْرِيْبَ عَامٍ، وَأنَّ عَلَى امْرَأةِ هَذا الرَّجْمَ، فَقَالَ ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بكِتَاب اللهِ، الْوَلِيْدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أنَسُ إلَى امْرَأةِ هَذا، فَإن اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا] قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا، فَاعْتَرَفَتْ؛ فَأمَرَ بهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَتْ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ أي لاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا رَأفَةٌ ورحمةٌ يَمنعُ عن إقامةِ الحدِّ، ويحلُّ بمقدار عددهِ وصفته، فإنه ليس من صفاتِ المؤمنينَ تضييعُ حُدودِ الله، وقولهُ تعالى: (فِي دِينِ اللهِ)، قال ابنُ عبَّاس: (فِي حُكْمِ اللهِ) كقولهِ ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[٢] أي في حُكْمِهِ، ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ، ولا تُعطِّلوا الحدودَ. قرأ ابنُ كثيرٍ (رَأَفَةٌ) بفتحِ الهمزة. وإنَّما ذكرَ الضَّربَ بلفظِ الْجَلْدِ لئلاَّ يُبرِّحَ ولا يبلغَ به اللحمَ.

واختلفَ العلماءُ في قوله (وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا رَأفَةٌ) فقال قومٌ: معناهُ: ولا تأخذكم الرأفةُ بهما فتعطِّلوا الحدودَ ولا تقيموها شفقةً عليهما، وهو قولُ عطاء ومجاهدُ وقتادة وعكرمة وسعيدُ بن جبير والنخعي والشعبيُّ. وقال الزهريُّ وسعيدُ بن المسيَّب والحسنُ: (مَعْنَاهُ: اجْتَهِدُوا فِي الْجَلْدِ وَلاَ تُخَفِّفُوا كَمَا يُخَفَّفُ فِي حَدِّ الشُّرْب، بَلْ يُوجِعُ الزَّانِي ضَرْباً، وَلاَ يُخَفَّفُ رَأفَةً لَهُ، كَأنَّهُ قَالَ: لاَ تَأْخُذْكُمْ بهِمَا فَتُخَفِّفُوا الضَّرْبَ، بَلْ أوْجِعُوهُمَا ضَرْباً)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي لِيَكُنْ إقامةُ الحدِّ عليهما بحضرةِ جماعةٍ من المؤمنين ليستفيضَ الخبرُ بهما، ويُبَلِّغَ الشاهدُ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الشروط: الحديث (٢٧٢٤). ومسلم في الصحيح: كتاب الحدود: الحديث (٢٥/ ١٦٩٧-١٦٩٨).

(٢) يوسف / ٧٦ .

(٣) جامع البيان: الآثار (١٩٤٦٠-١٩٤٦٨).

الغائبَ، فيرتدعُ الناس عن مثلهِ، ويرتدعُ المضروبُ ويستحيي فلا يعودُ إلى مثلِ ذلك. واختلفُوا في مبلغِ عدد الطائفةِ، فقال الزهريُّ: (أقَلُّهُ ثلاثَةٌ)، وقال ابنُ زيدٍ: (أرْبَعَةٌ بَعْدَ شُهُودِ الزِّنَا)(١)، وقال قتادةُ: (نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ)(٢).

وفي الخبرِ: [إقَامَةُ حَدٍّ فِي أرْضٍ خَيْرٌ لأَهْلِهَا مِنْ مَطَرِ أرْبَعِيْنَ يَوْماً](٣). وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قالَ: [يَا مَعْشَرَ النَّاسِ؛ اتَّقُوا الزِّنَا فَإنَّ فِيْهِ سِتَّ خِصَالٍ؛ ثَلاَثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلاَثٌ فِي الآخِرَةِ، فَاللاَّتِي فِي الدُّنْيَا: تُذْهِبُ الْبَهَاءَ، وَتُورِثُ الْفَقْرَ، وَتُنْقِصُ الْعُمْرَ. وَأمَّا اللاَّتِي فِي الآخِرَةِ: فَتُوجِبُ السُّخْطَ؛ وَسُوءَ الْحِسَابِ؛ وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ](٤).

وقال ﷺ: [أعْمَالُ أمَّتِي تُعْرَضُ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، فَاشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى الزُّنَاةِ](٥). وعن وهب بن مُنبه قال: (مكتوبٌ في التوراةِ: الزَّانِي لا يَموتُ حتى يفتقرَ، والقوَّادُ لا يَموتُ حتى يعمَى).

فإن قيلَ: لِمَ بدأ اللهُ بذكرِ الزَّانيةِ قبل ذِكر الزَّاني فقالَ تعالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِـي)،

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٤٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٤٧٩).

(٣) رواه النسائي في السنن: كتاب قطع السارق: باب الترغيب في إقامة الحد: ج ٨ ص٧٦. وابن حبان في الإحسان: كتاب الحدود: الحديث (٤٣٩٧). والطبراني في الكبير: ج ١١ ص٢٦٧: الحديث (١١٩٣٢)، وفي الأوسط بلفظ: [وَحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْضِ بِحَقِّهِ أزْكَى فِيهَا مِنْ مَطَرِ أرْبَعِينَ عَاماً].

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء: ج ٤ ص١١١؛ وقال: (غريب من حديث الأعمش، تفرد به مسلمة، وهو ضعيف الحديث) من حديث حذيفة. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٨ ص١٩-٢٠: ترجمة مسلمة بن علي: الرقم (١٧٨/ ١٧٩٩)؛ وقال: (منكر ... متروك الحديث). وبلفظ [إياكم والزنا فإن فيه أربع خصال...] أخرجه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٠٩٢) عن ابن عباس. وفي مجمع الزوائد: ج٦ ص٢٥٤-٢٥٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عمرو بن جميع، وهو متروك).

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٦٧. ولم أقف عليه.

وبذكرِ السَّارقِ قبلَ ذِكر السَّارقةِ في آيةِ السَّرقة فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾[(١)]؟ قِيلَ: لأنَ الرجُلَ هو الذي يسرقُ غالباً، والمرأةُ هي السببُ في الزّنا غالباً، فأخرجَ الخطابَ في المؤمنين على الأغلب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي قَوْمٍ مِنَ الْمُهَاجِرِيْنَ، دَخَلُوا الْمَدِيْنَةَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَسَاكِنُ وَلا مَالٌ يَأْكُلُونَ مِنْهُ وَلاَ أهْلٌ يَأْوُونَ إلَيْهِمْ، وَفِي الْمَدِيْنَةِ بَاغِيَاتٌ سَافِحَاتٌ يَكْرِيْنَ أنْفُسَهُمَّ وَيَضْرِبْنَ الرَّايَاتِ عَلَى أبْوَابهِنَّ يَكْتَسِبْنَ بذلِكَ، وَكَانَ أوْلَئِكَ الْمُهَاجِرِيْنَ الْفُقَرَاءَ يَطْلُبُونَ مَعَايِشَهُمْ بالنَّهَار وَيَأْوُونَ إلَى الْمَسَاجِدِ بِاللَّيْلِ، فَقَالُواْ: لَوْ تَزَوَّجْنَا مِنْهُنَّ فَعِشْنَا مَعَهُمْ إلَى يَوْمٍ يُغْنِيْنَا اللهُ عَنْهُنَّ، وَقَصَدُواْ أنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ وَيَنْزِلُوا مَنَازِلَهُنَّ، وَيَأْكُلُوا مِنْ كَسْبهِنَّ، فَشَاوَرُواْ النَّبِيَّ ﷺ فِي ذلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ، فَنُهُوا أنْ يَتَزَوَّجُوهُنَّ عَلَى أنْ يُحِلُّوهُنَّ وَالزِّنَا)[(٢)].

والمعنى: لا يرغبُ في نكاحِ الزانيةِ إلاَّ زَانٍ مثلُها، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْخَبيثَاتُ لِلْخَبيثِينَ) مَيْلُ الخبيثِ إلى الخبيثِ وميلُ الطيِّبِ إلى الطيبِ، وقد يقعُ الطيبُ مع الخبيثِ، لكن الأعمَّ والأغلبَ ما ذكرنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي حُرِّمَ على المؤمنينَ تزويجُ تلك الباغياتِ المعلِنات بالزّنا، وفيه بيانُ أن مَن يتزوجُ بامرأةٍ منهنَّ فهو زانٍ، فالتحريمُ كان خاصَّة على أولئكَ دون الناسِ.

ومذهبُ سعيدِ بن المسيَّب: أنَّ التحريمَ كان عامّاً عليهم وعلى غيرِهم، ثُم نُسِخَ التحريمُ بقولهِ تعالى ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾[(٣)]، فإن تزوجَ الرجلُ امرأةً وعاينَ منها الفجُورَ لَم يكن ذلك تَحريْماً بينَهما ولا طَلاقاً، ولكنه يُؤْمَرُ بطلاقِها تَنَزُّهاً عنها، ويخافُ عليه الإثمَ في إمساكِها؛ لأن اللهَ تعالى شَرَطَ على المؤمنين نكاحَ الْمُحصَنات من المؤمنات.

---

(١) المائدة / ٣٨ .

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٩٤٨٩-١٩٤٩١).

(٣) النور/ ٣٢.

من المؤمناتِ.

ورويَ أنَّ رَجلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ امْرَأتِي لاَ تَرُدُّ يَدَ لاَمِسٍ! فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: [طَلِّقْهَا] فقَالَ: إنِّي أحِبُّهَا، وَأخَافُ إنْ طَلَّقْتُهَا أنْ أصِيبَهَا حَرَاماً، فقَالَ لَهُ: [أمْسِكْهَا إذاً][(١)]. إلاّ أنَّ هذا الحديثَ فيه خلافُ الكتاب؛ لأن اللهَ تعالى أذِنَ في نكاحِ الْمُحصَنات، ثُم أنزلَ اللهُ في القاذفِ لامرأته آيةَ اللِّعان، وسَنَّ رسولُ الله ﷺ التفريقَ بينهما، ولا يجتمعان أبداً، فكيفَ يأمرهُ بالوقفِ على عاهرةٍ لا تمتنعُ عمَّن أرادَها، والحديثُ الذي ذُكِرَ لَم يصِحَّ عن رسول الله ﷺ، ثُم إنْ صَحَّ فتأويلهُ أنَّها امرأةٌ ضعيفةُ الرَّأي في تضييعِ مال زوجِها، فهي لا تمنعهُ مِن طالبٍ ولا تحفظهُ من سارق، وهذا التأويلُ أشبهُ بالنبيِّ ﷺ وأحرَى لحديثهِ[(٢)]. ويحتملُ أن يكون قَوْلُهُ تَعَالَى:(وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) إشارةً إلى الزِّنا.

وعن عمرِو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جدِّه: (أنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَرْثَدَ

(١) أخرجه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء: الحديث (٢٠٤٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب تزويج الزانية: ج ٦ ص٦٧-٦٨؛ وقال: (هذا الحديث ليس بثابت، وعبدالكريم ليس بالقوي، وهارون ابن رئاب أثبت منه وقد أرسل هذا الحديث، وهارون ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبدالكريم). قلتُ: فالحديث من طريق هارون أولى. ثم لا أظن أن الحديث في موضوع الزنا، والأرجح موضوع المال والمحافظة عليه، وهو كما قال الإمام الطبراني بعدُ في تأويله، وهو ما ذهب إليه الإمام أحمد وغيره.

(٢) ربما يقال:(لو كان المراد السخاء لقيل: لا تردُّ يدَ مُلتَمِس؛ إذ السائل يقال له: الملتمس، لا لامس. وأما اللمس فهو الجماع أو بعض مقدماته، وأيضاً السخاء مندوب إليه، فلا تكون المرأة معاقَبة لأجله مستحقة للفراق). وهذا الجواب يقبل الدور والجواب عليه؛ لأن التأويل اللغوي محتمل وليس قطعياً، فلا يصلح في الجواب لما فيه من خلاف، لا سيما موضوع النص هو اليد وليس الفرج. ومتعلق اليد السؤال غالباً، وتناول المال. ثم لعمومات الشريعة في الباب يفهم النص على غير ما ذهب إليه البعض والله أعلم.

الْغَنَوِيُّ، كَانَ قَدْ أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ يَحْمِلُ ضَعَفَةَ(١) الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ، وَمِنَ الْمَدِيْنَةِ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَتْ لَهُ صَدِيْقَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُقَالُ لَهَا: عِنَاقٌ، فَلَقِيَتْهُ بِمَكَّةَ فَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِهَا فَأَبَى وَقَالَ: إِنَّ الإِسْلاَمَ قَدْ حَالَ دُونَ ذلِكَ، فَقَالَتْ لَهُ: فَانْكَحْنِي، فَقَالَ: حَتَّى أُشَاوِرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَعَتْ بِهِ إِلَى الْمُشْرِكِيْنَ، فَهَرَبَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ وَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَشَاوَرَهُ فِي تَزَوُّجِهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)(٢). وبيَّنَ أن نكاحَ المشركةِ زنا؛ لأنَّها لا تحلُّ له، وقرَنَ بين الزِّنا والشِّركِ على طريقِ المبالغة في الزَّجرِ عن الزِّنا حين كان القومُ يألَفُون الزنا ألْفاً شديداً.

وكان بحسب ظاهر الآية أن يكونَ للزانِي أن يتزوجَ المشركةَ، وللزَّانيةِ أن تتزوجَ المشركَ، ولا خلافَ أن ذلك غيرُ جائزٍ، وأنَّ نكاحَ المشركاتِ وتزوُّجَ المشركين منسوخٌ بقولهِ تعالى ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يؤمنَّ﴾، وبقوله ﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يؤمنوا﴾(٣).

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ معنى الآية: الزانِي لا يطأُ إلاّ زانيةً؛ أي لا يزنِي حينَ يزنِي إلاّ بزانيةٍ مثله، وكذلك الزانيةُ لا يزنِي بها إلاّ زانٍ مثلُها، حتى إذا طاوعَ أحدُهما الآخرَ، فهُمَا سواءٌ في استحقاقِ الحدِّ وعقاب الآخرة، فكأنَّ المرادَ بالنكاحِ الوطءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ ؛ أي يرمُونهم بالزنا، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ ؛ على صحَّة قَذفِهم إياهُنَّ بالزنا، ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ . والْمُحْصَنَاتُ: الحرائرُ الْمُسلِماتُ البالغاتُ العاقلات العفيفاتُ عن فعلِ الزِّنا. وفي ذكرِ عدد الأربعةِ من الشُّهود دليلٌ على أن المرادَ القذفُ بصريحِ الزنا؛ لأن هذا العددَ

---

(١) الضَّعَفَة: الأسارى عند أهل مكة من المسلمين المستضعفين. في رواية أبي داود والترمذي والنسائي.

(٢) رواه أبو داود في السنن: كتاب النكاح: باب في قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً﴾: الحديث (٢٠٥١). والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٧٧). والنسائي في السنن: كتاب النكاح: باب تزوج الزانية: ج ٦ ص٦٦. وإسناده صحيح.

(٣) البقرة / ٢٢١.

لا يُشترط إلاّ في الزّنا، ولا يقبلُ في ذلكَ شهادةُ النساءِ. وفي الآيةِ دليلٌ على أن مَن قَذفَ جماعةً من الْمُحصَنَاتِ لَم يُضرب إلاّ حدّاً واحداً، وإذا كان القاذفُ عبداً فحدُّهُ النّصفُ كما بَيَّنَّا في حدِّ الزنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ ؛ يعني المحدودين في القذفِ لا تقبلُ شهادتُهم أبداً، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ ؛ أي الخارجونَ عن طاعةِ الله برَمْيِهِمْ إياهُنَّ زُوراً وكَذِباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ؛ أي نَدِمُوا على قَذْفِهِم وعَزَمُوا على تركِ الْمُعَاوَدَةِ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ؛ أعمالَهم فيما بينَهم وبين ربهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ ؛ لِمَن تابَ منهم، ﴿رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ ؛ لِمَن ماتَ على التوبةِ.

قال ابنُ عبَّاس: (هَذا الاسْتِثْنَاءُ لاَ يَرْجِعُ إلَى الشَّهَادَةِ، وَإنَّمَا يَرْجِعُ إلَى الْفِسْقِ)[1]. وَقِيْلَ: إنَّ توبتَهُ فيما بينه وبينَ اللهِ مقبولةٌ، وأما شهادتهُ فلا تقبلُ أبداً، وهو قولُ شُريحٍ والحسن وإبراهيمَ[2]، وإلى هذا ذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أن الاستثناءَ راجعٌ إلى الفسقِ وإلى ردِّ الشهادةِ، ويكون معنى قولهِ تعالى (أبَدًا) ما دامَ على القذفِ ولَم يَتُبْ عنهُ. وأجْمَعُوا جميعاً أنَّ هذا الاستثناءَ لا يرجعُ إلى الْجَلْدِ، وذلك يقتضي أن يكونَ مَقْصُوراً على ما يَلِيْهِ وهو الفسقُ.

وأجْمَعُوا أن المقذوفةَ إذا ماتت ولَم تُطالِبْ بحدِّ القذفِ ولَم يُحَدَّ القاذفُ ثُم تابَ، فإنهُ يجوز قَبولُ شهادتهِ؛ لأن على أصْلِنا أنَّ الحاكمَ إذا أقامَ الحدَّ على القاذفِ

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ٢ ص١٨٠؛ قال القرطبي: (الاستثناءُ إذا تعقَّب جُملاً معطوفة عاد إلى جميعها عند مالك والشافعي وأصحابهما. وعند أبي حنيفة وجُلّ أصحابه يرجع الاستثناءُ إلى أقرب مذكور؛ ولهذا لا تقبل شهادته، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة) ثم ذكر سبب الخلاف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٥٢٤-١٩٥٢٧) عن شريح بأسانيد، و(١٩٥٣٠) عن الحسن بإسنادين، و(١٩٥٣١) عن إبراهيم.

فكذبَهُ وأبطلَ حينئذٍ شهادتَهُ، ولو جُعِلَ بطلانُ الشهادةِ حُكماً معلقاً بتسمية الفسق ولم يجعل حكماً علىحالهِ مرتَّباً على الجلدِ لبطُلَتْ فائدةُ قولهِ (وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً) من كتاب الله؛ لأن كلَّ فاسقٍ لا تقبلُ شهادتهُ إلاّ بعد توبتهِ عن الفسق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾؛ الآيةُ، وذلكَ أنَّ اللهَ سُبحانه لَمَّا أنزلَ الآيَةَ التي قبلَ هذه الآيةِ في قذفِ الْمُحصَنات وشَرَطَ فيها الإتيانَ بأربعةِ شهداءَ وإلاّ جُلِدَ ثمانين جلدةً، قَرَأهَا النبيُّ ﷺ على الْمِنبَرِ.

فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ: يَا رَسُولَ اللهِ! جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، أرَأيْتَ إنْ رَأى رَجُلٌ مِنَّا مَعَ امْرَأتِهِ رَجُلاً عَلَى بَطْنِهَا، فَأَرَادَ أنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ فَيَجِيْءَ بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَخَرَجَ، وَإنْ هُوَ عَجَّلَ فَقَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ، وَإنْ تَكَلَّمَ بذلِكَ جَلَدْتُمُوهُ، وَإنْ سَكَتَ؛ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ شَدِيْدٍ؟

فَقَالَ ﷺ: [كَفَى بالسَّيْفِ] أرَادَ أنْ يَقُولَ شَاهِداً، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ بالسُّكُوتِ، فَأَمْسَكَ لِئَلاَّ يَتَسَارَعَ أحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إلَى قَتْلِ أزْوَاجِهِمْ[(١)].

وقال ابنُ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَتْ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)، قَرَأهَا النَّبيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ - فَقَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ مَقَالَتَهُ الَّتِي ذكَرْنَاهَا[(٢)] — وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ لَنَا بالشُّهَدَاءِ

---

(١) أدرج الطبراني رَحِمَهُ اللهُ رواية عبادة بن الصامت ورواية عاصم بن عدي؛ وأصلها كما رواه البغوي في معالم التنزيل: ص٨٩٢. ورواه أبو داود في السنن: كتاب الحدود: باب في الرجم: الحديث (٤٤١٧)، وفيه الفضل بن دلهم، ليس بالحافظ كان قصاباً بواسط. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٦٥؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه الفضل بن دلهم وهو ثقة، وأنكر عليه هذا الحديث من هذا الطريق فقط، وبقية رجاله ثقات).

(٢) ذكره القرطبي مختصراً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص١٨٤. والبغوي في معالم التنزيل: ص٨٩٢. وأصله ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٠٩. وفي جامع البيان: الأثر (١٩٥٤٥) ذكر الطبري بإسناده عن عكرمة قال: (والذي استفتى عاصم بن عدي).

وَنَحْنُ إذا الْتَمَسْنَاهُمْ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَخَرَجَ. وَكَانَ لِعَاصِمٍ هَذا ابْنُ عَمٍّ يُقَالُ لَهُ عُوَيْمِرَ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا خَوْلَةُ بِنْتُ قَيْسِي، فَأَتَى عُوَيْمِرُ عَاصِماً فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُ شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاءَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي خَوْلَةَ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْجُمُعَةِ الأُخْرَى، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا أَسْرَعَ مَا ابْتُلِيْتَ بِالسُّؤَالِ الَّذِي سَأَلْتُ فِي الْجُمُعَةِ الْمَاضِيَةِ فِي أهْلِ بَيْتِي؟ فَقَالَ ﷺ: [وَمَا ذاكَ ؟] قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أخْبَرَنِي عُوَيْمِرُ أنَّهُ رَأى شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاء عَلَى بَطْنِ امْرَأتِهِ خَوْلَةَ.

وَكَانَ عُوَيْمِرُ وَخَوْلَةُ وَشُرَيْكٌ كُلُّهُمْ بَنِي عَمِّ عَاصِمٍ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِمْ جَمِيْعاً، وَقَالَ لِعُوَيْمِر: [اتَّقِ اللهَ؛ اتَّقِ اللهَ فِي زَوْجَتِكَ وَخَلِيْلَتِكَ وَابْنَةِ عَمِّكَ فَلاَ تُعَذِّبْهَا بِالْبُهْتَانِ] فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أُقْسِمُ بِاللهِ أنِّي رَأيْتُ شُرَيْكاً عَلَى بَطْنِهَا. فَقَالَ ﷺ: [اتَّقِ اللهَ وَأخْبِرِيْنِي بِمَا صَنَعْتِ] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنَّ عُوَيْمِراً رَجُلٌ غَيُورٌ، وَإنَّهُ رَآنِي وَشُرَيْكاً نَتَحَدَّثُ، فَحَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى مَا قَالَ).

وروى عكرمةُ عن ابنِ عبَّاس: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً) قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: وَاللهِ لَوْ أتَيْتُ لُكَاعَ وَقَدْ تَفَخَّذهَا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أنْ أقْتُلَهُ وَلاَ أُهَيِّجَهُ وَلاَ أُخْرِجَهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ، وَلَمْ يَأْتِ بِهِمْ حَتَّى فَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ وَيَذْهَبَ! فَإنْ قُلْتُ بِمَا رَأيْتُ ضَرَبْتُمْ ظَهْرِي ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً!

فَقَالَ ﷺ: [يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ألاَ تَسْمَعُونَ إلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ !؟] قَالُوا: لاَ تَلُمْهُ فَإنَّهُ رَجُلٌ غَيُورٌ، مَا تَزَوَّجَ امْرَأةً قَطُّ إلاَّ بِكْراً، وَلاَ طَلَّقَ امْرَأةً فَاجْتَرَأ أحَدٌ مِنَّا أنْ يَتَزَوَّجَهَا. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ! بِأَبِي وَأُمِّي أنْتَ، وَاللهِ إنِّي لأَعْرِفُ أنَّهَا مِنَ اللهِ وَأنَّهَا لَحَقٌّ، وَلَكِنَّنِي عَجِبْتُ مِنْ ذلِكَ. فَقَالَ ﷺ: [وَاللهُ يَأْبَى إلاَّ ذلِكَ ؟] فَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ.

فَلَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ يَسِيراً حَتَّى جَاءَ هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أصْحَابِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي جِئْتُ أهْلِي عِشَاءً فَوَجَدْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأتِي يَزْنِي بِهَا، رَأيْتُ بِعَيْنِي وَسَمِعْتُ بِأُذُنِي. فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أتَى بِهِ، وَثَقُلَ عَلَيْهِ حَتَّى عُرِفَ ذلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ هِلاَلُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي لأَرَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِكَ

لِمَا أَتَيْتُكَ بِهِ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَصَادِقٌ وَمَا قُلْتُهُ إِلاَّ حَقّاً، وإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِي فَرَجاً، فَهَمَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَضْرِبَهُ الْحَدَّ.

وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ وَقَالُوا: ابْتُلِيْنَا بِمَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ إِلاَّ أَنْ يَجْلِدَ هِلاَلاً. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلِكَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُرِيْدُ أَنْ يَأْمُرَ بِضَرْبِهِ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَمْسَكُوا عَنِ الْكَلاَمِ حِيْنَ عَرَفُوا أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ نَزَلَ. فَلَمَّا فَرَغَ تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ...) إِلَى آخِرِ الآيَاتِ، فَقَالَ ﷺ: [أَبْشِرْ يَا هِلاَلُ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لَكَ فَرَجاً] فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَرْجُو ذلِكَ مِنَ اللهِ.

فَقَالَ ﷺ: [أَرْسِلُوا إِلَيْهَا] فَجَاءَتْ، فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ: كَذَبَ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ هِلاَلُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا قُلْتُ إِلاَّ حَقّاً وَإِنِّي لَصَادِقٌ، فَقَالَ ﷺ: [اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟] فَقَالَ هِلاَلُ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَذَبْتُ. فَقَالَ ﷺ: [لاَعِنُوا بَيْنَهُمَا].

فَقِيْلَ لِهِلاَلَ: اشْهَدْ بِاللهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ إِنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ، فَقَالَ هِلاَلُ: أَشْهَدُ بِاللهِ إِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَيْتُهَا بِهِ، قَالَ ذلِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ: [اتَّقِ اللهَ يَا هِلاَلُ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ، وَإِنَّ عَذَابَ اللهِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ النَّاسِ، وَإِنَّ هَذِهِ الْخَامِسَةَ هِيَ الْمُوجِبَةُ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْكُمَا الْعَذَابَ]. فَقَالَ هِلاَلُ: وَاللهِ مَا يُعَذِّبُنِي اللهُ عَلَيْهَا،كَمَا لَمْ يَجْلِدْنِي عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَشَهِدَ الْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا.

ثُمَّ قِيْلَ لِلْمَرْأَةِ: اشْهَدِي أَنْتِ، فَقَالَتْ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ: أَشْهَدُ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيْمَا رَمَانِي بِهِ مِنَ الزِّنَا. فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْخَامِسَةِ: [اتَّقِ اللهَ فَإِنَّ الْخَامِسَةَ هِيَ الْمُوجِبَةُ، وَإِنَّ عَذَابَ اللهِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ النَّاسِ] فَسَكَتَتْ سَاعَةً وَهَمَّتْ بِالاعْتِرَافِ، ثُمَّ قَالَتْ: وَاللهِ لاَ أَفْضَحُ قَوْمِي، فَشَهِدَتِ الْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا. فَفَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَضَى أَنَّ الْوَلَدَ لَهَا وَلاَ يُدْعَى لأَبٍ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [وَإنْ جَاءَتْ بِهِ كَذا وَكَذا فَهُوَ لِزَوْجِهَا، وَإنْ جَاءَتْ بِهِ كَذا وَكَذا فَهُوَ لِلَّذِي قِيْلَ فِيْهِ]. فَجَاءَتْ بِهِ غُلاَماً أحْمَرَ كَأَنَّهُ جَمَلٌ أوْرَقُ عَلَى الشَّبَهِ الْمَكْرُوهِ، وَكَانَ بَعْدَ ذلِكَ أمِيْراً عَلَى مِصْرَ لاَ يَدْرِي مَنْ أبُوهُ[١].

وعلى القول الأول أن القصةَ بين شُريك بن سَحْمَاء وعُويمِر؛ قَالُوا: أَمَرَ[٢] رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُلاَعَنَةِ، فَقَامَ فَقَالَ: أشْهَدُ باللهِ أنَّ خَوْلَةَ بنْتَ قَيْسٍ زَانِيَةٌ، وَإنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ فِيْمَا رَمَيْتُهَا بِهِ. فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ: أشْهَدُ باللهِ إنِّي رَأيْتُ شُرَيْكاً عَلَى بَطْنِهَا، وَإنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ. وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: أشْهَدُ باللهِ إنَّهَا حُبْلَى مِنْ غَيْرِي، وَإنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ - وَكَانَ عُوَيْمِرُ قَدِ اعْتَزَلَهَا أرْبَعَةَ أشْهُرٍ لَمْ يَقْرَبْهَا، فَظَهَرَ بِهَا الْحَمْلُ، فَعَلِمَ أنَّهُ مِنْ وَطْئِ غَيْرِهِ - ثُمَّ قَالَ فِي الْخَامِسَةِ: أنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى عُوَيْمِرَ - يَعْنِي نَفْسَهُ - إنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِيْنَ فِيمَا قَالَ.

فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بالقُعُودِ[٣] وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ: [قُومِي] فَقَامَتْ فَقَالَتْ: أشْهَدُ باللهِ مَا أنَا بِزَانِيَةٍ وَأنَّ عُوَيْمِراً لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الثَّانِيَةِ: أشْهَدُ باللهِ أنَّهُ مَا رَأى شُرَيْكاً عَلَى بَطْنِي، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الثَّالِثَةِ: أشْهَدُ باللهِ أنِّي حُبْلَى مِنْهُ، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الرَّابعَةِ: أشْهَدُ باللهِ مَا رَأى عَلَيَّ فَاحِشَةً قَطُّ، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِيْنَ. ثُمَّ قَالَتْ فِي الْخَامِسَةِ: أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَى خَوْلَةَ - تَعْنِي نَفْسَهَا - إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ.

فَفَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: [لَوْلاَ هَذِهِ الأَيْمَانُ لَكَانَ لِي فِي أمْرِهَا رَأْيٌ، وَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ]. ثُمَّ قَالَ: [إنْ جَاءَتْ بِالْوَلَدِ صُهَيْباً أُثَيْبِجَ[٤] يَضْرِبُ إلَى

---

(١) القصة بطولها أخرجها الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٥٣٨-١٩٥٤٠) عن عكرمة. وعن عكرمة عن ابن عباس وفيه قصة هلال بن أمية. والبغوي في معالم التنزيل: ص٨٩٢-٨٩٤.

(٢) في الأصل المخطوط فراغ تركه الناسخ.

(٣) (بالقعود) سقطت من أصل المخطوط.

(٤) الثَّبَجُ: بفتحتين، مَا بَيْنَ الْكَاهِلِ إلَى الظَّهْرِ، وقيل: ثَبَجُ كُلِّ شَيْءٍ وَسَطُهُ وَ(الأَثْبَجُ): الْعَرِيضُ الثَّبَجِ، وقيل: النَّاتِئُ الثَّبَجِ، وَهُوَ صُغِّرَ فِي الْحَدِيثِ: [إذا جَاءَتْ بِهِ أُثَيْبِجَ]. ينظر: مختار الصحاح: ص٨٢.

السَّوَادِ، فَهُوَ لِعُوَيْمِرَ[١]، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدَ جَمَالِيًّا خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشُرَيْكَ بْنِ سَحْمَاءَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (فَجَاءَتْ بِأَشْبَهِ خَلْقِ اللهِ بِشُرَيْكِ ابْنِ سَحْمَاءَ).

وعن الضَّحاك عن ابنِ عبَّاس قالَ[٢]: (لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) الآيَةُ، قَالَ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ وَجَدْتُ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي رَجُلاً؛ فَقُلْتُ لَهَا: يَا زَانِيَةُ؛ أَتَجْلِدُنِي ثَمَانِينَ جَلْدَةً إلاَّ أنْ آتِي بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ؟! وَإِنْ مَضَيْتُ لأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَمَضَى ؟ فَقَالَ ﷺ: [هَكَذا أُنْزِلَ يَا عَاصِمُ]، قَالَ: فَخَرَجَ سَامِعاً مُطِيْعاً، فَلَمْ يَصِلْ إِلَى مَنْزِلِهِ حَتَّى اسْتَقْبَلَهُ هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ يَسْتَرْجِعُهُ، فَقَالَ: مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ: شَرٌّ، وَجَدْتُ شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاءَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي خَوْلَةَ يَزْنِي بِهَا، فَرَجَعَ مَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا فَجَاءَتْ.

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: [مَا تَقُولِيْنَ ؟] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ شُرَيْكَ بْنَ سَحْمَاءَ كَانَ يَأْتِينَا، فَنَزَلَ بِنَا فَرُبَّمَا تَرَكَهُ زَوْجِي عِنْدِي وَخَرَجَ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ مِنْ لَيْلٍ وَلاَ نَهَارٍ، فَلاَ أَدْرِي إِنَّهُ الآنَ أَدْرَكَتْهُ الْغَيْرَةُ؛ أَمْ بَخِلَ عَلَيَّ بِالطَّعَامِ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى آيَةَ اللِّعَانِ (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ).

فَأَقَامَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَقَالَ: [يَا هِلاَلُ! أَنْتَ الشَّاهِدُ أَنَّكَ رَأَيْتَهَا تَزْنِي] فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ رَأَيْتُهُ عَلَى بَطْنِهَا يَزْنِي بِهَا وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ، مَا قَرِبْتُهَا مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَإِنَّ حَمْلَهَا هَذا الَّذِي فِي بَطْنِهَا مِنْ شُرَيْكِ بْنِ سَحْمَاءَ، وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ. أَشْهَدُ بِاللهِ مَا بَرِئَتْ مِنْهُ وَلاَ بَرِئَ مِنْهَا، وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ... إِلَى أَنْ قَالَ فِي

---

(١) في أصل المخطوط: (فهو لشريك بن سحماء) ثم ذكر (فهو لعويمر) عاكساً بين الرامي والذي رميت به، تصحيفاً من الناسخ. والصحيح كما أثبتناه، والله أعلم. ينظر: معالم التنزيل: ص٨٩٤ القصة.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٥٤٣) مختصراً، و(١٩٥٣٩) عن عكرمة عن ابن عباس مطولاً.

الْخَامِسَةِ: أنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبيْنَ فِيْمَا رَمَاهَا بِهِ مِنْ ذلِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ: آمِيْنَ.

فَقَالَ ﷺ: [يَا خَوْلَةُ وَيْحَكِ! إنْ كُنْتِ الْمَمْتِ بذنْبٍ فَأقِرِّي بِهِ، فَإنَّ الرَّجْمَ بالْحِجَارَةِ فِي الدُّنْيَا أيْسَرُ عَلَيْكِ مِنْ غَضَبِ اللهِ فِي الآخِرَةِ، وَإنَّ غَضَبَهُ عَذابُهُ] فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ كَذبَ. فَأقَامَهَا مَقَامَهُ، فَقَالَتْ: أشْهَدُ باللهِ مَا أنَا زَانِيَةٌ، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبيْنَ، مَا رَآهُ عَلَى بَطْنِي. أشْهَدُ باللهِ لَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الزِّنَا وَبَرِئَ شُرَيْكُ بْنُ سَحْمَاءَ مِنِّي، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبيْنَ. أشْهَدُ باللهِ لَقَدْ قَرُبَنِي مُنْذُ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ وَإنَّ مَا فِي بَطْنِي لِهِلاَلٍ، وَإنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبيْنَ. وَقَالَتْ فِي الْخَامِسَةِ: أنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِيْنَ. ثُمَّ فَرَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: [الْمُتَلاَعِنَانِ لاَ يَجْتَمِعَانِ أبَداً][1].

قَوْلُهُ: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ ؛ أي يدفعُ عنها الحدَّ: ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ ﴾ ؛ وقرأ حفصٌ: (وَالْخَامِسَةَ) بالنصب، كأنهُ قال: وَشَهِدَ الْخَامِسَةَ. وقُرِئَ (فَشَهَادَةُ أحَدِهِمْ أرْبَعُ شَهَادَاتٍ) بالرفع في قوله (أرْبَعُ) على أنَّها خبرُ المبتدأ، ويقرأ بالنصب على معنى: فَشَهَادَةُ أحَدِهِمْ أنْ يَشْهَدَ أرْبَعَ شَهَادَاتٍ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ ؛ محذوفُ الجواب؛ تقديرهُ: لَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفَضَحَكُمْ بما تركبونَ من الفواحشِ، ولعجَّلَكم بالعقوبةِ من غيرِ إمهالٍ، ولَبَيَّنَ الصادقَ من الكاذب، فيقامُ الحدُّ على الكاذب ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾ ؛ أي تَوَّابٌ على من رجعَ عن معاصي الله، حَكِيْمٌ فيما فرضَ من الحدودِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ ؛ وذلكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إذا أرَادَ أنْ يَخْرُجَ إلَى سَفَرٍ أقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ.

---

(١) الحديث عن ابن عمر، أخرجه الدارقطني مختصراً في السنن: كتاب النكاح: باب المهر: الحديث (١١٦) بإسناد جيد، والحديث (١١٧) عن علي وعبدالله قال: [مَضَتِ السُّنَّةُ فِي الْمُتَلاَعِنَينِ أنْ لاَ يَجْتَمِعَا أبَداً]. وإسناده موقوف حسن. (٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٨٩.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا وَهِيَ غَزْوَةُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ،وَذلِكَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ كُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُحْمَلُ فِيهِ حَتَّى إِذَا فَصَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ وَرَجَعَ وَدُرْنَا إِلَى الْمَدِيْنَةِ.

فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قُمْتُ حِيْنَ آذَنُوا بِالرَّحِيْلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدِي قَدِ انْقَطَعَ، وَكَانَ مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ[١]، فَرَجَعْتُ الْتَمِسُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ.

فَأَقْبَلَ الرَّهْطُ[٢] الَّذِيْنَ كَانُوا يَرْحَلُونَ[٣] لِي، فَحَمَلُوا هَوْدَجِي عَلَى بَعِيْرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكُنَّ نِسَاءً إِذْ ذَاكَ خِفَافاً لَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ[٤] مِنَ الطَّعَامِ، وَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ حِيْنَ رَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيْثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلاَ مُجِيْبٌ، فَتَيَمَّمْتُ[٥] مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ يَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ.

فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَجْلِسِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ قَدْ عَرَّسَ[٦] مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَدْلَجَ[٧] فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَى إِلَيَّ فَعَرَفَنِي حِيْنَ رَآنِي، وَقَدْ كَانَ رَآنِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ، فَمَا اسْتَيْقَظْتُ إِلاَّ بِاسْتِرْجَاعِهِ[٨] حِيْنَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، فَوَاللهِ مَا

---

(١) هو عِقْدٌ نحو القلادة. والجزع: خرز يماني. وظفار: قرية باليمن.

(٢) الرهط: جماعة دون العشرة.

(٣) يرحلون: يجعلون الرَّحل على البعير.

(٤) العلقة: القليل، ويقال لها أيضاً: البُلغة.

(٥) تَيَمَّمْتُ منزلي: قصدته، لتأمَنَ العثور عليها حين يرجعون.

(٦) عَرَّسَ: نزل آخر الليل ليستريح.

(٧) أدلجَ: سارَ في آخر الليل.

(٨) أي حين قال: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون).

كَلَّمَنِي بكَلِمَةٍ غَيْرِ اسْتِرْجَاعِهِ، فَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوطَأْتُ عَلَى يَدِهَا وَرَكِبْتُهَا، وَانْطَلَقَ يَقُودُ فِي الرَّاحِلَةِ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا وَقْتَ الظَّهِيرَةِ. فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَخَاضَ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَحَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ وَمُسْطَحُ بْنُ أثاثَةَ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ الأَسْدِيَّةُ فِي ذَلِكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ.

فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَصَابَنِي مَرَضٌ حِيْنَ قَدِمْتُهَا شَهْراً، وَالنَّاسُ يَخُوضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الإفْكِ، وَلاَ أَشْعُرُ بشَيْءٍ مِنْ ذلِكَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُنِي فِي وَجْهِي لاَ أَرَى مِنْهُ اللُّطفَ الَّذِي كُنْتُ أرى مِنْهُ إذا مَرِضْتُ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ، إنَّمَا كَانَ يَدْخُلُ فَيَقُولُ: [كَيْفَ تِيكُمْ ؟] فَذلِكَ يُحزِنُنِي وَلاَ أشْعُرُ بالسِّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقِهْتُ.

فَخَرَجَتْ مَعِي أمُّ مُسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ(١) وَهِيَ مُتَبَرَّزُنَا، وَلاَ نَخْرُجُ إلاَّ مِنْ لَيْلٍ إِلَى لَيْلٍ، وَذلِكَ قَبْلَ أنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ، وَأمْرُنَا أمْرُ الْعَرَبِ الأَوَّلِ فِي التَّبَرُّزِ. فَانْطَلَقْتُ أنَا وَأمُّ مُسْطَحٍ- وَهِيَ عَاتِكَةُ بِنْتُ أبي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيْقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أثاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ(٢)- فَأقْبَلْنَا حَتَّى فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي الطَّرِيقِ عَثَرَتْ أمُّ مِسْطَحٍ فِي مُرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ! أتَسُبِّيْنَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً ؟ قَالَتْ: أي هَنْتَاهُ(٣). أي أوَ لَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قُلْتُ: وَمَاذا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أهْلِ الإفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضاً إلَى مَرَضِي.

فَلَمَّا رَجَعْتُ إلَى بَيْتِي، دَخلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ:[كَيْفَ تِيْكُمْ؟] قُلْتُ: أتَأْذنُ لِي أنْ آتِي أبَوَيَّ؟ وَإنَّمَا قُلْتُ ذلِكَ حِيْنَئِذٍ لأَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَجِئْتُ أبَوَيَّ، فَقُلْتُ لأُمِّي: يَا أمَّاهُ! مَاذا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: أيْ بُنَيَّةِ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إلاَّ

---

(١) المناصع: مواضع خارج المدينة، كانوا يتبرزون فيها.

(٢) في جامع البيان: عباد بن المطلب.

(٣) هذه اللفظة تختص بالنداء، ويزاد معنى: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

وَأَكْثَرْنَ عَلَيْهَا. قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذا ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَتْ: فَمَكَثْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ[1] لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ حِيْنَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَتِي وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هُمْ أَهْلُكَ وَمَا نَعْلَمُ إِلاَّ خَيْراً. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ فَقَالَ: لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ جَارِيَةَ عَائِشَةَ فَقَالَ: [أَيْ بَرِيْرَةُ؛ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يُرِيبُكِ فِي أَمْرِ عَائِشَةَ؟]. فَقَالَتْ: لاَ؛ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيّاً مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْراً قَطُّ أَغْمَضْتُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِيْنِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ.

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ بن سَلُول وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: [يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ؛ مَنْ يَعْذُرُنِي فِي رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ فِي أَهْلِي إلاَّ خَيْراً؟] فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَنَا أَعْذُرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ.

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ الْخَزْرَجِيُّ وَكَانَ رَجُلاً صَالِحاً، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ[2] فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لاَ تَقْتُلُهُ وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذلِكَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْنٍ؛ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ؛ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ؛ لَتَقْتُلُهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِيْنَ. فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْفِظُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا.

---

(١) يَرْقَأُ: ينقطع، أي لا ينقطع لي دمعٌ.

(٢) ويروى أيضاً: اجْتَهَلَتْهُ، أي استخفّته وأغضبته وحملته على الجهل.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَكَثْتُ يَوْمِي لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَأَبَوَيَّ يَظُنَّانِ أنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبدِي، فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأنَا أبْكِي، اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأةٌ مِنَ الأنْصَار، فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي. فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ، وَقَدْ لَبِثْتُ شَهْراً لاَ يُوحَى إلَيْهِ فِي شَأْنِي بشَيْءٍ. قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: [أمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ؛ فَإنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذا وَكَذا، فَإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّؤُكِ اللهُ، وَإنْ كُنْتِ قَدْ ألْمَمْتِ بذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ ثُمَّ تُوبي إلَيْهِ، فَإنَّ الْعَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بالذنْب ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ].

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ قَلَصَ دَمْعِي[(١)] حَتَّى مَا أحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لأَبي: أجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. فَقَالَ: وَاللهِ لاَ أدْري مَا أقُولُ لِرَسُول اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لأُمِّي: أجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا أدْري مَا أقُولُ لِرَسُول اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ: وَأنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لاَ أقْرَأُ كَثِيراً مِنَ الْقُرْآن، وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْتُمْ إنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ هَذا حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ به، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إنِّي بَرِيئَةٌ وَاللهُ يَعْلَمُ أنِّي بَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي فِي ذلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُم بأمْرٍ وَاللهُ يَعْلَمُ إنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُونِي، وَاللهِ مَا أجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إلاَّ مَا قَالَ أبُو يُوسُفَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[(٢)].

قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشٍ، وَأنَا وَاللهِ أعْلَمُ حِينَئِذٍ أنِّي بَرِيئَةٌ، وَأنَّ اللهَ مُنَزِّلٌ ببَرَاءتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أظُنُّ أنْ يَنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْياً يُتْلَى، وَلَشَأْنِي كَانَ أحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بأمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَامِهِ رُؤْيَا يُبَرِّؤُنِي اللهُ بهَا. قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ مَجْلِسِهِ وَلاَ خَرَجَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى تَغَشَّاهُ الْوَحْيُ وَأخَذهُ مَا كَانَ يَأْخُذهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ[(٣)] عِنْدَ نُزُول الْوَحْي، حَتَّى أنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْجُمَان[(٤)] مِنَ الْعَرَق فِي الْيَوْمِ الشَّاتِي. فَلَمَّا سُرِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إذا هُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ

---

(١) قلَصَ دمعي: ارتفع لاستعظام ما يعيبني من الكلام.
(٢) يوسف / ١٨ . (٣) البرحاء: الشدَّة. (٤) الجمان: الدر.

بهَا أنْ قَالَ: [أبْشِري يَا عَائِشَةُ؛ إنَّ اللهَ قَدْ بَرَّأكِ] فَقَالَتْ لِي أمِّي: قُومِي إلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أقُومُ إلَيْهِ وَلاَ أحْمَدُ إلاَّ اللهَ سُبْحَانَهُ الَّذِي أنْزَلَ بَرَاءَتِي، فَأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) وَهِيَ عَشْرُ آيَاتٍ.

فَلَمَّا أنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتِي قَالَ أبُو بَكْرٍ ﷺ - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ وَفَقْرِهِ -: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئاً أبَداً بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ. فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قولهِ تعالى ﴿ألاَ تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ قَالَ أبُو بَكْرٍ: بَلَى؛ وَاللهِ إنِّي أحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. وَأعَادَ إلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ وَقَالَ: لاَ أنْزِعُهَا مِنْهُ أبَداً[١].

ثُمَّ إنَّ الْخَبَرَ بَلَغَ إلَى صَفْوَانَ؛ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ ! وَاللهِ مَا كَشَفْتُ كَنِفَ أنْثَى. فَقُتِلَ شَهِيْداً فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَزَادَ فِي آخِرِهِ: قَالَتْ: وَقَعَدَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطِّلِ لِحَسَّانَ ابْنِ ثَابتٍ فَضَرَبَهُ بالسَّيْفِ، وَقَالَ حِيْنَ ضَرَبَهُ:

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإنَّنِي ... غُلاَمٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ
وَلَكِنَّنِي أحْمِي حِمَايَ وَأنْتَقِمُ ... مِنَ الْبَاهِتِ الرَّامِي الْبُرَاءَ الطَّوَاهِرِ

فَصَاحَ حَسَّانُ وَاسْتَغَاثَ بالنَّاسِ عَلَى صَفْوَانَ، وَجَاءَ حَسَّانُ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْتَغِيْثُ بِهِ عَلَى صَفْوَانَ فِي ضَرْبِهِ إيَّاهُ، فَسَألَهُ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَهَبَ لَهُ ضَرْبَةَ صَفْوَانَ إيَّاهُ، فَوَهَبَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَعَوَّضَهُ عَلَيْهَا حَائِطاً مِنْ نَخْلٍ عَظِيْمٍ وَجَارِيَةً رُومِيَّةً. ثُمَّ بَاعَ حَسَّانُ ذلِكَ الْحَائِطَ مِنْ مُعَاوِيَةَ فِي وِلاَيَتِهِ بِمَالٍ عَظِيْمٍ، وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ فِي بَرَاءَةِ عَائِشَةَ:

حَصَانٌ رزَانٌ مَا تُـزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
خَلِيَّةُ خَيْرِ النَّاسِ دِيْناً وَمَنْصِباً ... نَبِيِّ الْهُدَى وَالْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ
عَقِيْلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ ... كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خَيْمَهَا[٢] ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ شَيْنٍ وَبَاطِلِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٥٦٤-١٩٥٦٦).

(٢) الْخِيَمُ — بالكسر-: الشِّيمَةُ والطبيعةُ والْخُلُق والأصلُ.

فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ جَاءَ عنِّي قُلْتُهُ ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إلَيَّ أنَامِلِي
فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حُيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لآلِ رَسُولِ اللهِ زَيْنِ الْمَحَافِلِ
لَهُ رُتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ فَضْلُهَا ... تَقَاصَرُ عَنْهَا سَطْوَةُ الْمُتَطَاوِلِ

ثُمَّ أمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بالَّذِيْنَ رَمَوا عَائِشَةَ فَجُلِدُوا جَمِيْعاً ثَمَانِيْنَ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) وهم أربعةٌ: حسَّانُ؛ ومُسْطَحُ؛ وعبدُالله بنُ أبي بن سَلُول؛ وَحَمْنَةُ بنْتُ جَحْشٍ. وَقِيْلَ: الْعُصْبَةُ من الواحدِ إلى الأربعين. والإفْكُ في اللغة: الْكَذِبُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ) خطابٌ للنبيِّ ﷺ ولأبي بكرٍ ولعائشةَ فيما لَحِقَهم من الْحُزْنِ والغمِّ الشديد. والمعنى: لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بل هو خيرٌ لكم؛ لأنكم تُؤْجَرُونَ على ما قيلَ لكم من الأذى، وبما يكتبُ لكم من الثواب في الآخرة على الصَّبر، ولِمَا بَيَّنَ اللهُ من طهارةِ عائشة وبرائتها بآياتٍ تُتْلَى في الْمِحْرَاب إلى يومِ القيامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ ؛ أي لكلِّ امرئٍ من الخائضِين في هذا الأمر جزاءُ ما كسبَ من الإثم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ ؛ أي والذي تَحمَّلَ مُعظَمَهُ فبدأ بالخوضِ فيه وهو عبدُالله بن أبَيِّ هو الذي بالغَ في إشاعةِ هذا الحديثِ، وكان أهلُ الحديثِ يجتمعون عندَهُ ويسيقون ذلك بأمره، ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ ؛ يصغُرُ في مقابلتهِ كلُّ عذابٍ يكون في الدُّنيا.

قرأ حُميد الأعرجُ ويعقوب (كُبْرَهُ) بضم الكافِ، قال أبو عمرو بن العلاء: (هُوَ خَطَأٌ لأنَّ الْكُبْرَ هُوَ بضَمِّ الكَافِ فِي الْوَلاَءِ وَالسِّنِّ، وَمِنْهُ الْحَدِيْثُ [الْوَلاَءُ الْكُبْرُ])(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ج ٢٣ ص٩٢: الحديث (١٥). والبخاري في الصحيح: كتاب الشهادات: باب تعديل النساء بعضهن بعضاً: الحديث (٢٦٦١)، وفي المغازي: باب حديث الإفك: الحديث (٤١٤١)، وفي التفسير: الحديث (٤٧٥٠).
(٢) ينظر: جامع البيان: ج ١٠ ص١١٥.

وروى ابن أبي مليكة عن عائشةَ قالت في حديثِ الإفكِ: (ثُمَّ رَكِبْتُ وَأَخَذَ صَفْوَانُ بالزِّمَام، فَمَرَرْنَا بمَلإٍ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أبَيٍّ بن سَلُول، فَقَالَ: مَنْ هَذا ؟ قَالُواْ: عَائِشَةُ، قَالَ: وَاللهِ مَا نَجَتْ مِنْهُ وَلاَ نَجَا مِنْهَا، وَقَالَ: امْرَأةُ نَبيِّكُمْ بَاتَتْ مَعَ رَجُلٍ حَتَّى أصْبَحَتْ، ثُمَّ جَاءَ يَقُودُهَا. وَشَرَعَ فِي ذلِكَ حَسَّانُ وَمِسْطَحُ وَحَمْنَةُ، ثُمَّ فَشَا ذلِكَ فِي النَّاسِ)[1]. وقولهُ تعالى (لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ) يريدُ في الدُّنيا الجلدَ ثمانين جلدةً، وفي الآخرةِ يُصَيِّرُهُ اللهُ إلى النار.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ ؛ أي هَلاَّ إذْ سَمِعْتُمُوهُ أنَّها العُصبة الكاذبةُ؛ أي هَلاَّ إذْ سَمعتُم قذفَ عائشةَ بصفوان، ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ من العُصبةِ الكاذبةِ يعني حَمْنَةَ بنْتَ جَحْشٍ وحَسَّانَ ومُسْطَحٍ بأنفسِهم خيراً. قال الحسنُ: (بأَهْلِ دِيْنِهِمْ لأنَّ الْمُؤْمِنِيْنَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ). ألا ترَى ظنَّ المؤمنونَ الذي هُم كنفسٍ واحدة فيما جرَى عليها من الأمور بأنفسهم خيراً، ﴿ وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ أي كَذِبٌ ظاهرٌ بَيِّنٌ.

ورُوي: أن المرادَ بهذه الآيةِ أبو أيُّوب الأنصاريُّ وامرأتهُ أمُّ أيوب، قَالَتْ: أمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ ؟ قَالَ: بَلْ وَذلِكَ الْكَذِبُ الْبَيِّنُ، أرَأيْتِ يَا أمَّ أيُّوبَ كُنْتِ تَفْعَلِيْنَ ذلِكَ ؟ قَالَتْ: لاَ؛ وَاللهِ مَا كُنْتُ أفْعَلُهُ، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللهِ خَيْرٌ مِنْكِ، سُبْحَانَ اللهِ! هَذا بُهْتَانٌ عَظِيْمٌ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ[2]. والمعنى: هلاَّ إذا سَمعتموهُ ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بأنفسِهم خيراً كما فعلَ أبو أيُّوب وامرأتهُ قالاَ فيها خيراً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ ؛ أي هَلاَّ جاءَ العُصبةُ الكاذبةُ على قذفِهم عائشة بأربعةِ شُهداءَ يشهدون بأنَّهم عايَنُوا منها ذلكَ، ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ أخبرَ اللهُ تعالى أنَّهم كاذبونَ في قذفِها، يعنى: إنَّهم كاذبونَ في الظاهرِ والباطنِ، وكفَى بهذا براءةً لعائشة

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٨٩٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٦٧). وابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٤٢٢٥).

رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فمَن جوَّزَ صِدْقَ أولئكَ في أمرِ عائشة صارَ كافراً باللهِ لا محالـةَ؛ لأنـه رَدَّ شهادةَ اللهِ لَها بالبراءةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ معناه: لولاَ مِنَّةُ اللهِ وإنعامـه عليكـم فِي الدُّنْيـا وَالاخِرَةِ بتأخيرِ العذاب عنكم، وقبولِ التوبةِ لِمَنْ تابَ لَمَسَّكُمْ فيما خُضْتُمْ فيـه مـن الإفْكِ عذابٌ عظيم هائلٌ في الدنيا والآخرة لا انقطاعَ له.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (وَذلِكَ أنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: بَلَغَنِي كَـذا وَكَـذا، وَيَتَلَقَّوْنَـهُ تلَقِّيـاً)، قـال الزجَّـاج: (يُلْقِيـهُ بَعْضُكُمْ إلَـى بَعْـضٍ)(١)، ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؛ ولا بيـانٌ ولا حجَّـة، ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾ ؛ أي تظنُّـون أن ذلـك القـذفَ سـهلٌ لا إثـمَ فيـه ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ في الوِزْرِ والعقوبةِ. قرأ أُبَيُّ:(إذْ تَتَلَقَّوْنَـهُ) بتـاءَين، وقرأت عائشةُ (إذْ تَلِقُونَــهُ) بكسـرِ الـلام وتخفيـفِ القـاف مِـن الْوَلْـق، والوَلَـقُ الكَذِبُ، يقالُ: وَلَقَ فلانٌ إذا استمرَّ على الكذب، ووَلَقَ فلانٌ السَّرَّ إذا استمرَّ بهِ(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ ؛ معنـاه: هَلاَّ قُلْتُمْ حينَ سَمعتُم ذلكَ: لا يحلُّ لنا أن نتكلَّمَ بهذا. قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ؛ أي تَنْزِيـهاً للهِ تعـالى أن تكـون امـرأةُ نَبيِّـهِ زانيـةً، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ أي كَذِبٌ، يقالُ: بَهَتَهُ يَبْهَتُهُ بَهْتاً وبُهْتَاناً؛ إذا أخبرَهُ بالكذب عليه.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ ؛ أي يَنْهَاكُمُ اللهُ ويخوِّفُكم ويحرِّمُ عليكم أن تعـودُوا لِمثـلِ هـذا القـذفِ، ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ لأن قذفَ الْمُحصَنات لا يكونُ من صفاتِ المؤمنين، وقولهُ تعالى (لِمِثْلِـهِ) أي إلَـى مِثْلِـهِ. قولهُ تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ ؛ أي الأمرَ والنَّـهيَ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمقالة الكاذِبين في أمرِ عائشة، ﴿ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ في ما شَرَّعَ من الأحكامِ.

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٣١.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه:ج٤ ص٣١؛ قال الزجاج:(وقرأت عائشة رحمها الله:﴿إذ تَلِقُونَهُ بألسِنَتِكُمْ﴾ ومعناه: إذ تسرعونَ بالكذبِ، يقال: وَلَقَ يَلِقُ إذا أسرعَ في الكذبِ وغيره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾؛ فيه بيانٌ على أن العزمَ على الفسقِ فسقٌ، وأنَّ على الإنسان أن يحبَّ للناس ما يحبُّ لنفسهِ، وأن يكونَ في قلبهِ سلامةٌ للمؤمنين، كما يكونُ مأموراً بكفِّ اللسان والجوارحِ. ومعنى الآيةِ: إن الذين يُحِبُّونَ أن يَفْشُو ويظهرَ الزِّنا في الذينَ آمنوا بأن يَنْسِبُوهُ إليهم ويقذِفُوهم به، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾؛ يعني الجلدَ، ﴿ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾؛ يعني عذابَ النار، يريدُ بذلك المنافقين، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾؛ ما خُضْتُمْ فيه من الإفكِ، وما فيه من سَخَطِ اللهِ، ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ ذلكَ، فحَذرَ رسولُ الله ﷺ جميعَ قاذِفِي عائشةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ محذوفُ الجواب تقديرهُ: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ) لعَجَّلَ لكمُ العذابَ وعاقَبَكم في ما قُلْتُمْ في أمرِ عائشةَ ومحبَّتِكم إشاعةَ الفاحشةِ فيها، (وَأنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) فلَمْ يُعاقِبْكم في ذلك. قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ مُسْطَحَ وَحَسَّانَ وَحَمْنَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾؛ أي لا تَسْلُكُوا طُرُقَ الشَّيطان، ولا تعملُوا بتزيينه ووَسْوَستِهِ في قذفِ عائشةَ، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾؛ أي يأمرُ بعصيان الله وكلِّ ما يكرهُ اللهُ مما لا يُعْرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ. وَقِيْلَ: الفحشاءُ: القَبيْحُ من القولِ والعملِ، والمنكرُ: الفسادُ الذي يُنْكِرُ العقلُ صحَّتَهُ ويزجرُ عنه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾؛ أي ما صَلُحَ منكم من أحدٍ أبداً. وَقِيْلَ: معناهُ: ما طَهُرَ منكم أحدٌ يُذْنِبُ ولا صَلُحَ أمرهُ بعد الذي قالَ في عائشةَ ما قال، ولا قَبلَ توبةَ أحدٍ منكم، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾؛ أي يُطَهِّرُ مَن يشاءُ من الإثم بالرحمةِ والمغفرة، فيوفِّقهُ للتوبةِ، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾؛ أي سَمِيْعٌ لِمقالَتِكم، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾؛ بما في نُفوسِكم من النَّدامةِ والتوبة. وَقِيْلَ: معناهُ: سَمِيْعٌ لِمقالة الخائضين في أمرِ عائشةَ وصفوان، عَلِيْمٌ ببراءتِهما.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي لا يَحْلِفُ ذوُو الغِنَى والسَّعَةِ منكم أن يُعطوا

ذوي القُربَى والمساكين والمهاجرينَ من مكَّة إلى المدينةِ. نَزَلَ ذلكَ في أبي بَكْرٍ ﷺ حين بَلَغَهُ مقالةُ مُسْطَحٍ وأصحابه في خَوْضِهِمْ في أمر عائشةَ، حَلَفَ باللهِ لاَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ.

قِيْلَ: إنَّهُ دَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: (أغْدُوكَ يَا مِسْطَحُ بِمَالِي وَتُؤْذِيْنِي فِي وَلَدِي؟ وَاللهِ لاَ أنْفِقُ عَلَيْكَ). وكان مِسْطَحُ ابنَ خالةِ أبي بكرٍ ﷺ، وكان مِسْطَحُ مِن المهاجرين البدريِّين. فلمَّا نزلت هذه الآيةُ تَلاَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ على أبي بَكْرٍ ﷺ فقَالَ: (بَلَى؛ أحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، أطِيْعُ رَبي وَأرْغِمُ أنْفِي وَأرُدُّ النَّفَقَةَ عَلَيْهِ)(١).

وقولُهُ تعالى (أنْ يُؤْتُوا أوْلِي الْقُرْبَى) معناهُ: أن لا يؤتُوا فحذفَ (لا). قال ابنُ عباس: (قَالَ اللهُ لأَبي بَكْرٍ ﷺ: قَدْ جَعَلْتُ فِيْكَ يَا أبَا بَكْرٍ الْفَضْلَ وَالْمَعْرِفَةَ بِاللهِ وَصِلَةَ الرَّحِمِ، وَجَعَلْتُ عِنْدَكَ السَّعَةَ فَأنْفِقْ عَلَى مِسْطَحٍ، فَلَهُ قَرَابَةٌ وَلَهُ هِجْرَةٌ وَلَهُ مَسْكَنَةٌ). وقولُهُ تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ ؛ قال مقاتلُ: (قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبي بَكْرٍ: [أمَا تُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكَ؟] قَالَ: بَلَى، قَالَ: [فَاعْفُ وَاصْفَحْ] قَالَ: قَدْ عَفَوْتُ وَصَفَحْتُ، لاَ أمْنَعُهُ مَعْرُوفِي بَعْدَ الْيَوْمِ أبَداً، وَقَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَ مَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾ ؛ معناهُ: إن الذينَ يقذِفُون العفائفَ الغافلاتِ عمَّا قُذِفْنَ بهِ كغَفْلَةِ عائشةَ عن ما قيلَ فيها، ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ، باللهِ ورسوله، ﴿ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ؛ أي عُذِّبُوا في الدُّنيا بالحدِّ، وفي الآخرةِ بعذاب النار. وسُمِّيت عائشةُ غافلةً؛ لأنَّها قُذِفَتْ بأمرٍ لَم يخطُرْ ببالِها، فأصابَ كلُّ واحدٍ مِن قاذفيها ذاهبةٌ في الدُّنيا. أمَّا ابنُ أبَيٍّ فقد ماتَ كافراً ونهى النبيُّ ﷺ عن الصَّلاةِ عليهِ، وأما حَسَّانُ فقد دخلَ على عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعد ما ذهبَ بصرهُ في آخرِ عمره، وأنشدَها في بيتِها:

حَصَانٌ رزَانٌ مَا تُزَنَّ بريْبَةٍ وَتَصْبحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٧٥٠).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤١٤.

قَالَتْ: إنَّكَ لَسْتَ كَذلِكَ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا، قِيْلَ لِعَائِشَةَ: إنَّ اللهَ وَعَدَهُمْ بعَذابٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؟ فَقَالَتْ: أوَلَيْسَ هَذا عَذابٌ؟ يَعْنِي ذهابَ بصرِه.

واختلفَ المفسِّرون في هذه الآيـة (لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ ؛ فقال مقاتلُ: (هَذِهِ الآيَةُ خَاصَّةٌ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ أبَيٍّ الْمُنَافِقِ وَرَمْيِهِ عَائِشَةَ)[١]، وقال ابنُ جبير: (هَذا الْحُكْمُ خاصَّةٌ فِيْمَنْ قَذفَ عَائِشَةَ، فَمَنْ قَذفَهَا فَهُوَ مِنْ أهْلِ هَذِهِ الآيَةِ)[٢]، وقال الضحَّاك والكلبيُّ: (هَذا فِي عَائِشَةَ وَفِي جَمِيعِ أزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ الْمُؤْمِنِيْنَ)[٣]، قال ابنُ عبَّاس: (هَذِهِ الآيَةُ فِي شَأْنِ أمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِيْنَ خَاصَّةً لَيْسَ فِيْهَا تَوْبَةٌ، وَأمَّا مَنْ قَذفَ امْرَأةً مُؤْمِنَةً مِنْ غَيْرِهِنَّ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ تَوْبَةً). ثُمَّ قَرَأ ﴿وَالَّذِيْنَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بأرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قولِه: ﴿إلاَّ الَّذِيْنَ تَابُوا﴾، قَالَ: (فَجَعَلَ اللهُ لِهَؤُلاَءِ تَوْبَةً، وَلَمْ يَجْعَلْ لأُوْلَئِكَ)[٤].

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قال: [مَنْ أشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً فَاحِشَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يُرِيْدُ أنْ يَسُبَّهُ بهَا فِي الدُّنْيَا، كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أنْ يُدَسِّهُ بهَا فِي النَّارِ. وَأيُّمَا رَجُلٍ جَاءَ فِي شَفَاعَةِ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى فَعَلَيْهِ لَعنَةُ اللهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ][٥].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ ؛ قال الكلبيُّ: (تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ألْسِنَتُهُمْ بمَا تَكَلَّمُوا بهِ مِنَ الْفِرْيَةِ فِي قَذْفِ عَائِشَةَ) ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ، قال ابنُ عبَّاس: (تَنْطِقُ بمَا عَمِلَتْ فِي الدُّنْيَا)، وهذه عامَّةٌ في القاذفِين وغيرِهم. قرأ حمزةُ والكسائيُّ: (يَوْمَ يَشْهَدُ) بالياء لتقدُّمِ الفعلِ.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤١٤ بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٨٧).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٥٨٩).

(٥) في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج ٤ ص١٧٧٣؛ قال العراقي: (رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً على أبي الدرداء، وقال: رواه الطبراني بلفظ آخر من حديثه مرفوعاً). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٠٠-٢٠١؛ قال الهيثمي: (رواه كله الطبراني في الكبير، وإسناد الأول فيه من لم أعرفه، ورجال الثاني ثقات). عن أبي الدرداء بإسنادين، أوله: [أيُّمَا رَجُلٍ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ ؛ أي يُوَفِّيهِنَّ جزاءَهم الواجبَ على قدر أعمالِهم، ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ ؛ أي ويعلمون يومئذٍ أنَّ الله تعالى هو الحقُّ الْمُبِيْنُ، يقضِي بحقٍّ ويأخذُ بحقٍّ ويعطي بحقٍّ.

قال ابنُ عباس: (وَذلِكَ أنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ أُبَيِّ بْنَ سَلُول كَانَ يَشُكُّ فِي الدِّيْنِ، وَيَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِيْنُ). قرأ مجاهدُ: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ) برفعِ القاف على أنه نعتاً للهِ، وتصديقهُ قراءةُ أُبَيٍّ (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ الْحَقُّ دِيْنَهُمْ)[1]. وقولهُ تعالى (الْمُبِينُ) أي يُبَيِّنُ لَهم حقيقةَ ما كان بعدَهم في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ ؛ معناه: الكلماتُ الخبيثات للخبيثِينَ من الرِّجال؛ أي لا يتكلمُ بالكلماتِ الخبيثات إلاّ الخبيثُ من الرجال والنساء. وَقِيْلَ: معناهُ: إن الخبيثَ مِن القولِ لا يليقُ إلاّ بالخبيثِ من الناس، وكلُّ كلامٍ إنَّما يحسنُ في أهلِهِ، فيضافُ سَيِّءُ القولِ إلى مَن يليقُ به ذلك، وكذلك الطيِّبُ من القول، وعائشةُ لا يليقُ بها الخبيثاتُ؛ لأنَّها طَيِّبَةٌ فيضافُ إليها طيِّباتُ الكلامِ من الثَّناءِ الحسنِ وما يليقُ بها.

وقال بعضُهم: معنى الآيةِ: الخبيثاتُ من النساءِ للخبيثِينَ من الرِّجال، والخبيثونَ من الرجالِ للخبيثاتِ من النساء للمشاكَلَةِ التي بينَهما، والطيِّباتُ من النساءِ للطيِّبينَ من الرجالِ، والطيِّبُونَ من الرجال للطيِّبات من النساءِ. وفي هذا تَبْرِئَةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان مِن أطيب الطيِّبين، فلا يكونُ له إلاّ امرأةٌ طيِّبةٌ.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢١١؛ قال القرطبي: (وقرأ مجاهد برفع (الحق) على أنه نعت لله عَزَّ وَجَلَّ. وقال أبو عبيد: ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع؛ ليكون نعتاً لله عَزَّ وَجَلَّ، وتكون موافق لقراءة أبي، وذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت في مصحف أبي (يُوَفِّيهِمُ اللهُ الْحَقُّ دِيْنَهُمْ). قال النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيد غير مرضي؛ لأنه احتجَّ بما هو مخالف للسواد الأعظم. ولا حجة أيضاً فيه؛ لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أبي كذا جاز أن تكون القراءة: يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم، يكون (دينهم) بدلاً من (الحق).) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٣٠.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ ؛ يعـني أن الطيِّبـين والطيبات مُبَرَّؤُنَ مما يقولُ الخبيثون، والْمُبَرَّأ هو الْمَنْفِيُّ عن صفةِ الْخُبْثِ، والمـرادُ بـه عائشةُ وصفوان، فذكَرَهما بلفظِ الجماعة كما في قوله تعالى ﴿فَإِنْ كَـانَ لَـهُ إِخْـوَةٌ﴾[1] والمراد أخَوان. وقولهُ تعـالى (مُبَرَّءُونَ) أي مُنَزَّهُونَ. وقولـهُ تعـالى: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ ؛ أي لَهم مغفـرةٌ لذنوبـهم وثـوابٌ حَسَـنٌ بإلْحَاقِـهِمْ في الجنَّة من الأذيَّةِ.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: (لَقَدْ أُعْطِيْتُ تِسْعاً لَمْ يُعْطَـهُنَّ امْـرَأةٌ: نَـزَلَ جِبْرِيْلُ بصُورَتِي فِي رَاحَتِهِ حِيْنَ أمَرَ النَّبِيَّ ﷺ أنْ يَتَزَوَّجَنِي، وَلَقَدْ تَزَوَّجَنِي بكْـراً وَمَـا تَزَوَّجَ بكْراً غَيْرِي، وَلَقَدْ قُبضَ وَرَأسُهُ فِي حِجْرِي، وَلَقَدْ قُبرَ فِـي بَيْتِـي، وَلَقَـدْ حَفَّـتِ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتِي، وَلَقَدْ كَانَ الْوَحْيُ إذا نَزَلَ عَلَيْهِ تَفَرَّقْنَ عَنْهُ، وكَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ وَأنَـا مَعَـهُ فِي لِحَافِهِ، وَإنِّي لابْنَةُ خَلِيْفَتِهِ وَصَدِيقِهِ، وَلَقَدْ نَزَلَ عُذْري مِنَ السَّـمَاءِ، وَلَقَـدْ خُلِقْـتُ طَيِّبَةً لِعَبْدٍ طَيِّبٍ، وَلَقَدْ وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقاً كَرِيْماً)[2].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ ؛ في الآيةِ أمرٌ بالتَّحفُّظِ عن الهجوم عن ما لا يُؤْمَنُ من العورات، وإلى هذا أشارَ النبيُّ ﷺ حيث قالَ للرَّجُلِ الذي قالَ لهُ: أسْـتَأْذِنُ عَلَـى أخَوَاتِي[3]؟ قَالَ: [إنْ لَمْ تَسْتَأْذِنْ رَأيْتَ مِنْهَا مَا تَكْرَهُ][4] أيْ ربَّما تدخلُ عليها وهـي منكشفةٌ فترى ما تكرهُ. ومعنـى قولـهِ تعـالى (حَتَّـى تَسْتَأْنِسُـوا) أي حتـى تَسْـتَأْذِنُوا، والاسْتِئْنَاسُ هو الاسْتِعْلاَمُ ليعلمَ مَن في الدار، وذلك يكـون بقَـرْعِ البـاب والتَّنَحْنُـحِ وخَفْقِ النَّعْلِ.

---

(١) النساء / ١١ .

(٢) في مجمع الزوائد: ج ٩ ص٢٤١: كتاب المناقب: باب جامع فيما بقي من فضلها؛ قـال الهيثمـي: (رواه أبو يعلى وفي الصحيح وغيره بعضه، وفي إسناد أبي يعلى من لم أعرفهم). وذكره من وجه آخر قال: (رواه الطبراني ورجال أحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح) وفي ص٢٤٢ ذكره مـن وجه آخر ضعيف.

(٣) في المخطوط: (أختي).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٦٢٣) من حديث ابن عباس مرسلاً.

وكان أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ وابن عباس والأعمشُ يقرأونها (حَتَّى تَسْـتَأْذِنُوا وَتُسَـلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا). وَقِيْلَ: إن في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ تقديرهُ: حتى تُسَلِّمُوا على أهلِها وتَسْتَأْذِنُوا، وهو أنْ يقولَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ؛ أَدْخُلُ؟.

ورُوي أنَّ أعرابياً جَاءَ إِلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَلِجُ ؟ فَقَالَ ﷺ لِخَادِمَةٍ يُقَالُ لَهَا رَوْضَةٌ: [قُومِي إِلَى هَذا فَعَلِّمِيْهِ، فَإِنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يَسْتَأْذِنُ، قُولِي لَهُ: تَقُولُ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ أَدْخُلُ؟][(١)].

وعن زينبَ امرأةِ ابن مسعود قالت: (كَانَ عَبْدُاللهِ إذا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ تَنَحْنَحَ وَبَزَقَ؛ كَرَاهَةَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْنَا وَيَرَى أَمْراً يَكْرَهُهُ)[(٢)]. وعن أبي أَيُّوب[(٣)] قالَ: (يَتَكَلَّمُ الرَّجُلُ بالتَّكْبِيْرَةِ وَالتَّسْبِيْحَةِ وَالتَّحْمِيْدَةِ، وَيَتَنَحْنَحُ يُؤْذِنُ أَهْلَ الْبَيْتِ)[(٤)].

ويُروى أنَّ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ ﷺ أتَى إِلَى مَنْزِل عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ هَذا عَبْدُاللهِ بْنُ قَيْسٍ؛ هَلْ أَدْخُلُ ؟ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ؛ هَذا أَبو مُوسَى. فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، فَذهَبَ فَوَجَّهَ عُمَرُ بَعْدَهُ مَنْ يَرُدُّهُ، فَسَأَلَهُ عَمَّا مَنَعَهُ[(٥)] فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [الاسْتِئْذانُ ثَلاَثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ وَإِلاَّ فَارْجِعْ]. فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: لَتَأْتِيَنِّي بِالْبَيِّنَةِ وَإِلاَّ عَاقَبْتُكَ! فَانْطَلَقَ أَبو مُوسَى وَأتَى بِأُبَيِّ بْن كَعْبٍ وَأَبي سَعِيْدٍ الْخُدْرِيِّ فَشَهِدَا بذلِكَ، وَقَالَ لَهُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ذلِكَ؛ فَلاَ تَكُونَنَّ عَذاباً عَلَى أَصْحَاب مُحَمَّدٍ ﷺ. فَقَالَ عُمَرُ: وَمَا فَعَلْتُ؟! إِنَّمَا أنَا سَمِعْتُ بِشَيْءٍ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَثَبَّتَ[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث (١٩٦١٦). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٧٢؛ عزاه السيوطي إلى الطبري وحده.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٢٦).

(٣) هو أبو أيوب الأنصاري، الصحابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأدب: باب الاستئذان: الحديث (٣٧٠٧)، وإسناده ضعيف؛ فيه أبو سورة، قال فيه البخاري: (منكر الحديث، يروي عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليها).

(٥) في المخطوط فراغ.

(٦) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الاستئذان: باب التسليم والاستئذان: الحديث (٦٢٤٥).=

ورُوي أنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَاسْتَأْذِنُ عَلَى أمِّي ؟ قَالَ: [نَعَمْ] قَالَ: لَيْسَ لَهَا خَادِمٌ غَيْرِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ؟ قَالَ: [أَتُحِبُّ أنْ تَرَاهَا وَهِيَ عُرْيَانَةٌ ؟] قَالَ: لاَ، قَالَ: [فَاسْتَأْذِنْ][(١)].

وَعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ؛ حَلَّ لَهُمْ أنْ يَفْقَأُوا عَيْنَهُ][(٢)]. وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ رَأى رَجُلاً اطَّلَعَ فِي حُجْرَتِهِ وبِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ مُدْراً يَحُكُّ بِهِ رَأسَهُ، فَقَالَ: [لَوْ عَلِمْتُ أنَّكَ تُرِيْدُ أنْ تَنْظُرَ إِلَى عَوْرَةٍ لَفَقَأْتُ بِهَذَا عَيْنَكَ، إنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أجْلِ النَّظَرِ][(٣)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي ذلك الاستئذانُ خيرٌ لكم من الدخول بغيرِ إذنٍ لكي تذكرون منه، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا ﴾ ؛ معناهُ: فإن لَم تجدُوا في البيوتِ أحداً من سُكَّانِها فلا تدخلوها، ﴿ حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ؛ وكذلكَ لو وجدُوا البيوتَ خاليةً لَم يَجُزْ دخولُها أيضاً إلاّ بإذنِ صاحبِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ ؛ أي إذا أُمِرْتُمْ بالانصرافِ فانصرفوا وتقوَّسُوا على باب البيت فلعلَّ صاحبَ البيتِ لا يرضى أن يقعَ بصرُ المستأذنِ على أحدٍ من حَرَمِهِ، وكذلك لو لَم يقُلْ لكم صاحبُ الدار

=ومسلم في الصحيح:كتاب الآداب: باب الاستئذان: الحديث(٣٣/ ٢١٥٣). وأبو داود في السنن: كتاب الآداب: الحديث (٥١٨٠).

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الاستئذان: باب الاستئذان: ص٩٦٣. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب النكاح: باب استئذان المملوك والطفل: الحديث (١٣٨٥٣) عن حذيفة موقوفاً، و(١٣٨٥٤) عن عطاء بن يسار مرسلاً.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٦٦. ومسلم في الصحيح: كتاب الأدب: باب تحريم النظر في بيت غيره: الحديث (٤٣/ ٢١٥٨). وأبو داود في السنن: كتاب الآداب: باب الاستئذان: الحديث (٥١٧٢).

(٣) رواه البخاري في الصحيح:كتاب الاستئذان: الحديث (١٢٤١). ومسلم في الصحيح: كتاب الآداب: الحديث (٤٠/ ٢١٥٦).

ارجعوا، ولكن وُجِدَ منهُ ما يدلُّ على ذلك وجبَ الرجوعُ، لقولِه ﷺ: [الاسْتِئْذانُ ثلاَثٌ، فإنْ أذِنَ لَكَ وَإلاَّ فَارْجِعْ](1). ورُوي [الاسْتِئْذانُ ثلاَثٌ: مَرَّةٌ يَسْتَمِعُونَ، وَمَرَّةٌ يَسْتَصْلِحُونَ، وَمَرَّةٌ يَأْذَنُونَ]. وقولهُ تعالى (هُوَ أزْكَى لَكُمْ) أي الرجوعُ أطهَرُ وأنفعُ لدِينكم من الجلوسِ على أبواب الناس، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾؛ أي بما تعملونَ من الدُّخول بإذنٍ وغير إذن عالِمٌ.

فلما نزلَتْ آيةُ الاستئذان؛ قالوا: فكيفَ بالبيوتِ التي بين مكَّة والمدينة والشَّام على ظهر الطَّريق ليس فيها ساكنٌ؟ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾؛ بغيرِ استئذان. وَقِيلَ: أرادَ بذلك المواضعَ التي لا يختصُّ سكانُها أحداً دون آخر مثل الخاناتِ والرِّباطَاتِ التي تُتَّخَذُ للمسافرينَ يتظلَّلون فيها من الحرِّ والبردِ، ويدخلُ في هذا أخذُ ما جرتِ العادةُ بأخذه مثل النواتِ والْخِرَقِ الملقاةِ في الطريق، ويجوز أن يكون المرادُ بالبيوتِ في هذه الآيةِ بيتُ التُّجَّار التي في الأسواق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ﴾؛ أي منافعُ من اتِّقاء الحرِّ والبرد والاستمتاعِ بها. قال مجاهدُ: (كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي طُرُق الْمَدِيْنَةِ أقْتَاباً(2) وَامْتِعَةً فِي الْبُيُوتِ لَيْسَ فِيْهَا أحَدٌ، وكَانَتِ الطُّرُقُ إذْ ذاكَ آمِنَةً، فَأُحِلَّ لَهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَا بغَيْر إذْن)(3). وقال عطاءُ: (مَعْنَاهُ بالْمَتَاعِ هُوَ قَضَاءُ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلاَءِ وَالْبَوْلِ)(4). قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾؛ أي لا يخفَى عليه شيءٌ من أعمالِكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾؛ أي قُلْ لَهُمْ يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارهِمْ عن النظرِ إلى ما لا يحلُّ لهم. واختلفوا في قولِه تعالى (مِنْ أبْصَارِهِمْ)

---

(١) تقدم.

(٢) الأقتاب جمع قَتَب: الرَّحْلُ الصغير على قدر سنام البعير.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٣٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٣٦).

فقال بعضُهم: هي صِلَةٌ يغضُّوا أبصارَهم. وقال بعضُهم: هي ثابتةٌ في الحكم؛ لأن المؤمنين غيرُ مأمورين بغضِّ البصرِ أصلاً وإنَّما أمِرُوا بالغضِّ عمَّا لا يحلُّ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ ؛ يعني عن الحرامِ، قال ﷺ: [اضْمَنُوا لِي شَيْئاً مِنْ أنْفُسِكُمْ أضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُمْ، وَأوْفُوا إذا وَعَدْتُمْ، وَأدُّوا إذا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أيْدِيَكُمْ][1].

وقال ﷺ:[النَّظَرُ إلَى مَحَاسِنِ الْمَرْأةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ، فَمَنْ رَدَّ بَصَرَهُ ابْتِغَاءَ ثَوَابِ اللهِ أبْدَلَهُ اللهُ بذلِكَ مَا يَسُرُّهُ][2]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ ؛ أي أطهرُ وأصلحُ عندَ اللهِ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ؛ في الفُروجِ والأبصار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهُنَّ يَكْفُفْنَ أبصارَهن عن ما لا يجوزُ، ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ، عن الحرامِ. وَقِيْلَ: (يحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) أي يَسْتَتِرْنَ حتى لا يرى فروجهن أحدٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ؛ أي لا يُبدين مواضعَ زينتِهنَّ إلاّ ما ظهرَ من موضعِ الزِّينة. والزِّيْنَةُ زينَتَان: ظَاهِرَةٌ وباطنةٌ، فالباطنةُ: الْمَخَانِقُ وَالْمَعَاضِدُ وَالْقِلاَدَةُ وَالْخَلْخَالُ وَالسِّوارُ وَالْقِرطُ وَالْمَعَاصِمُ. وأما الزينةُ الظاهرةُ: الْكُحْلُ وَالْخَاتَمُ وَالْخِضَابُ، فليس على المرأةِ بحُكْمٍ إلاّ هذا[3] بهِ سَتْرُ وجهِها وكفَّيها في الصلاة.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٢٣. والبيهقي في السنن الكبرى: الحديث (١٢٩٦٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: الحديث (١٠٣٦٢). والحاكم في المستدرك: كتاب الرقاق: الحديث (١٩٤٥). والقضاعي في مسند الشهاب: الحديث (٢٩٢).

(٣) المعنى: أن الزينة الظاهرة هي محل الحكم؛ لأنه لما كان الغالبُ من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما. وذهب المصنف رحمه الله إلى هذا الوجه من التفسير، ومعه الدليل ولم يرجّح الرأي الثاني مع حسنه أيضاً. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢٢٩.

وفي غيرِ الصلاة يجوزُ للأجانب من الرِّجال النظرُ إلى وجهها لغيرِ الشَّهوةِ. فأما النظرُ مع الشهوةِ فلا يجوزُ إلاّ في أربعةِ مواضع: إذا أرادَ أن يتزوَّج امـرأةً، أو يشـتريَ جاريةً، أو يتحمَّلَ الشهادةَ لَها أو عليها، أو القاضي يقضي لَها أو عليها.

وعن ابنِ مسعودٍ: (أنَّ الزِّيْنَةَ الظَّاهِرَةَ: هِيَ الْجِلْبَابُ وَالْمِلاَءَةِ)[١] يَعْنِي الثِّيَـابَ لقولهِ ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾[٢] أي ثيابَكم. وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْـهَا أنَّـها قـالت: قَـالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [لاَ يَحِلُّ لامْرَأةٍ تُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ إذا عَرَكَـتْ[٣] أنْ تُظْـهِرَ إلاَّ وَجْهَهَا وَيَدَيْهَا وَإلَى هَا هُنَا وَقَبَضَ عَلَى نِصْفِ الذِّرَاعِ][٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ ؛ الْخُمُرُ: جَمْعُ خِمَـارٍ؛ وهُوَ مَا تُغَطِّي بهِ المرأةُ رأسَها، والمعنى: وَلْيُلْقِيْنَ مَقَانِعَهُنَّ علـى جيوبـهنَّ وصُدورهـن لِيَستُرْنَ بذلك شُعورَهن ومُرُوطَهن وأعناقَهن ونحورَهن، كما قال ابنُ عباس: (تُغَطِّـي الْمَرْأةُ شَعْرَهَا وَصَدْرَهَا وَتِرَابَهَا وَسَوَالِفَهَا) لأن المرأةَ اذا أسْدَلَتْ خِمارَها انكشفَ مـا قدَّامها وما خلفها فوقعَ الاطلاعُ عليها. والجيوبُ: جمعُ جَيْبٍ وهو جيبُ القميصِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ أرادَ بـه موضـعَ الزينةِ الباطنة التي لا يجوزُ كشفُها في الصَّلاةِ، والمعنى: لا يُظْـهِرْنَ موضـعَ الزينـة الـتي تكـون تحتَ خُمُرِهـِـنَّ إلاّ لأزواجِــهنَّ، ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ أي أزواجِهنَّ، ﴿ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ ﴾ ؛ في النَّسب أو الرَّضـاعِ، ﴿ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ ؛ وكـلُّ ذِي رحـمٍ مَحْـرَمٍ منهُنَّ، ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ ؛ يعني نساء أهلِ دِينهنَّ وهُنَّ المسلماتُ، ولا يحـلُّ لِمسـلمةٍ أن تنكشفَ بين يدَي يهوديَّة أو نصرانيةٍ أو مجوسـية أو مشـركة. وَقِيْـلَ: المـرادُ بذلـك العفائفُ مِن النساءِ اللائى يكن اشكالاً لهن.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: الأثـر (١٩٦٤٤). وفي الـدر المنثور: ج ٦ ص١٧٩؛ قـال السيوطي: (أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر).

(٢) الأعراف / ٣١ . (٣) في أصل المخطوط: (غزلت).

(٤) أخرجه الطبري في جـامع البيـان: الحديـث (١٩٦٥٦). وفي الـدر المنثـور: ج ٦ ص١٨٠؛ قـال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وابن جرير عن قتادة).

ولا ينبغِي للمرأة الصالحةِ أن تنظرَ إلى المرأةِ الفاجرة؛ لأنَّها تَصِفُها عند الرجلِ، ولا تضعَ جلبَابَـها ولا خِمارَهـا عندهـا، ولا يَحِلُّ لامـرأة مؤمنـةٍ أن تنكشـفَ أيضـاً عند مُشركةٍ أو كتابية إلاّ أن تكـون أمَـةً لَـها، فذلـك قَوْلُـهُ تَعـالَى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ ؛ ورُوِي أنَّ عُمَرَ ﷺ كَتَبَ إِلَـى أبِي عُبَيْـدَةَ: (أمَّـا بَعْـدُ: فَقَـدْ بَلَغَنِي أنَّ نِسَاءَكُمْ يَدْخُلْنَ الْحَمَّامَاتِ مَعَهُنَّ نِسَاءُ أهْلِ الْكِتَـاب، فَـامْنَعْ مِـنْ ذلِـك). فَلَمَّـا أتَـى الْكِتَابُ إلَى أبِي عُبَيْدَةَ قَامَ فِي ذلِكَ الْمَكَانِ مُبْتَهلاً وَقَالَ: (اللَّـهُمَّ أيَّمـا امْـرَأةٍ تَدْخُـلُ الْحَمَّامَ مِنْ غَيْرِ عِلَّـةٍ وَلاَ سَـقَمٍ تُرِيـدُ الْبَيَـاضَ لِوَجْهِـهَا، فَسَـوِّدْ وَجْهَـهَا يَـوْمَ تَبْيَـضُّ الْوُجُوهُ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُنَّ) ذهبَ بعضُهم إلى أن المرادَ به العبدَ، فإنه لا بأسَ أن تُظْهِرَ المرأةُ عند عبدِها ما تُظْهِرُ عند مَحارمها. وكان سعيدُ بن المسيَّب يقـول: (لاَ يَغُرَّنَّكُمْ قَوْلُهُ: (أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُنَّ) فَإنَّهَا نَزَلَتْ فِي الإمَـاءِ دُونَ الْعَبِيْـدِ)، وعـن مجاهدٍ مثلُ ذلكَ، كأنَّهما ذهبَا إلى أن المرادَ بقوله: (أوْ نِسَائِهِنَّ) الحرائرَ، والمـرادَ بقولـهِ (أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُنَّ) الإماءُ والوَلاَئِدُ والصِّغارُ من الذُّكور المماليكِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ ؛ يعني الذيـنَ يتبعون النساءَ من الأجر العمَّال الذين لا حاجةَ لَهم في النِّكاح، وإنَّما يَخدُمون القـومَ لينالوا من طعامِهم، والإرْبَةُ فِعْلَةٌ مِنَ الإرْب وهو الحاجةُ، كالْمِشْيَةِ من الْمَشْـيِ. قـال البعضُ: (هُمْ قَوْمٌ طُبِعُوا عَلَى غَيْرِ شَـهْوَةٍ، لاَ يَشْـتَهُونَ وَلاَ يَعْرِفُـونَ مَـا يُشْـتَهَى مِـنَ النِّسَاءِ وَلاَ يَشْتَهِيهِمُ النِّسَاءُ) يعني: لا يَشْتَهُونَ ولا يُشْـتَهَوْنَ. وقـال سـعيدُ بـن جبـير: (الْمَعْتُوهُونَ)، وقال عكرمةُ: (هُوَ الْمَجْنُونُ)، وقال الْحَكَمُ بن إبان: (هُـمُ الْمَخَـانِيْثُ الَّذِيْنَ لاَ إرَبَ لَهُمْ فِي النِّسَاءِ، وَلاَ تَقُومُ لَهُمْ شَهْوَةٌ)[٢].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٧٣). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٨٣؛ قـال السيوطي: (أخرجه سعيد بن منصور والبيهقي في سننه وابن المنذر).

(٢) بمعناه أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٦٨٩).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ مُخَنَّثاً كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أولِي الإرْبَةِ، فَسَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ فِي صَفَةِ امْرَأةٍ: أنَّهَا إذا أقْبَلَتْ؛ أقْبَلَتْ بأرْبَعٍ، وَإذا أدْبَرَتْ؛ أدْبَرَتْ بثَمَان، فَقَالَ ﷺ: [أوَهَذا الْمُخَنَّثُ يَعْرِفُ هَذا الْكَلاَمَ؟! لاَ أرَاهُ يَدْخُلُ عَلَيكُنَّ](١). وقال مجاهد وعكرمةُ والشعبيُّ: (هُمُ الَّذِيْنَ لاَ إرَبَ لَهُمْ فِي النِّسَاءِ)(٢)، وقال قتادةُ: (هُوَ الَّذِي يَتْبَعُكَ لأَجْلِ أنْ يُصِيبَ مِنْ طَعَامِكَ، وَلاَ هِمَّةَ لَهُ فِي النِّسَاءِ)(٣). وقال مقاتلُ: (هُوَ الشَّيْخُ الْهَرِمُ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيْعُ غَشَيَانَ النِّسَاءِ وَلاَ يَشْتَهِيْهِنَّ)(٤).

وأما الْخِصْيَانُ فهُمْ على وجهين: إن كان خَصِيّاً قد جفَّ ماؤهُ، فهو من غيرِ أوْلِي الإربةِ، وإن كان لَم يجفَّ، فهو من أوْلِي الإربةِ، كما رُوي عن عائشةَ أنَّها قالت: (إنَّ الْخِصْيَاءَ مِثْلَهُ؛ وَإنَّهَا لَمْ تُحِلَّ مَا حَرَّمَ اللهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (غَيْرِ أوْلِي الإرْبَةِ)، قرأ ابنُ كثير والفرَّاء بخفضِ (غَيْر) على الصفةِ، وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصم بنصب (غَيْرَ) على الاستثناءِ، ويكون (غَيْرَ) بمعنى إلاَّ، وَقِيْلَ: على الحال.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ؛ يعني الصغيرَ الذي لا رغبةَ له في النساءِ، ولَم يَبْلُغْ مبلغاً يطيقُ إتيانهن، وقد يذكرُ الطِّفلُ بمعنى الجماعةِ، والمرادُ به ها هنا: والجماعةُ من الأطفال. وأما الصبيُّ الذي ظهرت لهُ رغبةٌ في النساءِ، فحكمهُ حكمُ البالغِ، لقوله ﷺ في الصِّبيان: [مُرُوهُمْ بالصَّلاَةِ إذا بَلَغُوا سَبْعاً، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إذا بَلَغُوا عَشْراً، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ](٥).

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب المغازي: باب غزوة الطائف: الحديث (٤٣٢٤). ومسلم في الصحيح: كتاب السلام: باب منع المخنث من الدخول على النساء: الحديث (٢١٨٠).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(١٩٦٨٧) عن مجاهد،و(١٩٦٨١) عن الشعبي.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الآثار (١٩٦٧٩-١٩٦٨٢).

(٤) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤١٧.

(٥) رواه أبو داود في السنن: كتاب الصلاة: باب متى يؤمر الغلام: الحديث (٤٩٥٠). والحاكم في المستدرك: كتاب الصلاة: الحديث (٧٣٤).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ ؛ قال الحسنُ: (كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمُرُّ عَلَى الْمَجْلِسِ وَعَلَيْهَا الْخِلْخَالُ، فَتَضْرِبُ إحْدَى رجْلَيْهَا بالأُخْرَى لِيَعْلَمَ الْقَوْمُ أنَّ عَلَيْهَا الْخِلْخَالَ، فَنُهِيْنَ عَنْ ذلِكَ لأَنَّ ذلِكَ مِمَّا يُحَرِّكُ الشَّهْوَةَ؛ لأَنَّ سَمَاعَ صَوْتِ الزِّيْنَةِ بمَنْزِلَةِ إبْدَائِهِ). وفي هذا دليلٌ أن صوتَ المرأةِ عورةٌ؛ لأن صوتَ خِلخَالِها أقلُّ من صوتِها. وأما سِوَى مواضع الزينةِ فلا يحلُّ النظرُ إليه إلاَّ للزَّوجِ خاصَّة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي وتُوبُوا إلى اللهِ جميعاً عمَّا كنتم في الجاهليَّة تعملونَ من الخصال المذمومة، واعمَلُوا بطاعةِ الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ؛ وقولُه تعالى: (أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ) قرأ ابنُ عامر بضمِّ (الْهَاءِ) ومنهُ (يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ) و(أَيُّهُ الثَّقَلاَنِ)، وينبغي أن لاَ يُؤْخَذ بقراءته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ ؛ أي تزوَّجُوهم، والأيْمُ اسمُ المرأةِ التي لا زوجَ لَها، والرجلُ الذي لا امرأةَ له، يقال: رجلٌ أيْمٌ وامرأة أيْمٌ، كما يقال: رجل بكْرٌ وامرأة بكْرٌ، وقال الشاعر:

فَإنْ تَنْكِحِي أنْكَحْ وَإنْ تَتَأَيَّمِي أكُنْ ... مَدَى الدَّهْرِ مَا لَمْ تَنْكَحِي أتَأَيَّمِ

ويقال[(١)]: الأيْمُ في النِّساء كالعُزْب في الرِّجال، وجمعُ الأيْمِ الأيَامَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ ؛ أي وزوِّجُوا عبيدَكم وإمائكم، وهذا أمرُ ترغيبٍ واستحباب. وفائدةُ ذِكر الصالحين: أن المقصودَ من النكاحِ العفافُ، والصالِحُ هو الذي يتعفَّفُ. وَقِيْلَ: الصلاحُ ها هنا الإيْمانُ، ثُم رجعَ إلى الأحرار فقال: ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ فيه حثٌّ على النكاح؛ لئلا يَمتنِعُوا منه بسبب الفقر، فإن اللهَ هو الغنيُّ والْمُغْنِي، إن يكونوا فقراءَ لا سَعَةَ لَهم في التزويج (يُغْنِيهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) أي يُوَسِّعُ عليهم عند التزوُّجِ.

---

(١) آمَ الرجل — بالمد — والمرأة وتأيَّما: إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين، والشاهد الشعري اختلف الطبراني في نقله عن سائر المفسرين. ونقله ابن منظور في لسان العرب: ج ١ ص٢٩٠، والمعنى: يقول لمحبوبته: إن تتزوجي أتزوج، وإن لم تتزوجي لم أتزوج.

واختلَفُوا في الآيةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ) الآيةُ؛ فقال بعضُهم: هذا الأمرُ على الْحَتْمِ والإيجاب، أوجبَ اللهُ النكاحَ على مَن استطاعَهُ، وتأوَّلَهُ الباقونَ على أنه أمرُ استحبابٍ ونَدْبٍ، وهو المشهورُ الذي عليه الجمهور.

وَقِيْلَ: يجبُ على المرأةِ والرجل أن يتزوَّجَا إذا تاقت أنفسُهما إليه؛ لأن اللهَ تعالى أمَرَ به ورَضِيَهُ وندبَ إليه، وبلَغَنا أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [تَنَاكَحُوا؛ فَإنِّي أبَاهِي بكُمُ الأُمَمَ حَتَّى السَّقْطَ][(١)]. وقالَ ﷺ: [مَنْ أحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَنَّ بسُنَّتِي][(٢)] وهو النكاحُ؛ لأنه ينتفعُ بدعاءِ ولده بعدَهُ، ومن لَم تَتُقْ نفسهُ إليه فأحبُّ إلينا أن يتخَلَّى لعبادةِ الله.

وعن أبي نَجِيْحٍ السلميِّ؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [مَنْ كَانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بهِ وَلَمْ يَتزَوَّجْ فَلَيْسَ مِنَّا][(٣)]، وقال ﷺ: [مَنْ أدْرَكَ وَلَداً وَعِنْدَهُ مَا يُزَوِّجُهُ فَلَمْ يُزَوِّجْهُ فَأحْدَثَ إثْماً فَالإثْمُ بَيْنَهُمَا]، وقال ﷺ: [إذا تَزَوَّجَ أحَدُكُمْ عَجَّ الشَّيْطَانُ][(٤)] تأويلهُ: غَنِمَ ابنُ آدم مني ثُلثي دينه. وقال ﷺ: [مِسْكِيْنٌ مِسْكِيْنٌ رَجُلٌ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ، مِسْكِيْنَةٌ مِسْكِيْنَةٌ امْرَأةٌ لَيْس لَهَا زَوْجٌ] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَإنْ كَانَتْ غَنِيَّةً مِنَ الْمَالِ؟ قَالَ: [وَإنْ كَانَتْ غَنِيَّةً مِنَ الْمَالِ][(٥)] وَقَالَ: [شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ][(٦)].

---

(١) رواه عبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٠٣٩٣). وفي تخريج أحاديث الإحياء: ج ٢ ص٩٣٩؛ قال العراقي: (رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر بسند ضعيف). ورواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٥٧٤٢).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: الحديث (١٣٧٣٥). وعبدالرزاق في المصنف: الحديث (١٠٣٨٩). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٥٣؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى ورجاله ثقات إن كان عبيد بن حسن صحابياً، وإلا فهو مرسل).

(٣و٤) لم أجده.

(٤) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال: الرقم (٤٤٤٥). ورواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٤٧٢).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٦٥٨٥).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٤٤٧٣).

وقال ﷺ: [أرْبَعَةٌ يَلْعَنُهُمُ اللهُ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ: رَجُلٌ يَخْصِي نَفْسَهُ عَنِ النِّسَاءِ فَلاَ يَتَزَوَّجُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذلِكَ، وَلاَ يَتَسَرَّى خِشْيَةَ أنْ يُولَدَ لَهُ، وَرَجُلٌ تَشَبَّهَ بالنِّسَاءِ، وَامْرَأةٌ تَشَبَّهَتْ بالرِّجَالِ، وَرَجُلٌ يَتَهَزَّأُ بالْمَسَاكِيْنِ يَقُولُ لَهُمْ: تَعَالَوا حَتَّى أعْطِيَكُمْ، فَإذا جَاءُوا قَالَ لَهُمْ: لَيْسَ مَعِي شَيْءٌ، وَيَقُولُ لِلأَعْمَى: احْذَرِ الْحَجَرَ قِبَلَكَ، وَاحْذَرِ الدَّابَّةَ، وَلَيْسَ قِبَلَهُ شَيْءٌ](١).

وروي أن رَجُلاً يُقَالُ لَهُ عَكَّافُ بْنُ وَادِعَةَ الْهِلاَلِيُّ، جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقَالَ لَهُ: [يَا عَكَّافُ؛ ألَكَ زَوْجَةٌ ؟] قَالَ: لاَ، قَالَ: [وَلاَ جَارِيَةٌ؟] قَالَ: لاَ، قَالَ: [وَأنْتَ صَحِيْحٌ مُوسِرٌ ؟] قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: [تَزَوَّجْ فَإنَّكَ مِنْ إخْوَانِ الشَّيَاطِيْنِ، اصْنَعْ مَا يَصْنَعُ الْمُؤْمِنُونَ، فَإنَّ مِنْ سُنَّتِنَا النِّكَاحُ، شِرَارُكُمْ أعْزَابُكُمْ، وَمَا لِلشَّيْطَانِ سِلاَحٌ أبْلَغُ مِنَ النِّسَاءِ، وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ! إنَّهُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَ وَصَوَاحِبَاتُ دَاوُدَ وَصَوَاحِبَاتُ كُرْسُفُ]. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَنْ كُرْسُفُ ؟ قَالَ: [رَجُلٌ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى سَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِ الْبَحْرِ ثَلاَثِيْنَ عَاماً، يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ لاَ يَفْتُرُ، فَقُدِّرَ عَلَيْهِ أنْ كَفَرَ وَالْعِيَاذُ باللهِ مِنْ سَبَبِ امْرَأةٍ عَشِقَهَا، وَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِهِ، وَتَدَارَكَهُ اللهُ بَعْدَ ذلِكَ مَا سَلَفَ مِنْهُ. وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ! تَزَوَّجْ فَإنَّكَ مِنَ الْمُذبْذِبِيْنَ] قَالَ: زَوِّجْنِي مَنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَزَوَّجَهُ عَلَى امْرَأةٍ يُقَالُ لَهَا كَرِيْمَةُ بِنْتِ كَلْثُومَ الْحِمْيَرِيِّ(٢).

---

(١) أخرج البيهقي في شعب الإيمان: الحديث (٥٣٨٥) شطراً منه عن أبي هريرة. وأخرجه ابن عدي في الكامل: ج ٧ ص٤٦٢: الرقم (٧٧/ ١٦٩٨): ترجمة محمَّد بن سلام الخزاعي. وفي مجمع الزوائد: ج ٦ ص٢٧٢؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن سلام عن أبيه، قال البخاري: لا يتابع على حديثه هذا).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ج ٦ ص١٧١: الحديث (١٠٣٨٧) بلفظه. والإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص١٦٣-١٦٤ عن مكحول عن رجل عن أبي ذر الغفاري. في الإصابة في تميز الصحابة: ج ٤ ص٥٣٥: الترجمة (٥٦٤٠)؛ قال ابن حجر: (رواه الطبري في مسند الشاميين). وفي مسند الشاميين: ج ١ ص٢١٣: الحديث (٣٨١): أخرجه الطبري بلفظه، إلا أنه قال: [زينب بنت كلثوم الحميرية].

وعن عِيَاضِ بن غَنَمَ الأشعريِّ؛ قال: قالَ لِي رسولُ اللهِ ﷺ:[يَا عِيَاضُ؛ لاَ تَزَوَّجَنَّ عَجُوزاً وَلاَ عَاقِراً؛ فَإنِّي مُكَاثِرٌ بكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ](١)، وقال رسول الله ﷺ:[تَزَوَّجُوا الأَبْكَارَ؛ فَإنَّهُنَّ أعْذبُ أفْوَاهاً؛ وَأنْتَقُ أرْحَاماً؛ وَأثْبَتُ مَوَدَّةً؛ وَأرْضَى بالْيَسِيرِ، وَإذا أرَادَ أحَدُكُمْ أنْ يَتَزَوَّجَ الْمَرْأةَ فَلْيَسْألْ عَنْ شَعْرِهَا كَمَا يَسْألُ عَنْ وَجْهِهَا، فَإنَّ الشَّعْرَ أحَدُ الْجَمَالَيْن](٢).

وقال ﷺ: [تَزَوَّجُوا الزُّرْقَ فَإنَّ فِيهِنَّ يُمْناً](٣) أي سَعَادَةً. وعن عائشةَ قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [أعْظَمُ نِسَاءِ أُمَّتِي بَرَكَةً أصْبَحُهُنَّ وَجْهاً وَأقَلُّهُنَّ مَهْراً](٤)، وقال ﷺ: [أعْلِنُوا بالنِّكَاحِ وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بالدُّفُوفِ، وَلْيُولِمْ أحَدُكُمْ وَلَوْ بشَاةٍ](٥).

وعن معاذِ بن جبل قال: حَضَرْتُ مِلاَكَ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأمْلَكَ الأَنْصَارِيُّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:[عَلَى الأُلْفَةِ وَالْخَيْرِ وَالطَّيْرِ الْمَيْمُونِ] فَجَاءَ بسِلاَلٍ فِيْهَا فَاكِهَةٌ وَسُكَّرٌ فَلَمْ يَنْتَهِبُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [ألاَ تَنْتَهِبُونَ ؟] قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إنَّكَ نَهَيْتَنَا عَنِ النُّهْبَةِ يَوْمَ كَذا وَكَذا، فَقَالَ: [إنَّمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ نُهْبَةِ الْعَسَاكِرِ وَلَمْ أنْهَكُمْ عَنْ نُهْبَةِ الْوَلاَئِمِ] ثُمَّ قَالَ: [ألاَ فَانْتَهِبُوا](٦).

---

(١) رواه الطبراني في الكبير: الحديث (١٠٠٨). والحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة: الحديث (٥٣٢١). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٥٨؛ قال الهيثمي: (فيه معاوية بن يحيى الصوفي، وهو ضعيف).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (٧٦٧٣). وابن ماجة في السنن: كتاب النكاح: الحديث (١٨٦١). وفي مجمع الزوائد: ج ٤ ص٢٥٩؛ قال الهيثمي: (فيه أبو بلال الأشعري، ضعفه الدارقطني).

(٣) أخرجه الديلمي في الفردوس: الحديث (٢٢٩٢) عن أبي هريرة.

(٤) في مجمع الزوائد: كتاب النكاح: باب اليمن في المرأة: ج ٤ ص٢٥٥؛ قال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار، وفيه ابن سخرة، وهو متروك).

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب النكاح: باب ما جاء في إعلان النكاح: الحديث (١٠٨٩)، وقال: غريب. وابن ماجة في السنن: كتاب النكاح: الحديث (١٨٩٥).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط: الحديث (١١٨). وأبو نعيم في الحلية: ج ٦ ص٩٦. وفي مجمع=

وقال ﷺ: [مَسُّوا بالإمْلاكِ؛ فَإنَّهُ أفْضَلُ فِي الْيَمِيْنِ وَأعْظَمُ فِي الْبَرَكَةِ][(١)]. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت:(كَانَ عِنْدِي جَارِيَةٌ مِنَ الأنْصَار فِي حِجْرِي فَزَوَّجْتُهَا، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَسْمَعْ غِنَاءً، فَقَالَ: [يَا عَائِشَةَ؛ ألاَ تُغَنُّونَ لَهَا، فَإنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأنْصَار يُحِبُّونَ الْغِنَاءَ][(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)، قال ﷺ: [الْتَمِسُوا الرِّزْقَ بالنِّكَاحِ][(٣)]. وشَكَا رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْفَقْرَ، فَقَالَ: [عَلَيْكَ بالْبَاءَةِ][(٤)]. وقال عمرُ ﷺ: (ابْتَغُوا الْغِنَى فِي النِّكَاحِ، فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: (إنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ)[(٥)] ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ ؛ أي واسعٌ بخلقهِ عليمٌ بهم.

=الزوائد: ج ٤ ص٢٩٠؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفي إسناد الأوسط بشر بن إبراهيم، وهو وضاع. وفي إسناد الكبير حازم مولى بني هاشم عن لمازة، ولم أجد من ترجمهما، ولمازة هذا يروي عن ثور بن يزيد، متأخر وليس هو ابن زياد، ذاك يروي عن علي ابن أبي طالب ونحوه، وبقية رجاله ثقات).

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٦٤ عن أبي هريرة ﷺ. والمعنى: أنه يستحب عقد النكاح في المساية، كما يستحب العقد يوم الجمعة. ينظر: المغني لابن قدامة: ج ٧ ص٤٣٥؛ قال بعد أن ذكر الحديث: (لأنه أقرب إلى مقصوده — أي العاقد — وأقل لانتظاره) حال كونه مقبلاً إلى سكينة الليل، واستحباب الجماع صباح الجمعة. وكلمة (مسو بالملاك) هكذا رسمها الناسخ بوضوح.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٢٦٩. والبخاري في الصحيح: كتاب النكاح: الحديث (٥١٦٢). وابن حبان في ترتيب الصحيح: الحديث (٥٨٧٥). والبغوي في مصابيح السنة: الحديث (٢٣٤٥).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس: الحديث (٢٨٢). وفي كشف الخفا: الحديث (٥٢٨)؛ قال العجلوني:(رواه الثعلبي في تفسيره، والديلمي بسند فيه لين عن ابن عباس رفعه، ولكن له شاهد أخرجه البزار والدارقطني في العلل، والحاكم وابن مردويه عن عائشة مرفوعاً.

(٤) ذكره الزمخشري في التفسير (الكشاف): ج ٣ ص٢٣١. وأصله أخرجه الترمذي في الجامع: أبواب النكاح: الحديث (١٠٨١).

(٥) ذكره ابن عطية في التفسير: ص١٣٥٩.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ أي ليطلبَ الذين لا يجدونَ نكاحاً العِفَّةَ عن الزنا والحرام، والمعنى: مَن لَم يجد سَعَةً للنكاحِ من مهرٍ ونفقة، ولا يجدُ شيئاً يشتري به أمَةً فَلْيَسْتَعْفِفْ عن الزِّنا حتى يجدَ ما يكفيهِ، كذلك وفي هذا بيانٌ أنه لا عُذْرَ لأحدٍ في السِّفاحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ؛ معناهُ الذين يطلبون الْمُكَاتَبَةَ من عبيدِكم وإمائكم، ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ؛ رُشداً وصَلاحاً وصِدقاً ووفاءً وأمانةً وقدرة على الْمَكْسَب، وهذا أمرُ استحبابٍ في العبدِ الذي يقدرُ على الاكتساب وترغيبٍ في الكتابةِ. فأما الذي لا يقدرُ على الكسب ولا يرغبُ في الكتابة، فلا يكون في كتابتهِ إلاّ قطعُ حقِّ المولَى عنه من غيرِ نفع يرجعُ إليه. ومعنى الكتابةِ: أن يُكَاتِبَ مملوكَهُ على مال سَلَّمَهُ إليه نُجوماً فيُعْتَقُ بأدائه، وإن كانت الكتابةُ حالَّةً جازت عند أبي حنيفةَ وأصحابهِ، والشافعي لا يُجَوِّزُ إلاّ مُنجَّماً، وأقلُّهُ نَجمان فصاعداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ؛ اختلفُوا في معنى ذلكَ، فرُويَ عن عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: (يُحَطُّ عَنِ الْمُكَاتَبِ رُبُعُ مَالِ الْكِتَابَةِ)(١). وعن ابن عباس:(يُحَطُّ عَنْهُ شَيْءٌ)، وعن عبدِالله بن يزيدِ الأنصاريِّ أنه قالَ: (هَذا خِطَابٌ لِلأَئِمَّةِ أنْ يُسَلِّمُوا إلَى الْمُكَاتَبِيْنَ مَا فَرَضَ اللهُ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾(٢)) وهذا أقربُ إلى ظاهرِ الآية، لأن الإتْيَانَ في اللغة هو الإعْطَاءُ دونَ الْحَطِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَبْدِاللهِ بنِ أبَيٍّ سَلُولَ، كَانَتْ لَهُ جَوَارٍ حِسَانٌ: مِسْكَةُ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٢١). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص١٩١؛ قال السيوطي: (أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي من طريق عبدالرحمن السلمي. وقال: أخرجه عبدالرزاق وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، والديلمي وابن المنذر والبيهقي وابن مردويه من طرق عبدالله بن حبيب عن علي عن النبي ﷺ).

(٢) البقرة / ١٧٧ .

وَأُمَيْمَةُ وَمَقَارَةُ، كَانَ يُكْرِهُهنَّ عَلَى الزِّنَا لِيَكْتَسِبْنَ لَهُ بِالْفُجُور، وَكَذلِكَ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَ، فَأَتَتِ الْجَوَارِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَشْكُونَ إِلَيْهِ ذلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

قال مقاتلُ: (نَزَلَتْ فِي سِتِّ جَوَارٍ لِعَبْدِاللهِ بْنِ أُبَيٍّ سلول: مُعاذةُ وَمُسَيْكَةُ وَأُمَيْمَةُ وَعَمْرَةُ وَقُتَيْلَةُ وَأَرْوَى، فَجَاءَتْهُ إحْدَاهُنَّ ذاتَ يَوْمٍ بِدِيْنَارٍ، وَجَاءَتْ أُخْرَى بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ لَهُمَا: ارْجِعَا فَازْنِيَا، وَكَانَ يُؤَجِّرُهُنَّ عَلَى الزِّنَا. فَلَمَّا جَاءَ الإسْلاَمُ قَالَتْ مَعَاذةُ لِمُسَيْكَةَ: إنَّ هَذا الأَمْرَ الَّذِي نَحْنُ فِيْهِ قَدْ آنَ لَنَا أنْ نَدعَهُ، فَقَالَ لَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أبي سَلُول: إمْضِيَا فَازْنِيَا. فَقَالَتَا: وَاللهِ مَا نَفْعَلُ ذلِكَ قَدْ جَاءَ اللهُ بالإسْلاَمِ وَحَرَّمَ الزِّنَا. ثُمَّ مَضَيَا إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَشَكَيَا عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[١]. ومعناها: ولا تُكْرِهُوا إماءَكم على البغاءِ؛ أي على الزِّنا، ﴿ لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ؛ مِن كَسْبِهِنَّ وبيعِ أولادِهن.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) يعني إذا أرَدْنَ تَحَصُّناً، خرجَ الكلامُ على وجهِ الحالِ لا على وجه الشَّرطِ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاَقٍ﴾[٢]، ويجوزُ أن يكون معناهُ: أن الكلامَ قد تَمَّ عندَ قولهِ (عَلَى الْبغَاءِ) ثُم ابتدأ بالشَّرطِ فقالَ: (إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) وجوابهُ محذوفٌ؛ تقديرهُ: إنْ أردنَ تحصيناً فقد أصبنَ، ومثلهُ قولهُ ﷺلعائشةَ: [أدْفِئيني] قالت: إنِّي حَائِضٌ، فَقَالَ ﷺ:[وَإنْ لَمْ يُرَدَّ عَلَيْهِ] وأراد بذلكَ إنْ كنتِ حائضاً فلا بأسَ بذلك[٣].

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٨١. وابن عطية في المحرر الوجيز: ص١٣٩١. والبغوي في معالم التنزيل:ص٩٠٨. وأصل الحديث أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٢٦/ ٣٠٢٩) عن جابر بن عبدالله. وذكر الطبري قصة الحديث في جامع البيان: الأثر (١٩٧٤٤ و١٩٧٤٥).

(٢) الاسراء / ٣١ .

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وكأنه معنى حديث الأسود عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي، فَوَجَدَ الْقَرَّ، فقال: [يَا عَائِشَةُ أرْخِي عَلَيَّ قِرْطَكِ] قَالَتْ: إنِّي حَائِضٌ، قَالَ: [إنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ]. ينظر: جامع المسانيد: ج ٣٤ ص١٠٨: الحديث (١٧٨). وفي مجمع الزوائد: ج ٢ ص٤٩-٥٠؛ قال الهيثمي: (رواه أبو يعلى وإسناده حسن).

وقولهُ: ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ ﴾ ؛ أي مَن يُجْبِرْهُنَّ على الزِّنا، ولَم تقدر الْمُكْرَهَةُ على الدفعِ عن نفسها بوجه من الوجوهِ لَم تأثَمْ، وإن صَبرَتْ عن الامتناعِ حتى قُتِلَتْ كان أعظمَ لأجرها، وإن قُتِلَتْ دَفعاً عن نفسِها كان لَها ذلك. وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ ؛ أي غفورٌ لِمن تابَ منهُنَّ وماتَ على التوبةِ، غفورٌ لِمن تابَ عن إكراههنَّ على الزنا، رَحِيْمٌ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ ؛ أي أنزَلْنا إليكم القُرْآنَ آياتٍ ظاهرات واضحات لتعملوا بها. وَقِيْلَ: يعني بذلكَ ما ذكَرَ في هذه السُّورة من الحلال والحرام. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ؛ أي وأنزلَ فيها مَثَلاً؛ أي خَبَراً مِن خَبَرِ الذين مَضَوا من قبلِكم لتعتَبروا، ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ عن الشِّركِ والفواحشِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ ؛ أي اللهُ هادِي أهلِ السَّموات وأهلِ الأرض بالآياتِ المبيِّنات، لا هاديَ فيهما غيرهُ، فبنُورهِ الخلقُ يهتدونَ، وبهداهُ من الضَّلالةِ يَنْجُونَ، فلا يهتدي مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل إلاّ بهداهُ.

وقال الضحَّاكُ: (مَعْنَاهُ اللهُ مُنَوِّرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، وقال مجاهدُ: (مَعْنَاهُ: اللهُ مُدَبِّرُ الأُمُور فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)[١]، وقال الحسنُ وأبو العاليةِ: (اللهُ مُزَيِّنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ)، يعني مُزَيِّنُ السَّموات بالشمسِ والقمر والنُّجومِ، ومُزَيِّنُ الأرضِ بالأنبياء والعُلماء والمؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (مَثَلُ نُورهِ الَّذِي أعْطَاهُ الْمُؤْمِنِيْنَ)[٢]، وقال السديُّ: (مَثَلُ نُورهِ الَّذِي فِي قَلْب الْمُؤْمِنِ)، وكان أُبَيُّ يقرأ (مَثَلُ نُور الْمُؤْمِنِيْنَ). وَقِيْلَ: كان يقرأ (مَثَلُ نُور مَنْ آمَنَ بِهِ)[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٥٥).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٦٢).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٥٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ؛ الْمِشْكَاةُ في لغة الحبشة: كُوَّةٌ غَيرُ نافِذةٍ، والمصباحُ: هو السِّرَاجُ في القِنْدِيْلِ من الزُّجَاجِ الصَّافِيَةِ. وَقِيْلَ: الْمِشْكَاةُ: عَمُودُ الْقِنْدِيْلِ الذي فيه الفَتِيْلَةُ. وقال مجاهدُ: (هِيَ الْقِنْدِيلُ)[1]، قال الزجَّاج: (النُّورُ فِي الزُّجَاجِ، وَضَوءُ النَّار أَبْيَنَ مِنْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَضَوْؤُهُ يَزِيدُ فِي الزُّجَاجِ وَيَتَضَاعَفُ حَتَّى يَظْهَرَ مِنْهُ مَا يُقَابِلُهُ مِثْلُهُ)[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فِيهَا مِصْبَاحٌ) أي سِرَاجٌ، وأصلهُ من الضَّوءِ، ومن ذلك الصُّبْحُ، ورجلٌ صَبِيْحُ الوجهِ إذا كان وَضِيئاً، وفرَّقَ قومٌ بين المصباحِ والسِّراج؛ فقالوا: المصباحُ دونَ السِّراجِ، والسراجُ أعظمُ من المصباحِ؛ لأن اللهَ تعالى سَمَّى الشمسَ سِرَاجاً، وقال في غيرِها من الكواكب ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[3].

ثُم وصفَ اللهُ الزجاجةَ التي فيها المصباحِ؛ فقالَ: ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ ؛ شبَّهَ القنديلَ الذي يكونُ فيه السِّراجُ بالكوكب الدُّرِّيِّ؛ وهو النجمُ الْمُضِيْءُ، ودَرَاري النُّجومِ كبارُها، وقولهُ (دُرِّيٌّ) نسبةً إلى أنه كالدُّرِّ في صفائهِ وحُسْنِهِ، كأنَّ الكوكبَ دُرَّةٌ بيضاءُ.

قرأ أبو عمرٍو والكسائيُّ: (دِرِّئٌ) بكسرِ الدال مهموزٌ مَمدود؛ وهو فِعِّيْلٌ من الدَّرْءِ بمعنى الدَّفعِ، يقالُ: دَرَءَ يَدْرَأ إذا دَفَعَ، فكأنه تَلأْلُؤٌ يدفعُ أبصارَ الناظرين إليه. ويقالُ: كأنه رَجَمَ به الشياطينَ فدراهُم؛ أي دفعَهم بسرعةٍ في الانقضاضِ، وذلك أضْوَءُ ما يكونُ.

وقرأ حمزةُ وأبو بكر: مضمومةُ الدالِ مهموزٌ مَمدود، قال أكثرُ النُّحاة: هو لَحْنٌ؛ لأنه ليسَ في كلامِ العرب، فقيل بضمِّ الفاء وكسر العين، وأنكرَهُ الفرَّاءُ والزجَّاج وأبو العباسِ، وقال: (هَذا غَلَطٌ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي كَلاَمِ الْعَرَبِ شَيْءٌ عَلَى هَذا

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٧٩).

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٣٥.

(٣) الملك / ٥ .

الْوَزْنِ)[١]. وقرأ الباقون بضمِّ الدالِ وتشديد الياءِ من غير همزٍ، فنسبوهُ إلى الدُّرِّ في صفائه وبَهائه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾؛ فيه أربعُ قراءاتٍ، قرأ نافع وابن عامر: بياءٍ مضمومة يعنونَ المصباحَ، وقرأ حمزةُ والكسائي وخلف: بتاءٍ مضمومة يعنون الزُّجاجةَ، وقرأ أبو عمرو: (تُوَقَّدَ) بالتاء وفتحها وفتح الواو مشدَّدة بمعنى الماضِي، وقرأ ابنُ محيصن: بتاءٍ مفتوحة وتشديد القاف مثل قراءةِ أبي عمروٍ إلاّ أنه رفعَ الدالَ بمعنى الفعلِ المستقبل بمعنى: تتوقَّدُ الزجاجةُ[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) أي من زَيْتِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، فحذفَ المضافَ؛ وأرادَ بالشَّجرة المباركةِ شجرةَ الزَّيتون، بُوركَ لأهلِها فيها، وليس في الشَّجرِ شيءٌ يُورقُ غِصنُهُ مِن أوَّله إلى آخرهِ مثلُ الزَّيتون والرُّمان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾؛ أي ليست تُشْرِقُ عليها الشمسُ فقط من دون أن تغرُبَ عليها، ولا غَرْبِيَّةٍ تغربُ عليها فقط من دون أن تُشرقَ عليها، بل هي شرقيةٌ غربية تأخذُ حظَّها من الأمرَين جميعاً، لا يظلُّها جبلٌ ولا شجر ولا كهف، نحو أن تكون على تَلٍّ من الأرضِ تقعُ عليها الشمسُ في جميعِ النَّهار، وإذا كانت على هذه الصِّفة كان أنضرَ لَها وأجودَ لزَيتِها وأتمَّ لنبلتِها وأنضجَ لثمَرِها. وقال الحسنُ: (أرَادَ بهَذا شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ؛ لأَنَّ أشْجَارَ الأَرْضِ لاَ تَخْلُو إمَّا أنْ تَكُونَ شَرْقِيَّةً أوْ غَرْبِيَّةً)[٣].

وسُمِّيت شجرةُ الزَّيتون مباركةً؛ لأنَّها كثيرةُ البركةِ والمنافع؛ لأن الزيتَ يُسْرَجُ به وهو إدَامٌ ودِهانٌ، ويُوقَدُ بحطَبها ويدبغُ بها ويُغسَلُ برمادِها الإبْرِيْسَم. وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: [ائْتَدِمُوا بالزَّيْتِ وَادْهُنُوا بهِ، فَإنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ][٤].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء:ج ٢ ص٢٥٢. ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج:ج ٤ ص٣٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص٩٦. والحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٠١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: النص (١٩٧٨٧).

(٤) رواه الترمذي في الجامع: أبواب الأطعمة: الحديث (١٨٥١). وابن ماجة في السنن: كتاب الأطعمة: الحديث (٣٣١٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ؛ أي يكادُ زيتُ هذه الشَّجرةِ ودُهنها يتلألأُ أو يشرقُ من وراءِ العَصْرِ من صفائهِ وإن لَم تُصِبْهُ نارٌ؛ أي وإن لَم يوقَدْ بها، فكيفَ إذا استُصْبحَ بها.

قال المفسِّرون: هذا مَثلٌ للمؤمنينَ، فالْمِشْكَاةُ والمصباحُ هـو الإيْمـانُ والقُـرْآنُ، والزجاجةُ صَدْرُ المؤمنِ. ومعنى قولهِ تعالى (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) أي يكادُ قلبُ المؤمنِ يعملُ بالْهُدَى وقبلَ أن يأتيهِ العلمُ، فإذا جاءَ العلمُ ازدادَ هدىً على هُدى. وَقِيْلَ: المشكاةُ نفسهُ، والزجاجةُ صدره، والمصباحُ القُرْآنُ والإيْمانُ في قلبهِ توقدُ من شجرةٍ مباركة وهو الإخلاصُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ ؛ يريدُ به نـورَ السِّراجِ ونـورَ الزُّجـاجِ ونـورَ الدهن ونورَ الكوكب، فكما أن الزيتَ والزجاجَ والكوكب والسراجَ نورٌ على نـورٍ في مشكاةٍ لا يتفرَّقُ بشعاعِ السِّراجِ فيها، فكذلكَ الإيْمانُ في قلب المؤمن مـن نـورٍ على نور، فإن المعرفةَ نورٌ وعلمَهُ نورٌ، إذا أُعْطِيَ شَكَرَ، وإذا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وإذا قـالَ صَـدَقَ، وإذا حَكَمَ عَدَلَ، فهو يتقلَّبُ في الأنوارِ، ومصيرهُ يومَ القيامة إلى النور، كما قال تعـالى ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[1] .

وَقِيْلَ: هذا مثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لنبيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: الْمِشْكَاةُ صدرهُ، والزجاجـةُ قَلْبُـهُ، والمصباحُ فيه النبوَّةُ، تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ وهي شجرةُ النبوَّةِ، يكادُ نورُ مُحَمَّـدٍ ﷺ يُضِيءُ؛ أي يَبِيْنُ للناسِ ولو لَم يتكلَّم به، كما يكادُ ذلك الزيتُ يضيء ولو لَم تَمْسَسهُ نارٌ.

وقال ابنُ عمرَ في هذه الآيةِ: (الْمِشْكَاةُ: جَوْفُ مُحَمَّـدٍ ﷺ، وَالزُّجَاجَـةُ: قَلْبُـهُ، وَالْمِصْبَاحُ: النُّورُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ فِيْـهِ، (تُوقَـدُ مِـنْ شَـجَرَةٍ مُبَارَكَـةٍ) يَعْنِـي بالشَّـجَرَةِ إبْرَاهِيْمَ الْخَلِيْلَ عليه السلام، (لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ) أيْ لاَ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ[2]، (نُورٌ عَلَى

---

(١) الحديد / ١٢ .

(٢) في أصل المخطوط تقديم وتأخير في عبارة النص، وضبطت علـى أصولـه في المعجـم الأوسـط، وتخريج الهيثمي في مجمع الزوائد.

نُور) يَعْنِي النُّورَ الَّذِي جُعِلَ فِي إبْرَاهِيْمَ، وَالنُّورَ الَّذِي جُعِلَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ)[(١)].

وقال مُحَمَّدُ بنُ كعبٍ:(الْمِشْكَاةُ إبْرَاهِيْمُ، وَالزُّجَاجَةُ إسْمَاعِيْلُ، وَالْمِصْبَاحُ مُحَمَّدٌ ﷺ. سَمَّاهُ[(٢)] مِصْبَاحاً كَمَا سَمَّاهُ سِرَاجاً، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَدَاعِياً إلَى اللهِ بإذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾)[(٣)].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يَعْنِي إبْرَاهِيْمَ، سَمَّاهُ مُبَارَكاً؛ لأَنَّ أكْثَرَ الأَنْبيَاءِ كَانُوا مِنْ صُلْبِهِ، (لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبيَّةٍ) يَعْنِي أنَّ إبْرَاهِيْمَ عليه السلام لَمْ يَكُنْ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيْفاً مُسْلِماً.

وَإنَّمَا قَالَ كَذلِكَ لأَنَّ النَّصَارَى يُصَلُّونَ قِبَلَ الْمَشْرِق، وَالْيَهُودَ قِبَلَ الْمَغْرِب، قَوْلُهُ (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) يَعْنِي تَكَادُ مَحَاسِنُ مُحَمَّدٍ ﷺ تَظْهَرُ لِلنَّاسِ قَبْلَ أنْ يُوحَى إلَيْهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: (نُورٌ عَلَى نُور) أيْ نُورُ نَبيٍّ مِنْ نَسْلِ نَبيٍّ)[(٤)].

وقال الضحَّاكُ: (يَعْنِي بالْمِشْكَاةِ عَبْدَ الْمُطَّلِب شَبَّهَهُ بهَا، وَيَعْنِي بالزُّجَاجَةِ عَبْدَاللهِ، وَبالْمِصْبَاحِ النَّبيَّ ﷺ، كَانَ فِي صُلْبهِمَا فَورثَ النُّبُوَّةَ مِنَ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ وَهِيَ إبْرَاهِيْمُ، تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبيَّةٍ، بَلْ هِيَ مَكَّةُ فِي وَسَطِ الدُّنْيَا)[(٥)].

---

(١) في الدر المنثور: ج ٦ ص١٩٨؛ قال السيوطي: (أخرجه الطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر). وأخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٢ ص٥٠٢: الحديث (١٨٦٤)، وقال: (لم يرو عن سالم هذا الحديث إلا الوازع، وتفرَّد به علي). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٨٣: كتاب التفسير: سورة النور؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه الوازع بن نافع، وهو متروك).

(٢) (سمَّاه) ساقط من أصل المخطوط، وأضيفت لضرورة السياق.

(٣) الأحزاب / ٤٦ .

(٤) ذكره البغوي في عالم التنزيل: ص٩١٠.

(٥) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢٦٣.

ووصفَ بعضُ الفصحاءِ هذه الشجرةَ فقال: (هِـيَ شَـجَرَةُ الرِّضْـوَان وَشَـجَرَةُ الْهُدَى وَالإيْمَان، أَصْلُهَا نُبـوَّةٌ؛ وَفَرْعُـهَا مُـرُوءَةٌ؛ وَأَغْصَانُـهَا تَـنْزِيْلٌ؛ وَورَقُـهَا تَـأْوِيْلٌ، وَخَدَمُهَا مِيْكَالَ وَجِبْرِيْلُ).

وَقِيْلَ: إنَّمـا شَبَّهَ اللهُ قلـبَ المؤمـنِ بالزُّجاجـةِ؛ لأنَّـها في الزجاجـةِ يُـرَى مِـن خارجِها، فكذلكَ ما في القلوب تَبِيْنُ علـى الظـاهرِ في الأقـوال والأعمـال، فكمـا أن الزجاجةَ تنكسِرُ بأدنى شيءٍ، فكذلك القلبُ يَفْسَدُ بأدنى آفةٍ تحلُّهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي يُوفِّقُ الله للإسلام، ويدلُّ بأدلتهِ مَنْ يَشاءُ ليعرفـوا بذلـكَ أمـرَ دِينـهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ أي يضربُ الله الأشباهَ في القرْآن تقريبـاً للشـيءِ الـذي أرادَهُ إلى الأفـهَام، وتسهيلاً لسبيلِ الإدراك على الأنام، كمـا شَـبَّهَ المعرفـةَ في قلـب المؤمـن بالمصبـاحِ في الزجاجة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي عليـمٌ بكـلِّ شـيء من مصالح العبادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ ؛ يعني ذلك المصباحَ في بُيوتٍ، قِيْلَ: معناهُ: تُوقَدُ في بيوتٍ وهي المساجد، أذِنَ اللهُ في رفعِها؛ أي رَفْع بنائها كمـا قـال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ﴾(١)، ويستدلُّ مِن هذه الآيةِ أن لا يـؤذنَ في رفعِ شيء من الأبنية فوقَ الحاجة غيرَ المساجد التي يُصَلِّي فيها المؤمنونَ، ويستضيءُ بنور قناديلها العـابدونَ. وقـال الحسـنُ: (مَعْنَـى قَوْلِـهِ (أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَـعَ) أيْ تُعَظَّـمَ وَتُصَانَ عَنِ الأَنْجَاسِ وَاللَّغْوِ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ وَعَنِ التَّكَلُّمِ بالْخَنَا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ ؛ وفي الحديـثِ عـن النـبيِّ ﷺ: [جَنِّبُواْ مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِيْنَكُمْ؛ وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ؛ وَسَـلَّ سُـيُوفِكُمْ وَإقَامَـةَ حُدُودِكُمْ؛ وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَعِ، وَاجْعَلُواْ عَلَى أبْوَابهَا الْمَطَاهِرَ](٢). قال ابنُ عبَّاس:

(١) البقرة / ١٢٧ .

(٢) رواه ابن ماجة في السنن: كتـاب المسـاجد والجماعـات: بـاب مـا يكـره في المسـاجد: الحديـث (٧٥٠). وقال البوصيري: (إسناده ضعيف؛ فإن الحارث بن نبهان متفق على ضعفه).

(الْمَسَاجِدُ بُيُوتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَرْضِ، وَهِيَ تُضِيْءُ لأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا تُضِيْءُ النُّجُومُ لأَهْلِ الأَرْضِ). قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) أي ويُذْكَرُ في المساجدِ اسمُ الله تعالى وتوحيدُهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا ﴾ ؛ أي يُصَلِّي للهِ تعالى في تلك البيوتِ الصلاةَ المفروضةَ، ﴿ بِٱلْغُدُوِّ ﴾ ؛ أي صلاة الغداة، وقولهُ تعالى ﴿ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾ ، يعني العَشِيَّاتِ، والأصِيلُ ما بين العصرِ إلى الليلِ، وسُميت الصلاةُ تسبيحاً لاختصاصها بالتسبيحِ. وقرأ ابنُ عامر: (يُسَبَّحُ) بفتحِ الباء على ما لَم يسمَّ فاعلهُ.

ثُم فسَّرَ مَن يُصلي فقال: ﴿ رِجَالٌ ﴾ ؛ كأنه قال: مَن يُسَبِّحُ ؟ فقيلَ: رجَالٌ ﴿ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ ؛ أي لا تشغَلُهم تجارةٌ، ولا بَيْعٌ عن طاعةِ الله، وعن إقامةِ الصَّلاة في البيوتِ، وعن إعطاءِ الزكاة.

قال الفرَّاءُ: (التِّجَارَةُ لأَهْلِ الْجَلْبِ، وَالْبَيْعُ مَا بَاعَهُ الرَّجُلُ عَلَى يَدَيْهِ)(١) وَخَصَّ قَوْمٌ التِّجَارَةَ هُنَا بالشِّرَاءِ لِذِكْرِ الْمَبيعِ بَعْدَهَا. والمعنى: لا يَمنعُهم ذلك عن حضور المساجد لإقامةِ الصلاة وإتْمامِها، وإذا حضرَ وقتُ الزكاةِ لَم يحبسُوها عن وقتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي يفعلون ذلك خَوْفاً من يومٍ تَرْجِفُ فيه القلوبُ، وتدورُ حُدَقُ العيون حالاً بعد حال من الفَزَعِ والخوفِ رجاءَ أن ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ ؛ فِي دار الدُّنيا، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ ؛ بغيرِ استحقاقٍ، ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي بغيرِ حَصْرٍ ولا نِهايةٍ.

قولهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ ؛ معناهُ: أن أعمالَ الكُفَّار قد أُحبطُوا بكفرهم، كسَرَابٍ بأرضٍ مُستوية ملساء، يظنُّهُ العطشانُ ماءً يرجُو به النجاةَ، حتى إذا جاءَ السرابَ ليشربَ لَم يجدْهُ ماء، بل رأى أرضاً بيضاءَ لا ماء فيها فيَئِسَ وتَحيَّرَ، كذلكَ الكافرُ في عملِهِ ييأسُ في الآخرة عن عمله الذي كان يعتقدهُ يبرئ، يتقطَّعُ عنه طمعهُ عند شدَّةِ

(١) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٥٣.

حاجته إليه، ثم يجدُ عند ذلك من العقاب كما قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ ؛ أي عند عمله، يعني: قَدِمَ على اللهِ، ﴿ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ ؛ أي جَازَاهُ بعملهِ. والسَّرَابُ: هو الشعاعُ الذي يتراءَى للعين وقتَ الهاجرةِ في الفَلَوَاتِ، يُرَى من بعيدٍ كأنه ماءٌ وليس بماء. والبقِيْعَةُ: جمعُ بقَاعٍ، والقِيْعَةُ جمعُ قَاعٍ، نحوُ جَارٍ وجِيرَةٍ، وهو ما انبسطَ من الأرضِ وفيه يكون السَّرابُ.

وَقِيْلَ: معناهُ: أنَّ الكافرَ يحسَبُ أن عملَهُ يُغنِي عنه وينفعهُ، فإذا أتاه الموتُ واحتاجَ إلى عملهِ لَم يجدْهُ شيْئاً؛ أي لا منفعةَ فيهِ ووَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ بالمرصادِ عندَ ذلك فوفَّاهُ جزاءَ عملهِ، ﴿ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ أي سريعَ حِسَابُهُ كلَمْحِ البصرِ أو أقلَّ؛ لأنه تَعَالَى لا يتكلمُ بآلةٍ حتى يشغلَهُ سَمعٌ عن سَمعٍ. وسُئِلَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: كيفَ يُحَاسِبُهُمْ في حالةٍ واحدة ؟ فقَالَ: (كَمَا رَزَقَكُمْ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ﴾ ؛ هذا تَخير في المثلِ، والمعنى: أن مَثَلَ أعمال الكفار أيضاً في الدُّنيا، ومثلَ قلوبهم في حياتِهم الدُّنيا كمثلِ ظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ؛ أي عميقٍ كثير الماء يعلوهُ موجٌ ومن فوق ذلك الموجِ الأعلى سحابٌ.

وهذا حدُّ الكلام، ثُم ابتدأ فقال: ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ، أرادَ به ظلمةَ البحرِ وظُلمةَ الموجِ الأدنى وظلمةَ الموجِ الأعلى وظلمةَ السَّحاب وظلمة الليل. قال المفسِّرون: أرادَ بالظُّلماتِ أعمالَ الكفار، وبالبحرِ اللُّجِّيِّ قلبَ الكافرِ، وبالموج ما يغشَى عليه من الجهلِ والشكِّ والحيرة، وبالسَّحاب الدِّينَ والختمَ والطبعَ على قلبهِ.

قال أُبَيُّ بنُ كعبٍ في هذه الآية: (الْكَافِرُ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسٍ مِنَ الظُّلَمِ: فَكَلاَمُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَمَدْخَلُهُ وَمَخْرَجُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَقَلْبُهُ ظُلْمَةٌ؛ وَمَصِيْرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى ظُلْمَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾[1])[2].

---

(١) الحديد / ١٣ .

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٨٢٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٤٦٨٨).

وقولهُ تعالى: ﴿ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾ ؛ أي إذا أخرجَ يَدَهُ من هذه الظُّلمات لَم يرَها ولَم يُقارِبْ أن يراها من شدَّةِ الظلماتِ، فكذلكَ الكافرُ لا يُبصِرُ الحقَّ والهدى. وقولهُ تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ ؛ أي مَن لَم يهدهِ اللهُ فما له من إيْمَانٍ، ومَن لَم يجعلِ اللهُ له نوراً في الدُّنيا، فما له من نورٍ.

وعن رسولِ الله ﷺ أنهُ قالَ: [إنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَنِي مِنْ نُورِهِ، وَخَلَقَ أبَا بَكْرٍ مِنْ نُورِي، وَخَلَقَ عُمَرَ وَعَائِشَةَ مِنْ نُورِ أبِي بَكْرٍ، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أمَّتِي مِنْ نُورِ عُمَرَ، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنَاتِ مِنْ أمَّتِي مِنْ نُورِ عَائِشَةَ. فَمَنْ لَمْ يُحِبَّنِي وَيُحِبَّ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَائِشَةَ؛ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ فَيَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ ؛ معناهُ: ألَمْ تعلَمْ؛ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ ﴾ ؛ أي يُنَزِّهُهُ؛ ﴿ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ من العُقلاءِ وغيرِهم، وكَنَّى عن الجميعِ بكلمة (مَنْ) تغليباً للعقلاءِ على غيرِهم. وَقِيْلَ: أرادَ بالآيةِ العقلاءَ، وهذا عمومٌ أرادَ به الخصوصَ في أهلِ الأرض وهم المؤمنونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ ﴾ ؛ أي ويسبحُ له الطيرُ باسطاتٍ أجنحَتِها في الهواءِ، والبَسْطُ في اللغة: الصَّفُّ[(٢)]، والصَّفُّ في اللغة هو البَسْطُ، ويسمَّى القَدِيْدُ صَفِيْفاً لأنه يُبْسَطُ. وخصَّ الطيرَ بالذِّكرِ من جُملةِ الحيوان؛ لأنَّها تكون بين السَّماء والأرضِ، وهي خارجةٌ عن جُملة مَن في السَّمواتِ والأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كُلّٞ ﴾ ؛ أي كلٌّ مِن هؤلاء، ﴿ قَدۡ عَلِمَ ﴾ ؛ اللهُ؛ ﴿ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ ﴾ . قال المفسِّرون: الصلاةُ لبني آدمَ، والتسبيحُ عامٌّ لِما سواهم من الخلقِ. وفيه وجوهٌ مِن التأويلِ:

---

(١) أخرجه الثعلبي في التفسير: ج ٧ ص١١١، عن أنس، وفي إسناده متهمون. وذكره السيوطي في ذيل اللآلي: ج ١ ص٥٠، فالحديث موضوع.

(٢) (الصف) سقطت من المخطوط.

أحدُها: كلُّ مُصَلٍّ ومُسَبحٍ قد عَلِمَ اللهُ تعالى صلاتَهُ وتسبيحَهُ، والثاني: أن معناهُ: كلُّ مُصَلٍّ ومسبحٍ قد عَلِمَ صلاةَ نفسهِ وتسبيحَ نفسهِ، والثالثُ: قد عَلِمَ كلٌّ منهم تسبيحَ اللهِ وصلاتَهُ، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ؛ من الطاعةِ وغيرِها. وقولهُ تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ ؛ أي لـه تقديرُهما وتدبيرُهما وتصريفُ أحوالِهما، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ﴾ ؛ أي يُنْشِؤُهُ ويَسُوقُهُ سَوْقاً دفِيقاً قِطَعاً قِطَعاً، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ﴾ ؛ أي يجمعُ بين قِطَعِ السَّحاب المتفرقةِ، والسَّحَابُ جمعٌ واحدهُ سَحَابَةٌ، والتَّأْلِيفُ ضَمُّ بعضٍ إلى بعضٍ حتى يجعلَهُ قطعةً واحدة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾ ؛ أي مُتَراكِماً بعضهُ فوق بعض، ﴿ فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾ ؛ أي ترى المطرَ يخرجُ من وَسَطِهِ وأثنائهِ، والْخِلاَلُ جمعُ الْخَلَلِ مثل الجبال والجبل. قال الليثُ: (الْوَدْقُ الْمَطَرُ كُلُّهُ، شَدِيْدُهُ وَهَيِّنُهُ، وَخِلاَلُ السَّحَابِ مَخَارِجُ الْقَطْرِ مِنْهُ). قرأ ابنُ عبَّاس والضحاك: (مِنْ خِلَلِهِ)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ ﴾ ؛ أي من جبلٍ في السَّماء، وتلك الجبالُ من بَرَدٍ. قال ابنُ عبَّاس:(أخْبَرَ اللهُ أنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالاً مِنْ بَرَدٍ)[٢] ومفعولُ الإنزالِ محذوفٌ، تقديرهُ: وينَزِّلُ اللهُ من جبالِ بَرَدَ فيها، واستغنَى عن ذكرِ المفعول للدلالة عليه، ومِن الأُولَى لابتداء الغايةِ، لأن ابتداءَ الإنزال من السَّماء، والثانية للتبعيضِ؛ لأن ما يُنْزِلُهُ اللهُ بعض تلك الجبال التي في السَّماء، والثالثةُ لتبيين الجنسِ؛ لأن جنسَ تلك الجبالِ البَرَدَ، كما تقولُ: خاتَمٌ مِن حديدٍ.

وكان عمرُ ﷺ يقول: (جِبَالُ السَّمَاءِ أكْثَرُ مِنْ جِبَالِ الأَرْضِ)، ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ؛ أي فيصيبُ بالبَرَدِ مَن يشاءُ فيهلكه ويهلِكُ زَرْعَهُ، ﴿ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ ﴾ ؛ فلا يضرُّهُ في زرعهِ وثمرهِ.

---

(١) ذكره ابن عطية في التفسير: ص١٣٦٧.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٣.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ ؛ أي يكادُ ضَوْءُ برق السَّحاب يذهبُ بالأبصار من شدَّة ضوئهِ وبريقه ولَمَعَانِهِ؛ لأن مَن نَظَرَ إلى البرقِ خِيْفَ عليه ذهابُ البصرِ. قرأ أبو جعفر: (يُذْهِبُ بالأَبْصَار) بضمِّ الياء وكسر الهاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾ ؛ أي يقلِّبُها في الذهاب والْمَجيءِ والزيادةِ والنُّقصان، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك التقلُّب، وفيما ذُكِرَ عِبْرَةً لذوي العقولِ من الناس، يقالُ: فلانٌ صاحِبُ بَصَرٍ؛ أي صاحبُ عَقْلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ ؛ من النُّطفةِ، من ماءِ الذكرِ والأنثى، والْخَلْقُ من الماءِ أعجبُ؛ لأنه ليس شيءٌ إلاَّ وهو أشدُّ طَوْعاً من الماءِ؛ لأنَّ الماءَ لا يُمكِنُ إمساكهُ بيدهِ ولا أن يَبْنِي عليهِ ولا أن يتخِذ منهُ شيءٌ. والمعنى: واللهُ خَلَقَ كلَّ حيوانٍ شاهد في الدُّنيا، ولا تدخلُ الجنُّ والملائكةُ في هذا لأنَّا لا نشاهِدُهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ﴾ ؛ كالحيَّاتِ والْهَوَامِ والحيتان، وإنَّما قال فمنهم (مَنْ) تغليباً للعُقَلاءِ، ولو كان لِمَا لا يعقلُ لقال: فمنهم مَن يَمشي على بطنهِ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ ؛ كالإنسانِ والطَّيرِ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ ؛ كالبهائمِ والسِّباعِ. والدَّابَّةُ اسمٌ لكلِّ حيوانٍ مِن مُميِّزٍ أو غيرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، قرأ الكوفيُّون غير عاصم (وَاللهُ خَالِقُ) على الاسمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ ﴾ ؛ يعني القُرْآنَ هو مُبيِّنُ الْهُدَى والأحكامِ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ ؛ أي يرشدُ مَن يشاءُ إلى دِين الإسلامِ الذي هو دِينُ اللهِ وطريقُ رضَاهُ وجنَّتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ ؛ يعني المنافقينَ يقولون صدَّقْنا بتوحيدِ اللهِ وبالرَّسول مُحمَّدٍ ﷺ وأطَعْناهُما فيما حَكَمَا، ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ ؛ أي ثُم تعرضُ طائفةٌ منهم، ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ ﴾ ؛ أي مِن

بعد قولهم آمَنَّا، ﴿ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ ؛ الذين أعرَضُوا عن حكمِ الله ورسوله، ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ معناهُ: إذا دُعُوا إلى كتاب الله ورسوله ليحكُمَ بينَهم الرسولُ فيما اختلفوا فيه، ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ ؛ عما يُدْعَوْنَ إليه، نزلت هذه الآياتُ في بشْرِ المنافقِ وخصمهِ اليهوديِّ حين اختصمَا في أرضٍ، فجعلَ اليهوديُّ يجذبهُ إلى رسول اللهِ ﷺ ليحكُمَ بينَهما، وجعلَ المنافقُ يجذبهُ إلى كعب بن الأشرفِ، يقولُ: إنَّ مُحَمَّداً يَحِيْفُ عليه، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإذا دُعُوا إلى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)[١] عن الكتاب والسُّنةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ ؛ معناهُ: وإن يكن لَهم القضاءُ على غيرهم يأتونَ إلى النبيِّ ﷺ مُسرعينَ مطيعينَ مُنقادين لحكمهِ. والإذْعَانُ: الإقرارُ بالحقِّ مع الانقيادِ له. قال الزجَّاجُ: (الإذْعَانُ: الإسْرَاعُ مَعَ الطَّاعَةِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛ لفظهُ لفظُ الاستفهامِ، ومعناهُ التوبيخُ، وذلك أشدُّ ما يكون في الذمِّ كما جاءَ في المبالغةِ في المدح:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا ... وَأَنْدَى الْعَالَمِيْنَ بُطُونَ رَاحِ[٣]

يَعْنِي أنتم كذلكَ.

قولُهُ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ ﴾ ؛ انتصبَ (قَوْلَ) على خبرِ كانَ، واسْمُها (أنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأطَعْنَا).

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٤.

(٢) ذكره ابن عادل في اللباب: ج ١٤ ص٤٢٨.

(٣) المطَايَا: جمعُ مَطِيَّةٍ، وهي الدابَّة تَمطُو في مَشيها، أي تُسرعُ. وأندى: أسْخَى. والرَّاحُ: جمعُ رَاحَةٍ، وهي الكفُّ. والهمزة في (ألستم) ليست للاستفهام، وإنما هي لتقريرِ هذا الإخبار بثبوته، مدحاً لعبدالملك بن مروان.

وذلك أن عَلِيّاً ﷺ بَاعَ مِنْ عُثْمَانَ ﷺ أرْضاً بِالْمَدِيْنَةِ لاَ يَنَالُهَا الْمَاءُ، فَجَاءَ قَوْمٌ عُثْمَانَ فَنَدَّمُوا عُثْمَانَ عَلَى مَا صَنَعَ وَقَالُوا لَهُ: لاَ تَذْهَبْ فِي خُصُومَتِكَ مَعَ عَلِيٍّ إلَى رَسُول اللهِ ﷺ فَإنَّهُ يَحْكُمُ لَهُ! فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ عُثْمَانُ، وَتَحَاكَمَا إلَى رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَضَى لِعَلِيٍّ ﷺ، فَأبَى قَوْمُ عُثْمَانَ أنْ يَرْضَوا بقَضَائِهِ، فَقَالَ عُثْمَانُ ﷺ: (سَمِعْنَا وَأطَعْنَا) أي سَمعنا قولَكَ يا رسولَ اللهِ وأطَعْنا أمرَكَ ورضينا بحُكمِكَ وقضائِكَ، وإنْ كان ذلك فيما يكرهونَهُ ويضرُّ بهم. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾؛ يعني الرَّاضِين بقضاءِ الله ورسوله.

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ أقبَلَ عثمانُ إلى رسول الله ﷺ فقالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَاللهِ لَئِنْ شِئْتَ لأَخْرُجَنَّ مِنْ أرْضِي كُلِّهَا الَّتِي أمْلِكُهَا وَأدْفَعُهَا إلَيْهِ)[١] فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾؛ معناهُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فيما ساءَهُ وسرَّهُ ويخشَ الله فيما مضَى من ذنوبهِ ويتَّقِ اللهَ فيما بعدُ فلم يَعْصِ اللهَ، ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾، برضَى الله وحسناتهِ.

وقولُه: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾؛ أي حَلَفُوا باللهِ وبالَغُوا في القَسَمِ، ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾، مِن مالِهم كلِّه لفعَلُوا، ﴿ قُل ﴾ لَهم: ﴿ لَّا تُقْسِمُواْ ﴾؛ أي لا تَحلِفُوا، وتَمَّ الكلامُ ها هنا. ثُم قالَ: ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾؛ أي هذا القولُ منكم يعني القَسَمَ طاعةٌ حَسَنَةٌ.

وقال بعضُهم: هذه الآيةُ نزلت في المنافقينَ؛ كانوا يَحلِفُونَ لئِنْ أمَرَهم النبيُّ ﷺ بالخروجِ إلى الجهادِ ليخرجُنَّ، ولَم يكن في نيَّتِهم الخروجُ[٢]، فقيلَ لَهم: لا تُقسِمُوا طاعةٌ معروفة مِثْلُ من قَسَمِكُمْ بما لا تصدِّقون، وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ يعني عَلِيْمٌ بما تعملون مِن طاعتكم بالقولِ "و" مخالفتكم بالفعلِ[٣].

---

(١) لم أقف عليه، إلا أن القرطبي ذكر في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢٩٣ قصة قريبة من هذا المعنى بين المغيرة بن وائل من بني أمية وعلي ﷺ، وقال: (ذكره الماوردي).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٥ بمعناه.

(٣) في المخطوط: (بالقول مخالفتكم بالفعل) من دون (و).

وقولهُ تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ؛ ظاهرُ المعنى، وقولهُ تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ ؛ أي فإن أعرَضُوا عن طاعةِ الله وطاعةِ رسوله فإنَّما على الرسول ما حُمِّلَ من التبليغ وأداءِ الرسالة، وعليكم ما حُمِّلْتُمْ من الطاعةِ، ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ أي ليس عليهِ إلاَّ أن يُبَلِّغَ ويُبيِّنَ لكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ نزلت هذه الآيةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؛ أقاموا بمكَّة مدَّةً قبلَ الهجرة لا يُمكِنُهم إظهارُ الإسلام، ولا أذِنَ لهم في القتال، وكذلك بعدَما هاجَرُوا إلى المدينةِ وَآوَتْهُمُ الأنصارُ، رَمَتْهُمُ العربُ عن قوسٍ واحدة، وكانوا لا يَبِيْتُونَ إلاّ مع السِّلاحِ ولا يُصبحُونَ إلاَّ فيه.

فجاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَهَكَذا جَالَدتَّنا أبداً؟ فإنزلَ اللهُ هذه الآيةَ (وَعَدَ اللهُ الَّذِيـنَ آمَنُوا مِنْكُـمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ)[1] أي لَيُبَوِّئَـنَّهُمْ أرضَ المشركين من العرب والعَجَمِ كما استخلفَ بني اسرائيلَ بأرضِ مِصْرَ والشَّام بعدَ إهلاكِ الجبابرة بأَنْ أورثَهم أرضَهم وديارَهم وجعلهم سُكَّاناً ومُلوكاً.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ ؛ أي ولِيُوسِّعَ لَهم البلادَ حتى يَملكُوها ويُظْهرَ دِينَهم على جميع الأديان، ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ؛ وقولهُ تعالى: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ ؛ يجوزُ أن يكون في موضعِ نصبٍ على الحال؛ أي لأفعَلَنَّ ذلك في حالِ عِبادتِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٨٣٥) بمعناه. وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٢ ص٢٩٧. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص٢٢١ و٢٢٢ مرسلاً. وأخرجه الطبراني في الأوسط: ج ٨ ص١٧: الحديث (٧٠٢٥). والحاكم في المستدرك: كتاب التفسير: الحديث (٣٥٦٤). وفي مجمع الزوائد: ج ٧ ص٨٣؛ قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾. وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾؛ ظاهرُ الْمُرَادِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي ولا تَحْسَبَنَّ كفارَ مكة يا مُحَمَّدُ فَائِتِيْنَ من عذاب الله أو يفُوتُنا هَرَباً، فقدرةُ اللهِ تعالى محيطةٌ بهم، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾؛ أي لِيَسْتَأْذِنْكُمْ في الدُّخول عليكم عبيدُكم وإمائكم والذين لَم يبلغُوا الْحُلُمَ منكم أي مِن أحراركم من الرِّجال والنساءِ، والمعنى: لِيَسْتَأْذِنْكُمْ عبيدُكم وإمائكم والذين لَم يبلغُوا الْحُلُمَ من صغيرِ أولادِكم من الأحرار في الدُّخول عليكم في ثلاثِ أوقاتٍ من الليلِ والنهار يكون الغالبُ فيها كشفُ العوراتِ.

ثُمَّ بَيَّنَ الأوقاتَ الثلاث فقال: ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ ﴾؛ أي وقتَ القيامِ مِن المضاجع والتَّهَيُّؤ للصَّلاةِ بالطهارة، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾؛ وهو وقتُ القَيْلُولَةِ، ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾؛ أرادَ به العشاءَ الأخيرةَ، وهذه الأوقاتُ الثلاثة: ﴿ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ يضعُ ثيابه فيها في العادةِ.

من قرأ (ثَلاَثُ) بالرفع، فمعناه: هذه الأوقاتُ الثلاثة ثلاثُ عوراتٍ لكم. ومَن قرأ (ثَلاَثَ) بالنصب جعلَهُ بدلاً من قولهِ (ثَلاَثَ مَرَّاتٍ). قال السديُّ: (كَانَ أنَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يُعْجِبُهُمْ أنْ يُوَاقِعُوا نِسَاءَهُمْ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ الثَّلاَثِ لِيَغْتَسِلُوا ثُمَّ يَخْرُجُوا إلَى الصَّلاَةِ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ أنْ يَأْمُرُوا الْغِلْمَانَ وَالْمَمَالِيْكَ أنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي هَذِهِ الثَّلاَثِ سَاعَاتٍ إذا دَخَلُوا).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾؛ أي لا جناحَ عليكم ولا عليهم في أنْ لاَ يستأذِنُوا في غيرِ هذه الأوقات.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؛ أي طَوَّافُون عليكم يدخلُونَ ويخرجون ويذهبون ويجيئون ويتردَّدُون في أحوالِهم واشتغَالِهم بغير إذن، يريدُ أنَّهم خَدَمُكُمْ، شيءٌ فلا بأسَ أن يدخلُوا في غيرِ هذه الأوقات بغيرِ إذن. قال مقاتِلُ: (مَعْنَاهُ: يَطُوفُ بَعْضُهُمْ وَهُمُ الْمَمَالِيْكُ عَلَى بَعْضٍ وَهُمُ الْمَوَالِي)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ ؛ أي هكذا يُبَيِّنُ اللهُ لكم الدَّلالاتِ والأحكامِ في أمرِ الاستئذان، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ؛ بمصالحِ العباد، ﴿ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ فيما حكَمَ من استئذانِ الْخَدَمِ في هذه الأوقاتِ الثلاثة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ ﴾ ؛ معناهُ: إذا بَلَغَ الأطفالُ مِن أحراركم وعبيدكم فليستأذِنُوا في جميعِ الأوقات وفي عمومِ الأحوال، ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ؛ المذكورين مِن قَبْلِهم على ما بَيَّنَ اللهُ في كتابهِ، يعني بقوله؛ الأحرارُ الكبارُ الذين أمِرُوا بالاستئذان على كلِّ حالٍ في قوله ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ فليس للعبدِ البالغ أن يدخلَ مَنْزِلَ مولاهُ ولا للولدِ البالغِ أن يدخلَ على أمِّهِ وعلى ذاتِ محارمه في كلِّ وقتٍ إلاَّ بإذن ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ ، معناهُ: والقَوَاعِدُ من النِّساءِ اللاتي قَعَدْنَ عن الحيضِ من الكِبَرِ وهنَّ العجائزُ اللاتِي لا يُرِدْنَ النكاحَ لكِبَرِهنَّ، فليس عليهنَّ حرجٌ فِي، ﴿ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ ؛ يعني الْجِلْبَابَ والرِّداءَ والقناعَ الذي فوقَ الخِمَار لأجلِ الثياب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ ، التَّبَرُّجُ: أن تُظْهِرَ المرأةُ مَحَاسِنَها مِن وجهها وجَسَدِها، والمعنى من غير أنْ يُرِدْنَ بوضعِ الجلباب أن يُرَى زينَتُهن. قال مقاتِلُ: (لَيْسَ لَهَا أنْ تَضَعَ الْجِلْبَابَ، تُرِيْدُ بذلِكَ أنْ تُظْهِرَ قَلاَئِدَهَا وَقِرْطَهَا وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الزِّيْنَةِ)(٢).

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٥.

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٦.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ ؛ معناهُ: وأن يَسْتَعْفِفْنَ فلا يضعْنَ الجلبابَ في الْمِلاَءَةِ والقِنَاع فهو خيرٌ لَهنَّ مِن أن يَضَعْنَ، ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ ؛ مقالةَ العبادِ، ﴿ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ بأعمالِهم. يقالُ: امرأةٌ عِدَادٌ أقْعِدَتْ عن الحيضِ، فإذا قالَ: قَاعِدَةٌ بالهاءِ أراد به جالسةٌ، والجمعُ فيهما جميعاً قَوَاعِدُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ؛ وذلك أنَّ المسلمينَ كانوا إذا غزَوا خلَّفُوا أزْمانَهم وكانوا يدفعونَ إليهم المفاتيحَ ويقولونَ لَهم قد أبَحْنَا لكم أن تأكُلُوا مِما في بُيُوتِنَا، فكانوا يتحرَّجُون مِن ذلك ويقولونَ: لا ندخلُها وهم في غَيْبٍ امتثالاً لقوله تعالى ﴿لا تَأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[(١)] فنزَلَتْ هذه الآيةُ رُخصَةً لَهم.

ومعناها: نَفْيُ الحرجِ عن الزَّمْنَى في أكْلِهم من بيوتِ أقاربهم أو بيوتِ مَن يدفعُ إليهم المفتاحَ إذا خرجَ للغَزْوِ وخَلَفَهُ بحفظِ ماله؛ لأنَّهم كانوا يتحرَّجون أن يأكلُوا مما يحفظونَهُ، فأعْلَمَهُمُ اللهُ تعالى أنه لا جُنَاحَ عليهم في ذلك[(٢)].

وذهبَ الحسنُ إلى أن معنى الآيةِ: (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيْضِ حَرَجٌ فِي تَرْكِ الْخُرُوجِ إلَى الْجِهَادِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ ؛ أي لا حرجَ عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، أرادَ بهذا بيوتَ أبنائِكم ونسلِهم، وإنَّما أضافَ بيوتَ الأبناءِ إليهم لأنَّهم مِن أنفسهم، كما قال ﷺ: [أنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيْكَ][(٣)]، ولِهذا قابلَهُ ببيوتِ الآباء، فقالَ: ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ؛ ولَم يقل بيوتَ أبنائكم، فعُلِمَ أن المرادَ بقولِه: (وَلاَ عَلَى أنْفُسِكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ) أي بيوتِ أبنائِكم وأزواجِكم، وبيتُ المرأةِ كبيتِ الزَّوجِ.

---

(١) النساء / ٢٩ .

(٢) نقله الطبري عن بعض المفسرين في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٢٢٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٢٠٤. وأبو داود في السنن: كتاب البيوع: الحديث (٣٥٣٠). والبيهقي في السنن الكبرى: الحديث (١٦١٧٧).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ ﴾ ؛ أخرجَ الكلامَ على وفْقِ العادةِ؛ لأن الغالبَ مِن أحوالِ هـؤلاء أن تَطِيبَ أنفسُهم بذلكَ، فجازَ الأكلُ مِن بيوتِهم بغيرِ إذنٍ لدلالة الحال.

فأمَّا إذا عَلِمَ أن صاحبَ البيت لا تطيبُ نفسهُ بذلكَ، لا يحلُّ له أن يتناولَ شيئاً من ذلكَ، ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ ؛ يعني بيوتَ عبيدِكم وإمائكم، وذلك أن السيِّدَ يَملِكُ بيتَ عبدهِ، أو الْمَفَاتِحُ معناها الخزائنُ، كقولـهِ تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[(١)] اي خزائنُ الغيب.

ومعناهُ: المفاتيحُ التي يُفْتَحُ بها الخزائنُ، يعني بذلـك الوكـلاءَ والأُمَنَـاءَ والعبيـدَ الذين يَملكون أمرَ الخزائن وتكون مفاتِحُها بأيديهم، فليس عليهم في الأكلِ جُنَاحٌ إذا كان أكْلاً يَسِيراً مثل أن يأكُلَ مِن ثمَرِ حائطٍ يكون قيِّماً عليه أو يشربَ مِن لبنِ ماشيـة يكون قيِّماً عليها. وقال السديُّ: (الرَّجُلُ يُوَلِّي طَعَامَهُ غَيْرَهُ يَقُومُ عَلَيْـهِ، فَـلاَ بَـأْسَ أنْ يَأكُلَ مِنْهُ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ ؛ يعني صَدِيْقاً يسرُّهُ أن يأكلَ من طعامهِ، وإنَّما أطلقَهُ على عادةِ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كما روي في سبب نـزُول هـذا: أنَّ مَالِكَ بْنَ يَزِيْدٍ وَالْحَارِثَ بْنَ عَمْرٍو كَانَا صَدِيْقَيْنِ، فَخَرَجَ الْحَارِثُ غَازِياً وَخَلَّفَ مَالِكاً فِي أهْلِهِ وَخَزَائِنِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنَ الْغَزْو رَأى مَالِكاً مَجْهُوداً، قَالَ: مَا أصَابَكَ ؟ قَـالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَـيْءٌ، وَلَـمْ يَحِـلَّ لِـي أنْ آكُـلَ مِـنْ مَـالِكَ، فَنَزَلَ قَوْلُـهُ تَعَـالَى (أوْ صَدِيقِكُمْ)[(٢)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ سببُ نزول هذه الآيةِ: أن بَنِي كِنَانَةَ -وَهُمْ حَيٌّ مِنَ الْعَرَب - كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَجُوعُ أيَّاماً وَلاَ يَأْكُلُ حَتَّى يَجِدَ ضَيْفاً فَيَأكُلَ مَعَهُ، وَإذا لَمْ يَجِدْ أحَداً فَلاَ يَأْكُلُ شَـيْئاً، وَرُبَّمَـا

---

(١) الأنعام / ٥٩ .

(٢و٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩١٩.

كَانَتْ مَعَهُ الإبلُ مُجَفَّلَةً فَلاَ يَشْرَبُ مِنْ أَلْبَانِهَا حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُشَارِبُهُ، فأعلمَ اللهُ تعالى أن الرجلَ منهم إذا أكلَ وحدَهُ فلا إثْمَ عليهِ. ومعنى (أشْتَاتاً) متفرِّقين.

ويستدلُّ مِن هذه الآيةِ أن للجماعةِ في السَّفرِ أن يخلِطُوا طعامَهم فيأكلُوا جميعاً أو يأكلَ واحدٌ منهم مِن زاده ولا حرجَ عليه في ذلك. والغرضُ من هذه الآيات: نفيُ الْحُرْمَةِ عن كلِّ ما تطيبُ به الأنفسُ.

وعن ابن عبَّاس ﷺ في سبب نزول هذه الآيات: (أنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿لاَ تَأْكُلُوا أمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالْبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ﴾(١) تَحَرَّجَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مُؤَاكَلَةِ الْمَرْضَى والزَّمْنَى وَالْعُمْيَانِ وَالْعُرْجِ، وَقَالُوا: قَدْ نَهَانَا اللهُ عَنْ أكْلِ الْمَالِ بالْبَاطِلِ، وَالأَعْمَى لاَ يُبْصِرُ مَوْضِعَ الطَّيِّبِ مِنَ الطَّعَامِ، وَالأَعْرَجُ لاَ يَسْتَطِيْعُ الْمُزَاحَمَةَ، وَالْمَرِيْضُ لاَ يَسْتَوْفِي حَقَّهُ مِنَ الطَّعَامِ، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ).

والمعنى: ليس عليكُم في مؤاكلةِ الأعمى والأعرجِ والمريض حرجٌ. وقال الضحَّاكُ: (كَانَ الْعُمْيَانُ وَالْعُرْجَانُ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ مُؤَاكَلَةِ الأَصِحَّاءِ؛ لأَنَّ النَّاسَ يَتَقَذَّرُونَهُمْ وَيَكْرَهُونَ مُؤَاكَلَتَهُمْ، وَكَانَ أهْلُ الْمَدِيْنَةِ لاَ يُخَالِطُهُمْ فِي طَعَامِهِمْ أعْمَى وَلاَ أعْرَجُ وَلاَ مَرِيْضٌ تَقَذُّراً، فَأنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ ؛ أي يُسلِّمُ بعضُكم على بعضٍ، وإنَّما قال (عَلَى أنْفُسِكُمْ) لأن المؤمنينَ كنفسٍ واحدةٍ. وَقِيْلَ: هذا في دخول الرجُلِ بيتَ نفسهِ، والسَّلاَمُ على أهلهِ ومَن في بيتهِ. قال قتادةُ: (إذا دَخَلْتَ بَيْتَكَ فَسَلِّمْ عَلَى أهْلِكَ فَهُمْ أحَقُّ مَنْ سَلَّمْتَ عَلَيْهِ، وَإذا دَخَلْتَ بَيْتاً لَيْسَ فِيْهِ أحَدٌ، فَقُلْ: السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِيْنَ، وَمِنَ السُّنَّةِ إذا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَ نَفْسِهِ أنْ يُسَلِّمَ عَلَى أهْلِهِ، فَإنَّهُ يَزْدَادُ بذلِكَ بَرَكَةً فِي بَيْتِهِ وَأهْلِهِ)(٢).

---

(١) النساء / ٢٩ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٤٩٠٢). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص؟؟؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم والبيهقي).

وقال ﷺ: [إذا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَسَلِّمُوا عَلَى أهْلِيكُمْ، وَإذا طَعِمْتُمْ طَعَاماً فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَإنَّ الشَّيْطَانَ إذا سَلَّمَ أحَدُكُمْ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ، وَإذا ذَكَرَ اسْمَ اللهِ عَلَى طَعَامِهِ قَالَ لِجُنْدِهِ مِنَ الشَّيَاطِيْنِ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وَإنْ لَمْ يُسَلِّمْ حِيْنَ يَدْخُلُ بَيْتَهُ وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَى طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ لِجُنْدِهِ: أدْرَكْتُمُ الْعَشَاءَ وَالْمَبِيْتَ](١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ ؛ أي افعلوا ذلك تَحِيَّةً أمَرَكُم اللهُ بها، لكم فيها البركةُ والمغفرة والثواب، ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ ؛ أي هكذا بيَّنَ اللهُ لكم الدلالاتِ والأحكامَ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي لكي تعقِلُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ ؛ في الآية ثَناءٌ على المؤمنين، وإذا كانُوا مع النبيِّ ﷺ في أمرٍ جامع؛ أي في أمر طاعةٍ يجتمعون عليه لِحَقِّ الْجُمُعَةِ وصلاةِ العيدين والْجِهَادِ وأشباهِ ذلكَ، ﴿ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ .

قال المفسِّرون: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا صَعَدَ الْمِنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأرَادَ الرَّجُلُ أنْ يَخْرُجَ لِطَاعَةٍ أوْ عُذْرٍ؛ لَمْ يَخْرُجْ حَتَّى يَقُومَ بحِيَالِ النَّبيِّ ﷺ حَيْثُ يَرَاهُ، فَيَعْرِفَ أنَّهُ إنَّمَا قَامَ لِيَسْتَأْذِنَ، فَيأْذنُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ. قال مجاهدُ: (وَإذا أذِنَ الإمَامُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أنْ يُشِيْرَ بيَدِهِ)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ نزلَتْ في عمرَ بنِ الخطاب ﷺ حِيْنَ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ في الرُّجُوعِ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ إلَى

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٣٨٣. ومسلم في الصحيح: كتاب الأشربة: الحديث (١٠٣/ ٢٠١٨). وابن ماجة في السنن: كتاب الدعاء: الحديث (٣٨٨٧). وأبو داود في السنن: كتاب الأطعمة: الحديث (٣٧٥٦).

(٢) ذكره الطبري في جامع البيان: مج ١٠ ج ١٨ ص٢٣٣.

الْمَدِيْنَةِ لِعِلَّةٍ كَانَتْ بِهِ[(١)]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا اسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ ؛ قِيْلَ: إنَّ هذا منسوخٌ بقوله تعالى ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[(٢)]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ﴾ ؛ أي استغفرْ لِهؤلاء المستأذِنين إذا استأذنوكَ لعُذرهم، ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ ؛ للنَّاس، ﴿ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ بهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ ؛ أي ادْعُوهُ بالْخُضوعِ والتعظيمِ، وقولوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَيَا نَبِيَّ اللهِ، في لِيْنٍ وتواضعٍ وخَفْضِ صوتٍ، ولا تقولُوا: يا مُحَمَّدُ! ولا يا أبَا القَاسِمِ! كما يدعُو بعضُهم بعضاً باسْمِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ؛ أرادَ به المنافقين، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَابَهُمْ فِي خُطْبَتِهِ، فَإذا سَمِعُواْ ذلِكَ نَظَرُواْ يَمِيْناً وَشِمَالاً، فَإنْ أبْصَرَهُمْ أحَدٌ لَمْ يَقُومُوا، وَإنْ لَمْ يُبْصِرْهُمْ أحَدٌ قَامُواْ فَخَرَجُواْ مِنَ الْمَسْجِدِ يَتَسَلَّلُونَ[(٣)]. وَالتَّسَلُّلُ الْخُرُوجُ فِي خِفْيَةٍ.

وَاللِّوَاذُ: أن يَسْتُرَ بعضهُ بعضاً ثُم يَمضِي، يقالُ: لاَوَذْتُ بفُلاَن مُلاَوَذَةً وَلِوَاذاً. قال ابنُ عبَّاس: (هُوَ أنْ يَلُوذ بغَيْرِهِ فَيَهْرُبَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ؛ أي لِيَحْذر الذين يُعرضُونَ عن أمر الله ويخالِفُون في أمره، ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ؛ أي بَلِيَّةٌ، ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ في الآخرة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؛ أي له كلُّ ذلك مُلْكاً وقدرةً وإحاطة، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي يعلمُ ما يُبْدِيْهِ كلٌّ منكم وما يُخفِيه، وقولهُ تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ ؛ معناهُ: يعني يَعْلَمُ يومَ يُبعثونَ متى هو، ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ ؛ فيه؛ ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ ؛ أي يجزيهم بما عملوا في دار الدُّنيا، ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ من أعمالِ العباد وغيرِ ذلك.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٧. (٢) التوبة / ٤٣ .

(٣) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٢٨. ونقله ابن عادل في اللباب: ج ١٤ ص٤٦٣ عن الكلبي.

وعن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النُّـور أعْطِـيَ مِـنَ الأَجْـرِ عَشْـرَ حَسَنَاتٍ بعَدَدِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فِيْمَا مَضَى وَفِيْمَا بَقِيَ][1].

آخر تفسير سورة (**النور**) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص٦٢، وإسناده واهٍ.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

سُورَةُ الْفُرْقَان مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلاَثُ آلاَفٍ وَسَبْعُمِائَةٍ وَثَلاَثَةٌ وَثَلاَثُون حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَثَلاَثُمِائَةٍ وَاثْنَتَان وَتِسْعُونَ كَلِمَةٍ، وَسَبْعَةٌ وَسَبْعُونَ آيَةً. قَالَ ﷺ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفُرْقَانِ دَخَلَ الْجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ][(1)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ﴾ ؛ أي عَظُمَتْ وكَثُرَتْ بركاتُ اللهِ. والبَرَكَةُ: هي الخيرُ الكثيرُ. وَقِيلَ: معناهُ: تَبَارَكَ: أي تَعَالَى، قولُهُ: ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ ؛ أي الذي نَزَّلَ جبريلَ بالفُرْقَان، ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ ، مُحَمَّدٍ ﷺ؛ ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ ؛ أي مُعْلِماً بموضع المخافةِ. والفُرْقَانُ: البيانُ الذي يُفَرِّقُ بهِ بين الحقِّ والباطلِ، ويَزْجُرُ عن القبائحِ، ويدعُو إلى الْمَحاسنِ، ويعني بالعالمينَ: الْجِنَّ والإنسَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؛ أي للهِ خزائنُ السَّموات والأرض والقدرةُ على أهلِها، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ ؛ كما قال اليهودُ والنصارى والمشركونَ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ ؛ فيعاونُهُ على مُلكِهِ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أي قَدَّرَ طُولَهُ وعَرْضَهُ ولونَهُ ورزقَهُ وأجَلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ؛ فمعناه: واتخذ كفارُ مكَّةَ من دونِ الله آلِهَةً يعبدونَها؛ هي الأصنامُ لا يقدرونَ أن يَخلِقُوا شيئاً وهم يُخلقون، ما مِن شيء يكون منها من ذهبٍ أو فضَّةٍ أو صفر

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٢٨٩.

أو خشبٍ إلاّ واللهُ خالقُها، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ؛ أي لا يَملكون الأصنامَ لأنفسِها دفعَ ضُرٍّ ولا جرَّ نفعٍ؛ لأنَّها جَمادٌ لا قدرةَ لَها، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ ؛ أي لا يَملِكُ أن يَموتَ أحدٌ ولا يحيي أحد، ولا تَملِكُ بعثاً للأمواتِ، فكيفَ يعبدُ هؤلاء مَن لا يقدرُ على أن يفعلَ شيئاً مِن هذا ؟ ويتركونَ عبادةَ ربهم الذي يَملِكُ ذلك كلَّهُ. يقالُ: أنْشَرَ اللهُ الأمواتَ فَنَشَرُوا؛ أي أحيَاهُم فحَيُوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ؛ أي قال الذينَ كفروا: ما هذا القُرْآنُ إلاّ كذبٌ اختلقَهُ مُحَمَّدٌ مِن تلقاءِ نفسه وأعَانَهُ عَلَيْهِ قومٌ آخرون مِن أهل الكتاب، يعنونَ (جَبْراً) مولَى لقريشٍ، ويسارَ أبا فُكَيهَةَ مولَى لبني الحضرميِّ، وعَدَّاساً مولَى لحويطبَ بن عبد العزَّى[1]، كان هؤلاء يقرأونَ التوراةَ قبل أن يُسلِمُوا، فلما أسلَمُوا رأوا التوراةَ تشبهُ القُرْآنَ، وكان النبيُّ ﷺ يَمُرُّ بهم ويتعاهَدُهم، فمِن ذلك قال الكفارُ: وَأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ ؛ أي قال الكفارُ هذه المقالةَ شِرْكاً وكَذِباً، زعَمُوا أن القُرْآنَ ليس مِنَ اللهِ، والمعنى: فقد جاءُوا بظُلْمٍ وزُوراً فيما قالُوا، فلمَّا سقطَتِ الباءُ أفضَى إليه الفعلُ فنصبَهُ[3]. والزُّورُ: وضعُ الباطلِ في موضعِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ؛ أي قالَ النَّضرُ بن الحارث وأصحابُهُ: هذا القُرْآنُ أحاديثُ الأوَّلين في دَهْرِهم كما كنتُ أحدِّثُكم عن الأعاجم، ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ ؛ مُحَمَّدٌ أي انسخَها من عداسٍ وجبرٍ ويسار، ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ، فهي تُقْرَأ عليه، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ ؛ أي أمَرَ أن يَكْتُبَ له فهي تقرأ عليه غدوةً وعشيَّة ليحفظَها.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٣٠.

(٢) ينظر اختلاف قولهم كما ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج١٠ ص١٧٧-١٧٨.

(٣) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٤٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ: أنْزَلَ القُرآنَ ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، لا يخفَى عليه شيءٌ فيهما، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا ﴾ ؛ لِمَن تابَ وآمنَ، ﴿ رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ ؛ لِمن ماتَ على التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ ؛ أي قال المشركون على وجهِ الذمِّ والتَّعيير للنبيِّ ﷺ: ما لِهذا الرسول يأكلُ مِما يأكلُ الناس، ويَمشي في الطُّرُق كما نمشي لطلب المعيشة. والمعنى: أنه ليسَ بمَلَكٍ لأن الملائكةَ لا تأكلُ ولا تشرب، والملوك لا يسبقون، ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ ؛ يكون معهُ شريكاً في النبوَّة، ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ ؛ ينتفعُ به، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ ؛ مِن ثمرها، يعني بُستاناً يأكلُ من ثمره، ومعنى قولهِ تعالى (أوْ يُلْقَى إلَيْهِ كَنْزٌ) أي يَنْزلُ عليه مالٌ ينفعهُ ولا يحتاجُ إلى طلب المعاش. وقولهُ تعالى (يَأْكُلُ مِنهَا) قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفُ بالنُّون؛ أي نأكلُ من جنَّته.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ أي قالَ المشركون للمؤمنينَ: ما تَتَّبعُونَ إلاّ رَجُلاً مَخدُوعاً مغلُوباً على عقلهِ قد سُحِرَ وأزيلَ عنه الاستواءُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ ﴾ معناهُ: انْظُرْ يا مُحَمَّدُ كيفَ ضربُوا لكَ الأمثالَ، يعني: مَثَّلُوهُ بالمسحور وبالْمُحتاجِ. وَقِيلَ: معناهُ: انظُرْ كيفَ وصَفُوا لكَ الأشياءَ: إنكَ ساحرٌ وكاهن وكذابٌ وشاعر ومجنونٌ، فَضَلُّوا عن الصواب والْهُدَى وأخطاؤا النسبةَ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ ؛ أي فلا يَجِدُونَ طريقاً إلى إلزامِ الحجَّةِ ولا مَخْرَجاً لأنفُسِهم بإثباتِ العُذْرِ في تركِ الإيْمَانِ به، وذلكَ أنَّهم جعَلُوا معذرَتَهم في ذلكَ أشياءَ ليست بعُذر.

أما أكلُ الطَّعامِ فإنه كان في الرُّسُلِ قبلَهُ، فلم يكن ذلك عُذْراً في تركِ الإيْمَانِ به، ولو أنْزَلَ مَلَكاً لكان يحتاجُ إلى أن يَنْزِلَ من السَّماءِ ويتردَّدُ في الأرضِ لتبليغِ

الرسالةِ، كما قالَ تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾(١) ولو جُعِلَ الْمَلَكُ شَريكاً للنبيِّ ﷺ مُعاوناً له في الإنذار، أدَّى ذلك إلى استِصْغَار كلِّ واحد منهما في أنه لا يكون كلُّ واحد منهما قائماً بنفسهِ في أداءِ الرسالة.

وأما الكَنْزُ فإنه قد وَجَدَ كثيرٌ مِن الفراعنةِ ولَم يوجِبْ ذلك اتباعَهم، وعُدِمَ مع كثير من الأنبياء الذين أقرَّ الخلقُ برسالَتِهم، وكذلكَ الحياةُ؛ ولأن الأنبياءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ إنَّما يُبعثون لتزهيدِ الناس في الكنُوز والحياة، وترغيبهم في الآخرةِ، فكيف يجوزُ أن يَمنعُوا الناسَ عنه ويشتَغِلوا به هُم ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وَذلِكَ أنَّ مَلَكاً أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ لِلنَّبيِّ ﷺ: إنَّ اللهَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أنْ يُعْطِيَكَ خَزَائِنَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يُعْطَهَا أحَدٌ قَبْلَكَ، وَلَمْ يُعْطَهَا أحَدٌ بَعْدَكَ مِنْ غَيْرِ أنْ يُنْقِصَكَ شَيْئاً مِمَّا ادَّخَرَ لَكَ فِي الآخِرَةِ، وَبَيْنَ أنْ يَجْمَعَهَا لَكَ فِي الآخِرَةِ، فَقَالَ ﷺ: [بَلْ يَجْمَعُهَا لِي فِي الآخِرَةِ])(٢).

وَقَالَ ﷺ: [خَيَّرَنِي جِبْرِيْلُ بَيْنَ أنْ أكُونَ نَبيّاً مَلِكاً وَبَيْنَ أنْ أكُونَ نَبيّاً عَبْداً، فَاخْتَرْتُ أنْ أكُونَ نَبيّاً عَبْداً؛ أشْبَعُ يَوْماً وَأجُوعُ يَوْماً، أحْمَدُ اللهَ إذا شَبعْتُ، وَأتَضَرَّعُ إلَيْهِ إذا جِعْتُ](٣).

وكان ﷺ يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ النَّعْلَ، وَيُرَقِّعُ الثَّوْبَ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَكَانَ قَدْ مَاتَ ذِكْرُ الدُّنْيَا عَنْ نَفْسِهِ، وَيَقُولُ: (وَا عَجَباً كُلَّ الْعَجَب لِلْمُعْتَرِفِ بِدَارِ الْخُلُودِ وَهُوَ يَعْمَلُ لِدَارِ الْغُرُور).

---

(١) الأنعام / ٩ .

(٢) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٣٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن مردويه) وأخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٣٣).

(٣) في تخريج أحاديث الإحياء: ج ٥ ص٢٠٢٨؛ قال العراقي: (رواه أبو يعلى من حديث عائشة، والطبراني من حديث ابن عباس، وكلا الحديثين ضعيف). وأخرج الترمذي شطراً من الحديث في الجامع: أبواب الزهد: باب ما جاء في الكفاف: الحديث (٢٣٤٧)، وقال: حسن.

ومعنى الآية: تَبَارَكَ وتعالى إنْ شاءَ يجعلُ لكَ خيراً مما قالوهُ في الدُّنيا من جناتٍ وقصُور، وإنْ شاءَ يجعل لكَ قصُوراً في الدُّنيا؛ أي لو شاءَ جعلَ لك أفضلَ من الكنْز والبستان الذي ذكَرُوا، ويجعل لكَ جناتٍ تجري من تحتِها الأنْهارُ يعني في الدُّنيا؛ لأنه قد شاءَ أن يعطيَهُ في الآخرةِ.

وقولهُ تعالى: (وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) مَن قرأ بالجزم، كان المعنى إن شاءَ جعَلَ لكَ الجناتِ ويجعل لك قصُوراً في الدُّنيا، لأنه قد شاءَ، وإنَّما لَم يجعلِ الحكمةَ التي أوجبت لك. قرأ ابنُ كثير وابن عامر وعاصمُ: (وَيَجْعَلُ) بالرفعِ على الاستئناف بمعنى: وسيجعلُ لكَ قصُوراً في الجنَّةِ في الآخرةِ. والقُصُورُ: هي البيوتُ المشيَّدَةُ، سُمِّي القَصْرُ قَصْراً؛ لأنه قُصِرَ ومُنِعَ مِن الوُصولِ إليه.

وعن ابن عبَّاس أنه قال:(لَمَّا عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بالْفَاقَةِ فَقَالُواْ: مَا لِهَذا الرَّسُول يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاق، وَيَمْشِي فِي الْمَعَاش، تَعِبَ[1] رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام مُعَزِّياً لَهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ رَبُّكَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ: ﴿وَما أرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ إنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ لِطَلَبِ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا.

فَبَيْنَمَا جِبْرِيْلُ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَحَدَّثَانِ إذْ أقْبَلَ رِضْوَانُ خَازِنُ الْجِنَانِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ سَفَطٌ مِنْ نُورٍ يَتَلأْلأُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ رَبُّكَ يُقْرِؤُكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ لَكَ: هَذِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا مَعَ أنَّهُ لاَ يُنْقِصُ حَظُّكَ فِي الآخِرَةِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى جِبْرِيْلَ مُشِيْراً، ثُمَّ قَالَ: [يَا رِضْوَانُ؛ لاَ حَاجَةَ لِي فِيْهَا، الْعَفْوُ أحَبُّ إلَيَّ وَأنْ أكُونَ عَبْداً صَابِراً شَكُوراً حَامِداً مِنَ السَّمَاءِ] فَرَفَعَ جِبْرِيْلُ رَأسَهُ، فَإذا السَّمَوَاتُ قَدْ فُتِحَتْ أبْوَابُهَا إلَى الْعَرْشِ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ أنْ تُدْلِي أغْصَانَهَا، فَإذا غُرْفَةٌ مِنْ زُبُرْجُدَةٍ خَضْرَاءَ لَهَا سَبْعُونَ ألْفَ بَابٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، فَقَالَ جِبْرِيْلُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ بَصَرَكَ، فَرَفَعَ فَرَأى مَنَازِلَ الأَنْبِيَاءِ قَدْ فَضَلَ بِهَا مِنْ دُونِهِمْ، وَإذا بِمُنَادٍ: أرَضِيْتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَقَالَ ﷺ: [قَدْ رَضِيْتُ])[2].

---

(١) في أسباب النزول للواحدي: ص٢٢٤: (حزن).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول: ص٢٢٤-٢٢٥.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ ؛ معناهُ: لا يستطيعونَ سَبيلاً إلى إلزامِ الْحجَّةِ وإثباتِ المعذرةِ، ولكن كَذبُوا بالسَّاعةِ، وأعْتَدْنَا لِمَنْ كذبَ بقيامِ السَّاعة ناراً مُسعَّرَةً، ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ؛ من مسيرةِ خمسمائةِ عامٍ، ﴿ سَمِعُوا لَهَا ﴾ ؛ للنار غلَيَاناً، ﴿ تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ ؛ كتغَيُّظِ بَنِي آدمَ، وصَوْتاً كالزَّفيرِ عند شدَّةِ التهابِها واضطِرَابِها، وإنَّما قال (إذا رَأتْهُم) وهم يرونَها على معنى: كأنَّها تراهُم رؤيةَ الغَضْبَانِ الذي يَزْفِرُ غَيْظاً. قِيلَ: إنَّها لَتَزْفِرُ زَفْرَةً لا يبقَى مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ إلاَّ خرَّ لوجهِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُطْبَقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُطْبَقُ الزَّجُّ فِي الرُّمْحِ، قال ﷺ: [وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ إنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ][(١)]. والمعنَى: إذا طُرِحُوا في مكانٍ ضَيِّقٍ من النَّار مُقَرَّنِيْنَ؛ أي مَغْلُولِيْنَ قد قُرِنَتْ أيدِيهم من الجنِّ والإنسِ يقُولُونَ: وَا ثُبُوراهُ ، وَاهلاكاهُ.

وفي الخبرِ: أنَّهم إذا ألْقُوا على باب جهنَّمَ، وتضايقَ عليهم كتضايُقِ الزَّجِّ في الرُّمحِ، فيزدَحِمونَ في تلكَ الأبوابِ الضيِّقة، يرفعُهم اللَّهَبُ وتخضعُهم مقامعُ ملائكةِ العذاب، فعند ذلك يَدْعُونَ بالويلِ والثُّبُور، ويقالُ لهم: ﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ ؛ فإنَّ سببَ الثُّبور دائمٌ لا ينقطعُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ؛ أي قُلْ أذلكَ العذابُ والسَّعيرُ خيرٌ أم جَنَّةُ الْخُلْدِ التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، وهذا على طريقِ التعجُّبِ والتبعيدِ لا على طريقِ الاستفهامِ؛ لأنه ليس في السعيرِ خيرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ ؛ أي كانت الجنَّةُ للمتقينَ جزاءً ومرْجِعاً في الآخرةِ، ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ﴾ ؛ أي لَهم في جنَّةِ الْخُلْدِ ما يشاؤُون، ﴿ كَانَ ﴾ ؛ ذلك الْخُلْدُ، ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾ ؛ وذلكَ أن المؤمنين سألُوا ربَّهم في الدُّنيا حين قالوا ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٥٠٠٥).

وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾[١] فقالَ اللهُ تعالى:كان إعطاءُ اللهِ للمؤمنين جنَّةَ الْخُلْدِ وَعْداً وَاجِباً، وذلكَ أمِ المسؤولُ واجبٌ، وإن لَم يُسأَلْ كالدَّين، ونظيرهُ قولُ العرب: أعطيتُكَ ألْفاً وَعْداً مسؤُولاً، يعني أنه واجبٌ لكَ فَسْأَلْهُ. وَقِيْلَ: معنى الوعدِ المسؤول: أنَّ الملائكةَ تسألُ لَهم ذلكَ، يقولون ﴿رَبَّنَا وَأدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم﴾[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ يعني كفارَ مكَّةَ وسائرَ المشركين مِمَّن كان يعبدُ غيرَ اللهِ، يعني: الذين يعبدونَ الملائكةَ وعُزَيراً وعيسى والأصنامَ، فيقولُ اللهُ تعالى للكفار: لِماذا[٣] عبدتُم غَيري؟ فيقولونَ: لأنَّهم أمَرُونا بعبادَتِهم، ﴿ فَيَقُولُ ﴾ اللهُ تعالى للملائكة ولعيسى ولعُزَير على وجه التَّنكيتِ والتقريع للكفار: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ ؛ حتى عَبَدُوكم وأنتم أمَرْتُموهم بعبادتِكم، ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ ؛ وأخطَأوا الطريقَ بهوى أنفسِهم؟ ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ؛ أي قالُوا تَنْزيهاً لكَ مِن أن نعبدَ غيرَك، وما ينبغِي لنَا ولعابدِنا أن نَتَّخِذ مِن دونِكَ من أولياءَ، فكيفَ جازَ لنا أن نأمُرَهم يعبدوننا دونك، ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ ﴾ ؛ ولكن طَوَّلْتَ أعمارَهم ووسَّعتَ لَهم في الرِّزق وأمهلْتَهم في الكُفر حتى غيَّروا بذلكَ وتركوا التوحيدَ والطاعةَ، ونَسُوا القُرآنَ، ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ ؛ أي هَلْكَى فاسِدِي القلوب. والبُوَارُ هو الهلاكُ، والبَائِرُ الفاسدُ، والأرضُ البَائِرُ هي التي عُطِّلَتْ عن الزراعةِ. وَقِيلَ: معناهُ (وَكَانُوا قَوْماً بُوراً): أي هَالِكين فاسِدين قد غَلَبَ عليهم الشَّقاءُ والْخُذْلاَنُ، ومنه بَوَارُ السِّلعةِ، والإثم إذا كَسَدَ فَسَدَ.

---

(١) آل عمران / ١٩٤ .

(٢) غافر / ٨ .

(٣) في المخطوط: (لِم ذا).

(٤) المائدة / ١١٦ .

قرأ أبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ ويعقوب: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) بالياء، وقولهُ تعالى (وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَتَّخِذ)، قرأ الحسنُ وأبو جعفرٍ (نُتَّخَذ) بضمِّ النون وفتحِ الخاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ ؛ أي كذبَكم المعبودُ بقولِكم: إنَّها آلِهَةٌ شركاءُ اللهِ، ومَن قرأ (بِمَا يَقُولُونَ) بالياء؛ فالمعنى: كذبُوهم بقولِهم (سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَتَّخِذ مِنْ دُونِكَ مِنْ أوْلِيَاءَ). قال عكرمةُ والضحَّاك والكلبيُّ: (يَأْذنُ اللهُ لِلأَصْنَامِ فِي الْكَلاَمِ وَيُخَاطِبُهَا فَيَقُولُ: أنْتُمْ أضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أمْ أمَرْتُمُوهُمْ بعِبَادَتِهِمْ إيَّاكُمْ ؟ أمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيْلَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أنْ نَتَّخِذ مِنْ دُونِكَ مِنْ أوْلِيَاءَ، وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ؛ أي أطَلْتَ أعْمَارَهُمْ وَوَسَّعْتَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ؛ أي تركُوا القُرْآنَ فَلَمْ يَعْمَلُوا بمَا فِيْهِ)(١). وَقِيْلَ: نَسُوا الإِيْمَانَ والتوحيدَ، وكَانُوا قَوْماً بُوراً، فيقول اللهُ للمشركينَ: (فَقَدْ كَذبُوكُمْ بمَا تَقُولُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ ؛ أي لا يقدِرُون على صَرْفِ العذاب عن أنفُسِهم ولا على نَصْرِ أنفسهم، ودفعِ العذاب والبلاءِ الذي هم فيه، ولا أن ينتصِرُوا مِن مَعبُودِهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ ؛ أرادَ بالظُّلْمِ الشركَ، ومَن يُشْرِكْ باللهِ نُذِقْهُ فِي الآخرةِ عَذاباً شَديداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ؛ أي يأكلونَ كما تأكلُ أنتَ، ويَمشونَ في الأسواق، وهذا احتجاجٌ عليهم في قولِهم ﴿مَالِ هَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ ؛ أي بَلِيْهِ ابتلاءُ الشريفِ بالوضيعِ، والعربيِّ بالمولَى، فإذا أراد الشريفُ أن يُسْلِمَ ورأى الوضيعَ قد

---

(١) في المحرر الوجيز: ص١٣٧٨؛ نقله ابن عطية عن جمهور المفسرين. وفي معالم التنزيل: ص٩٢٣ ذكره البغوي عن عكرمة والضحاك والكلبي.

أَسْلَمَ قَبْلَهُ أَبى وقال: أَسْلِمُ بَعْدَهُ فيكونُ له عليٌّ السابقةُ والفضلُ! فيقيمُ على كُفْرِهِ ويَمتنعُ من الإسلام، فذلكَ افْتِتَانُ بعضِهِم ببعضٍ، وهذا قولُ الكلبيِّ.

وَقِيْلَ: الفتنةُ ها هنا هي العداوةُ التي كانت بينَهم في الدِّين، وما كان المؤمنونَ يَلْقَوْنَ من أذى الكُفَّار، ﴿ أَتَصْبِرُونَ ﴾؛ أيُّها المؤمنونَ على أذاهُم حتى تَصِلُوا إلى ثواب الصابرين، فإنَّ بعضَهم لبعضٍ فتنةٌ، يقولُ الفقيرُ: لو شاءَ اللهُ أغْنَانِي مثلَ فُلان، ويقولُ السَّقيمُ: لو شاءَ اللهُ أصحَّنِي مِثْلَ فُلان، ويقولُ الأعمَى: لو شاءَ اللهُ أبْصَرَنِي مثلَ فُلان، ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾؛ بالأغنياءِ والفُقَراءِ وغيرِهم، أغنَى مَن أوجبَتِ الحكمةُ غِنَاهُ، وأفْقَرَ مَن أوجبَتِ الحكمةُ فقْرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾؛ أي قالَ الَّذينَ لا يَخافُونَ البعثَ بعدَ الموتِ: هَلاَّ أُنْزلَ عَلَينا الملائكةُ رُسُلاً أو نَرَى رَبَّنا فيُخبرنا بذلك[1]، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾؛ أي لقد تَعَظَّمُوا في أنفُسِهم حيثُ سألُوا مِن الآياتِ ما لَمْ يَسْألْهُ أحدٌ قطُّ، ﴿ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾؛ حين قالُوا (أوْ نرى رَبَّنا). والعُتُوُّ: مُجاوَزَةُ الحدِّ في الظُّلمِ، وَقِيْلَ: العُتُوُّ: أشدُّ الكفر. والمعنى: وجَاوَزُوا الحدَّ مجاوزةً شديدةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ أعْلَمَ اللهُ تعالى أنَّ الوقتَ الذي يَرَوْنَ فيه الملائكةَ هو يومُ القيامةِ، وأنَّ اللهَ حَرَمَـهُمُ البُشْرَى في ذلكَ اليومِ، فقال (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ) يعني يومَ القيامةِ، لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ للمشركينَ؛ أي لا بشَارَةَ لَهم بالجنَّةَ والثواب، ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي يقولُ الملائكةُ: حَراماً مُحرَّماً أنْ يدخلَ الجنَّةَ إلاَّ مَن قالَ: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ.

وَقِيْلَ: يقولُ الملائكة للمجرمينَ: (حِجْراً مَحْجُوراً) أي حَراماً مُحَرَّماً عليكم البُشْرَى. وَقِيْلَ: حرامٌ عليكم الجنَّةُ. وَقِيْلَ: تقولُ الملائكةُ: حُرِّمَ عليكم سَماعُ البُشْرَى حَراماً مُحَرَّماً، وكانتِ العربُ إذا أرادَ الرجلُ منهم أن يُحرِّمَ شيئاً يُطْلَبُ منهُ؛ قال: حِجْراً مَحْجُوراً؛ لِيُعْلِمَ السائلَ بذلك أنهُ لا يريدُ أن يفعلَ. والْحَجْرُ في اللغة: هو

---

(١) في المخطوط: (إنك)، وضبطت كما في معالم التنزيل.

الْمَنْعُ، ومنهُ الْحَجْرُ على الصبيِّ، ويجوزُ أن يكون مَحْجُوراً مِن قول الكفَّار للملائكةِ؛ أي قالُوا للملائكةِ بُعْداً بَيْنَنا وبينَكُم. قال مجاهدُ: (يَعْنِي عَـوْذاً مَعَـاذاً يَسْـتَعِيذُونَ مِـنَ الْمَلاَئِكَةِ)(١).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي عَمَدْنا إلى أعمالِهم التي عمِلُوها في الدُّنيا التي كانوا يعتَقِدونَها طاعةً، فجعلناهـا في الآخرةِ بمنْزلة الْهَبَاءِ الْمَنْثُور وهو ما يقعُ في الكُوَّةِ مِن شُعاعِ الشَّمسِ، فيقبضُ القابضُ عليه فلا يحصلُ على شيءٍ. وَقِيْلَ: هو الترابُ الذي يصعدُ من حوافرِ الدَّوابِ، يُـرَى ولكن لا يُقْدَرُ عليهِ. وقال ابنُ شُمَيْلٍ: (الْهَبَاءُ الْمَنْثُورُ الَّذِي تُطَيِّرُهُ الرِّيَاحُ كَأَنَّهُ دُخَانٌ)، فالمعنَى: فجعلناهُ بَاطِلاً لا ثوابَ لهُ؛ لأنَّهم لَم يعملوهُ للهِ، وإنَّما عمِلوهُ للشَّيطان.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّـةِ يَوْمَئِـذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي أصحابُ الجنَّـةِ يومئـذٍ خيرٌ مُسْتَقرّاً مـن هـؤلاءِ المشـركينَ المتكـبرينَ المفتخِريـن بأعمالِهم، وأحْسَنُ مَوْضِعاً عندَ القيلُولَةِ مـن منـازلِ الكفَّـار. قـال ابـنُ مسـعودٍ: (لاَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقْبلَ هَؤُلاَءِ فِي الْجَنَّةِ وَهَؤُلاَءِ فِي النَّار)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾؛ قـرأ أبـو عمـرٍو والكوفيُّـون بالتشديدِ فيهما على معنى تَتَشقَّقُ السماءُ عن الغمامِ و(الباء)و(عن) يتعاقَبـانِ، يقـالُ: رميتُ بالقَوسِ وعَنِ القوسِ، ومعنى الآيةِ: ويَوْمَ تَصَـدَّعُ السَّـماءُ لِـنُزولِ الملائكـةِ في الغمامِ بأمرِ اللهِ كما تقدَّمَ ذِكْرُهُ في قولهِ تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلا أنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ﴾(٣) وهو غَمامٌ أبيضُ رقيقٌ مثل الضُّبَابَةِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾؛ أي نُزِّلَ أهلُ كـلِّ سَـماءٍ على حِدَةٍ منها إلى الأرضِ لإكرامِ المؤمنينَ وإهانةِ الكفَّارِ، وأهوالِ ذلك اليومِ. ويقالُ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيـان: مـج ١١ ج ١٩ ص٥. وابـن أبـي حـاتم في التفسـير: ج ٨ ص٢٦٧٨ على أنـه مـن قـول الملائكـة للكفـار. وفي الـدر المنثـور: ج ٦ ص٢٤٥؛ قـال السيوطي: (أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٠٧٩).

(٣) البقرة / ٢١٠.

إن الغمامَ سحابٌ أبيض فوقَ السَّموات السَّبعِ، كما رُوي أنَّ دعوةَ المظلومِ تُرفَعُ فوقَ الغَمامِ، فعلى هذا يكونُ المعنى: ويوم تَشقَّقُ السموات السَّبعُ ويظهرُ الغَمامُ. قرأ ابنُ كثير: (وَنُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ) بنُونَين ونصب الملائكة.

قولهُ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ؛ أي الْمُلْكُ الذي هو الْمُلْكُ حقّاً مُلْكُ الرَّحْمَنِ يومَ القيامة ، ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ ؛ أي عَسُرَ ذلك اليومُ لشدَّتهِ ومشقَّتهِ، ويَهُونُ على المؤمنينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ؛ نزلت في عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعَيطٍ كان إذا أرادَ أن يُؤْمِنَ فقالَ لهُ أبَيُّ بنُ خَلَفٍ وكان صَديقاً لهُ: صَبَأْتَ يا عُقْبَةُ! لَئِنْ آمَنْتَ لَمْ أكَلِّمْكَ أبَداً، فامتنعَ عن الإيْمانِ حتى قُتِلَ يومَ بدرٍ كافراً، وقَتَلَ رسولُ اللهِ ﷺ أبَيَّ بنَ خَلَفٍ يومَ أحُدٍ[(١)].

وَقِيْلَ: إنَّ عُقْبَةَ بنَ أبي مُعَيطٍ كان لا يقْدُمُ من سَفَرٍ إلاّ صَنَعَ طَعَاماً فَدَعَا عَلَيْهِ أشْرَافَ قَوْمِهِ، وكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ النَّبيِّ ﷺ فقَدِمَ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ سَفَرٍ، فَصَنَعَ طَعَاماً فَدَعَا عَلَيْهِ النَّاسَ، وَدَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَرُبَ الطَّعَامُ قَالَ ﷺ: [مَا نَأْكُلُ مِنْ طَعَامِكَ يَا عُقْبَةُ حَتَّى تَشْهَدَ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنِّي رَسُولُ اللهِ] فَقَالَ عُقْبَةُ: أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَأكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. وَكَانَ أبَيُّ بْنُ خَلَفٍ غَائِباً، فَلَمَّا أخْبرَ بإسْلاَمِ عُقْبَةَ وَكَانَ صَدِيْقَهُ، قَالَ لَهُ: أصَبَوْتَ يَا عُقْبَةُ ؟! فَقَالَ: لاَ؛ وَاللهِ مَا صَبَوْتُ وَإنَّ أخَاكَ كَمَا تَعْلَمُ، وَلَكِنِّي صَنَعْتُ طَعَاماً فَأبَى أنْ يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِي إلاَّ أنْ أشْهَدَ، فَاسْتَحْيَيْتُ أنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِي وَلَمْ يَطْعَمْ، فَشَهِدْتُ لَهُ وَلَيْسَ فِي نَفْسِي ذلِكَ، فَقَالَ أبَيُّ بْنُ خَلَفٍ: يَا عُقْبَةُ! مَا أنَا بالَّذِي أرْضَى مِنْكَ أبَداً حَتَّى تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ! فَفَعَلَ عُقْبَةُ ذلِكَ[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٩٠). وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٢٥١؛ قال السيوطي:(أخرجه عبدالرزاق في مصنفه وابن جرير عن مقسم مولى ابن عباس).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٩١). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٠٩٤).

قال الضحَّاكُ: (لَمَّا بَزَقَ عُقْبَةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَادَ بُزَاقُهُ فِي وَجْهِهِ وَلَسَعَهُ لَسْعَةً[١] فَأَحْرَقَ خَدَّيْهِ، وَكَانَ أَثَرُ ذلِكَ فِيْهِ حَتَّى الْمَوْتِ). وعن عطاءٍ عن ابن عبَّاس قال: (كَانَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ يُجَالِسُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَسْمَعُ كَلاَمَهُ مِنْ غَيْرِ أنْ يُؤْمِنَ بِهِ، فَلَمَّا أرَادَ عُقْبَةُ بْنُ أبي مُعَيْطٍ أنْ يُؤْمِنَ بالنَّبِيِّ ﷺ زَجَرَهُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ، وَكَانَ خَلِيْلاً لَهُ، فَقَالَ لَهُ: وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إنْ بَايَعْتَ مُحَمَّداً ﷺ. فَلَمْ يُؤْمِنْ وَاتَّبَعَ رضَى أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) يعني عقبةَ بن أبي مُعيطٍ، يعضُّ على يديه تَنَدُّماً وتَحسُّراً واسفاً على ما فَرَّطَ في جنب الله. قال عطاءُ: (يَأْكُلُ يَدَيْهِ حَتَّى يَذْهَبَا إلَى الْمِرْفَقَيْنِ، ثُمَّ يَنْبُتَان، فَلاَ يَزَالُ هَكَذا دَأْبُهُ، كُلَّمَا نَبَتَتْ يَدُهُ أكَلَهَا نَدَامَةً عَلَى مَا فَعَلَ، وَذلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ ﴿ يَقُولُ ﴾ ، على وجه التحسر: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ ؛ أي لَيْتَنِي اتبعتُ الرسولَ وسلكتُ طريقته فإنَّها طريقُ الهدى، ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ ؛ يعني أُبَيَّ بن خلفٍ، ﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ ﴾ ؛ أي لقد صرَفَنِي عن القُرْآن بعد إذ دعانِي مُحَمَّدٌ ﷺ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ ؛ ابتداءُ كلام؛ أي كان الشيطانُ للإنسان كثيرَ الْخُذلان يتبرَّأ منه في الآخرةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ) قراءةُ أبي عمرو بفتحِ الياء من (يَا لَيْتَنِيَ اتَّخَذْتُ)، وقُتِلَ عقبةُ يومَ بدرٍ صَبراً كافراً.

وحُكم هذه الآيةِ في كلِّ صاحبَين اجتمعا على معصيةِ الله. وقد رُوِي عن رسول الله ﷺ أنهُ قالَ: [جَلِيْسُ السُّوءِ كَمَثَلِ الْكِيْرِ، إنْ لَمْ يُحْرِقْ ثِيَابَكَ عَلِقَ بِكَ رِيْحُهُ وَدُخَّانُهُ][٣]، وانشدَ بعضُهم في ذلكَ:

---

(١) في المخطوط: (وتسعة وتسعين)، وهو تصحيف.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (١٩٩٩١).

(٣) رواه البخاري في الصحيح: كتاب البيوع: باب في العطار وبيع المسك: الحديث (٢١٠١).=

تَجَنَّبْ قَرِيْنَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيْصاً فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيْبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ ﴾ ؛ أي ويقولُ الرسول مُحَمَّدٌ ﷺ: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ﴾ ، يعني قُريشاً، ﴿ ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ، هَجَرُوا تلاوتَهُ والعملَ به، قالوا فيه غيرَ الحقِّ، وزعَمُوا أنه سِحرٌ وشِعرٌ، وقالوا هو أساطيرُ الأوَّلين، وتركُوا الإيْمانَ به. قال رسولُ الله ﷺ: [مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ[1]، وَعَلَّقَ مُصْحَفاً وَلَمْ يَتَعَاهَدْهُ وَلَمْ يَنْظُرْ فِيْهِ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقاً بِهِ، يَقُولُ: يَا رَبَّ الْعَالَمِيْنَ؛ عَبْدُكَ هَذا اتَّخَذنِي مَهْجُوراً، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ][2].

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ؛ أي كما جعلنَا لكَ يا مُحَمَّدُ أعداءً من مشركِي قومِكَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ؛ أي من كفَّار قومِهِ، فلا يَكْبُرَنَّ عليك ذلكَ ولا يشقُّ عليكَ، فإنَّ الأنبياءَ

=ومسلم في الصحيح: كتاب البر والصلة والآداب: باب استحباب مجالس الصالحين: الحديث (٢٦٢٨).

(١) هكذا ورد النص في المخطوط: (وعلَّمَهُ) والمعنى لا يستقيم، والأصل المحتمل (ولم يعلّمه) أو أن (وعلّمه) أدرج سهواً. ونقله الثعلبي عن المصنف كعادته في النقل منه من غير العزو إليه أو الإشارة إلى مرجعه فيما ينقل. ونقله القرطبي عن الثعلبي كما في الأصول الخطية للجامع لأحكام القرآن، على ما ذكره المحقق، ولكنه أشار إلى حذف (وعلّمه). وهذا يرجح الظن عندي أن الثعلبي ينقل من تفسير الإمام الطبراني من غير العزو له، فالتزم النص من غير نظر أو تحريف، سيما أن النص حديث، ولم يلتزم بذلك الإمام البيضاوي في ذكر النص، أو أنه بلغه على ما خطه في تفسيره: ج ٢ ص١٤٠، دار الكتب العلمية. وكذا الآلوسي في روح المعاني. وفي تحليل النص على ما يبدو لي أن السهو من المصنف سبق قلم، سيما أن الحديث [خَيرُكُمْ مَنْ تَعلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ] أو أنه من الناسخ، ولم تتوفر عندي نسخة ثانية للتأكد.

(٢) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٢٧-٢٨؛ وقال: (ذكره الثعلبي) عن أنس. والبيضاوي في أنوار التنزيل: ج ٢ ص١٤٠. وفي سنده أبو هدبة، وهو كذاب. في لسان الميزان: ج ١ ص١٢٠: الرقم (٣١٩)؛ قال ابن حجر: (دجال من الدجاجلة، كان لا يعرف بالحديث ولا بكتابته، وإنما كان يلعب ويسخر...).

قبلكَ قد كُذِّبوا، ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾؛ لكَ وللخلق وناصراً لك على أعدائِكَ. وانتصبَ قولهُ (هَادِياً) على الحالِ أو على التمييز.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾؛ وذلك أن النبيَّ ﷺ لَمَّا تحدَّاهم بالقُرْآن وأمرَهم أن يأتوا بسورةٍ من مثلِه، فعجَزُوا عن ذلكَ ولزمَتهم الحجةُ فجعلوا يطلبون الحجَّة بالشُّبهةِ، فقالوا: لو كانَ نبياً لأُنـزِلَ عليه القُرْآنُ جملةً واحدةً، كما أنزلَتِ التوراةُ والإنجيل والزَّبور.

والمعنى: أن الكفارَ قالوا: هَلاَّ أنزلَ عليه القُرْآنُ جملةً واحـدة في وقـتٍ واحـد، كما أنزلت التوراةُ على موسَى؛ والإنجيلُ على عيسَى؛ والزبورَ على داودِ، فبيَّنَ اللهُ أن ذلك ليس بشبهةٍ، فقـال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾؛ أي كذلـكَ أنزلناهُ إليكَ متفرِّقاً لنقوِّي به قلبَكَ، فتزدادُ به بصيرةً ويسهلُ عليك ضبطهُ وحِفظهُ، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ ولا يكتبُ، بخلافِ موسى وعيسى. ويقالُ: كأنَّ الله تعالى يعلمُ أن القومَ يسألونَهُ عن أشياء ويؤْذُونه، فأنزلَ الجوابَ عَقِبَ السُّؤالِ ليكون أحسنَ موقِعاً وأدعَى إلى الانقيادِ وأبلغَ في إلزام الحجَّة.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي فرَّقناهُ تفْريقاً، فقال لـو رتـل إذا كان متفرِّقاً غيرَ منظومٍ، وأسنانٌ مرتَّلةٌ: اذا كانت مفلَّجة، ومنهُ قوله ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(١) أي فَرِّق الحروفَ بعضها ببعض. قال ابنُ عبـاس: (مَعْنَـاهُ: وَبَيَّنَّـاهُ تَبْيِيْنـاً)، وقال السديُّ: (فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيْلاً)(٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ أي لا يأتوكَ بشُبهةٍ للاحتجاجِ بها في إبطالِ أمركَ إلاَّ جئناكَ بالذي هو الحـقُّ، والـذي هو أحسنُ تفسيراً من مثلِهم.

والمعنـى: (لاَ يَـأْتُونَكَ) يعـني المشـركين (بِمَثَـلٍ) ضربـوهُ لـكَ في إبطـال أمـرك ومخاصمتِكَ (إلاَّ جِئْنَاكَ) (بِـ) الذي هو (الْحَقّ) لتَرُدَّ به خصومتَهم وتُبطِلَ به كيدَهـم، (وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً) بما أتوا به من المثلِ. والتفسيرُ: كشفُ المعنى المغطَّى.

---

(١) المزمل / ٤ . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥١٣٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ فقاتل كفار مكة، وذلك أنَّهم كانوا قالُوا: إن مُحَمَّداً وأصحابَهُ شرُّ خلق الله، فقالَ اللهُ تعالَى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ أي منْزلاً ومَصيراً وأضلُّ طريقاً من المؤمنين، وقولهُ تعالى (يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ) أي يُسْحَبُونَ على وجوهِهم في النار.

وعن أنس: أنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: [إنَّ الَّذِي أمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى أنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]. وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: [يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلاَثَةِ أصْنَافٍ: صِنْفٌ عَلَى الدَّوَاب، وَصِنْفٌ عَلَى أقْدَامِهِمْ، وَصِنْفٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ](1).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي آتينا موسَى التوراةَ وجعلنا معهُ أخاهُ هارونَ مُعيناً يُعِينهُ على تبليغِ الوحي، والوَزِيرُ في اللغة: هُوَ الَّذِي يُرْجَعُ إلى رَأيِهِ، وَالْوِزْرُ: ما يُلْتَجأُ إليهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ؛ يعني فرعونَ وقومَهُ فادعُوهم إلى الإيْمَان، ففَعَلاَ ذلك فلَمْ يُجيبُوا أمرهم، ﴿ فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾ ؛ أي أهلكنَاهم إهلاكاً بما كان فيهِ عِبْرةٌ لِمن اعتبرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ ؛ أي واذكُرْ قومَ نُوحٍ حين كذبُوا نُوحاً ومَن قبلَهُ من الرُّسل فأغرَقناهم بالطُّوفان، وجعلنا إهلاكَهم للناسِ عِظَةً وعِبرةً ودلالةً على قُدرَتِنا، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ؛ أي الكافرينَ، ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ في الآخرةِ سِوَى عذابهم في الدُّنيا.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٢ ص٣٥٤. والترمذي في الجامع: أبواب التفسير: الحديث (٣١٤٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ ؛ أي أهلَكْنا عاداً وثموداً وأصحابَ الرَّسِّ. قال قتادةُ: (الرَّسُّ بئْرٌ باليَمَامَةِ)[١]، قال السديُّ: (بأنْطَاكِيَةَ وَنَبيُّهُمْ حَنْظَلَةُ)[٢]، وإنَّما سُمُّوا أصحابَ الرَّسِّ؛ لأنَّهم قتَلُوا نبيَّهُمْ ورَسُّوهُ في تلكَ البئرِ، والرَّسُّ واحدٌ. وقال مقاتلُ والسدي:(هُمْ أصْحَابُ الرَّسِّ، وَالرَّسُّ بِئْرٌ، فَقَتَلُوا فِيْهَا حَبيبَ النَّجَّار فَنَسَبَهُمْ إلَيْهَا، وَهُمُ الَّذِيْنَ ذكرَهُمْ فِي سُورَةِ يس)[٣]. وَقِيْلَ: هم أصحابُ الأُخْدُودِ الذين حفروهُ. وقال عكرمةُ:(هُمْ قَوْمٌ رَسُّوا لِنَبيِّهِمْ)[٤] أي دَسُّوهُ في البئرِ.

رُوي أن رَجُلاً سألَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ﷺ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ أخبرْني عن أصحاب الرَّسِّ، أينَ كانت منازلُهم، وبماذا أهلِكُوا، ومَن نبيُّهم، فإنِّي أجدُ في كتاب الله ذِكْرَهم، ولا أجدُ خبَرَهم؟ فقال عليٌّ ﷺ: (لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ حَدِيْثٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أحَدٌ قَبْلَكَ، وَلاَ يُحَدِّثُكَ بِهِ أحَدٌ بَعْدِي، وَكَانَ مِنْ قِصَّتِهِمْ أنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً يَعْبُدُونَ شَجَرَةَ صَنَوْبَرٍ، كَانَ غَرَسَهَا يَافِثُ بْنُ نُوحٍ عَلَى شَفِيْرِ عَيْنٍ جَارِيَةٍ، وَإنَّمَا سُمُّوا أصْحَابَ الرَّسِّ؛ لأنَّهُمْ رَسُّوا نَبيَّهُمْ فِي الأَرْضِ، وَذلِكَ أنَّهُ قِيلَ لِسُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُد، وَكَانُوا إثْنَا عَشَرَ قَرْيَةً عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ الرَّسُّ مِنْ بلاَدِ الْمَشْرِق، وَكَانَ مَلِكُهُمْ يُسَمَّى تَرْكُولُ بْنُ عَامُورَ بْن يَاوِيْسَ بْنِ شَارب بْنِ نَمْرُودَ بْنِ كَنْعَانَ، وَكَانَ أعْظَمُ مَدَائِنِهِمْ سِنْدِبَادُ بهَا الْعَيْنُ، وَالصُّنُوبَرَةُ وهِيَ شَجَرَةٌ عَظِيْمَةٌ.

وَكَانُوا قَدْ حَرَّمُوا مَاءَ الْعَيْنِ وَهِيَ غَزِيْرَةُ الْمَاءِ، فَلاَ يَشْرَبُونَ مِنْهَا، وَلاَ يَسْقُونَ أنْعَامَهُمْ، وَمَنْ فَعَلَ ذلِكَ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ، وَيَقُولُونَ: هِيَ حَيَاةُ آلِهَتِنَا! فَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ أنْ يَنْقُصَ مِنْ حَيَاتِهَا. وَقَدْ جَعَلُوا فِي كُلِّ شَهْرٍ عِيْداً يَجْتَمِعُ إلَيْهِ أهْلُ كُلِّ قَرْيَةٍ، وَيَضْرِبُونَ عَلَى الشَّجَرَةِ ثِيَاباً مِنْ حَرِيْرٍ فِيْهَا مِنْ أنْوَاعِ الصُّوَرِ، ثُمَّ يَأْتُوا بشِيَاهٍ وَبَقَرٍ فَيَذْبَحُونَهَا

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠١٣).

(٢) في المخطوط: (وبينهم حمطلة) الصحيح كما أثبتناه في معالم التنزيل: ص٩٢٧، قال البغوي: (وقال سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوه فأهلكهم الله تعالى).

(٣) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٤٣٧.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠١٦).

قُرْبَاناً لِلشَّجَرَةِ، ثُمَّ يُوقِدُونَ النَّارَ وَيَشْوُونَ اللَّحْمَ، فَإِذا انْقَطَعَ الدُّخَانُ وَالنَّارُ خَرُّوا سُجَّداً لِلشَّجَرَةِ يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهَا أَنْ تَرْضَى عَنْهُمْ.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ يَجِيْءُ فَيُحَرِّكُ أَغْصَانَهَا وَيَصِيحُ فِي سَاقِهَا: إِنِّي قَدْ رَضِيْتُ عَنْكُمْ عِبَادِي، فَطِيْبُوا نَفْساً وَقَرُّوا عَيْناً، فَعِنْدَ ذلِكَ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ السُّجُودِ وَيَضْرِبُونَ الدُّفُوفَ وَيَشْرَبُونَ الْخُمُورَ.

فَلَمَّا طَالَ كُفْرُهُمْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً، فَلَبِثَ فِيْهِمْ زَمَاناً طَوِيْلاً يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، فَلَمَّا رَأَى تَمَادِيْهِمْ فِي الْغَيِّ والضَّلاَلِ قَالَ: يَا رَب إِنَّ عِبَادَكَ أَبَوا وَكَذَبُوا وَعَبَدُوا شَجَرَةً لاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَضُرُّ، فَأَيْبِسْ شَجَرَتَهُمْ يَا رَب، فَأَصْبَحُوا وَقَدْ يَبِسَتْ شَجَرَتُهُمْ فَهَالَهُمْ ذلِكَ، وَقَالُوا: إِنَّ هَذا أَيْبَسَ شَجَرَتَكُمْ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ غَضِبَتْ آلِهَتُكُمْ حِيْنَ رَأَتْ هَذا الرَّجُلَ يَعِيبُهَا وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهَا، فَحَيَتْ وَغَضِبَتْ لِكَيْ تَغْضَبُوا لِغَضَبِهَا وَتَنْصُرُونَهَا. فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَطَرَحُوهُ فِي بِئْرٍ ضَيِّقَةِ الْمَدْخَلِ عَمِيْقَةِ الْقَعْرِ، وَجَعَلُوا عَلَى رَأْسِهَا صَخْرَةً عَظِيْمَةً، وَقَالُوا: إِنَّمَا غَرَضُنَا أَنْ تَرْضَى بِنَا آلِهَتُنَا إِذا رَأَتْ أَنْ قَدْ قَتَلْنَا مَنْ كَانَ يَعِيْبُهَا وَدَفَنَّاهُ بِحُكْمِ كَسْرِهَا، فَتَعُودُ لَهَا نَضَارَتُهَا وَنُورُهَا وَخُضْرَتُهَا كَمَا كَانَتْ.

فَبَقُوا عَامَّةَ يَوْمِهِمْ يَسْمَعُونَ أَنِيْنَ نَبِيِّهِمْ عليه السلام وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَب؛ قَدْ تَرَى ضِيْقَ مَكَانِي وَشِدَّةَ كَرْبِي، فَارْحَمْ ضَعْفِي وَقِلَّةَ حِيْلَتِي وَعَجِّلْ قَبْضَ رُوحِي، وَلاَ تُؤَخِّرْ إِجَابَةَ دَعْوَتِي. فَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيْلُ؛ إِنَّ عِبَادِي هَؤُلاَءِ غَرَّهُمْ حِلْمِي، وَأَمِنُوا مَكْرِي وَعَبَدُوا غَيْرِي، وَقَتَلُوا رَسُولِي، وَأَنَا الْمُنْتَقِمُ مِمَّنْ عَصَانِي، وَإِنِّي حَلَفْتُ لأَجْعَلَنَّهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالاً. فَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ رِيْحاً حَمْرَاءَ عَاصِفاً تَتَوَقَّدُ، فَفَزِعُوا مِنْهَا وَانْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى صَارُوا تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ حَرُّهَا، وَبَعَثَ اللهُ سُبْحَانَهُ

سَحَابَةً سَوْدَاءَ فَألْقَتْ[١] عَلَيْهِمْ كَالْقُبَّةِ ((الْحَمْرَاءِ)) تَلْهَبُ، فذابَتْ أبْدَانُهُمْ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ فِي النَّار، نَعُوذُ باللهِ مِنْ غَضَبِهِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾؛ أي وأهلَكْنا قروناً كثيرةً بين عادٍ إلى أصحاب الرسِّ من لَم نسمِّه لكَ. وقوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾؛ أي وكلٌّ مِن هؤلاءِ بَيَّنَّا لَهم مِما يحتاجون إليه في أمرِ دِينِهم فلم يُجيبوا، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾؛ أي وأهلكناهُم بالعذاب إهلاكاً، والتَّبارُ: هو الْهلاَكُ، وكلُّ شيءٍ كَسَرْتَهُ فقد تَبَّرْتَهُ، يقال للمكسَّرِ من الذهب والفضة والزُّجاج: تِبْرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾؛ حين فَرُّوا في آثارهم فيخافُوا ويعتبروا، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾؛ أي كانوا لا يخافونَ البعثَ والنُّشورَ. أخبرَ اللهُ تعالى أن الذي جرَّأهم على التكذيب أنَّهم لا يصدِّقون بالبعثِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي واذا رَأوْكَ كفارُ مكَّة أبو جهلٍ وأصحابهُ ما يتَّخِذُونَكَ إلاّ هُزُواً؛ أي مَهْزُوءً يستهزؤنَ بكَ ويقولون على وجهِ الاستهزاء: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾؛ إلينا، ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾؛ أي لقد كادَ يصرفُنا عن عبادةِ آلِهتنا، ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾؛ على عبادتِها. قَالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ يومَ القيامةِ، ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾؛ أي من أخطأُ طَرِيقاً عن الْهُدَى والدِّين والحجَّة هم أمِ المؤمنونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؛ أي أرأيتَ مَن عَبَدَ الأصنامَ بهوَى نفسهِ، عَجَّبَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ من نِهاية جهلِهم حين عبَدُوا ما دعاهم

---

(١) في المخطوط: (بالغب) لفظ غير مفهوم. وضبطت كما في الكشف والبيان للثعلبي: ج٧ ص١٣٦.

(٢) ذكره الثعلبي بطوله في التفسير، ونسبه إليه ابن عطية مختصراً في المحرر الوجيز: ص١٣٨٣.

إليه الْهَوَى، فقال: (أرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذ إلَهَهُ هَوَاهُ). قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أرَأيْـتَ مَـنْ تَرَكَ عِبَادَةَ إلَهِهِ وَخَالَفَهُ، ثُمَّ هَوَى حَجَراً يَعْبُدُهُ مَا حَالُهُ عِنْدِي)[١]، قال مقاتلُ: (وَذلِكَ أنَّ الْحُرَيْثَ بْنَ قَيْسٍ السَّهْمِيَّ هَوَى شَيْئاً فَعَبَدَهُ)[٢]، وقال سعيدُ بن جبير: (كَانَ أهْـلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ الْحَجَرَ، فَإذا رَأوْا أحْسَنَ مِنْهُ أخَذُوهُ وَتَرَكُوا الْحَجَرَ الأَوَّلَ)[٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) ﴾ ؛ أي كَفِيلاً حافظاً تحفظهُ من اتِّباعِ هواهُ وعبادةِ ما يهوَى، أي لستَ كذلكَ، إنَّما بُعِثْتَ دَاعياً لا حَافِظاً.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ ؛ أي أتظُنُّ يا مُحَمَّدُ أنَّ أكثرَهم يسمعون سَماعَ تَدْبيْرٍ وتفكُّـرٍ، ويعقلـونَ مـا يُعَـايِنُونَ مـن الْحُجَجِ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ﴾ ؛ يسمعونَ الصوتَ ولا يعقلون حقيقتَـهُ، وهـذا مِثْلُ قولِهِ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾[٤] وقولهُ تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) ﴾ ؛ أي بل هُم أضلُّ من الأنعامِ؛ لأن الأنعامَ إذا زُجِرَتْ انزَجَرَتْ وهم لا يَنْزَجِرُونَ، ولأن الأنعامَ تفـهمُ بعـضَ مـا تسـمعُ؛ لأنَّـها تُنَادَى على صفةٍ فتقِفُ وتنادى على صفةٍ فتسيرُ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ ؛ معناه: ألَم تَرَ إلى صُنْعِ ربكَ كيف بَسَطَ الظلَّ مـن وقـتِ غُـروب الشَّمسِ إلى وقـتِ طُلوعِها من المشرق إلى المغرب. وَقِيْلَ: مِن طلوعِ الفجر إلى طلوعِ الشمس، ولو شـاءَ لجعـلَ الظـلَّ سَـاكناً؛ أي دائِمـاً لا يـزولُ علـى أن لا تطلـعَ الشـمسُ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ﴾ ؛ على الظلِّ بمعنى أنهُ لولاَ الشمسُ لَمَـا عُـرِفَ الظـلُّ؛ لأن الظلَّ يتبعُ الشمسَ في طولِهِ وقِصَرِهِ، فإذا ارتفعَتِ الشمسُ في أعلى ارتفاعِها قَصُرَ الظلُّ،وذلك وقتَ صلاةِ الضُّحى إلى أن تبلُغَ الشمسُ في الارتفاعِ مبلَغاً يـزولُ عنـده

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٢٠٠).

(٢) تفسير مقاتل: ج ٢ ص٤٣٨. وفي الأصل المخطوط تحريف وأسقط شيئاً ورسم الحروف (هـوى يعبدهُ) وضبط كما في تفسير مقاتل.

(٣) ذكره ابن عادل في اللباب: ج ١٤ ص٥٤٠.

(٤) البقرة / ١٧١ .

الظلُّ، ولا ينقصُ الظلُّ بعد ذلك، بل يأخذُ في الزيادةِ فيكون الوقتُ وقتَ صلاةِ العصر، فما دامَتِ الشمسُ تنحطُّ يصير الظلُّ طويلاً تحتَ ذلك الانحطاطِ. والظلُّ تابعٌ للشمس التي هي دليلهُ، ويقالُ: معنى الآية: جعلنا الشمسَ مع الظلِّ دليلاً على توحيدِ الله وكمَالِ قدرتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾؛ إذا طلعَتِ الشمسُ قَبَضَ اللهُ الظلَّ قبضاً يَسيراً خَفِيّاً؛ أي سَلَّطْنَا الشمسَ عليه حتى تَنْسَخَهُ شيئاً فشيئاً وتنقصَهُ نقصاً خفِيّاً لا يستدرَكُ بالمشاهدةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾؛ أي يَسْتُرُ كلَّ شيء تطلبهُ كاللِّباس الذي يسترُ البدنَ، ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾؛ أي راحةً لأبدانِكم، يقالُ: سَبَتَ إذا تمدَّدَ فاستراحَ، ومن ذلك يومُ السَّبتِ؛ لأن اليهودَ كانوا يستريحون فيه بقطعِ أعمالِ الدُّنيا، والسُّبَاتُ قطعُ العملِ، ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾؛ أي تَنْشُرُونَ فيه لِمعاشِكم وحوائجِكم، والنُّشور ها هنا بمعنى التفرُّق والانبساطِ في التصرُّف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾؛ أي أرسلَ الرِّياحَ ينشرُ بها الغيمَ، ويبسطُ في السَّماء قُدَّامَ المطرِ. وإنَّما قِيْلَ في الرحمةِ: رياحٌ؛ لأنَّها الجمعُ: الجنوبُ والشَّمالُ والصَّبا، وقِيْلَ في العذاب: رِيحٌ؛ لأنَّها واحدٌ وهي الدَّبُورُ وهو عقيمٌ لا يلقح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾؛ وهو الْمَطَرُ، وهو طاهرٌ ومُطَهِّرٌ من الأنجاسِ والأحْدَاثِ، ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾؛ أي لنُحْيي بالمطر بلدةً ليس فيها أشجارٌ ولا أثمارٌ ولا مرعًى، ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾؛ أي نسقِي بذلك الماءَ كثيراً من خلقِنا من الأنعامِ. والأَنَاسِيُّ: جمعُ إنْسِيٍّ مثل كُرْسِي وكَرَاسِي، ويقال: جمعُ إنْسَانٍ، وأصلهُ أناسِيْن، كما يقالُ: بستانٌ وبساتين وسَرْحَانٌ وسراحين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ ؛ أي صرَّفنا المطرَ فقسَّمناهُ بينَهم على ما توجِّهُ الحكمةُ لتذكرُوا أنْعُمَ اللهِ فتشكرُوها، ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ ؛أي جُحُوداً به كلَّما أنزلَ المطرَ، يقولون: مُطِرْنا بنَوْءِ كَذا.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ: (مَا عَامٌ بأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللهَ يُقَسِّمُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)(١)، قالَ ﷺ: [مَا سَنَةٌ بِأَمْطَرَ مِنْ أُخْرَى، وَلَكِنْ إذا عَمِلَ قَوْمٌ بِالْمَعَاصِي حَوَّلَ اللهُ ذلِكَ إلَى غَيْرِهِمْ، فَإذا عَصَوا جَمِيْعاً صَرَفَ اللهُ ذلِكَ إلَى الْفَيَافِي وَالْبحَار](٢).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾ ؛ أي لو شئنا لبعثنا في كلِّ قريةٍ نَذيراً ينذِرُهم، ولكن بعثناكَ يا مُحَمَّدُ إلى القُرَى رَسُولاً لعِظَمِ كرامَتِك علينا، وليكون كلُّ الثواب والكرامة لك خاصَّةً، ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ؛ فيما يطلبونَ منكَ أن تعبُدَ آلِهَتَهم، ومداهنَتَهم، ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ ؛ أي بالقُرْآن، ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ؛ شَديداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ؛ أي وهو الذي أرسلَ البَحْرَيْنِ في مجارِيهما، يقالُ: مَرَجْتُ الدَّابَّةَ؛ أي أرسَلْتُها في الْمَرْجِ ترعَى.

وأرادَ بقوله (هَذا عَذْبٌ فُرَاتٌ) النيلُ والأنهارُ العِظَامُ، والفُراتُ ما يكون في غايةِ العذُوبَةِ، وأرادَ بالملحِ الأُجَاجِ الذي يكون ماؤُها في غايةِ المرارة، ويقالُ: في غايةِ الحرارةِ، من قولِهم: أجَّجْتَ النارَ إذا وَقَدْتَها، وتأجَّجَتِ النارُ إذا توقَّدَت، ويقالُ: ماءٌ مِلْحٌ، ولا يقال: مالِحٌ إلاّ لِمَا يُلْقَى فيه الملحُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠٤٦). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٢٤٧).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠٤٩) موقوفاً على ابن مسعود ﷺ . وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٥٧؛ وقال: (وروي من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال ...) وذكره.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ أي حَاجِزاً يَمنعُ كلَّ واحدٍ منهما من تغييرِ الآخر، وهو ما بين العَذْب والملحِ من الأرض. ويقال: أصلُ الْمَرْجِ الْخَلْطُ، وَمِنْ ذلِكَ الْمَرَجُ؛ لأنه يكون فيه أخلاطٌ من النباتِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أمْرٍ مَرِيجٍ﴾[1] أي مُختَلِطٍ بالملحِ والعَذْبِ في مرأى العينِ مختلِطَان، وفي قدرةِ الله منفَصِلان، لا يغيِّرُ أحدُهما طَعْمَ الآخر. (بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً) أي حَاجِزاً من قدرةِ الله تعالى، و(حِجْراً) أي مانعاً يَمنعُ من اختلاطِهما، وفسادِ أحدهما بالآخرِ، ومعنى قولهِ تعالى (وَحِجْراً مَحْجُوراً) أي حَرَاماً مُحَرَّماً أن يُفْسِدَ الملحُ العذبَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ ؛ أي خلَقَ من النُّطفةِ إنساناً وخَلْقاً كثيراً، فجعلَ مِن هؤلاء البَشَرِ أنساباً وأصهاراً، ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ على ما أرادَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ ﴾ ؛ إنْ عَبَدُوهُ، ﴿ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ ؛ إنْ تركُوا عبادتَهُ، وتركُوا عبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم ورزَقَهم، ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي وكان الكافرُ عَوْناً للشَّيطان على ربهِ بالمعاصِي؛ لأنه تابعُ الشيطان ويعاونُهُ على معصيةِ الله، لأنَّ عبادتَهم للأصنامِ معلومةٌ للشَّيطان. والظَّهيرُ هو الْمُعِيْنُ. قال المفسِّرون: أرادَ بالكافرِ أبا جَهْلٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ أي مُبَشِّراً بالجنَّة ونذيراً من النَّار، ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ أي على القُرآن وتبليغ الوَحيِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ﴾ ؛ أي لكن مَن شَاءَ، ﴿ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ إنفاقَ مالهِ فعلُ ذلكَ، والمعنى: لا أسألُكم لنفسِي أجراً، ولكن لا أمنعُ من إنفاق المالِ في طلب مرضَاةِ الله وجنَّتهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ؛ أي فَوِّضْ أمورَكَ إليه، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ ؛ أي احْمَدْهُ مُنَزِّهاً عن ما لا يجوزُ في صفاتهِ، وذلك نحوَ أن يقولَ: الحمدُ للهِ رب العالَمين، والحمدُ للهِ حَمداً يُوافِي نِعَمَهُ ويكافئُ مزيدَهُ،

---

(١) ق / ٥ .

ويجوز أن يكون: صَلِّ بأمرهِ هو المحمودُ في توفيقهِ إياكَ، كما يقالُ: افْعَلْ هذا بحمدِ الله، ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ فهو أولَى مَن يراقِبُ غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ أي فاسأَلْ لسُؤالِكَ إيّاهُ خبيراً، والخبيرُ ها هنا هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ويقالُ: معناهُ: فاسأل الخبيرَ بذلك، يعني: ما ذُكِرَ من خَلْقِ السَّمواتِ والأرض والاستواءِ على العرش. وَقِيْلَ في معناهُ: فاسأَلْ عالِماً بِمَ تسألهُ عنه، ولا تسألْ غيرَهُ، وإذا سألتَ حاجتَكَ؛ فاسأل عالِماً بما يصلحُكَ، وإنك إذا سألتَهُ أخبركَ بالحقِّ في صفاتهِ، وفي كلِّ ما سألتَ عنهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ ؛ أي إذا قِيْلَ لكفَّار مكَّة: ﴿ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ ، قالُوا: ما نعرفُ إلاّ رَحْمَانَ اليَمَامَةِ؛ يعنونَ مُسَيْلَمَةَ. وقولهُ تعالى: ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ استفهامُ إنكار؛ أي لا نسجدُ للرَّحمنِ تَباعداً من الإيمان، كما قالَ تعالى في قصَّة نوحٍ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إلاَّ فِرَاراً﴾[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ ؛ البُرُوجُ: منازلُ الكواكب السَّبعةِ: الشَّمسُ؛ والقمرُ؛ والمشتري؛ فالْمِرِّيخُ؛ وزُحَلُ؛ وعُطَارِدُ؛ والزُّهرَةُ، وهي اثنى عشرَ بُرجاً؛ فالْحَمَلُ والعَقْرَبُ بَيْتَا المرِّيخِ، والثَّورُ والميزانُ بيتا الزُّهرةِ، والْجَوزَاءُ والسُّنبلة بيتَا عُطَارِدَ، والْجَدْيُ والدَّلْوُ بيتا زُحَلٍ.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ ؛ يعني الشَّمسَ، ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ . وقرأ حمزة (سُرُجاً) أراد الشَّمسَ والكواكبَ معها. والمعنى: وجعلَ في السَّماء شَمساً تضيءُ بالنهار. ويقطعُ كلَّ شهر بُرجاً من البروج الاثني عشرَ، وجعلَ فيها قمراً يضيءُ بالليل، ويقطع كلَّ بُرج في يوم وثُلُثٍ.

(١) نوح / ٦ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ أي يخلفُ كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَهُ، يذهبُ أحدُهما ويجيءُ الآخر، فهو عِظَةٌ لِمَن اتَّعظَ، وأرادَ أن يشكُرَ أنعامَ اللهِ.

قال أبو عُبيدة: (الْخِلْفَةُ كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ: اللَّيْلُ خِلْفَةٌ لِلنَّهار، وَالنَّهَارُ خِلْفَةٌ لِلَّيْلِ؛ لأَنَّ أحَدَهُمَا يَخْلُفُ الآخَرَ وَيَأْتِي بَعْدَهُ). وقال مجاهدُ: (جَعَلَ النَّهَارَ خِلْفَةً مِنَ اللَّيْلِ لِمَنْ نَامَ باللَّيْلِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ خِلْفَةً لِمَنِ اشْتَغَلَ بالنَّهار)[1] فَمَنْ فَاتَهُ الْعَمَلُ باللَّيْلِ قَضَاهُ بالنَّهار، وَمَنْ فَاتَهُ بالنَّهار قضَاهُ باللَّيْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ أي عبادهُ الذين رَضِيَهم وأثنَى عليهم هم الذين يَمشُونَ على السَّكينةِ والوَقَار الْهُوَيْنَا، متواضِعين من مَخافةِ الله، حُلَمَاءَ عُقلاءَ عُلماءَ لا يجهَلُون وإنْ جُهِلَ عليهم، وإن كَلَّمَهم الكفارُ والفُسَّاقُ بالسَّفَهِ والفُحْشِ؛ قالُوا سَدادٌ مِن القول. وقِيْلَ: يقولون في جواب السَّفيهِ: سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ. وقال قتادةُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَإذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً)؛ أيْ كَانُوا لاَ يَجْهَلُونَ عَلَى أهْلِ الْجَهْلِ). وقال مقاتلُ: (قَالُوا سَلاَماً؛ أيْ قَوْلاً يَسْلَمُونَ فِيْهِ مِنَ الإثْمِ)[2].

قال الحسنُ: (هَذِهِ صِفَةُ نَهَارِهِمْ إذا انْتَشَرُواْ فِي النَّاس، وَلَيْلُهُمْ خَيْرُ لَيْلٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ أي يصلُّون باللَّيلِ طَلَباً للثواب)[3]. وعن ابنِ عبَّاس قَالَ: (مَنْ صَلَّى بَعْدَ الْعِشَاءِ رَكْعَتَيْنِ أوْ أكْثَرَ فَقَدْ بَاتَ للهِ سَاجِداً أوْ قَائِماً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ لازماً دائماً. والغَرَمُ: اللُّزُومُ، يقالُ لصاحب الدَّين:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٠٨٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٣٢٨).

(٢) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٤١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٠٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (٢٧٢٣).

غَرِيْمٌ؛ لأنَّهُ يلازمُ الْمَدْيُونَ، ويقالُ للمَدْيُون: الغَرِيْمُ؛ لأنَّ اللُّزُومَ يثبتُ عليهِ، والْمُغْرَمُ بالنِّساءِ الْمُلازمُ لَهُنَّ. قال الزجَّاجُ: (إنَّ عَذابَهَا كَانَ غَراماً، الْغَرَامُ أشَـدُّ الْعَـذاب)[١].

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي إنَّ جهنَّم بئسَ موضعِ قَـراراً وإقامةً هي. قال الحسنُ: (كُلُّ غَرِيْمٍ يُفَارِقُ غَرِيْمَهُ إلاَّ غَرِيْمَ جَهَنَّمَ)[٢].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ الإسْرَافُ: هـو الإنفـاقُ في معـاصِي اللهِ تعـالى، والْمُقَـتِّرُ: مَانِعُ حقِّ اللهِ تعالى، والقَوَامُ: هو الوسـطُ بـين الإسـرافِ والتَّقتيـر. قـرأ أهـلُ المدينـةِ والشام بضمِّ الياءِ وكسر التاء، وقرأ الكوفيُّون (يَقتُرُوا) بفتح التاء وضـم اليـاء، وقـرأ الباقون (يَقْتِرُوا) بفتح الياء وكسر التَّاء، وكلُّها لغاتٌ صحيحـة. فالإسـرافُ: نفقـةٌ في معصيةِ الله تعالى وإنْ قَلَّتْ، والإقْتَارُ: منعُ حقِّ الله[٣].

وعن الحسنِ أنَّ مَعناهُ: (لَمْ يُنْفِقُوا فِي مَعَاصِي اللهِ، وَلَمْ يُمْسِكُوا عَـنْ فَرَائِـضِ اللهِ). وَقِيْلَ: معناهُ: لَم يضيِّقُوا في الإنفاق، وكان إنفاقُهم بـين الإسـرافِ والإقتـار، لا إسْرَافاً يدخلُ به في حدِّ التبذيرِ، ولا تضْييقاً يضرُّ به في حدِّ المانع لِمَا يجبُ، وهـذا هـو الْمَحمودُ مِن النفقةِ.

وعن عمرَ ﷺ: (مِنَ الإسْرَافِ أنْ لاَ يَشْتَهِيَ الرَّجُـلُ شَـيْئاً إلاَّ أكَلَـهُ)[٤] وقـال: (كَفَى بالْمَرْءِ سَرَفاً أنْ يَأْكُلَ كُلَّ مَا يَشْتَهِي)[٥]. وقـال قتـادةُ: (الإسْـرَافُ: النَّفَقَـةُ فِـي الْمَعْصِيَةِ، وَالإقْتَارُ: الإمْسَاكُ عَنْ حَقِّ اللهِ، وَالْقَوَامُ مِنَ الْعَيْشِ: مَا أقَامَكَ وَأغْنَاكَ).

---

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٥٩.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٠٤).

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١١٦.

(٤) ذكره ابـن عطيـة في المحـرر الوجيـز: ص١٣٩٠. والقرطـبي في الجـامع لأحكـام القـرآن: ج ١٣ ص٧٣.

(٥) ويروى حديثاً أيضاً؛ أخرجه ابن ماجة في السنن: كتاب الأطعمة: باب مـن الإسـراف أن تـأكل كلما اشتهيت: الرقم (٣٣٥٢)، إسناده ضعيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ قِيلَ: إنَّ رَجُلاً جَاءَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أيُّ الذنْب أكْبَرُ ؟ قَالَ: [أنْ تَجْعَلَ للهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ] قَالَ: ثُمَّ أيُّ ؟ قَالَ:[أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ] قَالَ: ثُمَّ أيُّ؟ قَالَ: [أنْ تَزْنِي بحَلِيْلَةِ جَارِكَ] فأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هذهِ الآيَةَ تَصْدِيقاً لذلكَ: (وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ)[(١)] ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ؛ في الحديثِ [لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بأحَدِ ثَلاَثِ مَعَانٍ: زنًى بَعْدَ إحْصَانٍ، وَكُفْرٌ بَعْدَ إيْمَانٍ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بغَيْرِ حَقٍّ][(٢)]. ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ ؛ أي مَن يفعلُ شيئاً مما تقدَّم ذِكره (يَلْقَ أثَاماً) أي يَلْقَ عقوبةَ فعلهِ، ويقالُ: الآثَامُ وادٍ في جهنَّم من دمٍ وقَيْحٍ.

وعن رسول الله ﷺ: [لَوْ أنَّ صَخْرَةً عَسْرَاءَ قُذِفَ بهَا فِي جَهَنَّمَ مَا بَلَغَتْ قَعْرَهَا سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً، ثُمَّ يَنْتَهِي إلَى غَيٍّ وَأثَامٍ] قِيْلَ: وَمَا غَيٌّ وَأثَامٌ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: [بئْرَان يَسِيْلُ فِيْهِمَا صَدِيْدُ أهْلِ النَّار، وَهُمَا اللَّتَان قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[(٣)]][(٤)]. ورُوي أنَّ أثاماً وادٍ في جهنَّم فيه حيَّاتٌ وعقاربُ في فَقَار إحداهنَّ مقدار ستِّين قُلَّةً من السُّمِّ، كلُّ عقرب منهنَّ مثل البغلةِ الموكفة[(٥)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ تفسيرُ الغَيِّ الأثَام بقولهِ (يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ) الآيةُ، ومَن رفعَ (يُضَاعَفُ، وَيَخْلُدُ)

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٤٧٧). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (١٤٢/ ٨٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص٦١. والترمذي في السنن: أبواب الفتن: الحديث (٢١٥٨). وابن ماجة في السنن: كتاب الحدود: الحديث (٢٥٣٣). والحاكم في المستدرك: كتاب الحدود: الحديث (٨٠٩٣).

(٣) مريم / ٥٩ .

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الحديث(٢٠١٣٣). وذكره ابن كثير في التفسير: ج ٣ ص١٢٦.

(٥) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٧٦؛ قال السيوطي: (وأخرج ابن المبارك عن شفي الأصبحي قال ...) وذكره.

وهو ابنُ عامر فهو على الاستئنافِ والقطع عما قبله[١].

قوْلُهُ تَعالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾؛ قال ابن عباس: (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِمَكَّةَ، وكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا: مَا يُغْنِي عَنَّا الإِسْلاَمُ وَقَدْ عَدَلْنَا باللهِ وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ وَأتَيْنَا الْفَوَاحِشَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ).

ومعناها: إلاّ مَن تَابَ عن الكفرِ والمعصية وآمَنَ باللهِ وعَمِلَ عَمَلاً صالحاً بعدَ الإيْمانِ والتوبةِ، فأُولَئِكَ يَمحُو اللهُ سيِّئاتِهم بالتوبةِ ويُثْبِتُ لَهم مكانَها حسناتٍ، وهذا هو معنى التَّبديلِ، لا تصيرُ السَّيِّئةُ بعينها حسنةً.

وعن ابن عباس أنهُ قال: (قَرَأنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ (وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أثاماً، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ) الآيَةُ ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً) الآيَةُ. فَمَا رَأيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَرِحَ بشَيْءٍ مِثْلَ فَرَحِهِ بهَا وَبقَوْلِهِ ﴿إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً﴾[٢])[٣].

قال قتادةُ: (وَمَعْنَاهَا: إلاَّ مَنْ تَابَ مِنْ ذنْبهِ وَآمَنَ بربهِ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ربهِ)[٤]. وقال أيضاً في معنى قوله (فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ): (التَّبْدِيلُ فِي الدُّنْيَا طَاعَتُهُ بَعْدَ عِصْيَانِهِ، وَذِكْرُ اللهِ بَعْدَ نِسْيَانِهِ). وقال الحسنُ: (أبْدَلَهُمُ اللهُ بالْعَمَلِ إلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ بالشِّرْكِ إخْلاَصاً وَإسْلاَماً، وَبالْفُجُور إحْصَاناً، وَبقَتْلِ الْمُؤْمِنِيْنَ قَتْلَ الْمُشْرِكِيْنَ)[٥].

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٧٦؛ قال القرطبي: (قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي: يضاعفْ، ويَخلُدْ، جزماً) وهو كما قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ. وقال القرطبي: (وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: يُضَاعَفُ، ويُخلَدُ بالرفع فيهما على العطف والاستئناف).

(٢) الفتح / ١ .

(٣) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٧٩؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه).

(٤) في الدر المنثور: ج ٦ ص٢٨٠؛ قال السيوطي: (أخرجه عبد بن حميد).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٤٣٣).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾؛ أي مَن تاب من الشِّرك وعَمِلَ صالحاً، ولَم يكن من القبيلِ الذين قَتَلُوا وزَنُوا، فإنهُ يتوبُ اللهُ؛ أي يعودُ عليه بعد الموتِ مَتَاباً حَسَناً يفضِّلُ علَى غيرِهِ بمَن قَتَلَ وزَنَى، فالتوبةُ الأُولى رجوعٌ عن الشِّرك، والثانيةُ رجوعٌ إلى اللهِ للجزاءِ والمكافأة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾؛ قال أكثرُ المفسِّرين: الزُّورُ ها هنا بمعنى الشِّركِ. قال الزجَّاجُ: (الزُّورُ فِي اللُّغَةِ الْكَذِبُ، وَلاَ كَذِبَ فَوْقَ الشِّرْكِ باللهِ). وقال قتادةُ: (وَلاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ، لاَ يُسَاعِدُونَ أهْلَ الْبَاطِلِ عَلَى بَاطِلِهِمْ)[(١)]. وقال محمَّدُ بنُ الحنفيَّة: (لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ: اللَّهْوَ وَالْغِنَاءَ وَاللَّعِبَ وَأعْيَادَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ). وقال عليُّ بن أبي طلحةَ: (شَهَادَةُ الزُّورِ). وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه (يَجْلِدُ شَاهِدَ الزُّورِ أرْبَعِينَ جَلْدَةً وَيُسَخِّمُ وَجْهَهُ وَيَطُوفُ بِهِ فِي الأَسْوَاقِ)[(٢)]. وعن عمرَ بن المنكدر أنه قال: بَلَغَنِي (أنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا يُنَزِّهُونَ أنْفُسَهُمْ عَنْ سَمَاعِ اللَّهْوِ وَمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ؟ أدْخِلُوهُمْ رِيَاضَ الْمِسْكِ. ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ: اسْمِعُوا عَبِيْدِي تَحْمِيْدِي وَثَنَائِي وَتَمْجِيْدِي، وَأعْلِمُوهُمْ أنْ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾؛ أي إذا مَرُّوا بالقولِ والفعل الذي لا فائدةَ منه مرُّوا مُكرمين صَائنين أنفسَهم عن الخوضِ في ذلك، آمِرين بالمعروفِ ناهين عن المنكرِ بما قَدرُوا عليه من قولٍ إذا عَجِزُوا عن الفعلِ، ومِن إظهار كرامةٍ وتَعْبيسِ وجهٍ إذا عَجِزُوا عن القولِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾؛ معناهُ: والذين إذا وُعِظُوا بآياتِ ربهم؛ أي بالقُرْآن؛ لَم يعامِلُوا فيها معاملةَ الأصَمِّ الذي لا يسمعُ، والأعمَى الذي لا يُبْصِرُ، ولكنَّهم سَمعوا وبَصروا وانتفعوا بها وخَرُّوا ساجدينَ سامعين باكينَ مبصرين فيما أُمِرُوا به ونُهُوا عنهُ. والْخَرُّ هو السُّقوطُ.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٤٤٩).
(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٣٤. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٨٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ ؛ الذُّرِّيَّةُ تكونُ واحداً وجمعاً، فكونُها الواحد: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَب هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[١]، وكونُها للجمعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾[٢]. وقوله تعالى (قُرَّةَ أعْيُنٍ): (يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا) أرادَ أتقياءَ. وقال مقاتلُ: (مَعْنَاهُ: اجْعَلْهُمْ صَالِحِيْنَ فَنَقَرُّ أعْيُناً بذلِكَ)[٣]. وقال الحسنُ: (مَا مِنْ شَيْءٍ أقَرَّ لِعَيْنِ الْمُسْلِمِ مِنْ أنْ يَرَى وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ مُطِيْعِيْنَ للهِ)[٤].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ أي يُقتدَى بنا في الخيرِ، والمعنى: اجعلنَا صالِحين نأتَمُّ بمن قبْلَنا من المسلمين حتى يأتَمَّ بنا مَن بعدَنا. قال الفرَّاءُ: (إنَّمَا قَالَ (إمَاماً) وَلَمْ يَقُلْ: أئِمَّةً كَمَا قَالَ: (إنَّا رَسُولُ رَب الْعَالَمِيْنَ) لِلاثْنَيْنِ، يَعْنِي: إنَّهُ مِنَ الْوَاحِدِ الَّذِي يُرِيْدُ بِهِ الْجَمِيْعَ)[٥]. وفي الحديثِ: [مَنْ رُزِقَ إيْمَاناً وَحُسْنَ خُلُقٍ فَذاكَ إمَامُ الْمُتَّقِيْنَ][٦].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ؛ أي أهلُ هذه الخِصَال همُ الذين يُجزَوْنَ الْغُرْفَةَ في الجنَّة بصَبْرِهم على الطاعةِ وعن المعصيةِ وعلى مَكَارهِ الزَّمان ومِحَنِ الدُّنيا. والغُرْفَةُ هي البناءُ العالِي المرتفعُ، قال مقاتلُ: (يَعْنِي غُرَفَ الْجَنَّةِ). وقال مقاتلُ: (هِيَ غُرْفَةٌ مِنَ الزُّبُرْجَدِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ؛ أي وتتلقَّاهمُ الملائكة في تلك الغُرَفِ بالتحيَّة والسَّلام مِن اللهِ تعالى. قرأ أهلُ الكوفة (يَلْقَوْنَ) بفتحِ الياءِ والتخفيف. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ أي حَسُنَتْ تلك الغُرَفُ في المستقرِّ والْمُقَامِ.

(١) آل عمران / ٣٨ .
(٢) النساء / ٩ .
(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٤٣.
(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٦٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٤٨٥).
(٥) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٧٤.
(٦) لم أقف عليه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ ؛ أي قُلْ لَهم: ما يصنعُ بكُمْ ربي وهو لا يحتاجُ إليكم لولا دعاؤهُ إيَّاكم إلى الإسلامِ وإلى الطاعةِ لتنتَفِعُوا أنتم بذلكَ. وَقِيلَ: معناهُ: أيُّ وَزْنٍ وقَدْرٍ لكم عند ربي لولا دعاؤُكم وعبادتُكم إياه. وَقِيْلَ: معناهُ: ما يفعلُ بكم يا أهلَ مكَّة لولا عبادتُكم غيرَ اللهِ، ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ ؛ يا أهلَ مكة، ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ ﴾ ؛ جزاءُ تكذيبهم، ﴿ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي أسِروا وأخِذوا بالأيدي. وَقِيْلَ: أراد به يومَ بدر.

واللِّزَامُ بنصب اللام مصدراً أيضاً. والخطابُ بقوله (فَقَدْ كَذبْتُمْ) يا أهلَ مكَّة؛ أي إنَّ الله دعَاكم بالرَّسُول إلى توحيده وعبادتهِ، فقد كَذبْتُمُ الرسولَ، ولَم تُجيبوا دعوتَهُ، فسوفَ يكون تكذيبُكم لِزَاماً يلزمكم فلا تعطونَ التَّوبةَ، فقُتِلُوا يومَ بدر واتَّصَلَ بهم عذابُ الآخرةِ.

آخر تفسير سورة (**الفرقان**) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّةٌ إلَى قَوْلِهِ ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَإنَّهَا مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسَةُ آلاَفٍ وَخَمْسُمِائَةٍ وَاثْنَانِ وَأرْبَعُونَ حَرْفاً، وَأَلْفٌ وَمِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَتِسْعُونَ كَلِمَةً، وَمِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَعُشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ ؛ أولُ السورة قَسَمٌ؛ وهو من أسماءِ الله تعالى. قال القُرَظِيُّ: (اقْسَمَ اللهُ بطَوْلِهِ وَسَنَائِهِ وَمُلْكِهِ)(1)، قَوْلُهُ تَعَالَى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) أي هذه آياتُ الكتاب المبينِ أنزلَها على رسولِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ؛ أي لعلَّكَ مُهلِكٌ نفسَكَ؛ أي قاتلٌ بأنْ لا يكونُوا مؤمنينَ، وكان ﷺ حَريصاً على إيْمانِهم ونَجاتِهم من عذاب الله، وذلكَ أنهُ لَمَّا كذبت قريشٌ النبيَّ ﷺ شَقَّ عليهِ ذلك، وكان يحرصُ على إيْمانِهم، فأنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ: لعلَّكَ قاتلٌ نفسَكَ لتَرْكِهم الإيْمانَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ؛ إعلامٌ مِن الله تعالى أنهُ لو أرادَ أنْ يُنَزِّلَ آيةً تضطرُّهم إلى الطاعةِ لقَدِرَ على ذلكَ، ولكنهُ لَم يفعلْ؛ لأنه أرادَ منهم إيْمَاناً فيستحقُّون عليه المدحَ والثوابَ، فإذا جاءَ الإلْجَاءُ ذهَبَ الْمَدْحُ وَالثَّوَابُ.

---

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٣٥. والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٨٩. وفي الدر المنثور: ج ٦ ص٢٨٨؛ قال السيوطي: (أخرجه ابن أبي حاتم عن محمَّد بن كعب قال: الطاء من ذي الطَّول، والسين من القدُّوس، والميم من الرَّحمن).

قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) أي أذِلاَّءَ مُنقادِين لا يَلْوُونَ أعناقَهم إلى معصيةٍ. قال قتادةُ: (الْمَعْنَى: لَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ آيَةً يُذلُّونَ بِهَا، فَظَلَّتْ جَمَاعَتُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)[١]. وَالأَعْنَاقُ: الْجَمَاعَاتُ، يقالُ: جاءَنِي عُنُقٌ مِن الناسِ[٢]؛ أي جماعةٌ، ولو كان المرادُ الأعناقُ التي هي الخارجةُ لقال: خَاضِعَاتٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾؛ أي ما يأتِي جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ بشيءٍ بعدَ شيءٍ من القُرْآنِ إلاّ كانوا مُعْرِضِيْنَ عن ذلكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾؛ أي بالقُرْآنِ، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾؛ أي فسيأتِيهم خبرُ ذلكَ في القيامةِ.

وقولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ معناهُ: أولَمْ يرَ أهلُ مكَّةَ إلى الأرضِ كم أخرَجْنا فيها مِن كلِّ صِنْفٍ حَسَنٍ في الْمَنْظَرِ من النَّباتِ بعد أن كانت مَيْتَةً لا نَبَاتَ فيها. والزَّوْجُ: هو صِنْفٌ وأضْرُبُ الْحُسْنِ، (والمعنَى: مِن كلِّ زَوْجٍ نَافِعٍ لا يقدرُ على إنباتهِ إلاّ ربُّ العالَمين)[٣]، من أسْوَدٍ وأحمرَ وأصفرَ وأخضرَ، وحُلْوٍ وحَامضٍ مما يأكلُ الناسُ والأنعَامُ. (والكريمُ في اللُّغةِ: هو الْمَحْمُودُ فيما يُحْتَاجُ إليهِ)[١]، يقالُ: نخلةٌ كَرِيْمَةٌ إذا طابَ حَمْلُهَا أو كثُرَ، وناقةٌ كَرِيْمَةٌ إذا كانت غزيْرَةَ اللَّبَنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾؛ إنَّ في اختلافِ ألوانِ النباتِ للدلالةَ على وحدانيَّةِ اللهِ وكمالِ قُدرته، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾؛ في عِلْمِ اللهِ؛ أي قد سَبَقَ في عِلْمِ اللهِ أنَّ أكثرَهم لا يُؤمنون، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾؛ أي الْمُنْتَقِمُ من أعدائهِ الرَّحِيْمُ بأوليائه.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠١٩١). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٥٣٤).
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٦٤.
(٣) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٤ ص٥٦.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾؛ أي اُتْلُ على قومِكَ أو اذكُرْ لقومِكَ: (إذ نادَى ربُّكَ موسَى) حين رأى الشجرةَ والنارَ، وقال لَهُ: يا مُوسَى ائْتِ القومَ الظَّالِمين، يعنِي الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم بالكفرِ والمعصية، وظَلَمُوا بني إسرائيلَ بأنْ سَامُوهم سوءَ العذاب، ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾.

ثُم أخبرَ عنهم فقال: ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾، عِقابي في مقامِهم على الكُفْرِ وتركِ الإيْمان. ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾؛ بالرِّسالةِ ويقولون: لَيْسَتْ مِن عند الله، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى ﴾؛ بتكْذِيْبِهِمْ إيَّايَ، ﴿ وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾؛ للعُقْدَةِ التي فيه، ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ جبريلَ ﴿ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ليكون مَعِي معيناً يُؤَازِرُني على إظهار الدَّعوةِ وتبليغ الرِّسالةِ. ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ ﴾؛ أي دَعْوَى ذنبٍ؛ يعني الْوَكْزَةَ التي وَكَزَهَا الْقِبْطِيَّ فماتَ منها، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾؛ بوشايَتِه.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾؛ أي كلاًّ لا يقتلونكَ لأنِّي لا أُسَلِّطُهُمْ عليكَ، ﴿ فَٱذْهَبَا ﴾؛ أنتَ وأخوكَ، ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾؛ يعني بما أعطاهما من المعجزةِ، ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾؛ وإنَّما قالَ (مَعَكُمْ) لأنه أجْرَاها مجرَى الجماعةِ، والمعنى: أَسْمَعُ ما يقولونهُ وما يُجِيبُونَكَ به.

وَقِيْلَ: إنَّ معنى قولِهِ (كَلاَّ) أي قالَ اللهُ لِمُوسَى: إرتَدِعْ[1] عَنْ هذا الظَّنِّ وهذا الخوفِ، (فَاذْهَبَا بآيَاتِنَا) أي بدلائِلنا (إنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) أي شَاهِدُونَ بحفظِكُم ونَصْرِكُمْ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي (رَسُولُ رَب الْعَالَمِيْنَ) إليكَ لَتُؤْمِنَنَّ باللهِ وَتُطْلِقَ بَنِي إسْرَائِيْلَ عن الاستعبادِ، وتُرْسِلَهم معنَا إلى الأرضِ المقدَّسةِ، والرَّسُولُ يُذْكَرُ ويرادُ به الجمعُ، كما تقولُ العربُ:

---

(١) في المخطوط: (أنْ تدع) وهو تحريف. وضبط النص كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٦٦.

ضَيْفٌ[١] وَعَدُوٌّ، ومنهُ قولهُ ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[٢]، وَقِيْلَ: إنَّما قالَ (رَسُولُ رَب الْعَالَمِيْنَ) ولَم يقُلْ رَسُولاَ ؛ لأنَّهُ أرادَ المصدرَ؛ أي رسَالَةَ، وتقديرهُ: ذوُو رسالةِ[٣] رَبِّ العالمينَ، كقولِ الشَّاعرِ:

لَقَدْ كَذبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ وَلاَ أرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[٤]

أي برسالةٍ، وَقِيْلَ: معناهُ: وكلُّ واحد مِنَّا رسولُ رب العالَمين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾؛ أي بأنْ أرْسِلْ معنا بَنِي إسرائيلَ إلى فِلَسْطِيْنَ ولا تَستَعْبدْهُمْ. وكان فرعونُ استعبَدَهم أربعمائة سَنة، وكانُوا في ذلك الوقتِ ستُّمائة ألفٍ وثلاثين ألفاً، فانطلقَ موسَى وهارونُ بالرِّسالةِ إلى مِصْرَ، فلمَّا بلَغُوا دارَ فرعون لَم يُؤْذنْ لَهم بالدُّخول عليه إلاّ بعدَ مدَّةٍ، فدخلَ البوَّابُ؛ وقالَ لفرعونَ: هذا إنسانٌ يدَّعِي أنه رسولُ رب العالَمين، فقالَ فرعَونُ: إئْذنْ لَهُ لعلَّنا نضحَكُ منه. فدخَلاَ عليه وأدَّيَا رسالةَ اللهِ تعالى.

فعرَفَ موسى؛ لأنهُ نشأ في بيته، فـ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾؛ أي صبيّاً صغيراً، ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ وهي ثلاثون سَنة، ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾؛ يعني قَتْلَ قِبْطِيٍّ، ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي مِن الْجَاحِدِيْنَ لنعمَتي، وحقَّ تربيَتي، فربَّيناكَ فِينَا وليداً، فهذا الذي كافأْتَنا به أن قَتَلْتَ منَّا نفْساً، وكفرْتَ بنعمَتِنا.

ويروَى أنَّ موسَى لَمَّا انطلقَ إلى مصر لتبليغِ الرِّسالةِ، وكان هارونُ يومئذٍ بمصْرَ، التقَى كلُّ واحدٍ منهُما بصاحبِهِ، فانطلَقَا كلاهُما إلى فرعونَ، أدَّيَا جميعاً الرسالةَ، وعَرَفَ فرعونُ موسَى، قال لهُ فرعونُ: (ألَمْ نُرَبكَ فينا وَلِيداً) أي صَغِيْراً، ومكثتَ

---

(١) في المخطوط: (صيفٌ) بالمهملة، والمناسب كما أثبتناه.

(٢) الكهف / ٥٠ .

(٣) في المخطوط: (وارساله) ولا تؤدي المعنى، وضبطنا النص كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٦٦. والجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص٩٣.

(٤) ينظر: لسان العرب: مادة (رسل). والبيت لكثير.

عندنا سِنيناً من عُمرِكَ، (وَفَعَلْتَ فِعلَتَكَ) أي قتلتَ القبطيَّ (وَأنْتَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ) أي الجاحدينَ لنِعمَتي وتربيتي.

﴿ قَالَ ﴾ موسَى: ﴿ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَاْ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ ﴾ ؛ أي فعلتُ تلك الفعلةَ وأنا من الْجَاهِلِينَ، لَم يأتِنِي من اللهِ شيءٌ، ولا يجوزُ أن يكون المرادُ بهذا الإضلال عنِ الْهُدَى؛ لأن ذلك لا يجوزُ أن يكون على الأنبياءِ. وَقِيْلَ: معناهُ: وأنَا من الْمُخْطِئِيْنَ، نظيرهُ ﴿إنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾[1] . وَقِيْلَ: مِنَ النَّاسِينَ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أنْ تَضِلَّ إحْدَاهُمَا فَتُذكِّرَ إحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾[2].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ ؛ أي هَرَباً منكم إلى مِدْيَنَ لَمَّا خِفْتُكُمْ على نفسِي أن تقتلُونِي بالذي قتلتهُ، ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ ؛ أي نُبُوَّةً، وَقِيْلَ: فَهماً وعِلماً، ﴿ وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ ﴾ ؛ وإنِّي لأُبَلِّغُكم التوحيدَ والشَّرائعَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢ ﴾ ؛ قال المفسِّرون: هذا إنكارٌ مِن موسى أن يكونَ ما ذكَرَ فرعونُ نعمةً على موسى، واللفظُ لفظ خبرٍ[3] وفيه تبكيتٌ للمخاطَب على معنى: إنَّكَ لو كنتَ لَمْ تقتُلْ بنِي إسرائيل كانت أمِّي مُستَغنِيةً عن قذفِي في اليَمِّ، فكأنَّكَ تَمُنُّ عليَّ بما كان بلاؤُكَ سبباً لهُ. وَقِيْلَ: معناهُ: إنَّ فرعونَ لَمَّا قالَ لِمُوسَى: ألَمْ نُربكَ فِيْنَا وَلِيْداً ؟ قالَ لهُ موسى: تلكَ نِعْمَةٌ تعدُّها عليَّ لأنَّكَ عَبَّدْتَ بَنِي إسرائيلَ؛ أي استعبَدْتَهم، ولو لَم تعبدْهم لكفَلَنِي أهلِي فلم يُلقُونِي في اليَمِّ. يقالُ: استعبدتُ فلاناً وأعْبَدْتُهُ وَتَعَبَّدْتُهُ وَعَبَّدْتُهُ؛ أي اتَّخَذْتُهُ عَبداً.

وَقِيْلَ: معنَى الآيةِ: أتَمُنُّ عليَّ بذلكَ وأنتَ استعبدتَ بني إسرائيلَ، فأبطلْتَ نعمتَكَ عليَّ بإسَاءتِكَ إليهم باستعبادِكَ إيَّاهم؟ وبأنْ أخَذْتَ أموالَهم وأنفقتَ على موسى منها؟ وكانت أمِّي هي التي تربيني ، فأيُّ نعمةٍ لكَ عليَّ.

---

(١) يوسف / ٩٥ . (٢) البقرة / ٢٨٢ .

(٣) في المخطوط: (تخيير) وهو غير مناسب، وضبط كما في معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤ ص٦٧.

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَنْ عَبَّدْتَ) فِي موضعِها وجهان؛ أحدُهما: النصبُ بنَزعِ الخافضِ، والثانِي: الرفعُ على البدلِ مِن (نِعْمَتِي)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾؛ أي قالَ له فرعونُ: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِيْنَ ؟ أي قالَ له فرعونُ: أيُّ شَيْءٍ رَبُّ العالَمين الذي تدعُونِي إليهِ، ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ بأنَّ المستحِقَّ للربوبيَّة مَن يكون هذه صفتهُ، وأنَّ هذه الأشياءَ التي ذكرتُ ليست مِن فِعْلِكم.

فلما قالَ موسى ذلك تَحيَّرَ فرعونُ ولَم يَرُدَّ جَواباً ينقضُ به هذا القولَ. ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ مقالةَ موسَى؟! وَ﴿ قَالَ ﴾ موسَى: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ بَيَّنَ أنَّ المستحقَّ للربوبيةِ مَن هو ربُّ أهلِ كلِّ عصرٍ وزمانٍ؛ أي الذي خَلَقَ آباءَكم الأوَّلين، وخلقَكم من آبائِكم.

فلم يَقْدِرْ فرعونُ على جوابهِ، فـ﴿ قَالَ ﴾ فرعونُ لجلسائهِ: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾؛ أي ما هذا بكلامٍ صحيحٍ إذ يزعمُ أن لَهُ إلَهاً غَيْرِي.

فلم يَشْتَغِلْ موسَى بالجوابِ عن ما نَسَبَهُ إليه من الجنون، ولكن اشتغلَ بتأكيدِ الْحُجَّةِ والزِّيادةِ، ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ توحيدَ اللهِ، فإن كنتم ذوي عقولٍ لَمْ يَخْفَ عليكم ما أقولُ.

فلم يُجِبْهُ فرعونُ بشيءٍ ينقضُ حجَّتَه، بل هدَّدَهُ و﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ أي لأَحْبسَنَّكَ مع مَن حبستهُ في السِّجنِ. ظَنَّ بجهلِهِ أن يخافَهُ ويتركَ عبادةَ اللهِ ويتخذَ فرعونَ إلَهاً. وكان سجنُ فرعونَ أشدُّ من القتلِ؛ لأنه كان إذا حَبَسَ الرجلَ طَرَحَهُ في مكانٍ وحدَهُ لا يسمعُ فيه شيئاً، ولا يُبْصرُ فيه شيئاً، وكان يُهْوَي به في الأرضِ. و﴿ قَالَ ﴾ موسَى لفرعونَ حين توعَّدَهُ بالسِّجنِ: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾؛ يعني لو جِئْتُكَ بأمرٍ ظاهرٍ تعرفُ فيه صِدْقِي وكَذِبَكَ. و﴿ قَالَ ﴾؛ فرعونُ على وجهِ التهزئةِ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: ج٢ ص٢٧٩. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٢١.

﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾. ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي حَيَّةٌ صفراءُ، ذكرٌ عظيمٌ أعظمُ ما يكون من الحيَّاتِ، قال فرعونُ: فَهَلْ غَيْرُ هَذِهِ؟! ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ ؛ مِن جيبهِ، ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ ﴾ ؛ بياضاً نُورياً لَها شعاعُ الشَّـمسِ، ﴿ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فإنْ قِيلَ: كيف سَمَّى العصا ثُعباناً في هذه الآيةِ، وسَماها جَانـاً في آيـةٍ أخـرَى حيثُ قال ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾(١) والجانُّ الخفيفةُ؟ قُلْنَا: إنَّمـا سَـمَّاها ثُعبانـاً لعِظَـمِ حسِّـها، وسَمَّاها جَانَّاً لسُرعَةِ مِشْيَتِهِ وحركتهِ، وفي ذلك ما يدلُّ على عِظَمِ الآيةِ.

فلم يكن لفرعونَ دفـعٌ لِمَـا شـاهدَ إلاَّ أنْ(٢) قـالَ: هَـذا ((سِـحْرٌ)) سَـحَرْتُمُوهُ، فأوهَمَ أصحابَهُ أنه لا صِحَّةَ لهُ، وذلك قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (وكَانَ الْمَلأُ حَوْلَهُ خَمْسُمِائَةٍ مِـنْ أشْـرافِ قَوْمِـهِ، عَلَيْهِمُ الأَسْوِرَةُ) فَقَالَ لَهُمْ: إنَّ هَذا لَساحِرٌ حَـاذِقٌ بالسِّـحْرِ، ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم ﴾ ؛ يُلقِي الفرقـةَ والعـداوة بينكـم فيُخرجَكـم مـن بلادكـم، ﴿ بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؛ أي ماذا تُشِيرُونَ عَلَيَّ في أمرهِ، ولو تفكَّرَ هؤلاء الْجُـهَّالُ في قولهِ ذلكَ لعَلِمُوا أنه ليس بإلهٍ لافتقـارهِ إلى رأيـهم، ولكنَّـهم لفَـرْطِ جهلِـهم مَـوَّهَ عَلَيْهِمْ.

قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ قَـالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ ؛ أي قال له الملأ: أخِّرْ أمرَهُ وأمرَ أخيهِ لا يُناظِرُهما إلى أن يبعثَ إلى المدائنِ الشُّرَطَ يحشرونَ السَّحرةَ، ليصنعَ السَّحرةُ مثلَ ما صنعَ موسى، ولا يثبتُ له عليكَ حجَّةٌ.

قَوْلُهُ تعَـالَى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ؛ أي لِميعـاد يوم زِينَتِهِمْ وهو يومُ عيدِهم، ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ؛ اجتَمِعُوا لتَنْظُـرُوا إلى السَّـحرةِ، ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ ﴾ ؛ أي نتَّبـعُ دِينَـهم، ﴿ إِن كَانُواْ هُمُ

(١) القصص / ٣١ .
(٢) في المخطوط: (الآن).

﴿ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾؛ لِمُوسَى، ويقالُ: أرادُوا بالسَّحرةِ موسى وهارون (إنْ كَانُوا هُـمُ الْغَالِبِيْنَ) على سِحْرِهم.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾؛ أي جُعْـلاً، ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١﴾؛ لِمُوسَـى. ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾؛ مـع مـا أعطيتُكم من الأموال، ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾؛ في المرتبةِ والمنْزلة وللدخُـولِ عَلَيَّ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣﴾؛ أي اطْرَحُـوا من أيديكم ما تريدونَ طَرْحَهُ من الحبال والعصيِّ، وهـذا أمرُ تَـهديدٍ لا أمرُ تحقيـق، ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي بمَنعَتِـــــهِ، ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾؛ لِمُوسَى، فامتلأَ الوادِي حيَّاتٍ، فهابَهُ ذلكَ، فقيلَ لِمُوسَى: ألْـق عصاكَ، ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾؛ فألقاها فصارَتْ حيَّةً عظيمةً تَلْقَفُ ما صَنَعُوا من السِّحرِ، ثُم أخذها موسى فعادت عَصًا كمـا كـانت، ولو لَم يوجد لِمَا تلقفُهُ أثرٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦﴾؛ فسجدَتِ السَّحرةُ عنـدَ ذلك للهِ تعالى لِمَا عَلِمُوا أن ذلك ليس بسِـحْرٍ، وإنَّمـا هـو مـن عنـدِ الله، و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾؛ قال لَهم فرعونُ: إيَّايَ تَعْنُونَ ؟ قالُوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي صدَّقتُـم بـه قبْـلَ أنْ آمُرَكـم بذلـك، ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩﴾، وكـان فرعـونُ أوَّلَ مـــن قطـعَ وصلَبَ. قال ابنُ عبَّاس: (إنَّهُمْ مِنْ سُرْعَةِ سُجُودِهِمْ للهِ كَأَنَّهُمْ ألْقُوا).

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾؛ أي قـالَتِ السَّحرةُ: لا يضرُّنا ما تصنعُ بنا في الدُّنيا في جَنْب ثواب الله في الآخرةِ، إنَّا إذا رجعْنـا إلى ربنا مؤمنينَ لنأخذ حقَّنا من الظـالِم، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾؛ شِرْكَنا أي يتجاوزُ تأخُّرَنا، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾؛ أي بـأن كُنَّـا أوَّلَ المؤمنينَ لِمُوسَى مِن أهلِ الجمع اليومَ، فكانوا سحرةً في أوَّل النهار شُهَداءَ في آخرهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ ﴾ ؛ أي بِبَني إسرائيلَ ليلاً، ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، وأخبرْهم أنَّ فرعونَ وقومه يتَّبعونَهم ويُنجِيهم اللهُ من ضرَرهم، فأسْرَى بهم مُوسى ليلاً إلى البحرِ، ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ؛ يحشرونَ النَّاسَ ويجمعون لَهُ الناس الجيشَ، ثُم قال فرعونُ لقومهِ: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ ؛ يعني مُوسَى وأصحابه، والشِّرْذِمَةُ: الْفِئَةُ الْقَلِيْلَةُ، والشِّرْذِمَةُ في كلام العرب: القليلُ مِن كلِّ شيءٍ من الناسِ والأموالِ.

رُوي أنَّ هؤلاء الذين اشغَلَهم فرعونُ يومئذٍ سِتُّمائةِ ألفٍ وسبعون ألفاً، وكَانَ هَامَانُ على مقدِّمةِ فرعونَ ومعه ألْفَا ألفٍ، وفرعونُ في أكثرِ مِن خَمسة عشرَ ألفِ ألفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ؛ أي لفَاعِلُونَ ما يُغِيْظُنَا لإظهارهم خلافَ دِيننا، وأخْذهم حُلِيَّنا وقَتْلِهم أبكارَنا. وذلك أنَّ اللهَ تعالى أوحَى إلى موسى أن اجْمَعْ أولادَ بَنِي إسرائيلَ كلُّ أهلِ أربعةِ أبياتٍ في بيت، ثُم اذْبَحُوا الأولادَ واضْربُوا بدمائِها على أبوابكم، فإنِّي سَآمُرُ الملائكةَ لا يدخلون بَيتاً على بابهِ دَمٌ، وسَآمُرُهم بقتلِ أبكار آل فرعونَ، ثُم أسْرِ بعِبَادِي، ففعلَ ذلكَ، فلمَّا أصبَحُوا، قَالَ فرعونُ: هذا عملُ موسَى وقومِهِ، قَتَلُوا أبكارَنا وأخذُوا أموالَنا، فأخذ في طلبهم. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ؛ قرأ الكوفيُّون وابنُ عامر (حَاذِرُونَ) بالألفِ؛ أي شَاكُونَ في السِّلاحِ، ذوُو أداةٍ وقوَّةٍ وكِرَاعٍ، وبَنُوا اسرائيلَ لا سلاحَ لَهم. وقرأ الباقون (حَذِرُونَ) أي مُسْتَقْطُونَ خائفونَ شرَّهُم[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ ﴾ ؛ يعني فرعونَ وقومَهُ مِن بساتينَ وعُيونٍ جارية، ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ ؛ أي وخزائنَ مدَّخَرة من الذهبِ والفضَّةِ، ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ ؛ أي مجالسَ رفيعةٍ مِن مجالسِ الملوكِ والرؤساء،

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧١؛ قال الزجاج: (وجاء في التفسير أن معنى ﴿حَاذِرُونَ﴾: مُؤْدُونَ، أي ذوُو أداةٍ، أيْ ذوُو سِلاحٍ، والسلاحُ أداةُ الحربِ، فالحَاذِرُ المستعِدُّ. والحَذِرُ المتيَقِّظُ). وينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٢١.

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ ؛ فعلنا بهم، ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾ ؛ وأورثنا أرضَهم وديارَهم وأموالهم، ﴿ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الله ردَّ بني إسرائيلَ إلى مِصْرَ بعدما أغرقَ فرعونُ وقومه، وأعطاهم جميعَ ما كان لفرعونَ من الأموالِ والعَقَار والمساكنِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ؛ يعني قومَ فرعون أدركُوا موسى وقومه حينَ أشْرَقَتِ الشمسُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ؛ أي فلمَّا تَوافَى الفريقان، وتقابَلاَ بحيثُ يرى كلُّ فريقٍ صاحبه، وعايَنَ بعضُهم بعضاً، قال أصحابُ موسَى: سَيُدْرِكُنَا قومُ فرعونَ، ولا طاقةَ لنا بهم! ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى: ﴿ كَلَّآ ﴾ ؛ أي لن يُدْرِكْنَا، ارتَدِعُوا وانزَجِرُوا عن هذه المقالةِ، ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى ﴾ ؛ ناصِري وحَافِظِي، ﴿ سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ ؛ إلى طريقِ النَّجاةِ منهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ ﴾ ؛ فصارَ اثنا عَشَرَ طريقاً، لكلِّ سِبْطٍ طريقٌ، ووقفَ الماءُ لا يجري، وكان بين كلِّ طريقين قطعةٌ من الماءِ، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛ كالجبلِ العظيمِ، وهذا البحرُ بحرُ القُلْزَمِ، تسلكُ الناسُ فيه من اليمنِ ومكَّة إلى مصرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ؛ يعني قومَ فرعون؛ أي قرَّبناهم إلى الهلاكِ، وقذفْنَاهم في البحرِ، وأدْنَيْنَا بعضَهم من بعضٍ، وجمعنَاهُم فيه بما يسرُّنا لبنِي إسرائيل من سُلوكِ البحرِ، فكان ذلك سببُ قُرْبِهِمْ من البحرِ حين اقتحموهُ. وسُمِّي (الْمُزْدَلِفَةُ) مزدلفةً لاجتماعِ الناسِ فيها[١]، فلمَّا تكاملَ جنودُ فرعونَ في البحرِ انطبقَ عليهم فغرقُوا جميعاً، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ؛ مِن الغرقِ، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ ؛ أي فرعونَ وقومه.

---

(١) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٢؛ قال الزجَّاجُ: (وقال أبو عبيدة: ﴿أَزْلَفْنَا﴾: جَمَعْنَا ﴿ثَمَّ الآخَرِينَ﴾، قال: ومن ذلك سُمِّيت مزدلفةُ جَمْعاً).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ﴾ ؛ أي إنَّ في ذلك الانفِلاَقِ الذي صارَ نجاةَ بني اسرائيل، وفي الانطباق الذي كان سببَ غرَقِ آل فرعونَ لآيةً على توحيدِ اللهِ وصدق نبوَّة موسى، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لم يكن قومُ فرعونَ مع وُضُوحِ الأدلةِ على وحدانيَّة اللهِ مصدقين، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ؛ أي القاهرُ المنتقم من الكفَّار، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ ، بعبادهِ، ولم يكن آمَنَ مِن أهلِ مصر غيرُ آسيَةَ بنت مُزاحم، وحِزقيل الْمُؤمِنُ، ومريَمُ بنتُ ناموثيةَ التي دَلَّتْ على عظامِ يُوسُفَ[١]، فلذلكَ قال (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ). وَقِيْلَ: معنى قوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أي العزيزُ في انتقامهِ من أعدائه حين أغرقَهم، الرَّحِيْمُ بالمؤمنينَ حين أنْجَاهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ؛ أي إقرأ يا مُحَمَّدُ على قومِك، ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ؛ أي فنُقيمُ عليها عابدينَ، مُقيمين على عبادتِها، قال بعضُ العلماءِ: إنَّما (فَنَظَلُّ لَهَا) لأنَّهم كانوا يعبدونَها بالنَّهار دون الليلِ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ؛ أي هَلْ يسمعون دُعاءَكم إن دعوتُموهم أو ينفعُونكم إن دعوتُموهم، أو يضرُّونكم إن لَم تدعوهم. وقال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أوْ يَرْزُقُونَكُمْ أوْ يَكْشِفُونَ عَنْكُمُ الضُّرَّ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ؛ فنحنُ نقْتَدِي بهم، ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ؛ أي قال لَهم إبراهيمُ: أفَرَأيْتُمْ هذا الذي تعبدونَهُ أنتم وآباؤُكم الْمُتَقدِّمُونَ، ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ؛ أي فإنَّني أعاديهم، أتبرَّأ منهم. وقولُهُ تعالى: (إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ). رُوي أنَّهم كانوا يعبدونَ اللهَ مع الأصنامِ، فتَبَرَّأ إبراهيمُ مِن جميعِ ما يعبدونَهُ إلاَّ من عبادةِ الله. وإنَّما قال (عَدُوٌّ لِي) على التوحيدِ في موضعِ الجمعِ على معنى: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم عَدُوٌّ لِي.

---

(١) ذكره مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٥٣.

ويقالُ: إنَّ قولَهُ تعالى (عَدُوٌّ) في موضعِ المصدر، كأنَّهُ قالَ ذوُو عداوةٍ، فوقعت الصفةُ موقعَ المصدر، كما يقعُ المصدرُ موقعَ الصفةِ في رَجُلٍ عَـدْلٍ، ويجوزُ أن يكـونَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ) استثناءٌ منقطعٌ، معناهُ: ولَكنَّ ربَّ العالَمين الذي خَلَقَنِي ليس بعدُوٍّ لِي هو يهدين؛ أي يُرشِدنِي إلى الحقِّ، وذلك أنَّهم كانوا يزعمُونَ أن أصنامَهم هي التي تهديهم، فقالَ إبراهيمُ ردّاً عليهم: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾؛ إلى الدِّين والرُّشدِ لا ما تعبدون.

وقولهُ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾؛ أي هو رَازقـي، فمِن عنده طَعَامِي فهو الذي يُشبعني إذا جِعْتُ، ويَرْوِيني إذا عطشتُ، ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾؛ أي يُعافِيني من المرض، وذلك أنَّهم كانوا يقولونَ: المرضُ من الزَّمان، والأغذيةُ والشِّفاء من الأطبَّاءِ والأدويةِ، فأخبَرَ إبراهيمُ أنَّ الذي أمْرَضَ هو الذي يُشفِي وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ولَم يقلْ إبراهيمُ فأمْرَضْتَنِي؛ لأنه يقالُ مَرِضْتُ، وإنْ كان المرضُ بخَلْقِ الله وقضائهِ، ولا يقالُ أمْرَضَنِي اللهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾؛ أي هو الذي يُميتُني في الدُّنيا ثُم يُحيِيْنِي في الآخرةِ للبعثِ، ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى ﴾؛ معناهُ: والذي أعلمُ وأرْجُو أن يغفرَ لِي يومَ الحساب. وذكرَهُ بلفظِ الطَّمعِ؛ لأن ذلكَ أقربُ إلى حُسْنِ الأدب. وقال بعضُ المفسِّرين[1]: يَعْنِي الكذباتِ الثلاث، قولُهُ: إنِّي سقيمٌ، وقولُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كبيرُهم هذا، وقولهُ لسارةَ: هي أختِي. وزاد الحسنُ والكلبيُّ قولَهُ أيضاً للكواكب: هَذا رَبي.

قال الزجَّاجُ: (إنَّ الأَنْبِيَاءَ بَشَرٌ[2] يَجُوزُ أنْ تَقَعَ مِنْهُمُ الْخَطِيئَةُ، إلاَّ أنَّهُمْ لاَ تَكُونُ مِنْهُمُ الْكَبِيْرَةُ؛ لأنَّهُمْ مَعْصُومُونَ)[3]. قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾؛ أي يومَ الجزاء والحساب.

---

(١) هو مجاهد كما في جامع البيان: الأثر (٧٠٢٥٧).

(٢) في المخطوط: إن الأنبياء ليس يجوز أن...) والصحيح كما أثبتناه، (إن الأنبياء بشر يجوز أن...)، وكما هو في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١١٢، وبه يستقيم المعنى.

(٣) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٢-٧٣؛ قال الزجاج: (ومعنى خطيئتي: أن الأنبياء بشرٌ، وقد يجوز عليهم الخطيئة، إلا أنهم صلوات الله عليهم لا تكون منهم كبيرة؛ لأنهم معصومون).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ ؛ يريدُ به النبوَّةَ بعد نُبوَّةٍ، وإنَّما أرادَ: زدْنِي عِلْماً إلى علمٍ وفِقْهاً إلى فقهٍ، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣)﴾ ؛ أي بالنبيِّين مِن قَبْلِي في الدرجة والمنْزلة والثواب. والصلاحُ هو الاستقامةُ على ما أمَرَ اللهُ بهِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)﴾ ؛ أرادَ به الثناءَ الحسَنَ؛ أي اجعَلْ لِي ثناءً حسناً في الدِّين يكونُ بعدي إلى يومِ القيامة. وقد استجابَ اللهُ دعاءَهُ حين أحبَّهُ أهلُ الأديان كلُّهم. وَقِيْلَ: واجعَلْ لِي في ذرِّيتي مَن يقومُ بالحقِّ ويدعو إليه، وهو مُحَمَّدٌ ﷺ ومَن اتَّبعَهُ، فإنَّهم هم الذين أظْهَرُوا شرائعه وفضائلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)﴾ ؛ أي أدخِلْنِي الجنَّةَ واجعلني مِن الذين يَرِثُونَ الفردوسَ، ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)﴾ ؛ أي مِن المشركين، وإنَّما دَعَا إبراهيمُ لأبيه لِمَوْعِدَةٍ وعَدَها إياهُ، فلما تَبيَّنَ له أنه عدوٌّ لله تَبرَّأ منهُ، وكان هذا الدعاءُ قَبْلَ أن يَتبرَّأ منهُ. والضَّالُّ هو الذاهبُ عن طريقِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)﴾ ؛ أي لا تَفْضَحْنِي ولا تُهْتِكْ سَتْرِي يومَ القيامةِ، يوم تبعثُ الخلقَ. وَقِيْلَ: معناهُ: ولا تعذِّبْنِي يومَ تبعثُ الخلائقَ، وإنَّما قال ذلكَ مع علمهِ أنه لا يخزيهِ، إمَّا على طريق التَّعبُّدِ وإما حَثّاً لغيرهِ على أن يقتدي بهِ في مِثْلِ هذا الدُّعاء.

ثُم فَسَّرَ ذلكَ اليوم؛ فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨)﴾ ؛ أي لا ينفعُ ذا المالِ مالهُ الذي كان في الدُّنيا، ولا ينفعهُ بَنُوهُ ولا يواسُونَهُ بشيءٍ مِن طاعتِهم، ولا يحملونَ شيئاً من معاصيهِ، وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ ؛ يعني من الشِّرْكِ والنفاق، فإنه ينفعهُ سلامةُ قلبهِ. وَقِيْلَ: القلبُ السَّليمُ هو الصحيحُ وهو قلبُ المؤمنِ، وقلبُ الكافرِ المنافقِ مريضٌ.

وقال أهلُ الْمَعَانِي في تفسيرِ هذه الآياتِ أقوالاً غيرُ هذه، فقال بعضُهم: معنى (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِيْن) أي الذي خلقَنِي في الدُّنيا على فطرتهِ فهو يهدينِ في الآخرة إلى جنَّتِهِ، وقولهُ تعالى (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيْنِ) أي يُطعِمُنِي أيَّ طعامٍ شاءَ، ويسقيني أيَّ شرابٍ شاءَ.

قال محمَّدُ بن كثير: (صَحِبْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ بمَكَّةَ، فكَانَ يَأكُلُ مِنَ السَّبْتِ إلَى السَّبْتِ كفّاً مِنَ الرَّمْلِ)[(١)]. وعن الحجَّاج بن عبدِالكريم قالَ:(خَرَجْتُ مِنْ بَلَخَ فِي طَلَبِ إبْرَاهِيمَ بْنَ أدْهَم فَوَجَدْتُهُ بحِمْصَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَلَبثْتُ مَعَهُ يَوْمِي ذلِكَ، فَقَالَ: لَعَلَّ نَفْسَكَ تُنَازعُكَ إلَى شَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَأخَذ رَمَاداً وَتُرَاباً وَخَلَطَهُمَا وَأعْطَانِيهِ فَأكَلْتُهُ، ثُمَّ أقْبَلَ عَلَيَّ وَأنْشَأ يَقُولُ:

اخْلِطِ التُّرَابَ بالرَّمَادِ وَكُلْهُ ... وَازْجُرِ النَّفْسَ عَنْ مَقَامِ السُّؤَالِ

وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: (مَعْنَى يُطْعِمُنِي بلاَ طَعَامٍ، وَيَسْقِيْنِي بلاَ شَرَابٍ) يُشْبعُنِي رَبي وَيَرْوِيْنِي مِنْ غَيْرِ علاقة، كَمَا قَالَ ﷺ: [إنِّي أبيْتُ يُطْعِمُنِي رَبي وَيَسْقِيْنِي][(٢)]. وقال عليُّ بن قادم: (كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ أبي نُعَيْمٍ لاَ يَأكُلُ فِي شَهْرٍ إلاَّ مَرَّةً! فَبَلَغَ ذلِكَ الْحَجَّاجَ، فَدَعَاهُ فَأدْخَلَهُ بَيْتاً وَأغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ خَمْسَةَ عشَرَ يَوْماً، ثُمَّ فَتَحَهُ، وَلَمْ يَشُكَّ أنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَوَجَدَهُ قَائِماً يُصَلِّي، فَقَالَ: يَا فَاسِقُ أتُصَلِّي بغَيْرِ وُضُوءٍ؟! فَقَالَ: يَا حَجَّاجُ؛ إنَّمَا يَأكُلُ الطَّعَامَ مَنْ يُخرجُ[(٣)] وَيَشْرَبُ، فَأنَا عَلَى الطَّهَارَةِ الَّتِي أدْخَلْتَنِي عَلَيْهَا هَذا الْبَيْتَ)، وقال ذُو النُّونُ: (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيْنِ) أيْ يُطْعِمُنِي طَعَامَ الْمَعْرفَةِ، وَيَسْقِيْنِي شَرَابَ الْمَحَبَّةِ. ثُمَّ أنْشَأ يَقُولُ:

شَرَابُ الْمَحَبَّةِ خَيْرُ شَرَاب ... وَكُلُّ شَرَابٍ سِوَاهُ سَرَابُ

وقال أبو يزيدِ البُسطَامِيُّ: (إنَّ للهِ شَرَاباً يُقَالُ لَهُ شَرَابَ الْمَحَبَّةِ، إدَّخَرَهُ لأفَاضِلِ عِبَادِهِ، فَإذا وَصَلُواْ اتَّصَلُواْ، فَهُمْ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مُقْتَدِرٍ). وقال الْجُنَيْدُ: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاةً إلاَّ مَنْ لَبسَ لِبَاسَ التَّقْوَى، وَجِيَاعاً إلاَّ مَنْ أكَلَ طَعَامَ الْمَعْرفَةِ، وَعَطَاشَى إلاَّ مَنْ شَرِبَ شَرَابَ الْمَحَبَّةِ). وقولهُ تعالى (وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ

---

(١) ذكره الثعلبي في التفسير:ج٧ ص١٦٧، وهو محمد بن كثير العبدي. ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب: الرقم (٦٥٠٤) مات سنة (١٢٣) وثقه البخاري وأحمد وغيره.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الصوم: الحديث (١٩٦٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الصوم: الحديث (٥٨/ ١١٠٣).

(٣) في المخطوط ذكر كلمة "يأكل" والصحيح ما أثبتناه لضرورة السياق.

يَشْفِين) قال جعفرُ الصَّادِقُ: (إنِّي إذا مَرِضْتُ بالذُّنوب فَهُوَ يَشْفِيْنِي بالتَّوْبَةِ). وقال بسطامُ بن عبدِالله: (إذا أمْرَضَتْنِي مُقاساةُ الْخَلْقِ شَفَانِي بذِكْرِهِ وَالأُنْسِ بِهِ)[1].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين)، قال أهلُ المعرفةِ: يُميتُني بالعدلِ ويُحييني بالفضلِ، يُميتُني بالمعصيةِ ويُحييني بالطاعةِ، يُميتُني بالفراقِ ويُحييني بالتَّلاقِ، يُميتُني بالجهلِ ويُحييني بالعقلِ، يُميتُني بالخذلان ويُحييني بالتوفيق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ ؛ أي قَرُبَتْ وأُدنيتُ لَهم حتى نَظَرُوا إليها، ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ؛ أي أُظْهِرَتْ وكُشِفَتْ للضَّالين عن الْهُدَى، ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ ؛ للضَّالِّين في ذلك اليوم على وجه التَّوبيخ: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ؛أي أينَ آلِهتُكم التي تعبدونَها مِن دون اللهِ؟ هل يدفعونَ العذابَ عنكم، ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ ﴾ ؛ هل ﴿ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ ؛ لأنفسِهم؛ أي يدفعونَ عن أنفسِهم.

ثُم يُؤْمَرُ بهم فيُلْقَوْنَ في النار، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾ ؛ وقال الزجَّاجُ: (طُرِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)[2]، وقال ابنُ قتيبةَ: (أُلْقُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ)، وقال مقاتلُ: (قُذِفُوا فِيْهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)[3]، قال السديُّ: (يَعْنِي الآلِهَةَ وَالْمُشْرِكِيْنَ)[4]، وقال عطاءُ: (هُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَجُنُودُ إبْلِيْسَ أجْمَعُونَ، يَعْنِي ذُرِّيَّةَ إبْلِيْسَ كُلَّهُمْ).

وَقِيْلَ: معنى (كُبْكِبُوا): أُجْمِعُوا وهم كُفَّارُ مكَّة، وكفارُ الجنِّ والإنسِ وآلِهتُهم وذريَّةُ إبليسَ حتى صَارُوا كُبَّةً واحدةً وطُرِحُوا في النار.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ؛ أي في النار مع آلِهتهم ورُؤسائِهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ ؛ وقولُه

---

(١) كل هذه الآثار عن الزهاد والصالحين نقلها أيضاً الثعلبي في التفسير: ج ٧ ص١٦٧-١٦٨.
(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٣.
(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٥٦.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٥٧٤٨).

تعالى: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ ؛ أي تَاللهِ ما كُنَّا إلاَّ فِي ضَلالٍ مُبين حيثُ سوَّيْنَاكُمْ بربِّ العالَمين، فأعْظَمْنَاكُمْ وعَبَدْنَاكم وعَدَلْنَاكم به، يُقِرُّونَ على أنفسهم بالخطأ. ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ ﴾ ؛ عنِ الْهُدَى، ﴿ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ ؛ يعني الشَّياطينَ. وَقِيْلَ: أضلُّونا الذين اقْتَدَيْنَا بهم، ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ ؛ يشفعُ لنا مِن الملائكةِ والنبيِّين والمؤمنينَ حين يَشْفَعُونَ لأهلِ التوحيدِ، ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ؛ أي ولا ذِي قرابةٍ يهمُّهُ أمرُنا. والْحَمِيْمُ: القريبُ الذي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ.

قال ابنُ عبَّاس: (إنَّ الْمُؤْمِنَ يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِ الْمُذْنِبِ وَالصَّدِيْقِ الصَّاحِبِ الَّذِي يَصْدُقُ فِي الْمَوَدَّةِ). وفي الحديثِ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: [إنَّ الرَّجُلَ يَقُولُ فِي الْجَنَّةِ: مَا فَعَلَ صَدِيْقِي فُلاَنٌ؟ وَصَدِيْقُهُ فِي النَّارِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أخْرِجُواْ لَهُ صَدِيْقَهُ إلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ مَنْ بَقِيَ: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِيْنَ، وَلاَ صَدِيْقٍ حَمِيْمٍ][1].

ثُم قالوا: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ ؛ أي رَجْعَةً إلى الدُّنيا، ﴿ فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ ؛ المصدِّقين بالتوحيدِ ليحِلَّ لنا الشفاعة كما حلَّتْ لأهلِ التوحيدِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ ؛ أي فيما أخبرَ من قصَّة إبراهيمَ واختصام أهلِ النَّار، وتَبَرُّؤُ بعضِهم من بعضٍ لَعِبْرَةً للعُقلاءِ مِن بعدِهم، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ ؛ أي الغالبُ على تعجيلِ الانتقامِ بالإمهالِ إلى أن يُؤمِنوا، والْمُنْعِمُ عليهم بعدَ التوبةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ ؛ قال الزجَّاجُ: (دَخَلَتِ التَّاءُ هَا هُنَا، وَ(قَوْمُ) مُذكَّرٌ؛ لأنَّ الْمُرَادَ الْجَمَاعَةُ)[2] أي كذبَتْ جماعةٌ قومُ نوحٍ ومَن قبلَهُ من الرُّسلِ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ ؛ عذابَ اللهِ

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٤٢. وفي الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١١٨، وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص١٧٢، عن جابر بن عبدالله.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٣؛ قال الزجاج: معناه: (دخلَت التاءُ، وقومُ نوح مذكَّرون؛ لأن المعنى كذَّبت جماعةُ قومِ نوحٍ).

بتوحيده وطاعتهِ، وكان أخوهُم من النَّسب لا من جهةِ الدِّين، ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ ؛ على الرِّسالةِ فيما بَيني وبين ربكم.

وَقِيْلَ: معناهُ: كنتُ أميناً فيكم قبلَ اليوم، فكيفَ تتَّهمُوني اليومَ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ؛ فيما أمَركم به، ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ ؛ فيما أدعُوكم إليه وأطيعوني فيما أمُركم به من الإيمان والتوحيد. ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي على الدُّعاء إلى التَّوحيد، ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ؛ مَا، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: ما أسألُكم على تبليغِ الوحي والرِّسالةِ مَالاً فيصدُّكم عن القَبول منِّي، وتعتقدون فِيَّ الطمعَ. وقولهُ تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقوا عقابَ اللهِ، وأطِيعُوا أمْري، وتكريرُ (فَاتَّقُوا اللهَ): لأنَّ الأول (اتَّقُوا اللهَ وَأطِيْعُونِ) لأنِّي رسولُ رب العالَمين أمينٌ، والثاني (اتَّقُوا اللهَ وَأطِيْعُونِ) لأنِّي مَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ.

فـ ﴿ قَالُوا ﴾ لـه: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ ؛ أي أنُقِرُّ بكَ ونصدِّقُكَ وقد اتَّبعَكَ سَفلَتُنَا وهم الأرْذلُونَ الأقلُّونَ، وكان قد آمَنَ بنوحٍ ضُعفاءُ قومهِ وبنُوهُ، وكان أكثرُ مَن اتَّبعَهُ يختصُّون بصناعاتٍ خَسِيسَةٍ مثل الْحُوكِ والأسَاكِفَةِ، فلذلك قال لهُ أشرافُ قومهِ: (وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)، ويقرأ: (وَأتْبَاعُكَ الأَرْذَلُونَ) وهي قراءةُ يعقوبَ؛ أي أشْيَاعُكَ وأهلُ دِينِكَ[1]. قال الزجَّاج: (وَالصِّنَاعَاتُ لاَ تَضُرُّ فِي بَابِ الدِّيَانَاتِ)[2]، وقال عطاءُ: (يَعْنُونَ بالأَرْذَلُونَ: الْمَسَاكِيْنَ الَّذِيْنَ لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ ؛ أي قال نوحُ: ما أعلَمُ أعمالَهم وصنائِعَهم، ولَم أكلَّفْ ذلكَ، وإنَّما كُلِّفتُ أن أدعُوَهم، ولا أسألُ عمَّا كانوا يعملونَ، ولا أطلبُ عِلْمَ صنائعِهم، وإنَّما العيبُ في المعاصِي لا في خسَاسَةِ الصِّناعة.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٢٧.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٤.

وقَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ ؛ أي مـا حسَابُهم فيمـا يعملـونَ (إلاَّ عَلَـى رَبـي لَـوْ تَشْـعُرُونَ) لـو تعلَمـون مـا عـاقبتموهم بصنائعِهم. وَقِيْلَ: إنَّهم نَسبُوا قومَهُ الذين آمَنُوا به إلى النِّفاق وإضمـار الكُفْـرِ، فقـالَ: (إِنْ حِسَابُهُمْ إلاَّ عَلَى رَبي) أي ما جزاؤُهم إلاَّ على رَبي (لَوْ تَشْعُرُونَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ؛ أي لا أطْرُدُهُمْ مِن عندي مع إظهارهم الإيْمان بسبب فَقْرهم، وطعنِكُم عليهم. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ ؛ أي ما أنا إلاَّ معكم بموضعِ المخافة لتحذرُوهـا، فمَـن قَبـلَ قُرْبَتَـهُ، ومَن رَدَّ باعدتهُ، ولَم أكلَّفْ عِلْمَ ما في الضمائرِ.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ ﴾ ؛ أي لَئِـنْ لَـمْ تنْتَـهِ عمـا تقـولُ، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ ؛ الْمَقْتُولِيْـنَ بالحجـارةِ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ؛ أي فاقضِ بيننا قضاءً يكون بنجَاتِنا وهلاكِ عدُوِّنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ ؛ في السَّفينةِ المملوءَةِ من النـاسِ والبـهائم والسِّباع والطير، فذلك قوله تعـالى: ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ ؛ أي الـذي قد مُلِئَ مما ذكرنا من جميعِ الحيوان، وقولهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ ؛ أي بعد نَجَاةِ نُوحٍ ومَن معه أغْرَقْنَا الآخرينَ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ ؛ أي في إغْرَاقِ الكافرينَ ونَجَـاةِ المؤمنـين في السَّـفينة لعلامـةً تـدلُّ علـى وحدانيَّـة اللهِ وكمالِ قُدرتِه، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ ؛ أكثرُ قومِ نُـوحٍ، ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ ؛ مع قيامِ الْحُجَّةِ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ ؛ أي القادرُ على أخذِ الأعـداء، الْمُنْتَقِـمُ منهم، ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ ، بالأولياءِ، الْمُنْعِمُ عليهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ؛ التأنيثُ بمعنـى القبيلـةِ، أريـد بعَـادٍ القبيلـةُ، والمعنـى: كذبَـتْ عَـادٌ هـوداً وجَماعـةَ المرسـلينَ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ ؛ في النَّسـبِ: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ ؛ عبـادةَ غـيرِ اللهِ، ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ ﴾ ؛ أرسـلَني اللهُ إليكـم وائتَمنَنِـي علـى الرِّسـالةِ، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ؛ على تبليغِ الرِّسالة، ﴿ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ؛ الرِّيْعُ: هو المكانُ المرتفعُ. قال ابنُ عبَّاس: (مَعْنَاهُ: أتَبْنُونَ بكُلِّ شَرَفٍ)، وقال مقاتلُ والكلبي والضحَّاك: (أتَبْنُونَ بكُلِّ طَرِيْقٍ آيَةً؛ أيْ بُنْيَاناً وَعَلَماً مُتَمَيِّزاً عَنْ سَائِرِ الأَبْنِيَةِ، تَعْبَثُونَ بِمَنْ يَمُرُّ فِي الطَّرِيْقِ).

والمعنى: بكلِّ طريق، بالموضعِ المرتفع بُنياناً لتُشْرِفُوا على المارَّةِ فتَسْخَرُوا منهم، وتعبثُوا بهم. وَقِيْلَ: معنى قولهِ (تَعْبَثُونَ) أي تَبْنُونَ ما تستغْنُون عنهُ ولا تسكنونَهُ عَبَثاً منكم، يسمَّى بناؤُهم عَبَثاً؛ لأنَّهم كانوا يُسْرِفُونَ في البناءِ، فيَبْنُونَ فوقَ الحاجة، ويقصُدون بذلك التفاخرَ والتكاثر، ومن ذلك سُمِّيَ كلُّ لَعِبٍ لا لذة فيه عَبَثاً، والذي يكونُ فيه لَذةٌ لَعِباً. وقال الوالبي عن ابنِ عبَّاس: (بكُلِّ رَيْعٍ؛ أيْ بكُلِّ شَرَفٍ)[1]، وقال قتادةُ والضحَّاك:(بكُلِّ طَرِيْقٍ)[2]، وعن مجاهد: (الرِّيْعُ: الثَّنْيَةُ الصَّغِيْرَةُ)[3]، وَقِيْلَ: المنظرةُ، وقال عكرمة: (بكُلِّ وَادٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (هِيَ الأَبْنِيَةُ)، وقال مجاهدُ: (الْمَصَانِعُ قُصُورٌ مُشَيَّدَةٌ)[4]، وَقِيْلَ: هي الْحُصُونُ. وقال عبدُالرزاق: (الْمَصَانِعُ عِنْدَنَا بلُغَةِ الْيَمَنِ: الْقُصُورُ؛ وَاحِدُتُهَا مَصْنَعَةٌ). وقال الكلبيُّ: (هِيَ الْقُصُورُ وَالْحُصُونُ). وَقِيْلَ: هي الْمَبَانِي التي يصنعُها الناس من البساتينِ وغيرها. وَقِيْلَ: هي مَجَامعُ الماءِ وهي الْحِيَاضُ، وواحدُ المصانع مَصْنَعَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ؛ أي كأنَّكم تَخْلُدُونَ؛ أي سَتَبْقُونَ في بناءِ المصانع، كأنَّهم يخلُدون فيها فلا يموتُون. و(لَعَلَّ) تأتِي في الكلامِ

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٧٩). والشَّرَفُ: المكانُ الْمُشْرِفُ العالِي. ونقله البغوي في معالم التنزيل أيضاً عن الوالبي.

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٨٤).

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٨٢).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٢٩١).

بمعنى (كَأَنَّ) مِن قوله ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي كأنَّكَ قاتلٌ نفسَكَ إن لَم يُؤْمِنُوا. وَقِيْلَ: معناهُ: تتَّخِذُونَ ذلك رجاءَ أن تَخلُدوا وأنتم لا تَخلُدون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ ؛ أي إذا بَطَشْتُمْ بمن دُونكم بَطَشْتُمْ متكبرين ومتجَبرين، ضَرباً بالسَّوط وبالسَّيفِ، تقتلُون على الغَضَب. والمعنى: إذا عَاقَبْتُمْ قَتَلْتُمْ. والبَطْشُ: هو الأخذُ بالشِّدَّةِ، والجَبَّارُ: هو العَالِي بالقُدرةِ، يقالُ: نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ إذا كانت مرتفعةً لا تنالُها الأيدي، وهي صِفَةُ مَدْحِ الله تعالى؛ لأن هذا المعنَى حقيقةٌ فيهِ، وهو صِفَةُ ذمٍّ لغيرِهِ لأنه كَذِبٌ فيهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ ؛ أي اتَّقُوا عذابَ الله بإصرارِكم على ما أنتُم عليه، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ ؛ مِن النِّعمة والخير، ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ ؛ فيه بيانُ بعضِ النِّعم، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ ؛ أي إنِّي أعلمُ أنه سينْزِلُ بكم عذابٌ عظيمٌ إنْ لَم تؤمِنُوا، يريدُ به العذابَ الذي أُهلِكُوا به.

وقولهُ تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ ؛ أي سواءٌ علَينا أوَعظْتَنا أم لَم تعِظْنا فلا نتركُ هذه العبادةَ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ ؛ أي ما هذا الذي تقولُ يا هودُ إلاَّ كَذِبُ الأوَّلين، وهذا قولُ ابن مسعودٍ ومجاهد[1]. والْخَلْقُ والاخْتِلاَقُ هو الكَذِبُ. ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾[2].

قُرِئ (خُلُقُ الأَوَّلِيْنَ) بضمِّ الخاء واللام؛ أي عَادَةُ الأوَّلِيْنَ، والمعنى: ما هذا الذي نَحنُ فيه إلاّ عادةُ الأوَّلين مِن قبلِنا يَعْبُثُونَ ما عاشُوا ثُم يَموتون ولا بَعْثَ ولا حسابَ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ ؛ على ما نفعلُ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٣٠٣).

(٢) العنكبوت / ١٧ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ؛ بالعذاب في الدُّنيا، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ؛ بالرِّيحِ. وقولهُ تعالى (فكَذَبوهُ فأهْلَكْناهُمْ) أي كذبُوا هُوداً بعد وُضُوحِ الْحُجَّةِ فأهْلَكْناهُمْ بريْحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ ؛ أي إنَّ في إهلاكِنا إياهم مع شِدَّةِ قوَّتِهم لآيةً بأضْعَفِ الأشياءِ وهي الريحُ للدلالةِ على وحدانيَّتنا وصدق نبوَّةِ هُودٍ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ ؛ باللهِ، فإنه لَم يُؤْمِنْ منهم إلاّ قليلٌ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ ؛ ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ ؛ أي قالَ لَهم صَالِحُ: أتُتْرَكُونَ في الدُّنيا آمِنين من الموتِ والعذاب تأكلُونَ وتشربون وتَمتَّعون ولا تُكلَّفُونَ. وقولهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾﴾ ؛ أي أتَظنُّونَ أنَّكم تُتركُونَ في بساتين ومياهٍ ظَاهرة، ﴿وَزُرُوعٍ﴾ ، وحُرُوثٍ، ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ ؛ أي ثَمرها نَضِيجٌ مُدرَكٌ ناعِمٌ، والنَّضِيجُ: هو الرَّخْوُ اللَّيِّنُ اللطيفُ البالِغُ، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ﴾ ؛ أي تَنْقُبُونَ في الجبالِ ﴿بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ؛ أي أشِرِيْنَ بَطِرِيْنَ.

وقرأ ابنُ عامر والكوفيُّون: (فَارهِيْنَ) بالألفِ أي حَاذِقِيْنَ بنَحْتِهَا، مأخوذٌ مِن قولِهم: فَرِهَ الرجلُ فَرَاهَةً فهو فَارِهٌ، ويقالُ: الفرِهُ والْفَارِهُ بمعنى واحد. وَقِيْلَ: إنَّ الهاء من قوله (فَرِهِيْنَ) بدلٌ من إلْحَاق الفَرِحِ في كلامِ العربِ: الأشَرُ والبَطَرُ[1]، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[2]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾.

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٢٤. وإعراب القرآن للنحاس: ج ٣ ص١٢٨.
(٢) القصص / ٧٦.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾؛ أي أمر رُؤسَائِكم وكُبرَائِكم الذين يُفرطُونَ في الشِّرك والمعاصي، ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ قال مقاتلُ: (هُمُ التِّسْعَةُ الَّذِيْنَ عَقَرُوا النَّاقَةَ، وَهُمُ الَّذِيْنَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ بالْمَعَاصِي)(١) ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾؛ أي ولا يُطيعون اللهَ فيما أمَرَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾؛ أي قالَ له قومهُ: إنَّما أنتَ مِمَّنْ سُحِرَ مرَّةً بعد مرةٍ، فلا نؤمنُ بكَ. ويقال: الْمُسَحَّرُ هو الْمُعَلَّلُ بالطعامِ والشَّراب، والسِّحْرُ مَجرَى الطعامِ، يقال: انتفخَ سِحْرُهُ؛ أي رئتهُ والمعنى: لستَ بمَلَكٍ، إنَّما أنتَ بشرٌ مثلُنا لا تَفْضُلُنَا في شيءٍ، لستَ بملَكٍ ولا رسولٍ، ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾؛ إنكَ رسولُ اللهِ إلينا.

قال ابنُ عبَّاس: (سَأَلُوهُ أنْ يُخرِجَ لَهُمْ نَاقَةً حَمْرَاءَ عَشْرَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ مَلْسَاءَ، فَتَضَعُ وَنَحْنُ نَنْظُرُ، وَتَرِدُ هَذا الْمَاءَ فَتَشْرَبُ. فَخَرَجَ بِهِمْ إلَى تِلْكَ الصَّخْرَةِ الَّتِي ذكَرُوهَا، ثُمَّ دَعَا اللهَ تَعَالَى فَتَمَخَّضَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ كَمَا تَتَمَخَّضُ الْمَرْأةُ الْحَامِلُ عِنْدَ الْوِلاَدَةِ، فَخَرَجَتْ مِنْهَا نَاقَةٌ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي سَأَلُوهَا لاَ نَظِيرَ لَهَا فِي النُّوقِ، وَكَانَ يَسُدُّ جَنْبَاهَا مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ مِنْ عِظَمِهَا)(٢).

فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم صالحُ: ﴿ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾؛ أي اجْعَلُوا الشِّرْبَ بينها وبينَكم مُنَاوَبَةً، لَها نَوْبَةٌ يوم لا تحضُرون معها، ولكُم نوبةٌ يوم لا تحضرُ معكُم. قال قتادة:(فَكَانَ يَوْمُ شِرْبِهَا تَشْرَبُ مَاءَهُمْ كُلَّهُ أوَّلَ النَّهَار وَلاَ يَبْقَى لَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَتَسْقِيهِمُ اللَّبَنَ حَتَّى تَمْلأَ جَمِيْعَ آنِيَتِهِمْ، فَإذا كَانَ يَوْمَ شِرْبهم كَانَ الْمَاءُ لَهُمْ وَلِمَوَاشِيهِمْ لاَ تُزَاحِمُهُمُ النَّاقَةُ فِيْهِ)(٣). والشِّرْبُ في اللغة: هو النَّصِيبُ مِن الماءِ، والشُّرْبُ بضمِّ الشين المصدرُ، والشَّرْبُ بفتح الشينِ جماعةُ الشُّرَّاب.

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٠.

(٢) ذكره ابن عادل مختصراً في اللباب في علوم الكتاب: ج ١٥ ص٦٦.

(٣) ذكره القرطبي أيضاً في الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣ ص١٣٠.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ ؛ أي تعقِرُوها ولا تؤذُوها، وذرُوها تأكلُ في أرضِ الله، فإنَّكم إنْ تَمسُّوها بسوءٍ، ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ ، فعقرُوهـا واقتسَـمُوا لَحمَهَا، فبلغَ ألْفـاً وثمانمائةِ منْزِل، ثُـم أصبَحُـوا نـادمينَ علـى قَتْلِـهَا، ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ ﴾ ؛ في اليومِ الثالث وهو يومُ السَّبت، صـاحَ بـهم جـبريلُ فمَـاتُوا أجمعـينَ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ ؛ أي في إخراجِ النَّاقة من الصَّخرة، وفي إهلاكِهم بعقْرِهَا علامـةً وعِـبْرَةً لِمـن بعدهـم ولَـم يكـن أكـثرُهم مؤمنينَ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ ؛ إلى قوله تعالى ﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ ، ظاهرُ المعنى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ ﴾ ؛ معناه: أتنكِحُـونَ الذُّكورَ حَراماً في أدبارهم، وتتركون ما أحَلَّ اللهُ لكم من فروجِ نسـائكم، ﴿ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ : أي مُتجاوزُونَ الحدَّ في الظُّلم والحرام.

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ ؛ أي لَئِنْ لَم تَسكُتْ يا لوطُ عن الإنكار علينا وتَقبيحْ أفعالِنا لنُخرجَنَّكَ من أرضِنا.

﴿ قَالَ ﴾ ؛ لـوط: ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ ؛ أي لَمِـن الْمُبْغِضِيْنَ، والقَالِي: هو البَاغِضُ للشَّـيءِ التـاركُ لـه غايـةَ الكَراهَـةِ. قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ ؛ أي خلِّصنـي وأهلِـي مـن عقوبـةِ أعمالِـهم الخبيثـة حتـى لا نراهُـم ولا نـرَى أعمالَـهم الخبيثـةَ، ﴿ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ ؛ أي خلَّصناهُم من العذاب الذي وقعَ بهم، وقولهُ تعالى (فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَهُ) أي نَجَّيناهُ وبناتَهُ.

وقولهُ تعالى: ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ ؛ يعني امرأتَهُ فإنَّها كانت مِن الغابرينَ؛ أي مِن الباقينَ في موضعِ العذاب فهلكَتْ معَهم، وكانت تدلُّ المشركينَ على أضيافهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ ؛ أي أهلكنَاهم بالْخَسْفِ والحصب، وهو أنَّ اللهَ تعالى خَسَفَ بقُراهُمْ، كما رُوي [أنَّ جِبْرِيلَ رَفَعَهُمْ ببلادِهِمْ حَتَّى بَلَغَ بهِمْ إلَى السَّمَاءِ، فَقَلَبَهُمْ وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا][(١)].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ ؛ أي أمطَرْنا على ساكنِهم ومُسافِريهم حجارةً، ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ ؛ أي فبئْسَ مطرُ الذين أُنْذِرُوا فلم يُؤمِنوا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ؛ أي في إهلاكِنا إيَّاهم لدلالةً وعبرةً لِمن بعدَهم، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ ؛ اختلفُوا في الأَيْكَةِ، قال بعضُهم: هو اسمُ مَدْيَنَ، وقال بعضُهم: الأَيْكَةُ اسمٌ لِمدينةٍ أخرى غيرُ مَدْيَنَ، وكان شعيبُ مبعوثاً إلى كلٍّ واحدةٍ من المدينَتين، غير أنَّهُ كان أخَا مَدْيَنَ، ولَم يكن أخا الأَيْكَةِ، فلذلك لَم يقُلْ في هذه الآيةِ: إذْ قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ، وإنَّما قَالَ: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ ؛ وَقِيْلَ: الأَيْكَةُ الغَيْطَةُ ذاتُ الشَّجرِ الكثيفِ، وجَمعُهُ إيكٌ. وَقِيْلَ: الأَيْكُ: شجرُ الدَّومِ وهو الْمُقْلُ، وكان أكثرُ شجرِهم الدَّوم. وتقرأ: لَيْكَةَ، بغير ألف وتفتح.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ؛ أي أتِمُّوا الكيلَ إذا كِلْتُمْ، ولا تكونُوا مِن الذين يَبْخَسُونَ حقوقَ الناسِ في الكَيْلِ والوَزْنِ، ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ ؛ قد تقدَّمَ تفسيرُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ ؛ أي اتَّقُوا اللهَ الذي خلقَكم وخلَقَ (الْجِبلَّةَ الأَوَّلِينَ) أي وخلَقَ الْخَلْقَ الذينَ مِن قبلِكُم، والْجِبلَّةُ بكسرِ الجيم والباء وبضمهما: الْخَلْقُ الْكَثِيرُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: الحديث (١٥٨٩٣).

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ ؛ أي من الْمُخَوَّفِيْنَ مِثلَنا مِمَّـنْ لَـهُ سِـحْرٌ، ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ؛ ومـا أنـتَ إلاّ آدَمِـيٌّ مثلُنـا، ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ ؛ فيما تقولُ.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ أي جَانِبـاً مـن السَّـماءِ، ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ ؛ أنَّكَ مبعوثٌ إلينا، وأنَّ هذا العذابَ نـازلٌ بنا، وهذا اذا قرأتَ (كِسْفاً) بإسكانِ السِّين، وأما إذا فتحتَها فـهو جمـعُ الْكِسْـفَةِ وهـي القطعةُ.

قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ ؛ أي هـو أعلـمُ بعمَلِكم، وبما تستحقُّون مِن العذاب، وبوقتِ الاستحقاق، فيُنْزِلُ بكم العذابَ على ما توجِبُ الحكمةُ ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ؛ أي كذبُـوا شُـعيباً بعـد ظـهورِ الْحُجَّـةِ، ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ ؛ انشأَ اللهُ سـحابةً عليـهم حتـى أظلَّتْـهُم في يـومٍ حرٍّ شـديدٍ، فاجتمَعُوا تحتَها مُستَجِيرينَ بها بما نالَهم من الحرِّ، فأطبقَتْ عليهم وأمطرَتْ عليهم ناراً فأهلَكَتْهم.

قال المفسِّرون: وذلكَ أن اللهَ تعالى كان قـد حَبَـسَ عليـهم الرِّيـحَ سبعةَ أيَّامٍ، وسَلَّطَ عليهم الحرَّ حتـى أخـذ بأنفاسِـهم ولَـم ينفعـهم ظِـلٌّ ولا مـاءٌ، وكـانوا يدخلـون الاسراب ليَبْرَدُوا فيها، فإذا دخَلُوها وجدوها أشَدَّ حَرّاً من الظاهرِ، فدخَلُـوا أجـوافَ السِّرب، فدخَلَ عليهم الحرُّ وأخـذ بأنفاسِـهم، فخرَجُـوا هـاربينَ الى البَرِّيَّـةِ، فبعـثَ اللهُ عليهم سحابةً أظلَّتْهُم من الشَّمسِ فوجدُوا لَها بَـرْداً ونسِـيماً، فنـادَى بعضُـهم بعضـاً حتى اجتمَعُوا كلُّهم تحتَها، فأمطرَتْ عليهم ناراً فاحـترَقُوا، فكـان مِـن أعظـمِ يـومٍ في الدُّنيـا، فذلـكَ قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

والظُّلَّةُ: هي السَّحَابةُ التي أظلَّتْهم. قـال قتـادةُ:(بَعَـثَ اللهُ شُـعَيْباً إلَـى أُمَّتَيْـنِ: أصْحَابُ الأَيْكَةِ وَأهْلُ مِدْيَنَ، فَأَمَّا أصْحَابُ الأَيْكَةِ فَأُهْلِكُوا بالظُّلَّةِ، وَأمَّا أهْـلُ مِدْيَـنَ

فَأُهْلِكُوا بالصَّيْحَةِ، صَاحَ بهِمْ جِبْرِيْلُ فَهَلَكُوا جَمِيْعاً)[١].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ ؛ أي وإنَّ القُرْآنَ لإنْـزَالُ ربِّ العَالَمِيْنَ، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ ؛ قرأ ابنُ كثير ونافعُ وأبو عمرٍو وحفص (نَـزَلَ) بـالتخفيف ورفع الحـاء، يَعنُـونَ نَـزَلَ جـبريلُ بـالقُرآن، وقـرأ الباقون بالتشديدِ والنَّصب؛ أي نَزَّلَ اللهُ جبريلَ بالقُرْآن وهـو أمِيْـنٌ[٢]، قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ ؛ أي نَزَلَ به فأودعَهُ قلبَكَ كي لا تنساهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ ؛ أي مِـن الْمُعْلِمِيْـنَ بموضـعِ الْمَخَافَـةِ، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ ؛ أي لِتُنْذِرَ العربَ بلُغَتِهم فيكونُ ذلـك أقـربَ إلى فَهْمِـهم، وأقطعَ لعُذْرهم.

قَوْلُهُ تَعَـالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ ؛ يعـني أن ذِكْـرَ القُـرْآن مذكورٌ في كُتُب الأوَّلين، ولَم يُرِدْ به غيرَ القُرْآن؛ لأنه تعالى خصَّ مُحَمَّـداً ﷺ بـإنْزَال القُرْآن عليه، فلو كان مَذكُوراً بعينهِ في الكُتُب لَبَطَلَ التخصيصُ، ولكنَّهُ تعـالى ذكـرَ في الكُتُبِ المتقدِّمة أنه سيبعثُ نبيّاً في آخرِ الزمان صِفَتُهُ كذا، وسيُنْزِلُ عليـه كِتَاباً صفتـهُ كذا كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُـمْ فِـي التَّـوْرَاةِ وَالإنجِيـلِ﴾[٣]، وهـذا معنى قولِهُ ﴿إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى. صُحُفِ إبراهيم وموسَـى﴾[٤] أي مذكـورٌ في الصُّحف الأُولى أن الناسَ في الغالب يُؤْثِرُونَ الدُّنيا على الآخرةِ، وأنَّ الآخِرَةَ خَـيْرٌ وأبْقَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ ؛ رُوِيَ أن سببَ نُزولِها أنَّ أهلَ مكَّة بَعثوا إلى أهلِ الكتَاب يَسْتَخْبرُونَهُمْ عن مُحَمَّدٍ ﷺ وعن ما يدَّعِي من الرِّسالةِ وصدقوهم في بَعْثِهِ وصفتهِ، فأخبرَهم أهلُ الكتاب أنَّ ذِكْرَهُ عندَنا وأنه مبعوثٌ فَاتَّبعُوهُ. والمعنى : أوَلَمْ يكن لأهلِ مكَّةَ علامةٌ لنبوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أن يَعْلَمَهُ علماءُ بني إسرائيلَ مثلُ عبدِالله بن سلام وأصحابهِ.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٣٣٦).

(٢) ينظر: الحجة للقراء السبعة: ج ٣ ص٢٢٥-٢٢٦.

(٣) الأعراف / ١٥٧ . (٤) الأعلى / ١٨-١٩ .

قال الزجَّاجُ فِي قِرَاءَةٍ قَرَأ (آيَةً) بالنَّصْب، فَقَوْلُهُ (أَنْ يَعْلَمَهُ) اسْمُ كَـانَ، و(آيَـةً) خَبَرُهُ. ومعناهُ: أولَمْ يكُن لَهم عِلْمُ علماءِ بني إسرائيل أنَّ مُحَمَّـداً نَـبِيٌّ حَـقٌّ، ودلالـةُ نبوَّتهِ[١]. قال عطيةُ:(كَانَ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِيْنَ آمَنُوا خَمْسَةً: عَبْدُاللهِ بْـنُ سَـلاَمٍ؛ وَابْنُ يَامِيْنَ؛ وَثَعْلَبَةُ؛ وَأَسَدُ؛ وَأَسِيْدُ)[٢]، وقرأ ابنُ عامر: (أولَمْ تَكُنْ) بالتاء (آيَةٌ) رفعاً، قال الفراءُ: (جَعَلَ ﴿آيَةٌ﴾ بَعْدَ الاسْمِ و(أنْ يَعْلَمَهُ) خَبَرُ كَانَ)[٣].

قَوْلُـهُ تَعَـالَى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ ؛ أي لـو نزَّلْنـا القُرْآنَ على رُجلٍ أعجمِيٍّ لا يفصحُ، ﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم ﴾ ؛ بغيرِ لُغة العرب ما آمَنُـوا بهِ، وقالوا: مَا نَفْقَهُ هَذا! فذلكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ وفي هذا بيانُ معاندَتِهم. والأعْجَمُ والأعْجَمِـيُّ بمعنـى واحـدٍ؛ وهـو الَّـذي في لسـانهِ عُجْمَةٌ، ومنه العَجْمَاءُ؛ وهي الدَّابةُ. فأما العَجَمِيُّ فهو منسوبٌ إلى العَجَـمِ أفصَـحَ أو لَم يُفْصِحْ.

وعن ابنِ مسعود: أنَّهُ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ وَهُوَ رَاكِبٌ نَاقَتَهُ، فَأَشَـارَ إلَـى نَاقَتِـهِ، فَقَالَ: (هَذِهِ مِنَ الأَعْجَمِيْنَ) كأنه ذهبَ إلى أنَّ معنَى الآيَةِ: أنه لو أنْزَلْنَـا القُـرْآنَ علـى البهائمِ فأنطَقْنَاها بهِ، فقرأتْ عليهم ما آمَنُوا بهِ[٤].

ثُـم ذكـرَ اللهُ سببَ تركِـهم الإيْمَـانَ فقَـال: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ، قال ابنُ عبَّـاس: (مَعْنَـاهُ: سَـلَكْنَا الشِّـرْكَ وَالتَّكْذِيـبَ فِـي

---

(١) بمعناه ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه: ج ٤ ص٧٨، ولفظه: (إذا قُلْتَ (يَكُنْ) فالاختيـار نصب (آيَةً) ويكون (أَنْ يَعْلَمَهُ) اسم كان، ويكون آية خبر كان، المعنى...).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير: النص (١٥٩٥٦) عن عطية العوفي.

(٣) في معاني القرآن: ج ٢ ص٢٨٣؛ قال الفراء: (ولو قُلْتَ: ﴿أَوَلَـمْ تَكُـنْ لَـهُمْ آيَـةٌ﴾ بـالرفع (أَنْ يَعْلَمَهُ) تجعل ﴿أَنْ﴾ في موضعِ نصبٍ لجازَ ذلك).

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر(٢٠٣٥٢) بإسنادين عن قول عبـدالله بـن مطيـع، وليـس عبدالله بن مسعود، ولعله وهمٌ من الناسخ ورقة (٣٥٤). وعبدالله بن مطيع من رهط عمـر بـن الخطاب، كان اسم أبيه العاص وسماه رسول الله ﷺ مطيعاً.

قُلُوب الْمُجْرِمِيْنَ إذا قَرَأهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدُ ﷺ). قال مقاتلُ: (يَعْنِـي مُشْـرِكِي مَكَّـةَ)[١]، أخبرَ اللهُ تعالى أنه أدخلَ الشِّركَ في قلوبهم، فلم يُؤمِنُوا إلاّ عندَ نزُول العذاب حتى لَم ينفعْهُم، وهـو قوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ ؛ يعـني عنـد المـوتِ، ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ ؛ بـهِ في الدُّنيـا فيَتَمنَّوا الرجعةَ والنَّظِرَةَ. قوْلُهُ تَعالَى: ﴿ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ ؛ فنُؤْمنُ ونصدِّقُ.

فلمَّا أوعَدَهم النبيُّ ﷺ بالعذاب قالوا: فَمَتَى العذابُ؟! تَكذِيبـاً لـهُ، فقَـالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ ؛ قوْلُهُ تعَـالَى: ﴿ أَفَـرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ ؛ معناهُ أفرأيتَ يا مُحَمَّـدُ إنْ أمـهَلْنا كفارَ مكَّـة سـنينَ، يريـدُ مُنْـذُ خلَـقَ اللهُ الدُّنيـا إلى أن تنقضِـي، وَقِيْــلَ: مــدَّةَ أعمَــارهم، ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ ؛ من العــذاب، ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ ؛ بهِ في تلك السِّنين.

والمعنى: وإنْ طَالَ تَمتُّعُهم بنعيمِ الدُّنيا، فإذا أتاهُم العذابُ لَم يُغْنِ طُولُ التمتُّعِ عنهم شيئاً، يكون كأنَّهم لَم يكونوا في نَعِيْمٍ قَطْ، وهذه موعظةٌ ما أبْلَغَـهَا ! يُحكـى أنَّ عمرَ بن عبدالعزيز كان إذا قَعَدَ للقضاءِ كلَّ يوم ابتدأ بهذه الآيةِ، فوَعَظَ بها نفسَهُ، ثُـم ذكرَ هذه الأبيات:

تُسَـــرُّ بمَـــا يَفْنَـــى وَتَفْـرَحُ بـــالْمُنَى ... كَمَـا اغْـتَرَّ بـاللَّذاتِ فِـي النَّـوْمِ حَـالِمُ

حَيَـــاتُكَ يَـــا مَغْـــرُورُ سَـــهْوٌ وَغفْلَـــةٌ ... وَلَيْلُـــكَ نَـــوْمٌ وَالــرَّدَى لَـــكَ لاَزمُ

قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ ؛ أي مـا أهلَكْنا من قريةٍ بالعذاب في الدُّنيا إلاّ لَها رُسُلاً ينذرونـهم بـالعذاب أنـهُ نـازلٌ بـهم. والمعنـى: إلاَّ لَـهَا مُنـذِرونَ قبـلَ الْـهلاكِ، ونظـيرهُ ﴿وَمَـا كُنَّـا مُعَذِّبِـينَ حَتَّـى نَبْعَـثَ رَسُولاً﴾[٢].

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٥.

(٢) الاسراء / ١٥ .

وقولُهُ تعالى: ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ ؛ أي موعظةً وتذكيراً، ﴿ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٠٩) ﴾ ؛ فنُعذِّبَ من غيرِ ذنبٍ ونُعاقِبَ من غيرِ تذكيرٍ وإنذار. ويجوزُ أن يكون (ذِكْرَى) في موضعِ نصبٍ على معنى: إلاَّ لَها مذكِّرُونَ ذِكْرَى، ويجوزُ أن يكون في موضعِ نصبٍ رُفع على معنَى: ذلكَ ذِكْرَى؛ أي ذلكَ موعظةٌ لَهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) ﴾ ؛ قالَ مقاتلُ: (قَالَتْ قُرَيْشُ: إنَّمَا يَجِيءُ بالْقُرْآنِ الشَّيَاطِيْنُ، فَتُلْقِيهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِيْنُ) أي بالقُرْآن)[1] (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ) أن يَنْزِلُوا بِهِ (وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) أي لا يقدِرُون على ذلكَ، ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾ ؛ أي أنَّهم عن استماعِ القُرْآنِ لَمَحجُوبونَ؛ لأنَّهم يُرجَمون بالنُّجوم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ ؛ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ به غيرُه، والمعنى: كلُّ مَن دعَا معَ اللهِ إلَهاً آخرَ كان معَ الْمُعذبين. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) ﴾ ؛ أي رَهْطَكَ الأدنَين وهم بنُو هاشمٍ وبنو المطَّلب خاصَّة.

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ نادَى رسولُ اللهِ ﷺ [يَا آلَ غَالِبٍ؛ يَا آلَ لُؤَيِّ بْنِ كَعْبٍ؛ يَا آلَ مُرَّةَ؛ يَا آلَ كِلاَبٍ؛ يَا آلَ قُصَيٍّ؛ يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ] فَأتَوهُ وَقَالُوا: مَا تُرِيْدُ ؟! قَالَ: [أرَأيْتُمْ لَوْ حَدَّثْتُكُمْ أنَّ جَيْشاً ظَلَّكُمْ؛ أكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي ؟] قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:[فَإنِّي نَذِيْرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيْدٍ، وَإنِّي لاَ أمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إلاَّ أنْ تَقُولُوا: لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ].

ثُمَّ قَالَ: [يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ؛ فَإنِّي لاَ أغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ؛ لاَ أغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ لاَ أغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ؛ لاَ أغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً، يَا فَاطِمَةَ

---

(١) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٥.

بنْتَ مُحَمَّدٍ؛ لاَ أغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً][(١)].

وعن ابنِ عبَّاس قال: (لَمَّا نزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾؛ صَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: [يَا صَبَاحَاهُ!] فَاجْتَمَعَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ؛ فَقَالُوا: مَا لَكَ ؟! قَالَ: [أرَأيْتُمْ إنْ أخْبَرْتُكُمْ أنَّ الْعَدُوَّ مُصْبحُكُمْ أوْ مُمَسِّيكُمْ؛ أمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟] قَالُوا: بَلَى، قَالَ: [فَإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيْدٍ].

قَالَ أبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ! ألِهَذا دَعَوْتَنَا جَمِيْعاً؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿تَبَّتْ يَدَا أبِي لَهَبٍ﴾ إلى آخِرِها)[(٢)]. ومعنى الآية: عَرِّفْ قرابتَكَ يا مُحَمَّدُ أنَّكَ لا تُغنِي عنهم من اللهِ شيئاً إنْ عَصَوْهُ. والفائدةُ في تخصيص الأقربينَ بالإنذار: أنَّهم كانوا أقربَ إليه، كما قالَ تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ﴾[(٣)] وكما أنَّ الأوْلَى بالإنسانِ في البرِّ والصِّلَةِ أن يبدأ بالأقرب فالأقرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾؛ أي أكْرِمْ مَن اتَّبعَكَ من المؤمنينَ وألِنْ لَهم القولَ، وأظْهِرْ لهم الْمَحبَّةَ والكرامة. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾؛ أي إنْ عصاكَ الأقربونَ مِن عشيرتِكَ؛ فقلْ: إنِّي بريءٌ مِمَّا تعملونَ من الكُفْرِ وعبادةِ غيرِ اللهِ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾؛ أي فوِّضْ أمرَكَ إليه، وثِقْ به فإنه العَزِيْزُ في نعمتهِ، الرَّحِيْمُ بهم حين لَم يُعَجِّلْ لَهم العقوبةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ أي توكَّلْ على العَزيزِ؛ أي الغالب القادر على أن يكفيكَ كَيْدَ أعدائِكَ، الرَّحِيْم بالمؤمنين خاصَّةً، فكيفَ لا تُفوِّضُ أمرَكَ إليه وهو الذي يراكَ حين تقومُ إلى الصَّلاةِ،

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الوصايا: الحديث (٢٧٥٣). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٣٥١/ ٢٠٦).

(٢) رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: الحديث (٤٩٧١). ومسلم في الصحيح: كتاب الإيمان: الحديث (٣٥٥/ ٢٠٨).

(٣) التوبة / ١٢٣ .

ويرى قِيَامَكَ وركوعَكَ وسجودكَ وتضرُّعَك في المصلِّين مع الجماعةِ. والمعنى: أنه يراكَ إذا صلَّيتَ وحدكَ، ويراكَ إذا صَلَّيْتَ في الجماعةِ رَاكِعاً وسَاجِداً وقائماً، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ ؛ أي السَّمِيْعُ لقولِك، الْعَلِيْمُ بما في قَلْبك.

قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾ ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ لأهلِ مكَّةَ: هل أخبرُكم على مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِيْنُ ؟ وهو راجعٌ إلى قوله تعالى ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِيْنُ﴾. ثُم أخبرَ فقال: ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ ؛ أي على كلِّ كَذابٍ فَاجِرٍ. قال قتادةُ: (هُمُ الْكَهَنَةُ)[1] مِثْلُ مُسَيْلَمَةَ وَغَيْرِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ ؛ معناهُ: أنَّ الشياطينَ يَسْتَرِقُونَ السَّمعَ من كلامِ الملائكةِ، ثُم يُضِيْفُونَ الكَذِبَ إلى ذلكَ، فيُلْقُونَهُ إلى الكَهَنَةِ، وقولهُ تعالى (وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) يعنِي لأنَّهم يَخْلُطُونَ كَذِباً كثيراً، وهذا كان قَبْلَ الوَحْيِ إلى النبيِّ ﷺ، وبَعْدَ ذلكَ فمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهَاباً رَصَداً.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ ؛ قال ابنُ عبَّاس: (يُرِيْدُ شِعْرَ الْمُشْرِكِيْنَ)[2]. وذكرَ مقاتلُ أسماءَهم فقَالَ: (مِنْهُمْ عَبْدُاللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ، وَأَبُو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب، وَهُبَيْرَةُ بْنُ وَهَبٍ الْمَخْزُومِيُّ، وَشَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ الْجُمَحِيُّ، وَأَبُو عَزَّةَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِاللهِ، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ، وَأُمَيَّةُ ابْنُ الصَّلْتِ الثَّقَفِيُّ، تكَلَّمُوا بالْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ، وَقَالُوا: نَحْنُ نَقُولُ مِثْلَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ! وَاجْتَمَعَ إلَيْهِمْ غُوَاةٌ مِنْ قَوْمِهِمْ يَسْتَمِعُونَ أَشْعَارَهُمْ، وَيَرْوُونَ عَنْهُمْ حَتَّى يَهْجُونَ النَّبِيَّ ﷺ وأَصْحَابَهُ)[3]. فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ) يعني الذينَ يَرْوُونَ هِجَاءَ المسلمينَ وسَبَّ الصَّحابةِ.

وقال قتادةُ ومجاهد: (الْغَاوُونَ هُمُ الشَّيَاطِيْنُ) كما قال تعالى حَاكِياً عنهم ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾[4]. وَقِيْلَ: الغَاوُونَ كُفَّارُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ. وفِي الحديثِ:

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٣٩٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٠٤١).
(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان: الأثر (٢٠٤٠٢). وابن أبي حاتم في التفسير: الأثر (١٦٠٤٨).
(٣) قاله مقاتل في التفسير: ج ٢ ص٤٦٧.
(٤) الصافات / ٣٢ .

[لَئِنْ مُلِئ جَوْفُ أحَدِكُمْ صَدِيْداً حَتَّى يَصِيْر جَارِياً أحَبُّ إلَيَّ أنْ يَمْتَلِئ شِعْراً][1] وأراد به الشِّعرَ المذمومَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ ؛ أي في كلِّ فَنٍّ من الكَذِب يتكلَّمُون، وفي كُلِّ لَغْوٍ يخوضُونَ، يَمْدَحُونَ بباطلٍ ويستمِعُون لباطلٍ، فالوَادِي مَثَلٌ لِفُنُونِ الكلامِ، وهَيَمَانُهُمْ فيهِ: قولُهم على الجميلِ بما يقولون مِن لَغْوٍ وباطلٍ وَغُلُوٍّ في مَدْحٍ أو ذمٍّ. وقولُهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ ؛ أي يقولون فَعَلْنَا وَفَعَلْنَا وَهُمْ كَذبَةٌ، ويَصِفُون أنفسَهم بما ليس فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ؛ استثناءُ الشُّعراء المسلمينَ حَسَّانُ بْنُ ثَابتٍ، وعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الذين مَدَحُوا رسولَ اللهِ ﷺ، كَانَ يَقُولُ لِحَسَّان: [اُهْجُهُمْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ][2]. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ ؛ يعني أنَّهم كانوا يذكُرون اللهَ كثيراً في أشْعَارهم، ويناضِلون عن النبيِّ ﷺ بألسِنتهم وأيديهم من بَعْدِ هجائِهم الكفارَ. والانتصارُ بالشِّعر جائزٌ في الشَّريعة بما يجوزُ ذِكْرُهُ فيها، لِمَا قَالَ تعالى في آيةٍ أخرى ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إلا مَنْ ظُلِمَ﴾[3].

ويُروَى: أنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا تَقُولُ فِي الشِّعْرِ، فَقَالَ:[إنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ؛ لَكَأنَّمَا يَنْضَحُونَهُمْ بالنَّبْلِ][4]. وقال ﷺ: [إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً][5].

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: كتاب الشعر: الحديث (٩/ ٢٢٥٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ج ٦ ص٧٢. والترمذي في الجامع: أبواب الآداب: الحديث (٢٨٤٦). وأبو داود في السنن: كتاب الآداب: الحديث (٥٠١٥).

(٣) النساء / ١٤٨ .

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ج ٨ ص١٢٣ بلفظ قريب، وقال: (رواه أحمد بأسانيد، ورجال أحدهما رجال الصحيح).

(٥) رواه البخاري في الصحيح: كتاب الآداب: الحديث (٦١٤٥).

وقالت عائشةُ: (الشِّعْرُ كَلاَمٌ، فَمِنْهُ حَسَنٌ وَمِنْهُ قَبِيْحٌ، فَخُذُوا الْحَسَنَ وَدَعُوا الْقَبِيْحَ)[١]. وعن الشعبيِّ قال: (كَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَقُولُ الشِّعْرَ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ الشِّعْرَ، وَكَانَ عَلِيٌّ أَشْعَرَ الثَّلاَثَةِ)[٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَذكَرُوا اللهَ كَثِيراً) لَم يَشْغَلْهُمُ الشِّعْرُ عن ذِكْرِ اللهِ، ولَم يجعلُوا الشِّعْرَ هَمَّهُمْ، وانتَصَرُوا من بعد ما ظلموا أي انتصروا من المشركين لأنهم بدأوا بالهجاء.

ثُم أوعدَ شعراءَ المشركين فقال: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾؛ أي سَيَعْلَمُ الَّذِيْنَ أشْرَكُوا وَهَجَوُا النَّبِيَّ ﷺ والمؤمنينَ أيَّ مُنقلبٍ يَنقَلِبُونَ، قال ابنُ عبَّاس: (إلَى جَهَنَّمَ يَخْلُدُونَ فِيْهَا). والمعنى: سيعلَمُون إلى أينَ مصيرُهم وهو نارُ جهنَّمَ، فعلى هذا يكونُ قولُهُ (أيَّ مُنْقَلَبٍ) منصُوباً بدلاً من المصدر، ولا يجوزُ أن يكون منصوباً بقولهِ (سَيَعْلَمُ) لأن (أيَّ) لا يعملُ فيه ما قَبْلَهُ؛ لأنه مِن حروفِ الاستفهامِ، وموضعُ حروف الاستفهامِ صدرُ الكلامِ، فكان انتصابُ قولهِ (أيَّ مُنْقَلَبٍ) على معنى المصدر، أو بقولهِ (يَنْقَلِبُونَ).

وعن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الشُّعَرَاءِ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بنُوحٍ وَكَذبَ بِهِ، وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَإبْرَاهِيْمَ وَلُوطٍ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَمُوسَى وَعِيْسَى، وَبِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بمُحَمَّدٍ ﷺ][٣].

آخر تفسير سورة (**الشعراء**) والحمد لله رب العالمين

آخر المجلد الرابع

من التفسير الكبير للإمام الطبراني

---

(١) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥١.

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل: ص٩٥١.

(٣) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان: ج ٧ ص١٥٥، عن أبي بن كعب بإسناد ضعيف. وذكره الزمخشري في الكشاف: ج ٣ ص٣٣٤.

فهرس المجلد الرابع

سورة الرعد	
الآيات	الصفحة
١-٤٣	٥
سورة إبراهيم	
الآيات	الصفحة
١-٥٢	٢٥
سورة الحجر	
الآيات	الصفحة
١-٩٩	٤٠
سورة النحل	
الآيات	الصفحة
١-٧١	٥٧
٧٢-١٢٨	٧٥
سورة الإسراء	
الآيات	الصفحة
١-٥٦	٩١
٥٧-١١١	١١٩
سورة الكهف	
الآيات	الصفحة
١-٤٥	١٥٠
٤٦-١١٠	١٧٤
سورة مريم	
الآيات	الصفحة
١-٥٠	١٩٨
٥١-٩٨	٢١٤

سورة طه

الآيات	الصفحة
١-٦٩	٢٢٩
٧٠-١٣٥	٢٥٠

سورة الأنبياء

الآيات	الصفحة
١-٧٨	٢٧٣
٧٩-١١٢	٢٩٩

سورة الحج

الآيات	الصفحة
١-٣٦	٣٢٢
٣٧-٧٨	٣٤٣

سورة المؤمنون

الآيات	الصفحة
١-٤٩	٣٦٠
٥٠-١١٨	٣٧٥

سورة النور

الآيات	الصفحة
١-٢٥	٣٩٢
٢٦-٦٤	٤١٧

سورة الفرقان

الآيات	الصفحة
١-٧٧	٤٥٥

سورة الشعراء

الآيات	الصفحة
١-٩٥	٤٨٥
٩٦-٢٢٧	٥٠٠